

منصف المرزوقي

الرحلة
مذكرات آدمي

دار منوال للنشر

2023

صدر للمؤلف

لكتابات الطبية

- المدخل إلى الطب المنمنج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي -1995-
- دليل المرئي في التنقيف الصحي: الدار الجزائرية للنشر 1986
- سلسلة كتب التنقيف الصحي -الدار العربية-تونس 1984
- تاريخ الطب للأطفال -دار الألف للنشر-تونس 1982

لكتابات السياسية

- لماذا استعطا الأقدام العربية أرض المرزوخ: دار الرأي تونس 1982
- دوع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي تونس سنة 1986
- الاستقلال الثاني: دار الكونز الأدبية: بيروت 1996
- هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهلي دمشق 2001
- من الخراب إلى التلمسيس -المركز المغربي -لندن 2003
- عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهلي دمشق 2004
- حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهلي دمشق -2006
- إنها الثورة يا مولاي - دار المتوسطة -تونس 2011
- اختراع الديمقراطية - التجربة التونسية-شركة المطبوعات للنشر ببيروت 2014
- ننتصر أو ننتصر -من أجل الربيع العربي-الدار المتوسطة -تونس 2014
- المراجعات والبدائل: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية -الدوحة 2022

لكتابات الفكرية و الأدبية

- في سجن العقل -قواس -تونس 1990-
- حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة -مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
- الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان -دمشق 2003
- الطبيب والموت-الدار التونسية للنشر. تونس 1983
- الرحلة-طبيعة دار الأهلي -دمشق 2002- 2010، طبعة دار المتوسطة تونس سنة 2015
- شعراء بلا حدود: دار منوال، تونس 2018
- L'arrache corps : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Ed Alternatives. Paris 1979, Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- Arabes, si vous parliez - Ed, lieu commun. Paris 1987
- La mort appri voisée - Ed du méridien. Montréal 1990
- Le mal arabe : Ed le Harmattan - Paris 2004
- Dictateurs en Sursis : Ed L'atelier - Paris 2009
- L'invention d'une démocratie - Ed media plus - Paris 2013
- Qu'est-ce que le pouvoir ? Ed paradigmes - Tunis 2019

الموقع على الانترنت www.moncefmarzooki.com

إلى حرّة، هناء، هالة، أمنة
وكل الأطفال المشاعين

شكر وامتنان

جزيل لشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.
جزيل لشكر أيضا لكل الذين أعاونني على الإصلاحات التي لم تتوقف لحظة على امتداد
قرابة عقدين وأخص بالذكر، إسلامو ولد دلاهي ولد المعلوم.
أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر للقارئ الذي شرّفني بقراءة هذا العمل وكلي أمل أن يكون
قد وجد فيه بعضاً مما نفتح كلنا من أجله الكتب.

الفهرس

تقديم كتاب الرحلة

الكتاب الأول: الإحرام والوصول

الكتاب الثاني: العالم

الكتاب الثالث: الطريق

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: الملحمة

الكتاب السادس: الغريب

الكتاب السابع: الرؤيا

تقديم

خاصية هذا النص أنه متواصل الكتابة منذ أكثر من ربع قرن. كنتُ أعتنم حتى وأنا في الحكم، كل الفرص بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزميتين سياسيتين للاختلاء به ولا مُعين إلا القهوة وموسيقى باخ. أسباب هذه الكتابة التي لا تتوقف؟

هناك طبع صاحبكم من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشرا متزايد نفاد الصبر حتى والكتاب في المطبعة.

لا شك ان سهولة الإضافة والحذف وإعادة تركيب الفصول التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهل ومغر لم يكن في متناول طه حسين وهو يملئ "الأيام" وليس للمستكتب إلا الورق والقلم والمحريرة.

وأبضا أن الحياة بتجاربيها المتلاحقة ما زالت متواصلة ومن ثم ضرورة مواكبة النص لموضوعه، مما يعني أن "الرحلة" لن تكتسب شكلها النهائي إلا عندما أضغ على الموقع آخر مراجعة عشية الرحيل النهائي.

نتيجة الانقلاب الشعبي في " مهد الربيع العربي " صيف 2021 والحكم عليّ بأربع سنوات سجن غيابي، ها انا من جديد في المنفى ولي كل الوقت لمراجعة الطباعات السابقة التي صدرت ورقيا سنة 2002 و2010 ثم سنة 2014 والتي تغيرت لا يحصى من المرات في الصيغ الالكترونية منذ انطلاق المشروع صيف 1994.

في شهر جويلية خرجت من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محر وما من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طب سوسة التي كنت أدرّس فيها من بداية الثمانينيات والتي سيتمّ عزلي منها نهائيا سنة 2000.

قلت في نفسي ربّ ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة.

الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ مواضيع أرفهتني كثيرا وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.

المواضيع الطبية؟ بأية معطيات وقد تمّ في إطار التثكيل الممنهج من طرف النظام الاستبدادي حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت أراسه وأشرف فيه على أبحاث طلبتي ومساعدتي؟

لم يبق أمامي إلا كتابة ليست بحاجة لمعطيات وتُسبني لحظة هوم السياسة وتروّج عن النفس كربها: الرواية، تحديدا رواية من الخيال العلمي.

يقال " إذا عُرف السبب بطل العجب" والسبب في قضية الحل نهم قديم لهذا النوع من الأدب آدمته منذ المراهقة.

أول وأصعب إشكالية: أية عقدة لروايتي هذه؟

ماذا عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرّة العقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمرها البشر وانقرضوا؟

فكرة مبتنيتين استنفدت من قبل ما لا يحصى ولا يعدّ من صغار وكبار كتّاب الميدان. إذن لأجعل المستكشفين يسقطون على النصّ الذي سأترك ليعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وعن ظروف وأسباب انقراضها. تطوّر إيجابي لكنه غير كافٍ لرواية تمثني بذكرها الركبان.

ماذا لو جعلت من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرت الفضاء تجار آثار مهنتهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجرّاتهم كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشترون الآثار المهرية لتزيين حدائقهم الفاخرة؟ لأجعلهم يجدون في نصّي كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي عبّرت، ولم لا لبعثي معه حيا أرزق من جديد.

هل يمكن لأحد المزايدة عليّ وقد تجاوزت بهذه الفكرة كل الخطوط الحمر للعلم والدين؟ المشكلة من البداية أن هؤلاء التجار-العلماء بأمنّ الحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقّها حتى لا أكون سببا في خلق عالم ممسوخ يشقى فيه البشر أكثر مما تعذبوا في النموذج الأصلي.

لكن، لكي تكون لمعطيّتي قيمة تسمح بنجاح المشروع، يجب أن أكون أنا نفسي فاهما طبيعته وقوانين العالم المراد بعثه والحال أنني كلما زدت بها علما إلا وداهمني النوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.

ثم من أين لي جمع المعطيات الضرورية وأغلبها مبعثرة في فوضى رهيبية داخل ذاكرة مثل مكتبة تكثّست فيها على مرّ السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبدا لتنظيمها؟

شيئا فشيئا تراجع فكرة كتابة رواية من الخيال العلمي ليتمّ التخلي عنها نهائيا في هذه الطبيعة والطموح ينحصر في تخصص ما تراكم داخل هذه الذاكرة من أحداث شكّلت قصة حياتي لعل شيئا من المعنى ينبثق منها ليفسّر قل ليبرّح سبب وجودي.

النصّ إذن سيرة ذاتية؟

من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدة من تجربتي الشخصية وأن مشاعر الراوي وأفكاره هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري؟ لكن السيرة الذاتية تدّعي دوما أنها تروي الأحداث كما حصلت فعلا وهو ما لا أدعيه البتّة.

أذكر حقّا أنني كنت عاكفا على لوحى في الكُتّاب وأنا لم أتجاوز الخمسة، أعبت برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأت أتعلمها فصرخ في وجهي المؤيّب بشدّة لألتزم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن، هل كنت فعلا أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم أنني كنت ألهو ككل طفل في ذلك العمر؟

أذكر كذلك أنني كنت أَلعب لعبة المعلم مع والدتي القنفا الحروف التي اتعلمها في الكتاب. لكن، هل كان الأمر للهو أم بطلب منها لتتعلم قراءة المصحف لأنها لم تدخل يوما مدرسة؟

أذكر جيدا أنها قالت لي يوما ضاحكة إنني كنت أصنف متخلفا ذهنيا عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف صَعب بصري وأن والدي غضب غضبا شديدا لما علم بالقصة. لكن هل صحيح أن المعلم نصح والدتي بأخذني لتعلم رعي الخرفان عند أخوالي أورعي البعير عند أعملي أم أن خيالي أعاد صياغة القصة؟

لم لا، فالذاكرة ليست خزانة تتراكم فيها ملفات يجدها الزمان ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يصل فيها الحاضر ملفات الماضي، يُعيد تكوينها وترتيبها وإضافة معان جديدة عليها. لهذا ليس للذات تاريخ وإنما تواريخ تتشكل من تضارب الملفات، ومما أضيفت إليها وحذف منها عمدا أو بلا وعي.

أليست هذه حال كل السير الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلياء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حياتنا، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدر من الواقع ومن الخيال؟

من تقاليد كتابات السيرة الذاتية أيضا تحديد أماكن الأحداث التي يرويها الكاتب، خاصة احترام تسلسلها الزمني.

كل هذا غائب في نص هدفه التمتع في مراحل مفصلية من حياة الراوي لا رواية لسلسلة أحداث تتطلق من الطغولة إلى الشيخوخة. أضف لكل هذا أنه لا يعرف في أي سيرة ذاتية وصف الراوي كيف كانت غرغرة الموت ولا ما الذي حدث له عند عبور الخط الفاصل بين الدنيا والآخرة.

النص إذن ليس سيرة ذاتية بالمعنى المتعارف عليه، لكن هل فيه ما يجعل منه رواية أدبية؟

حقا توجد فيه جن العناصر المطلوبة في كل رواية أكانت اسطورة مقدسة أو قصة بوليسية.

كما هو الأمر في كل رواية، بطل الرواية مزيج من الأنا ومن شخص خيالي. لرسم صور أبطال القصة عرفت كما يفعل كل الروائيين من بعض من عرفث وعاشرث من البشر، لكنني عرفت أيضا من خيالي ومن شخصيات أبطال كبرى الروايات العربية والعالمية التي طبعنتني بطابع لا يمحي.

كما هو الأمر في أغلب الروايات هناك بعد الوصف المطول لكل ما عانى البطل من الألم وعرف من مصاعب خاتمة بل وسعيدة أيضا منها تواصل رحلته في كم من عوالم مبهمة.

يقي أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف ما ستقرأ رواية.

القاسم المشترك بين هذه الأخيرة والسيرة الذاتية أن الراوي يحكي في الصنف الأول قصة حياته وفي الصنف الثاني قصة شخص ثانٍ، ولو أنه عادة هو لا غير تحت قناع آخر... وأيضا أنه من النادر أن يكون هاجس الكاتب المسائل الفلسفية الكبرى التي سماها دستوفسكي الأسئلة اللعينة.

إنها إشكالياتٌ إما غائبة تماما أو يقع التعرض إليها عرضا وتلميحا. كيف لا وهي في التقسيم المصطنع الذي اختلقناه للتفريق بين ميادين الفكر من مضمونات كتب الفلسفة (الموقوفة ككتابة وقراءة على النخب) أو من مضمونات الدين (الشكل الأدبي والشعبي لهذه الفلسفة). لذلك لا مجال في السيرة الذاتية والرواية للتنظير الفلسفي إلا بصفة عرضية وبتقدير شديد.

حتى دستوفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية في كبرى أعماله الأدبية كان يحترم هذه القاعدة.

العكس تماما هو ما يفعله أو جانسبية إلى البعض ما يرتكبه النص.

هو من البداية إلى النهاية تفكير في هذه الأسئلة التي أخرجها إيليا أبو ماضي في طلامسه الشهيرة . بل ويمكن لناقد أن يذهب إلى أبعد من هذا وأن يقرر -غير بعيد عن الحقيقة- أن النص بمجملة تأمل في هذه الطلامس وكل الأحداث التي يرويها الراوي سواء استمدتها من ذاكرته أو من خياله مجرد أمثلة وحالات للتليل على آرائه بخصوصها.

"الرحلة" إذن أطروحة فلسفية؟

نعم بما أن الأسئلة التي ارهقت دستوفسكي وأبو ماضي وقبلهما وبعدهما كم من شاعر

وأديب لا تغيب لحظة.

ومع هذا النص ليس أطروحة فلسفية لسببين .

شكلا ، هو حافظ في جزء منه على روح السيرة الذاتية وفي جزء آخر على بعض مكونات الرواية وكل هذا غير وارد في النصوص الفلسفية "الجنتية".

ختاما ما هذا النص الذي تتواجد داخله بنسب متفاوتة مواد السيرة الذاتية والرواية

والأطروحة الفلسفية؟

ما هذا النص الذي اختار أن يجمع بين سفاسف الأمور التي نعيشها في حياتنا العادية

وبين كبرى القضايا التي تشكل هاجس البشر مذ وجدوا ؟

ما هذا النص الذي يرفض وضع الحواجز بين الواقع والخيال ، بين الذاتي والموضوعي ،

بين الجد والهزل ، بين بالغ الخصوصية والقوانين العامة التي تسير الكون؟

لنقل أن الكتابة هي التي فرضت شكله الهجين هذا والكاتب يحاول لجمع في نص واحد

ما لا يجمع أي تفحص أهم مراحل حياته وتخييل نهايتها والرد على السؤال الوحيد الذي

يهمه: هل حققت رحلتي في هذا العالم مراميتها وهل تستأهل حقاً ما كلفت من تضحيات

ومعاناة أم كانت ولا تزال كما يقول المسعدي "عبث أشتر ما فيه جهله أنه عبث"؟

أية أهمية لتصنيف الناس في هذه الخانة الأكاديمية أو تلك ؟ أليست متعة الكتابة بالنسبة إلى الكاتب أهم شيء و متعة القراءة بالنسبة إلى القارئ كل المطلوب؟
ما أرحه أن يجد القارئ بعض المتعة في قراءة نص من طموحه أيضا أن يروي في التفاصيل والمتغيرات رحلة ذات وفي العموميات والثوابت رحلة كل ذات.

**

الكتاب الأول الإحرام والوصول

جَنُثْ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَكَيْفَ أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ
وَسَأَلْتُهُ مَاثِبِيًا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَتَيْتُ
كَيْفَ جَنُثْ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
أَسْتُ أَدْرِي

إيليا أبو ماضي

مقدمة الكتاب الأول

"اللهم أتم هذه الرحلة على خير."

همس المريض بالجملة ساهماً، ثم تنهد مواصلاً ارتداء أسماه على مهل وقد انتهى الفحص. كان عجوزاً قلب قوسين أو أدنى من الموت ولم يكن لي أول له أدنى أمل في شفاء.

اللهم أتم هذه الرحلة على خير !

أذكر أنني توقفت عن كتابة الوصفة، أنني نظرت إليه بانتباه متجدد، أن أبيات للمعزي تدافعت من أعماق الذاكرة منها قوله:

غدوت مع الأحياء مذحان مولدي إلى اليوم ما تنفك في دأب سفرا
وقوله:

أنا باليلبي والحوادث أخير سفر يجد بنا وجسر يعبر
وقوله

وهوّن ما تلقى من اليوس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر
بنو سفر !

ألم يقل ابن عربي هو أيضا في نفس المعنى ومستعملا نفس الصورة "الواجب على كل عاقل أن يعلم أن السفر في الحياة الدنيا ميني على المشقة والمحن والبلايا وركوب الأخطار والأهوال العظام"

طبعاً لم يكن المريض من النوع الذي قرأ لرهين المحبسين أو للشيخ الأكبر وإنما كانت صلاته صدى لصورة بالغة القدم، كثيرة التكرار تشارك فيها الأميون وكبار المفكرين والشعراء. ألم يقل عمر الخيام :

"هيا لندع غم يا صاح
ولنغتمم العمر ببشر وهناء

إن نمض غدا فنحن في رحلتنا

والعائش بالألوف في الدرب سواء"

الحياة رحلة في هذا العالم؟ !

لم لا؟ ألا ننزل العالم من بين فخذي امرأة كمنسلفريخرج من أغرب السفن التي تحفل بها قصص الخيال العلمي؟ ألا نعيه زحفا ومشيا وركضا وركوبا على ظهور نواب من لحم أو من حديد لنغادره يوما محمولين على مركبة اسمها النعش؟ ألا نقضي العمر في استكشاف ما يفيض به من خوارق ومعجزات كالسلاح النهم الذي لا يتوقف عن الركض من بلد غريب إلى بلد أغرب؟

نعم... ومع هذا. ثمة في هذه الصورة الشائعة المغربية شيء لا يستسيغه فكري.

للمرتحلين في الرحلة بمفهوم ابن بطوطة همّ أساسي: أن يقودهم الطريق إلى أين يريدون الوصول وهموم ثانوية مثل الحذر من رفاق السفر ومن قطاع الطريق أو عدم المرور أمام معلم مثير دون الانتباه إليه . هم غير مطالبون بالتوقف كل كيلومتر لزرع ما تحتاجهم أيدانهم من خضروات وفواكه وانتظار موسم الحصاد لمواصله السفر وقد تزودوا بما يكفي من الطاقة للمرحلة الآتية. لا حاجة لهم أيضا لحفر الآبار على طول الطريق حتى لا يموتوا عطشا أو للانطلاق دوريا وراء الغزال الشارد بحثا عن صيد والجوع يعتصر امعاءهم.

إنه وضع أغلب المرتحلين بمفهوم المعري الذين يستهلك ضمان الأكل والشرب والمأوى والأمن جل زمن رحلتهم.

اعتراض آخر: في الرحلة بمفهومها العادي نحن نتحرك دوما على الطريق بهدف واضح هو الوصول إلى هذا المكان أو ذاك . أما في الرحلة كصورة للحياة فأغلب تحركاتنا كشرد ورقة خريف تطوح بها الريح في كل اتجاه حتى وأن كان من بيننا من يؤمن أن ورقة الخريف هذه هي التي ترسم مسار الريح.

أضف لكل هذا أن رحلة الحياة أساسا تجارب حسية شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه لا مشيا على طريق يربط بين نقطة وصول اسمها المهد ونقطة نهاية اسمها اللحد. هي أيضا استكشاف الذات لذاتها، وهذه ليست سفرة في مكان وزمان وإنما غوص بالفكر والخيال في طبقات الذاكرة التي يطفو الأنا الواعي على سطحها. أخيرا وليس أخرا ، حقا هذا عالم فيه ما يُستكشف تنقلا بالأقدام، لكن جلّ استكشافي له كان لقم الفن والفكر والموسيقى والأداة الذهن لا غير.

ما المتبقي إذن من شرعية استعمال صورة كهذه؟

لنقل إنها على نواقصها أفضل من منقساتها، خاصة تلك التي تشبّه الحياة بمحنة وامتحان.

أليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصوّر العالم ساحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب الظروف وأخطر ها بدلا من تصوّره منفي وجودنا فيه محنة وامتحان وحتى عقوبة على جرم لم نقترفه إلا في خيال المرضى والمهوسين ؟

وفي كل الحالات من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل هذا العالم والأميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحار وفي أعماقها، ينزعونه في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أي من العصور السابقة وذلك لأكثر من سبب. أول حلقز خوفهم أن يؤكلوا أو الطمع في أكل لم يوفّره لهم عين المكان.

هكذا تدافع الأوائل آلاف المنين أفرادا وشعوبا في الأرض ذات العرض والطول جريا وراء طريدة أو هربا من صياد. إنه واقع لم يتغير كثيرا، وكل ما تغير أشكال الصيادين والطرائد.

للرحيل وازع آخر هو الحجّ لأماكن اصطفاها الأعميون وهي الأماكن الوحيدة المنزوعة
السلاح على الأقل طيلة أداء الطقوس.
ثمة أيضا الفضول.

تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الرّواد المبعثرة على سطح الأرض: يقال
إن هناك وراء هذا المكان جبال تلامس قممها لسحاب! يقال إن هناك وراء هذه الجبال
بحر لا يعرف له ضفاف! يقال إن هناك في قارة أخرى غابات لا تدخلها أشعة الشمس!
يقال إن هناك داخل هذه الغابت الخائفة كانتات أغرب من كل ما يندسج الخيال!
يقال إن هناك على ضفاف نهر أبلأه الزمان جبل من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف
أية إلهة علمتهم صنع الجبال! يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتد آلاف
الكيلومترات بناه قوم لا يضاھيهم بشر في التوحش والتحصّر! يقال إن هناك وراء هذه
الصحاري أو تلك بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب!
لا غرابة أن اقضّي العمر في الحلّ والترحال ولنس الأسبلب القاهرة.
هكذا تدافعت مع المتدافعين مستكشفا، طالب علم، سائحا، حاجا، لاجئا، أشدّ الرحال إلى
كلّ فج عميق اسمع عنه أو تدفّعي إليه الظروف القاهرة... ونصيحة الشاعر دوما في
الوجدان:

سفر تجد عوضا عن تقارقه واتعب فإن لنذ العيش في التعب (لشافعي)
إنّي رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت في الجو دائمة لملها الناس من عرب ومن عجم
والأسد لولا فراق الغاب ما اقتربت والنهم لولا فراق القوس لم يصب
والتنير كالترب ملقى في معانده والعود في أرضه نوع من الحطب
تسلّم يوما أنك مهما سافرت ومهما تعبت فلن تكفيك حياة واحدة لاستكشاف ما يحفل به
العالم من روائع.

هنا نتقّم القراءة كحلّ لشعور الغين وكبديل لعجزنا أمام اتساع المكان وضيق الزمان
الذي خصص لنا لاستكشافه. أليست بنبلا عن السفرات التي لم يمكنا حسن الطالع التمتع
بها؟

داخل الملفات التي راكمتها في الذاكرة هاته القراءة كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغامر
امتطى مطهم النصوص.

هكذا ارتحلت مع بحارة حتشبسوت نستكشف بلاد كوش وبونت، مع حنون نستكشف
الشواطئ الغربية لإفريقيا... مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميّما وجهه نحو
الشرق، مع ابن جببر إلى تلك المرفأ التنن على ساحل البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا
البيت الحرام، مع التاجر سليمان السيراقي البصري في رحلته إلى الصين، مع الشيخ
الأكبر والشريف الإدريسي والكناني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزري وابن

الخطيب وهم يتلمسون عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو الديار المقدسة، ومعهم اكتشفت معالم الطريق العظيم الذي حمل على مَرّ القرون أفواج الحجاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وحقائق الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب. ارتحلت أيضا مع منسا موسى من صحاري مالي إلى بيت الله الحرام أوزع الذهب وأبحث عن العلماء ، مع المجريطي إلى بغداد والبصرة أنقّب عن رسائل لخوان الصفا أعود بها أتمن غنيمة...مع ابن فضلان أتأمل معه مشدوها أراض بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف..مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد النوبة...مع ابن البيطار من مالقة إلى دمشق عبر القيروان متقبا في أسرار النبات...مع البيروني ابحث معه عبر ربوع الهند في معتقدات أمتيها المقبولة منها والمردولة...مع التجائي أقارن بين ما رآه من قابس وتوزر وتفزاوة وبين ما أعرف عن ربوع ذرعتها منذ باكر الطفولة.

ارتحلت مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان...مع ياو بحثا عن جزر هوتشيو الخمس...مع هوان-شن-تاي ركضا وراء جزيرة الحقيقة...مع شنغ-هي في سفرائه السبع نحو شواطئ الجنوب والغرب...

مع كولومب شعاري شعاره: أروع السفرت تلك لا تعرف إلى أين سنقودنا...مع فزيوشي وملجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقراصان فرانسيس دراك وجون سميث وكوك وبانكس وبوقفيل ولابروس وكل من حركهم الجشع للذهب والتوابل أو لدرة صفراء اسمها العنبر سَماها الأوائل نعمة الآلهة.

ارتحلت مع بحارة نانتيكوت في أبعد بعثات الصيد وأخطرها، نجري وراء الحوت المسكين، نخرجه داميا من الأمواج نقطع أطنانا من لحمه، نغلي شحمه في قدور شيطانية، نعود ببقاياها، نتقاسم أفقر الأرباح.

ارتحلت على متن "البيجل" اراقب ما يخطه بعصيبة رجل اسمه "داروين" ومع بيرى وماندوسن ونوبلي وشكلتون أستكشف معهم القطبين.

ارتحلت مع ماجرييت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس، هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات "البدائيين" والمتوحشين" ومعتقداتهم هي طبيعة الأوائل، النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تقسد بما نسميه الحضّر.

آخر رحلة لي بلوكالة كانت مع أعرب قافلة اخترقت الصحراء..قافلة محرمة على الرجال ليس فيها إلا النساء... نساء قبائل التيوه يتاجرن في الماعز والتمر والرسالة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منحت نساننا من تجهيز القوافل والضرب في الأرض ذات الطول والعرض...يا للخسارة، كم ضيّعنا من رحلات مثيرة والعالم لا يتجلى إلا عبر عيون الرجال.

تبقى القراءة رغم كل إمكاناتها خلًا منقوصا بل ومحتملة بجملة من السلبيات. حقا هي توفّر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي. حقا هي تفتح لنا ذوات من لا نعرف من الأدميين فنستكشفهم عبر نصوص الشعر والأدب والسّير الذاتية، لا نُنهم باستراق النظر من ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس. إبان هذا التجوال في الذات الأخرى، يمكننا التأكيد أيضا أننا نخلف عنها ولا نخلف كثيرا، فطمئن لكوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا منفذ لأحد، وأننا لسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر ضياعا من بقية البشر. لكن للقراءة نواقص لا ينع الإدمان في تجاوزها أهمها أنها لا تعوّض التجربة، والويل لمن يحاول أن يجعلها بديلا لها أو مهربا منها.

*

يواصل العالم سفرت بالجسد أو بالخيال تحديق بشساعته المرعبة وتعقيده الرهيب وأسراره التي تتوالد كخلايا السرطان من كل سرّ خيل لك فكّه. عندما أجلس وقد أصبح العمر على قاب قوسين أو أدنى من النهال لتخصص حصيلة كل بعثات استكشافه تأتيني كلمة واحدة يا للحصاد!

يا للوليمة والذات دوما منبهرة أمام لوحات للرسل الأعظم يقلدها منذ غابر الزمان أنبيغ الرسامين!

كم جلست خاشعا أمام قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من خلف السحاب، من لجة الظلام، يخفتي في خضم البحر، يخرج منه غير مبكّل... أمام هضاب متموجة من الصحاري الصفرة والبيضا... أملم أمواج متلاطمة توجت هامتها بالزبد... أمام نهر جبار يشقّ طريقه بحذر بين الأدغال والرمال... أمام بحيرة صافية تكشف الكائنات في جمالها الوديع لأجمل الصور... أمام سهول شاسعة ملتحة بالأبيض أيام وصلها مع الثلج أو بالخضرة المرصعة بكل ألوان الزهور أيام موعدها مع الربيع وبصفرة الذهب حين تأتيها حرارة الصيف بالشيق... أمام جبال متكبرة توجت قممها بالسحاب وبالثلج... أمام أدغال كثيفة تتصيب عرفا تحت سماء بلون الرماد... أمام بدر يرسم على صفحة البحر نهرا براقا موجه من ساطع النور... تحت سماء تتلألأ بجواهرها ليلا.

يا للوليمة والعالم رمل الفجر، عشب بلّكه قطر الندى، الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر!

يا للوليمة والعالم روائح الحبق والتعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسئل عن عطر النساء!

يا للوليمة والعالم طعم التين والتمر والزيتون، الخبز الساخن للجوع والماء الزلال للعطش!

يا للوليمة والعالم خريز ماء السواقي، صفيح الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعء، الرقيق للناي، نداء عشق حسون اعلى شجر التوت، ضحك النسوة والأطفال، غناء هامس لجدة تغزل، أذان الفجر بصوت رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيوم جديد!

كم شاهدت من كائنات عجيبة تزحف على البطن، تطير في السماء، تغوص في أعماق الماء، وكلها تتنافس في الطرافة والإعجاز!
لكن هل ثمة كائنات في هذا العالم أغرب واشدها خطرا من الأدميين!
كم عشت معهم من قصص عرّفتني بما فيهم من خير ومن شرّ وكم عايشت معهم من أحداث منها التي لا قيمة لها ومنها التي كانت نقطة تحول في تاريخ الجنس بأكمله!
كم انخرطت في معاركهم ومنها الفكرية حول طبيعة هذا العالم وهويتنا نحن بنو سفر!
يا للوليمة أمام ما كدست الأجيال من روائع الفلسفة والشعر والرسم والنحت والموسيقى وكلها تبحث في أسرار تنوّاري وراء الغاز يحار العقل في سبر أغوارها.
كل يوم جديد أمام هذه الطفرة من اللامتناهي تعقيدا ، اللامتناهي جمالا ، اللامتناهي غرابة والذات تصرخ صرخة الشيخ الأكبر “لم يزدني الورد إلا عطشا”.
كم من بحيرات نار ونور لم أصلها لأملأ العينين منها وهي تتلاطم في أشدق البراكين!
كم من أعاصير وصحاري وجبال وغابات وسهول لم يكحل جمالها عيني!
كم من كائنات مدهشة جانيبتها وجانبتني لا التفت إليها ولا هي أعارتني أدنى اهتمام!
كم من بشر مررت أمامهم لا أنتبه لوجودهم أصلا وهم كانوا الحلّ لأغلب المشاكل!
كم من رسائل رمانني بها العالم لم أفهم لها معنى!
ومع هذا... نعم ، يا للحصاد!

تأتيني في يوم من الأيام رغبة التدوين لكل هذا أي للرحلة بمفهوم المعزّي لا بمفهوم ابن بطوطة والتيجاني وابن فضلان.
ألم أجعل شعاري في الحياة: “على قدر أهل العزم تأتي العزائم” فليكن التدوين إذن بالمفهوم الأوسع والأعمق؟
أهزّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلبه مشروع كهذا.
من أين للسرد أن يجدد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟
من أين للوصف أن يصف عالما لا يستنفده وصف؟
من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاما ذا قيمة في عالم سقّه كل ما قيل فيه من أقوال!

أسرع الى رمي الفكرة في سلة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع الطفل بالمشي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والآثام، ومشروع الكيل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع لخر تكفّلت ظروف الحياة بؤاده بكرة بعد انضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب.

تفتعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنينا ثم تعود إلى السطح
مدججة بحجج تفتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها،
وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.

أليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تمشي بنكرها الركبان وتنتقلها
الأجيل؟

أليست أفضل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده
وانما لأنه لم يعد ليروي كيف هو البحر؟

ألم أجد فيما خطه لي كبار رحالة الماضي ما أبعاد عني أخطارا كثيرة ووقر علي كم من
مشقات؟

لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين "خراائط" العالم عل الأمر
يفيد ولو قليلا رحالة الأجيال القادمة؟

وأیضا لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي توزق المفكرين منذ القدم
حتى ولو أدى الأمر لمزيد من خلط الأوراق؟

يتواصل الشد والجذب بين الرغبة والرغبة.

يصمت النقاش سنوت، ويوم لا أتوقع يعود السجل بذرائع أخرى.

لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتا، من صراع استنزف طاقاتك طوال كل
هذه السنين، للقطع مع خصومات تافهة لا تنتهي، للخروج من حلبة لا تنتصر فيها،
للتمتع فيما أبصرته دوما ولم أنظر إليه إلا نادرا، لتصالح ذاتي مع ذاتها قبل آخر

منعرجات الطريق؟

هل هذه الحجج هي التي رجحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب
ميزان القوى لصالحها؟

ربما حصل الأمر للذة رفعة تحد أخرج ألقية على نفسي، ربما لتزايد حدة الشعور
باقتراب الأجل المحتومة وضرورة استجماع شئت ذات مهددة بالتفكك، أو لسبب
تحركه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.

وفي كل الحالات متى كنا بحاجة لأسباب والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير!

يؤخذ القرار يوما وينطلق التدوين يستعرض ويتفحص ملفات تراكتت في الذاكرة عل
صورة متماسكة عن رحلة الحياة تثبت من الفوضى التي بداخلي والتي تحفت بي من كل
حذب وصوب... وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.

اليوم 600 14 من الرحلة

**

أترتحل في عالم أم في علمين؟

التدوين نعم، لكن لأية رحلة؟ التي نعيشها ابان اليقظة...أو التي نعيشها ونحن نغط في النوم؟

الا نقتضي جزءا هلمنا من رحلتنا في هذا العالم ونحن نيام؟
كم غريب أن من سبقوني في أدب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نساferها كلنا كل ليلة دون استثناء!

ربما أخطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا ذكريات ملموسة نعود بها تثبت أننا لا نكذب ونحن نروي ما شاهدناها فيه من غرائب وعجائب؟!

وفي أقدم ملفات الذكرى حول هذا الموضوع، يتابع الطفل بصمت قلق التنفس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الرد على كل استفزاز معرضا عن مواصلة اللعب. كم مرة وضع يده على الجسد المسترخي جانبيه والسؤال بل قل الهلجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يغلبهما النوم؟

تتملص حتى "م" من الرد عليه. لما تقضت يوما "ب" بالرد، تفاقمت حيرة الطفل بل انلعت فيه أولى المخاوف وأعقها.

ماذا لو تاهت هذا النفس التي يتحنت عنها والده في الأماكن المجهولة؟

ماذا لو ضلت الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟

ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أم غير التي رضي بها ورضيت به؟

يداوي الطفل قلقه من الاحتمل الرهيب بتصور حيل شفاف متين تربط "م" طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطع الحبل وبقيت النفس سجيبة العالم العجيب؟

لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن مبهم الأخطار.

ينذرني شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين حالا، دون مزيد من التسويف والمماطلة.

أفعل تجاهل نفاذ صبر الأمر المجهول فتحافظ اليدان على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدة مقصودة.

يتصاعد منه الإلحاح ومئي المشاكسة. أشعر به قد غير اللهجة والأسلوب ليمر إلى منطق الإلزام.

يسقط الرأس-المرءة تلو الأخرى-على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كل مرة كأنني أرفع صخرة إلى عنان السماء.

إنها بداية نزع التمرد على كل سلطة تأمر وتنهى لا تكلف نفسها شرح الأسباب. يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة والرأس أخيراً على الصدر لا يجد رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب، تطفئ القور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيا الأم ابتمسلة مشففة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيبات أن تتفع في صد الكوابيس.

نعم أين نرحل كل ليلة؟ من أين نرجع أو نطرد؟! لمانا نبقى إلى النهاية في ذهاب وإياب بين... بين ماذا وماذا؟!!

توقف عند بعض الخصائص المميزة لرحلة الليل هذه.

أنت لا تمثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبأً لمانا تستودع بكل ثقة جسدا فقد تأهبه للكز والفردفاعا عن وجود على الدوام مهدد.

من هذه الطقوس أيضا التخفف من جل لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن "الفضاء" الغريب الذي سترحل قل الذي سترحل إليه أنه يتطلب شمسية أو معطف فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا.

حقاً، هناك من يرقدون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الصيادون في عالم اليقظة لا تحسباً لما سيلقونه من أعداء في عالم المنام. ثمة بالأساس ضرورة التخفف من صدق هموم هنا "الواقع" والأمر ليس دوماً بالسهولة التي نوذ.

يتصاعد من الشارع المظلم عويل امرأة تخرج منذ شهور في آخر هزيع من الليل، تذرع الشرع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم نانمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدة فوق أذني مبتهلا لكل آلهة الأدميين وشياطينهم أن تكفت المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي.

ها قد تعطل المصعد الذي يرفعنا عادة دون جهد إلى الأعالي المجهولة. مصعد؟ تغزوني صورة أكثر حدائثة.

تنشط الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداء الأحوال النفسية وراكب نقد الصبر يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العمارة لإسكاته بطلقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبني.

يتوجه المراقب المشرف على عملية إطلاق "الصاروخ":

- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟

- كل المؤشرات في الأحمر.

- استحضار الصور اليلسية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي ... شعر كالحرير يداعب خذي...تَنفَس بطيء يبعث في هدهد... كلمات خاقئة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

- تقرير فرق الإطفاء؟

- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

- استحضروا صور الطفلة.

تتسلّل تفاحة أو تفحة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلّق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعاقبين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل الممتسج. تتحرّك شفاهه بحثاً عن الراحة المقطوعة لقبلة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ بقي الجمر الملهب داخل الروح. تأتي الرجل المتزايد الارتخاء قشعريرة برد لذيذة فيحكم حوله الغطاء.

- التقرير.

- انطفاء أغلب المؤثرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض يؤر توتّر.

- استحضار آخر وسائلنا.

يرفع الأب يده يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دمية دائمة الصمت.

تستسلم الذوات الأربع أخيراً للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسط الأجساد الحية، تبعث فيها وتمتصّ منها يببالغ الحذر شيئاً ليس للغة مصطلح عنه ولا للقصة حالياً فكرة عن طبيعته.

يندير الرجل أخيراً ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية:

- الآن كل شيء على ما يرام.

- إقلاع.

نعم لكن أين نصل بعد نجاح عملية الإفلات من قبضة "الواقع"؟

أعرب ما في هذا الذي "نحطّ" عليه ونعيش فيه جزءاً هاماً من رحلتنا أنه ليس له علامت قارة والديكور يتغيّر من سفرة لأخرى.

تصوّر أنك تفيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرة ثمانية بأربعة شمس وأحياناً بنصف بشمس خضراء تسيح في سماء بلون الورد. كأنّ هذا الذي ترخّل إليه ليلاً مصنوع من ضباب الفجر، من سحب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشالجال وماجريت.

هل الفن صدى لما تكتشفه الذات وهي في رحلتها هذه، في تجربتها العجيبة هذه؟ لم لا؟ ألم نهزب من فضاء الحلم أيضا فكرة الأخرة والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا "العادية" ونحن لا نعي.

ثمة أيضا غرابية المسافر الذي يضع رحله في مثل هذا الفضاء. قل واحد من أبنه الرحالة "حلمت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لاوتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لاوتسو؟"

السؤال داخل لسؤال ماذا لو كان الحالم -أكان لاوتسو أو الفراشة- هو نفسه حلم يحلمه حالم قد يكون هذا الذي تسميه بعض الرؤى الله... حالم يحلمنا نحن جميعا مما يجعل منا مخلوقات حلم تحلم بدورها مخلوقاتنا.

المهم أن الذات، أصبحت "الآن" و "هنا" شكلا لا شكل له... شكلا تخفف من خصائص الشكل... فكرة مبهمة لا تتذكر أنها عرفت شكلا غير الذي هي عليه الآن... شكلا ضاعت ملامحه الأصلية.

كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة إلى أخرى، من زائر لزائر؛ والعهدة على ما يرويه كل من نلما وحلموا واستيقظوا.

الذات الآن وسط حشود من النمي في بعض المتاجر الضخمة. تحذق في دمية تلبس حلة العرس ثم تغزني وهي تبتم. تصرخ في دمية أخرى مخضبة الشفتين بالاحمر القاني أن أعتنم موسم التخفيضات. أية تخفيضات؟ هل أنا أيضا دمية كهذه النمي؟ تتدافع من كل الاتجاهات بالونات صغيرة شبيهة بقطرات لضباب أو بفقاع الصلبون. داخل كل فقاعة أنمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها للزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصراخ الصامت يتوي في أرجاء العدم.

النيكور الآن نزل نثن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعتذر عن فيضان المرحض وأنه سيصلحه حالا. ما يهمني-أيها الغبي-ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تطلق يا سيدي-سئاتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تطلق، لسانق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زر مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتتق به.

جريدة اليوم جريدة البارحة وقبل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقف دوما عند نفس المحطة ليحييه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الأشهر في شكل وجه معوج لأدمي مسك بصدغيه يصدر صرخة حملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر من الدم. دمي... النرويج! أين يوجد هذا البلد؟ تتعالى من الأمدد همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رأس أدمي. تنطفئ النجوم لأن يدا ضغطت على زر كهرباء تبت في أشداق الحوت. يصرخ في البحر أن أرهب غضبا غير محدد السبب. ترعبي قهقهة تتصاعد من حجرة كلب أعرج. أنحني

لأنقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لئره من العش. أنفخ عليها لتذهب من جديد، ثم أرميها في الفضاء فتفجر بالضحك. تحضر الذات مجددا أنها أخفقت وأن عليها إعادة الفرض. تتمرد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحان لا نجاح فيه أبدا. تصرخ في وجه مجهول أرفض، أرفض، أرفض. كم مرة يجب أن أعيد هذا الفرض اللعين؟ يأتي الرد صمتا سلخرا ومهتدا من مصدر قريب بعيد، ما تتطلبه المهمة من مرات. المهمة! أية مهمة؟ لنذهب المهمة إلى ألف جحيم. يحرك الرجل الماشي رجلين من حجر تبتا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه لب يجلل وجهه الجميل شعر بلون الكفن. يرسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى للوجهان معلقين في الفراغ. يتصاعد من المسجي على الفراش أنين من يرفع أثقالا لا قبل لإنسان بحملها. تتسع ابتسامة الشبح. يهمس في الأذن: كم أنت مروجع يا طفلي الصغير. يقطب الشبح الأشيب جبينه مستكرا ضعفا مشينا، يزاح الثقل من الرجلين، يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشى طليقا، أنه يركض خبيبا، أنه يقفز قفزات جبارة في الهواء، كم يبدو الطريق سهلا والهدف قريبا. يتجه الطريق نحو فم ثعبان مرعب. أوصل الطواف حول البركة. يعوي كلب مشرف على حافة البئر ويشعر الطفل ألا مهرب له من برائته. يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر. تنتصب العمارة البيضاء التي تناطح النجوم، أمشي على سقفا متجها الى الهاوية. فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكةا في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزعا طالبا النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحال خارج اللعبة وإلا فإنه هو القاتل. أنحني لالتقاط نظرات سقطت من يد عجوز مرتبك هو أبي عاد من منفاه وتلاقينا على باب البيت عائد أنا الآخر من منفاي. أمام البيت آلاف الناس يحرقون فينا بصمت، أدعوم للدخول فيتدافعون حولنا، تحتج ربة البيت بأن ليس لها ما يكفي من فنادجين القهوة لكل هؤلاء الضيوف. تتعطل محركات الطائرة ويبدأ السقوط نحو البحر. أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟ كم من أمني دخل فراشه هربا من "الواقع" ونهض منه هربا من الكوابيس وهو كل مرة كالمستجير من الرمضاء بلنار!

نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم يمشي فيه كل واحد منا على طريق لا يشبه طريق أحد آخر...عالم خاص بكل مسفر...عالم يتلشى بالسرعة التي ظهر بها. يبقى أنه للفضاء الغريب رغم كل هذا الابهام بعض الثوابت، منها أنك أنت لا تستضيف أحدا فيه ولا تدخل حلم حالم. اللهم إله!

ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صنفه، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل تواعدنا على اللقاء في عالم أوضح معلم؟ كيف أفسّر خروجها من بين جحافل الأعراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوماً من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفتها من أول وهلة والحل أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إليّ باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوفاً ومعتزلاً وهي لا ترتمي بين ذر اعني؟ لماذا استدارت لما تجلوزتها ترمقني بحيرة كأنها تعتصر من ذاكرتها السيب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوماً من الأماكن التي ترتد؟ في آخر المطاف، ما هذا الذي نتبه فيه كل ليلة أو قل ما هذه التجربة التي نكرها كل ليلة فلا نزيد أية معرفة بها؟

لننسى فرضيات سحرية قديمة عن رسائل مشفرة تبعث بها الآلهة وفرضيات أخرى عن مخاوف وشهوات مكتوبة تفوح الأحلام بنيتها. ما الذي يبقى؟ ما نحن متأكدون منه أنه محكوم علينا أن نغادر كل ليلة دياراً معروفة ولو نسبياً إلى ديار أخرى مجهولة تماماً... أنه محكوم علينا أن نعود منها لنعود إليها مجدداً والمرء كمن يتقاذفه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ... وتلك إلى آخر منعطفات الطريق. وأيضاً أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعته أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحياناً إلى تطلّع المنع إلى نهاية الحياة نفسها.

ماذا لو جعلنا منه إذن "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا بدّ من العودة إليه كل ليلة للراحة ولأشغال الصيانة الضرورية. تصوّر أيدٍ خفية تستلم الذات حل دخولنا الغيبوبة لتفرك هنا أو ساخ الذهن وتظف هناك أوجاع الروح. بعد نهاية الحمام يأتي أمر الرحيل والعودة للصراع.

فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه بنمّ فيها- كل ليلة- صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الجبال وفرض الراحة على الكائنات لنجد كل صباح عالماً جديداً معافى جاهزاً لأحسن استعمال؟ ثمّة فكرة أغرب تغلب الأمور رأساً على عقب هي التي تجعل من اليقظة قاعة الانتظار والمنام العالم الذي نعيش فيه الرحلة الحقيقية أي هي التي نحقق فيها مهمتنا السرية التي جنتنا من أجلها العالم.

إغلاقاً لملف شائك سأعتبر دون أدنى حجة مقنعة أو برهان متين- أن ما نسميه "العالم" هو عالم اليقظة لا غير، تحديداً الجزء الذي تيسر لي إدراكه خلال ما عشتُ من الزمن. هكذا يمكنني أن أتخلص من عبءٍ ثقيل حيث تتوقف مسؤوليتي عند رواية رحلتي فيه هو لا غير.

أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في عالم آخر أو على الضفة الأخرى من هذا العالم، فهي مسؤولية ظلّ لي أتصوره بشيء من الشماتة مُنهمكا في كتابة رحلته لقراء من الأشباح، ليس فيها إلا أشلاء جمل عن أشلاء أحدث لا يربط بينها رابط وقد لا تعني شيئا... وشاكيا مثلي من صعوبة مهمّة عبثية لم يكلفه بها أحد.

**

عن مسألة كيف ومتى انطلق الطريق

هل تبدأ الرحلة حقا عند الولادة كما نعتقد؟ لكن لا بد لهذه الولادة من أحداث سبقتها ومهدت لها ... ولا بد لهذه الأحداث التي مهدت للولادة من أحداث سبقتها وللأحداث التي سبقت الأحداث التي سبقت هذه الأحداث من أحداث سبقتها وهكذا إلى أن تضيع سلسلة الأحداث الممهدة لبدأيتنا المفترضة في ضباب غابر الزمان؟!

إن أبن نضع نقطة انطلاق رحلتنا في هذا العالم إنها إشكالية ضخمة سينتبه لها الطفل إلى وستلاحقه كهلا وشيخا، لكن مهلا ما زلنا في بداية تشكل تصوره للبداية " الحقيقية".

بعد التمكن من المشي والهولة والجري، ها قد تمكن من طاقة جبلة أخرى لا غنى للرحلة عنها: الكلام.

نحن أساسا كائنات متكلمة ..نحن نتكلم منذ ولادة جنسنا البشري ننقل هواجسنا جيلا لجيل عبر بما نخط من صور على جدران كهوف ما قبل التاريخ، عبر ما نكتب على صفحات الكتب، عبر ما نسجل في هذا العصر على الأقراص المضغوطة وغدا على شوارذ الذرات..نحن نتكلم لتبذل الأحاسيس والمشاعر والأفكار نعتل بالكلام مزاجنا على مزاج بعضنا البعض... نحن نتكلم لكي نقول للأخريين لا أمثل خطرا عليكم فيبدلني التطمين بأحسن منه... نحن نتكلم لتنسيق الصيد والحرب...نحن نتكلم لنضحك ونضحك لما ننتبه فجأة لغرابية ما نقول وما نفعل... نحن نتكلم في كل المواضيع من آخر الإشاعات عن أعدائنا وأحيابنا إلى طبيعة العالم الذي نعبر والبشر الذين نخالط ووجود الله من عدمه.... نحن نتكلم أيضا لمجرد متعة الكلام خاصة عندما نكتشف سحر الكلمات وهي تصف بكيفية غير مألوفة فنسمي تلك شعرا ..نتكلم بنبرة الأم الحنون تمازح طفلها، بنبرة العاشق الولهان يتغزل بحبيبته، بنبرة الشرطي الناهي، بنبرة العسكري الأمر، بنبرة المتضرع عند الصلاة، بنبرة الحزين الهامس لبان مراسم الغزاء وأيضا بتلك النبرة الغربية عندما تتفجر عواطف الفرح والحزن داخلنا فيتحول الكلام غناء شجيا أو صراخا هستيريا.. نحن نتكلم مع الأخرين لكن الحوار الصامت مع أنفسنا لا يتوقف أبدا... كل هذا والكلام من المهد إلى اللحد هو الذي يقربنا ويجمعنا، هو الذي يجمعنا ويفرقنا، هو الذي يبيرنا ويضلنا، هو من يجعل من حياتنا نعيما أو جحيما لا يطق.

يستطيع النص الآن إدارة الحوار بين طفل في الرابعة أو الخمسة مع دليله الأول وقد اكتسب قدرا كافيا من الكلمات والفترة على ترتيبها وفق قواعد صارمة بصناع لها كليا دون فهمها.

- "ما"، أين كنت قبل ولادتي؟
 - في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مزّت كلمح البرق.
 - "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟
 سؤال ليس بغريب من طفل تميز دوماً بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وستقول عنه
 "ح" يوماً: لو طلب منك أن تفعل لا شيء لفعلته بأقصى ما تقدر عليه من سرعة.
 - "ما"، ماذا فعلت داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟
 من أين لفاقد الشيء أن يعطيه، ولفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر ثم هناك أشياء لا
 تقولها أم لابنها.
 - "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟
 تهمس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المتشبث بما يطفو من القش:
 - لا أحب شيئاً فيك قدر أنك مزعج كما تقول.
 - "ما"، يا "دوماً غائب، لماذا؟ أين هو الآن؟ حدثيني عنه، متى عرفته، كيف
 أصبحت له ابناً؟
 تمرّز الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش:
 - ذهب شيخنا إلى الجامع الأعظم مفتشاً عن مؤذّب لأطفال قريتنا ثم... لكنني حكيت لك
 القصة أكثر من مرّة.
 يصرخ الطفل محتجاً: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثاً عن "با"...؟
 العهدة على الراوية ثم على خيال الطفل والكهل.
 تحرّك الشيخ ذلك الصباح بحثاً عن مؤذّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سكانها.
 وصل إلى الجامع الأعظم يسأل الكثيرين فلا يعجبه هذا أو ذلك لعلمه بمواصفات حاجته.
 العجب العجاب أن تكون كلها موجودة في "با".
 الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجوداً ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك
 المكان الذي ربما جاءه خفية في مهمة ما. كلُّ الأقدار ضربت له موعداً لم يكن له الحق
 في نسيانه على شدة استخفافه بالمواعيد.
 هو لم يكن بالصنفة في مظاهرة أو قابعا في زنزانة رطبة ولا حثي مصابا بزكام خفيف
 ألزمه الفراش تلك اليوم تحديداً.
 لم يكن يتمرّن على السلاح أو بصدد نقله من مغارة إلى أخرى، ولم يكن على الطريق
 هارباً من الجيش والشرطة.
 نعم، كان الرّجل الذي أرادته لي القصة دليلاً الثاني موجوداً ذلك اليوم بكامل أعضائه
 وكامل ذاته وكامل صفاته حاضراً بين يدي القدر.
 ترى هل ترنّد الشيخ؟ ربما انتبه للوقاحة التي تتضح بها كل قسمات الشاب الغريب.

هل أرهيبته جرأة كانت تطيع حركات الطَّالِب الطموح وسكناته؟ هل شدّه تلك النكاء لوفاد الذي كان يستهوي حتى ألد أعدائه؟ أم هل اختاره رعم حدة طبع واضحة -لأنه كان وسيما؟

يأخذ العم إبراهيم قراره باختير له هو لا غير وحسنا فعل. مهلا. ما زال هناك أكثر من تقاطع طريق قيل أن تأخذ القصة الطريق الذي ستأخذ.

كأنّ الأدمي الذي سأسميه "ب.ب.1" يتردّد. هل لثوهم أم أنني كالطفل الذي يلعب بإخافة نفسه وهو واثق أنّه لا خشية عليه من لعب كهذا.

- ستذهب مع الشيخ، وإلا كيف أكون؟

- أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفا؟ أنا أعيش مع الفلاحين! أنا الذي أشرف الاسم الذي أحمله، أنا الذي..

- قلنا: كفى من أنا، أنا، ألا تعرف كم يكره البشر هذه الكلمة في فم غيرهم.

- يا ولد، لا تطلب مني شيئا كهذا. أتتصورني مؤذّب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!

- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أبنا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.

- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هذا الذي ستشرف بانتسابك إليه؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللعنة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عناده وعقليته البدوية بلحقتها التاريخية للمثنيين وراء أذناب البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واترك الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.

من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لأدمي مثل "ب.ب.1".

ثمة أيضا سبب أقوى من الجوع اسمه الخوف.

كان "ب.ب.1" تلك الفترة الغامضة من تاريخه منخرطا في قصص معقدة عن وقرف مع غزاة جدد يأمل منهم خلاص البلاد من غزاة قدامي... عن تخزين وسرقة تهريب سلاح جنود أجنب تقاتلوا بكل ضراوة وقتلوا بكل وحشية... عن انتصار الغزاة القدامى على الغزاة الجدد وبحثهم عن ساعدوا أعدائهم... عن هرب واضطرار للاختفاء فترة من الزمان في أي مكان...

هكذا وجد الشلب المتهور نفسه رغم أنه مؤذّب لأطفال الفقراء، يقرئهم بعض ما تعلم في الجامع الأعظم وهو سلخظ على الأقدار الظالمة التي ما انفكت تضحك منه، جاهلا أنه لم يخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر باستمرار منّا جميعا.

هو الآن وجها لوجه مع امرأة قررت القرية تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب.

لا ترقص طربا أيها الشيخ فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللأممكن ممكنا.

أيرضى الشلب المتعرج بفلأحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه، هو الذي عاب على زئوبيا أنّها أنت الوجود قبله، هو الذي رثى لشجرة الدرّ لأنّها لم تعرفه بعلا، هو الذي

سخط على الخنساء لأنها لو عرفتة لقاتت فيه وحده لشعر ولو كان شعر العزاء، هو الذي كان يقول لأصحابه البارحة كانت سهرة لم يعرف لها الليل مثيلاً: المغنية كوكب الشرق، وكلمات الأغنية لأمير الشعراء، والمستمع عنكم المتواضع! المهم في هذه المواجهة المصيرية موقف الطرف الآخر الذي بدونه هو أيضاً لن أكون. هل ترددت المرأة وهم يواجهونها بضرورة التحول لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض خادمة بلا أجره توقّر ليعلمها أيضاً متعة عابرة؟ يعاونني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرفه فيها من حس فطري بالكرامة. لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رتمه الأقدار تحت قدميها؟ هل أذنب أخيراً ربغ ابتسامتها، بما تعكس من رقة وحياء، غلظة البدو فيه؟ أم هل اكتشف وراء عيني المها نكاء حدّاً بهره ولو أنه كان من قوم لا يبحثون عن النكاء عند النساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنها بما يخبئه لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلم؟ ربما فعل فرفضت تصديقه. الأرجح أنها صتقت، ومع تلك قررت أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ما قررت مشينة سلطة عليا لا يعصى لها أمر.

كانت "ما" تتحرك داخل رؤيا لا يحصل فيها إلا ما أرادته كائن لا مردّ لإرادته. كيف لا تؤمن بلمر كهذا وكل ما نشأت عليه بل وكل ما ستعرف من أحدث يؤكد صحة قراءتها الأحداث.

أتصوّرها منكبّة على الطفل الملتهب بالحمى تتاجي نفسها للتغلب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألا يصل نباتا، لكنّ ذلك لم يحصل... كان بوسعه أن يولد مشوّهاً، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصابة اللعينة ذلك الصيف المشوم، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصيف الآخر المشوم، لكن ذلك لم يحصل... إن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لذلك سيشفى وسيثب على رجليه مجددا كالغريت الذي أحبّ.

بقدرا كانت "ما" تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا "مكتوب" أو مسطر منذ الأزل في دفتر الأقدار بقدر ما أمنت دوماً أن العكس هو الأقرب إلى الحقيقة. في رؤياها هناك قوّة قاهرة فرضت على قطرة الماء النازلة من أعلى شلال الزمان اتجاهاً أوصلها إلى شفتيها بالرغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى النهاية.

أنظر إلى نفس القطرة، أتابع تحرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ الاعتقاد أن بوسعها التوجه أية لحظة يمينا بدل الشمال، أن تتطاير بخارا، أن تندخل أصاق الشلال لتختفي فيه، أن تدفعها الريح خارج السيل. نعم، لم يكن هناك أي حتمية لتكون قصتي كما أعرّفها أو حتى أن أكون وأن أوجد يوما.

ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي وُعد الفتح أن يتخذ له مساراً آخر؟ أليس المصطفى هو سبب نهوض أمة ووراء تحركها ملايين القصص اتخذت الاتجاه الذي حدّده بوحي وبدون وعي؟

سل عصية الشريك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم (أحمد شوقي)

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التساييح والقرآن من أمم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحانمات الزغب كالرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القصص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار، تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمن.

لكن كم من تقاطع آخر كان بوسعه أن يوجه الأحداث في اتجاه آخر يمنع وجودك ووجودي!

كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يُطمع أجدادي بذهب الجنوب لا بمراعي المغرب.

كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا.

كان بوسع تلك الجذّة، أو ذلك الجدّ، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء في قوافل الشقاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهقا وكربا.

ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمي "عام الققطرة" بذلك الجدّ أو تلك الجذّة؟

أغضض العينين، أتابع ببصيرة الخيال أي مسار كانت تتخذة قصتي وقد انتصر أنني اسمه هنئر في الحرب التي أجبرت "با" على الاختفاء في قرية القش والطين التي ولدت فيها.

تختار السائحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس ودفنها. تضع حقيبة اليد على الطاولة، تسحب منها علبة دخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثّة عن النادل لطلب "الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستقلب ضحكة مرحة لبداية دردشة تستهلها مع كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبث والعوانية.

تفتح عينها على الأقصى، تحقّق باندھاش في النادل الأسمر المقترّب منها بكل حذر. يلحظ الرجل نظرتها المسلطة عليه فيزداد تشنّجا. ألم يسرّ لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم الموزّدين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجددا نصيبا وافرًا من السوط وهو لسبب وجهه ممتهّم دوما، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرد وحتى بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، والمرأة لا تكفّ عن التمتع فيه بدّهشة لا تخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعود عليه من الازدراء، وإنما بريق لا يفهمه. تتحرّك أنامله تلقائيا نحو شعرها كأنّ فيها حيننا غريزيا لهذه الجدائل الشقر. يتوقف في نصف الطريق وقد دامه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجّه إليها بأب المهنيين:

- عفوا يا دكتور، هل ضايقتك هذا العبد السلمي في شيء؟

- لا أبدأ، أبدا.

- أحببت "الجيلاتي"؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا... لكنك لم تأكلي منها شيئاً!
تَقَطَّب المرأة جبينها وقد مانت الضحكة على شفيتها. تجمع حوائجها لائذة بالفرار وفي
عينها غلالة النمع، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولم تتس أنها كانت في قصة موازية
تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنانستها عن صدى أنغام رجل اسمه
"فيفلدي".

يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرجا وهي تخترق ساحة سان ماركو ركضة نحو
القنال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هتلر الأكبر باني إمبراطورية أورو-
أفريقاسيا العظمى عليه صلوات الربّ ووطن وبركات الربّة فريكا.
يفيق على صراخ سيده وهو يركله: "اطعمك لتتفرّج على السياح يطوفون بتمثال سيننا.
هل تريد إجازة في محشّد خمسة أسلاك؟ حرّك طيزك يا untermensch، يا ما تحت
الإنسان".

يمكن الآن لنسخة أخرى من نفس القصة أن تتقدم وقد حولت الأقدار مجرى نهر الأحداث
المتدفق ليُتخذ مساراً آخر بعد دخول حنبعل روما وإحراقه المدينة وذّر الملح على ترابها
حتى لا ينبت فيها شجر ولا يرتفع فوقها حجر.

يتوجّه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشباب الأسمر المتعرج:

- أرجو يا دكتور أن "الجيلاتي" أعجبك، لكك لم تأكل منها شيئاً! إنها أشهى المرطبات
المثلجة في كل فينيسيا.

- أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجلسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا... كأنني
أعرفها.

يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسباننا القرطاجيين. آسف، هذه المرة ستعود خالي
لإفواض. إنها حريفة تأتي دوماً مع زوجها وطفلتها. حذار.

طفلتان! تفاحة وتفجحة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟ ينهض
الشباب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سبباً، مخترباً سلحة القديس حثون في اتجاه
معد يعل إليه أكبر آلهة إمبراطورية قرطاج التي لا تغرب عليها الشمس منذ آلاف
السنين. ثم يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفاجأ أن يراها
تحقّق فيه فاعرة فاها.

هراء كل هنا؟ طبعاً في عالم صنّعه روى بالغة البساطة بالغة التبسيط.

بديهى أن رحلتنا لم تبدأ بالولادة وإنما بأحداث مهّدت لها، منها حتى لا نذهب بعيداً -
ارتطم جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر
جليدي وكارثة مناخية أخرى وفي ما يخصني تردّد حنبعل في غزو روما، وإفراز
الصحراء لبني نجا من محاولة اغتيال في غار جبيل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار
البعض منهم بالتوجه غرباً بدل التوجه شرقاً، ونجاح الاستعمار في فرض سلطانه على

شواطئ شمال شرق قارة اسمها "أفريقيا"، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جيهتين في وقت واحد، وجملة من أحداث أخرى لا تخطر لي على بال.
كلنا ننتيق من تسلسل أحداث لم تكن يوماً لا مبرمجة ولا حتمية وقابلة للتوقع.
كل القصص، حتى قصة العالم، ارتظام الصدف بالضروريات والصدف بالصدف والضروريات بالضروريات والنتيجة أنه لا شيء مقدر إلا اللامقتر ولا شيء مكتوب إلا للامكتوب.
كم مثير أن تسير الأمور من الأزل وإلى الأزل على هذا الشكل، أية قيمة للعيش في عالم ليست المفاجأة أروع هداياه!؟

**

سكوت الذاكرة عن تفاصيل الاحرام ودور الخيال في ملئ الثغرات

استحضارنا لتاريخنا الشخصي عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوفر إلا على القليل من المعطيات ومع ذلك يدعي اكتشاف تصميم البنية المجهولة، مما يضطره لتجديد الخيال لتصور قطع لم توجد يوماً لكنها تملأ الثغرات المزججة... وأكبر ثغرة كيفية وصولنا هذا العالم.

لا خيار لك إن ألح عليك السؤال غير جمع ما يمكن من معطيات عن وصول أقرب الأدميين إليك والفرضية أننا نصل كلنا بنفس الكيفية وإن تباينت التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

تستعيد الذاكرة كيف كانت بداية البداية لرحلة هذا المجهول الذي ساكن له الدليل الذكر والذي سيديني بأجل ما أسند إلى من ألقاب: "يا".

انتبه ذات يوم أن داخل فكري شبح كالفار في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج تاركاً وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو لجبله على الرحيل. أقررت اعتماد سياسة التجاهل عليها توّني إلى لختفائه أو حثّه على البحث عن قطرة أخرى يعبرها.

هل أقول له ألا يجزّب معي من الآن حيله، وأني غير مهتم بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدّمه للعالم أم جميلة فخورة.

هل تدخّل لديها لتتقني؟ هل تدخل لديّ لأقنعها؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القدموم، وليس هو الذي يترجّانا؟

تنهار يوماً كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفاً ومحض عناد.

وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضمّ نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهما هواء ما قبل وما بعد العاصفة.

تتسارع نقات قلبي النائمين. تبحث اليد عن يد الآخر، ترتسم على الوجهين ابتسامة عابرة. تأتي المتأهب للرحلة المقدسة من المبهم الغمض إشارات رقيقة وأوامر مبهوسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح الفكرة فعلاً... الضرورة التي لا مناص منها للتسلل من راحة العدم إلى مغامرة الوجود.

أمامه أنت التي تحمليني في أحشائك (مانويل دونوفاس)

امنحيني حق أن أولد

وأنت يا أبته، يوم أولد

امنحني حق أن أحييا

أعيناني على أن أعيش أحلامي

وأهوانني لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح"

تبتسم الممرضة وهي تمدني بتبجعة الفحص.

تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة.

ترتسم الابتسامة على محيا المارة وعبونهم على بطن امرأة تمشي متسائلة الخطى ترصد نظرات الإعجاب ترصدها نظرات الغيرة.

إنه عالم متجدد على الدوام، تنتفخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطحها لتنتفخ من جديد في نسق مننظم كلهث الراكض...

عالم لا هم له إلا الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.

منذ أول لحظة رصد إشارات مبهمة عن دخولك تجربة الوجود والحوار معك لا يتوقف أنت الذي لم يكتسب بعد أي شكل.

أصحيح أنك يقظ تتابع كل ما يجري؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، صوت من تحملك في أحشائها، أن انتباهك له يزياد يوما بعد يوم، أنه هو الذي يقودك من تواصل الحلم إلى انتباه بداية اليقظة أنك لا تخطيء فهم ما يلمر به وما ينهى عنه، أنك تمسك بلجام من تركب بقفاز من حرير، توجهها إلى حيث يجب أن تذهب وهي متبرمة سعيدة؟

مثلي لا يكتفي بالقليل والقال.

تقسم "ما" أنها لا تعلم أكثر مني.

ربما تستفرد بك وتفتح لك ذاكرتها. يا للمرأة المتهورة! ساوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعصق معك. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي أذان صاغية. تكلم لأسجل لقراني كيف انطلق الطريق.

أمام صمتك ثمة كتنبي الطيبة... وخوف مبهم مما فيها من إمكانيات الفشل.

تبت في فكري المشوش أنه لا خوف فالصانع مجزّب أخذ كل الزمن. فعلا كنتك أمام مهندس عبقرى صامت ومخفي ألقى على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة. كآته طوال هذه الشهور التسعة يعطى ما يلزم من أوامر لمأمورين لا يقولون عنه مهنبة عالية: اصنعوا، قيسوا، شذبوا، لا تغفلوا، قفوا، واصلوا، هنا جددوا، أحر المسات هناك.

الحمد والشكر لكل هذا الاتقان، لكل هذه العبقرية.

داخل الكهف السحري، تواصلت جميع شتلك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظرك بفارغ الصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الغريسة ومن الصياد.

في محطة الوصول ويتصافد أنها غرفة توليد في مستشفى عريق، يطلب مني بكل أدب أن أنزح إلى الخلف حتى انتهاء مراسم استقبال الوافد الجديد. تأخذ الأيادي البارزة على عاتقها مواصلة مهمة الأيادي الخفية. تسترق آلة وضعت على لبطن المكور نقات قلبك.

أراها تتابع على ورق التسجيل تخطب خطب عشواء. تتعثر ضربت قلبي هي الأخرى. يتصدب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الآلام ومن جبهتي ومن كل الجباه. تعضُّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق البيضاء وأعضن على نواجذني لأمنع الصراخ الذي في داخلي، قهتتت لصداه الصامت كل أصقاع الروح. كأتك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسؤول بأعصاب من حولك من مسكين. تبقى مصرًا على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزًا... أم لأن فيك خشية مبهمة تتعاطم كلما اقتربت ساعة الحسم؟ يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتبكًا. حوار بيني وبين شبح قد يكون أنت وأغلب الظن أنه أنا في مرآة ذات لا تعكس صفحاتها لحد الآن شيئًا.

هل تتلغأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه؟ أم هل هالك ما شاهدت وأنت تتجول داخل ذاكرة "ما"؟ ليس من واجبي لنا الدليل أن أقول لك قف، عد من حيث أتيت لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي سئفك إياها تجربة الحياة؟ تتعالى من حولي أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي... ادفعي!

تتصدب "ما" عرقًا. تصرخ والألم يعنصر أحشائها إنني لميتة. تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أرهب لحد الآن سوى أن تكون الأيادي الخفية قد أساعت الطرز فتأتي مسخامشوها.

أه، صدقتني وقّرت أن تعود من حيث أتيت! ألا تعلم أن هدية ميلادك عالم بأسره. هل يمثل هذه الحجج أقتعتك بلموصله؟ أهكذا زال آخر نردذك؟ يبدو كذلك ونقّات القلوب تنتظم والأيادي المحمومة تتبسط والابتسامه تعود لشفتي القابلة. كأتني بك تتحرك أخيرا نحو باب الكهف السحري مدفوعا بقوة لا تقاوم ومجذوبا بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين هذا العلم والعممة التي تتبلور داخلها في صمت كل العوالم. أستحكك مبتهلا مشجعًا ناسيا قرارا بأن أتشمت فيك في أول مناسبة. تطلق الأم الأزلية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك في نفس اللحظة باب الزمان على مصراعيه.

تنفصل كالثمرة الطازجة، كتفاحة لذيدة، قطفت من غصن أقدس شجرة. في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش، داخل أفخم القصور وبينما مشيعو الجنازات في ذهاب وإياب، تزغرد القابلة الأزلية لحققاء بمجنيك أنت وكل أفواج الوافدين الجدد.

صرختك الأولى. حقًا مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبلة الهوائية؟ ليذعوا ما يشاءون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة.

ألم القطف من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم؟ أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوسد وراء ظهرك إلى الأبد؟ هل أربحك أنك ملقى بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي كم ستكون رهيبة؟

أداهمك الوعي أنك لن تكون نذيرا وإنما أغلب الظن قربانا؟

ربما رفعت عقيرتك لتتذرت وترهب. كم مضحك أن تتوجه بالتهديد لعالم مدجج بالسلاح، وأنت الأعزل من كل سلاح!

أم هل هي صرخة الدهول وأنت تبصر الوليمة أيها النهم الذي لا يشبع أبدا؟

ربما الأمر مجرد لفت انتباه تقول للعالم بكل بساطة وإيجاز: ها أنا.

أيا كان معنى لصرختك الأولى هذه المؤكد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثثار نزق عصبي المزاج، يتميز فيها صراخ كائنات لا تحصي بدوي الرد، بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلالات، بصفير الريح.

لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا عليك تسمعي وسط كل هذا الصخب المقدس: مرحبا بك في عالم الانبهار والرعب... وكن على أشد الحذر. كن الرهن للرايح لهذا الذي يرمي منذ بداية الملحمة العظمية بكل مولود جديد، كما يرمي المقامر المتقاتل آخر فلس له على طاولة القمار.

*

القادم الجديد لأول مرة بين يدي.

شعور عابر يشبه خيبة الأمل.

أه، يا تقاحة، كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعنا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبية قبل أن ترمي به في سلة المهملات. ولم تكن هناك أية هالة من نور حول رأسك الأصلع.

لم أكن أعلم أنذاك أنني سأراك، بعد ليلة تسكع في الشوارع المقفرة، تضعين على وجه القردة العجوز قناع الملاك المنتظر.

كم أنت مثيرة للشفقة أيها الأدمي... تصل العالم عاريا وتريد نفسك الغازي... تصل إليه بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها وتريد نفسك مالك الأرض ومن عليها.. تصل إليه لا مخالبا لديك ولا أنياب وتريد نفسك سيد النمر والأسد... تصل إليه أضعف مولود وضعته أنثى وتريد نفسك خالق الالهة.

تداهمني فجأة رهبة ما ينتظرني مستقبلا من مسؤولية توصف دوما بالجمسية.

أليست حياتي منذ هذه اللحظة ملك لآخر سيجوجه دقة رحلتي في اتجاه كنت صاحب الرأي الوحيد فيه؟

شعور كالبرق الخاطف بالندم وبفولت أوان الندم. ثم جذل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد.

أعود لمناجاة كائن لا أعرف عنه ولا يعرف عني شيئا.
ماذا لو بدأنا بالسلام؟

لا أحظى برّد وأكاد أغضب لقلّة الأدب.
- قلت: مرحبا.

ترفع القابلة صوتها ضاحكة تلمر أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القلام الجديد إلى من تنظر إليّ باسمه نافذة الصبر تنتشوق لاحتضان أول وليد لها. أمّك لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادت السخرية التي أداويه بها منذ زمن طويل.
أعذر من أنذر... والآن أيها القلام الجديد حدثني عن انطباعاتك البكر بعد أول سرخة...
أه ليس لك ما تصرّح به وما عليّ إلا أن اشعل دماغي، أن احفر في أعماق ذاكرتي أو أن استنجد بخيالي... أه منكم يا أبناء حواء العقوق دينكم من اللحظة الأولى.

**

الإفافة

لتخيّل لحظة الوصول ثمة صورة تبلور مسفر في مطار مجهول وصل من بلد مجهول بلا أوراق لا يعرف أين هو متجه وحوله أعراب يدخلون ويخرجون باستمرار من باب دوّار وصوت متشنج يصرخ في مكبر الصوت : الرجاء من السيد غريب التقدم فوراً لقاعة الرحيل رقم خمسة.

ثمة صور أقل مدعاة لتوتر الأعصاب وربما أقرب لما يقع فعلا في اللحظات الأولى للرحلة.

تستيقظ أنت البّخار شيئا فشيئا على صرير لشراع، على دويّ الموج، على صفع الريح. عند ثعبان الحياة القيثّ موسى زورقي (نازك الملائكة)

في الضباب تحت الظلام

لكذك ما زلت ملتصقا بالعالم لا حدود واضحة بينك وبين الزورق الذي تتركب ولسماء والبحر. تنفصل شيئا فشيئا عن كل هذا لتجد نفسك واحدا ووحيدا وسط العاصفة في عرض المحيط.

إنها كما قلت أفضل الصور... ومع هذا.

بالمعنى المتداول، الإفافة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم اليقظة.

لكن مما نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا تفرض الصورة أنه كل لنا وجود قبل الوجود، رحلة قبل الرحلة؟

لا علينا، لسنا الآن في حاجة ماسة لطرح مثل هذه الأسئلة ومحاولة اختلاق ردود عليها. ثمة الأولويات وهذا الذي نفيق فيه ليس خاليا من المنغصات وبداية للسلسلة حالة مزمنة لن تقارئك إلى أن تقارق هذا العالم.

أه، أيها الأدمي المسكين؛ محكوم عليك أن تتأني الوجود جانعا، أن تجرّب منه كل أصناف المسغبة وأن تغادره وأنت على جوعك الأول.

يدرك العالم المنكبّ عليك أن عليه تلبية أولى حاجياتك وإلا فلك أن تقيم فيه طويلا. يأتيك من المبهمة سائل حار لذيذ الطعم، يتدفّق داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ.

ها أنت في وضع مريح يسمح لك بالانتباه للأصوات تأتيك من عالم يداهمك من كلّ المسام كأنه النهر وأنت الإسفنج.

يتجدّد مغص الفراغ وكلّ لهذا الإحساس المززعج مواعيد ثابتة ثابتة لذّة الرواء والشبع. تتشعر أنه لم يعد لك من طاقة على تحمّل كل هذا النور، كل هذا الضجيج، كل هذا الزخم من الأحاسيس والمشاعر تداهمك من داخلك ومن خارجك.

لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبتت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد.

تهرب، إذن، إلى مغارة النوم لئلا من صنمة الوصول.
أنظر لبني سفر وقد وصلوا لتوهم العالم. هم يدخلونه على أطراف الأصابع يسارعون إلى المخبأ الذي فارقه كآتهم يتمنون على عالم لا يواجه دفعة واحدة. المشكلة أنه لا نكوص من الآن على الأعتاب. أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحيوان اللوجل في مغارته. لا بد له من الإسراع بمغادرتها والدافع الفضول والجوع. لا مناص من التسارع إليها دوريا هربا من كم من أخطار غامضة.

شيئا فشيئا تتضح الحدود وتنفصل الأشكال عن بعضها البعض.
أولها شكل الكائن الذي كان المغارة السحرية وجسر العبور وهو الآن مدير التشرفيات، الحارس والخدم الأمين. قريبا المرأة التي تعكس لك أولى صورك.
يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدم طبقات ذاكرتي بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقا بأنها لخلخال وأساور.

تتعلم باكرا الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلال، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوما لهيب المغص المتجدد.

ثمة إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتحج.

إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. لا تلبث أن تدخل الاكتشاف الهائل الآخر بأنك تستطيع أن تصرخ كل الأيدي، والشيء المنقذ من الورطة التي تتخبط فيها مُصر على غيابه المرعب.

قد تكون أولى وأهم أحاسيس ومشاعر القادم الجديد أنه في قبض كائنات جبارة تمنحه ما هو بأمس الحاجة إليه أو تمنعه عنه. إن أثر فيها استياء لسبب غير مفهوم، وأنداك لا خيار له غير التوسل والاستغاثة... هكذا تتشكل داخل أعماق طبقات الذاكرة نواتات الأساطير والأديان وما تفرّع منها وضدها من فلسفات.. بما أغرب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا للعالم لرَضَع يتخبطون في مشاكل المغص والبلال!

أعود مرارا وتكرارا لاحتضان القادم الجديد بهذه التعلقة أو تلك.
انتبه يوما لصغر رأسه. تعبر فكري صورة خاطفة لمكتبة ما زالت رفوفها فارغة. لكن هي حقا فارغة أم تفيض بملفات تجربة الحياة على مرّ ملايين السنين؟
كل الأجوبة مضمنة في هذا الصلمت كما الأسنان في الفك تنتظر زمن البروز الموجع. ومع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين. لم أعرف منهم من أتى مسلما معانقا ومصافحا. لم أعرف منهم من حدّث عَمَّا شاهده في الرحلات الأخرى وما جَرَّبَ فيها من أشكال

وأحلام... لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهزّية من عوالم ما قبل العالم يقايبض بها شيئا
ثمينا... وهذا الأدمي الذي سأقوده في مجاهل العالم لا يشدُّ عن القاعدة.

مواصلّة العبث مع رضيع مصرّ على وقار الشيوخ.

كيف؟ لا فائدة من الإلاحاح السمع؟ أنا ألحُّ ! أدرش معك فقط لإرضاء فضول جارف
... هل هذا حقا أول أيام رحلتك؟ ... هل هذا أول لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل؟ ...
هل كنت طفلك وكنت لي أبا في حلم آخر؟ ... هل تهنا عن بعضنا البعض في اتساع
عوالم لا حصر لها ولا عذ؟ ... هل تواعدنا على تجديد اللّقاء الآن وهنا؟ ... هل أنت حقا
مولود جديد أم أنّك قديم قدم العالم نفسه ...؟

يحدّق فيّ الكائن الغريب مواصلا تجاهله الاستفزازي فأصرخ فيه ضاحكا: واصل
تحديق السافر لأبيك، سأنطقك في نصي بما أريد وما أنا بأسيّن الحاجة لسماعه.
كأنه يراني ولا يراني، كأنه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده،
حاضر مغال في غيابه، ملّصق بي وبيننا هوة لا جسر فوقها.
إنه في مرحلة التشبّع البطيء بالوضع الجديد. لا ضرورة للعجلة ولا فائدة من التّدخل في
نسق الأمور.

ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الطرف وهو منغمس في السّر، ملّتحم به وملّصق.
مؤكّد أنّ هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وبين قصصها وأن الجمارك الكونية لا
تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قيس من شعور قد يكون جُزب في عالم آخر. محكوم
عليك أنّ تدخل هذا العالم غير محمّل بالأم قديمة وعادات لا فائدة منها، أنّ تأتي الوجود
مفسوخ الذاكرة، أنّ تصله وأنت مثل أرض بكر لم تمسّها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه
نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا وكل
عناصر التشويق حاضرة لتواصل قصة القصص في فصلها الجديد.

**

الخطوة الأولى

تأتي سريعا مرحلة الخروج من وضع المثقبي السليبي للمعلومات إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات.

ثمة معلومات ناقصة في ذاكرة الطفل عن هذه المرحلة من الرحلة، لكنها متوفرة الآن وهو الجد الذي يرصد أقصى ما يمكن التفاصيل عن أولى خطوات الادمي على الطريق.

تفلت مني الصرخة:

- حذار، البنت، البنت!

تضحك تفاحة:

- تظنني كنت سأدوس على يدها.

- لو فعلت لخنتك.

لا تنتبه حرة للخناقة الضاحكة، مواصلة زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجنل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجناها من الفضاء المطوق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنت اسميه "جوانتانامو" لأسباب يطول شرحها.

تنتهد تفاحة:

- "يا"، ستجيني هذه الطفلة. أخشى أن تجنك إن تركتها في حراستك كل الوقت الذي سأحتاجه لموعد هام.

- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنها الحليب على النار.

- تقصد بمنتهى التهريج وكأنها اللعبة التي جادت بها الأفتار.

- كفى وقاحة مع والدك. لا تقلقي سأجد ما ألهي به الطفلة، والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختفي.

تنسحب تفاحة مسلطة علي نظرة فيها إشفاق وشك في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته "البيع".

وجها لوجه مع من ستعرف في النص تحت اسم حرة.

يحق في الكائن الغريب بلحتراز لا يخفيه من غريب جديد. لا بد من رسائل طمأنة لأحظى بالثقة الغالية.

- ها قد أخرجتك من "جوانتانامو". أنت الآن حرة يا حرة. أرنى كيف تكون بداية استكشاف العلم.

تجلس رضية التسعة أشهر على مؤخرتها المكتنزة باللورق الاصحي. تعود للتحديق في مطولا. يلمع في عينيها المتسعيتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب. ترمي ببديها البيضتين على الأرض لتنتطق كالسهم على أطرافها الأربعة باتجاه المكتبة. تنتصب على ساقين مرتجفتين. تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف تتحسس الكتب. تسقط أربعة منها

دفعه واحدة. تقاجاً بالدويّ قسقط بدورها على مؤخرتها من علو قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها باحثة عن ردود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي.

ترفع قامتها، أو قل تتسلقها من جديد، إلى حيث يمكن مواجهة بريق شيء يلعب. يتبين أن الشيء يستعصي على المسك والجذب. تدير الرضيفة وجهها بحثاً عن مصدر صوت محرز ومشجع على التعمق في استكشاف الأربعة أمتار مربعة من عالم سير هبها يوماً اتساعه.

يفترق نغرها عن ابتسامه أول صبح لأول عالم.

تعود أدرجها لتمسك بالشيء الذي لا تقدر كم هو ثمين لأمها وأبيها. تغليه بباليغ التركيز. تكتشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تنزع إلى أن يأتيها الصراخ الضلحك بالتوقف.

تغير الرضيفة اتجاهها وتقصدني بسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أنملها.

تتوقف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أنملها بشيء لا أتعرّف عليه. تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تنوّق للعالم؛ فاللسان بعد العينين-أهم أدوات الاستكشاف.

تنبيه حرة لانتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني بسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص التي بدأت ملامحها الكبرى تتشكل في ذهني.

ترمي الرضيفة برلحتها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطدم بالطاولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها مترنحة لتبدأ العيب بفنجان القهوة.

- ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني. ستتعلمين سريعاً أن الاستكشاف أيضاً اكتشاف الموانع داخل فضاء محتمل بكل الأخطار.

تلاحظ البنت تغير الذبيرة فتتوقف لحظة. تترك الفنجان لتستولي بصعوبة على الملعقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنبيه للمعجزة الجديدة. هي قادرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية.

تسلط عليّ نظرتها الثاقبة. كأنها لم تر فيها هذه المرة منعاً وتقريعاً فيشدت الخط. آه، يا رأسي. يكفي من هذه الملعقة اللعينة. رحماك يا بنت. اتركي هذه المستأثر وإلا سقطت على رأسك. الهاتف ممنوع وهو لم يفعل لك شيئاً، فلم العدوان الظالم عليه؟ لا، لا، كل شيء إلا أزرار الكهرباء. يا إلهي، أين اختفيت! هذا شيء اسمه التلاجة. يستحيل عليك فتحه وأنت في هذا العمر ولا بد من الانتباه حتى لا نجدك يوماً مجمدة داخلها. الحلّ إرجاعك ل

- "يا"، البنت تكبر بسرعة. هل فكرت بالقصص التي ستطلبها منك قريباً. تتكرر أن تقيحة
حذرتك في آخر عشاء لنا من إعادة استعمال القصص التي كنت تزويها لنا. يجب تجديد
مخزوتك القديم.

- تقاحة، موضوع ما زال مبكراً للطرح ، انتبهى لهذه البنت فهي فضولية أكثر حتى
منك أنت لما كنت في عمرها .

- أعتقد أنها ستمشي قبل بلوغ سنتها الأولى وأذاك يا ويلي من هذه الفأرة!
الفأرة!

وفي أقدم ملفات ذاكرة الطفلة والكهل، تضحك "ما" إلى أن يملكها السعل. تستعيد
بسرعة وقارها.

- أنت طفل مبكر في كل شيء، لكن ليس إلى درجة أن تولد متأهبا للمشي والركض.
طبعاً كنت تحبو ككل رضيع.

- هل كنت أطوف في كل الأرجاء؟ هل كنت تجدينني بسهولة؟

- بسهولة، لا. لكنني كنت أجده دوماً في مكان أقل توقفاً من الآخر.

تنتهد "ما" والبصر شلخص نحو الأفق:

- يوم وقفت على رجلك وأنت لم تبلغ سنتك الأولى زغرنت ثم قلت يا ويلي من هذا
الطفل الذي لا يكف عن الحراك. كل من عرفوك فيما بعد سموك الفأرة .

يوم يقف الأدمي أول مرة على رجليه!

إنه يوم أغرّ حقاً، فلماذا لا يورخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتتطلق الزغاريد
وتتصب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟

ها أنت تحرك رجلاً ترفعها بصعوبة وترميها على طبق نظنه صلباً لا تعلم أنه يطفو منذ
القدم على أنهار من النار.

تواصل تحسس سطح البسيطة بحذر في محله، والعثرة تلو العثرة تتبوك أن الطريق
مسلسل عثرات.

ينزاح عنك الخوف تدريجياً فهمت سرّ العملية وأن المشي ضرورة فقدان للتوازن ثم
تداركه.

كأنني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجعاً ومطمئناً! والآن تقدم، لا تخف أن تخسف
بك أرضي؛ إنها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل، ولا خشية أن تكون أنت بالذات الفتنة
التي تقصم ظهر اليعير.

**

تشكّل الملامح المبهمة لهذا الذي سنسميه العالم

لو تابعنا الأدمي في هذه المرحلة من رحلته وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهما وهو لا يكفّ عن الركض والرقص والنطّ والتسلّق والهرولة كأنه يبحث دون كلل عن شيء أو عن أحد. كذلك لو دخلنا وعيه وسجلنا ما يمرّ به من مشاعر، لأرهما وصف ما يمرّ به من حالات.

إنها المرحلة التي يضع فيها القادم الجديد الحجر في الفم ليختبر صلابته، يرفعه إلى الأنف ليتأكد أنّ ليس له رائحة، يرميه إلى فوق ليشعر بمقاومته للرمي... التي يتحسّس فيها الأواني والأدوات ليعرف ما تثيره من أحاسيس لا يخشى لمسها حتى وهي تلتهب نارا.

إجمالا الأدمي في حالة دائمة من الفضول الجارف لكل ما يحدث به من مظاهر وكائنات وأشياء.

بطل قصتنا الآن في وضع يسمح له بإرضاء هذا الفضول وكل معالم الديكور الفخم، الريح، الشمس، القمر وليل الصحراء، حاضرة لا تنتظر إلا انتباهه.

تصرخ الأم في طفل في الرابعة أو الخامسة بشدة غير معهودة فيها:

- ألم أقل لك مرارا: لا تخرج أبدا وحدك عند هبوب الريح! أدخل الغرفة بسرعة. لا تخرج إلى أن أسمح لك.

يظن الطفل من بين ذراعيها هاربا لوسط الحوش، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده داخله أبدا.

ثم كيف يضيّع فرصة تؤمّل شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟

هو الآن مختبئ وراء نخلة بجبل البصر مبهورا في اكفهار وجه السماء والموجات الخاطفة من الضياء تتنالي بعصبية متزايدة كأن لها يدح ولأعة تعاكسه، أو كأن عفرينا أشعل في كبد لسماء مصباحا من "النيون" يرفض العمل.

تتزايد سرعة ومضت المصباح الخفي وراء جبال قاتمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا يحمد عقباه.

يتصدّب الطفل عرقا ثم يبدأ في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج للغوط جريا وراء جده يساعده في سقي النخل. تعبوه لحظة فكرة أنّ الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال خاصة هو من حماقات.

تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفته مختبئا عنها وراء أطول نخلة الحوش يسمح الرمل عن وجهه.

تنفعه بقوة إلى الغرفة للصغير، تحميه من جنون الريح.

- هل تشعر بحرقّة في عينيك؟

- اتركيني، أريد أن أذهب للغوط. جدي هناك ينتظرنني.
- ألم تسمع كم طفلاً تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمه وأبيه؟
- جدي سيجدني. هو أحسن من يقفي الأثار.
تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صفير الريح: ممنوع، ممنوع، كفى الآن.
تختبئ وطفلها من غضب الريح في الغرفة الصغيرة، والرمل يصفع الباب الخشبي كأنه يريد الإجهاز على صيد طال ترصده.
- يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.
بوابة جهنم! نقطة الخلاف الوحيدة مع "ما" إلى يوم مماتها. كلنا نكتشف العالم في زمن لم نستشّر فيه ومن مكان لم نختره.
أية أهمية للأمر والعالم يتجلى لك بكل روائعه من أي مكان تدخله وفي أي زمن تتبلور فيه.
تعود الأم للنصح والتحذير وتلك مهمة كل دليل.
- لطف برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا لعاصفة الرمل، أنك لن تبعد عني. من ذا الذي سيضحكني ويخفف من أحزاني؟
لمغالبة عصبيتها لا تجد الأم من خيار أسوأ من رواية آخر ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فقدوا فيها الطريق والحياة أحيانا.
- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيام مَيّتة على بعد بضعة أمتار من الخيمة وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق. وهل حدثتلك عن "ب"؟
لما كاد يهلك وقد ضاع بين كثبان الرمل!
نعم، لكن كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جننا أصلا لغير متعة الضياع!
وفي ملف آخر يؤكد "با" ما روتته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكثّر عن الأنياب: لما هبت الريح، فقدت كل أثر لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد. ركضت وراءهم يوما كمللا والريح تمحو الأثار. ولما بدت الشمس ترميني بأشعتها كالمصيد يرمي صيده بالنبال المطلية بالندر، ولا طريق يدلني عليه إنس أو جنّ، أيقنت أنني هلك. ثم تذكرت كيف يكون المشي عندما يضيع الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة نخلتها أنتظر غروب الوحش. وعند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أياما بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهرا وأمشي ليلا إلى أن وصلت واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يفرئك يا بني من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجد تجهمها وويل أيضا لمن لا يبرع تحديها.

الطفل الآن حبيس عاصفة الرمل. ممنوع عليه العودة للهضبة التي تسميها لغة أهله "العرق". لن يجلس على رملها الناعم يتأمل تموج التلال الشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغفل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. أليس له موعد مع أبيه هناك وأمّه تعدّه أنه سيخرج يوماً من الطريق الذي وراء الكئيبين؟

يغمض الطفل عينيه ليرى بخيال في بداية تجريب قدراته أجداده يتقدّمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائل، الغزاة الذين دخلوا هذه الفيقي أول مرة، الغالطون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطاق من الأوجاع تأتي الكهل وهو يتفحص مشاعره أنها إعجاب وغيره ونكهة من حفيظة. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معدة لا متعة فيها ولا خطر.

كانني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة، تبيّت عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاقتك بالذي عشنا ونحن تائهون في هذه الصحراء لا نعرف لها بداية أو نهاية، تكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً... وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

تعود الأم لدورها الأزلي تفسّر وتحذّر.

- يا بني، نعم هدأت العاصفة لكننا في عزّ الظهيرة، لا مجال للخروج الآن، ثمة من مات بضربة شمس

كم سمع الطفل من تحذير بخصوص هذه الشمس المعلم القار المتحرك في الديكور الثابت للرحلة.

- يا بني، لا تنظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك.

هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فحسب وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تخلج له عضلة.

يشيح الطفل برأسه حتى لا ينگسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.

- "ما"، هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟

لا ينتظر جواباً، وقد اختار رده وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهماً استقرّ في كبدها فهوت من عليائها كالطير الجريح. يمدّ يده بحذر نحو صيده ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلّ أن يريق على الجمر الملتهبة بعض الماء ليلاعب بها بعيداً عن الأنتظار. ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الأفاق.

- اسم الله على ابني. كلمني. ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، قلت لك لا شيء.

يقفل الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضاً، يرمي بحصاته الشمس، لاعنا ما سببت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طلي بالفطران.

نعم الصحراء جهنم في عزّ الظهيرة الجئة عندما تكف الشمس عن اضطهادنا. الظلام أخيراً بعد طول الترحي و نفاذ آخر مخزون من الصبر.

- "ما"، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل؟

تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

- يا بني، ألا يكفيننا ما نفاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوقنا حتى بالليل.

- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

- لا أحبها! أنا أبغضها... أقصد شمس هذه الربوع.

يستوطن الطفل الشدّ والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار... بغض أمه للصحراء وهيام أبيه بها. يختار باكراً صفه إلى جانب أبيه ضدّ أمه... للمرة الأولى وربما الأخيرة.

تستدرك "ما" وقد فهمت أن طفلها لا يحبّ قنحها في شمس الأب والجد:

- لا أجمل من غروبها وشروقها حتى هنا... أه، وهي على وشك البروز! لكن... لماذا تنقلب فيما بعد إلى...

تصمت "ما" لحظة، تصيح السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع نغاء الجدي المولود الجديد.

ثم تشخص ببصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.

- أه الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي أطف وأرحم!

- هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟

- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.

يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوره للعالم: إن له ثوابت يعرفها الناس جميعاً وينشأركون فيها.

كلّ الجوّ السحري رفع عن روح "ما" تحفظاً بقيت إلى آخر نفس تخفي وراءه حساسية مرهفة وخجلا دفيناً. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترنم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا الفلاحون والفقراء.

- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكملوا نقش "البخنوق" الذي نليس؟ هل كان سحريا تختفي داخله فلا يراها أحد؟

تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.

هذا طفل قرّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من العالم السحري ولتقل "ما" ما تشاء.

¹ نسيج من القطن يوضع على الرأس وينسدل على الكتفين إلى مستوى الخصرة تعمره النساء البدويك خارج بيوتهن (لناشر)

- أنا و"با" وجديّ نحبّ القمر. أعرّف أنك أيضاً تحبّينه كثيراً. سأنتظر طلوعه معك.

- قد يأتي متأخراً هذه الليلة.

- لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.

- أمر سيدي ومولاي، لكن لا تنهني إذا حللك النوم.

قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيخه ظهوره من ارتخاء محبّ، ففي الليالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه الوحشة والسحنة المكثّرة التي يتخذها عندما يتسرّب بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد السماء حتى تتراجع الكوابيس والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف اللصوص والعشاق.

هذا طفل ما زال بعيداً كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص والعشاق وبقية الكائنات.

من علم الأدمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعرّف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟ من غيره أوحى لنا أنه لا يدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟

ثم أكثراً نختار مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلم؟

أهم كل هذا في تساؤلات الطفل الصلة التي تبدو وثيقة بين هذا القمر وبين الهلال.

- "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتبعه الهلال.

تحاول الأم التصحيح:

- هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه "القمر".

- لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه جرم آخر. لو كان كلامك صحيحاً لوجد هلال للشمس.

تبتسم "ما"، تداري حرجاً. أليكون للشمس هلال لم يتقطن له إلا طفلها؟

- "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

- لنفس لسبب الذي لا يوجد إلا طفل واحد مثلك، كل ثمين يا حبيبي فريد.

"كم عمر القمر؟ (بيسا)

ثلاث عشرة سنة.

تقرّباً!

موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهم الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على "ما" دون إثارة ضحكها، وغدا على "با" لإثارة إعجابه.

أولى النظريات أن القمر كوكب كبيرة قد تمكّن جسمه للنحيل يوماً من التسلّل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضاً إمكانية أن يكون بالون عيد الكائنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوساً يمسك به الكائن العطوف الذي

تصلي له لَمَه، يهش به على العفاريت التي تملأ أحلامه، وبغايه تعود الأثباح المخيفة التي تملأ ساحة الحوش، تترصد به وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليحور بكيفية جذرية-وظيفية في اللوحة الجديدة بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهق محتشدا كونيا رميت على سطحه الكائنات الأئمة لقضاء عقوبة اسمها "الحياة". يصبح مصباح الليل عين حارس المحتشد الأعور، ذلك المدعو في قصص قومه "إيليس".

لم تكن رغبة معرفة طبيعة القصر الحقيقية هاجس هذا الطفل وحده، وإنما هاجس الأطفال على مر العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسّسوا على كل طريق يتبعه، واكبوا تغير ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا وأتبعوه إلى أن حطّوا الركاب على سطحه ليتنفسوا الصعاء وهم يشاهدون بأعْيُنهم ولحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترجّح البدر ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار.

يعود الطفل لأسئلته الغريبة التي لا تتوقف أبدا.

- "ما"، من ماذا صنع الله الشمس والقمر؟ لا، لا تقولي، أنا أعرف، أنا أعرف. الشمس مصنوعة من ذهب قرطيك أما القمر فمصنوع من الفضة كالتي حول معصمك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

- فكرة مثيرة، لكن صكفتي، يا بني، لا أدري.

- ساقول ل "با" عندما يرجع أنني اكتشفت مما صنعت الشمس والقمر. سيكون منقفا معي في كل ما أقول.

- لخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقوله هي.

- "ما" أريد أن تروي لي أطططططططط قصة في الدنيا، أنا أحب القصص لكنك...

- نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جنتك التي...

- لا، لا، تعرفين لكك لا تريدين...

تضحك "ما" بجرج.

- صحيح أنني لا أحب القصص... قد يكون لأن جُلبها للتخويف أو لتزيين الواقع.

هل نطقك "ما" حقا هذه بهذه الجملة أم أن النصّ يقولها ما لم تقل في إطار إعادة صياغته للأحداث وتزيينه هو للواقع؟ ربما قالت شيئا من هذا القبيل علق بذهن الطفل وأعادت ذاكرة الخيال صياغته بعد عقود. ربما هذه هي القناعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع لقصص الألبين فوضعها على لسان أحكم من عرف منهم.

يعود الطفل للكلام يغالب تناؤب المشرف على الرحيل للصفة الأخرى من العالم. تضع الأم اصبعها على فمه هامسة في أذنه: أذنت.

- أذنت لأي شيء؟

- للصمت... لكل هذا الصمت.

للصحراء ليلاً وقار يثني عن كل كلام وخاصة قدرة النقر الرقيق على أوتار مبهمة داخل كل ذات في نزوة الوعي. هكذا وقف كم من أدمي ملهم همسا لنفسه وللسماء المرصعة بالنجوم: تنكّرت من أنا، تنكّرت من نحن، نعم أنا أعرف ماذا نفعل كلنا هنا! كيف لا ومن شروط الوحي أن يلبس العالم أبهى حالات الجمال والجلال وأن تفتح الذات أعينها على مصراعها لرسائله الصامتة، لهذا كان إنجاب وسيقى الأنبياء من اختصاص الصحراء والصحراء وحدها.

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماء هي الأخرى كالصحراء مغرقة في الصمت... أو هكنا يبدو. لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء للسكنة تخفي وراء وقارها الخدع دوي انفجار شمس أين منه دوي ألف رعد و رعد، وهدير مجرت تتناطح أين منه هدير ألف محيط ومحيط، وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثوب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظ أو من سوءه أن بعدا لا يتصوره غل يمنع عنّا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج.

ينتبه الطفل وهو يغالب موجات النعلس لبريق ما يتلألأ في حالك السواد الصامت. يرفع رأسه يجيل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط ذهن على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟ يجلس فجأة ليبدأ العد. لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخطئ في تتابع الأرقام. ثم تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به النجوم. بعد تلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته لـ "ما". يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنتور.

ليأتي هذه عروس من الزنج عليها قلاند من جمان (المعري)

سؤال آخر يرهق به ذهننا مشغولا في أن واحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبانل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها في ظلمة الليل عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟

إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصالحتها بها. لا، لا هي رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون تقوبا في ستر داكن أسدل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو وأمّه والدجاج والماعز والعمات والأعماج والجد، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "ما" الله. ألا تتردد دوما أنه نور يوجد في السماء؟ كان وثقا أنه لو وضع عينه على أي من هذه الثقوب لراه جالسا على عرشه. أه، لو استطاع التسلسل عبرها ليلاقي هذا المخفي الذي لا يزيح اللثام أبدا!

كم استقرّ فيه هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تتاجبه أمه في الجهر وفي السر، فضولا جارفا! كم صورا مشوشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تنضح بها

حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن صورهِ في فكر الطفل أنه أنمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام بمشاكل "ما"، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مرددة أنه لا سند غيره يرجى في هذه الدنيا. لا مجال للتأكد من الأمر إلا بالسفر إلى حيث يوجد. ما الحل وثقوب النور متناهية البعد ولا يمكن أن يصلها بقامته الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلم، بوضع على سلم، بوضع بدوره على سلم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تنتسج الثقوب الصغيرة لمرور جسمه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع. الحل بالطبع: فانوس الليل عند اكتماله.

حانت لحظة "الإسراء" وقد أثقل النوم منه الجفون وانتهت المقاومة العنيفة. يبدأ الطفل التسلق وكل درجة يعنيلها تزيده خفة وجذلا إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يثب من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه مصطبة شاهقة مفروشة بالسجاد الفلخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها السحاب. يمدد الطفل قامته للصغيرة إلى أعلى محاولا التمعن في ملامح وجه مشرق بالنور.

يبتسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر -وهو جالس على ركبتيه- بأنفاسه الهادئة على عنقه.

- ماذا تريد مني، يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حب! تتزاحم المطالب عن أب يريده عاد من الغربية ولا يجب أن يعود إليها أبدا، وعن أم يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا تروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من النجوم لجيد "ما"، وعن مسحة جديدة للجد، وعن جحشة جميلة بزوجها عنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كلالل أسئلته ليفهم كلالل شيء. تتسع ابتسامة الكائن المهيب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشبع روحه بلطمانينة وتغمره سعادة فائقة.

يشعر على وجهه بيد تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.

- "ما"، لقد كلمت الله وقلت له ...

ترتسم على وجه الأم علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.

- إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إياك!

تضع "ما" يدها على فم ابن كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط؟

يرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأول مرة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبلغها.

- "ما"، لكنه قال لي...

- يا بني قلت لك كفى.

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه. يفضل الإخلاق للنوم مجددا وهو لا يعلم ما الذي يخبئه له المنعطف الجديد من الطريق.

من أقدم الذكريات التي تشكل مادة هذه القصة شيخ جليل ينكبّ على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- صيف الصحراء والحصباء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم غدا إلى أهلك في الشمال على مسؤوليتي، وسأبلغ ابني بقراري وسبقه وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

آخر ليلة للطفل في صحرائه الغالية لا يعلم أنه سيرحل عنها وسيرحل بها كاملة داخل وجدانه.

تنحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:

- انهض إبه الفجر

تهزّ طفلها برقة متزايدة الحزم فينهرها

- اتركيني.

- انظر، سترى ما يعجبك كثيرا.

يجلس الطفل حذو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، ألجم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شيئا فشيئا يتلون ثوب الليل بصره شاحبة، تصبح شعلة نور، تتحول إلى بحر فان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصفى لم يتجمد بعد في سباته.

ما من شك في فضل بناء معابد مذشوبيتشم على البشرية جمعاء. لا أحد يعرف كانت تربط الشمس عند الغروب إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الودت. يبقى-أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب-أنا ربما ندين لهم بعدم لياذها بالفرار رغم كثرة ما اطلعت عليه من أسرار وما شاهدت من بشاعة ومن ثمة ثباتها على الشروق بعد كل غروب.

تستغرق "ما" في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتيها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتبع وجه الله بيتسم. تفرغ الأم من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

- لم تنظر في الاتجاه المعاكس.

يتسمر الطفل أمام معجزة جديدة، والقمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النهار نصف الزمان، ولفانوس الليل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء.

إنها حالة يتخذها العالم الطلوس عندما يقرّر أن يفتن أنظار من دعاهم إلى مادية الحياة. بدهاء لم يتخر داعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النقفات لتزيين دار

الضيافة، أليبيرنا بغناه وحسه الفني المرفه؟ أم ليعوّضنا عما سنلقى من عناء في دار
ضياقته هذه؟

**

اكتشاف الزمان وأنه نغم إيقاعه رقص الفصول

شينا فشيئا تتضح وتثبت في ذهن الطفل المعالم الكبرى للعالم الذي فُلق فيه. فوق رأسه السماء زرقاء اللون نهارا حالكة السواد ليلا مقام الشمس والقمر والنجوم والله.

تحت قدميه الأرض وما تحمل من بشر وبعير وحمير. وراء غابات النخل كثبان الرمل وورائها امتداد مجهول سيأتي زمن اكتشافه لما يخرج بحثا عن "با".

تأتي مرحلة الانتباه لكون كل ما حوله لا يثبت على حل. فلشمس تشرق وتغرب والقمر يظهر ويختفي وعاصفة الريح تزار وتضمتم ومغص الجوع يرحل ويعود. ثم يكتشف الطفل أن للأيام وإن تشابهت نكهة مختلفة، أن هناك أحداثا تأتي بمواعيد ثابتة يعر فيها الكل بل حتى هو.

أية دهشة كانت تصيبه لو أقيمت السوق الأسبوعية عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس؟

ثمة يوم أدرك باكرا أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب تسارع لإعداد عصيدة السكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي لا تنفك عن ذكر اسمه تتبرك به تترجى حمايته من أخطار مبهمة.

ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيبها تحل أسعد ليالي الأطفال وأشق أيام الكبار، والكل فرح راض بما أمر به الهلال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أريده أن يبقى طول الوقت.

- لا تقلق يا بني، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكد؟

- رمضان لا يخلف وعده أبدا.

- أنت متأكد، متأكد، متأكد!

- كل التأكيد. على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحب هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مشبع ذلك اليوم بروائح الحبوب والحب والأمل. المشكلة أنه يرحل هو الآخر تتبعه أيام لا لون لها ولا طعم.

ينتبه الطفل يوما أن عليه مواجهة القَر بعد طول المعاناة من الحر.

لا مكان يلفحك فيه الهواء كوهج النار قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء متجه. ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

"ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بني.

- ما معنى فصول؟

- كبرى التغيرات التي يعرّفها الطقس... أي الجو... أي...

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغير؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

يواصل الطفل بحثه عن المعطيات الضرورية لكي يتشكل العالم في ذهنه بأكثر ما يمكن من الوضوح.

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

- نعم يا حبيبي لفصول أربعة. سترى تتابعها جميعا ونحن الآن في أرض جنتك، بعيدا عن تلك الأرض التي سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف مبتليا إياها بلهب جهنم أغلب الوقت ولبليالي الصقيع ما بقي من الزمان.

ما أحلى الخريف هنا واللهب يشتعل في دولي العنب! ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعمّر تاج أزهارها البيض!

- "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة.. ما اسمها؟

تكفّف الأم دمعها ثم تبسّم.

- "ما" لكن لماذا أربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظا من أرض الآباء والأجداد؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه، الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته؟
يغيّر الطفل وجهة الحديث.

- "ما"، أيهم الأول؟ أيهم المفضّل عند الله؟ أنا متأكد أنه الفصل الذي خلق فيه كللالل شيء.

تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعابث به طفلها وينسيها همومها.

- الأجل طبعاً... الربيع.

يتقدّم الطفل لأول أيام الخلق مرحبا ومهنئا بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهشّ نافذ الصبر بعصاه وبيعض الربيع على بقايا سحب عذسة بلون الرماد فتصرف متوقّعة برجوع قريب. ثم يمرّر خرقا لامعة البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على نكر الألوان، ليسمح لي بالتعبير مجددا عن عميق الاحترام لهذا الفنان القدير والاحتجاج على قلة انتباهه جُلّ المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلّى بها وما يزال. هل عرقتم نهرا طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوقّف على الدوام. صحيح أنه كان يوسع الفنان الأعظم أن يظهر مزيدا من الكرم أي مزيدا من الألوان للسماء

وللأشياء والكاننات يغيرها طول الوقت، حتى نتسلح كل صباح للنافة لنصرخ مرة: ما أروع هذه السماء الوردية، وتلة أخرى: أفت، ما هذه الصفرة الغبية التي اتخذتها الأشجار، الظاهر أنه سيكون يوما بطعم القرع.

تقول وأنت على ألف حق كفى دلالا يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يلهم أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الحلبي والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه لتندافع الكائنات من مخابنها، تنفض عنها الخمول والحذر. تخرج أول فراشة تستعرض جناحيها الجديدين بغنج. تتبعها أول نحلة يدل اضطرابها أنها ما زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أول نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينته، أول عصفور مرتيك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقية الكائنات على الركح إلى أن يمتلئ بها ويفيض.

هذا الربيع ' ' ليسا "

حتى ظلي

مفعم حيوية

أن أوان إطلاق الروائح من مخابنها. تسكرني ما تبغ الحشائش والأزهار من رسائل الحب. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنها نحلة تريد دس رأسها في أزهار البرتقال. تؤكد أنها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعل عدم الانتباه مواصلا الاستشاق النهم. تكيني علامات مبهمة عن نفاذ صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذراعا بأذف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها عبر مختلف الفضاءات بصورة أنف عتيا فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله لينمزغ في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المزة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض وتسارع للنحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتتمان صفقة لا تريداني ظلماطرفا فيها.

أه، كاد "السيد ربيع" أن ينسى من فرط عجلته الأهم. يرفع عصاه في وجه جوقة ما تزال خرساء. تتعالى من كل ما يمشي وينط ويطيثر ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ كذة الجماع. نعم، ما من شك أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغير الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- لا، لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مركبًا بالصيف ومهينًا بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتناقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلاً؛ إنه راجع، فلا أحد يطيق له فراقاً.

يطرد القادم الجديد بفضاظة ما بقي متردداً من قطعان السحب، يريد للسماء فارغة إلا من شمس كأنها قنّت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفّرة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيراً ذراعيه فيدخله الطفل سعيداً بقاء موج عاد مضيافاً بعد طول التمتع. تتخذ حركة الكائنات حدة غير معهودة وكأنه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالأميين من شيق. يعزّي الصيف الأجساد أو يفتعل تغطيتها لأنه هو-لا الربيع موسم الإغراء والحب. ترتخي الأعصاب بطول ليل يصل كالمقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانها الكائنات ترخب وتتمنى له طول المقام. تتصاعد روائح الريحان والفلّ والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شك أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل سلحاح اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، أنا متأكد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تمشح ما بقي عالقا بالجد الأسمر من الرمل، تأمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حن وقت الجد والكذب.

يجمع الصيف حوائجه متأقفاً من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يتقدّم الطفل لأول أيام الخريف مركباً ومهيناً بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمثلت للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تندرت بالأوراق الميتة سمادا لتجدد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يلبق بأشجار محفظة. كذلك الأمر بالدسبة إلى نخل لا يحيي هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيهها دوماً حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصغير. تلأخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصياد رصاصه الموت. تمتلئ للسماء بأشلاء بقاياها وبقايا أشلائها. تتحرك نباتات بأعصانها المحفلة ووروداً حمراء كأنها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتنفع عنها عدوان الريح. تتمكن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل والتثني. يشتد لغط الأوراق؛ تشتكي لبعضها البعض من

ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صغيرا مسترسلا ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردّد دويّ الطبول السماوية وقد طليت قبة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلّم الأبيكم، أن يطير من لا جناح له!
كم من أسئلة تخلمر ذهن الطفل المشدوه. من أروع البرق وأبين الطبول التي يصمّ قرعها الأذان؟ من يحرك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الرّيح؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟
نعم ما من شكّ أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي اقتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام:

- "ما"، لم تشاركيني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتعدّم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحبا ومهننا بحسن الوصول.

يضرب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عال في أصابعه المتجمّدة من شدة البرد. تنلّكأ حبكت الثلج في الوقوع. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تهجم الأم الأزلية على طاقيته تشدها بقوّة إلى أسفل الأذنين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفدّة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاس كما يقولون؟ بل قل فصل يقصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالثخمة أسرفت في العطاء. أمن باب الرحمة أنه يمنحك أيضا يوما قصيرا مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه المشاكل؟

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفء. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج النوافذ بضربت خفيفة تأتي بنوم تتخلله أحلام هانئة.

نعم، ما من شكّ أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي اقتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

حتى لا يتعطلّ الكلام، يبادر الطفل أمه بأخر سؤال يتدافع على لسانه:

- "ما"، طبعاً الفصول الأربعة إخوة، من أحبهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كيه لم تستقرّ يوما فضول مؤرخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي ويوسن تقادا اتخاذا أي موقف، الأول مكثف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحملين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.

إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كلن أعجز من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه،

فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّاً في أذن الربيع: أنت الأول وثلاثتهم وراعيك، وفي أذن لصيف: اصطفيتك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم وراعيك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم وراعيك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم وراعيك. إنها دائرة الزمن التي حكم علينا أن نرتحل داخلها. قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكوّن نفسها بثبات عيبي مملّ، وقد نكون الأشكال الأصلح الذي يسمح لكل نقطة نهائية أن تكون بداية لمشروع عنيد بالغ القدم على الدوام جديد.

**

الدليلان

القاسم المشترك بين الرحلة بمفهوم ابن بطوطة ومفهوم المعري ضرورة الدليل.
إلا أن هناك فرقا جوهريا في طبيعته.

في رحلة ابن بطوطة انت كمن يركض وراء دليل في محمية افريقية تزورها لأول مرة -
الدليل شخص لا تربطك به أي صلة عدا عقد ظرفي. يجبره هذا العقد على قيادتك على
طريق محفوف بالمخاطر إلى أن تحقق هدف السفر. يجبرك نفس العقد على مكافأة هذا
الذي خدمك نقدا وشكرا. بعد ذلك يذهب كل واحد في سبيله تنساء بأسر ع ما ينسك.

أما بمفهوم المعري فالدليل جزء لا يتجزأ من الرحلة من بدايتها إلى نهايتها.
هو الجسر الذي يحملك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود.

هو السفينة وأول مرفأ تنزل به. هو مدير التشريفات المكلف بتقديمك للأشياء والكاننات.
هو متعهد الخدمات اليومية، ناهيك عن كونه أول مرآة تكتشف فيها ذاتك.

هو من يفقد أولى خطاك في العالم ... لكنه أكثر من هذا.

هو الذي تبدأ النظر بعينيه لهذا العالم وتواصل الأمر لأمد طويل. قد تبقى تتعامل معه
طوال حياتك وفق ما وضع في ذهنك من تعليمات أغلبها لا واعية.

أين لك خادم كهذا لا يستقبل ولا يطالبك يوما بأتعاب متخلدة بالنمّة وبخلاص الساعات
الإضافية الطويلة التي بحرّمها قانون الشغل!

لوعيا بكل ما في الطريق من مصاعب واطار لا يقدر عليها دليل واحد، ارتأت
للسلطات العليا التي خططت رحلتك أن تمتك بنسختين منه.

أول من تتعامل معه منذ انطلاق الرحلة هذا الذي يسميه كل أمي مهما كانت لغته "ما".

كم من نصوص كتبت في هذا الدليل الأول! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم
من أغاني، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبدا له وتبركا!

على مرّ العصور جعل منه الذهن البشري "أوما" أم الكون، و"سدنا" أم الحيوانات،
و"قنايا" أم الحياة، و"عشتار" أم الحب، و"ارشكيجال" أم الموتى، و"إيزيس" أم الربيع،
والعذراء أم المخلص!

كم لنا أساطير لا تحصي عن قتل الأب، لكن ولا اسطورة واحدة تجاسرت على تخيل قتل
الأم.

أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر
الصور النمطية شيوعا وابتدالا.

هل من المعقول أن...؟ كلاً ثم كلاً. تستوقفني سرعة الرفض وغنفة. نقرع داخل ذهني
أجراس الخطر. ترى ما المخفيّ بمهارة في باطن أقدم الملفات، ما المحرّم، ما "الطابو"؟

تسترجع الذاكرة براعم مشاعر بالغة التعقيد، بالغة الغموض، بالغة الحرج، فيها غيرة باهتة وحرج متوارٍ وإنكار سلاج أن يكون هنا الألمي ضالعا في أمور فيها سوانل لزجة ودماء متدفقة وجلد ولحم وأتات لذّة وأتات ألم، وأن تكون الذات نتيجة كلّ هذا. مانا أيضا عن بعض أحداث صغيرة أخرى لا تتماشى مع صورة القديسة. لا أكره لديّ من أن أكون متعبدا أو أن يصوغ ذاتي صنم حتى ولو كان صنم "ما".

يا ما تعلمت عن الأميمين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم! كم منهم يتقتمون كأطهار وقديسين وهم أقدّر المخدعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة! أمر جدّ طبيعي وعدم الكمال أهمّ خاصة في الأميمين وهي محرّكهم الأساسي نحو هذا الكمال الذي لا يجرون ورائه ولا يدركونه أبدا.

تتردّد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعرّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن تجرحني. تصاع مكرهة للأمر الجاف.

- كانت... كانت رحمها الله تقسو عليّ... وأحيانا... تضرّبنني.

ما العيب في أن تفضّل أمّ أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتّز إناء الخزف الجميل. يوشك على السقوط من عليائه والتّهتّم إلى ألف قطعة.

ليتنّي ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائنا أنميا بنواقصه على التعلق بصنم طلي بالذهب المزيف؟

ثمّة تماثيل تبدي فهما عميقا لا تتازل فيه لطبيعة دليّك الأول هذا. تتلمّلتها من جهة فترى وجه "كوماري" ربّة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت "كالي" تتلّوى راقصة على جسد طفلها المرمرى تحت قدميها، قلادة الجماجم حول عنقها، ومن أطرافها تتدلى رؤوس تقطر دما.

إنها قاعدة أساسية لفهم الألمي: إن أدار لك وجهه المضيء، ابحت عن وجهه المظلم، وإن واجهك بوجهه المظلم ابحت عن النور المطمور وراء السحنة البشعة. حتى الأمّ الأزلية لا تخرج عن سطوة القاعدة.

تقول كفى عقوقا وتجنبا على اللواتي وضعت الجنة تحت أقدامهن!
عقوق؟ طبعا لا.

لا أتمنى بعض ما كانت تجود به الأمّ دون حساب إلا ويعوي أحد: لذهب؛ ابحت عن أمك عند غيبي.

لا ابحت عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحي إلا وأسمع صوتا يصرخ: هل تعتقد أنني أمك؟

آخر ما سخروا به منّي لاقّة قاعة الاجتماع: "اغسل فجان قهوتك يا هذا؛ فلمك لم تعد تسكن هنا من زمان".

أي أنمي مهما كان ناكرا للجميل لا يدين بأجمل تجارب الحياة لدليله الأول؟... ومع هذا. كم من دراسات علمية تقضح ما لا يصدق عما يفعله بأطفالهم نوع من الأمهات والآباء!

كم من دليل ما ان استلم القدام الجديد ولو نازلا من أحشائه إلا وحتى بادر بلفه في خرق
قنرة ورميه في أول صندوق قمامة وفي أحسن الأحوال تركه يصرخ طالبا النجدة على
اعتاب مسجد أو كنيسة!

كم من دليل منع عن زيونه الصغير أبسط حاجياته وجعل من رحلته جديما لا يطاق!
شواذ تحصى ولا يقلس عليها؟ نعم، لنطمئن أنفسنا لا أصعب على العقل والقلب من
صورة أم أو اب يتحول جلادا.

للأسف هناك طيف من الموقف والتصرفات تجاه القدام الجديد ينطلق من أقصى الخير
الذي تمثله كوماري إلى أقصى الشر الذي ترمز له كالي... وبين النقطتين كل الممكن من
الحالات والأوضاع التي ستعطي لكل رحلة نكهتها الخاصة حلوة أو مرارة واغلب
الوقت مزيجا من الاثنين.

يشاء حسن طالعي أنني سقطت على النوع الذي تكتب بخصوصه رسالة شكر للإدارة
العامة مع توصية بترقيته وتخصيص أحسن مكان له في الجنة (حتى وإن كان لنا تحفظ
بخصوص هذا الجزء الأخير من التوصية سنتعرض لتفسيره لاحقا)

تطرح الظاهرة قضية المواصفات المطلوبة من الدليل الأول لتتلائم مع طبيعة المهام
التي تخول له التمتع بأجمل لقب وإلا كان الأمر انتحال صفة وتحيلا عليها.
أولى المهام طبعاً ضمان المؤونة التي بدونها قد يتوقف السفر نهائياً. يأتي يوم يجب
البحث عنها خارج جسد الدليل.

ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمات كأنها لتصقت بحلقها:
- أيوك في مكان لا يمكثه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء...
هذه الليلة فقط... جدتك سنزورنا قريباً... ربما غدا... سنأتيها بالكثير من خبز الطابونة
والزيت والزيتون وكل ما تحب.

تعضّ الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها... ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على
الخد قطرة ندى على ورق الورد. يصرخ الطفل: "ما" لست جانعا. وأقسم لك برأس "با"
أنني لن أجوع أبداً، أبداً، أبداً.

تعبر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كلن بها تردد بين ربع الابتسامة أو تفجر
للضحك.

تضع ذقنها على رأس ابنها ثم الخد المبتل على الشعر الأشعث.
يفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة الموالية صارخا وقد جاءتته فكرة
عبقرية أخرى:

- "ما"، سأشرب كثيراً من الماء حتى يكف المغص الذي في بطني.

تضع الأم إصبعها على شفتيه يسود الغرقة صمت متهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح الغاز القديم وهو بين حشرجة المصنور وصفير الثعبان يرمي بأخر ما في جعبته من نور باهت مرتعش.

تتخلل أحلام الطفل صور لعجوز تضع عجينا داخل فرن الطين تنتفخ بقوة على الحطب، تسعل وتمسح عينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجلي؛ ابني جلع.

فجأة يشعر بأمه تهزه وبها شيء كالجلد: هيا. انهض. جدتك أتت لنا ببقعة فيها ما يكفيننا لأسبوع، وبعدها يفتح الله.

كانت أم "ما" فارعة الطول، ثرثارة، مرحلة تبرز من قريتها لتفقد أحوال تعلم صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بالخيرات التي كتلت تحملها، بجو الفرح والحنان الذي كانت تخلقه بمجرد ظهورها.

تجلس العجوز المرحلة على الدوام على الحصير البالي تعدّ لاشاي وهي في قمة السعادة بعودة لبنيتها وبرؤية بعض من أحفاد أر هفت كثرتهم ذكرتها فبقيت تخلط بين الأسماء إلى نهاية العصر.

كانت تخرج دوما علبة معدنية صغيرة تفتحها بمنتهى الوقار، تتناول منها مسحوقا أخضر داكنا تمسكه بين إصبعين ماهرين، ترفعه بتمهل إلى أنفها تستنشق رائحته بلذة واضحة. يغفلها الطفل ليسرق بعضا منه يدسه في أنف فيباغته الإلتهاب والعطس.

تضحك الأم وأم الأم إلى أن تستلقيا على الظهر ثم تتسابقان لتقبيل الطفل الغاضب. إلا أن ما كان ينتظره بفارغ الصبر هو أن تنزع الجدة المحبوبة عن رأسها وشلحا بالغ القدم تعتمره وتتدلى ذوائبه على كتفيها تخفي في طياته كنوز الأرض القلبية. كانت تفتح عقدة في هذا الوشاح، تخرج منه قطعة نقد هي ضريبة تتخلص بها من طفل مشاكس تحبه وتضيق ذرعا بكثرة شغبه. كان الطفل يلتقط القطعة أو قل يخطفها مطلقا ساقبه للريح وكله مشاريع حول ما سيشتري بها من ملذات النكأن القريب، تاركاً نصيبه من الحلوى تحت حماية المرأتين، عالما أنه يستطيع الثقة بهما... في مثل هذه القضايا على الأقل.

يجلس الطفل بين امرأتين تتهلّسان لفطور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاهيه يوما فطور. تلتحق بهما نسوة الحي. جنن هذه المرّة للتهلمس في أمور خطيرة تقع وسط مدينة صغيرة أفاقت على حصار الديابلت.

تصرخ الجدة في الطفل الهانج وقد نفذ صبرها من ضجيجه.

- إن لم تكف هرجك فإنّ العبيثة ستأثيك هذه الليلة وسترى ما سترى.

العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع.

يا ما هدته عنات وخالات بهذا الكائن المرعب الذي يخرج من غلبة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبة بالأطفال الشرسين سلبطي اللسان.

يتوسع عالم الطفل لكائنات موجودة لكنها أصعب اكتشافا على البصر حتى من أفاعي الصحراء. لم يبق عليه إلا تخيلها ورسمها ليخفف من خوف مدام.

- ما من أخطر؟ العبيثة أم الأفعى؟

- أولاد الحرام.

- أولاد الحرام؟!!

تصرخ الجدة ضاحكة تريد تدارك زكة لسان ابنتها:

- اسمع بيقية قصة البارحة، لكن كفت عن القفر على هذا السرير. إذن: وقف علي بابا على باب الغار.

ذهن الطفل الآن مشغول بأولاد الحرام أكثر مما هو مشغول بيقية قصة عنتره ابن شداد.

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونون أخطر من العبيثة؟

يغمض الطفل عينيه، يترصد قلعا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يتعمق صمت الصمت ويغوص العلم في ظلمة لا قرار لها. يغرق الطفل في أمواج مضطربة من خوف ممزوج بأشد الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاء؟ يصدر الباب صريرا ويتحرك شيء في الظلام. يثب الطفل على قدميه مرتعشا والحجارة التي هزبها معه إلى الفراش ملء راحته والذراع على أهبة الرمي. هل سمع من قومه بكرا إحدى مقولاتهم؟ أم هل وجد وحده القتون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع حجارتك دوما في الجيب.

تبادر أم جاحظة العينين من الدهشة:

- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبيثة؟ أه، العبيثة، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم مطمئنا. لك ساهرة على الباب، سأترك لك النور.

يتنفس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه منمتما أنه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل "با" جئا أو إيسا وأنه سيشرح رأس العبيثة بحجارته لو تجاسرت عليه. ثم يثب من فراشه ملتجنا لفراش أم تقرر الليلة إعطاءه حق اللجوء.

ألبيست المهمة الأخرى للدليل أن يكون الحامي من عالم يعج بالمبهم والواضح من أخطار النهار والليل؟

تنتسرع نسوة من الأقارب والأباعد لمعينة بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعدادت مكسوفة من الصحراء بطفلين مريضين.

- أه، هذا هو الطفل الكبير. مسكين يبدو أن والده ملاحق ومطلوب من البوليس، ردّ الله غريته لتجدي من يعيلك انت وطفليك. "الله يخليه لك". نعم، طفل جميل رغم سمته. ربما توحدت به على عبد وقانا الله من شرّ العباد وشرّ العبيد. "الله معقينا". يا لعينيه! كئنه يقرأ في الأذهان، ما اسمه؟ لكنه ليس اسما من أسمائنا... أه، والده هو الذي سمّاه تيمنا بملكتنا الطيب!

الاسم ! ... كم من أجزاء من ذاتك سيأتيها الوهن والعطب واسمك كئول مرة سمعته من "ما" لا يصاب بمرض ولا يشيخ أبدا! ... أهم ما في هذا الاسم ليس تعريفك وتمييزك من بين جفائل الخلق وإنما إجمالك في مشروع غلمض، في أمل مبهم، في مهمة عليك الانتباه لها... لكن من أين لكل عمر أن يصبح الفاروق الحازم العادل ولكل مريم أن تلد مخلصا وإلهيا! ... أي مسار كانت تتخذه رحلتي لو كانت "ما" هي التي أطلقت عليّ اسما محملا بتعليمات وأمان صامتة غير التي حملها الاسم الذي فرضه "با" عليّ لمتابعة مهمة ملك اختاره نمونجا لابنه دون تفكير في ما سيكلفه الخيار!

تنتهذ احداهن بصوت عال تهمس في أذن "ما" لا تعرف أنني أفعل الذوم:

- يتيم الأب يتوسد الركبة ويتيم الأم يتوسد العتبة.

يثب الطفل من الحضن صارخا:

- لا أريد أن تموتي، أتسمعين؟ إذا متّ لن لكلمك أبدا!

تجمع النساء حوائجهن يتلغمن ببعض عبارات الاعتذار لانذات بالفرار.

تحكم الأم ذراعها، تمسح دمعها يتهاطل من عينيه ومن عينها:

- اطمنن. لن لموت، هتئ من روعك.

- و"با" ... هل ... هل مت؟

- يا حبيبي، أيوك حي برزق.

- إنن لماذا لا يأتينا أبدا؟ ألم تقولي لي انه بانتظارنا هنا؟ لماذا تركنا جدي والصحراء؟

لماذا جننا لهذه المدينة البشعة؟ لماذا بتركنا وحدنا دوما هنا أو هناك؟

- يا بني إنه مطارد ... وله كثير ... ممن يريدون به الشر.

ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها.

يعلم أن أمه تخفي عنه سرا له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهامس بخصوصهم مع الجدة

وهم ليسوا جنا أو غاريت، إنما بشرا كالذي يعرف، لكنهم، لسبب يجهله، يريدون الشر

به وخاصة ب "با".

يا للطفل المسكين لو علم مواعده معهم تلك الليلة!

يتعالى القرع مرعبا ككل قرع فظ في آخر هزيع من الليل. تتشنج يدا الحليل الذي لا ينام

إلا متحفزا حول ذراع طفل متحفز هو الآخر لوعيه بأنه فعلا في خطر عظيم. يصرخ

صوت لجش من خلف الباب: نحن أصدقاء الأب، بعثنا لناثيه بالطفل، فأخرجه لنا.

ترتجل المرأة الجواب المنفذ: أخذته الجدة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقولوا لها من قبلي أن

تسلمكم إياه.

يتردد زوار الليل.

يتقرر من قبل لا ندري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تتشب تلك الليلة الذي تقاطعت

فيه أخطر مقاطع الطريق أظفرها في عنق ذابحها، أن جنّة الطفل لن ترمي في البئر، أن

الأب لن يموت كمدا أو يصبح بدوره قاتلا يدفع أبرياء ثمن أفعال الأثمين.

ينسحب قتلة الليل بخفي حنين وتسارع الأم لإخفاء لطفل أياما عند الجبران.
ذات يوم تنخل علينا امرأة قالوا لها إنها تعلم الغيب وتعرف يوم رجوع "يا؟"
تجلس المرأة البيدنة، العارفة في ثياب فضفاضة ملونة على الأرض بصعوبة. يأتيها
الشاوي ويقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلا في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة
بالحنة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح بدا متشنجة تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق.
- خففي عنك يا عزيزة، ما ثمة إلا الخير.
تنتطق "الذقازة" في خطاب لا يهّم منه الطفل المقروح العينين والأذنين على أقصاها
سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة.
- وهذا الطفل؟

- انتبهي، إني أرى عينا شريرة ترصده وإني أرى كارثة قريبة تنتهده!
تعود الأسارير إلى تجهمها.

تندارك "الذقازة" ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

- لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذيه كل يوم
جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبي.
ضعيها في كيس صغير واربطيه حول عنقه. لا تتركه ينزعه أبدا حتى وهو في الحمام.
إنهم يريدون به وبوالده شرا عظيما، قبح الله سعيهم.
- قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصبية.

- قلت لك: لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا قتي حركك. إنه درعك
الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسم الله دوما عليك.

يسأل الطفل أمه عن المرأة الغريبة. لا يفهم إلا بعد عقود ردها الواجم:

- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني بعض ما أتمنى وأعطيتها بعض ما تحتاج.

العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير مختزل في جدة وأم وخالات وعمات وجارات وكلهن
يردن تقيله واللعب معه.

عالم انثوي بامتياز بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخاوة، من رقة ونعومة وليونة
وطراوة... عالم سكري المذاق، مشتع بالألوان الصاخبة، بروائح البخور والطيب... عالم
يبعث فيك الدفء والاسترخاء واللذة وشعور الأمان... ثم سريريا الاختناق. تهاجم الطفل
يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعها ليغلب الصراخ
الوشوشة، لتخفت كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرك البطيء، ليحتد ما هو خفت،
ليكتسب المكثور المستدير أضلعا حادة. لا تعجل، يا فتى. يوم تعرك الأحداث بكل ما فيها
من فظاظة وقسوة، يوم يشند الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلل إليك
الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تمنى النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال
العالم ليس فيه إلا إنثاء اسمهن الملائكة وحوار العين.

مشكلة الطفل الآن، ليست العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل النكر وهو شيخ لا يعرف له وجهها؟

أليست مهمة كل دليل يحترم نفسه ومهمته الأخذ بيد القادم الجديد إلى أن يكتسب ما يلزم من الثقة في النفس للتوغل وحده في مجاهل الطريق؟ أه صحيح، شريطة ألا يكون هو نفسه ضاع في ثنابا هذا الطريق، من اين لثائه أن يكون دليل ثائه أكثر منه ضياعا؟

*

تتمكّن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها دفعا.

ها هو مرابط اليوم بطوله أمم المحطّة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صغيرا كعواء الريح ويخرج من رأسه دخانا أسود كثيفا. كم كان يحبّ رائحته الخائفة تعده برائحة عطرة لطرشوش أحمر بذوانب سوداء! ألم تقل له "م" أن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتفحص الطفل الأدميين الخارجيين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح.

يمرّ الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضلحكا ومقبلاً. يعود إلى البيت كل مساء كسير النفس داعم العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير ذنب.

لا ينفع توسّل "م" ونهيبها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم، ولا تزيد إلا الطين بلة والطفل يتعلم تصرفا جديدا وهو يتفّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه.

من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يوّد هذا الشعور عنده قفا دفينا لن يفارقه يوما.

تري، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العامة عند الأدميين، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صيغة البحث عن الأب وهو مجرد ممثل لغائب أبعد لا ينزل أبدا من أي قطار؟

تكفكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عينا.

لا يزيد ذلك الطفل إلا غيظا لا يعرف لمن يوجّهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فسا بلك أن يقل بألّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم.

تغلبه حيويته. لا بدّ لكل مشكل من حلّ. يكفي أن يجده أو أن يقرّر أنه وجدته. يعود للجحافل المعتدة للرجال وهو - هذه المرة - عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد. ينتقي من بين المتدافعين بالمناكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجهه من لا صورة له ملامح وعلامات.

ألم نصنع أسلطينا وأدياننا بهذه الطريقة، نضع على الغائب الأزلي اسما وصفة، نتعلم انتقاء الطول التي تلاؤمنا، نجد فيها بقوة الخيال العزاء والسلوى... وآخر ما يهمنا صحتها؟

ثم يعاوده الغم. لا أحد من آبائه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي عابر سبيل فلا يلقى منه إلا الصّدّ والزجر.

ينتهي الطفل بالإقرار ببعث طريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أول إضراب له.. لكن ضدّ من؟

يجلس على عتبة بلب المنزل المتداع، مصمّما ألا يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتّى يعود إليه دليل دونه يستحيل الرحيلوما على الله أو أي مسؤول آخر إلا البتّ في القضية.

توقف عند المشهد.

نحن أمام طفل في مواجهة أولى محن وامتحانات الرحلة وهي في هذه القصة غياب الدليل الثاني. هو غير واع الآن بأنّ الأقدار رأفت به كثيرا هي التي واجهت أطفالا آخرين بمشاكل كأنها تفتقت لدخل مخيلة شيطان كدخول العالم في أوج حرب و مجاعة أو الولادة مشوها أو الإصابة بألم تقتر في حبّها أو تبالغ فيه.

ما يفرّق بين قصص الأدميين نوع الصعوبات التي سيواجهون ومدى نجاح الاستراتيجيات التي يتخذون لمواجهةها... كأن العالم الذي تستكشف هو الذي يستكشفك يلاحظك بالمحن والامتحانات من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج ولسان حاله يقول أرتي براعتك في الخروج من هذه الورطة وإلا الويل والشبور لك.

تقترب الأم من طفلها بحزن من يقترب من قطّ مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف ثيابها فيفتعل قلة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الأدمي الذي يتحرك دوما وكأنه مصنوع من الضباب. ترتفع يد الأم ببطء شديد. يخيل له لحظة أن اليد بقيت معلقة في الفضاء، أنّها تتردد، أنّها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث. تزعه الفكرة أشدّ إزعاج. يستعجل الحركة المعلقة. كان لا يشعر بالأمان إلا واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كأنه على صغر سنه صنع من خشب جفت قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرر "م" رحتها عليه بمنتهى الحنو. يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرجوه دخول البيت:

- ماذا سيظنّ الجيران بي ويك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليظنوا ما شاءوا، أريد "با" حالا، لا يحبني، لهذا لا يأت أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما انتفخ بك ليباركك، أنه كاد

يطير فرحا عند مجيئك؟

موكّد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهمّ.

ما من شك أنك أنه وصل في آخر لحظة أول موعد لنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهتأ، متقطع الأنفاس، أخذاً القادم الجديد بين ذراعيه وكله فخر بما أتى من معجزة، ناسياً أنه لم يتكلف من العملية إلا أسهلها. كأنني به يتنفس الصعداء وهو يتأكد أن القادم الجديد ذكر هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شاطئه بغريب تعس الحظليس من جنسه ولو كان من صلبه. قد لكون أطلقت عغيرتي بالصراخ أول مرة انكب فيها على مهدي وقد تملكني قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول هذا الرجل وقلة أهليته لمهمة الدليل. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العائمة وأن حديثاً بشفرة "المورس" أو بأي شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخول باستراق المكالمات السرية.

- ما هذا الدليل؟ لن أراقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، بارداً على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكننا من الاستجابة لطلبكم نظراً لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الليل. سيرتكني غالب الوقت وحيداً ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قرداً عالماً يفاخر بي رفقا يستهزون بي وبه.

- نأسف لعدم تمكننا من الاستجابة لطلبكم نظراً لتراكم المكالمات.

- النجدة!

- نأسف لعدم تمكننا من الاستجابة لطلبكم نظراً لتراكم المكالمات.

- الرحمة!

لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولة القمار التي لا مرّة لحكمها من سيكون الدليل الثاني.

هل لطاولة القمار هذه قوانين ولا عب خبيث يتحكم فيها؟ كل ما نحن متأكدون منه انها هي التي تحدد لكل قادم جديد مكان الوصول وزمانه، هي التي تختار له الدليلين، هي التي تقرر ميزانيته من الزمان، هي التي تحدد ظروف رحلته وما القصص التي عليه الانخراط فيها ومواصلتها... السؤال بالطبع لمانا؟

أتخيل 'با' وأنا ما زلت أتقن في إطلاق صرختي الأولى، أخذاً بزمام الحديث عجولاً، نافذ الصبر، متوتر الأعصاب، مستنفر الحواس، كأنه داخل أو خارج لتوّه من صراع مع ما حصلت الأرض من كواسر.

كم من مرة سيجمعنا قل سيفرقنا في لواقع وفي فضاء الخيال ما يسميه البعض حوار الصمّ وكل منكم لا يسمع إلا صدى صوته.

- 'با'! لو تزحج جنايكم قليلاً لأبصر شيئاً من هذا العالم، لا أرى إلا ظهركم الموقر.

- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخف، سأعلمك كل ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدليلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدار لا

طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلمك كل ما يجب أن تتعلم من فنون الصراع فدليلك بالحرب أحسن خبير. هيا، أسرع لتستكشفه، لنغزوه، لنفتحه الفتح المبين ولا تضيق وقتك مع هذه الأثني. لا خير يرجى من أثني ولو كانت أما. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتغنى بكلمات الشاعر المجوسي اللعين. لا أسمعك تتشد: "أين في الناس أب مثل أبي!"

ادخلوا جحوركم يا عتاة للنجسية، أين نرجسيتكم من نرجسية رجل حفطني باكرا قصيدة تفوح بكبرياء سخيظ لأحفظ منها مقطعا واحدا:

قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب (مهيار النبطي)
وأبي كسرى علا إخوانه أين في الناس أب مثل أبي

هكذا لم أنكر، في حديث إلا وقلت: السيد "أينفأس"، فيضحك الإخوة وتقلب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع.

- "يا" أريد أن أسألك

- في هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سيفك دوما مشهورا في وجه من يعضن باليد اليمنى وباليد اليسرى السوط مرفوعا في وجه من ينبج. في هذا العالم اللعين يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف، سأعلمك ما يجب أن تتعلم عن فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعفه الحظ أن أكون له أبا.

- "يا" اسمعني أنت ولو مرة.

- في هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيدا حتى لا تكون طريدة أصعب ما تصطاد نكور الأدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلمك كل ما يجب أن تتعلم في فنون الصيد؛ فدليلك أحسن من اصطاد نكورهم والإناث. في هذا العالم اللعين، حذار من الأدلة المزيفين، يفودونك إلى صحار بلا واحات وأنهار بلا ماء وبرار بلا عشب، لكن لا تخف فدليلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأثني ولو أنها حملتك في أحشائها. لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أية ضربة حظ أصابك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجال، والآن تدبر أمرك وكن جديرا بي.

للحقيقة كان هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراطه في أمر نتشارك فيه جميعا ولا نراه عيبا إلا عند الآخرين.

يضيق أغلب الأدميين وقتك وجهدك حتى تكتشف من يختفي وراء القاع وهم يراوغون باقتعال التواضع والزهو والتجرد وبقي فضائلهم التعمية.

كلن، من النوع الذي يحمل خصاله وعيوبه واضحة لا لبس فيها ولا غش، تماما كما يحمل العسكر على صدورهم المنوشة نياشينهم.

كان لا يحب شيئا أكثر من تكديس الأصقاع وزيادة عدد الأعداء والشعرا مقولة الشاعر "عداتي لهم علي فضل ومنة فلا أذهب الله عني الأعداء (أبو حيان الاندلسي)"

هم يحشوا في زلتي فالجنتبها

وهم نافسوني فاكْتَسِبْتِ المعالي"

كان مبالغاً في عيوبه ومبالغاً في خصاله إلى أن تتقارب فتنمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغيثين. كانت صرلحته سلاطة لسان. كان احتقاره ناراً حارقة، وعنفه لا يطاق. كان غروره، كذكانه، كوسامته، كإفاقته، كجرأته، كفصلحته، كوقاحتته، شيئاً خارجاً عن المؤلف.

المهمّ أنه حُكِمَ في ذلك الفصل من القصة على طفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة راكبا لا ينزل أبداً من أي قطار، وأن يعتصم بالشارع جلساً هو وأمه على عتبة الباب يأمر الله والعيبة والجن والعمالقة وكل من لا يهمهم الأمر بتحمل مسؤولياتهم في تمكينه ككل الأطفال من حقه في دليل ذكر يفتح له جزءاً من الطريق. تواصل الأم منورة التهذبة:

- تريد الآن بقية قصة البارحة، تعال... إذن قال الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم لهم، لكن عنترة قال له إنه لن يحارب لأن...

- لا، لا، لا، عنترة لم يكن أبداً جباناً!

- انتظر البقية...

- لا، لا، لا، عنترة لم يرفض يوماً الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالنيا ومن فيها أوجه. ثم يعود للصراخ:

- أريده أن يأخذني لحمام الرجال. أنت دوماً تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.

- سيأتي وستذهب معه لحمام الرجال لأنك كبرت فعلاً.

- لن أسمع كلاماً سمعته كثيراً. ليأت الآن.

- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.

- قلت لك! لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

- إذن سننتظر سوياً.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخائفة.

تجد المرأة الذكية مخرجاً سيحفظ ماء وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراء.

تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:

- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق في، إنني متأكدة من الأمر. سيوزرك الليلة في المنام.

يسترجع الطفل حيويته الصالحة. يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه.

يدخل عالماً تتراقص فيه أمواج حمراء. تبيض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق.

يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق.

يصفر وحش أسود صغير الرجيل.

تَصر أم مطَّلَة بحنوّ فائق اضطراباً غير معهود في ملامح طفلها النائم.
تتراءى لها من خلال عينين دامعتين ابتسامة شاردة تعبر وجهه وشفتان تنبسان بكلمة
واحدة.
هي تعلم أنّ اللقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتَي أبيه بإخامه ويصالحه كما
سيحدث ذلك مراراً قبل أن يتفرّع الطريق نهائياً ليذهب كلّ في حال سبيله.

**

انقشاع الضباب عن الأفق

يشعر الطفل الشائم بوجه جافت التصق بوجهه. تداهمه أحاسيس مبهمة عن روائح عطر وتبع وعرق.

يفتح عينيه ليقابل وجهين يحذلن فيه بابتسامة واسعة.

حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود.

قد يكون العالم فعلا غلبة سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تغلبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة لتستجيب للشهوة الجامحة.

تهمس الأم:

- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

- يا معقل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدك.

- ونأخذ "ما" معنا.

- أمك لا تحب واحتنا وشيعت من الصحراء.

- أذهب وأترك أمي!؟

- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يلمر بالرحيل ويأمر بلبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل الفتى وبنفس الشعور البيغض إن لم يرحل.

تسر "ما" في أن ابنها أنها لا بد أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمل السفر، أنها ستراقبه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "ب" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجده ويرده لأمه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدي من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع مما كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق.

تعد طفليها للسفرة كما لو كانت تعده لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدق تفاصيل الملبس أن للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تتس وأنه رسول حب صامت للشيخ الذي اعتقها من الأسر. يسر الدليل الهادي في أذن الدليل الصالح بلخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يقتعل "ب" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى يا امرأة، تركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى والإفاننا القطار.

كل "ب" دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بأن وقتنا جد محدود، بضئعه علينا من أصابعهم الله ببطء الفهم والفعل. كل يقول لكل بلبد

يعترض طريقه لنضيق وقتك أنت ننفق منه ونبذر، أما وقتي أنا فثمين. منه تعلمت أن أبعث لبعض من استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بغاتورة في سطر: سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بجدّ ألا يفزعكم كل الوقت الذي يبذره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضة. تنفتح أخيرا قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس.

على رصيف المحطة، والفجر في أولى الوعود تبدأ سفرة ظلت نموذج كل ما تبعها من السفرات.

يصرخ الطفل في أب يغالب للبقاء مستيقظا.

- "يا هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بالسلاح الذي في بيتنا؟

يجيل "يا" البصر حوله بعصبية مشيرا للطفل بعلق فمه.

- إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟

ينفذ وصول القطار "يا" من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غير موضوعا كان سيخبره بطق الرجل أو بدونه.

ينسى الطفل-وهو لأول مرّة في جوف الوحش الأسود-ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكانه.

يهرع تلقائيا للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أية آلة إلا وأنفه فوق الزجاج.

يتحرك القطار على وقع الصغير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلل من النوافذ المقنوعة ليسعل الرجال وتحرك النساء أياديهم أمام أنوفهم ضاحكات متأففات.

تنتبع حذقته وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريبا يومها ألا يعبا أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوما ثابتة... بدأت تركض.

يرجعه الضجيج المتصاعد داخل العربة المكتظة إلى هوايته القديمة: التفحص. عدد البشر أكبر مما كان يظن، ترى كم هم؟ سيسأل "يا"، لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب

فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوها بها أبدا.

كل "يا" لا يستقر في مكان إلا مكرها كله تحفز لاستئناف الطريق. كل الحلّ والترحال عنده حاجة قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوما على سفر. ربما قرأ

واستيقظن أبياتا وإن لم يقرأها، فيه عمل بها وكأنها لم تكتب إلا له وحده .

"تعرّب عن الأوطان في طلب العلا (الشافعي)

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لهم واكتساب معيشة

وعلم وادب وصحبة ماجد

تلتقط أن الطفل مقاطع من كلام هلمس لوالده حول شيء اسمه "الوطن" ومحتنه.

كان على حكيمنا إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقارنه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرقهم عن البشر الآخرين؟ يعود الطفل للتركيز على نغذته متعجباً من إعراض الناس عما يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوماً كل المسافرين، أنه سيجلس يوماً مثلهم غير مبالي بغروب شمس أو بظلوع قمر.

يستحوذ على اهتمامه التغير البيئي، والثعبان الأسود يغادر بلاد لتين والزيتون والعنب، ليدخل أراض موحشة غراء اللون تميل كلما تقم الراكب إلى حمرة قانية. تغرق المناظر العجيبة شيئاً فشيئاً في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمراً بالجلوس أو الأكل. أخيراً يتوقف الثعبان الأسود عن الصغير والجري اللاهث ويتوقف معه حراك البيوت والشجر. يعبره استياء غير مفهوم. ألم يكن يتربح الوصول بفراغ الصبر؟ يغادر القطار مثقل الخطوة، يحرك رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحضر، متأهب، متشوق للمزيد من ركض القطار.

- "يا"، هذه ليست قرية جدي.

- إنها ولحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نبيت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزول. أنا ممت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربة يجرها جواد أسود يلسع بالسوط ظهره رجل يصرخ فيه بلسبب والشمم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلما هوى السوط وكأن ظهره الذي يلسع. يجاهد لتجاهل السوط الناازل المهابط بالعودة للسؤال:

- واحتنا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟

- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القول أن يوسع الثعبان الأسود الجري نهاراً كاملاً لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبق أقي من الصلب ممتد في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود.

يجب التثبت من الأمر.

- وهل ذهبت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جداً؟

- لبعضها نعم، فالعالم واسع، يا بني.

- وهل ستسفر إلى كلالللكل أمكنه؟

يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.

- لا، لكنني أحاول.

- سأحاول أنا أيضاً؟

- وهل أمملك خيار آخر؟

يتهالك الطفل على سرير النزل ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلله صهيل حيوان
باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره هو ليركض ويطير. ينهض صارخا هاربا من
السوط بهز الدليل النائم جثته:

- استيقظ وإلا فانتا قطار الصحراء.

- لن نسافر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر بعض دقائق. يقفز صارخا من جديد في أذن الرجل
النائم:

- استيقظ سيفوتنا القطار.

- ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:

- استيقظ، فانتا قطار الصحراء.

يثب الرجل رافعا كفه. يفهم الطفل أنه في خطر. يسلم الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثم
ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه. يفهم الطفل أن الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدد.

- اللعنة عليك، طرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جذنت؟

يجز الطفل نليله المندesh يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.

- هذه هي المحطة. اجلس الآن ولا تتحرك حتى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير
من الوقت.

- لا قطار هنا!

- سنركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.

- هل فيها نوافذ؟

- نعم.

- هل تتحرك البيوت والأشجار عندما تسير؟

- تماما.

- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.

- هكذا سأستطيع رميك منها ولرتاح من أسنلتك.

- سأقول لـ "م" أنك أردت أن ترميني من النافذة.

- وأنا سأقول لها أنك أخرجتنا من النزل في الثلثة صباحا، والآن اتركني أنام قليلا عليك
اللعنة.

- وأنا ماذا أفعل؟

- نم.

- لقد نمت.

- لم تتم بما فيه الكفاية.

- بلى.

يشعر الطفل بتجدد الخطر ثم بتحسره السريع والمحطة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.

- ماذا تربينا أن نفعل إذن؟

- نتجوّل بما أنه ما زال أمامنا وقت.

- في الثالثة صباحاً؟ في هذه المدينة الموحشة!

يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ. يسقط في يد الرجل.

- تعال، عليك اللعنة.

تبدأ الزليرة والزبون هو الذي يجزّ الدليل.

- لا أحبّ هذه المدينة.

- ألم أقل لك إننا لن نرى شيئاً في هذا الظلام.

- أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.

- إنّه بعيد عن هنا.

- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.

- إذا ذهبنا إلى البحر فانتنا الحافلة.

اختيار صعب جديد.

- هل سنرجع من هنا؟

يتنفس الرجل الصعداء.

- أعدك أن أخذك إلى البحر عند رجوعنا من الصحراء.

- أريد فطيرة.

- كلّ ما تريد.

- الآن... الآن... الآن!

- نعم الآن. الآن، لكن كفتّ عن النطّ والصراخ.

- بالعسل؟

- بالعسل والسمن والبيض المطّي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.

أخيراً الرحيل. يتكنس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة وبقيّة الكائنات الثاقوية من

دجاج وماعر ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال

خاصة بعد أن أفرد له "بأ" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حدو لنبضة، تلك الموجود

مباشرة وراء السائق.

يحارّ لثمة مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا

يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.

يحاول الأب إعادة الحوار مع طفل يقرر وحده متى يكون الكلام ومتى يجب الصمت.

- لست مطالباً بالوقوف طوال السفرة.

- لا أحبّ الجلوس.

- افعل ما تشاء .
- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟
تدوي قهقهة الأب.
- ستتعبنى كثيرا على ما يبدو .
نعم، كم أتعبته في تلك السفرة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبة.
تصل الحافلة المرهقة قرية تتلخص في شارع مغبر تتكسد على جانبيه بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات "يا" عن المكان وحماة الطبيعية العجيبة التي تبرئ بمائها الفوار كل الأمراض.
ثم تغوص الحافلة المتزيدة تعباً في مهبم ممتد أمامها إلى ما لا نهاية.
- انتبه يا فتى، لقد دخلنا "البحاير".
- هل هي بحار كثيرة؟ هل سننخل الماء؟
- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.
- الصحراء بحر من الرمل بدل الماء وواحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟
- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.
لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركاب يعلمون أن هذه الأرض القلحة التي يسمونها البحائر تستأهل حقا اسمها ... أن الصحراء التي لم تكن دوماً بحار الرمل التي نعرف... أنها كانت لأربعين مليون سنة خلقت جزءاً من بحر بل من محيط اندثر كانت تسبح فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان... أنه كما للقلب قبض وارتخاء لهذا الأرض نسفها إلى نهاية الكوكب : كل عشرين ألف سنة غابات ومستنقعات وبحيرات وأنهار وسكانها الفيل والأسد والكركنن والتمساح ، بعد مئات السنين ولعشرين ألف سنة أخرى أرض القحط والجذب التي لا يعيش فيه إلا الماعز الابل والبشر من نوع قوم "يا".
حتى هذه الأراضي القاحلة يمكن أن تتحول بين عشية وضحاها إلى براري إيرلندا. إنها إحدى معجزات الصحراء والبراعم المخفية صابرة، عنيده، قوية تنتظر تحت الرمل والصخر أشهراً وأحياناً سنيناً رحمة الغيث لتعود ولو لفترة خاطفة من الزمن وطن الأعشاب والأزهار .
قل من ينتبه أننا ندخل لوجود كمن يدخل عرضاً سينماتيا وليس على الشاشنة إلا صورة للعالم نظنها صورته من وإلى الأزل، إلى أن ينقش الضيبل عن الفكر فنفهم أننا لا نرى إلا مقطعاً من فيلم أطول وأغرب مما يقدر على تصوّره أوسع خيال.
يجذب الطفل كتم أبيه وهو في قصة الهيجان.
- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟
يصرخ فيه "يا": هذا جمل يا جحش وليس حصاناً.
يضج الجمع بلضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألا يعرف البيدوي نصفه الآخر؟
يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" ولا داعي لبيسخر منه هؤلاء الأشرار... وخاصة "بي؟".
يلصق وجهه بالنقذة. ممنوع على أحد رؤية الدموع. لكن من أين له التركيز طويلا على جرح بسيط وحوله العالم بكللاله غرائبه.
- "يا" انظر. انظر!
- إلى ماذا؟
- لساقيك تتدليان في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرك. يضجّ الجمع مجددا بالضحك.
- إنها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ الحمد لله أنها تصل بنا.
يعود الطفل للصراخ:
- انظر، انظر!
- اللعنة على هنا المغفل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟
- أنظر إلى اختفاء المناظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟
يلتفت "يا" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.
- الحرّ وضجيج المحرك وهذا الفرخ سيقضون على ما تبقى لي من عقل.
يدخل الرجال في حديث هامس عن الحافلة، وكيف توقفت أكثر من مرة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمن ماتوا من العطش لأنهم رفضوا الانتظار. يفاجئ الطفل خوف مبهم أن تتوقف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت "م؟" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.
- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟
- اسكت، يا مغفل.
يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمع صمت متجمّم. يأتي الطفل لأول مرة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعلم. تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي بسلام. تعود الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى النفوس.
أخيرا يتوقف هدير المحرك وهو يلفظ آخر أنفاسه.
إنها آخر محطة قبل الوصول.
يتسارع الركاب إلى الباب كالفران إلى سطح اليابسة بعد نجاة المركب من الغرق.
يضع مجهول يده على رأس الطفل وهو ينزل متشبّثا بيد الدليل: إنها بركة هذا البريء.
يضع مجهول آخر لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.
- أنت، تعال معي.

يتوجه الأب لابن خالي الذهن:

- انتظرني هنا حتى أكمل الإجراءات.

- أية إجراءات؟

- لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكريّة صعبة الدخول بالنسبة إلى أمثالي.

يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.

- اسكت يا مغفل، وإلا أرجعوننا من حيث أتينا. لا تتحرّك حتى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعيناه على البلب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حراس الطريق. يخرج "ب" أخيرا، يده على خده، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حدّ ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة" وضعت مقنونة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم.

ما الذي حدث يومها؟ ملفت خطير رفض "ب"، حتى بعد عقود، فتحه لفضولي. بداية شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوما عن النزيف.

- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

- لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غدا.

- لماذا؟

- هيّا، قبل أن تفوتنا حفلة القرية.

- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر "ب" ضاحكا، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبّر عن مرح أو فرح.

- هؤلاء! من بلغ عني ولحد منهم، والباقيون وكوا الأديار عندما علموا من أكون. تنكّر دوما بيا بني-أن البشر من صنفين...

- الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال!!!

- أتحدّث عن الرجال فالنساء لا يحسب لهن حساب.

- الكبار والصغار، الكبار والصغار!

- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الرجال.

يدخل "ب" في خطبة طويلة عن الفوارق.

- ليالك وليالك أن تشبه يوما رجالا لا تتعدى الرجولة عندهم التبول وقوفا.

تدافع على لسانه أبيك للشاعر الذي ارتضاه قذوة ونموجا ضجّ بلشكوى مثله من قوم لا تجد فيهم "كريما تزول به عن القلب هموم" أو "صحية لا يعوزها الصنق في الأخبار والقسّم"، أو "مكان يسرّ بأهله الجار المقيم"، أو ثغرا مبيتسا عن محبة لا عن خوف أو طمع.

ها هو يظي بالتهكّم المرير وبالسخط على قوم "استدجوا" و"استبقروا" و"استعجوا" وجعلوا من الخروف واستكفنته للمصنّ والسكين نموذجهما الأعلى.

- خاصية أشباه الرجال الجين. احذر يا فتى منه إنه "خديعة الطبع اللئيم" إنه ما يكرهه ويتفاده "الحز الممتحن بأولاد الزنا". لا تكن يوما جينا وإلا تيرأت منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلما بنسيبي. إياك أن تشبه يوما هؤلاء القوم. إن بهم دناءة فطرية ونذالة مكتسبة طورها على امتداد القرون. يقبلون اليد التي تخفضهم ويعصون التي ترفعهم. يواصل زمرته وهو يجتذني بكاد يطلع كتفي:

- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! أه وأه

كلن "ب1" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة النلل أمام مستعمر أو طاغية حقير. كل هذا الصخب كان أيضا حبا معكوسا وهو لا يبغى شيئا قدر التباهي بأهله على عدة البدو، إلا أنه لم يجد فيهم ما يفخر به وقد أتاهم في عصر تخلوا فيه عن مشروع أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

كأنه ليس لهذه النوبة الجديدة من الغضب نهائية. يواصل "با" صراخه:

- اللعنة، اللعنة على هؤلاء البشر، اللعنة اللعنة على هذه الأرض وما حملت!

- "با"، لكن الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدا جدا!

- الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئا قدر بغضي له. هو مثلهم: كل شيء فيه صغير، مدنه، قراه، جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة. إن لم توفّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتغمرها الرمال، أحرقها إن استطعت، وإلا أهرجها، ذلك أضعف الإيمان... ما قيمة الوطن إذا كانت الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها؟ يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتقرّ من حوله.

هذا الرجل هو نفسه الذي سيرتد لابنه أكثر من مرة:

- يا بني، تمثّل يوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام". أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبّا مخلصا ووفيا إلا لهذا الوطن مهما جفاك وظلمك...

لا توجد ثنائية تحكمت في قصة "با" وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية الوطن والمنفى... كم يبدو لي اليوم ضئيق الأفق وهو متمسك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. كيف لم يكشف هو الباهر النكاه أن من طبيعة العالم أن يكون لنا وطنا ومنفى أيا كانت قطعة الأرض التي حكم علينا أن نولد وأن نعيش وأن نموت فيها.

يهرّ الرجل كتفيه متوجها إلى طفل يحاول فهم ما يجري صارخا فيه كما لو كان هو سبب كل مصائبه.

- اللهم لا تقرنني في أرض هؤلاء الجبناء! اللهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور يا فتى جنازتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب لضبع توارى في الرمل جثة الأسد!

شيثا فثينا يعود الهدوء. يتوقف الرجل في طريقه إلى مريض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولايته ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم.

- أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهندام أمام جدك.

أحسن ما في الأدميين نزعة التمرد إذ لولاها لما وجد تجديد.

- لا أريده. لا أحب لونه الأسود وشكله الفضفاض.

وفيهم أيضا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرد، ربما حتى لا يصبح العالم فرضى ليس فيه طريق سلك.

- قلت لك: البس.

متوجها للبانع بكم السروال يا رجل؟

يعود الطفل للصراخ ليثبت أن له رأي حتى في هذا العمر وأن على الطرف الآخر التعامل معه خارج الإكراه.

- لا أريده، لا أحب لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!

يعلن البانع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.

يصرخ فيه، "يا؟" بقلق فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه لسروال بالقوة.

- والآن البس بسرعة، وإلا فانتتنا الحفلة.

- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!

مشهد لا أكثر منه ابتذالا في علاقة الأميميين ببعضهم البعض، يستأهل بعض التعليق.

القانون سعي كل ذات الذات للتحكم في الذات الأخرى... لتحريكها في الاتجاه الذي تريد... لتقويضها... لاستعمالها، وكأنها تعتبرها تلقائيا مجرد امتداد لها. إنه تصرف الأم

مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع

الحاكم. تكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سطوة القانون فالخالق يريد تطويع المخلوق بالوعد والوعيد، والمخلوق يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر وبتفضيل رب

آخر. الفوارق التي تحجب عنا الظاهرة متعلقة فقط باستراتيجيات التطويع وهي تتأرجح بين الترغيب والترهيب، الغلظة والرفقة، الصد والوصول.

يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضربا.

يتوقف وهو يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها.

يرمي بالسروال في وجه البانع ويجرّ الطفل، يكاد يخلع ذراعه.

ثم تتباطأ سرعته وقد جاءه التردد.

يسترق النظر إلى طفل يشهق صامتا لأنه أقسم باكرا ألا يبكي أبدا كلدسوة والصغار .
- لا أريد أن تقول لجذك أنني ضريبتك، وإلا فأنتي سأضربك مرة ثانية.
- بل سأقول له أنك ضريبتني بشدة، سأقول له ليضربك كما ضريبتني. سأقول ل " ما".
نعم سأقول لها، سأقول كل شيء!
- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جذك.
- وسأقول أيضا لله.
- لا تحممه هو الآخر، يكفيني مشاكل مع ما ارتكبت من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والأز كن ولدا طيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟
يتمسك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدم بها رجل متزايد الارتباك.
ثم تتدفع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ حكم قرار.
- بعد المرطبات وزيارة جدي، نسافر معا إلى المدينة الكبرى والجمع الأعظم والبحر وكللال الأماكن التي سافرت إليها؟
- موافق.
- كلمة رجل؟
- شريطة ألا تقول لجذك أنني ضريبتك.
- كلمة رجل.
يعرض الأب على ابنه إمكانية قضاء الليلة عند قريب، ليوافق برفض قاطع.
- لا، لا جدي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع أسرع!
يصرخ "بما" وقد تبخر منه مجددا كل حسن استعداد:
- لوجه لله اصمت، ووجه الشيطان توقف عن الركض. أرهقتني، أصيبتني بالدوار. كفت عن الجري، كفت!!
وهل يوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟
نحن هنا أمام عينة من علاقة الأيوه والبنوة. إنها علاقة ستتخذ ما لا يحصى ولا يعد من أشكال متباينة الطرافة والحدة والتعقيد والخطورة والتناجح وذلك حسب الصعوبة الأساسية التي ترتطم بها العلاقة، وبالطبع حسب طبيعة كل أب وكل ابن والظروف التي تشكل خلفية هذه العلاقة وإطارها... حدث ولا تسأل عن كل الحالات التي تتخذها علاقة الأم بابنها وعلاقة البنات بأبائهن وعلاقة الحبيب بحبيبته والصديق بصديقه العدو بعدوه أي فكر قادر على استيعاب كل هذه التجارب التي يحاول الأدب جاهدا عن استكشاف بعض ملامحها انطلاقا من قصة رحلة هذا أو ذاك !
ترحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تزيدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعبلاها تنور عجزه عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فح الرمل. يصرخ الطفل أملا أن يطغى صوته على صراخ الريح

- "يا"، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهم بشاشته:

- إته أمامك، يا مغفل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا.

- "يا"، أنا أيضا أدفع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الوراء، سيأتي نورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تذكرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن "يا" لا يتהלّس مع جليس وليس مشغولا بجريدة يتصفّحها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة المغيرة... وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي فرّ من الصحراء ناقما، سلخطا، لا يحلم-وهو منفي عن أخطارها-إلا بالعودة إليها للاختباء نهارا في الحفر والمشى ليلا بحثا عن قرية فيها امرأة وماء وتمر. كم سمعته يتحدّث عن كثباتها كعاشق أضناه الشوق لوصول حبيب متمنع! كم سمعته يردد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانني أن امدد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرة الأخيرة في "العرق"... أن أجيل بصري في عمق سماء ليّله.

يفيق الأب من ذهوله صارخا! وصلنا لمشرف الواحة. بعد قليل سنرى جدك. انتهى عذاب الطريق.

تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يذري لمن يتوجّه بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشيب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مقائمه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللحظة المباركة تتعكس في مرآة العالم أجمل حالات الأسمى، وتتعكس في الأسمى أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحققت فيها مرامي هذا من ذاك وتحققت فيها أهداف ذاك من هذا، وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلى قدرة الثاني على عميق العرفان.

اعدلي الماضي واحتفظ بالحقيقة (فريندو بيسوا)

هبط لي مرة أخرى الطفولة وخذ الله معك.

ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأثيق المتكبر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل نلسيا كل ما من حوله. ينفعه والده برفق فظّ باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح السلخنة.

يتلقّف الطفل صدر عجوز مبتسم الثغر، دماغ العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستيطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلم من سفرة ستطبعه إلى الأبد... أن الواحة محطة في عالم بلغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تنرص فيه العيون، أن عليه

حواجز وعساكر يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنه لا بدّ من فتح الطريق أحيانا بأجسامنا، وأن السفر هو الهام َ لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه نموع الفرح.

حقًا لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

في نفس الحافلة التي تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلغ الطفل دموعه وأنفه على النافذة ينظر لجذّه واقفا يخفي نموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ودويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوما وسيأخذه كما وعد إلى "طينية" ليبيّرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

تأخذ "مما" طفلا يحبس بصعوبة نموع الأسي والقهر. تضمه بين ذراعها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

- تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورات... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحبه، لا لأحبه.

- لما أنا فأحبك كثيرا وأكثرنا حبًا لك "يا". يا بني، لو لم تكن معه لأوفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جنح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

كانت "مما" تصنّق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تادية ولجبه ولولاه لفضل الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر لكاذيب الرجال على النساء.

حقا يومها قرّ "يا" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلفوا معه فجاءوا لذبحه ليلا. حقًا كان له أعداء يترصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعيا، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسؤوليات مواجهة الذات لذاتها.

يعود الطفل للصراخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هلجسه معرفة إلى أين يؤدّي:

- إلى مدينة الجامع الأعظم حيث سذهب مثل والدك يوما لتتعلّم كلام الله.

- وبعدها؟

- أعتقد أنه يصل البحر.

- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "مما"، تداري حرجها:

- تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

- سأذهب حتى إلى ما وراء الأفق لأجد "يا" وأعود به.

تبتسم "ما؟" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض والطول، هاتما على وجهك ككل البشر تبحث عما لا وجود له وتجد ما لم تبحث عنه يوما .
في ركن منزوي من خيل الذاكرة يركب بطننا الصغير عصا من القصب يأمرها أن تطير به لما وراء الأفق.
قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف كلليل ما يحفل به العالم من خوارق ومعجزات.
بين أشجار الزيتون تواصل طفلة منقطعة الأنفاس القفز بالحبل ضاحكة من سذاجة الطفل الذي سيصبح بعلمها والطفل الذي سيصبح طفلها.
لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن توجّهت إليه صلاة المريض : اللهم اتم هذه الرحلة على خير، إنك السميع المجيب... أحيانا.

**

الكتاب الثاني العالم

ما إن يعود الربيع
إلا وأنا متتيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟

“هايكو” لشاعر مجهول

مقدمة الكتاب الثاني

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

لكل يوم نكهته، ثمّة الذي نبكي منه، الذي نبكي عليا الذي أحسنُ ما فيه أن له نهاية، الذي أسوأ ما فيه أن له نهاية، الذي ننتظر بفارغ الصبر، الذي نترقبه والقلق يعتصر الأحشاء. هل من الممكن أن يكون هذا اليوم من النوع الأخير... بل أن يكون هو آخر الأيام ؟ منذ الصباح وأنا أتوجس خيفة من يوم فيه أربع مرات رقم تسعة.

تقول لكنه يوم روتيني ما الداعي إلى القلق. إنه يوم لا يختلف عن بقية الأيام التي تدافع فيها القادمون الجدد بنفس التهور، وغادر القادمون القدامى بنفس الصعوبة، وتخبّط المرحلون في المشاكل المبتذلة التي جزبوا بها جيلا بعد جيل.

نعم لكن لا بد للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم؟ ربما قرّرت السلطات العليا التسنّر على الأمر. تصوّر حالة الغوضى هذا النهار لو أعلمتنا نشرة أخبار المنتصف أننا نعيش آخر أيامنا، وأنه يجب إخلاء المحل حيث لا تمديد في عقد الكراء بأي ذريعة كانت. ربّما حصل المحظور وقامت القيمة البارحة مثلا، ممّا قد يعني أن النص حلم يحلمه ميّت! في حالة استهزائكم بالفرضية، لماذا يكون عدم انتباهي لنهاية العالم وخرجي منه أغرب من عدم انتباهي لبدايته ودخولي فيه؟

لذلك قرّرت وضعه تحت المراقبة حتى لا أفاجأ أو أخدع.

أنظر إلى ساعتني بشكّ حذر بين الفينة والأخرى فيتأكد لدي كل مرّة أن عقاربها تتقدّم إلى الأمام لا إلى الخلف، أن السماء في مكانها أي فوق رأسي، أما الأرض فهي لحدّ الآن- تحت قدمي، ناهيك عن كون اليوم المريب بدأ بصبح مضيء وهو الآن بصدد الانتهاء بنفس الليل الحلك السواد.

على كل حال، ما يزال أمامي بضع ساعات لمحاولة الانتهاء من النص، علما أنني أرفض التفكير في جدوى العملية إذا فرغ العالم من القراء والنقاد، فلو فكّرت في جدوى أفعالي لما قمت بأي عمل باستثناء سماع الموسيقى.

كم غريب هذا العالم الذي نفيق فيه، هذا الذي نقضت في حياتنا، الذي نغلره ونحن لا نعرف عنه تقريبا أي شيء!

كم غريب هذا العالم الذي يرصده منذ بداية تاريخنا للرسم والتصوير، الذي يعيد الفن خلقه، الذي يتغنّى به ويسبه الشعر والأدب، الذي تقدسه وتدنسه الأديان، الذي يبحث العلم عن قوانينه، الذي تبحث الفلسفة في سبب وجوده، الذي تسعى التكنولوجيا للتحكم فيه والذي تتوهم السياسة السيطرة عليه... هو دوما غلبة لا تترك!

كأنَّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقّق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكأنَّ خشية المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظ (أو لسونه)، فالיום بالتأكيد ليس النهائية حيث ولى الأديار منذ أكثر من دقيقتين حسب ساعتني، والعالم ما زال موجودا. حتّى لا أتهم بترويج الأوهام والأمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقنة، سأقطع الكتابة لحظة للخروج إلى الحديقة والتثبّت من الأمر.

يسعني الآن دون أن يسعدني ذلك كثيرا تأكيد ما كتبت سابقا، فقد مشيت على نفس الأرض الصلبة المعتادة ولسعتني نفس الهوام المجهولة، وتصادت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكرة، ووذرت أعصابي أعراس الجبران، ولفحتني نفس الريح القادمة من البحر، المشبعة حرارة ورطوبة. كذلك لمست كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فيصقتها. لم ألحظ أيضا ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم على رداء الليل لا يبدو مختلفا عن جهلي به البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى الوضوح أصوات الأماميين ونباح الكلاب، وأنني تملّمت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه قلّ.

المؤكد أيضا أن إصبع الدهر على مسبحة الزمان تسرع في "التسبيح" ولسان حال المسبّح المخفي يقول: هو لم ينته أما أنت فستنتهي بأسرع مما ترغب. عجل يا غبي؛ قد لا تتوفّر على وقت كثير لإنهاء المشروع.

المشروع! الذي قررت عند انطلاق التوين: أن أستجمع شتات فكري، أن أتخصّص حصاد الرحلة علني أردّ أخيرا على سؤال الكهل ما اللبانات التي بُني بها هذا العالم العجيب وقيله على سؤال الطفل هل قدّت الشمس حقا من ذهب قرطي "ما" وهل صنع القمر من فضة خلخالها ؟

**

أو كيف أن العالم مصنوع من لبنات أساسية لا وجود له دون وجودها

- أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، أكثر من ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض، قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غيّر رأيه.

يصرخ "ب" في طفل انتصب واقفا على السرير.

- يا الله يا فتي، تحرّك ما لك تنظر هكذا، أسرع، ليس لنا وقت نضيقه.

تدافع الأسنلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها "ب" خروج الجنّي من القمقم.

- "ب" أين ... أين كنت؟

- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.

يرقص الطفل على سريره فرحاً. ثم يعاوده القلق.

- هل ستسافر مجدداً؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟

- ككك تريد إغصابي! هيا، لا تضيق وقتي، لن يكفيننا كامل اليوم لزيارة العاصمة. برنامج اليوم الحمام وزيارة الحلاق وصلاة الجمعة في الجامع المصور. ثم لا بد أن أبحث عن كتاب قبل آخر قطار. تعال، حدث الخطي.

يتبع طفل تجاوز سنته التاسعة رجلاً وُلد على عجل، عاش على عجل، مات لا يلوي على شيء وكان له مواعيد هائلة حتى في الآخرة.

تتلقنا نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها نحو الشمال.

- وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...

- لا تؤثر أعصابي من الآن.

- أسرع، أسرع، أريد أن أرى كلللكل شيء.

يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغيرة تفتح على أوسع أزقة المدينة العتيقة:

- "ب" ما هذا الشيء؟

- إنه تمثال لواحد من كهنتهم بسمونه "لافيجيري". حدث الخطوة وأغلق فمك.

- لماذا يقف أمله الجنود؟

- حتى لا ينسفه رجالنا...

- "ب" هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟

- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استقزاز المحتل وكفره.

يزمجر "ب" كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.

- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشمامة بنا، نفس الشمامة سموا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير "شارع الكنيسة". اللعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة ألف مرّة ومرة على لاجبروتنا نحن.

- أريد أن ألمس ال...-

- الجنود يمنعون اقتراجه يحمونه من التعجير وكتابات السب، سنقتلعه طال الزمان أو قصر.

تتشكل أولى تصنيفات الأدميين في ذهن الطفل: الذين يتدافعون حوله في البيت والشارع وأماكن اللهو والصراع والعمل... الذين رحلوا إلى السماء ولن يعودوا منها مثل أب "ما" وكل من تزورهم في المقابر يوم العيد... الذين سيخرجون من بطون النساء مثل المولود الجديد الذي تعده به "ما" لها أو أختا لتتويع أشكال اللعب... الذين تجمدوا في تماثيل تملأ الساحات العمومية و أو في لوحات معلقة على جدران متاحف العالم سيكتشفها كهلا منبهرا متسانلا عن طبيعة هذه المخلوقات السلكنة وما الرسائل التي تبث ولا يفهمها.

لا بد للطفل من الركض مع الركضين وحتى يتجاوزهم ليكون أول من يصل ولو أنه لا يعرف ما الممكن الذي يجب أن يسبقهم إليه. يصرخ فيه "با" يكتم ضحكه وراء ملامح يجاهد لكي تبين علبسة.

- تمهل، وإلا ففتنك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.

يجد الطفل نفسه فجأة مثل قشة طافية على أمواج نهر صاخب وجدران الشارع الضيق مثل سدود ترد من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج. ينقل الطفل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيع شاردة ولا واردة.

- "يا؟"، من هذا الرجل، وماذا يفعل؟

- شيخ ينسج الجيب. سأنتري لك جبة جديدة ليوم العيد، إذا كفتت عن الصراخ.

- انظر "يا؟"، إنه لشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!

- هذا سوق الشواشين، هذا الرجل بالذات ليس من صنع شاشية خالك، الصناعات بلعشرات.

- "يا؟"، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحنون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.

- يا جحش. أريد لك مستقبلا أفضل.

- "يا؟"، لماذا كل الشواشي حمراء وكل النساء ب"سفساري" أبيض؟

- عندما تكبر، افرض على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء "سفساري" أحمر اللون.

- "يا؟"، ما هذا الشيء الأبيض؟

- يسمونه "الكسترو". يوم نخدغ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.

- "يا؟"، ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟

ثم يُداهم الطفل قلق مبهم.

- بخصوص الحمام والحلاق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟
- لا تماطل. هل رأيت هذه الغاية من الشعر فوق رأسك؟ أخشى -إن أهملنا قصّها- أن
تملأها حيوانك صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.
يصل أبّ ججر ابنا، وابنّ ججر أبا، لحمام اسمه “القشاشين” يقول عنه “بب” إنّه أفضل
وأرخص حمامات المدينة العتيقة.
- “بب”، لماذا صيغوا عمودي المدخل بالأحمر والأخضر؟
- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتكم؟
- كنتُ أفضل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المفدى!
- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.
تضيق الأشكال والألوان في ضباب تنهادى داخله لجسام مترهّلة تحمل خول الخصر
فوفة باهتة اللون من كثرة الاستعمل والغسل. يأتي وقت الجزء المزجج من البرنامج
الذي لا نجاة منه. الطفل الآن بين يدي “الطياب” كالغار بين مخالب القطر يسلم جسمه
مكرها ليدي المهني الخشنة، تدلكه، تفرّكه، تطفطان مفاصله، والطفل بين احتجاج
وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقريع.
لا يبقى له غير كنتم أنينه ومحوّلة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء
سفر على حرّمته الجسدية.
ألم يطالب أمه بابّ يأخذه لحمام الرجل من حمام النساء الذي يذكره دوما أنه ما زال
طفلا صغيرا. ومع هذا، ليس في هذا الحمام اللعين ما هو جدير بمزيد من الصبر
والتحمّل، وقد أعى البصر الماء والصلبون ورغوة “الشامبو”.
- عيناى تحرقانني، أريد الخروج، أريد الخروج، سلّخج الآن.
- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقل أنشفك. المرّة
المقبلة سنتذهب إلى الحمام مع لك كل الصغار.
- أريد الخروج! أريد الخروج!
- أخرج الله روحك. استلق على هذا الحصير فلا بدّ من الراحة. لا شك أنك ظمآن، هذه
برتقالة لك من “م”.
يأخذ الطفل الثمرة، يقرّبها من عينيه يطيل النظر وكأه يرى برتقالة لأول مرّة في حياته.
يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت
أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمام.
- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟
- بلى، إنها جميلة جدًا، خاصّة اللون. ألا ترى كم هو جميل؟ أحب رائحتها أيضا، “بب”،
هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالا يمثل هذه الألوان في البلدان
التي ذهبت إليها؟ هل لها روائح أخرى؟
- يا لك من طفل غريب. والآن كلّ برتقالك واطركنك أغفو لبعض الوقت.

- "يا" لا أريدها... إنها شديدة الحموضة.
- كل القشور... ربما يعجبك أكثر طعمها.
يغمض الأب عينيه معرضا عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار تجدد الصلة.
يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام متذكرا لعبته المفضلة زما طويلا، وكم كانت أمه تكرر لها لسبب غير مفهوم.
ومن الملفات المطمورة بعناية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفت عن هذه اللعبة، ابحث لك عن غيرها، إنك تخيفني.
يخضع الطفل للأمر. لا يريد أن يستقر "مما" معاهدا نفسه على العودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينيها.
أليست اللعبة الغيبة - كما كانت تصفها أمه ظلما جديداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات؟!
هو يتذكر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.
- "مما"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟
- إنه من المبصرين يا بني، تلطف معه دوما وخذ بيده لتعينه على شق الطريق.
- مبصر؟
- يجب أن تسميه "مبصر" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.
- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟
- نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.
يكشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصر" متى شاء، مكتشفا أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو "يستشق" روائح يفوح بها شجر النخيل، هو الذي لم يعرف للنخيل يوما روائح.
ها هو "يسمع" دبيب النمل على الأرض كأنه رخص الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزرع به الفضاء من إنس وجن.
السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفتر للضرب لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟
- "مما" إذن، هذا الأعمى كما يقول جتي لا يراني!
هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.
هو سيعاني مثل بقية الأميين من ألم بقائه خارج مدار أنظار تنزلق عليه ولا تبصره وهي شلخصة إلى الأفق أو منعكسة على ذاتها لا تهتم إلا بها. هو أيضا سيبقى ساعيا بكل قواه لتتوجه إليه كل العين كأن كثافة رؤية الأخر تكثف من الوجود. هو أيضا سيكون بين من أذلهم الجري وراء الأنظار. هو سيجرب مرافقا نصيحة أدمي يدعى "بيكاتا"

بإبعاد أي كائن يوسع النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل مرآة من الحائط، بعلق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بعلق العينين علّ الذات توجد أخيراً خارج سطوة الناظر.

تعود للذاكرة سوا لا يتنكر الطفل كم أز عج أمه.

- "مما"، هل ساكون مبصرا يوما ما؟

- "سبعة أطاف وبعيد الشرّ على ولدي"، لا نقل مثل هذا الكلام يا نور عيني.

ثمة رعشة خفيفة في نبرة صوت الأم تبيى بوجود رعب تحاول إخفاءه ولا تفلح.

كيف لا يأتينا التطير وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العمى فسادا في قرية غارقة في الفقر والجهل؟

ألم يسمعا تهمس ذات ليلة في أنن جارة وهي تظنّه نانما.

- هل هو الرمدم؟ إنه الرمدم... أليس كذلك؟

- يا عزيمة، صلي على النبي.

- لكنه يقرب كل الأشياء إلى عيني، أنا متأكدة أنه لا يرى جيّدا.

العمى! ذلك أخشى ما كانت تخشاه "مما" تلك الأيام، والهاجس المرضي الذي سيصاحب الطفل إلى يوم الرحيل.

في أي عالم كنت ترتحل لو لم تكحل عينك خضرة الغابات والمراعي، زرقة السماء والبحر، بياض الثلج والسحب، حمرة الورد والشفق، صفرة الصحاري وحقول القمح!
في أي عالم كنت ترتحل، لو أفتت فيه نون حاسة السمع لتعرف كيف هو خريف الماء وضحك الأطفال وارتطام قطرات المطر بشباك غرفة النوم! في أي عالم كنا ترتحل جميعا لو أفتنا فيه ولا ما نملك مثل نود الأرض إلا حاسة للمس؟!!

ثمة إذن عالم لا يعرفه إلا المبصرون! وآخر اختقت منه الأصوات لا يعرفه إلا الطرش!
وآخر لا وجود فيه للروائح إلا كلمة من اللغة لا يعرفه إلا من فقدوا حاسة الشم! كم من بني سفر ارتطوا داخل عوالم كهذه لا يعرفونها إلا هم!

أرتعد فرقا اليوم وأنا أتصور أن طاولة القمار كان يوسعها أن تسحب لي رحلة في مثل هذه العوالم.

يمكنك متابعة الفكرة في الاتجاه الآخر. تصوّر أنك ولدت بحواس خمس لها طاقات غير محدودة مع حواس لم يتنبه لها ارسطو ولا كل من أضافوا لها عددا يكبر ويصغر حسب الباحثين في الأمر. ها أنت تسمع ما لا تسمعه الخفايش، تشم ما تعجز عن شمه الكلاب والقطط، أو ترى بعين النسر والصقر. تستحنّ في الفكرة كل طاقات التخيل. رؤية ما وراء البقسي؟ تحمس الذبذبات الكهربائية-المغناطيسية، وربما حتى ذبذبات الجاذبية إن وجدت؟

قد يأتي يوم يحمل فيه أحفاندا سماعات تلتقط غزل الأزهار ونظارات عن قرب تتأمل
رقص الذرات ونظارات عن بعد تتابع انفجار النجوم والمجرات. لكن ما الفائدة وماذا
ترانا فاطلين بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي إمكانيات التي خلقنا بها؟
المهم أن يتوفر الطفل على كل الأدوات الضرورية لرصد حالات العالم وهو راحة الفل
والياسمين، وهو طعم القهوة المرة والخبز الساخن، وهو راحة يد "ببا" تضغط بلطف
على يده تطمئنه على أنه لا زال محبوبا. نعم، يا لحظه وهو مسلخ بما يلزم من حدة
البصر والبصيرة للانبهار بحركة الشمس، للتوقف عند اختلاجة عابرة في نظرة "ما"،
للتعجب أمام ملامح الهيبة والقوة في نظرة الصقر والأسد.
أليس يديه أن البصر والسمع والشم والذوق واللمس أدواتنا لبلورة العالم كما نعرفه من
مبهم سنسميه مرحليا العتمة وأنه لولا هذه الحواس لتجّر في ضباب العدم ولغرقت الذات
التي ترصده في ظلام اللاوجود؟
على كل حال ما يزال الطفل بعيدا عن مشاكل التنظير هذه علما وأنه كان من العدل
والإنصاف مده بعينين إضافيتين، وربما بأنف ثني وأذن ثالثة، وهو بكل هذا الانتباه
والنهم.

يفتح الطفل عينيه سعيدا بعودة الألوان والأشكال والحركة.
يكتشف والده يراقبه باستغراب ثم يهز كتفيه أمرا هيا إلى بقية يومنا.
يخرج من بهو الحمام، والطفل يقتعل النظر إلى الخارج حتى لا يرى الحلاق ناصبا له
الكمين.

- "ببا"، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟
- قلت لك لن تتهزّب من قصّ الشعر.
- أسألك عن المبنى، لا غير.
- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي عن الحلاق المسكين
يستطيع لك شيئا.

حصّة التعذيب الثانية، أهدا هو اليوم الذي كان ينتظر بفارغ الصبر؟
يتفحص وجهه الذي في المرأة. يطيل إليه النظر كأنه يراه لأول مرة.
ترجع له المرأة وجها مستديرا أسمر، بلّف صغير مدبّب، وجبين مرتفع، وعينين
واسعتين يلمع فيهما نوما بريق غريب يفضح العواصف التي تعتمل داخل ذهن لا يهدأ
لحظة ولحده.

يثير فيه الوجه الغريب، عابس الملامح مع مسحة من كآبة، قلقا غامضا.
- "ببا"، انظر، هل هذا حقاً أنا؟
يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.
- ماذا تقول؟
- انظر. هذا أنا.

- أتحمّل منظرِكَ طول الوقت وتريدني أن أتملك في المرأة أيضاً؟

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

يبدأ الرجلان حديثاً طويلاً بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلقل المنن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- "١٤٦"، هل تدري...؟

- لا أدري. قلت لك: لا أدر-ي. لا أحد يدري شيئاً في هذا العالم اللعين والآن أغلق فمك إلى نهاية الحلاقة.

يقرّر الطفل أن يغلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتقشّر الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تقلّب المزاج.

يعود إلى تأمل أدوات الحلاق من موس، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر.

ثم يشدّه ثانية الوجه العلبس في المرأة.

تواصل حصة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملّفت للنظر غير صورته تتأمله بإلحاح.

يغمض عينيه ثم يفتحهما أملاً أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحذق فيه كل مرّة، يستقرّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس اللسان، يقرّر تخويله فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.

- "١٤٦"، هل الذي في المرأة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب:

- هيّا يا رجل، أسرع، نفذ صبري منك ومن هذا "الفرخ".

ينفض الحلاق عن الطفل بقية الشعر العالق ببقية قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسّها فيها "١٤٦". يتوجه إليه بلطف من فتح الكرم قلبه:

- حقا، إنه طفل نكي وجميل.

- جميل، آه، نعم، أمه تدعي هذا أيضا. تعرف المثل: "كل فرد في عين أمه غزال".

ينطلق السؤال كالرصاصة الطنشة:

- "١٤٦"، هل أنت أيضا فرد وفي عيني جدتي غزال؟

تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفة كهذه. يا إلهي لم يجزّب مثلها على كثرة ما عرف خذ الغض من الصفح! ترى هل ستترك -

كالمرة الفائتة- آثار الأصبغ الخمسة؟

يجرّ الرجل المتشئج طفلاً قرّر ألا يكلم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجل، حيث أتاه الهدوء ومعها الندم.

قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان "١٤٦" على الأقل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعدّبه أحيانا.

محاولة التكفير.

- أن الأوان لنشرع فيما تحب، هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

...

- شيء نشتره لأمك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سأخذك لأحسن خياط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك أنك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

.....

- تصمت عندما أريدك أن تتكلم، وتصمّ أذني عندما أريدك أن تصمت! لاصف بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقلعة زوج "أمي" ستكون هذه المرة جدية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرات الأخرى العديدة، مجرد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البناية التي تواجه الحمام.

- المطعم! نبدأ به، إنني أتضور جوعا.

- إذن، إلى المطعم يا فتى.

وهذا معلم أثري من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطوقسه وألوان الطعام التي يقدم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكُتاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، لجانبا كانوا أم أبناء البلد.

ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة ثوما، يدخلها حاشرا جسده بين الفصاع الضخمة.

لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطولات المصطفة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيق، تحميها من تساقط المطر ومن نيال الشمس الأسف المرفوعة فوق شارع حافظ منذ قرون على طابعه الشرقي الجميل.

يجلس الطفل بجانب أب شارذ بجبل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل "أمي".

يرفع أصبعه مشيرا إلى بناية مهيبة تتوجه إليها الجحافل، لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

- أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمت فيه كلللالل كلام الله، وحيث سنصلّي معا.

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

- الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقد كل روح! الليل الشمخ على قدرة أجداننا على البناء والتشييد.

قد يكون المبنى شيئا هاما بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهم هو ما حوله.

- "أمي"، من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنتظر هكذا إلى هذه المرأة؟ لماذا هناك نساء لا يلبسن السفساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر

يده للناس؟ لماذا قلت له "زبي يوبيا" ولم تعطه شيئا؟ هل رأيتَ النادل، إنه إنسان ظريف حقًا، يهرول بخفة بين الطاولات، إنه محبوب على ما يبدو فكل الناس يمزحون معه.
 - اترك الرجل وشأنه، كل، وقت الصلاة قد اقترب.
 من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينه؟
 - قلت لك كل، أتريد طبقًا آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟
 - "يا" لم أكل الذم من قبل، راحته أيضا طيبة، سأقول لـ"ما" أن تطبخه لي كل يوم.
 - نعم، نعم لكن كفت عن الصراخ أصببتي بالصداع، ألا تستطيع الكلام بهدوء، لست أطرش.
 - "يا"، أخطأ النادل هذه المرة فجاه بكسكسي لرجل طلب ملوخية...
 - هل ستأكل هذا الطبق اللعين أم أسكبه على رأسك؟
 - أريد الذهاب إلى بيت الراحة.
 - ركضا.

يعود الطفل جريا من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على اللقاء لحظة في مكان زاخر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقيؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل التمتع في مناظر أعجب ما فيها تجدها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدمي والده موضوعتان على الأرض، بينما تتدلى قدماه هو في الفراغ. يشعر بشيء من نفاذ الصبر أمام زمان يتلأأ به في طفولة كأنها القصر المطبق على العصفور.
 يتوقف مجهول، ينفض عليه باقבלات، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم: كيف حالك؟

إنه أهم سؤال يليق به الأعمىون على بعضهم البعض وكل إجابة فحج... إن أنت تبخرت في لشكوى من مصائبك أز عجت سائلا غير معنى إلا بمصائبه هو... إن أنت أسهبت في وصف ما أنعم به الله عليك من الطيبات أثرت غيرته... وفي الحاليتين إن أطلت في هذا الاتجاه أو ذاك ضيعت كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقتص عليك هو نجاحاته أو آخر ما تلقى من ضريات الدهر....

ينصرف الصديق فيتنفس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال طعامه. فجأة يجلس لاهنا إلى نفس الطاولة شيخ بدين ببنرس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحول انتباه الطفل للقادم الجديد.
 - "يا"، انظر. ليس لك كشطة مثل لشيخ لأنه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.
 يضحك "يا" ضحكة صفراء، يتدسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يمسح على شعر الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه
ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تلبس أيضا كمشطة
بدل "الكبوس" وجبة "قمراية" مثل أبناء المنن.

يهبّ الرجل واقفا، يجزّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة
دوما كالسهم إلى الوتر.

- هيا يا ولد، حان وقت الجمعة، كان لا بد لك من إثارة الانتباه مرّة أخرى ومع هذا
الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفل، لم تنتبه لهجته. الرجل كان يتكلم علينا. هل تعلم كيف يسمّوننا أهل هذه
المدينة الكلية: الأفاقيون؟

- "يا" ما معنى قفاقيون؟

- القادمون من الأفاق، من الأرياف القنرة، من الصحاري الموحشة، من الجبل المخيفة.
جمعونا في نفس الإهانة، لا يفترقون بين جنوبي وشمالي، لا يرون في قدومنا إلا أمواج
الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهدها... أفاقيون، قفاقون، لا فرق في
أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

- من الصعب أن نقنع أحدا منهم أنهم هم سكان الأفاق بالنسبة إلى جثك ومركز العلم
واحتنا.

ثم يستشيط غضبا على عاداته عندما تصل الأمه ذروة لا تُحتمل.

- اللعنة! سنحتلّ هذه المدينة، سنستعيد من فيها من أشباه الرجال، سنسبي نساءها، سنهيب
أسواقها، سنحرق بيوتها. أحفاد الرقيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنني
الجذ الذي سيفخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه فيّ وهو شيخ قارب الموت، وأنا كهل قارب
اليأس من كل مشروع لتغيير شعب لا يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورثنا الخدم
لخدمهم واليوم يورثوننا لحراس الخدم! سارق فاسد يحكم البلاد وأنت تتفرح ثم تدعي أنك
ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصوت المؤذن. يتسمر الطفل شلخصا ببصره إلى
السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع
والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأعمدة الاتصالات المكلفة ببثّ وتلقي الإشارات
المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النص. هذا الأذان الذي يتعالى من المنذنة جزء
من باقة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد
مكان أيا كان، من صنّع الأدمي أم من صنّع "الطبيعة" إلا وله إمضاء حسّي يمتاز به،

صوتًا كان أم راحة. وهذا الطفل سيتعلم اكتشاف الفرق بين موسيقى آذان المدينة التي تطل على مضيقي اسمه "البوسفر" والمطلة على نهر اسمه النيل وكيف يتلون في هذه وفي تلك، وكيف هي رثة الأجراس، وما الذي يفرق بينها وهي تفرع في مدينة تريض على ضفاف نهر اسمه "الراين" أو نهر آخر يُدعى "السين".

آخر تحذير عظيم الجنوى من اب نافذ الصبر لطفل لا يعرف على ماذا يركز انتباهه. - أنتبهك أننا سندنخل الجامع الكبير، لا مجل للصراخ في صحنه أو لطرح الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تقارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطعني فستكون هذه آخر مرة أخذك معي. يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلو! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الحَمَام الطائر، الراقص، المثلثي، العفّز الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطاننا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتون المباركة التي ورد ذكرها في كتاب "ما؟ الأصفر الرث. ثم أين الزيتون التي قال له رفاق اللعب إنها تتوسط الصحن، إنها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلقها كبير ولا صغير؟ لم يكن يعلم أنذاك أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه وولى الأبد من الشائعات وأنصف الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.

- انزع حذاءك وتذكر أين وضعته، لا تترك يدي وإلا فقدت في هذه الزحمة. يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجدها الكثيف، والثريا العملاقة تتدلى من سقفها الشاهق! ها هو وقف جنب أبيه والصوف متراصة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدر الجري للوصول إلى الصف الأول حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرك قيد أنملة وهو كالفأر بين أرجل الغيلة، لماذا هذا القلق لمباغت والدليل بجانبه يسترق النظر إليه ونظرته تقول: لا تخش شيئا، أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمله طفل صغير وهو يقعد الخلق ركوعا وسجودا ووقفا ثم ركوعا وسجودا. فجأة يتسمر بصره على قنمي الركع للسجد أمسه. لا أهم الآن من هاتين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزق بيرز منه كعب القدم كأنه فحاحة حمراء تطل من ثقب كيس أبيض متاكل. تأتيه فكرة شد "ب؟" من كمه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثم ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينقد الطفل إلا انتهاء الصلاة من صفة جديدة بسبب

رجل نسيت امرأته أن ترفع جواربه. يصرخ أب غلمر بإدخال طفل كهنا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيا، أسرع، البس حذاءك، فما زال أماننا الكثير من المشاغل والظليل من الوقت.

تأتي الطفل رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه.

- "يا، هل جواربك متقوية أيضا، أما أنا فجواربي جديدة. ينتهذ "يا":

- بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرأة، الجوارب... ما البقية يا ترى!

ها أنا أتلكأ وأتبلطأ، أجز القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.

كان الأب والطفل لا يمشيان إلا وواحد يجز الآخر، أو يجري خلفه أو أمامه؛ أما جنبنا لجنب فنلك ما سيأخذ منا طويلا على فرض أن الأمر حصل يوما.

- تحرك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.

- سأقول ل "يا" إنني صليت في أكبر جامع في العالم.

- الجامع الكبير ليس أكبر جامع في العالم.

- (بلهجة الشك والتحذي) ما أكبر جامع إذن؟

ينتهد "يا". ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تنوم طويلا.

- يا بني، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبر وتدخلها. انذاك سنلبس عن جدارة كشطة أثقل من التي يتعم بها الحفير، وسينادونك كلهم "سيدي الشيخ الحاج". تحرك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أماننا أهم شيء نفعه اليوم، والقطار لا ينتظر.

يأخذنا الطريق في الاتجاه المعاكس.

كانت المكتبة المكان الذي كان يركض له "يا" متقفا من طول الحلاقة والأكل وخطبة الجمعة... آخر محطة زيارة للمدينة وأنها في ذلك اليوم المشهود.

حقا لا تُعرف للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تتضوّع به المكتبات. أقسم أنني رأيت الرجل يغمض عينيه للحظة يستنشق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكأنه عاشق متيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبة يستنشق آخر عطر لها.

يغفل الأب عن الطفل لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطول عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري.

مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "يا، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

- "يا" أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كل الللّ الكتب.

- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كل" كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدها بهذه الكيفية السخيفة.
- ينغمس "بأ" في تصفح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني، ثم ينتبه لوجود الطفل.
- تعال، قل لعلمك ما تريده أنت.
- أريد آخر عدد لمجلة سنديب زيدان وأيضا سلسلة القصص الهندية.
- يفتح البائع فمه محققا في "بأ":
- القصص الهندية؟! كم له من العمر!
- يغالب "بأ" زهو:
- يبدو أن أمه توحمت على غجربة، هلت له ما عندك من هذه السلسلة حتى لا يقرأ كتبتي، قد يفهم منها أكثر مما أفهم.
- هات ما عندك، يا للرجل المتهور.
- يصرخ "بأ" وقد امتقع لونه:
- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشيا على الأقدام؟
- يتدخل البائع بلطف:
- لا تحمّل والدك فوق طاقته، ما أخذته زائد لأشهر من القراءة.
- يأخذ "بأ" في تقليد لهجة البائع الحضري:
- ولا تحمّل والدك فوق طاقته...
- يعود إلى الصراخ بلهجته البوذية:
- ما دام والده حيا فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حق لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك في أقل من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجودا... إلخ.
- يقرر الطفل تجاهل علامات الامتعاض المتزايدة عند "بأ" وعدم الانتباه لحبات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مبالي بالبائع يخفي سروره وشماتته.
- إنذار صامت أنه من الأحسن أن أتوقف قبل أن ينفجر الرجل الخطير.
- توقفت ثم ركض باتجاه المحطة.
- في عربة الدرجة الثالثة لأخر قطار الأحواز الغبيرة، هذا النفاش أو ما يشبهه.
- "بأ"، هذه المرة أنا الذي سأختبر معلومتك. من هو أكبر شاعر في كللالل الدنيا؟
- يرسم "بأ" على محياه ابتسامة التهكم ثم يصرخ.
- قطعاً، ليس ذلك الأخرق الذي قال "إذا الشعب يوما أراد الحياة" لو قال على الأقل "إذا هذا القطيع يوما أراد الممات"، لكن من الصادقين... طبعاً أكبر الشعراء هو...
- أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.
- هل ثمة غيره يا مغفل؟
- "بأ"، أريد أن أكون مثله عندما أكبر.

ينفجر الرجل ضاحكا، ثم يستشيط غضبا كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو.
- إياك، ثم إياك. حذار أن تصبح شاعرا ولو كهذا الشاعر الذي عقرت بعد ولادته النساء.
هذه أمة يقتر ما كثر الله فيها من شعراء يقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمنحون.
- ماذا كون إذن؟

- مهنتان شريقتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فيك كل
مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظرات اللعينة لا تصلح مقاتلا. كن طبيبا والآن اتركني
أقرأ جرائدي.

هكذا قرّر الليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عد إلى قراءة جرائده.
آخر ما يهّم الطفل مستقبله الغامض وكل ما يريد العودة إلى الركض لاستكشاف كللال
أزقة المدينة العتيقة، كللال جوامعها، حوانيتها، مطاعمها ومقاهيها.
هو لا يعلم أنه سيمشي كهلا في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة بلنسبة إليه عجوزا
عاهرة تحمل من كل مختصّب، نلد اللقيط وراء اللقيط، تربيهم كالفطة التي تتغذى بفلاذات
أكبادها... وأنه سيواصل حُبّها رغم كل شيء.

مدينتنا... (نزار قباني)

تظل أثيرة عندي
برغم جميع ما فيها
أحب نداء باعتها
أزقتها
أغانيتها
مأذنها... كنانستها
سكارها... مُصلّيها
تسامحها، تعصّبها
عبادتها لماضيها
مدينتنا بحمد الله -
راضية بما فيها
ومن فيها
بالآف من الأموات
تعلّكهم مقاهيها
لقد صلوا مع الأيام
جزءا من كراسيها
صراصير محطّة
خيوط الشمس تعصّبها
فلا الأحداث تنفضها

ولا التاريخ يعنيها

يومٍ يجلس الكهل لترتيب ملفّاته عن توغّله في الفضاء الحسيّ سينتبه أنه لم يطلب من الطريق إلا أن يبعده ما استطاع عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بلّسرع ما يستطيع. كيف لا والرجل لن يعرف مكانا على بُعد أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كتلك التي اعتصرتها منه أزقة المدينة العتيقة وهو ابن بجزر أبا يتلّكأ أو يركض للتخلص من قبضة أب متوتّر على الدوام. كيف لا وقد أصبحت تلك المدينة منذ ذلك اليوم المشهود بكل ما تزخر به من ألوان، من أصوات، من روائح، من أذواق ومن حراك، كل العالم أختزل في أزقتها الضيقة.

محكوم علينا ألا نصل أي مكان نريد إلا ويشدنا الحنين إلى مسقط الرأس ، ألا نعود إلى مسقط الرأس إلا ويشدنا الحنين مجددا إلى ما وراء الأفق.

**

حول النقط الحدودية التي تفصل وتربط بين مختلف فضاءات العالم

في بعض أقدم ملاحظات ذاكرة الطفل تهمس "ما؟" في أذن ابنها وهو يفرك عينيه نصف مستيقظ.

كانت رفيقة المقطع الجديد من الطريق من عشاق المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تملّ من البحث في أصل المباني المتداعية، ولم يكن من باب الصدفة أن نلتقي، أن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن. تبادرني وضعا للنقط فوق الحروف.

- إنني تريد معرفة تواريخ بنايات هذه الأزقة التي ركضت فيها ابن طفولتك. هنا كان سوق العبيد، وهذه مقابر الملوك، وهذه دار لوزير سابق. أمّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز الصحّي. أتدري أن المكتبة الوطنية كانت ثكنة للجند الأتراك؟ هذا حيّ البيغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها ليّما؛ إرهاب دولة ذلك العصر أتصوّر بسهولة كم أتعبت الرجل المسكين ذلك اليوم، لم تتغير كثيرا رغم مرور السنين.

يرفع الكهل يده إلى خدّ ما زال ملتها بعد خمسة عقود. تلحظ المرأة الذكية الحركة:

- تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موجعة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها.
- هذا هو الحماّم، لم يتغيّر منذ ذلك العهد، ما يزال الحلاق ناصبا في بابه كمينا للأطفال. لكنني جئت بك لتقولي لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحماّم ووظيفتها التي كان "ب؟" لا يعرف شيئا عنها، وبعدها قد يتفتّح مخي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها صلة أو قصّة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوما ما هذه البناية! لم يثر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون من قادوا أولى خطانا بهذا الجهل المشين؟

- بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلب مني تفاصيل أدق، لست إلا هاوية آثار. إذن، بعد المطعم والجامع، كان الأب المسكين يحاول إكمال بقية أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلّص من مشكسات "الفرخ"...

- ومقسما بأغظ الأيمان أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية والآن أتبعيني إلى المكان الذي كان "با؟" في عجلة للوصول إليه، لا أزال أتذكر موقعه.

أستمر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحنوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط. أصرخ جاحظ العينين.

- انظري ما فعل أبناء الكلب بأول مكتبة أخذني إليها "ب؟". جلّ هذا الشارع كان مخصصا للمكتبات وها هو اليوم تتابع حوانيت يبيع فيها محتالون لأغبياء هذه الصناعات

التقليدية الكاذبة وهذه الساعات الحائطية البشعة ولوحات عن مكة تدعي الفن وتوهم بالقداسة!

- لا فائدة من وضع أنفك على هذا الزجاج القذر. لن ترى غير ما أرى. تعال وتمالك نفسك. المكتبات بالعشرات وهي أيضا محلات تجارية تبيع موادا للاستهلاك اسمها الكتب.

- يا امرأة تحدثي باحترام عن أماكن لا تقلّ قداسة عن المسارح والعلب الليلية.

- استفزاز باستفزاز، قل لي يا فيهم ما الذي يفرق بين حوانيت تبيع هذه الساعات واللوحات البشعة وبين مكتبات تبيع كتباً أغلبها لا تصلح حتى للفت السمك.

ما أن تدخل مكتبة حتى تدهمك روائح الورق، حتى تسترعي انتباهك الألوان والأشكال للمعروض من الكتب... لما تمسك البعض منها لتصفحها تأتيك من لمسها متعة مرهفة صعبة الوصف... مما يعني أن الكتب تنتمي كلياً للفضاء الحسي للعالم.. لكنها تنتمي أيضا لفضاء آخر إذ داخل هذه الكتب تريض كائنات حية لا ترصدها أي من الحواس الخمس اسمها الفكريات... هي أيضا في صراع دائم بينها كما هو الحال بين الكائنات الحسية بخصوص نفس رهانات السلطة والتفوق... حذار، حذار، منها التي ستضيعك في مستنقعات الهذيان والجهل ومنها لحسن الحظ التي ستأخذك إلى أعلى قمم الفضاءات اللامادية للعالم... لهذا تشكل المكتبات أهم المناطق الحدودية التي تفصل وتربط بين الفضاءات الحسية وغير الحسية لعالمنا هذا.

نواصل شقّ الطريق وسط الزحمة في صمت. تتغير مراقبتي الموضوع أو هكذا تتصور.

على فكرة ما ذا تكتب حاليا؟ أنت لا تنفك عن الخريشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبيك، كم أودّ أن أستعيره منك بعض الوقت.

- لست متأكدا أنك ستستخرجين منه شيئا، هنا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحيانا قراءة ما كتبت.

- خطأ الأطباء؟

- ظروف الكتابة، أحبابنا وقوفا وسط حفلة مكتظة وحنّ مشيا.

- مادة لنصن جديد في الأفق؟

- نعم

تشرّد مرافقتي بصرها بعيدا، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحب مطربة لكيينا:

كتبتنا ويا ما كتبتنا

ويا خسارة ما كتبتنا

كتبتنا مئة مكتوب

ولهللا ما جاوبنا

- نعم، يا ما كتبوا، يا ما كتبتنا ويا ما سيكتبون.

- إذن، لماذا الإمعلن ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

- لأننا لا نكتب إلا لأنفسنا. أجمل ما في الكتابة كل الوقت الذي تأخذه على حساب الأشغل الثقافية التي تلتهم حياتنا...

- تفاصيل المشروع؟

- لنقل إنه نوع من التقرير عن رحلتي في هذا العالم وخلاصة تجربتي فيه... نص أحوصل فيه كل ما تعلمت وجربت لعل شيئا من المعنى يبرز من كل هذه الفوضى التي حولي وداخلي.

تعود مرافقتي للغناء بين سخرية ونكهة ككتابة مفاجئة.

- كتبنا ويا ما كتبنا ويا خسارة ما كتبنا!

ثم تتوجه إليّ بلهجة المشفق على عزيز لثنيه عن ارتكاب غلطة العمر:

- كنت أظن رجال العلم الذين تدعي أنك منهم لا يتعاملون إلا مع مشكل بالغة النقة بأدوات مناسبة تاركين هذا الموضوع للشعراء والأدباء والفلاسفة.

- أه صحيح. تعلمنا باكرا وضع العلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علته المنفصلة... الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر... الفلسفة في خاتمة والشعر في أخرى... الأفكار على اليسار والمشاعر على اليمين... النبيلة في الواجهة والذنبية خلف الستار... الجد حيث لا مجال للهزل والهزل حيث لا مجال للجد... أي تصوّر ممكن بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل! على العكس من هذا أريد لنصي أن تتجاوز فيه كما هو الحل في الحياة العادية كل المواضيع، أن يختلط الجد بالهزل، لتغير الموضوعي بنشاطات الخيل، التفاصيل البالغة الخصوصية لقصتي بكبرى قضايا قصة الأدمية ككل.

- كتبتك هذه ستكون "هريسة" فكرية لا أكثر... ذلك ما نسعى دوما لتقديده ونحن نفرّق بين القضايا والمستويات والمناهج!

- جلّ النصوص تتوجّه إما إلى القلب وإما إلى الدماغ، كأن العقل ليس عاطفيا، كأن العاطفة ليست عقلانية، كأن الذات ليست عاطفة-عقلا أو عقلا-عاطفة، كأنها ليست نظما وفوضى، كأنها ليست عقلانية لا عقلانية. لذلك أريد الخروج من وعلى هذه الثنائيات البالغة لسطحية والتسطيح. أريد أن يعكس نصي العالم كما هو وكل أمني أن يكشفه كائنات من أعماق الفضاء في بعثة حفريات ملايين السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيترجمه وينال درجة الدكتوراه بامتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

- وكيف ستحقّق إنجازك العظيم هنا؟

- بالتمنّي في أدقّ تفاصيل القصة الوحيدة التي أعرفها جيدا عني أكتشف الثوابت التي بُنيت عليها كل قصص الأدميين. ليست المعرفة الدقيقة بجسد واحد كافية لنعرف كيف

بُنيت كل الأجساد، وإن تباينت فيما لا يُحصى من التفاصيل؟

خوأك هذا مثل القول بأن دراسة قطرة من المحيط كافية لمعرفة ما المحيط؟

- وما المحيط الشاسع غير كل القطرات الصغيرة التي تشكله؟

- سأقتعل تصديقك، وأنّ الهدف المخفي ليس إرضاء رغبة كل الكتّاب: إعادة صياغة العالم الذي يعبرون وحتى خلق عوالم أخرى يزونها أجدر بالوجود. المهمّ أن تجد في عصر الاستهلاك للسريع والجاهز والمعلّب، مَنْ يقرأ، والكتّاب هذه الأيام أكثر من القراء.

على فكرة، هل تساءلت يوماً لماذا نقرأ؟ أليس لأننا نبحث عن ذواتنا في قصص الآخرين؟ أليس لأننا نبحث في قصص الآخرين عن معنى وجودنا في هذا العالم؟ لا خوف إذن من انقراض جنس القراء والفضول أحبّ عيوب البشر.

- عد للموضوع، إلى أين انتهى مشروعك العيقرى؟

- إلى كم هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بوذي أن تُشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهلجسنا دُوق الزبون وخوف الرقيب. المشكلة غياب الناشر الانتحاري القادر على نشر مادة خام من آلاف الصفحات، بما فيها من تشطّيب ومن فوضى! ثم أيّ قارئ قادر على الصبر عليها؟

- نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا الاستقزاز. أرجو أن لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظهم العاثر لتُشرف على لُطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية. جاء دوري لأنفجر بالضحك.

- هم ليسوا بحاجة إلى أية توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي للعلم ولا للأدب.

- متى ستشرفني بأن أكون أولى قراء قصصنا جميعاً؟

- لا أعرف، بل لا أعرف أصلاً هل سأغامر يوماً بنشر النصّ.

- الخوف من الرقيب؟

- من تقنيم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوجها مهارتٌ عديدة لست متأكداً من امتلاكها.

- مهارات؟

نعم مهارة حارس الغابات، والنصّ غابة موجشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات، مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصقل والنقش، مهارة الطفل والنصّ لعبة "لبيجو" يجب تجريب كل الإمكانات لتتداخل القطع في أكثر الأشكال تناسقاً، مهارة الفنان والنصّ لوحة فنية يجب أن تسطع فيها الألوان أو قطعة موسيقية يجب ألا تعرف نشازاً، اضيفي لكل هذا مهارة سقراط وهو يستقرّ في السامع والقارئ طاقاته الذهنية ليؤلدا المعنى معاً.

عنوان نصك العظيم هذا يوم تنتهي من التحكم في كل هذه المهارات؟

-الرحلة، ربما سأضيف تحت العنوان سطرًا: الموجز والقول الفصل في طبيعة العالم والشؤون الأدمية وسبب وجودنا في هذا السيرك الذي اسمه العالم ... للإيجاز قد اكتفي بملذرات أمني.

- إذا كانت المادّة بنفس طرافة العنوان... فيا خيبة المسعى!

- هل غلطني أن البشر لم يتركوا عنوانا لكتاب إلا واستعملوه نكاية في، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحبيطة قرونا قبل أن أولد؟
- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حسابا لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟

- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دوما، سيخرجون جُملا من سياقها، سيقولونني عكس ما قلت سينهموني بالإيمان والكفر، بالشيء ونقيضه... كل هذا تعسفا على النص وتحاملا على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو لب. المسكين! كان الشيطان في عونهم. ليقولوا ما يشاءون هدف البحث ليس أن أترك في ذاكرة الناس قصة مصنوعة من أنصاف الحقائق لمواصلة معركة عبثية للتميّز حتى وأنا ميت وإنما اكتشاف معنى لهذه الرحلة وتكلفتها الباهظة.

- كلكم تقولون نفس الكلام ولا هدف فعلي إلا اثبات الذات في هذا الزمان ولم لا تخليدها والحرف هو السلاح المتيقن لكم ضد الفناء.

أروع ما في الكتابة فعلا قدرة الاستماع لكلام الموتى وتبليغ كلامك وقد أصبحت منهم.. يبقى أن الخلود بالكتابة مجرد طعم كالذي تلوح به الحياة للعشاق: المتعة لكم والبنون والبنات لي المهم تواصل النسل.. في قضية الحال كأن القوة المبهمه التي تدفعنا للصراع مع الورقة البيضاء تسرّ في أعماق طبقات الذات متعة الكتابة والحلم بالبقاء في ذاكرة الأجيال لكم ، ولي ما تنتجون من أفكار المهم ألا يتوقف الفكر أبدا.
تهزني مرافقتي من كنفني.

- سهوٌ مجدداً ، كلي أذان صاغية لك.

- لا أحد يصغي لأحد، ربما الأمهات لأطفالهن. وحتى هن! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبدين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظرا أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفني منه الكلمة بدورك. كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطرّ لاعتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكفونه بنفس الخديعة.

أيّ تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذاتٍ مثل شمسٍ تدور حولها كل الأفلاك، ومثل فلك يدور حول ما لا يحصى من الشمس؟.. أية علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقضي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض ههشيتيه؟

تبتسم مرافقتي لنكريات تؤكد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكل.

- معنى هذا أنك لا تصغي إليّ أبدا.

- أحيانا، أوقات الانتباه وهي جد نادرة.

- هل تريد أن تعرف رأيي فيك؟

- لا.

- طيب، أما أنا فأريد أن أعرف رأيك في؟
- رأيي في الأدميين عموماً والإناث خصوصاً: كانتت يستحيل العيش معهم وكاناتت
يستحيل العيش بدونهم.
تمت مراقبتي لنفسها بلهجة وأشلاء اللغتين اللتين يتكلم بهما أهل هذا البلد التعيس كنت
أنتظر ما أفتع.
ثم تعود للكلام المسموع: طيب كيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟
تلك الليلة وصل البيتُ أبٌ مرهقٌ وطفلاً متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيراً.
تفتعل "م" السرور بما جلبها لها من الطوى. يسارع "ب" إلى كتبه ويرحل. يسرع
الطفل إلى كتبه ويرحل.
تعود المرأة الوقور لغسل الصحون ثم تجلس على الحصير الباش تتصفح ببطء
ويتركيز كتاباً أصفر رثاً، تطيل فيه النظر، ثم تغلقه واجمة.
تشيح المرأة التي عرفت جوع الروح قبل جوع الجسد ببصرها ولا أحد منتبه أنها مثل
سجين في أضييق زنزانة والمفتاح شيء غير مادي لا تملكه، أن الأوان لرواية ظروف
سطوي عليه.

**

أو كيف أن هناك دوماً ثمن باهظ لاستكشاف أي فضاء من فضاءات العالم

تهمس أم في أن طفل يستيقظ وفي صوتها عصبية غير معهودة:
- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!
- إلى أين؟
- إلى الكتاب. هيا، لا تتأهل!
- الكتاب! لكنني ذهبت إليه البارحة.
تغالب، ما؟ نفسها حتى لا تنفجر ضحكا.
- سنذهب إليه اليوم وغدا وكل الأيام ما عدا الجمعة والأعياد.
إنها نبرتها عندما تتحدث عن الذهاب إلى الحمام، أي أن الموضوع غير قابل للمساومة.
- لماذا؟ ألا تكفي مرة واحدة؟
- لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتلأأ.
تجرُّ امرأة طفلاً أقلُّ ما يوصف به أنه كان فاتر الحماس للعودة إلى مكان ليس هو مركزه!
- تذكّر ما قلته لك البارحة. لا تتساجر مع الأطفال، لا تنشيطن كعادتك، انتبه لما يقوله المؤدّب وعندما تتوجه إليه بالكلام ناده بـ“سيدتي”، كُن شديد الاحترام له ولا تعص له أمراً، استوعب ما يقوله لك، قبل يده عندما يدعوك لتمثّل أمله، لا تكن وفحاً ولا تتكلم صارخاً أمله، أطعه في كل شيء ولا تعرّض نفسك لما أكره ولا ترضى، ولا تنس أنَّهُ سيخرجك من الظلمات إلى النور فهو من سيعلمك كلام الله.
إنها عادة الأم الأزليّة المتمايية في إغراق الطفل الأزلي بنصائح لو كان لها أدنى تأثير لتحسنّ الجنس البشري منذ زمن بعيد... الدليل على تواضع دور هذه النصائح أنّ ذلك لم يحصل.
بقية الحوار كما تعيد صياغته ذاكرة الخيال أوخيال الذكرة.
- لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جنتي لاصطياد الحجل بمقلاعي الجديد.
تجذب، ما؟ يد الطفل بشدة وهي تنتظر إلى ما حولها بانزعاج:
- لا تتركز أبداً مثل هذا الكلام، خاصة على مسامع الناس.
يصل الطفل مجروراً من يده إلى الكتاب، وهو ركنٌ من جابع المدينة الصغيرة التي قنفتها على حفافها لمواج النزوح.
تنفع الأم طفلها لتخطي الباب وتمسك يده بقوة كأن شيئاً بداخلها يحثُّ على الفراق ولحز يرفضه.

آخر توصيات إضافية بضرورة الجلوس قريباً من الشيخ، وحتى بين يديه للتبرك والنهل المباشر من نافورة علمه.

بخصوص هذا الشيخ تسترجع الذاكرة صورة كهل يلتحف ببرش من الصوف البني وعلى رأسه شاتية حمراء يلقيها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرض كثيراً لوهج شمس الفلاحين، ويدان لم تمسكا فأسا أو مسحاة.

كان يفترش سجّادا مهترنا بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتقاسمه الطفل مع الرفاق الصغار، وكلهم جالسون أمامه صفوفاً مترابطة في أعجب فرضى. يوم غامر الطفل بالجلوس قريباً من الشيخ ليبيصره عن كُتب فوجي بنظرته الجليبية مصوّبة نحوه، وكلاهما يقتر حظوظه خطأ كما هو الأمر في أغلب حسابات الأدميين- في استعمال الأخر لمأربه.

يдахم الطفل شعور بالتهيب. قد يكون الخوف ثاني أقوى المشاعر إذ كانت للزجل عصاً طويلة يوّج بها طوال الوقت، ومن ثم قرر الطفل البحث عن مكان آمن في لصفوف الخلفية ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيء رهيب لخر تسميه اللّغة “الطقّة”.

كان الشيخ يضعها قرب ركبته اليمنى، واضحة لكل العيون، جاهزة لكل الاحتمالات ولاستعمال ولحد.

الطقّة!

أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روّضت أمة برمتها كما لم ترّوضها جيوش الغزاة على مرّ التاريخ.

هي التي ربّتها منذ نعومة الأظفر على الخوف والطاعة، وكان النور ذلك اليوم على الطفل لتسييره في قوافل المرؤسين.

على ذكر وسئلنا البيداغوجية القديمة عن الجاحظ: “كان معلّم يعلم الصبيان ومعه عصاً طويلة وأخرى قصيرة، ووصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألته ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتلخر فأضربه بالطويلة، فيفر فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدم إلي الصغار كأهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوبق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المازة ذلك فيسارعون إلي ويخلصوني منهم”.

نعم يجب إسناد الميدالية الذهبية لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور وبصفة رجعية لهذا الكتّاب ولهذا الشيخ، طيّب الله ثراه وأسكنه في أفخم “سويت” في الجنة. في بعض أقدم الملفات، يعود الطفل إلى البيت ذلك اليوم بتمنين منتفختين كأنه يمشي على الجمر وكل همه دخول البيت محافظاً على مشية لا تُلفت الانتباه.

كيف تفادي حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار “مما” على هذه العادة البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟

كيف يعترف لها أنه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنه قام ليجلس بعيدًا عن الفلقة والعصا ولم يستأذن إلا من نفسه، أنه لم يقل للعجوز: “سيدي الشيخ” وهو يخاطبه أنه لم يظهر له من الاحترام إلا أقله أنه لم يُقبل يده بعد حصّة العقاب بل عصتها، أن الضرب زاد إلى أن كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك.

ثم ماذا لو سألتها عما حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟

تنظّاهر “ما” بأنّها لا ترى مشية الطفل. لا تلقى أيّ سؤال. تتغافل -على غير عادتها- عن حصّة غسل القدمين الإيجابية مظهرًا مزيدًا من الحنان.

التجاهل! إن تعهدت هذه القدرة ستكتشف كم سهل تحمل شرّ الخصوم والأعداء وكم توقّر على نفسك عبث معارك تلقّتها مع تلقّين... وإن أصبحت بارعا في هذا الفنّ ستعي يوما كم من أصنقاء اكتسبتهم لأنك تسترت بالصمت على خطاياهم وأخطائهم.

يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسوية، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصا طويلة وقدمان دامتان فوق سحاب كثيف، وشيخ بدين يركض وراءه بصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفورًا. وفي الغد تهز اليد الرقيقة الطفل بحزم:

- نهض، حان لوقت.

- اذهبي أنت إلى هذا الكتاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك. نادي العجوز للكريمه بـ “سيدي”، قبلي يده، أطيعيه في كلّ شيء، لا تتشّيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أما أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلاتي الجديد. لن أعود إلى الكتاب مهما قلت وعلّمت.

- يا بني لا بدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتاب، أن تسمع المؤدّب. هل نسيت أن والدك كان مؤدّبًا؟! كم سيكون رائعًا أن تشبّهه، وكم سيكون فخورًا بك يوم تُعلّم صبيّة قريبتنا كلام الله.

- لا أريد أن أكون مؤدّبًا. أنا أكره كل المؤدّبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبدًا، أبدًا!!

تأخذ “ما” طفلها بين ذراعها واللّهب في عينيها. ثمّة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب طفلًا موجوعًا وإنما الرّجل النائم داخله.

- هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالمهزيمه وأنت الذي تحبّ الصراع؟ كم هو طويل الطريق أممك لتصل إلى المراتب التي يريدك لك “ب”!

نعم، كم هو شاقّ طريق الألمي، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئُه منذ البداية أنه لم يلبث إلى العلم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لهمة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب لكن ثمنها يُدفع غالبا.

تواصل الأم اقناع طفل معرض عن كل كلام

- رأيتك في المنام عالماً بارعاً باللسانين! نعم، جاءني في المنام -وأنا خبلى بك مَلَك بشرني بهذا. هل تكذب ملاك الله وتخزيني؟

هل أتاه الملاك يوماً منتفخ القممين يمشي على الزجاج والجر؟
المهم أنه أتاهم وأتق معها على شروط العقد الذي سيجعل الطفل عالماً بارعاً بالعتين.
لم يعد مطلوب منه سوى التطبيق، إذ لا حق له في إفسال مخططات سرية تتوارى داخلها أحلام وردية للام ورغبة عارمة عند الأب في النثر.
محكوم عليك دوماً أن تنخرط بإرادتك، أو بتوهمها، في القصة التي حدتها لك طاولة القمار وأن تلعب شنت أم أبيت-الدور الذي قرره لك "البيخت" أو سوء الطالع.
يستمر الطفل في عناده رافضاً مواجهة تجدد كابوس البارحة. هل من الممكن أن ينهار حلم "م" وهو في البداية؟

تستخرج الأم من خوفها المفاجئ الحجة التي لا تقاوم.
- تعلمت بعض الحروف من أخوي، لكنها لا تكفي لأفك رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يكتيني بالبقية.
إنناك سأقرأ كلام الله. هل ستخزني؟
يحدق الطفل في وجه أمه وقد انتبه فجأة لما تقوله:
- أنت لا تعرفين القراءة؟

- في زمني، كانوا لا يبعثون بلبنات إلى الكتّاب.
تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتلطّف وتبارك:
- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إلي محملاً بالحروف التي تنقصني.
يقفز الطفل من فراشه وقد تبدلت كل المعطيات لديه:

- سأذهب لأتيك بها. وستوقف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...
- كل ما تريد، والآن اليس ثيابك بسرعة، وكل قطعة الخبز هذه في الطريق.
تلك الصباح لم يركض صدي في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد -
بمحض إرادته مكاناً كل يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشده، وقد ألقت الأقدار الظالمة على كاهله الغضّ بمهمة لم تخطر له ببيل.

وهذا عالم نادراً ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعة سادية يمارسها عليك قبل أن يرمي بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مرّداً خلف المؤذّب كلاماً لا يفهم منه شيئاً، ولا أظن أن أحداً كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه.
ثأهمه وهو يردد كالبيغاء-أسئلة بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الرب، ما العالمين، ما الخاس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟
يغلبه التهور من جديد:

- سيدي، ما معنى خناس؟ ولماذا يوسوس الشيطان في صدور الناس؟ وكيف يفعل ذلك؟
من أين سيعرف بأنه دخل عالم الفكر -وهو في هذا العمر من باب المطالبة بالْحجّة أي
من باب البدعة في نظر كلّ الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تفطن إلى أن الطّفل من النوع الذي
سيزعج أمثاله دوماً بأفقيح ما يكرهون، فأراد أن يقوم الخطأ في تركيبته الذهنيّة بأشدّ
العقاب، علّه يكتسب أجراً في الدنيا وثواباً في الآخرة.

يصرّ الطفل مع هذا على حقّه في الفهم. يعاود الكزّة والشيخ أحسن مزاجاً:

- سيدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخناس؟ ولماذا تبتّ يده؟ وما معنى تبتّ؟
أخيراً يستيطن أهمّ ما يعلمه الكتاب والحياة بصفة عامة، أنّ تقادي العصا أهمّ من إثنياع
الفضول.

يتعمق كرهه للمؤدّب، وهو لا يعلم أنه يظلم للشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى
إلقاء أسئلة في مكان جُعل لمنع ظهور السؤال؟

كان الشيخ ينهض من فراشه لقضاء حوائج كثيرة يسلم إبانها العصا واللفة لعمليل سلطة
لا تكون ككلّ سلطة-إلا باللفة والعلاء. كلن همّ العمليل هذا، وهو أطول الأطفال قامة
وأكبرهم سنّاً، أن يصفّي حساباته مع من لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب
الذي أصبح سيده المفضّل.

لا العصا ولا اللفة، ولا كلّ أنواع ظلم الشيخ وتعسف العريف، عوّبات كافية لتثني
الطفل عن قراره بالظفر بكلّ الحروف لتختار منها "مما" ما ينقصها.

تواصل الحروف اللعينة رفض الحضور بين يدي من هو بأمسّ الحاجة إليها.

يعود الطفل إلى حبيسة الذار كلّ مساءً مثقلاً بالام غير مفهومه السبب، برّد عليها ما
علق في ذهنه من جمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تطرب لسماعها.

- "مما"، لا حروف في هذا الكتاب، لماذا لا نبحث عنها في كتاب آخر؟

- صبرا أيها الطفل العجول.

يتجدّد الموعد كلّ صباح مع العصا والصّخب والحصير، وكلّ مساءً مع حرقة الإحساس
بالذنب والقهر.

ها قد بدت "مما" تتخوّف بجديّ من صدق وعد الملاك. تنتشج أصابعها وهي تمسك بكتفي
ابنها!

- لا أحبّ أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إليّ ملياً. أتريد مصير أقرانك في
الصحراء، أم مصير أبناء خلتك هنا؟ رعي الجمال والماعز عند الأعمال، أم رعي
الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبداً، هل تسمع؟

... '... '... '... '... '... '... '...

- يجب ألا يحصل هذا أبداً. أبداً!!

...

- كم سلگون فخوره بك وقد حفظت السنين جزيا! كم سيكون "يا" فخورا بك هو الآخر
وانت تتلو عليه ما تيسر منها!

...

أرجوك، كفى بكاء، إن دموعك تمزق قلبي. عدا سنقرج بإذن الله. سأحمل للشيخ عسيده
بلسگر والسمن. وأنت أيضا لا تكن سليط اللسان كعادتك. لا تكابر، فلست دوما على حق.
سأصلي الليلة كثيرا ليهديك الله.

ولأنا في قصة نتصرف فيها كما نشاء فإئنا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة
بأكبر عصا وأكبر فلقه تضعها حول أقدام البشرية جمعاء. سنقرز أن هذه السلطات، في
إطار سياسة كل سلطة تصنع الاهتمام ببعض التنظيمات وافتعال حلها ليواصل الانضباط
وتدقق العسيده بالسكر والسمن، أمرت بإصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتى لا يكابر
الطفل ويتخذ طريقا قد يقوده ليصبح عالما بأحد الرعين حسب تهديد أمه.

ربما تحل حليف "ما" بحزم وإلحاح لدى مكتب التنظيمات الكونية. قد تكون علاقته
الشخصية مع ملائكة القسم هي التي مكنته من إخراج ملف الطفل من تحت جبال ملفات
الاستغاثة المتصاعدة من الآف العولم.

ربما لم يحصل شيء من هذا، وكل ما في الأمر أن الطفل وجد أخيرا ضالته.

ذات صباح يتنحج الشيخ بوقار:

- والآن إلى الواحك لتعلم الحروف الأولى التي كتبت بها كتاب الله.

أهم متطلبات استكشاف الفضاء الحسي جسم سليم، حواس نشطة، ثياب تقي من البرد
والحر، وحذاء مثنى يستحسن ألا يكون ضيقا. أما عن استكشاف فضاء الأفكار فمن
المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة وأربعة أشياء توفرت كلها يومها
للطفل: قصبة منببة بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب
كبير، وطين يمزج بالماء ثمحي به الكتابة وتعاد. إنه حاسوب ذلك الزمان. يا للادوات
المتواضعة لغزو أفسح فضاءات عالم الأدميين!

يبدأ الطفل كتابة الأشكال التي أمر بها الشيخ، أو قل رسمها. لا بد من التحكم في تشجج
اليدبين حتى لا تنطلق العصي الواقعة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محببة لما فيها
من سهولة الرسم!

ها هو يتمتع برسم الأشكال الهندسية التي تصيح أصواتا، فكلمات، فجُملا، فصورا،
فأفكارا تتراحم داخل عقل نهم يقظ. يشهر قلم القصب وهو يقطر صمغا كسيف دلم في
وجه عدو شرر اسمه الجهل.

كم كان الطفل بعيدا عن تصور الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة
شعرا وغناء وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كل تصورات
ذاته وللعالم!

من أين له وهو راكع مُنكَبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه-الوعي بأثمه وَضع أولى خُطاه على طريق مجهول سيُوقده إلى قمم الفكر البشري! كم كان بعيداً عن تصوّر حجم تلك الجزء من العالم الذي دخله ذلك اليوم، وكم كان سيصاب بالإحباط لو قيل له إنه سيَقضي في استكشافه جلّ زمن الرّحلة، وهو كمن يبحث عن بعض قطع اللؤلؤ المنضود في أعماق بحار لا تعرف لها بداية ونهاية؟

المهمّ في هذه المرحلة المفصلية من الرحلة السيطرة على هذه الحروف بما هي المفتيح السحرية التي ستفتح أمامه أبواب كم هائل من الكتب وكل كتاب نافذة جديدة على عالم لا تحصى ولا تعدّ ابوابه ونوافذه.

يتعلم الطفل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عصيّ قصيرة واقفة وأخرى راقدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها!

ها قد تعلم من سيدي الشيخ، خمسة أحرف دفعة واحدة. أليس ألم اللفة ضريبة الحصول على معرفة الحروف التي تنقص "م"، وأهمّ من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطفل من تفحص العصيّ والنقاط لا بد من وضع الدوائر تحت السيطرّة. تداهمه أولى أفكار سيواصل وصفها طوال رحلته من قبل القريب والبعيد، تارة بالغريرية وتارة بالاستغرابية.

نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرتّه وعصيّه الراقدة على ظهرها ونقطته وكلّ هذا التعقيد غير الضروري الذي ستواجهه "م"؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعصيّه الواقفة خالية من كلّ تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلا حقّها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعاً بوجاهة الاختيار. لم يبق إلا عرض اكتشافه على المؤدّب.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقفة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هنا سيسهل كثيراً على "م" حفظ الحروف!
- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هولاء الصبّية الحمقى حماقة.
- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ!
- لخرس يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.
- عجب، كيف فهم البدين قصدي؟ أم إنه رأى ما أرسم جلسة؟!

المهم أن الطفل تحصل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها بذلك الشكل.

- "مم"، اليوم تعلمتُ كلللك الحروف! إنها أجمل من كلام الله.
- كم مرة قلتُ لك الأ...

- اللبلة سأعلمك فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

تجلس "مم" فخورة، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أن صديقها الملاك جدي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بوعودهم الكثيرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطفل عُود حطب رقيق بلُوح به في وجهها، إذ كيف يكون معلمًا ومُهايا إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثم يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهدية الهدايا.

- انظري مليًا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟
- نعم.

- نعم، يا...؟

- نعم، يا سيدي الشيخ.

- انظري جيدًا إلى هذا الحرف الذي هو عصًا واقفة، إنه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟

- هو هنا، يا سيدي الشيخ.

- حسنًا جدًا. والآن الحرف الثاني. انظري مليًا ولا تتبسمي. إنه عصًا قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلاً إلى الأمام. إنه حرف الدال. قولي معي:

دال. والآن أين الألف وأين الدال؟

- هذا الألف وهذه الدال، يا سيدي الشيخ.

- والآن هذا حرف ينطق دال، وليس دال، لأن فوقه نقطة. فهمت الفرق؟

- نعم، يا سيدي الشيخ.

- والآن إذا وضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟

- لا أعرف، يا سيدي الشيخ.

لا بد من التروّي في عقاب ولو كان خفيفاً فهذه التي ستنتال العصا هي "مم"، وعلى كل حل هي غير مطالبة بمعرفة حروفه الخاصة، علماً بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث أنه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرث، فلماذا يظلم من لا تظلمه أبداً؟
- حسناً، لنراجع كل ما علمتُك اليوم.

كانت الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطفل سوى الانتظار إلى الغد، عل "مم" تنسى حرفاً أو حرفين وأنذاك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنه لا ينوي الضرب العنيف، بل بلطف ولمجرد التمتع بسلطته الجديدة.

- ستواصل تعليمي بقية الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟

ترفع الأم إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلا نادراً.

- انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات التي على الصفحة الأولى لكتابتكم ثم نقلها على الكراس، وأريد أن يتم ذلك بنظافة تامة.
يصرخ الطفل المتهور:

- إنها كلمات سهلة، أعرفها كلها، فسيدتي علمني كيف أقرأ.
تبتسم المعلمة ابتسامة صفراء.

- حسناً، كتبها إذن وتذكر أنك تكتب على الورق وليس على اللوح.
ثم ذات يوم تتوجه المعلمة متجهمة لطفل مرتبك.

- أريد أن يأتي وليك معك غداً. وبالمناسبة، من الآن فصاعداً عليك أن تجلس في آخر القسم.

تحقق الأم في طفلها كأنها تراه للمرة الأولى. تمرر يدها على شعره ببالغ اللطف. يتسع ربع ابتسامتها وفي عينيها ذلك اليريق اللامع الذي لطالما أحبه الطفل.

- أريدك أن تعديني بعدم مضايقة "سيدتي". إنها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

- حفظت كل الكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي مشغولة بالتفسير لهؤلاء الأغبياء.

- لا تقل أبداً عن أقرانك أغبياء وإلا كرهوك وأذوك.

يلعب الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمه له ولا امتعاض "سيدتي" منه وهي لا تبتسم إلا للأطفال الآخرين.

يزداد الوضع سوءاً والمعلمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.

- والان انظروا في كراساتكم الجملة المكتوبة فوق السبورة.

الجملة! أين هي؟ من هذا المكان في آخر الفصل وظهره إلى الحائط هو لا يرى إلا أشكالاً باهتة لا يستطيع التعرف عليها. يغالب الطفل تردده، ثم يستجمع شجاعته وقد خرجت "سيدتي" لحظة فينهض من مكانه متوجهاً إلى السبورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالب بإعادة نسخها، لا يبالي بفهقة السخرية وبالطباشير المتطايرة. ثم يصلي لإله مُبهم أن تحفظ ذاكرته الجملة الطويلة وهو في عُدي وروح من السبورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبورة، كأنه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصيد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

- يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرك مجدداً دون إذن.

- لكن يا سيدتي...

- عد إلى مكانك وإلا شويت أصابعك بالمسطرة.

كم من الأم ومصاعب لاكتشاف فضاء الرموز والأفكار وكم فيه من مصاعب ومطبات تفاعلت طريق لا تقل خطورة هي الأخرى عن تلك التي تواجهك في الفضاء الحسي!

يدخل الطفل مجدداً في قوقعته.

تصرخ "سيدتي" في قمة الهيجان.

- غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبي أم ماذا؟! ...

- سيدتي!!

- كفي، أصمت ولا تتحرك!

ليذهب المكتوب على السبورة إلى الجحيم. لتذهب سيدتي نفسها إليه. على كل حال لقد قرّر أن يطلقها بالثلاث حتى قبل الزواج.

سوء الفهم المزمّن بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي توفّر لها لهم اللّغة.

لمثل هذه الوضعية التي يتخبط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بعضُ الفوائد، منها تفزّغه لأحلامه ولا أحد ينقص عليه عزلةٌ موجعة لذيدة.

يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنها بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود.

تهزّ الأم طفلها من كتفيه، تجرّه إلى الثور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله.

تتوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق دفين، تنبّهه لأخطار الفرار من "الواقع".

- كيف تقرأ كُتُب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلمة، مستغرقاً في خريشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سلخبره بأذك الأخير في القسم، كيف أقول له إنك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دلم؟ يا الهي، متى يعود، علك تعود أنت إلى رشذك؟! رشدك؟! رشدك؟! رشدك!؟

يرفض الطفل الاستماع إلى أمه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تقيض بها الحقائق المرمية في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلمة وكل ما تقول. تُطاطي "م" رأسها، تتكفى على حزن كأنه بئر بلا قاع، والطفل الغريب رافض لكل حديث فما بالك بمواصلة مدها بما يتعلم.

- يا بني، كذت لظنّ أنني لا أتحمّل صخبك، والحال أنّ صمتك هو الذي لا يُطاق. تكلم، قل لي بماذا سأدافع عنك هذه المرّة لدى حضوري غدا عند مدير المدرسة؟! رشدك!؟ رشدك!؟ رشدك!؟

ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفاً، تمسك بيدها المبلّلة عرقاً يد طفل يتملص ضاماً يده الطليقة للصراع. مع من، ولماذا؟! رشدك!؟ رشدك!؟ رشدك!؟

أي تبرير لتعذيب الأطفال بالأم لا يعرفون لها سبباً أو معنى؟ هل فُتح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدنيا لاستقبال الزوّار؟

يتوجّه الرجل الفظ إلى المرأة باحترار لا يتكلف إخفاءه:

- طلبتُ حضور والده!

- آيوه... غائب يا سيدي المدير.

- غائب أم فاز؟ أم في السجن؟ معاد للحكومة، أليس هنا المعروف عنه؟! بل ويقال إنه إرهابي متطرّف خطير ومسلح.

- يا سيدي...

- اسمعي يا امرأة. إن ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلف ذهنيا. يضايق المعلمة ويعطل القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نازح من الأفاق أو من الصحراء تحديدا، الأحسن لك وله أن تأخذه ليرعى الجمال هناك.

- أُنسم يا سيدي، أنه يقرأ طول الوقت كتباً و.

- كفى! إنه متخلف ذهنيا، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.

- أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلا نهارا، إنه شبه يتيم يا سيدي.

- حسنا، حسنا، لا فائدة من البكاء. يُقال إنّ لإخوتك زيتونا جيّدا ينتج أحسن الزيوت! يُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبدا.

يلع الطفل غصة بكائه ويتبع أما تغالب دموعا بها الكثير من الحزن وبعض الفرح. ثمة في أقدام الملمات صيغة أخرى لنفس الحادثة.

- طلبتُ حضور والده.

- أبوه... غائب، يا سيدي.

المدير، بصوت خافت:

- بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيدي، هؤلاء الأغياء لم يلاحظوا أنّ ابنك لا يرى جيّدا. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تقفد مفلجئ للقسم ينقل من مكانه إلى السيرة لينقل ما تطلب المعلمة كتابته. حقاً إنه طفل غريب! لماذا لم يُقل من البداية إنه لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركته يرسب. أما الآن فخنيه إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستحسن نتائجه حالما يلبس نظارات.

يصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطباء الشبان لا أريد أن يرسب طفل واحد لقصر النظر. أولى أولويات القسم - هذه السنة - الكشف على عيون كل أطفال السنة الأولى في جميع مدارس المدينة.

وفي قصتي بما فيها من حقيقة وخيال -بزمجر الأب في أصحابه وهو راجع لتوه من معركة ما:

- ابني أنا متخلف ذهنيا، يوصي ببعته إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامل هكذا؟! ابني أنا يُهمّل سنة لا يلتفت إليه أحد؟!!

- إنه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟

- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكمني يوما في رقابكم لترحمتم على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرسب وأمه تُنكّل وتُهان ولم تدبجوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائف لا عجب له إلا الإعدام زميا بالبصاق، وأنتم

معه كذلك. هذا بلذ لم يعد فيه إلا عميل أو جبن. أنا أستقبل منكم، اذهبوا أنتم لتحرروا المزرعة الكبرى فكلكم خونة بالأعمال أو بالنيات!

- يا رجل، اتق الله، هل الذي أنقذ مستقبل ابنك وجناح بعطفه خائن وعميل هو أيضا؟

- بالتأكيد لأجنيب متخفت فضحته أخلاقاً انقضت في هذا البلاد منذ زمن الفتح. استروه يستركم الله حتى لا ينتهبوا لأمره ويسفروه خارج الحدود. من المتخلف ذهنياً؟ هو أم الفاسق الذي نصبوه مديراً لأنه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلف ذهنياً؟! أسأله ما تريدون. قل لهؤلاء الجهلة أين صمد الزعيم في وجه الغزاة الملاحين؟

- في الفالوجة.

- نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج رب التصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لعائد الثورة العظيمة لما ذهب مهيناً ومسانداً؟

- قلت له: جنناك من المقهورة إلى القاهرة طلباً لسلاح تقهر به أعداءنا وأعداءكم.

- أستمتم؟! والان علم هؤلاء الجهلة اسم العبد الثائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.

- جومو كينياتا.

- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟

- الملو ماو.

- أرايتم؟ إن هذا الطفل كاد يوماً يُفلسني بطلباته من الكتب. أتعرفون أنني وجنته البارحة مستغرماً في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلف ذهنياً يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنه يلتهم كل ما في مكتبي ويقرأ حتى التي لا يدر على فهمها.

ابني أنا يرعى الإبل؟ ابني أنا، يفعلون به ما فعلوا!!! إلخ... إلخ...

ثم يلتفت إلي.

يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعكس، واصل معهم، إنسان وجودي. هيبها، يجب أن أدفع مع الجميع.

- وهذا المغفل الذي بقي صلماً عوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رقيق عزيز تجاوز كل الحدود:

- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنه يغالب نموعه؟

- ابني أنا بيكي! ثم ماذا أيضاً؟! تعتقدون أنه من طينة أطفالكم! ربيته على الشدة حتى لا يشبهكم يوماً، يا من إذا حكّمكم كلبٌ محتّم الكلاب وإذا حكّمكم بغلٌ تغنّم بغضل البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التبن والعلف! سبحان من جعلني واحداً منكم! إلخ... إلخ...

المهم إنه من يوم وضعت على عيني الطفل نظارات أصبح كأرنب تُفرض عليه مسيطرة السلاحف.

يصرخ المعلم الجديد في تلامذة آخر سنة للتعليم الابتدائي: اكتبوا موضوع الإنشاء! جاعتك فرصة للقيام برحلة يوم الجمعة، صف ما فعلت وما شاهدت ذلك اليوم. يَنكَبُ الطفل المتهوّر بحماس على الورقة البيضاء بملأها سطورا وبِقَع حبر يتمرّن على أولى طقوس الكتابة.

إنها المرحلة التي يكتشف فيها الأدمي ما تختزنه الحروف والكلمات من إمكانيات هائلة وكيف أنها تحرّر فيه طاقات ستغير يوماً مجرى حياته كما ستغير مسار الأدمية جمعا. وفي أوّل نصوصه يقيق الكاتب الصغير على همس الشمس قائلة: أما زلت نائما؟! انهض أيها الغبيّ ثمة يوم أغرّ أمامك، فأمرها ألا تُفرط في الحرّ لأنه على سفر. ثم خرجت السيّارة السوداء من المبهم الذي يعجّ بكل الإمكانيات ليجلس المغامر الصنديد خلف مقودها، الأمّ في قمة الإعجاب والأب في قمة العجب. فسارت السيّارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيّارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فننخّ عن طريقي. فقال له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنترّك وكفى هزلا. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقت السيّارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله يَبْسُطُ حمايته عليه وعلى الجميع. عند الأصيل، وقد خضبت دماء الشمس هامات النخيل توقّفت لسيارة فُرب فراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا، والمرضى يجب أن يكونوا دوماً في فراشهم يتأوّهون ويصرخون ويطلبون من أمهم أن تأتيهم بما يشتهون من المرطبات، إلا أنه لم يكن للجدّ أمّ لأنها سافرت إلى بلاد بعيدة وتركته وحده، لذلك جاعته "ما؟ بالحلوى فقال لها شكرا يا ابنتي، مع العلم أنها ليست ابنته وإنما ابنة أبيها، جدّي الآخر صاحب البرنس الأبيض الذي توفي وأنا صغير. ثم قال الشيخ المريض: آه، ابني مريض جدّا، فقال له الطفل: ولماذا أنت مريض يا جدّي؟ فقال له الأب: اسكت يا مغفل، ألا ترى أنّك تضايق جدّك؟ فقالت الأمّ: أطل الله عمرك يا عمي، إن شاء الله يكبر هذا الصبيّ ويصبح طبيبا يعالجك من كل سوء، فباركه ودع له. فقَبِلَ الجدّ الطفل ودعا له وللجميع وهو مسموع الدعاء من الله. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح أككككبر طبيب الله وسأتيك بكلللالل الأدوية التي تحبّ وستروي لي كلللالل قصص الجازية وأبي زيد الهلالي وعنترة وعلي بلبا وسنبداد، فضحك الجدّ ويكي. وبعد أكل المرطبات وشرب المشروبات قبّل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يبيكين دوماً عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا بتجاوزه السابعة من عمره لم يبك رغم أنه كاد يغلطها لشدة حبه لجدّه. فهو يحبه كحبه الحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا، أبدا.

يختم الطفل إنشاءه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيالاً من الكتّاب الناشئين أول نصوصهم: ورجعتُ إلى البيت فرحاً مسروراً.
يضع الطفل قلمه لاهناً ماسحاً عرقه وكأنه خارجٌ لتوه من معركة استنزفت كلّ قواه. هو بالفعل خارجٌ من معركة ستواصل طوال حياته والرهان التحكّم في الجُمْل تركيباً وترابطاً وتسلسلاً وتشذيباً.
يضحك المعلم باستهزاء:

- طلبتُ منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصّة التي تتحدث عن سيّارة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوماً سيّارة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحت الشمس تُأثّر بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُفّرٌ مبين؟! لا تُعدّ إلى مثل هذا الكلام أبداً.

يتنهد بصوت مسموع قائلاً: هؤلاء البدو! كلهم شعراء بسليقة منذ نعومة أظفّرهم. يكظم الطفل غيظه واعداء نفسه أنه سيكتب يوماً إنشاءً أطول من الذي رفضه هذا الغبي. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد، فلا المعلم ولا حتى أعداءه، "يا" قدرون الآن على افتكاك الحروف منه وهي داخل ذهنه ملكٌ نهائيٌّ غيرُ قابلٍ للاسترجاع.
ما من شك أنّ هذا النص مواصلة الفرض الأول، فلنتميّز الذي كُثر كثيراً وبقي نفس الطفل، هو الذي اختار بكل حريّة موضوع إثنائه: أفقت في علم الأُميين، صيف كل ما شاهدت وفعلت، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟

*

وفي ملفّ آخر عن تكلفة الارتحال في فضاء الحروف والكلمات يتوجّه المعلم لقسم هاتج على الدوام ولطف مصر على عدم الاستسلام لإرادة غير إرادته.
- انظروا جيّداً لهذه الحروف الجديدة. إنها حروف اللّغة الأجنبيّة التي يجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.

يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون "يا" في السجن كلّما أسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلّمها؟ ألن يكون هو أيضاً واحداً من الخونة الذين يتوعدّهم "يا" بلوئيل والثبور؟ مبدنياً، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كان لا يفهم بالضبط ما الاستعمار.

يضع المجاهد الصغير القلم جيّداً ليبدأ أول عصيان مدني في حياة سنكون حافلة بكثرت من تمرّد عقيم.
يفغر المعلم فمه وهو يسمع تلميذاً يهمهم أنه لا يريد تعلّم اللّغة الثّانية ولن يكتب هذه الحروف.

يكتشف الطفل أنّ المسطرة على الأنامل لا تفلّ أذى عن فم سيدي الشيخ.
بيني وبينك ما أسخف هذا الطفل وكم من صفحات مُحكمة كان يستحق!

الأدلاء يُقْتَمون لهذا الجحش على طبق من فضة كللالل حروف لغته الأم فُزِعج مَنْ
أهداه أعلى وأتمن الهدايا.

يُقْتَمون له الآن على طبق من ذهب كللالل حروف لغة جديدة -مفتاحا جديدا وكنزاً
إضافياً فيتأفف ويُعِن العصيان.

هو لَنْ يُقْتَر كم كلن محظوظاً إلا بعد عقود، يومَ اكتشف قصة طفل عاش في عصرٍ غير
عصره، وبلدٍ غير بلده عرف باكراً مثله قسوة الحياة.

بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيف من جندي غازٍ مخمور، شجّت رأسه وهو في
العاشرة. ومع هذا بقي حياً خلافاً لأبيه الذي قضى نحبه أمام عينيه. عقدة القصة أنّ والده
كلن يدفع أجراً للمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلم -الذي لم يكن مستعداً للعمل
مجاناً- ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلث الحروف.

جُنّ جنون الطفل هَمّه الأوحَد أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف z.

ها هو متشبهت بجلباب القس: من فضلك -يا أبتاه- ماذا بعد حرف z؟ فيركله الأب صارخاً:
ألا ترى أنني مشغول؟

يتوجه إلى عشيقته القس: من فضلك -يا سيدتي- ماذا يوجد بعد حرف z؟ فتركه صارخاً:
ألا ترى أنني مشغولة؟

يتوجه إلى مَنْ يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف z؟ فيصفعه هذا
وذلك صارخاً: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيراً من يستمع إليه، يمسح على شعره
مشفقاً: يا بني، اسأل القس، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية
الملعونة.

كلن بداخل البيتيم إحساس أنه إن بقي بثلاث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكم عليه بالنظر إلى
العالم ببقية حياته بثلاث عين لا ترى إلا ثلاث الألوان.

لا تُحكى القصة كيف وضع الطفل يده أخيراً على أصحاب الفخامة z، k، l، والجلالة m،
n، o، p، q، r، s، والسموّ t، u، v، وأصحاب العظمة w، x، y، z.
المهم أنه تحسّل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب
الأمر... وحده.

إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردان
وفرّاري وباسكال، ومؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوماً برسم مسار الصواريخ.

يواصل بطل قصتنا الغيبيّ عناداً لو توقّف عنده لانعطف به الطريق باكراً نحو مستنقعات
شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.

كيف سيخرجه النص بصفة مشرّفة من صراع غير مُجدٍ وميزان القوى ليس لصالحه؟
ألم يُعد الملاك "مما" أنّ طفلها سيكون بارعاً باللغتين؟ أليست هي التي أصرت على ذلك؟
ربما دفعت الثمن مسبقاً، وكانت كنية الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن
يقبل بأن يخدع الملاك "مما" فيأخذ منها ضعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تتهمه باللغث

والتحليل، وحتى -لم لا تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحْتج بنزاهته ويشهد المعلم ضده.

يقرر الطفل متأقفاً إيقاف أول عصيان مدني له .
كم من قرارات هامة تأخذها في كل المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق؟

المشكلة الآن التحكم في الحروف الجديدة.

اللجنة! لماذا يكتب الكفار من اليسار إلى اليمين؟ حذت ولا تسل عن بلخهم بالنقاط لحروفهم. ما أعباهم! هم يرسمون شكلاً لكل حرف من فرط جهلهم بالخفة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت تزداد لو سمعني سيدي الشيخ.
لا بد في هذه اللغة اللعينة من ثلاث عصي، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصاً ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطّلب في اللغة الأم إلا عصاً واحدة منتصبة مكتفية بذاتها.

يتزايد انزعاج الطفل والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأول منقح كالطووس بعصيه الثلاث بلغة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرد نصف دائرة هزيلة بنيل قصير كئيل فأر قضمته أنياب القط.

لا داعي إذن لإضاعة الوقت في تعلم لغة غيبية كهذه، يكفي افعال الاهتمام حتى لا يُفروا عليه بلضرب والنفي إلى الركن.

تنفع الأقدار إلى ساحة القصة بدليل يأخذ بيد الطفل ليعينه على تجاوز تقاطع جديد في طريق حافل بتقاطعات تنبأرى صعوبة وخطراً .

كان "مسبو فيدال" مدير المدرسة معلم اللغة الأجنبية حقا الوحيد ممن عرفت في تلك الفترة من حياتي الجدير بلقب المؤتب.

كان الرجل بشوشاً على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثر، يقوم اعوجاج أشباه الجمل.

كان يردّ على السؤال المحرج تلؤ السؤال الغريب، تلؤ السؤال السقيم، تلؤ السؤال السريالي، وغالبا عن مواضيع لا علاقة لها بالدرس. بل كل يشجع على السؤال، لا يمل، لا يسخر ولا يزرع أبداً.

يصبح تعلم الحروف الجديدة معه لعبة ممتعة. يكتشف الطفل أن هذه الرموز منطوقة ومكتوبة تسمح هي الأخرى بتكوين الكلمات وأنه يستطيع حتى تجميعها في جملة تأتيه بلبتسامه عريضة وتهنئة وتشجيع.

تأتي مرحلة فكّ الأسرار التي تنطوي عليها أسطر طويلة من حروف تجمعت في كلمات وكلمات تجمعت في جمل وجمل تجمعت في صفحات كتب ملانة أيضا بالصور الجميلة.

شهرًا بعد شهر، يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزيونه الصغير.
- هذه المرة، القصة بلا صوّر، قل لي عندما تُكملها، ماذا أحببت فيها؟
- سيّدي! سيّدي! هناك كلمات كثيرة لم أفهمها وجنّتك بقانمتها. سيّدي، سيّدي، سيّدي،
سيّدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟
يتتحنح الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها،
ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي للرد الذي سيذهل له الطفل:
- لا أعرف يا بني كم في لغتنا من كلمات.. لكنك ستتعلم الكثير منها إذ يبدو لي أنك
ستكون من فنان المكتبات.
كم كان خدس الرجل صائبًا، اللهم إلا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدس وتوسّم خير، وإنما
بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمنتها "ما" وهي تروي حلمها عن الملاك لتمرير
مشاريعها بالإيجاء بدل الصراخ بالأوامر التي لا تولد إلا شكلا أو آخر من المقالمة

والرفض.

[21] Commenté

**

أو كيف أن العالم ليس كتابا تتصفحه وإنما نصاً نكتبه

ذات مساء والأب يداعب طفلتيه قبل الاخلاذ للنوم يفلجاً بسؤال كنن طرحه هو نفسه قبل ثلاثة عقود.

- "يا"، كم هناك من الكلمات وهل سأتعلمها كللألها عندما أكبر؟

يحذق الطفل الذي أصبح أباً في لبنته بدهشة، تدافعت من ذاكرته كل الأسئلة الغربية التي كان يطرحها على مسيو فيدال ومنها هذا السؤال.
الإفلات بحيلة أو بأخرى... أم الثبات والمواجهة؟

- سؤال وجيه، يا ثقله، يستدعي أن تتكثف جهودنا للإجابة عنه. اكتبني كل ما تعرفين من الكلمات وساكتب كل ما أعرف من كلمات وسنرى هل نستطيع كتابة كللألل الكلمات.

ترييني ثقله قائمتها تتروصد عبارات الاعجب والتشجيع: بابا، ماما، لعب، جري، هرولة، كتلب، ضحك، دمية، عصا، رسم، أكل، نوم، خوف، طوى، شكولاتة، ماء، طفلة، شريرة، أخت، كذابة، قط، حديقة، شجرة.

إن هذه هي المعالم الكبرى للعالم الذي تتحرك داخله البننت وهي على أعتاب سنتها السادسة.

تستعجلني تقاحة .

- "يا" هيا اكتب قائمة كلماتك.

قطعاً لن أكتب أي منها وكل ما يتدفق من الوعي والملاوعي كلمات تنبأري بشاعة: خيانة، غدر، بوليس سري، كذب، نفاق، حب، بغض، انتقام، محاكم، محامون، سجن، مرض، فشل، موت، استبداد، ظلم، تعذيب، مخابرات، فساد، حماقة، غباء، هدر، ضياع، سلوى، سراب، وهم، خديعة، عبث، غريزة، وحشية.

إنها المعالم الكبرى للعالم الذي اتحرك داخله هذه الأيام ومزاجي فيها بلغ السوء كأحوال هذا الوطن الذي ابتليت به وهذا الشعب التي أصابني الانتماء إليه بالعرف منه ومني. نكتشفنا تقيحة منهمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض. تحتج بكية لا تدري إلى من ستتوجه بالتقريع.

- "يا"، ثقله شريرة تأخذ دوما أقلامي الملونة، أنت تحاببيها دوما لأنها الأكبر وتلعب معها أكثر مني.

وهذه البننت الكبرى التي لا تحرك سلكتنا، هي التي تتهمني دوما بأنني لأحبي تقيحة وألعب معها جل الوقت لأنها الأصغر.

- تقيحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصاً. هيا أرني براعتك في قراعتها وقد بدأت تحسنين كتابة كل الحروف.

تصرخ تفاحة:

- لا أريدها أن تقرأ كلماتي، لتقرأ كلماتك أنت فقط.
تتطور الخنقة بين الأختين إلى شدّ الشعر والبكاء الصادق والكذب. يا إلهي، لم أغفل عن الشقيقتين إلا بضع دقائق لتتخين سريع في الحديقة. يجب العودة إلى بدء المفاوضات بخصوص الذهاب للفراش. اللهم إلا...
تتوجه تفاحة لي لأنني الوحيد الذي يلبق بمنقشتها.
- "يا" أنت لم تكتب قائمتك.

لم يبق علي إلا كتابة أقل الكلمات بشاعة، لكن من أين لي وأنا في هذه الحالة النفسية أن أكذب على نفسي وعلى البنيتين.

تصرخ تفاحة وهي تنظر للورقة من فوق كتفي:

- قرأت ما تكتب...كلماتك قبيحة لا أحبها، لنحتفظ فقط بالكلمات الجميلة وكلها في قائمتي.

الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة...فسخ التي لا تروقنا؟ إعدامها؟ لعلّ وعسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة!
بربّك أية كلمات كنت تلغي من القلموس لو قيل لك إن ذلك يعني ألينا إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟

اتركني أطبق منهجية تفيحة، أفشّ غيظي وأفسخ من القاموس بقية الكلمات التي أبغض:
سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، قفر، تلوث، زعيم أوح، مجلس الداخلية العرب، حرب، إمبريالية، عنصرية، عبودية، تعصب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جبن، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب.
أليست أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضا من برامج سياسية كاذبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها بل إنها تزيد الطين بلة.

تقول ماذا كنا سنبقي من الكلمات لتكون اللينيات الوحيدة لعالمنا؟

القائمة الأولى: طبيعة، جمال، صحة، موسيقى، حبّ، فن، كسل، تعاضد...

تعال اسكن عالما لا توجد فيه إلا هذه الكلمات وأحواتها اختفت كل الكلمات البشعة لغياب كل الذي تسمي.

نعم، لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلفة في تنظيفه، هو الذي يشتكي هذه الأيام من كل الأوقات التي خلصته منها بجزء قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الأدميين وخوفه من أن يقوّضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الآخر وأحيانا مع كلماته هو.

ربما أيضا لأن الكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلا وانهار الصرح بكلمه.

مواصلة اللعبة الممتعة.

- والآن، ماذا نفعَل يا بنات بالكلمات التي رصدناها؟

تصرخ تقيحة:

- الكلمات تحب أن تجلس مع بعضها البعض لأنها تخاف أن تبقى وحدها ولا تجد مع من تتكلم وتلعب وتتخاصم.

حقاً؛ ما أذّ التفلسف طفلاً! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!

"عندما تعود الكلمات إلى بدايتها
يعود الإنسان إلى أصوله
ويبدأ كل شيء من جديد"
(روبرتو جيواروز)

- نعم، الكلمات كائنات أليفة بالطبع لا تعيش إلا بالجوار، بمنافعه وأيضاً بمشاكله. تفلحة، ما رأيك في لعبة اكتشاف كل الكلمات التي تقبل بمجاورة بعضها البعض... كلمة طقس مثلاً؟

- الطقس جميل، الطقس شبع، الطقس بارد، الطقس حارّ، الطقس جافّ... "با"، أنا فهمت؛ الكلمة الثانية تزيد من توضيح الكلمة الأولى!!

- بالضبط، إنه الوصف...

تتدخل تقيحة لاستعادة المبادرة:

- نعم، تفلحة بليدة وشريرة وكسولة.

تفتعل نقاحة الترفع عن نقاش حمقاء لا تتجاوز سنتها الخامسة. ثم تنفجر:

- تقيحة ركيكة غبية، شريرة. "با"، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.

من الأفضل تجاهل الطلب وأنا في نفس الحالة من سوء المزاج وإن خففت عني اللعب مع البيتين الكثير من الكرب.

لتهدئة القطنين الشرستين لا بدّ من تركيز اهتمامهما على فصل جديد من اللعبة.

- تفلحة، تقيحة، ماذا نفعَل بالكلمات وقد قبلت باللعب مع بعضها البعض؟

تصرخ تقيحة: نروي قصة لكن بالكلمات الجميلة فقط.

موافق لكن مانا ينقصنا لكي نحرك الكلمات فتصبح قصة؟

تصرخ تفلحة: الأفعال، الأفعال....

ثم تضيق حتى لا تفتك أختها... الكلمة.

- "با" أنا من سأكتب كللللل الأفعال.

أترك الطفلة تخربش أفعالها. تصرخ في أن اكتب أفعالي وأن أكتب عن النقل عنها.

الأفعال! نعم، لماذا لا اكتب قائمتي أنا الأخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟ ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي: جرى، ركض، صارع، ناضل، صرخ، غضب؟

أي فعل بنزرة تفرعت عنه كل هذه الأفعال؟ .. هل هو ولد؟... لكن ماذا فعلت الذات
قبل أن تولد؟... كم غريب أن تبدأ قائمة أفعالنا في هذا العالم بفعل غامض وأن تنتهي
بفعل لا يقف غموضاً : مات !

يتعالى الصراخ القادم من المطبخ أن هناك أفعالا لا بدّ من فعلها ومن الأحسن الشروع
فيها دون تأخير مثل ارتداء البيجما وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة
عامّة الكفت عن الهرج مع رجل يمّوه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية والوقار.
أوف، تخلصت من المصيبتين المتحركتين. هما الآن في عهدة أم أشك كثيرا في إطاعة
أوامرها بالنوم سريعا.

المهمّ استغلال كل هذا الصمت وكل هذا الوقت المتاح قبل النوم لترك الأفكار تتساب في
فوضاها المعتادة على أفكار جديدة تباغتني بخصوص الإشكالية المعلقة من زمن مسيو
فيدال حول كم في العالم من كلمات وهل سيمكنني التحكم فيه لو استطعت التحكم فيها.
تصوّر لو كانت أمامك قائمة فيها كللالل الكلمات التي كان الطفل يحلم بملئها. أن
يكون بين يديك وصفة العالم ومما هو مصنوع في أدق التفاصيل. أن تعطيك القائمة أولى
الأدوات لفهم هذا العالم أي للسيطرة على هذا العالم.

المشكلة أن مثل هذه العملية مستحيلة بحكم طول القائمة وخاصة نتيجة تضخمها المتزايد
سرعة في هذا العصر مما يجعل اللحاق بها أمرا مستحيلا. محكوم عليك إذن أن تقنع من
البحر بقطرة ومن الغابة بغصن وأن يقبل بأن نصيبك من العالم نصيبك من الكلمات.
كما ثمة قصر نظر عند بعض الادميين يستوجب نظارات ثمة منهم من يعبر العالم بقصر
نظر لغوي.

أية نظارات لتدارك إعاقة بمثل هذه الخطورة غير مزيد من الكلمات، لكن هل ثمة أخطر
من السراب الذي تصنعه الكلمات؟

تتعلق المسألة الثانية بطبيعة العالم الذي تبلوره هذه الكلمات أيا كان نصيبنا منها.

*

إذن العالم الذي نرتحل فيه -أو الذي يرتحل فينا- هو في مقاربة أولى "مصنوع" من
اللبينات التي توفرها حواسنا الخمس أي المعطيات التي يمدنا بها البصر والسمع واللمس
والشمّ والتذوّق لكنه بداهة "مصنوع" بكيفية لا تقل أهمية من لبينات أخرى اسمها
الكلمات.

عمّ نتحدّث؟ ما الكلمات؟

لنقل في مقاربة سريعة إنها الاشارات المنطوقة والمكتوبة المتفق عليها بين البشر الذين
يتقاسمون نفس اللغة للتعرف والتعريف بما يحتويه العالم من أشياء وكنائات وأحداث
وحالات.

المسألة الأولى ما علاقة هذه الاشارات بما تشير إليه؟

ثمة موقف من يمكن تسميتهم بالماديين - الموضوعيين - العلميين.

هم مؤمنون بأن العالم -موجود بصفة مستقلة عن الحواس الخمس وعن اللغة والدليل على ذلك أنه موجود للكم والصم ناهيك عن كونه موجودا قبل ظهور الأعميين المتكلمين كل اللغات وهو طبعاً لن ينقرض بانقراضهم.

هم على قناعة أن الكلمات مثل أوراق النقد أي مجرد علامات رمزية اتفقنا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخر الذهب الذي يغطي قيمتها والرائد في كهوف البنوك المركزية.

ألا يعني هذا أن هناك علم مبهم غامض مستقل عن ناتنا، وجدت الحواس الخمس واللغة أم لم توجد.

ما لا ينتبهون له أن هذا المبهم الغامض (الذي يسمونه الكون، الطبيعة، الواقع، المادة) كلمة من كلمات اللغة وأنهم لا يعرفونه إلا بمزيد من الكلمات. ها هم يدورون في حلقة مفرغة وعوا أولم يعوا بأننا حيسو لغتنا مثلما نحن حيسو اجساننا.

هذا ما يقوي من موقف من يسمون بالمثاليين والثنين يعتبرون العين لا تسمى إلا ما ترى ولا ترى إلا ما تسمى... أي أن وجود الشيء بالنسبة إلينا مرتبط بتسميته وإلا فهو والعدم سيان.

انتبهت للفكرة البدئية والعميقة أكثر من أسطورة مؤسسة. هكذا لم يخلق 'يفيه' العلم إلا عندما سُمى وكذلك فعل "رع" قبله بقرون.

تطرح هذه الطريقة في تصور علاقة الكلمات بالعالم جملة من الإشكاليات الثانوية لكنها بالغة الأهمية.

ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شينا واحدا على حالة يتيمة: الجليد. يضحك مراقبي ابن هذه الفيافي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والتلج. أعابته بدوري: يوم تزور صحاري الصفر ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسفاجنك بالعدد الهائل للأصناف التي لم ترها.

بشبكة العين نحن نبصر نفس الشمس، لا يختلف اثنان من ثقافات متباينة وفي كل العصور في كونها مستديرة لشكل براقعة بالنور في عزّ الظهيرة تسبح في عنان لسماء نهارا وتخفي منها ليلا.

لكننا نرى عبر "شبكة" اللغة أشياء جد متباينة.

كانت شمس أمي اسمه "أخنتون" إله يُتوجه إليه بالعبادة ونفس الشمس اليوم جرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطينة الانفجار بالنسبة إلى أمي آخر اسمه "ايشتاين".
الذهن إذن ليس مرآة تعكس عليه بفضل الحواس الخمس بعض خصائص مبهم أصلي يتجلى بألف صفة وصفة مختلفة في أذهان الكائنات الحية الأخرى.

أو قل -إذا حافظنا على الصورة -إنه مرآة نشطة لا تتوقف عن معالجة الصور التي تنعكس عليها أساسا بإضفاء المعنى وتحميلها وظيفة ما وهذه وظيفة الحاسة السادسة التي نسميها اللغة.

تحت قنمى وسط غابة استوائية مترامية الأطراف بحيرة جبلية أعبث برميها بحصاة حتى أرى تكوّن الدوائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلا.
بالنسبة لي هذه البحيرة الجبلية الجميلة ليست إلا...بحيرة جبلية جميلة ككل البحيرات الجبلية التي تأملتها في كثير من أماكن الفضاء الحسى. أما رجل "الماء" كلن يرى في هذا المكان بلب "الشيبالا" أو العالم التحتي الذي تسكنه الألهة.
من هذا العلوّ كلن أجداده لا يرمون صفحة الماء بالحجارة كما أتلهى ولكن بالأطفال والغازى قريانا للآلهة.

هو كان يرى لعالم، أو على وجه التحديد يفهمه ويفسره في أهم علاقاته معه بغير الطريقة التي أتفاعل فيها معه لأن شبكته من الكلمات التي تسمى وتصف وتقيم الأشياء غير التي أمك.

أهم خصائص اللغة قدرتها على صنع صور لا علاقة لها مطلقا بما ينعكس على مرابا الحواس من معطيات وكأنها تخلق معطياتها الخاصة تضيفها إلى ما ترصد او تتلقى من المحيط.

ألا تضيف هذه اللغة للكائنات الحسية التي ترصدها بالاسم كانتلت غير حسية مثل الكرامة والعدالة والتقدم والمدنية الفاضلة والنسبية العامة والماضي والحاضر والمستقبل والزمان والخلود وكلها غير موجودة في المطلق أو في تجربة الحيوان والشجر؟
الخلاصة إنن ان اللغة مثل شبكة الصوبد، لكنها شبكة تعيد تشكيل السمكة التي علقت في حبالها... بل وتخلق أيضا الأسماك التي تصطاد.

بشبكة الكلمات هذه التي سنتباين في ذهن الأفراد والجماعات تمرّ اللغة من الرصد والخلق إلى البحث عن الوظيفة والمعنى.

هكذا يمرّ الذهن من الصور التي تصنعها الحواس الخمس إلى التصورات التي تصنعها الحاسة السادسة.

التصورات؟

هي طريقة فهمنا للصور التي نقلتها لنا الحواس الخمس عن كل شيء أو كل كائن نتعامل معه.

هي جملة من الأفكار تبلورها الكلمات المكتوبة والمنطوقة بخصوص كل المواضيع والأشكاليات التي نعيشها.

هي تنظيم معين لمعلوماتنا عنه نستقي أغلبها إما من تجربتنا المباشرة أو من الثقافة أي من نسيج الكلمات التي نتحرك داخلها.

هي منطلق الأفكار النظرية أحيانا البالغة التجريد في محاولة فهم واستعمال هذا الذي نتعامل معه بكل ما لدينا من أدوات التواصل مع العالم.

هي نسيج مؤقت لأفكار تبلورها الكلمات المكتوبة والمنطوقة، فالله والزمان والموت والأخرة والعفراريت والعدالة والقُدون والتَقَدّم والحضارة، لبّيات فكرية لها نفس الأهمية في تشكيل العالم ما للّبنيات الحسية مثل الطرق والعمارات والجسور.

الفرق الأساسي بينها وبين الصور كما ترسمها حاسة البصر أن الصور للشمس ثابتة لا تتغير من جبل لجبل ومن ثقافة لثقافة ومن شخص لشخص بينما تتغير التصورات طول لالوقت.

مما يعني أنك لو عشت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم أي داخل تصوراتهم، لكنك تسمع -خاصة ليلاحفيف لأجنة الجنّ والعفراريت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بالقرابين والصلوات.

هذه التصورات التي تتلج داخل الذهن والتي نطق بها أو نكتبها هي التي نسميها الأفكار. هي كل ما نعتقد، كل ما نؤمن به، كل ما نكفر به، كل ما نبتكر من فرضيات حول طبيعة العلم الذي نرتحل فيه وأسباب وجودنا فيه أو وجوده فينا.

هي الأدوات والمواد الأساسية الأخرى التي لا وجود للعالم الذي نعرف بدونها.

**

سفرة في الفضاء الذي لبناته الحروف والكلمات

تأتيني ليلَةٌ فكرةٌ لقصة ما قبل نوم البنّين لم تخطر على بل قصاص. أتوجه لتفاحة تفرك عينيها وتفيحه تجاهد للبقاء مستيقظة لتسمع بقية قصة الأميرة والساحر.

- أنا الذي سأقود القصة. جاءت الساحر الخبيث فكرةٌ مسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف، الأميرة مهددة بالموت، والساحر أشهرٌ في وجهها كلمة نار. تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه لساحر الخبيث: مطر، مطر! - أشهر الساحر كلمة مقصن.

- نركب كلمة زورق لنهرب جميعا.

تصرخ تفيحه: فتأخذنا كلمة نهر.

تأتي الأوامر من الصلون بوقف الضجيج. لا أحد يحملها على محلل الجد. لا حتى صاحبيتها. تصرخ البتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكن بالأيدي رقصا يفتعل العراك وعراكا يفقد الرقص. تحنُّ لهجة أوامر نافذة الصبر فأتصح البنّين بالحذر. تفتعلان الطاعة والصراخ المتزايد عصبيةً من وراء الباب يقترب. تتمددان على لسرير لمواصلة القصة وشوشةً وفرصًا وتجاذبا بالأيدي.

أغض العينين أغفو وأستيقظ على صراخ البنّين والزورق السحري ينساب على نهر الذاكرة بأخذي إلى فضاء جباله نصوص، غاباته نصوص، أنهاره نصوص، مستنقعاته نصوص، وجلّ مادة ما يقوله الأدميون عن الأدميين ومادا يفعلون في هذا العالم ومادا يفعلون به.

يتصاعد التنفس البطيء من البنّين. أغوص في الأريكة واضعا رجليّ على فراش البنّين، مستمعا بتنقّسهما ورافعا عن ذهني كل القيود، فأهمّ الأفكار لا تأتيني إلا ماشيا أو على تخوم النوم واليقظة.

أخيرا المكتبة العظمى التي حلمت دوما أن اقضي فيها ما يكفي من الوقت لاستكشاف أروع وأهم محتوياتها.

للسرلة ثمة فيها شيء منقر يصدمك من أول وهلة.

هذا الفضاء هو الآخر ساحة معركة كالتي توجد في البعد الحسي لعالم لا يتخيّله خيال خالي من الصراع.

"هنا" يتناطح "صحيح البخاري" مع "الإعلان الشيوعي" وكأنهما ديكان غيوران على حريم من الدجاج. ما إن تكتشف كتب الفلسفة المثالية بداية تحرك كتب الفلسفة المادية، حتى تقوّر الدفاع عن مواقعها ووقف زحف العدو ثم الالتفاف حول جناحه الأيمن والإجهاز عليه قبل التفرغ لتصفية الجيوب الباقية. تأخذ كتب المادية بخناق كتب المثالية

وترتمي كتب المثالية على كتب الجدلية وتُنشِب كتب الجدلية صفحاتها المدرّعة بكتب الأساطير التي تبعث بجمها المسمومة في كل اتجاه، تقصد بالأسلحس مقولات الداروينية البيولوجية والداروينية الاجتماعية والداروينية الميتافيزيقية، فتصيب خطأ الهيكلية الأدبية، والحال أنه لا ذنب للهيكلية الأدبية في صراع العقائد حيث هي جنس مسلم من النقد الأدبي. تقتعل كتب الميكانيكية النيوتونية الحوار الهادئ البناء مع كتب الميكانيكية النسبية، ثم تقعد أعصابها أمام صلّف العدوّ وواقته لترتطم الصفحت بالصفحات. تصرخ الكتب الصغيرة وهي تترنح تحت لكامات المجلدات. تُهبّ إلى نجدتها المجلدات التي هي على نفس الموقف... إلى ما لا نهاية، ولا رأي يبررُ إلا ووجد من يخالفه ويسفّهه ويهاجمه.

كانني أسمع الصراخ المتصاعد من الوقار المتكلف: يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو النّقم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلف، يا ملحد، يا عدوّ الله... الله؟ من هذا أيضا؟ أنت لا تؤمن بالله! ... أؤمن بما هو أكبر... دياناتك شهوات ومخاوف لطفل غلّفها بدائيون بأساطير سانجة واستحوذ عليها كهنة خبثاء وملوك فُساء لإحكام القبضه على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمراء، والشرف الرفيع لا يُسلم إلا إذا أريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... من الغبي الذي قال اعرف نفسك؟ يا للهول لو عرفنا حقيقتنا، أيّ جحيم كنا نجرّب لو عرفنا ما يوجد حقا في أعماق الذوات الأخرى؟ ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قُول... أعيّدوا القراءة، أسأتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيّدا وفهمنا كيف نُحسن استعمالك لفضاء شؤوننا... أه يا أوبش، حقا لا نبيّ في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن -خلافا للأغرب- نعلم عنك كل شيء.

جلّ الساهرين على تغنية هذا الجزء من المكتبة أو القائمين على حراسة ما فيه من منتوجات منوترون بصرخون في وجوه بعض البعض يتهمون الغير بالتحليل على المستهلكين المساكين بل وبصرخون في وجهك إنك إن لم تتبضع عندهم فالويل لك والثبور. لم أعد أبه لصراخهم منذ ز من طويل أشيح البصر عن الفاسد والقبیح والمضّر منها وكلها أفكار تقادمت صلاحيتها منذ قرون تسمم الفكر كما تفعل الخضر الفاسدة عندما تصيب الجسم بالإسهال والحمى.

يجب تجاوز الصدمة وتجاهل الصراخ لاستكشاف منظم لمحتويات المكتبة العظمى التي تعكس تفاعل الأنميين مع عالمهم وفعلهم فيه.

"هنا" المستودع الذي تتراكم فيه وتُخرّن وتُعالج وتُنقل الأفكار والقيم والتقنيات من جيل إلى جيل لرفع طاقة التقلّم السريع في مواجهة عالم لا يثبت لا مزاجه ولا مناخه على حال.

"هنا" مخططاتهم للسيطرة على عالم لا إمكانية للسيطرة عليه.

"هنا" زبدة علومهم الصحيحة والمغلوبة سحرا وتنجيما وشعوذة... معادلات نيوتن وماكسول وديراك وبوهر وأينشتاين وهيجز وهوكنز، لا تدري هل هي فعلا ملفات الله المسروقة أم قصة الإبداع الفني عند البشر.

"هنا" كل معارفهم عن الكائنات الحية التي تشاركهم تجربة الوجود واكتشافهم بعد أزمان من الغرور والغباء أنها أقرب إليهم مما يودون الاعتراف به.

"هنا" كل ما كتسوا عن معطيات عن قبائلهم شعوبهم والأمم التي يتصارعون داخلها ومن أجلها.

"هنا" تواريتهم، فل أساطيرهم التي يمؤهون بها على أنفسهم وعلى الآخرين... كل رواية المنتصرين لصراعاتهم بالكذب المفضوح والتضخيم والتقزيم والإسقاط والتموه، ناهيك عن الدس بأشباه لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفيكون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمة بها أو خدمة لمصالح ممولتهم، وآخرون يفككون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصالح ممولتين آخرين.

"هنا" قوانينهم التي تعكس لهم صورة محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، معتصبين مرتشين.

"هنا" كل صيحات الأهم نثرا وشعرا وغناء من قسوة العالم عليهم ومن قسوتهم على العالم.

"هنا" جبال من المعاني والقيم الشاهقة لا يقدر على تسلقها إلا كبار رواد المعاني وأيضاً مستتقات ننتة يتكدس فيها الخرا والقبح والقبي لذهن يصلب نوريا بشتى أنواع الأمراض.

" هنا " كل القيل والقال بخصوص الهولجس الثلاثة التي تتحدى الذهن البشري منذ انطلاق الرحلة: ما هذا العالم، ماذا نفعل فيه وماذا نفعل به؟ .. والحيرة دوما هي الحيرة وإن بأشكال مختلفة...

"هنا" كل الأسئلة اللعينة التي انطلقت منها عمليات بناء تصوراتهم لذواتهم وعالمهم : هل نحن حيوانات أفرزتها قوة عمياء اسمها "الطبيعة"؟ أم كائنات نورانية خلقها إله لم تخلقه قصصنا؟ هل رمت بنا الصدفة العمياء في مجال هذا العالم؟ هل نحن تائهون في محيط اسمه "الكون" ننتظر بعثة إنقاذ لم نسمع بغيرنا ولا نعرف عنوان الجزيرة التي لجأنا إليها؟ هل نحن مستكشفون بعثتنا العتمة في مهمة بالغة الخطورة؟ لماذا نتقنم في ربوع العالم ونحن كمن يمشي في نفق مظلم بيده شمعة، نوسع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا نعاني من صعوبة الوصول وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول صامتا لا ينطق عبر الدهور؟ ولماذا نصر نحن على أن ننتقه ولا نظفر منه إلا بصدى صوتنا؟

على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)

لا يوجد في الدرب دليل هاد

كلُّ متمسك بفرع واه

والدهر على نظامه المعتاد"

فجأة يتعالى من حولي صراخ أكثر حدة. إنه صراخ باعة المنتوج الجديد الذي لا يكف عن التدفّق والكُلُّ يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغناء الفكر والروح: من هنا للصورة للصحيحة للعالم... تخفيض هامّ لإدين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصافية غير المغشوشة... طازج، علم نفس طازج، الوحيد الطازج الخارج لتوّه من الفرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين من لا يشتري بمثل ضماناتنا... من هنا الردود الجديّة على الأسئلة اللعينة.. لا عشّ عندنا في الأمر مثلما يفعل الآخرون!

يقرب أحد الباعة هامسا في أنفي: لا تتبع أي من هؤلاء الدجالين، تعال، من هنا الصراط المستقيم. لم لا أتبعه؟ قد أعتزّ أخيرا على ما بحثت عنه منذ إفقتي في الأزقة الخلفية؟ مؤكّد أنها تعجّ بمزوّري النصوص وبمهرّبيها لكنني قد أجد فيها أشدّ من تشمّوق لهم نفسي. قد أسفط بالصدفة على طورانطوس ولوحاته التي دمّرت أيادٍ مجبوّلة جُلبها لأن الرجل كان يتبجح بأنّ أروع ما رسم كان يهْدَى وتوفيق من الشيطان.

أه لو أمكنتني ملاقة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدرشة مع أكبرهم – تلك الذي كتب الرسالة الجامعة-اطلب منه استعصال عنوانها وإن رفض أسبّبه وأخبره أنني سأختم به نصّي إذن أو لم يألن.

هل سيسعفني الحظّ بالارتطام بمؤلف ألف ليلة وليلة؟ لمر مشكوك فيه والرجل -اللهم إلا إذا كان امرأة-نننير(ت) أمر(ها) للإفلات من كلّ النين حاولوا إمطاة اللثام عن هويته(ها). كتاب يركضون طيلة حياتهم لتعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجذام !!!

أه هذا أنت! أيّ وقاحة هذه؟ كلّ الذين يكتبون يفعلون ذلك لتُخلّد أسماؤهم وليتناقل الناس كلامهم ويعملوا به وأنت! لا، لن أزيل القناع عن وجهك ولن أطلب منك ترجمة. هكذا يكون الكاتب وهكذا يكون أحسن ما يفعل.

ربما أكبر مقال في السوق -بساحتها الكبرى وأزقتها الملوتية-ذلك الذي كتب أعظم نص، ولما أعاد قراءته ضحك ثم بكى ثم مرّق الورق ورمى بالقلم بعيدا عنه وتوقّف عن التنفس إلى أن جاء الموت. نصوص لم تر النور أو لم تُكتب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها شعروا أن هناك حقائق يجب أن تبقى مخفية!

قد ألقى صاحب مخطوطة "فوينيتش". كم قضى من ليالي لكتابة نص يسخر من نفسه ومن كلّ الذين سيسميتون ستة قرون فك رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلّم بها بشر.

هل من الممكن أن كل هذا الفضاء الفانض بكلّ هذه الثثرة مجرد قمة جبل الجليد، أما المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الأميون الإفصاح عنها ويمنعونها من التبلور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ المظلم وراء كل نور؟ أم لرعبهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟

من هذا الرجل الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وذلك الآخر الذي نزل لتوه من ظهر النور ليسلمنا ثمّن الكنوز قبل الاختفاء في الضباب؟ كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشوفة عن أنيابها أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحترما لذكائهم.

نعم إنها نفس البضاعة البائرة على مرّ العصور... كلهم يريدون من الأدمي أن يصبح خيرا والشّر جزء لا يتجزأ من الذات... يريدونه في صراع متواصل مع هذا الجزء من ذاته كأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي وجعا... يريدونه سعيدا كما لو كان هناك معنى للسعادة دون وجود الشقاء... يريدونه ثابتا على حالة اسمها الاستوري أو النيرفانا أو الحكمة والحال أنه لا شيء في هذا العالم يثبت على حال... هكذا ارتطمت تعاليمهم بلواقع العنيد لتنتهي طقوسا بتعيش منها المخادع وأوهاما يعيش بها المخدوع . فجأة أسمع البنتن تصرخان بالاحتجاج:

- "بأ، لا تتلكا، لنز لحم. يجب أن نبيع نحن أيضا بضاعتنا.

ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه! إنها حقًا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم لعربتك المحملة ببضائعك التي لم يسمع بها شارب أو سمسارٌ، يحدوك -مع هذا أمل كل المبتدئين أن تتحسن الأحوال يوما فتفتح لك مكانا صغيرا ثم أول مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضا من كبار مقاولي الفضاء.

نعم، لأزاحم أنا أيضا لعرض لأحسحس الأجوبة عن أسئلة لا يهم أن تكون فاسدة للصياغة أصلا. ها أنا أنفع عربتي الصغيرة، أصبح مغتيا أو أغني صانحا: "الرحلة"، "الرحلة"، كل من يشتري نسخة نعطيه مجانا "المدخل إلى الطب" شرط ألا يستعمله لفت السمك.

تتخرط البنتن بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عوض أن تصرخا: من لم يقرأ رحلة "بأ" مات غيبا، ها هي تفلحة تعني: تعالوا، اسمعوا قصة بينوكيو ترويبها لكم أحسن راوية، وأختها تصرخ بصوت أعلى: بل تعالوا لسماع " قصة سنديلا والأمير الجميل ترويبها لكم تقيحه المشهورة.

طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الأدميين الملعين يحرك عضلة إلا لحسابه الخاص. أما ما يدعوونه من أثره وعمل لوجه "بأ" أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايسة تجارية يخرجون منها إذا لم تغطّ المكاسب ثمّن تحريك العضلة أنفة الذكر.

كل هذا الضجيج ولا مشتر أعشّه. إن بازت البضاعة فما عطي إلا تركها للفنران. فجأة أشعر بقلاحة تهزني من كفتي.

- "با" ارتفع شخيرك. نمت ولم تسمع قصتي. لن أروي لك ولهذه الغيبة نهايتها.

**

أو كيف أن العالم مشروع متواصل الخلق لا معطى ثابت ونهائي

في ملف آخر يصرخ "ب: ولدك هذا سيذهب بعقلي، يا امرأة، أهكذا تربين أطفالتي؟! متوجّها إلي بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلت لك: اخرج من وكرك.

الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكئس "م: في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكئس "ب: ما كان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطعم للقار.

كانت أولى محطات الإقلاع لتي وجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لفضاء سحري أصبح له الملجأ والملاذ.

يصرخ الأخ الصغير في أمه: "م: إنه يقرأ في المرحاض وأنا سأقبول في سروالي. قولي له أن يخرج حالا.

تدق "م: الباب ببصرار، فيخرج الطفل مكرها من مكان كان يظنه آمنا بعد طرده من "الوكر".

حتى أعصاب "م: قدرة على التوتّر.

- كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عهدي. هيا، إلى المدرسة، وتأدب مع المعلم، قل له: سيدي، أضعه... إلخ.

يستشيط المعلم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

- تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مصادر. أنذرتك أكثر من مرة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مكرها، يواصل ووجهه إلى الحائط تخيل أحداث القصة التي كان منغمسا فيها.

تندافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها "الهند" لا يعرف عنها شيئا. ولأنه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدث عنها القصة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعا تصل إلى السحاب ومآذنها الشمس والقمر، تغلق ليلا أبوابها في وجه جفاف الجبّ والغاريب، لا يفتحها إلا طفل وحده من يعرف كلمة السر.

يلوذ الطفل أخيرا بفراشه متنفسا الصعداء تخلص من كل المنغصين عليه قراءته.

يرتفع صوت "م:، وفيه الآن بعض نفاذ للصبر:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتلب بالقوة. إلى النوم. حالا.

عبيّ، لن تمنعه حتى "م: من المواصلة.

القصة التي تشغل كل وعي الطفل هذه الليلة عن أمير اسمه "راما" رحل مع زوجته "سينا" وأخيه "لاشكنا" إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة الشريرة زوجها على نفي ربيها هذا ليلخو العرش لابنها هي. وفي "لانكا" تبيكي "سينا" قومها ووطنها، لا تخفي زُعبها من غلبة يسكنها عتاة الشياطين.

"سينا!" "سينا!" "خطفوا" "سينا"، خطفها "رافادا" اللعين!

إنه أول امتحان للطفل وقد تقمص النور، أو قل تقمصه الدور. نعم، هو الذي سيحزّر الفضيلة ويعيد الملك إلى صاحبه والأمور إلى نصابها والعالم إلى توازنه المفقود.

- "ما"، أرجوك. لا بدّ أن أنهي الفصل الأول على الأقل، أرجوك.

- طيب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيتك تقبل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأنه واثق أنّ قبالاته عبرت حاجز الورق وتسللت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد.

أه يا سينا، يا "جانكلي"، يا ضفائر سودا على الظهر تدلّت، يا عيون المها، يا بسمّة الحياء والخجل، يا رقة الفجر، يا وداعة،

يا طهرا، يا ملاكا على الأرض مشى. يا أول حب.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أعلق الكتاب. سأطفئ النور حالا.

أنام وأترك سينا في أسرها! إنّ "ما" لا تعي ما تقول. ألا تعلم أنّ الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسينا ملقاة على خشبها مكتمة الفم، معصوبة العينين والحبل يقبّد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وفهقه وتوهم ما شئت. ساتيك بالخبر اليقين.

- يا بني، الكتاب لن يهرب وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أعلق الكتاب الآن وسينا في خطر الموت، ربما تنهتدأ أشياء أخرى أقطع بكثير؟ لا تقدر "ما" كم هي خرجة هذه اللحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيّدا، والقراءة بالليل تتعب عينيك، ولا بدّ لك من النوم.

- إذا كان النوم عزيزا عليك فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟

- لا تكن سليط اللسان حتى مع لك. أتريد أن أمضي الليل بأكمله أترجّاك؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن "ما" تفهم أحسن منه. هل كانت لقبّل برأي حكيم يسرّ في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدرجي من "واقعها":

لا تغلّقي، هو لا يلعب، لا يضيّع وقتا، لا ينهك عقله، إنما يتمرّن ويتعلّم أهمّ ما يجب تعلّمه. اتركيه، على كل حال هو لن يسمع كلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء ماکرا ككل "الأبرياء"، وهم من نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من مكر وخبث.

كانت تظنه نامنا وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبئه لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة في فضاء داخل ذهنه والطفل المخرج والمنتج والممثل المتصرف في السيناريو على هواه. ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماء يطفئ كل لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أندي محولاً إرهابي، أصرخ فيه فتصطك فرانسه. ينطلق هاربا نحو النجوم فسبقه إليها، أضيق عليه الخناق في كل مجرة. تكثرت السماء عن أنبلها وقد توسّطتها شمس بلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفقيش بحجم الفيلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوب نحوها سهام القاتلة دون الالتفات حتى. برن في الفضاء البعيد صدى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصورة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنها فرقة خيالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قل نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم. أن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملفت، فليس هناك رافانا واحد أظهر منه العالم الموبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصويّه نحو قلبه ثم أرميه به بدقة وقوة لا تترك ان إمكانية النجاة لجن أو أنس.

يصرخ للعين: أه يا راما، قتلتنني لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يدك. يسقط للشيطان مضرجاً بدمه الأخضر. أضغ رجلي على صدره مبتسماً مديراً رأسي يمينا وشمالاً أبحث عن المصورين ونظرات إعجاب البنات. أخرج رمحي من صدر الشيطان الناقق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة للنصر كما يفعل طرزان في قصص لمسيو فيدال. أووووووه... أنا راما... أنا سيد الأسياد!!!

بالمناسبة، ماذا يفعل الكبار بعد إطلاق سراح الحبيبة؟

يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنه لم يقرأ إلا الجزء الجميل من الملحمة، وأنهم أخفوا عنه بغيثها المظلمة، لأن قصص الأدميين مصنوعة من أنصاف الحقائق، والباقي أحدث من الأحسن ألا تضع أتك فيها وإلا صدمتك رانحتها اللنتة. لم يكن الطفل واعيا تلك الليلة المشهودة أنه دخل لأول مرة فضاء خيال أمة بأكملها ولد هو نفسه من فضاء خيال شاعر عبقري اسمه فالميكي، أنه سيفضي جل رحلته يتجول في فضاءات خيال كم من شعوب وكم من أفراد فهموا أن هذا عالم واقعه خيال وخياله واقع.

*

يكشف الطفل يوما بؤابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء السحري.

يتوجه المعلم إلى أطفال الفصل وكلهم نكور في العاشرة من العمر:

- يوم الأحد المقبل سذهب جميعا لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة سينما اسمها " الشرقية".

ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عما يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبة مهزج ضخم اسمه "العلم" لا يتفكك يُظهر عضلاته ليزداد به الألمي تعلّقاً وإعجاباً؟! لا يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطا شاهقا تتجّه إليه الأنظار توجّه المصلّين للمحراب.

يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيّاً وعزّق القاعة في الظلام. يتعلّى صراخ للصبيّة، لا ينفع فيه صراخ المعلمين طلبا بالهدوء والصمت.

أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعات السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم تُفرض الصمت فيها هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في الملاعب والمقاهي وبيوت الأصدقاء.

يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحركه، يواجه الطفل المشدوه بحائط شاهق مُغطّي من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصّة كالتي يقرأ في الكتب.

يالدهشته وهو يرى فجأة منظر لحقول وجبال تخرج من الأشيء ثم لادميين يثبون هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه الغاريت، وهل للخيل أيضا أشبلحها؟ يتعالى صياح التعجّب. هل ثمة أذن من الصياح جماعة؟ يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنّه لا يفوّت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيوية المكوّنة فيه ولأنّها الحوى.

ثم تتوقّف الصرخة فجاءه قلّق مبهّم، هل سيثب الفرسان من الحائط إلى وسط القاعة ليجد نفسه تحت سنايك الخيل؟ ترفع الفكرة أليا ذراعين يحمي بهما الرأس من الدهس. يعاوده الدهول وهو يرى الفرسان يمزّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا ينترون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشتائم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونهم من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجّل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم يئنّهون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رملحا وسواطير. ينطلق من فوهة المستسّ ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. يكاد الطفل يشعر بالأم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أي أهمية للألم بالوكالة؟ هو شعوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط ينبّه الطريدة لحيل الصيد والصيد لحيل الطريدة. كأنّ غرائز قديمة قديم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كأنّ رائحة دم أتية من

أصاق كل ذلك عقت في القاعة تنكّر الأدميين بحلوة القتل. ها هم يقتلون مع الفتلة
ويذودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهتدين بالقتل.
لا شك أنّ "مما" لاحظت ذلك اليوم غرابية جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشيئة
جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كل أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن
تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض و هلع يفرون من كز طفل
مغوار يستخدم في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهتد؟
تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابية عن التي يرهق بها نفسه ومن حوله.
أين البشر والخيل الذين رأهم على جدار القاعة المظلمة؟ من الغني، هو أم هذا الذي يقول
إنّ الكائنات التي رآها بأعيني مجرّد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن
توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بد من العودة إلى القاعة
المظلمة للبحث في هذه القضية.
إيمان جديد يضاف لإيمان الكتب.
أيّ طريقة لإرضائه غير التكمّ والخناع، ف "مما" مصرّة على التشدّد في رفضها
لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض -على ما كانت تسمع قصص نساء
سفرات متبرّجات وعنف وقتل، كل ما تكره، كل ما يجب.
يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من البلب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسّي،
كفضاء الأفكار، زاهر بما لا يتصوّره عقله، واللامية لا تكفّ عن دفع حدوده إلى أبعد
فأبعد، واضعة فيه أحلامها وكوابيسها.
يتهاشم الأطفال بلنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت
اسمه "دراكولا" يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر،
بعد أن يتفكّد من لهم أعناق جميلة وشرابين فيها دم ساخن لذيذ يحب كثيرا شربه.
يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على أمه بخصوص المكان
الذي سيقيضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذًا له في الإيمان
على الأفلام والكتب والكذب على "مما".
يحتلّ مقعده المفضّل بالقرب من الشاشة طاردا من سيقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير
مبالٍ باحتجاج طفل أصغر منه أجبر على الانسحاب وهو يزفر من الغيظ. أخيرا،
سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفريت التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون
دراكولا هذا هو "العويّبة" التي ما زالت اللجّة تهدّه بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه
في وجودها. لا بد من الاعتراف هنا أنّنا كائنات غريبة الأطوار تريد الشيء ونقيضه،
تجري وراء ما تفتعل الهروب منه، والحدود بين ما تحبّ وتكره متحرّكة لا تخضع
حركتها لمنطق أو قانون.
ينتهي العرض ويخرج مع أخيه من القاعة يفعل اللا مبالاة والاستهزاء بخوف بقية
الأطفال.

المشكلة الآن هي ماذا سيقول لـ"مما" بخصوص أين كانا، وسبب ارتعاش الصغير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الطود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر دما في فك كائن لا يراه إلا هما.

يحل الأخ الصغير مشكلته بالتسلل إلى فراش "مما". هل يعقل أن يلتجئ نائب رئيس العائلة إلى ذراعي الأم كما يفعل الصغار؟ يجب، انصياعاً للأمر الأبوي الصارم التحلي بلشجاعة، أو على الأقل اقتنعها. لا مناص من الذهاب إلى الفراش وتنظيم وسائل الدفاع المتاحة. ثمة قراءة بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كفر أجنبي لا يخشى إله "مما" ولا يفهم لغتها، لذلك لا يمكن أن تشكل الفاتحة رادعاً له.

هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. خيانة إله الآباء والأجداد والاستجداد بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "مما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفة طفلها وأنه أصبح نصرانياً؟

لم يبق سوى حل الثوم لأن العفريت يخاف، لأسباب يعرفها هو وحده، من الثوم. أين تضع "مما" ثومها المنفذ؟ لكن ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ بماذا سيرد طفلها وهي تضبطه حافياً في الظلام ويناه منغلقتان بقوة على فص من الثوم؟

يفضض الإرهاق جفنين أضناها أرق متوجس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطى في تابوته المبطّن بالدمقس الأحمر. يتحرك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيد القمر بالله، ترتجف الأشجار فرقا وتنبأ اليوم من التمرد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للأدمي.

ينطلق الكائن من قبره باحثاً عن عنق ألسن تفتح فيه أنيابه شلالاً من اللين الأحمر لاضروري لبقاء الغاريت.

هل من الممكن أن يترك دراكولا أطفال قارته، وكلهم تحت ذمته، ليقصد طفلاً من قارة أخرى لم يمسسه بسوء وفش عيباً في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محلّه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟ نعم، ممكن. القاعدة هي، أن الخوف من خطر ليس دافعاً له إنما دله على أقصر طريق إليك وأنت لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوماً.

هكذا وجد دراكولا منفذاً إلى طفل يهت صارخاً والبول - لا الدم - قد أغرق الفراش. ما كان هذا الطفل عاجزاً عن فهمه جملة الرسائل المتضاربة للأسطورة منها أن الأسمي يرفض رفضاً قاطعاً مغادرة العالم وأهواله وأنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير مترجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة...منها أيضاً تصور العالم كمغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض...وايضا الرعب من أموات قد يطرقون الباب بقوة محمليين

بأخبار مفزعة عما ينتظرنا جميعا بعد الموت...ومن ثمة شرعية فتح القبور ليلا لاستلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمصن الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

*

شيئا فشيئا يكتشف الطفل قدرته على أن يخلق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره.

ها هو يلعب نظارات لا حلجة له بها وقد أصبحت له عيون النسر. يرتدي قفازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعة سَلْم الطائرة النفاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيب التمنّيات بنجاح المهمة. تتركب الذات مطيّة الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دويّ المحرّكات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يولج لمعان الشمس فلا يرفّ له جفن، وإنما الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرّك بها.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط -حدث. منطقة الغرق تحت سحب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح البخارة الشراعية وحنون متشبّث بصواربيها المكسورة. الأمواج بعلو الجبال، لكن الإنقاذ ممكن. تستعيد الذات التي توشك على الغرق الأمل وهي تسمع دويّ الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهور بأنّه أمّ مرة أخرى، أنّه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلة بمعدّاتها فوق القارب بالضبط فيتلقيها المغلر الفيضي بشراة وكله امتنان ليعل ولدعوات "مما؟ وللطيار الهمام.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. النقط حنون المعنات وتم الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

- تهانينا بنجاح المأمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمة أخرى بانتظارك.

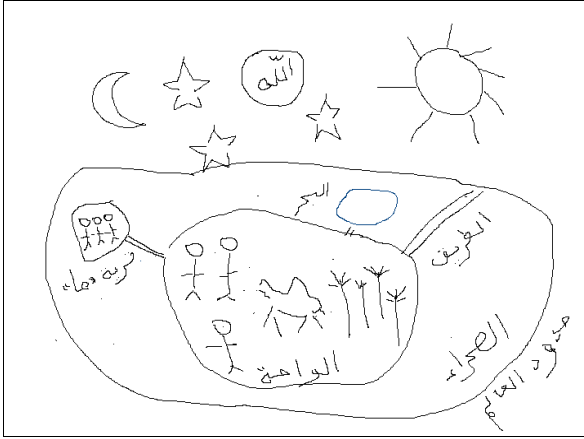
يخرج الطفل منتصرا كالعادة ببركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفرت لحلها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرفها رضاك.

يواصل الأدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعددة التنقل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البرّ والبحر. مرّة يقود بيديّ ثابتة غواصته تحت جليد المحيط. مرّة يحطّ بصلروحه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرّة ينزل أعماق المغارات يقتل الساحر والثور ويصل مظفرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة بلحنا عن نبتة يتيمة يصنع منها لكسير الخلود.

الطفل الآن في العمر الذي تحضر فيه الأسئلة الكبرى فيجد لها كل الطول في خصب خياله كما فعل قبله وسيوصل أطفال من كل الأعصار ومن كل الثقافات البشرية.

ومن مشاغله تلك الأيام أولى نظريّاته عن العالم لخصها في رسم كان يعود إليه طوال الوقت بالتلوين والتحسين.

العالم -مما لا يدع مجالاً للشك في هذه المرحلة من رحلة الطفل-طيق صلب أفقي جُله أصفر اللون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر الذي حدّته الليلان عن وجوده، ويُقع خضراء صغيرة متناثرة هي غابلات زيتون أرض جدّته، ومركزه واحة الأب والجدّ. فوق الطبق الصلب الذي يقف عليه هو وبقية الكائنات والأشياء ثمة قبة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمه صحناً أجوف من البلّور على طبق الطعام لتقيه من الذباب. على سطح هذه القبة تتجول الشمس والنجوم والقمر. فوقها وبعيدا عنها يجلس على كرسي ضخم اسمه "العرش" شيخ كلّ الشيوخ الذي هو الله. بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تسبح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم "أب" و"أم" والجدّ والجدّة والعمّات والأخوال والجيران وركاب الحافلة والقطار تُصحبهم القطط والكلاب والماعز والحمير والبعير والخرافان والبقر، وهم أنواع خاصّة من الجيران والأقارب. من مركز العالم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يسلكه كل ذاهب وكل عائد. على حافتيه ثمة مدنٌ وفُرَى لا يُعرف لها عددٌ. أما الحدود فنهاية الطريق، عندما يرتطم بلهاوية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما الغفاريات والأشباح، من بينهم "البعيثة". يُمعن الطفل النظر في رسمه فيعود إليه الشك لينقص عليه متعة النصر.



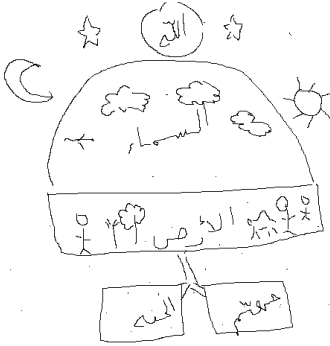
ثمة شيء هام ينقص، لكن ما هو؟ أه الأخرة طبعاً، التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصة من جدّه!

هل يُعقل أن ينسى مَعَلِّمًا كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله أم على يساره؟ يجزّب فكرته ثم يسارع إلى التخلّي عنها إذ لا تستقيم مع بَقِيَّة المعطيات. يتذكّر فجأة أنّ الأخرة حسب قول "مما" هي المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم. ألا يحفرون للميت حفرة في أديم الصلب، وهو ما قلموا به عندما حملوا حسين ابن خاله الذي كان يحب اللعب معه وسرقة لوز الجيران؟

إبن، الأخرة موجودة تحت الأرض. ووفقا لما سمع من "مما" التي لا تكذب أبداً، فهي مكوّنة من الجنة والنار.

يرسم الطفل مربعين يرتبطان بالأرض بلتفق العمودي الإيجابي الذي يأخذه الموتى للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان الإقامة الأخير. المربع الأول أخضر اللون لأنّ الجنة كما تقول "مما" واحدة خصيبة، ولو أنّها كبيرٌ ونخيلها أعلى ومياهها أوفر وأعذب، يذهب إليها من غمّلوا الصالحات. أما المربع المقابل فهو أحمرُ بلون النار المخصّصة لشواء لحم الكفار والمعلمات الشّيريات.

يجيل الطفل البصر في عالمه راضياً عن عمله وقد اكتمل ووجدت فيه كلّ المكوّنات مكانها.



انتهى الطفل من حلّ مشكلة طبيعة العالم. لم تبقَ إلا مشكلة الزمن. ما معنى أن يكون لليوم تاريخ هجري وأخر ميلادي؟ كيف يكون هناك زمنان، والحال أنّه ليس هناك شمسان ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرّة من "الهجرة النبويّة" وأخرى من "ولادة المسيح"؟ ثمّ ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان الذي بدأ به العالم وكل الأحداث؟

الأهم من هذا كله متى ستقوم القيامة. وهل يا تُرى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفار؟ حسب زماننا طبعاً، فاللهنا هو الإله الحقيقي. ولكن في أية سنة بعد الهجرة؟ إجابة متروكة للكبار. وفي أي يوم؟ بالتأكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً.

والآن متى بدأت البداية؟ طبعاً كما اتفق مع "م" أول يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في لشتاء. لكن أي يوم بالضبط؟! الجمعة مخصص للقيامه، السبت يوم الكفار اليهود، الأحد يوم الكفار النصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيامٌ بليدة لكثرة العمل فيها ولا واحدٌ منها يستحق أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبق سوى يوم الإثنين، إنه دون شك يوم الخلق، خاصةً أنه أول أيام الأسبوع.

لكن، ما الذي كان موجوداً قبل أول يوم الإثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان الطفل بعيداً عن فهم ما يفعل وأنه كان يعبت جزء مما افتحه خيال القوم الذين ارتحل في ركابهم، وأنه سيجلس يوماً لنماذج أخرى للعالم الذي تبلور فيه لا يرضيه أي منها ولا حتى الذي جادت به مخيلته هو والذي سيسميه الرؤيا.

تمرّ السنين. شيئاً فشيئاً يتغير ما بداخل الجسم وتحضر مع التغيير أحلام المرحلة الجديدة من الرحلة.

تنبت يوماً للطفل بداية لحية وتتفجر داخله حيوية غريبة تعذبه بحاجيات مبهمة.

تهمس بغنج ودلال ذات محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سيناً وبنيت الجيران: الحب أجمل من الحرب.

يقهقه صنع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستيق الأحداث. يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قبل لك بتصور متاعبها.

كفى من المعارك مع الشياطين واشباح الخصوم من أطفال وكهول.

تُرفع حواجز الحياء والحرص. تزداد الطلبات شططاً، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص.

ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

يهمس الصوت الساخر:

وبعد المفاتح ماذا يريد سيدي؟ ليطمئن سيدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت النعمة. بالكف والكيف الذي يأمر الأربعة الكبار؟ كل ما تحلم به الأغلبية الساحقة من الأدميين: الجنس، المال، الشهرة والسلطة.

ألا يعني كل هذا أننا لا نعيش حياة واحدة في هذا العالم كما نعتقد أغلب الوقت وإنما "حياتنا" عدة: التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم اليقظة، التي نقضيها في فضاء الحواس وأجمل "حياتنا" المتعددة التي نعيشها في فضاء الخيال.

أه حزن وقت اشباع حلجيات من نوع أرقى .
يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزيّنة ومنقّحة وفيه كل الأجوبة على كل هوليس كل أمني.

يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونظيرا. ما يزال المسكين جاهلا بقولن أنه "لا نبي في قومه" وأنّ تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة كلمته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الراححة في اليانصيب، مع أنّ السوق زاخرٌ بالمتمقّمين لأقدم المهامّ، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدي نبيّنا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأعدت له الخشبة والمسلمير وعيّن الجلال الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضلّيل. يقرّر الإنقاذ لأنّه أصعب من التدمير ولأنّه لا بدّ من تواصل القصص. يغيب المصطفى عن الأنظار ونواح خواريبه يرنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيبوا كلمه عن الأنظار هي: أما كلن عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف ملحق صحفي يروّجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملة، وعلى طاولات المعارض للكتب البائسة، إلى أن يتعلم الخزائير اكتشاف الدرر التي نثرت عليهم بكل كرم ولم يلقنوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السريّة لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على أكوخ المعدّبين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في براثن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كلتلر في غلبت الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم ثائر إلا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلا ويده على أفسس الكتاب، لا تفتح المرأة فخذيها للولادة إلا وتتمتم ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلا إلا وسار عوا إليه بتمائم مأخوذة من جُملة المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف لإخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تفويض الكتاب الأزرق بدل محاربتّه، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. يتسلّل داخلي حزن دفين على كم من ملهم وكم من برنمج طموح فشل وسيفشل في إصلاح هذا الجنس التعيس.

ها قد داهم خريف الحياة الأمني المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحا تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكلبة يتمطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحزنا، ووراءه

يركض على حمار سيئ المزاج أصلغ يدين. تتساعل الذات الراكبة على الحمار بسخرية وعطف وهي تنظر إلى جزئها الراكب فوق حطام حصان:

- أما أن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع. ضع حدا لهذا التيه.

يهزّ الشيخ الكنيب كتفيه:

- عن أيّ واقع تتحدث أيها العبي؟ تريدني أن أخرج من حلمي الجميل لأسكن كوابيس الآخرين؟

يا للرجل الحكيم. فهم أن هذيان الفرد وحده هو الذي يوصف بالجنون أما هذيان الجماعة فأساس كم من ديئات!

تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها "العبيّة". تهمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجذل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهمز الحمار بدورها:

- لأعلمنّ معك، يا سيدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمى "الدنيا".

يتنهد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار نكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربية من القصب الأخضر، تجرّها حيوانت منتصبه القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.

تتغيّر نوعية الأحلام وتزداد تجهّما وهي تبحث عن أنجع علاج لعلم مصعب بأخطر الأمراض منها التي تتسبب في شقاء وموت عشرات الملايين من البشر بسبب مجنون واحد. ها قد حسم خيالي في الموضوع وكلي وهم أن هذا الحلم سينقذ الملايين من عبور هذا العلم داخل أقطع الكوابيس.

يتعالى الصراخ من مرضلت عنبر الرضّع:

- النجدة، النجدة!

تندافع زميلاتهن من سائر اقسام المستشفى ليتسمرن مذهولات أمام المشهد البشع ثم ينطلق صراخهن.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا للدم!

- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!

- انظروا، إنه المجرم، إنه يتسوّر الحائط لاثنا بالفرار!

فجأة يدوي عويل يصمّ الأذان من مرضة ترتمي فوق الجسد الدامي لرضيع لم يتجاوز شهره الأول. إنها الممرضة المكلفة بلسهر عليه ولم تتغيب عنه إلا دقائق معدودات لقضاء حاجة طبيعية.

يصرخ فيها المفتش حضر لتوه لمعاينة الجريمة:

- كفى هستيريا، أيتها المرأة الغبية. ما اسم الرضيع؟
- سميناها للمداخبة هتلر على اسم قط القسم واسمه الصغير أدولف، أه يا أنيلفة، أه يا صغيري!

تنتقياً الممرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها، قيل أن يغمى عليها.
كان الرضيع المفضل لديها في كل المحضنة، بل وكانت تنوي تبني اللقيط.
بالمناسبة، كم رضيعاً لم يموت كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص! في المقابل، كم ملت لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجهل أننا مررنا قريباً جداً من ضفة النجاة!

ثمة مشكلة في هذه القصة تبّه لها كل هواة الارتحال في الزمان.
من البديهي أنني لو تسببت في موت الرضيع الذي سيصبح الطاغية الدموي الذي عرفه التاريخ، لما حدثت الحرب التي جعلت 'يا' يلتجئ إلى القرية التي تزوج فيها "ما"، أي لما وجدت أصلاً. كيف أوجد وقد الغيت من كان ولو بالصدفة وبصفة عرضية سبباً في وجودي؟ بغض النظر عن تناقضاتها، ثمة إيمان بين حزمة الأسباب التي أوجدتني وجود أكبر سفاوح في تاريخ هذا العالم. للصراحة لا أحب إطلاقاً هذه الفكرة.

*

السؤال الآن طبيعة هذا الفضاء الخيالي، ماذا نفعل به وماذا نفعل فيه؟
على الصعيد الفردي هو الفضاء الذي يمكننا من تصريف ما بداخلنا من عنف لا نستطيع التخلص منه في الفضاء الحسي دون أن نتعرض لعنف مضاد قد يهدد حياتنا ولا نستطيع تصريفه في فضاء الأفكار وإلا وقفنا أمام المحاكم بتهمة التعدي على كرامة من لا كرامة لهم.

نحن أيضاً أمام فضاء يمكننا من رفع مؤقت لاحتقان الذات وتمكينها من تحقيق كل شهواتها. إنه فضاء يسمح براحة لا بدّ منها وكل المطلوب عدم الإدمان. ذلك لأنه ثمة من يرفضون مفارقه، أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية. إياك ثم إياك من طول المكوث والإكنت كمن يرفض مغادرة الرحم والنتيجة الموت تعقلاً.
يبقى أن أهم وظلّف فضاء الخيال أكبر بكثير من هذه الملذات العابرة والرخيصة الثمن التي يوفرها بسخاء مشبوّه.

هو الفضاء الذي تملأه الشعوب بالأساطير والقصص والأديان المنظمة لفوضى لا قبل للفكر بتحملها وللأدبي بالعيش داخلها وذلك بقدر كبير من الحرية في خلق التصورات. خلافاً لما يشيحه "الموضوعيون" هذه الحرية ليست تحرراً من ضوابط الواقع وإنما استكشاف لكل الممكن من المدخل لفهمه والتفاعل معه. هذا ما يجعل فضاء الخيال ضمان عدم جمود الفكر في قناعات ثابتة كذلك التي يحاول فرضها العلم. هو الخزان الذي لا ينضب للفرضيات التي تسمح لهذا العلم نفسه بالتجدد الدائم وذلك بفضل الطاقة الجبرلة التي تبني هذا الفضاء أي المخيلة.

إذا كانت مهمة الحواس لست رصد الأشكال والحالات التي يتخذها العلم، فإن وظيفة المخيلة تفكيك وإعادة تركيب هذه المعطيات كُن هذا العالم خزان مواد أولية يعاد تصنيعها ليكتسب حالات أخرى وأشكال جديدة غير مسبوقه.

لا أحسن من الفن لكشف أبعاد هذه الوظيفة

مع بيكاسو، يدير الأدمي ظهره لمشهد العالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلقه هو، وقد أصبح إلها لحسابه الخاص، والعالم الذي ينتظر الخلق اللوحة الفارغة.

يبقى الفن يصول ويجول مجربا في كل رسم إعادة تنظيم ظواهر العالم المرئية، مروراً من أقصى الفراغ إلى أقصى الامتلاء، من النسخ إلى المسخ... والمبحث عنه شيء مبهم لم تتضح بعد طبيعته، على افتراض أن له طبيعة ستوضح يوماً.

تنظر للوحات رامبرانت فلا تحصي ما فيها من أشكال وألوان وهذا أقصى الامتلاء. تتأمل لوحات الفن الصيني فلا ترى إلا سطراً ينطلق على بعض النقط وهذا التجرد الأقصى.

تسمع فالسات شوبان وسوناتات شوبرت فيشئف الأذان التناسق والنظام، لأن الموسيقى، وإن ابتعدت عن تقليد صوت العصفور ما زالت تقلد عالماً من قوانينه النسق والنغم والجمال. ولما تنطلق عملية استكشاف النقطة القصوى من ممكن الصنع، تعطيك موسيقى ستوكهولم لعالم ليس فيه إلا النشاز والفوضى.

يأتي الشعر ليصف جمال العالم كما ترصده الحواس لكن أيضاً لكي يعيد تصنيعه وقد أصبحت الطيور "تشدو" على قبر الشاعر النسب فوقه "يهيس" والفصول "تمشي" حوله كما كن في غضارة لمس" (الشابي)

يكر الأطفال وتتعدّد مطالبهم. هو يريدون شفاء كل الأمراض بمراهم سحرية. هم يريدون الطيران في أعلى طبقات السماء أحسن من كل الطيور والغوص في أعماق البحار أحسن من كل الدلافين ناهيك عن المشي على سطح القمر. هم يريدون اكتشاف قدرات خارقة لم تسعفهم بها الأقدار.

إنها فترة سطوة السحرة وكل ساحر يبلور في فضاء خياله أعمق شهوات الأدميين ويحققها دون المرور بلية وسلط جدية.

تأتي أخيراً التكنولوجيا لتحقيق أهداف السحر بوسائل العلم والقاعدة التي لا تتغير أبداً أن كل الأحلام التي تتبلور في فضاء الخيال لا تتحقق لكن كل ما تحقق من أروع إنجازات البشر كان يوماً أحلاماً في فضاء الخيال.

فضاء الخيال هو أولاً وقيل كل شيء مختبر المختبرات الذي يتواصل داخله خلق عالم يتضح أنه لم ولن يكتمل أبداً.

خاصية بالغة الأهمية للفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم: الحيوية المذهلة التي تجعلك تقف مشدوهاً أمام ورشة لا تتوقف فيها الأشغال أبداً بحثاً محموماً عن الجودة

والطرافة والتنوع والابتكار في الديانات، في الأساطير، في الفنون، في الشعر وفي كل الميادين التي تلعب فيها المخيلة دور المحرك الرئيسي والتي تعطىها التكنولوجيا الحديثة أدوات غير مسبوقه قد تسمح يوما بفسخ كل الحدود بين الفضاء الحسي والخيالي.

فضاء الخيال إذن هو الورشة التي تختبر فيها أبيات الشاعر ولوحة الفنان وفرضيات الباحث وتقنيات المهندس وأحلام الأديب ومشاريع النبي والتأثر لإصلاح عالم ليس بلسهل إصلاحه لكن الأمر ليس بالمستحيل.

كل ما عرفه الأدميون من اسطير، من ديانت، من علوم، من فنون، من آداب من إبداع هذا الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات.

كل ما أبدعه الأدمي بقدراته الخارقة على الابتكار والخلق من قلاع وأسوار مثل السور الأعظم، اهرامات مصر والمكسيك، من آلات تنبأرى ضخامة وتعقيدا، من ناطحات سحب، من قنابل نووية، كل ما سيبدعه من مركبات مسيرة لاستكشاف كواكب النظام الشمسي وحتى للكواكب التي تدور في فلك النجوم، كل هذا رأى النور وسيرى في هذا الفضاء قبل أن يتبلور في الذي تتحرك فيه العصافير والأقمار لصناعية.

معنى هنا أن فضاء الخيال هذا ليس فضاء الأوهام او كما يقول البعض بلهجة الاستخفاف فضاء أضغاث الاحلام. لا شيء أكثر موضوعية من الخيال وكل ما نصف بالموضوعي مشبع بلخيال مصنوع منه وعينا ام لم نعي.

وراء الجهد الجبار لتشييد أشهر معالم العالم ولع الإنميين بهندسة الفضاء الحسي على هوامم وذلك منذ بدأوا تزيين الكهوف المظلمة وفق خيالهم هم لا وفق خيال الخالق الأعظم ولسن الحال يقول انظر ما الذي نقدر عليه نحن أيضا.

**

أو كيف أن العالم بصدد توسع متسارع لا حدود له إلا حدود الذهن البشري

في ملف محفوظ بكثير من الحرص داخل أقدم طبقت الذكرة يتوجه المعلم المرحق إلى قسم هائج على الدوام:

-والآن تمرين الصباح اشترى حسن برتقلتين بعشرين مليما للبرتقالة، ودفع مائة مليم للبانع. كم يجب أن يرجع إليه البانع؟

- سيدي، هل البانع نزيه أم كالذي يسرق أمي؟

- تسخر مني يا وقح! ركز على التمرين.

كم هي مثيرة هذه الرموز عندما تنتسب في قصص عن برتقال يُباع ويُشترى، وقطارات تصل في الوقت ولا تصل، وسيارات تركض وراء بعضها البعض، وبساتين زيتون يجب أن تُقسّم بين الورثة، وكم ينال زيد وعمرو بعد أن أوصى أبو زيد بالتلت لزيد وظلم عمرا فلم يترك له إلا الجزء العاشر من الحقل. يا لغرايتها وهي تتدافع من المجهول لتفعل أفعالا خاصة بها مختلفة عن أعمال الحروف، إذ تستطيع أن تتجمع وتتفص وتتقسم على بعضها البعض، وتلد أرقاما أضخم وفق قواعد في غاية البساطة.

ثنته الأرقام الطفل كون العالم يزخر بأشياء متباينة تنتمي إلى مستويات مختلفة يجب عدم الخلط بينها، حيث أنه لا تستطيع أن تضرب برتقالة في قطار، أو أن تقسم القطار على البرتقالة، أنه لا يمكن أن تشتري قطارين بعشرين مليما للقطار الولحد، وأن البرتقال لا يتسابق فيما بينه للوصول إلى المحطة.

في نفس ملفت مشاكله الأولى مع الأرقام يصرخ الطفل على عادته في معلم نافذ الصبر.

- سيدي، ما معنى صفر؟

- الصفر عند يرمز إلى شيء لا وجود له.

- كيف يوجد شيء غير موجود؟

- قلت لك كفت عني أسئلتك؟

يعضن الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرقه.

- سيدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفار إلى واحد!

- طبعاً، وفي كل مرة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثم مئة، ثم ألف ثم عشرة آلاف، إلخ.

- سيدي، سيدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأته به الصفحة؟

- ماذا تفعل؟ ما هذا العيث؟

- اضفت كما قلت لي صفرا بعد الصفر ثم صفرا آخر وآخر وآخر... سيدي! سيدي!!

بوسعي أن أملا الكراسية بأكملها بالأصفار!

- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرك، أنت معاقب إلى نهاية الحصنة.

يقف الطفل مجتداً أمام صديقه الحميم: الحائظ. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفر تخرج من الصفحة، من الكرّاس، تنسأل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لتتناسب كلسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفر جديدة تخرج من العنم وتنفخ بالطابور دوماً إلى الأمام.

إلى أين وإلى متى؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أن لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفر. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم بكرا بمعضلة اسمها "للانهائي" دَوَّخَتْ قِبله كَمَا من عقول أطفال كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنَّ "كانطور" من فرط البحث عن حل لها أم هل كان مجنوناً من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدرك؟

لم يكن الطفل واعياً أنه لا يرتطم بأصعب المشاكل التي يواجهها الذهن البشري فقط وإنما أنه يلهو بجزء أساسي من اللبنة التي تشكل عالمه.

ثم يكتشف يوماً أيضاً أن لهذه الكائنات العجيبة قوانين لا مناص منها ولا علاقة لها ببر تقال أو ورتة.

يأمر المعلم المرهق النفاذ الصبر على الدوام :

- هيا يا أطفال، افتحوا الكراسي وانقلوا جدول الضرب الذي عليكم حفظه عن ظهر قلب. يعود الطفل إلى نفس الأغلاط مدفوعاً بغيب فيه ما هو موروث وجله مكتسب.

- سيدي، لماذا يجب أن تكون أربعة في اثنين ثمانية؟

- هكذا. لا جدال في جدول الضرب.

- لماذا هكذا، سيدي؟

- تريد العودة إلى الزكن؟ قلت لك لا جدال في جدول الضرب ولا في قواعد القسمة والطرح.

فعلا هذا عالم بحاجة لجدول ضرب ثابت لا يخضع لضغوط السياسة أو تقلبات سعر صرف الدينار ومحافظ طول حيثنا على توازنه وسلامته الذهنية.

تخيل أنه جُنَّ جنون جدول الضرب فجأة فأصبحت نتيجة 3x3 مرة 99 ومرة أخرى 999 ومرة ثالثة 3!

تصوّر تغيير ابسط القواعد التي تعلمناها في الثانوية مثل أن ضرب السالب في السالب نتيجة إيجابي لتصبح القاعدة أن ضرب السالب في السالب يؤدي مرة إلى صفر وأيام الأحد والعطل إلى سلب مضايف!

تصوّر أن الأرقام رفضت الاعتراف بالصفر أو بقواعد القسمة والطرح!

تصوّر فيروساً لا يقهر حكم بالشلل النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض.

لو استولى كاتب من الخيال العلمي على هذه الفكرة وطورها إلى ابعاد نتائجها لوصف احتضار عالم استشرت فيه فرضي عارمة تشهد موت الناس داخل المصاعد واختراق شبكات الكهرباء وهبوط الطائرات فوق الطرق السيارة وخروج الأقمار الصناعية

والصواريخ من مداراتها الطبيعية وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والعنلات والأفراد. حدث ولا تسأل عن انهيار البورصة وشلل جلّ دوليب الإنتاج الصناعي والخدمات وعودة الاقتصاد لما قبل العصور الحجرية وانفجار ما لا يحصى من الحروب تسقط فيها الصواريخ النووية على مطلقها.

الأرقام إذن بما لا يدع مجالاً للشك من الدعائم الأساسية للعالم الذي نعرف. هي التي ترصد للعالم حدوده الحقيقية فلا ضوء يتحرك بأسرع من رقم معين ولا حرارة تنزل تحت رقم آخر ولا مجال لحياة تدوم أكثر من رقم ثالث... الخ هي التي تصف العالم أدق وصف، تحصى، تقيس وتصنف جلّ مظاهره. لا أكثر طموحا عند كبار الباحثين في أسرارها قدر طموحهم أن توضع اكتشافاتهم في معادلات حسابية انيقة دعلماتها الأرقام.

هي التي تصنع ملامحه التي نعرف فلو لاها لما حُفّت الطائرات في السماء ولما ارتحلت الصواريخ نحو القمر والمسابير نحو المريخ ولما انتصبت ناطحات السحاب على الأرض.

هي التي تمكّن الدول من إدارة مساحة الأرض التي تحكمها بإحصاء سكانها وحساب ما يتكفون من خدمات وما يمكن اعتصمه منهم من ضرائب.

هي التي تحدّد للأشياء قيمتها في المتاجر والبشر قيمتهم عند البنوك. هي التي تساهم في إعطائك هويتك أي مكانك داخل قفلة المرتحلين وأنت معرّف لدى الأمن والضمن الاجتماعي ومصصلحة الضرائب وشركة المواصلات والبنوك بجملة من الأرقام لو ضاعت أو سرقت منك لوجدت نفسك في أصعب الأوضاع. هي التي تفتح لك الأبواب أو تغلقها أملمك إن جهلتها أو نسيته.

وأيضاً هي مظهر من جمال العالم إذ تبلور في المعادلات الحسابية البالغة الأنافة جمالا كالذي يبهرك في أروع اللوحات أو السمفونيات. كم من علاقات وطيدة مخفية بين الموسيقى وبين الأرقام انتبه لها أكثر من موسيقي عبقري! هي أيضاً جزء من غرابة العالم نفسه فلا اتفاق بين خيرة العقول حول طبيعتها والجدل بخصوصها متواصل منذ قرون.

هل هي كائنات يخلقها الذهن وموجودة دلخه ام هي كائنات هلامية موجودة خارجه ومحكوم عليه باكتشافها في مخابئها السرية واستكشاف كل ما تخر به من خصائص وإمكانات عجيبة؟

أهم ما في الأرقام أنها اليوم أدوات طفرة من الخلق غير مسبوقه بلبنتين فقط فقط اسمهما الصفر والواحد.

أيّ أنمي كان قادرا زمن طفولتي على التنبؤ بالثورة التي سيدثها في عالم الأدميين رقصان بيدوان في غاية البساطة وهما الأداة لبناء أغرب فضاءات العلم الذي نعبّر!

نحن في هذا العصر مثل رخالة من القرون الماضية فوجدوا يوماً ظهور قِزَّة سلسة في الفضاء الحسِّي لم يعرفها لا المشرقيّ ابن فضلان ولا المغربي ابن بطوطة ولم يتخيّل وجودها يوماً أكبر علماء الجغرافيا.

هذه القارة السادسة التي برزت فجأة من العدم لتحتلّ جزءاً متعظماً من زمن الرحلة هي ما نسميه الفضاء الافتراضي وله جملة من الخصائص تميزه عن بقية فضاءات العالم. بخصوص الأماكن التي يعجّ بها والتي قد توذّ السفر إليها، ننصح بعدم تضيق الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد "ياهو دوت كوم" أو "اكساييت دوت كوم". لن تجده على أي خريطة جغرافية. إن حاولت، كنت كمن يبحث عن جزر واق الواق في الفضاء الحسِّي... حتى ولو كتبت "واق الواق دوت كوم" موجودة بل يستعك أن تخلقها أنت بلذات.

خاصية هامة مرحب بها أن المشي فيه لا تعب فيه ولا منغصات كالتي ولجها مستكشفو الفضاء الحسِّي مثل بعض المستنقعات الاستوائية وديبة القطب لشمالي وأسود الأحرار الإفریقیة وضباط مطارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضاً أن تعرّض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقيّ يصرخ فيك يطلب حفظة نفودك وإلا أخذ حياتك. هذا لا يعني أنّه خالٍ من المطبات والأخطار. كل ما هناك أنّها من أنواع لم تُعدها في "الفضاءات" الأخرى.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من الفضاء الغريب أطلق مجهولٌ فيروساً طائشاً أصلب منه مقلاً. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وساضطرّ للسهر ليلٍ وليلٍ لإعادة صبّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

من هذا الذي يدنر بصفة نورية الجزء من "الفضاء" الذي اقتطعته لنفسه، والذي أستودع فيه ما أكتب على أخطى رقابة الورق؟ لا مجال لأن أضع عليه آية صورة أو أي اسم على العدوّ الخفيّ.

هذا ما يقودني إلى الحديث عن الأدميين الذين يتحركون داخل الفضاء العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكاناً كما لو كانت من جنس الأشباح والغاريت التي يحفل بها فضاء الخيال، والفارق الهام أنّ لهؤلاء الأشباح فعلٌ لا يتوقف في أخصّ خصائص حياتك.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني أنمي بجسد وروح وفكر، لما أفنعتني أحد أنّه ثمة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمة إذن، للآدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يليس ما شاء من الأفتنة، يتخذ له أكثر من عنوان، يؤثّر من أبعد نقطة في "الفضاء" الحسِّي،

يدخل البيوت كالروح الهائمة لا يتقن لتطفله أو لسرقاته أحد، وربما يعيش ما لا يُحصى من القصص الموازية.

في هذا الجزء من العالم يتغير أيضا بصفة جزئية مفهوم آخر يَبْنِنا عليه بديهياتنا في التعامل مع العالم: الزمان.

في فضاء الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحول من مكان لآخر. أما في الفضاء الافتراضي فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان -وهو جالس في جوف بلخرته بلشيونة- الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق الغيليين - حتى لا يُغتال في معركة تفقهة مع المتوحشين- والتوقف في جوا وعدن للتبضع ثم العودة إلى لشبونة.. كل هذا في دقائق معدودات.

الأغرب من هذا كله أن هذا الفضاء الجديد يعج بكائنات لم يعرفها أوائنا يسمونها الروبوتات يحركهم ذهن استوعب أحسن ما في أذهان البشر يسمونه الذكاء الاصطناعي وسيلعبون في حياة الأجيال القادمة دورا لا نقدر خطورته. لمن لا يعلم، بدأت في بعض أصقاع الأرض الأكثر تقدما في ميدان التكنولوجيا الحديثة، قصص الحب والغرام بين آدمي من لحم ودم وروبوت جميل يعوض الأدمي المسكين كل ما لم تُعطه أمه من حنان وصديقه من وجود دائم يخفف عنه الأم الوحدة. بل ثمة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الأدمي في نسخته القديمة والأدمي الافتراضي. كل التهاني وبلبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

في هذا الفضاء أنت مثل زائر يدخل متحف اللوفر بحثا عن لوحة مونا ليزا، فيفاجأ بجدران قاعات المتحف تتباعد واللوحات والتماثيل تتزايد عددا بسرعة مذهلة وفي كل الأركان وكَم من ليونارد دافنشي جديد عاكف على الرسم ينقسه كَم من بيكاسو في الطرف الآخر من المتحف.

ما يشد الانتباه أن هذا الفضاء الافتراضي هو أيضا مثل الفضاء الحسي-ساحة حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جزالات بخسة نجوم يُعدون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيبُ فيها بمثابة راجمت الصواريخ، والصواريخ برامج محملة بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

هو مجال بلوته المرتحلون بنفائتهم. يُقال إن بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانهايار عصبي أمام فضاة ما يتزاحم فيه، أمام بورنوغرافيا أطفال ورضع ومضلجة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وألهة دموية وقرابين تُقدّم لها والذبح على الهواء مباشرة.

هو أيضا قمامة تُصبّ فيها مجاري صرف صحي تقيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماما كما هو الحال في "الفضاء" الحسي، حيث يخطي كل واحد بمرحاضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركا لمجاري الإسمنت مهمة التخلص منها بعيدا. لكن مهلا، أيّ حكم كنا نطلقه على الأرض لو دخلناها وهي ما زالت سهولا سوداء لفظتها البراكين لتوها لم تُغَطِّها بعد الحشائش والأزهار، ولم ترقع فوق سطوحها الأشجار

وما يصيح على غصونها من عصافير؟ أي حُكم كنّا نطلقه على "فضاء" الحروف وهو أولى العلامات على لوحات طين يتبادلها كهنة أراتا وتجر أوروك؟
ظاهرة هامة أخيرة تميّز هذا الفضاء العجيب عن بقية الفضاءات.
حدود فضاء الحواس ثابتة أو صعبة التحريك حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار ما نستعين به من أجهزة مثل المجهر الإلكتروني أو التلسكوب الفضائي.
على العكس من هذا تقاجاً بالسرعة العجيبة في توسع الفضاء الافتراضي وهو يراكم في جيل واحد من معطيات وقدرات ما لم تحقّقه كل الأجيال التي سبقتنا في فضائي الفكر والخيال. هل سيعيش أحفادنا داخل عالم مصنوع بالأساس من الخوارزميات وبصفة ثنائية من الحواس الست؟ أي معنى للرحلة في هكذا عالم بل أي نوع من البشر سيرتحلون فيه؟
الثابت أن الفضاء الافتراضي في بداية تشكله وأن الرحلة ستعرف فيه قصصا غير مسبوقه لم يعرف لها تاريخ المرتحلين مثيلا.
سؤال لا أحبّه كثيرًا: هل قطعك كل هذا الشوط من الطريق لاكتشف وأنا في آخر مرحله أنني كنت مجرد رحالة بدائي خبيس جسد بدائي بحواس بدائية ولغة بدائية يتحرك مشيا على قدمين،... ورائني وساغدر العالم وهو على وشك فتح بوابات على فضاءات ورحلات لا يتخيلها أخصب خيال لأنبغ كتّاب الخيال العلمي.
ليكن، وهنينا للأحفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات مستلّقين على ظهورهم في صناديقهم البلورية وخبوط غير مرنية مزروعة في أدمغتهم، يتجولون داخل المجزّات وشوارد الذرات. نعم، هنينا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص.
لكن أيّ لذة يمكن أن تضاهي لذة المشي حافيا على العشب المبلل بقطر الندى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج؟
هل ستعطي البرامج التي سيضعونها في المستقبل أحسن من هذه الأحاسيس والمشاعر وما على الأجيال المقبلة من الرحالة إلا التفرّ؟
لينقروا ما طاب لهم من النقر، لما أنا فاقصل الأصل على صورته، ولو كانت أحسن من الأصل.
الأصل؟ للصوّر؟ وهل لهذا العالم أصلا أصلًا، أم أن له ما لا يحصى من الصوّر و"الأصل" نفسه واحدة من بينها.

أو كيف أن كل نموذج للعالم يطرح من المشاكل أكثر مما يحل

مواصلة لخريشة طفل منفي في آخر صفت في القسم.
العالم مكون إذن من فضاء تصنعه الحواس الخمس وسمينه فضاء الحواس... وفضاء تصنعه اللغة وسمينه فضاء الأفكار... وفضاء تصنعه المخيلة وسمينه فضاء الخيال... وفضاء تصنعه طاقة أداة أخرى للذهن هي الحساب وسمينه الفضاء الافتراضي.

هذه الفضاءات الأربع هي في هذا النموذج الهيكل الأساسي للعالم لكنها ليست مثل غرف البيت بحدودها الثابتة ومساحتها المنفصلة فتمازج فضاءات العالم والمبدلات التي لا تتوقف بينها شرط وجودها وفعاليتها. هي مثل ألوان قوس قزح التي لا يوجد النور بدونها.
الخاصية المشتركة الأساسية أنها كلها من صنع الذات أي من صنع حواسها وأفكارها ومزاجها وأعمالها.

اعتبر الفضاء الافتراضي. مما هو مكون؟

له ظاهر هو ملايين الحواسيب وشبكات الربط بينها التي نراها على سطح الأرض والتي تختبئ في أعماق المحيط، أضف مراكز البحث وتمويلها وأماكن خزن المعطيات وشركت حمايتها، الخ .

لكن لهذا الفضاء باطن هو الحراك الذهني الذي لا يتوقف لحظة لخلق وتخزين وتبادل واثراء المعطيات التي تشكله.

بنفس الكيفية يحق لنا الحديث عن فضاء الأفكار بما هو ظاهر يتمثل في المكتبات والمطابع وشبكات التوزيع، الخ، وباطن أي جملة المعطيات التي تحفظها وتثريها اللغة ووراء هذه المعطيات حراك طاقة ذهنية جبارة اسمها الفكر لا يتوقف لحظة عن محاولة فهم العالم والسيطرة عليه.

كذلك الأمر مع فضاء الخيال. هو ظاهر تجد فيه ورشات لرسم وقاعات السينما واستوديوهات التلفزيونات الخ، وباطن هو المعطيات الجديدة التي تبلورها مخيلة ما لا يحصى ولا يعد من الفاعلين وكلها تعيد تصنيع تلك التي ترصدها الحواس الست بغية مواصلة خلق عالم يبدو كأنه ما زال في تجاربه الأولى.

غني عن القول أن الفضاء الحسي ليس فقط الامتداد والفراغ الذي نتحرك فيه والذي يشكل ظاهره وإنما هو بلطنه نشاط الحواس الخمس عندما تبلور لنا المشاهد ولروائح والأصوات والأذواق وأحاسيس الحرّ والقرّ التي بدونها لا وجود للعالم الذي نعرف.

هذا العلم بفضاءاته الأربعة ليس معطى وإنما مشروع متواصل الصنع وإن بتكلفة متباينة حسب نوعية الفضاء.

نحن نحتاج حقا لجهود ذهني يتطلبه التفكير والتخيل والحساب لبناء وتعهد الفضاء الفكري والخيالي والافتراضي.

لكن أين ما تلقى في هذه الفضاءات الثلاث من مقاومة وما نواجه من صعوبات بالمقارنة مع الموجود منها في الفضاء الحسي.

قد لا تحتاج الذات لبلورة صورته عبر الرؤية والشم واللمس والذوق والسمع إلا للطاقة التي يحتاجها الدماغ لتقوم الحواس الخمس بأعمالها على أحسن وجه.

لكن الطاقة التي تحتاجها لهندسة الفضاء الذي بلورته هذه الحواس هائلة التكلفة.

تخيل لحظة تكلفة حرث الحقول وجني الحصاد وقطع الغابات وحفر المناجم وبناء المدن والموانئ والمصانع والمطارات ناهيك عن تكلفة بناء الأهرامات والقاطرات والسيارات والحفارات والغواصات والطائرات والسفن الخ ... أي كل ما يعطي للفضاء الحسي شكله الذي نعرف في عصرنا هذا.

أخيرا وليس آخرا ، العالم مصنوع أيضا من مزاج الذات أي من حالات حسية شعورية تمرّ بها تنقلها من الاحتفاء والفرح والأمل والحمد إلى الانكسار والحزن واليأس واللعن.

ألا نجرّب عند الاكتئاب أن العالم يفقد كلّ مذاق وحين نرقص طربا تراقصنا السماء والأرض!

والآن إلى المشاكل العويصة التي يطرحها نمونجنا هذا .

اعتبر الفضاء الحسي الذي يرتحل فيه زيد. يمكن ألا يتجاوز قطره الاربعون كيلومتر انطلاقا من مكان الوصول. داخل هذه المساحة التي يتحرك فيها الأغلبية الساحقة للأمينيين، يولد المرء وينمو ويتزوج ويخلف ثم يموت لا فكرة واضحة لديه عما يوجد خارج حدود قاهرة رسمتها له الضروريات والصدف لم يتجاسر على تخطيها نتيجة الخوف أو الكسل.

خذ الآن الفضاء الحسي لعمر وقد مكّنه حسن الطالع من أن يزرع الأرض طولا وعرضا وحتى أن يطلع للمحطة الفضائية الدولية. بين هاتين الحالتين القصويين تجد الطيف الهائل للحالات التي يتخذها الفضاء الحسي كما وكيفا في رحلة هذا الأدمي أو ذاك.

شتان أيضا بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه أفكار السحرة وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم، بين الذي يرتحل في عالم دعاملته " فكريات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتكز عالمه على " فكريات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

ألا يعني هذا أن العالم عوالم بعدد الذوات التي تبلوره ويتبلور فيها ولا نتحدث عن عوالم ما لا يحصى ولا يعد من الكائنات الحية التي تقاسمنا الفضاء الحسي .. التي

انقرضت..! التي سترى النور بعد ملايين السنين... التي قد توجد على كواكب أخرى في الفضاء اللامتناهي.

أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جديفة كل محاولة في هذا الاتجاه؟
وحده كائن كامل وأزلي كالذي تشير إليه أديان البشر تحت اسم الله قادر على ادراك كل هذه العوالم ونحن لسنا هذا الكائن. المشكلة أن حتى هذا الكائن موجود كمصطلح من صنع اللغة وخصائصه كلها من صنع الخيال، لا أدل على ذلك من كمية الإيمان المطلوب أي التسليم المطلق بحقيقة تصوراته وكمية العنف الضرورية لفرضه على من ليس مقتنعا.

أخيرا وليس آخرا .

القول بأن العالم معطى حواس/فكر/خيال/ عقل/ أفعال الذات يعني أنه مخلوق من هذه الذات والدليل على ذلك بالنسبة إلى المدافعين عن هذا التصور أن عالمي سيرحل برحيلي وينتهي بنهايتي وأن العالم الأدمي ككل سينتهي يوم يطلق أخر الأدميين أنفاسه كما انقرض علم الديناصورات بانقراض هذا الجنس من الأحياء.

صحيح، لكن هناك التصور المعاكس الذي لا تنقصه الحجج هو الأخر.

يقول لك الموضوعيون الماديون المؤمنون إذا كان العالم معطيات حواسي ولغتي وخيالي وأصلي فلماذا لا أستطيع التحكم فيه أفعال به ما أشاء؟ لماذا يقاوم ما أريد مثل الطيران بذراعي أو اختراق الجدران أو العيش قرونا؟ لماذا علي اكتشاف القوانين التي تحركه حتى أستطيع التحكم فيه ولو بعض الشيء؟

أليس هذا الدليل الساطع على وجود واقع مستقل أمنا به أم لم نؤمن؟

يضيفون ألا يعني اختفاء العالم الأدمي نهائيا بموت آخر آدمي وجود شيء كان موجودا قبل هذا العالم اسمه الموت وهو الذي كان له القول الفصل في نهاية الملحمة الأدمية. هذا الموت لم يكن يوما وليد عمل الذهن الأدمي والا لاستطاع التحكم فيه بإغائه أو تأخير وصوله الي نهائية الزمان.

نعم ولكن ...

أليس الموت مصطلح من مصطلحات اللغة الأدمية ينغلق على كم من التصورات منها أنها شيء لا مفر منه وانه موجود قبل كل موجود؟ ماذا لو كانت هذه لتصورات التي هي بداهة من صنع الذهن سطحية أو خاطئة تماما؟ ها نحن ندور في حلقة مفرغة والدوار يزداد في كل دورة .

من تبعت ما سبق: إذا كان العالم معطى حواس/فكر/خيال / أفعال الذات ألا يعني هذا أنه موجود دخلها؟

لكننا نعيش فيه كما لو كان أكبر حاوٍ يحتوي على كل الموجود من المحتويات كالمظاهر الطبيعية والحيوانات والنبات والأشياء والكائنات الأدمية مثلنا. ألا يعني هذا أنه موجود خارج الذات؟

كيف يكون العالم موجودا داخل الذات وخارجها؟
كأننا نقول إن الذات مثل سمكة تسبح في أعماق محيط مترامي الأطراف منغلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماك والأصداف والمرجلن والحشائش... وفي نفس الوقت أن هذا المحيط موجود بكل ما يحتوي في جوف هذه السمكة !!!

**

الكتاب الثالث الطريق

قال أرجونا: إنني أتحرق شوقاً لرؤية وجهك المقدس،
إن كنت ترى ذلك ممكناً فارني-يا إله الألهة-ذاتك
الأزلية. فردّ كريشنا: تأملني-يا أرجونا-في أشكلي
القدسية، إنها بالمنات والآلاف نوعا ولونا وشكلا،
تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في
الرياح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في
القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهجفلا جيتا

مقدمة الكتاب الثالث

كي لا تعبر العالم مثل المسائح الثالثه في متحف اللوفر غير مهتم أو واعي بما تنغلغ عليه القاعات والأروقة من روائع، لا بد من تعهد حالة اسمها الانتباه. استمع إلى الشعر بأية لغة. لن تجد في أجمل قصائده شيئاً مهماً إلا وكان انتباهها لغاية العالم، لجماله الأخاذ، لحيرة الأدمي وهو يتأمله يتقاسمه الانتباه والرعب.

"أحصد القمح
(نكاتسوكا)

وفوق ظهري

كل السماء "

من ينتبه غير لشاعر لهذه العلاقة بين الذات والعالم؟

الرسامون هم أيضا من كبار المنتهين. موني Monet، مثلا، وهو يرسم للكائترانية العجوز نفس الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغيّر الطقس وتبدل اتجاه أشعة النور للعودة إلى معالجة الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لون يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين التي أمضى في رسمها سنوات طويلة.

أكبر ما يميّز الشاعر أو الفنان عن بقية خلق الله أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل. حتى تعود اليك انطباعاته البكر، اخرج إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، ككك أنت الذي دوت الطبول تدعوه إلى الترحيب بلرعد. ارصد كل أحاسيسك ومشاعرك وأنت على أشد الواعي بما يجري حولك وداخلك. افتح عينيك كما لم تفتحهما يوما لتتأمل عبر ومضت البرق الخاطفة ما تتخذة جبال المسح السود من غريب الأشكال.

لا تغفل عن متابعة تشكّل نهر من نور يقسم فجأة سقف السماء إلى قسمين. إنها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماعين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا قنطرة فوق شرخ النور.

اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسلل بين الثياب والجلد.

تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات أذق شعيرية.

أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسام جسدها. ادخل أغوارها المظلمة العطشى وهناك في أعماق أصعاقها، أيقظ داخلك ودخلها كل البراعم.

لم يبق إلا رصد كيف تتسلل من بين الروابي السود أشعة الضياء وكيف تعود السماء إلى صمتها على استحيا كأن الزعيق الذي ملئت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمتها العالي. تلمل كيف تخرج الطيور من مخالي لا يعرفها أحد.

لاحظ كيف يتسلق بسرعة خاطفة الفراغ الأزرق قوس من الألوان سرق أفكاره من لون الورد، من لون شغاه النساء، من لون الصحراء، من لون البحار، ومن لون البنفسج.

انظر كيف يرتفع قوس النصر بلا أعمدة، يمشي تحته الأدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلك له وتزغرد.

تعجب كيف يخفتي تدرجيا كلَّ اليد التي رسمته قررت محوه من سيرة السماء لا تريده لسبب مجهول علما ثابتا كالشمس والقمر.

لما تنتبه للشمس تتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس.

لما تنتبه إلى راحة الأرض بعد المطر أو راحة الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرة.

أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه في الذات، أنك أفتت فيه للمرة الثانية.

أن تكون منتبها يعني أيضا أنك تعي فجأة كم من ثراء مخفي وراء المألوف المبتذل وبما وراء الغوضى من نظم وتعقيد.

أهم فضل وخاصية للانتباه تفرغ الذات للحظة العابرة ولحظة العابرة وحدها وقد تخفتت من هموم الماضي وطردت من وعيها كل مخاوف المستقبل.

هكذا هو الانتباه: الحالة التي تستغفر فيها الذات كل وعيها لتكون حاضرة كليا لدى العالم، لكي يكون العالم حاضرا لديها ولا حاجز أخيرا بينهما.

ليس من باب الصدفة أن يسمى مؤسس دين كبير "بوذا" أي المنتبه.

ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكونا من "المستوري" وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم داخل رؤياه.

على الطرف النقيض من هذه الحالة المباركة التبدل.

إنها الحالة التي تجزبها الذات انطفأت داخلها أمام خوارق العالم ومعجزاته الأحاسيس البكر زال التهيب وتبحر التعجب والإعجاب.

"كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)

إلا أن الحياة لا تتذوقها كل الأنفس"

نوريا أشعر بأن التبدل أصبح كبعض الهولجس مزمننا. لا بد من العودة إلى بعض تمارين ترويض النفس على الانتباه التي أحرص عليها حرصا على ترويض الجسد بالجهد والمشى.

على مقعد عمومي ها أنا أتأمل أشجار غابة عبرتها كم من مرة لكنني لم "أرها" أبدا لأننا لا "نرى" إلا عندما نركز على ما ننظر إليه لا يشغل بلنا شاغل.

مما يقال هذه الأيام أن أوراق هذه الأشجار الصلمنة لا تكف عن تبادل الأخبار وأن جذورها لا تتوقف عن تبادل العون.

من أين لي حتى ولو شحذت أقصى ما لدي من انتباه سماع تفاوض الجذور والفطريات حول أحسن السبل لاستغلال الثرى في صالح الطرفين.

فجأة يتسمر البصر على ورقة انفصلت لثراها عن غصن شجرة البلوط يتابعها وهي تتهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مفز.

ترى كيف هي سكرات الموت عند أوراق الشجر؟

ها هي معلقة في الهواء كأن خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم.

تنفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عبث فإذا بها تلف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تندافع كالعصافير أطلق عليها الصياد وابل الرصاص.

هي لا تتسلق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إلي كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودع.

تحط بهدوء على حذائي فأخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس.

ما زالت صفرتها مشوية ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جيبتي ثم أغير الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتغنة السوداء التي فقدت قيلها وقيلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء:

قدر الحياة التغذي بالموت وقدر الموت التغذي بالحياة.

فجأة يتحول الوعي ليركز على زقزقة عصفور مختبئ داخل أشجار لا يرصده البصر. مما أصبح معروفا لأهل الذكر المختصين في العصافير أن هذه الزقزقة اللطيفة التي يتغنى بها الشعراء والعشاق هي إما دعوة للجماع أو تهديد للذكر بأن يبقى خارج حدود الويل له إن تخطاها.

تهديد؟ إذن هذا المشهد الرومنطيقي يخفي وراءه واقعا لا يمت بصلة لما يراه أو يتخيل رؤيته الشعراء والعشاق!

عندما تتوقف فجأة والانتباه على أقصاه لتتظر للعالم، أنت لست مجرد كاميرا عالية الجودة تسجل بأكثر دقة معطيات ما نسميه الواقع. أنت تحت وقع وعي مفاجئ بأن أهم شيء موجود وراء هذا الذي يرصده البصر وأنه صندوق أسود من الغرائب والعجائب التي يمكنك أن تقضي العمر في البحث فيها ولا تستنفدها أبدا.

تلسعني بعوضة فأمنع يدي من رد الاعتداء والذهن مشغول بتخيل الكائنات الحية البالغة لاصغر التي تختبئ تحت قدمي. مما يقوله عنها أهل الذكر من المختصين بدراسة السننيمترات القليلة التي تشكل ما نسميه التربة أنها أجناس أنها لا تحصى ولا تعد، منها التي ترى بالعين المجردة ومنها التي تحتاج لعدسة مكبرة، أنها تتبارى غرابية وتبلينا وتعقيدها، أنها في حرب لا تتوقف وكل من يتحرك تحت الأوراق الميتة أكل ومأكول، طريدة وصياد... بالضبط كما هو الحال في كل المستويات المرئية من العالم من سماء وبر وبحر.

أفتح العينين أسراع بالعودة للمألوف المطمئن منتبها لكوني أتجنى أكثر من اللازم على

" الروتين " الذي أدعي أنه أخشى ما يجب أن يخشاه كل مرتحل. ماذا لو كانت هناك ضرورة قاهرة وحتى حكمة في التبدل!

أنت لا تنخذ عضلة لتتقيض المرة تلو الأخرى لا تترك لها وقتاً كافياً للارتخاء إلا وأنت لحظة تضرب فيها العضلة عن الرد احتجاجاً على كثرة الوخز.

أليست حدّة الأحاسيس والمشاعر وكثرة المعلومات منهكة للروح والجسد؟ نحن لا نستطيع البقاء طوال الرحلة فاغرين أفواهنا دهشة أمام مظاهرالعالم في حالة أشبه ما تكون بالتعبّد.

لكن أي قيمة للرحلة إن لم تتوقف بين الحينة والأخرى لنعي كم عجيب وغريب وجودنا مستشعرين لحظة كم من خوارق ومعجزات تحاصرنا من كل الجهات!

محكوم على الرحلة إنن أن يكون لها نبض كنبض القلب. انتباه فتبدل فانتباه فتبدل وذلك إلى نهاية الطريق.

لا يبق لنا في هذه الحالة غير إعادة صياغة دعاء فاتحة الحياة. يا من تتوجّه له كل الصلوات، اجعلنا منتبهين إن لم يكن كل زمن الرحلة فعلى الأقلّ أغلبه.

**

العالم بما هو الحاوي الأكبر

في أقدم ملفات استكشاف الفضاء الحسي تقول "م" للطفل، تغريه بالطريق:
- نسيت أنك ولدت هناك حتى وإن كبرت في هذه الصحراء الملعونة؟ نعم هناك بعيدا نحو الشمال توجد أرض مباركة كم ستحب الاختفاء داخل أعشابها العلية.
في هذا الملفت ينتبه الطفل للفرق الهائل بين الصحراء والسهل وكيف أن الله فرش على أرض الأخوال بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرا.
ها هو يركض على البساط الأخضر متقطع الأنفاس يصرخ راقصا لاسبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع واللامتخيل.
صورة أخرى له وهو ينفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا عن كائن صغير يلعب به غير عابى بتطفله على كائنات ملئت الطفوليين أمثاله.
يتقطن سريعا لمعزة جديدة: قطرة ندى مكورة شفاقة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد التأنى يدفعه باتجاهها عله ينجح، على صغر حجمها في التقاطها بذباية اللسان.
لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجرح للعشب. ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ برعيه بفمه كما رأى الخرفان والبقر تفعل ليصق بسرعة ما في فمه مقرّرا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر.
يأتيه أخيرا ألدّ إرهاب فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنصوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الدقائق والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم فاض بالخوارق والمعجزات أن سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تنساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقه في كل عمر وفي كل حقل، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض.
كالعادة تتدافع أسئلة التي لا يجد لها جوابا: أين يفترّ السحاب، هل من وسيلة ليجلس فوقه يأمره بحمله إلى حيث يريد؟
شينا فشيئا يتسلل الهدوء إليه فتثقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية أم وجدة تتحركان بقلق بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.
يتردد صدى صوت لم تتس الذكرة أبدا نبرة الحزن فيه.
- أرض جدتك يمشي فيها المرء أيلما بين حقول البرتقال والزيتون والعنب إلى أن ينتهي به المطاف إلى البحر. أه البحر! يا إلهي، كم ينقصني هو الآخر! كم كنت أحب الذهاب إليه طفلة مع جدتك وخالتك حميدية لغسل الصوف بداية كل خريف!

يسترجع الكهل أول لقاء الطفل مع البعير المبهر المرعب وهو يتقّم بخطى حذرة نحو الموج بين فضول جارف وخوف مبهّم.

تلك الليلة -وقد أصبحت العائلة تسكن على مرمى حجر منه- سألت "م" ابنها ألا يبخل عليها بتفاصيل تعرّفه على البحر الذي قاده إليه "ب" بنفسه.

فتح الطفل ذراعيه علّه يبلّغ كم هو عريض هذا البحر، كم هو متّسع، كم هو ملآن بالماء... فسقطت الذراعن والعجز هو الشعور. من أين له الكلمات لوصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدها سوى الأفق؟ كيف يصف هيبة دويّ البحر وأمواجه بين مدّ وجزر؟ كيف يتقع الأم أنه رأى بأب عينيه سقوط الشمس شيئا فشيئا بين أحضانه ثم اختفائها فيه!

كم يكره أن تظنه "م" مبالغاً أو كذّاباً!

تلك الليلة أب الطفل إلى مخدعه يتساءل هل سيلفظ البحر الشمس مجدداً أم هل سيحتفظ بها نهائياً فتغدو كل أيامه ليالي بأشباح وكوابيس.

من الغد تُواجهه أمه برعب ابتسامتها العادية وهو يؤكّد لها، أنه اكتشف أين تذهب لشمس عند المغيب ولماذا تبدو لامعة نظيفة كل صباح.

تتعمق القناعه عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلّق الأمر بالبحر.

يتجدّد اللقاء بين العاشق والمعشوق والطفل يكتشف لذة العوم في موج هادئ أيام الصيف وكم رائع أن يحرك جسده وسط المياه الشفافة في الاتجاه الذي يريد كما لو كان هو الآخر سمكة جاهلاً أن الأسماك خلافاً للبشر لا تموت غرقاً.

ذلك الصباح المشؤوم والعطلة الصيفية في آخر أيامها يغافل الطفل المتهور أمه مصراً على مواصلة التمتع إلى آخر لحظة بالبحر رغم رداءة الطقس وخلو الشاطئ من رفاق اللعب.

يلقي الطفل بجسده النحيل وسط أمواج صاخبة قليلة الرفق على غير ما تعود.

ما هي إلا دقائق معدودات إلا وهو يشعر أنه لم يعد يقوى على إبقاء راسه فوق السطح، أنه يختنق بالماء المالح، أن البحر بصدد ابتلاعه.

يتعالى منه الصراخ النجدة! النجدة!

تلك اليوم شاء حسن طالعه وجود رجل يجيد السباحة في المكان الضروري واللحظة الواجبة انتشلته من أهداق البحر يرتجف برداً وخوفاً ويسعل كما لم ولن يسعل فيما بقي له من العمر.

هكذا تواصلت القصة التي اكتب وكان بوسعها أن تنتهي بخبر في بعض الصحف الشعبية من نوع "عزّ ق" طفل في التاسعة في شاطئ حمام الأنف، أمه تغلق باب البيت على نفسها منذ أيام ترفض تسليم جثة ابنها للدفن".

كم من قصص انتهت عند أولى صفحات كتاب واعد... وأخرى عند أولى الجمل... وبعضها انتهت أوراها بيضاء والكااتب مات قبل أن لم يخطّ عليها حرفاً واحداً.

منذ ذلك اليوم وفربيا البحر سلكنة في وعي ولا وعي الطفل والكهل والقرار ملخوذ أنه لا عودة أبدا للبعبع المخيف لا سباحة ولا سباحة.

حقًا! ما أكثر الوعود التي نأخذ وما أقل التي نلتزم بها. خاصية أساسية للعالم أليس قناع البحار أو الجبال أو الصحاري أو القطبين أو الفضاء اللامتناهي: إغراء الذي لا يقاوم.

هكذا تسارع الأدميون إلى أخطر حالاته وأشكاله يرتمون في أحضانه جاهلين أو متجاهلين أن ضمة الحبيب مثل جماع انثى حشرة يسمونها فرس النبي والمعشوقة تلتهم رأس عاشقها جمعة بين لذة الأكل ومتعة الجنس.

أخيرا عرض المحيط غلب شوقي إلى أروع مظاهر العالم أعمق المخاوف.

يحدثك الأقارب بتَهَيَّبٍ وَّجَلٍ عن عواصف بحر كانت تذهب لها الطفلة “م” مع جدتي لغسل الصوف. أي رعب مقسّم كان سيدهمهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا المحيط الذين يسمونه لسبب عجيب... بالهادئ!

تبدأ السفينة الصغيرة تسلق جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع ذلك لأن الخاصية المميّزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكفّ عن الصعود والهبوط.

لمن لا يقدر أهمية هذه الملاحظة الثاقبة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، يغور به فجأة نحو أول حفرة ثم يغير رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه ليعود به اللعين إلى مستوى الأرض المنبسطة، يواصل مساره كلن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه. النتيجة أنك ستترنل منه أملم بيتك تترنح فيصيفك الجيران بعريبد وضح النهار.

هل تقدر كم أنت محظوظ والطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحية دوار البرّ والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمّله أي مسافر.

يتسارع الطلوع والهبوط وتتسارع إلى الذهن المتزايد قلعا أن قاع البحار لم يتوقف منذ آلاف السنين عن استقبال حطام ما لا يحصى ولا يعدّ من سفن الأدميين... وأنه مستعدّ لإيواء حطام آخر ليس له مشكلة اكتظاظ.

يحتدّ الدوّار والغثيان. تتحرك السوائل المشبوهة تريد التقجّر من الفم قبنا كريها.

تائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تدخلني لدى سميك السائل! اللعنة، ما الذي أتى بي إلى مثل هذا المكان المرعب وأي معنى لوجود بدوي في عرض المحيط؟

أنا الآن الطريدة والبحر الصياد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظفره لسائلة.

أية قيمة لسترة النجاة التي اليسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية هذه السفينة السياحية للصغيرة رأسا على عقب؟

تنصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

لا يبقى عليّ إلا أن أغضض العينين وأن افن رأسي بين ذراعي مستسلما لأفكار تتدافع في فوضاها المعتادة.

أن يخرج حائون من ثبّت قرطاج إلى حراك البحر مرّة واحدة أمر قد يكون مفهوماً. أن يعود إليه مرّة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمنمن! نسي عرق الرقيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربنا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُجّي من ذاكرته كل ما عانى، عاندا للغول بل وبمحض إرادته! لو كنت مكلته لأدرت ظهري للموج والزيد من أول تجربة، ولركضت إلى أبعد نقطة، أحتمي من البحر بالجبال وبالبراري.

لله دز فرسان الريح والموج الذين ركبوا ظهر هذا الحصان الجامح الأجيال وراء الأجيال لا يثنّهم كم من مرّة لقي بهم في غياهب اليمّ. حقا إن شجاعتهم لضرب من التهوّز أو الجنون! لم تكفيهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البيع المخيف، وحتى لمواصله حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟ ... ومع هذا... ومع هذا... فضل البحر على البشر لا مثيل له وهو يثير فيهم أكثر الأحاسيس والمشاعر حدة وعمقا ورهافة وتتوعا وهو يستنفر فيهم أقصى طاقات التحمل والصبر وهم يواجهون التحديات التي يختبرهم بها بشدّة كل ما في جعبتهم من مهارات، من نكاه، من فضول لا يقاوم ومن جراءة لا تتراجع أمام كل ما في جعبة هذا العالم من مهالك وأخطار.

عاد إليه حائون كما عدوا كلهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تساوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح... ربما عاد لأنه لم يرّ أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف روعة أروع من سطح البحر ليلا عندما يوشحه طلوع القمر بنهر من النور.

الملاعين المحظوظين، عرفوا أروع وأخطر وجه العالم... اخترقوا البحار والمحيطات لا خارطة ولا بوصلة، عرضا وطولا على مراكب بدائية ولم يتركوا لي إلا هذه الباخرة السياحية المجهزة بكل وسائل الراحة.

كأنني بأشباح ترغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتّ عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلتنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تانهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شدت من انبهارنا البكر.

ليس من الصعب القول بأن البحر هو أيضا صحراء، لكن من الماء لا من الرمل ويدؤه الدلايق والسلاحف وكل أجناس السمك والحوت. هم أيضا يرحلون هم أيضا بحثا عن واحات مبعثرة في كل هذه الشساعة المرعبة يجدون فيها الكلال والمرعى وجماعا يُجدّد الحياة. ما يقال أيضا إن هذه الواحات حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كانتات تتبارى في الغرابة والإعجاز تتنازع فيها لا فترة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان... أو ما تعيش من أحداث وما تتبادل بينها من أخبار نثرا وشعرا .

الحيوانات لا تقول الشعر؟ ألم تسجل الميكروفونات المزروعة في أعماق المحيط لتصيد غواصات العدو وجود سجع في ثرثرة بني موبيديك؟ ربما يوجد بين هاواي وألاسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء المحيط الهادي بيمونه "أبو الطيب الحوتي"؟
ومما عاد به الرحالة الذين استكشفوا البحار على السطح وفي الأعماق التي وصلوها ، إن الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض. قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة يزدرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك.
تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها، لبتلعها في طباق أعمق الأخطبوط العملاق. وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسه بين فكي الحوت الخرافي لا يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصيد الأسمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إرتبا إربا.

فجأة تصرخ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تملأ كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

آه، الحوت الذي ركبت هذه السفينة الصغيرة علي أظفر منه بنظرة هو الذي يسكن جزءا كبيرا من فضاء خيالي منذ قرأت له رحلته في هذا العالم تحت اسم موبيديك.
أرفع رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرجه من بين ذراعين أغلقا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا صعوداً وهبوط.

تعود المرأة إلى الصُراخ الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان!
كُفي عن الزعيق لوجه هرمان ملليل. نعم، لقد رأيت الذيل الجبار في خيالي بعد أن أفرغت كل ما في معدتي على فستان عجوزٍ أخرى أشبعنتني نظرات ساخطة.
ألبيت هذه السفرة أحسن رمز لرحلة الحياة بما هي مغامرة طمّشة على أمواج هانجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحة أشدّاقها لالتهامنا كل لحظة غير قسمة طافية نركبها ونحن لا نتوقف عن التخاصم فوقها نثقياً على بعضنا البعض؟

أخيراً المرفأ انتهت السفرة العينية التي دفعت فيها ثمننا باهظاً لأقضي يوماً من أنقل وأغبي ما عرفت من الأيام. أخرج من السفينة الصغيرة أمشي على الرصيف وكأني خارج لتوي من الحانات التي يتهمني أغبي خصومي زورا وبهتناً أنني من روادها بل حتى من ساكنيها.

لا تصنق أبداً من يتشذقون بنصف حقيقة تدعي "أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن" فالرياح تجري أيضاً بما تشتهي السفن وإلا كيف كنا نرتحل في عالم بنينا على ضفاف بحاره كم من موانئ نغدرها ونعود إليها بيننا وبين أشداق الموت سننيمترات من الخشب أو الصلب!

أدير الظهر للبحر وقد أخذ القرار. نعم لن أعود له ما حبيب حتى ولو كانت السفن التي تدخله قلرة على الخروج منه بسلام.
ما أكثر القرارات التي نأخذها وتتكلل الحياة بالسخرية منها.

ها أنا مجددا بعد عقود في جوف سفينة صغيرة أقاوم نفس الدوار والغثيان والبحر الهائج يعيث بالسفينة عيث القطب بالفأر قبل التهامه. هذه المرة السفرة ليست سياحة برينة وإنما مغامرة قد لا تحمد عقباها والحرب برآ وبحرا على قدم وساق.

والليل في آخر ساعاته يتعالى الصراخ من البحارة لسويديين وهم يقاومون بأيديهم العارية وحدات عسكرية مدججة بالسلاح هاجمت السفينة واستولت عليها في عملية مسرحية خاطفة كالتي لا تراها إلا في الأفلام الرديئة.

مرة أخرى الطريدة والبحر الصياد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظفاره. أي قيمة لستره النجاة التي اليسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية السفينة الصغيرة فما بالك أن يطلق عليّ وإبل من الرصاص كما حدث لبعض من سبقوني في مثل هذه المغامرة؟ ليس صحيحا أن ما نهرب منه طوال حياتنا لا بد أن يلحقنا يوما ما؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

فجأة يتكبد عليّ رجل ملثم يحمل مدفعا رشاشا ليقول سيدي، لا نريد بك شرا ولو أحببنا لسلمناك للبحرية المصرية التي تنتظر على بعد ميل واحد أن تهديك إياها. سنجرّ السفينة إلى أقرب ميناء ثم نرّحلك إلى حيث تريد.

على متن الطائرة التي وضعتني فيها عنوة أحتقّ طويلا من النفاذة في قوافل السحب متمنعا بشعور الأمان والوحش الرقيق تحتي بما لا يقل عن عشرة آلاف متر. التفت للراكب الجالس بحذوي لأتأكد أنه مشغول بهاتفه النقل ثم أخرج لساني للبحر ولسان الحال يقول أفلت من برائك للمرة الثالثة، لا تعول على فرصة أخرى لمت مثل المجانين الذين يجيئون استقزازك طيلة رحلتهم.

من قال إنني سأفنى بنفس الوعد الذي قطعته على نفسي أكثر من مرة والبحر معلم من أروع معالم هذا العالم؟

نعم سأواصل استكشافه لكن على طريقي الخاصة.

بالمناسبة، من قرّر أن على الأدمي شق الطريق على سطحه؟ أليس من الأسلم المشي على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هانمين على وجوههم آلاف السنين يتبعون لشلطي لا يجيدون عنه إلا اضطرابا، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون؟

نهجا على سنة أوائلنا كرم الله وجوههم وتبيننا بسيرتهم المباركة وانقاعا بحكمتهم وحنكتهم فإنني سألتزم من هنا فصاعدا باستكشاف البحر لكن مشيا على رمل شواطئه. يُسمح لي بملاحظة تهمة كل المرتحلين فاتني التركيز عليها وهي أنه لا أصلح لاستكشاف هذا العلم من المشي.

من مزاياه الكثيرة أنه مجاني وتحت الطلب في أي وقت نشاء، وأنه فرصة للاختلاء بالذات.

لا أتذكر أن فكرة هامة أتتني إلا وأنا لمشي، ولا أن الفوضى التي بدخلي اكتسبت بعض النظام إلا إبان المشي.

ومن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح "المجانبية" وهي أقل إثارة للعدوانية، الغريزية عند البشر. الأهم من هذا كله أنه يعطي للذات المنتبهة الوقت الضروري لرصد بعض ما يحفل به الطريق من عجائب وغرائب. كم كان أو ألتنا محظوظين والعالم يكشف لهم روائعه خطوة بعد خطوة، وهم كمن يتذوقون أفخم مأكبة، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غصوا ببعضها لحيناً.

هكذا سلطوف حول البحر الذي عشت سنينا على ضفائه وتعللي بيدي بنظولني مرفوع إلى الركبة وقدماي في الماء الدافئ إلى الكعب، أملاً عيني من موجه ومن زبده دون حاجة لتذوق طعمه.

يوم أكمل تأملي له من كل الشواطئ التي تحيط به سأشرع في طواف حذر حول الذي يصفونه بالأحمر، ثم كنتي من رحلة الاستكشاف بمحيط أو اثنين نظرا لضيق الوقت وكثرة المعالم الأخرى التي تستأهل التوقف عندها. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبتون، أحمذ من يتوجب له الحمد أنني لسنت الغريق بل وفي مأمن حتى من البلل.

*

يجذبني من ذراعي مُضَيِّفِي ابن المدينة التي تُشرف عليها هضبة طَبَّقَتْ شهرتها الأفاق.

- هيا، ما زال أمامنا بعض الوقت لفسحة قصيرة على النهر.

- لا تستعجل عليّ، لا أكاد أصدق أن بشرا عاديين تجمعوا في هذا المكان بالالاف طيلة ثلاثة عقود لرفع هذه الجبال من الأحجار بأيديهم العارية. يا للمهندس العبقري الذي أمر بالصخور أن تتخذ أشكالا هندسية لا وجود لها في الطبيعة كأنه يريد أن يزايد عليها في فن خلق الجبال.

- الأغرب أن الذين هندسوا وشيدوا هذه المعالم الجبارة التي تتحدى الزمان منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، حملوا كل ما حملوا من جهد، من عناء، من ألم من حوادث مروعة، فقط ليتمتع بعض الفراعة بالخلود أبد الدهر.

ليس الأقرب إلى الحقيقة أن الذين شيدوا هذه المعالم الفخمة الضخمة لم يفعلوا ذلك

إلا لإثبات ذواتهم وسعيًا لخلودهم هم... أما الفرعون فكان مجرد واسطة مهمته ضمان

بركة السماء وخاصة وضع موارد الأرض تحت تصرفهم؟

أرواح ما في هذا المعلم القار من معالم العلم، أنه ككل نهر يحترم نفسه لا وجود فيه لظاهرة مزعجة اسمها دوار النهر.

تأتيني عليه حالة من الارتخاء اللذيذ وأنا أستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نعبّر الحياة: جلوسا على كرسي مريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء، نتأمل من بعيد -وفي أمان- رواع العالم وفضائاته.

يقطع علي صوت الرجل انتباها ممتعا.

- هيا يا صاحبي، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.

- كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوّره بهذا العرض!

- لهذا تسميه اللهجة العامية "البحر". أهم تحدّ طرحه على أجدادنا طيلة مئات آلاف السنين عرضه هذا. تصوّر كم منهم وقفوا حائرين أمامه تتعقّبهم الكواسر، وهم لم يأخذوا بعد دروسا في السباحة. حتث ولا تسل عن طوله وكم أرق أكبر المغامرين وهم يبحثون عن منبعه.

- المنبع! لماذا لا تدير اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول مرة، فلماذا لا نعتنم سماحته. نعم، لنركب ظهر هذا الحمار الوديع ليحملنا إلى حيث وُلد وولدت معه حضارتكم.

من أين يأتي كل هذا الماء؟ قد يكون هذا السؤال الذي أوحى به النهر أب أسئلة من أين أتى الأدمي، من أين أتى العلم، من أين أتى الزمان؟.. ثم ليس النهر من أوحى لنا بتصوّراتنا الأكثر انتشارا عن هذا الزمان، وأنه هو الآخر يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، لا قدرة لأحد على تثبيته أو جعله يدير مساره عودة إلى المنبع.

يمازحني مضيقتي:

- أخشى أن نتأخّر كثيرا على العشاء فتزعل "الولية مراتي". كل ما أستطيع توفيره لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. ثم يبدو أنك تتوسّم الكثير من الخير بخصوص هذا النهر.

- رحمك، اترك لي بعض الأوهام.

- تتدكّر أن الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزؤه العجوز. كأنّ ركض آلاف الأميال امتصّ منه كل حيويته. هذا النهر شيء جد مختلف هو يتشكّل في رحم المجهول.

- نهر مؤدب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسالم لا يريد بنا أبسط ازعاج.

- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحركّ وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.

- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلّت لنفسي: أخيرا وجدتّ الجزء الآمن من الطريق وتقول لي: لا شيء من هذا القليل موجود. حرام عليك. طيّب، ماذا سنفعل الآن بالآدميين في بحثهم عن المنبع وقد توقّف بهم النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحب من البعوض، تترصدهم تحته التماسيح وعلى سفته ينتظرهم البشر أخطر الكواسر.

- لا خيار لهم سوى أن يسبحوا بأقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظرهم أسد فارغ المعدة نافذ الصبر، وإن نجوا بجلدهم، عليهم مواصلة التوجه نحو المجهول.

- يا رجل، رحمةً بالمساكين! اختصر. ما الذي حصل للمغامرين الأشاوس وهم يواصلون بحثهم عن أصل الشيء؟

- ضاعوا في ألف اتجاه. لكنهم لم يكفوا عن التردد: ما هي إلا بضعة آلاف من السنين قبل أن نكتشف هذا المنبع اللعين، ماذا يظن نفسه هذا النهر؟

- لا تقل لي أن الرواد لم يفكوا اللغز ولم يكشفوا السر؟

- بلى، كتبت عشرات الكتب في الموضوع وتم منذ قرن تقريبا اكتشاف المنبع بعد ما لا تتخيل من مغامرات.

- الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا في البلد الذي هربتُ منه أخذ المترو كل صباح لأسمع تقاهات الناس يصرخون في نعالهم!

كانني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبيغ عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم خفيضة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري والمستنقعات والأدغال لا نعرف لها بداية ولا نهاية، تكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

أعود لممازحة مضيف كريم.

- لا تُطيل، يقال إنه ينبع من... اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟

- بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. يُقال إنها الخزان الرئيسي لكل ما يصلنا من مياه. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قطعة "البوزل".

- متأكد أن كل القطع جُمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق أنه يحزم أمرا كهذا.

- ثمة صور اللقطات من الفضاء وكم من برهن آخر.

- طيب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به البحيرة الأم وما تفرع عنها من بحيرات لتلد نهرك المقدس؟

- من قم شامخة مكللة بالثلج أصبحت خرائطها معروفة ومؤتفة.

- وقبل ذلك.

- ماذا تقصد؟

- فهمتني، أين كان ماء تلوج قم الجبال؟

يضحك مرافقي.

- في السحب طبعاً.

- وقبل تجمعه في السحب، من أي بحر تظن أنه انطلق؟

- تُصوّر صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.

- إذن أنت تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوماً منبع هذا النهر ولا أي نهر آخر. محكوم علينا أن نجعل دوماً بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولد من الأسئلة.

والآن رحماك، بعد شهوة المنابع جاءتني شهوة المصب. هذا أمر تقدر عليه والبحر الحقيقي ليس بعيدا وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس النهر في طباع هذا النهر شيء يذكّرني بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي المسمّى "أوكافانقو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل من وثقوا أنه يعرف طريق البحر.

- لست متأكدا أنه مستعجل للذوبان والتلاشي في مياهه. ألم تر على الخريطة حبه للتعرّج واللفت والدوران. هل رأيت يوما نهرا يرسم لمساره خطأ مستقيما؟
- طيب، لننّبع بتعاريجه. ما زال أماننا بعض الوقت حتى وإن كنت غير مستعجل لرؤية البحر لأسباب ربما أشرحها لك يوما.
- أمله هو كل الوقت وقد قل فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلى الإسراع إلى البيت. مؤكّد أن "الولية" تفر من الغيظ أمام أكل برد منذ ساعات.
" هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)

ميجات كل العصور

راحل أبدا باتجاه الشمال

هو النيل

يعبر هذي التخوم... وتلك البحار

وذاك الغمام... وحدّ الخيال

يسافر في اللانهايات

ويبقى على شفتيه السؤال

عن نخلة يتناهى إليها المساء ويطلع منها الصباح

وعن تعب غامر يتسقى به الطهر فوق الحقول الفساح"

*

يعترضني قبل دخول الطائرة شرطي آخر ليمطرنى بأسئلة غريبة وهو يقبل أوراق الجواز:

ما سبب سفرك لحرّيتستان؟ زرت قعستان وفسدستان وقبحستان وإرهابستان. ونفقستان أيضا! ماذا فعلت في هذه البلدان؟

كنت كمن يسمع الأسئلة التي لا يريد الجهر بها: لماذا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك لأسباب مخالفة للقذون؟ التأشير حقيقة أم مزيفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكد أنك لا تحمل فيروسات أو قنابل؟ من تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل تنوي قلب نظام الحكم في بلادي؟ هل أنت إرهابي، هل تصلي؟ هل ستخطف الطائرة؟ هل تحمل مخدرات في مخرجك؟

يتجدد الاستجواب في مطار الوصول. يُطيل الشرطية تفحص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحقّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما بهمّ هذه المرأة بدهاءة تقديرٍ مدى خطورتني على أمن شعبها ووطنها المقدّى. من حسن طالعي أن هذه المرأة لا تقرأ في الأذهان. لو علمت من هذا المائل أمام سلطتها البيروقراطية المطلقة لقادنتني مباشرة لعرفة الإيقاف بتهمته التلمر على الوضع الفكري - السياسي -الروحي للبشرية جمعاء. تتوجّه إليّ الموظفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليبا وتمعنا. - انتظر...

لم تكن الرحلة يوما سهلة على أحد وذلك منذ غابر الزمان . كان رحالة العصور القديمة عندما ينزلون بشاطئٍ مقفر دفعتمهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفنهم. كانوا ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر أميون أكثر منهم خوفا يقربون من بضاعتهم يقلبونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يختفون بذورهم ليعودوا يوما -إن عادوا-بأغلى ما يملكون يبيغون. هكذا كانت تبدأ أولى علاقات التبادل وطفوس حقن الدماء.

بلكاد تغيّرت هذه الطفوس والحذر الخائف من الشبيه المختلف هو العنصر القارّ الثابت في العلاقات بين البشر.

تعود الشرطية بالجواز بعد دقائق بالغة الطول والثقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة:

- تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه، لعلنا نحتاجك في أمر ما.

أخيرا أبعد نقطة في شمال الفضاء الحسي، جنّتها متعللا بالبحث عن العلم والحال أنني لم أقصدها إلا للضياع في غاباتها.

أتوجّه لرفيقة المقطع الجديد من الطريق مداعبا ومستقرا ونحن ندخل قريباها .

- من الظلم أن تتمتعوا وحكم بمثل هذه الغابات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري القاحلة. بدأت أخطط للغزو والنصر المبين. لكن كيف لجمالنا التي لا تعرف السباحة عبور هذا المحيط الذي حفرتموه من الواضح تحسبا لغزونا؟

فجأة أصرخ بشنائم من حسن الحظّ أنّ مرافقتي لا تفهم كلماتها.

- ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتفخت يدي!

- حذار، هذا الذي نقتّ أنيابه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دما. ألا زلت مصرا على غزوا غاباتها؟

- يا بنت الحلال، كنت أمزح. قل لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟

- إنه حشرة كلّفت شعبنا من الموتى ما لم يكلفنا أصحاب الأرض الأصليين. أقدم لك البعوض الأكبر ونسميه "المارنجوان".

- بعوض! تسمون هذا الغيل الطائر بعوضاً؟ طمئنيني. هل النزل محمي ببطاريات صواريخ مضادة ل... ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغاية مجدداً إلا مسلحاً ببندقية، أو لايسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى. سأحتج على وكالات الأسفار. ما هذا العش؟ من تصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجنة والحل أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش بأنياب تقطر دماً على نصف البطاقة -على الأقل- ليعلم الجميع ما الذي ينتظرهم. إنها عملية تحايل موصوفة.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء.

- لا تعجل بالانتهام واللوم. كل ما هناك أنك أتيت في قرية انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.

- تقصدين أنه انتظرني حولاً كاملاً وأنه ترصد قذومي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم.

إنه عالم رائع حقاً، لكن لا موطئ قدم فيه إلا وحولك كائن يندش أو يقضم أو بعض، وإن لم يجد ما يمتصه منك، أصدر طنيناً مزعجاً فقط للزعاج.

تهمس المرأة في أذن رجل قادم من صحاري ما وراء البحار وضعت الصدفة على طريقها ووضعها الأقدار على طريقه:

-كفاك تثلل هذا الشلال.

ترفع من صوتها، تهز الحالم اليقظان من كنفه:

- تعال؛ مضى من النهار نصفه وثمة أملن عدة أريدك ان تراها.

- لن أتحرك من هنا حتى...

- حتى مانا؟

- حتى ينتهي تنفق هذا الماء. لا أصبّق أنه سيسبل دون توقف.. اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه.

تضحك رقيقة الطريق إلى أن ينهمر الماء من عيني بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.

- لن تموت من العطش فترة الانتظار... جوعاً بلتأكيد. لا تقلق الماء في هذا البلد متوفر في كل مكان، وعلى كل الأشكال وله كل الأصوات، تعال الآن.

وفي أقدم ملفات الذاكرة عن أولى العلاقات بالماء.

زأرت العاصفة أم لم تزأر يجب أن يخرج الطفل لأحب أملن الواحة. يصرخ في أمه محتجاً، مهدداً، مبتزاً ومتوسلاً

- أريد أن أذهب للعين حالا... حالا... الآن... الآن أريد السباحة في العين مع اصحابي.

- نعم سنذهب للعين بعد سكون الريح شريطة أن تعدي أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.

- وهل يجب أن أقبل الماء كما تفعلين عندما تلتصين الخبز قبل أكله؟

بتعمق ريع الإبتسامة تنفجر "ما ضاحكة إلى أن تسعل:

- حقا أنت؟ حلوف؟ كبير، لا يفوتك شيء. لا، ليس عليك أن تقبل الماء، أكرمه فقط بعدم تمييزه. انظر ما يتكلف جدك حمد وحمارة عنتر من عنت ليكون هناك دوما في القرية والجرة ما تشرب.

تهزني مرافقتي من كفتي مرة أخرى وبها نفاذ صبر لا تخفيه.

تعال، ثمة أماكن أخرى أريدك أن تراها.

- لنبحث عن أصغر جدول وتحملني صمتي وجلوسي عنده ساعت. حتى الموسيقى لا تطربني مثل ما يطربني خريير الماء. أليس صاحب أروع الأصوات وهو زمجرة للشلل، رقرقة الجدول الشادي، صرير الثلج تحت الأقدام، نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم!... هل لنوات التي تتطلق من البيئو غير محاولة لتقليد موسيقاه؟... يقولون إنه بلا طعم ولا أطيب من مذاقه عندما يجف الطق ويصل أوجه عذاب العطش... يقولون أنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان... يقولون إنه بلا شكل، هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء... يقولون إنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشم.

الأهم من كل هذا أنه الذي خلق الله منه كل شيء حي وأنه القدوة التي لا تضاهيها قنوة

وشاهدت كيف النهر بينل ماءه فلا بيتغي شكرا ولا يدعي فضلا (إيليا أبو ماضي)
وكيف يزين الطل ووردا وعوسجا وكيف يرزي العارض الوعر والسهلا
تجيء إليه الطير عطشى قرتوي وإن ورنته الإبل لم يزر الإبل
ويتسل النيب الأثيم بمانه فلا إثم ذا يمحي ولا طهر ذا يلبى
أنظر إلى الماء إن البنل شيمته يأتي الحقول فيروبيها ويحييها
فما تعكر إلا وهو منحس والنفس كالماء تحكيه ويحيها

أهز من جديد وأقطع الشتائم تندافع مجدداً على لساني:

- بجد، كأن لهذا اللعين مشكلة شخصية معي، عجلي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غيرت رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.

- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.

- تمزحين!

- الظاهر أن "المارنجوان" مصر على بقائك تحت تصرفه أطول وقت ممكن. قد يكون

هو الذي مح المثلث الأخضر الذي يوشر لاتجاه النزول. انظر ملياً لعلك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجدوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.

- وفي الأثناء أفزغ من دمي! حذار قد أكون مضطراً إلى مص دمك أعوض ما يأخذه

مني فيلكم الطائر.

- من هنا الطريق.

تشير مرافقتي إلى الخارطة بأصبعها لتتبعني بصوب القرار، لا تعلم أنه لا أجهل مني بقراءة الخرائط علما وأنتي لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح.
- ما نحن بأمس الحاجة إليه بوصلة وخريطة مفهومة.

وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبيروغفيل وكوك وقيلهم بحارة العرب والفيكينج وجزر المحيط الهادي بوصلة جذبة وخرائط صحيحة لاستكشاف أصقاع عالم لم تكن لهم عنه أنى صورة واضحة... كلهم مع ذلك توغلوا في الأرض ذات الطول والعرض وفي البحار والمحيطات اللامتناهية لا يقودهم على ألف طريق مبهم إلا القليل من المعطيات والكثير من التهور ووراءه أجمل خصائص البشر: الفضول.

أعود لمداعبة امرأة لم تعد واثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف.

- على ذكر الخرائط، هل تعلمين أن الأوائل-غفر لهم أمون رع وسامحتهم الهة كل أساطيرناكتبوا دليلا مفصلا اسمه كتاب الموتى حتى لا يضل أنمي طريقه في الآخرة ولا أحد منهم فكر في كتابة كتاب الأحياء حتى لا نضل نحن طريقنا في هذه الدنيا؟
نُضُّ فادح قررت أن أضع له حدا.

- فكرة رائعة ستضعك في مقلم المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.

- بربك من تسلّم عند الإفاقة مثل هذه الوثيقة الضرورية للرحلة؟ أليس وضع المرتحل في هذا العلم شبيها بوضع سانح يفيق في مثل هذه الغاية وهو عار، جائع، خائف، جاهل من يكون وماذا يفعل في هذا المكان وما على المسكين إلا أن يتنثر أمره لكي يأكل ولا يُؤكل، ولا أحد يمهّد بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي تتحدث عنه كل أساطير الأُميين.

- يا عيب الشؤم، حرام عليكم يا أوائل، والله عيب عليكم.

- ثمة مشكلة أخرى إضافة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعلم الأدمي وكتاب الحياة لُسن التعامل معه: غياب الأدلاء أصحاب الكفاءات العملية. أين هم؟ الغالبية العظمى مبننون يتعلمون بالتجريب على الزيون المسكين. بل وفيهم -ولو أنهم أقلية- من يتسلم القادم الجديد فيرميه خفية في مصب البلدية، أو يدخل به أول سوق يبيعه بمقابل بخس، أو يجعل منه عبدا، أو يضيّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا تقضي جلّ حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟

- حدّث ولا تسل عن الأدلة الكاذبين وخرائطهم المزيفة مثل التي كان ينشرها الاسبلن في عصر الاكتشافات البحرية ليخفوا عن اللصوص الآخرين من أين يسرقون الذهب الذي كانوا يغرقون به أسواق أوروبا.

- أه تعرفين هذه القصة، من حسن الحظ أن هذه الخرائط المزيفة أوصلت أجدادك هذه البراري لبييدوا الهنود الحمر المساكين بدل أن توصلهم إلى برارينا لنكون نحن من يباد. تهرّ رفيقة الطريق كنتيها وهي تطوي بعصبية لا تخفيها خريطة لا نفع منها. أعود لنصحها لم اتعلم لليوم لا جدوى نصح البشر وكل أمي قادر على أن يخطئ دون اعانة من أحد.

- لتنتقنْ بهدوء، ولنعمل الفكر لتحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي اخترناه؛ لا نحيد عنه قيد أنملة.

- كفي. انتبه على الأهل لعلامات الطريق. لقد رَسَمته، بل لَل نَقَشْتَه على أرض الغابة الخُطى المسرعة لأجيال من المغامرين الحمر والبيض. أشعرُ أنه قريب جدًا منا.

- إن رأيته فسأفتعل أنني لم أراه.

- لا تنتهكُم. نحن فعلا في ورطة.

- أنتِ في ورطة، أما أنا...

- لوجه لشيطان اصمت. هذرك هو الذي سها بي عن مفترقات الطريق.

- ألا تعتقدين مثلي أن أكبر مشاكلنا مع الطريق وتقاطعاته أن جل ما نعرف عنه مصدره تائهون أكثر منا.

في الوقت الحاضر أكبر مشاكلني أنت.

يتواصل المشي وسط أليافٍ وأغصانٍ شرَّعت في الوجه سيوفا. أعود لمداعبة امرأة بصدد فقدان حتى اقتعال السيطرة على أعصابها.

- لا تخشي شيئا، خذْأمك سها عن إعداد تعويذة ضد "المارنجوان" لجهله بوجوده، لكن جعبته مليئة بكل التعاويز الضرورية لمواجهة أخطر الغابات.

- التعاويز؟

- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسקר في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86: "إبرادابرام باتو باتي يتاي متعقي". هي سلاح يصلح لكل طفل يخاف العقاريت ويصلح أيضا ضد العبيثة، وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي رقم 543، "ليللا ليللا" فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه. ثمة أيضا التعويذة رقم 798: "الإيناعي لايس". هي صالحة ضد وجع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعر والحيرة الميتغير بقية وحبوب البشرة للمراهقين وترهل الثديين لمن تجاوزن عمرا معينا.

- وتعويذة... لنقل 987؟

- هذه ضد الشرق الأوسط.

- الشرق الأوسط!

تبتسم مرافقتي وأنا أمثل لها نقاشا من وحي الحفيظة والخيال بيني وبين محاور جاهل بأمم التغييرات التي أحدثتها على العالم .

- غريب، لم أعد أسمع أخبار الشرق الأوسط وهي في صدارة كل نشرة منذ نصف قرن !

- الشرق الأوسط؟ ملهى ليلى لا أعرفه؟

- أتسخر مني؟ الشرق الأوسط منطقة جغرافية لا تتوقف الحرب فيها ، أنظر على الخارطة.

- أنظر أنت...!

- اللعنة، أين ذهب الشرق الأوسط؟ أنا متأكد أنه كان هنا بمشاكله المعقدة التي لا تنتهي.

- هل جننت؟ هذه محمية طبيعية لا يوجد في صحاريها إلا البعير وقطعان المها وغابات الأرز فوق القمم وهي ممنوعة على السكن منذ قرون بقرار من الحكومة العالمية. تبتسم مراقبتي.

- إذن أنت تعبر العالم ملغيا بتعاويذك كل ما لا يعجبك، يا لك من محظوظ.

- المشكلة أنني ربما خطرت بمستقبلي فيه وقد تجاوزت كل الحدود بالسخرية من الشرق الأوسط. تصوري إفاقتي في العالم الآخر لاكتشف أوزيريس وهو يحرق في بحقن: ماذا فعلت بالشرق الأوسط يا شقي، ألا تعلم أنه مسقط رأسي ورأس أغلب الآلهة المرسمين قانونيا والمعترف بهم دوليا؟ تتجاسر على أربلك يا نرق! لن يأخذ وقتا طويلا في وزن قلبي والقرار مأخوذ حالما شاهد اسمي على القائمة: إلى الربة أميت لتمرّق أشلاني وتلتهم روعي رامية بها إلى الخواء.

بدل الانسجام، تعود مراقبتي إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج مترابذ. ثم تستغرق في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في ارتشاف القهوة الدافئة جالسا على جذع شجرة مينة أتأمل الأدمي وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج وقد أغلقت عليه الغابة قبضتها وتفجّر الطريق أملهه إلى ألف مسار مبهم.

ظهور العلامت التي تسبق نوبات العنف عند لبشع أنواع الرجل ونوبات الهستيريا عند أبشع أنواع النساء.

يجب تحويل اهتمام هذه المرأة لكي تزعجني بشكل من اشكالها.

- أقصّ عليك طرفة عن آخر مرة ضعتُ فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعاد بلدان الشمال، كسبًا لما يسمح بمواصله التوغل فيه حتى أتأكد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ نعم، اقض يوما ممتعا في الغابة وعد بقفة مليئة بثمره، ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبات الزرقاء التي لا تثبت إلا في غاباتكم الباردة.

- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومرّتي.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا -لا بد أنه أخذ عن أبيه وجدّه كل تقنيات الجني والقتص-أصلح من زوجها للمهمة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدت لي بالفقة مبتسمة، قلت في نفسي: يجب أن أطلب رُحما وقوسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدبّ إذا اعترض طريقي؟ أثرت الصمت وتوكلت على إله الأبياء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستقرّ آلهة الربوع.

خرجتُ إذن، بفتي الفارغة للبحث عن الدرة الزرقاء ألعها في السرّ وفي العلن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطعمها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبتُ مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها على غصن تمذ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبت على شجيرات قرمة ملتصقة بالأرض، وأه يا ظهري.

مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصلًا. فجأة فتبهرتُ إلى أدنى وسط غابة لا أتذكر من أين أتيتها ولا أعرف من أين سلخج منها، ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و"ما" في طرفها الآخر لا قيل لها بمساعدتي في شيء. وفي مثل هذه الحالة التي جربها الأمي طوال سعيه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغلبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ: النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطولا لاختيار أنسب اتجاه، ومواصلة المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبت على قدمي منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالغ السرعة، والعرق يتصبّب مني، مقررا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلا إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إليها آخر!

- ووجدك البوليس بعد أسبوع تتماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في الفقة والفقة نفسها؟
- يا لبيت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأواثل. الملاحين، استكشفوا ولخضعوا أكثر الغابات اتساعا وعموصا وخطورة ولم يتركوا لنا إلا التجول أيام الأحد في الحدائق العمومية المكتظة وبعض أشلاء الغابات المبعثرة بين الحقول.

كأنني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تباذلنا رفاهاك بالذي عشناه ونحن تلهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، تكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

-سهوئ. واصل.

- كانت الغابة التي ضعفت فيها مكانا مرّضا شقّ فيه الأمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفست الصعداء ولم تنق إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعداء. استقبلتني مستخدمتي بلامبالاة من لا يعرف في أي جهنم كان الآخر يتخطّ.

- مالك ممتنع الوجه؟ لماذا تأخرت؟ أين القطة وأين الحصاد؟
- أخذهما الدب. لا أخرج إلى جبل بوقرنين -وهو أعلى من جبالكم- بكل ما في غاباته
من أسود ونمور وفهود وفيلة مرعية إلا مسلحا بما تعده لي "ما" من رماح وسهام،
وترسلونني هنا لمواجهة الذبابة ولا لأدري كم من وحوش أخرى أعزل. سأقول كل شيء
ل "ما".
يومها ضحكت المرأة الطيبة:

- آه منكم يا أهل المدن، تضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة
صفراء.
ترمقني مرافقتي بنظرة ساخطة ثم تنفجر بضحكة لا مرح فيها:
- هذه ليست حديقة عمومية ولا وجود لحارس بقبعة صفراء يبلنا على باب الخروج .
انها غابة تمتد مئات الأميال في كل اتجاه وحظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة
شبه معنومة.

- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حادث غيبي؟ قد ننجح في تربية بعض أصناف هذا
"المارنجوان" اللسمن لتغذية أطفالنا. ثم تصوّري ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجسوا
أبدا أمام تلفزيون أو حاسوب ولن يسمعون يوما رنين نقال؟
- سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهاية السندويشتك وأنداك حدثني مجددا عن
رغبتك في العودة إلى أكل الحشرات الطائرة وخبني ثمار الغابة وليس جلود الحيوانات.
لنعد للموضوع. حدسي يقول لي إننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن
نرى شيئا عما قريب.

- اكتشفي أنت هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطنبول الحضارة. أما أنا فهذه فرصة
ثمينة للاختفاء من عالمك المجنون.
أي مكان أحسن من الغابة للاختفاء وهي منذ الأزل ملاذ السحرة وآخر معازل الثوار.
تهزّ المرأة كتفيها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.

- الليل يدهمنا، يا يسوع!
- نعم، لنصلّ ليسوع. سمره ثم اعبد. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. لله
دركم يا بشر. والآن وقد صلّينا، ماذا نفعل؟
- عمّ الظلام وهذني التعب. لم يعد لنا من خيار غير التوقّف وانتظار الفجر والفرج. يا
إلهي، الغابة ليلا ولا ناز تدفع عنا أنياب البرد والذبّ.
مما يقال ان الكلاب لا تهاجم الا من تشمّ عليهم رائحة الخوف. من حسن الحظ انه لا
سباع في هذه الغابة والا لكانت الرائحة التي تفوح من هذه المرأة كغفيلة يجلب كل ما فيها
من اصحاب المخالب والانياب.

*الخوف! لا يصحبنا شعور على طول الطريق قدر هذا الشعور : خوف الطفل
من الظلام ومن فقدان أمه وأبيه، خوف فقدان الحبّ والمكانة ، خوف فقدان الصحة*

والشيب، خوف الموت بعيدا عن الأحبة والنيار وخوف الضياع نهائيا في مثل هذه الغابات الموحشة... والويل لمن لا يعرف كيف يرؤض خوفه...

على يساري امرأة جالسة على العشب تحاول النوم عله يختصر ليلة لم تكن في الحبان. ظهري مسنود إلى جذع شجرة فارعة الطول والانتباه على أقصاه لا أريد اختصر ليلة جادت بها الأقدار.

إنه هكذا هو العالم كما جربه الأوائل كل لياليهم طيلة مئات الآلاف من السنين. إن هكذا هي الأحاسيس والمشاعر البكر والألمي طريفة مختبئة داخل الظلام تحرق في جمرات ملتصبة هي أعين السباع الجائعة الباحثة عن عشاء.

نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلل فجر طال انتظاره.

أخيرا، تعود للعالم ملامحه الملوفة للنفس طمأنينتها المحبوبة.

تبادرنى امرأة منهكة سعيدة بأن الليل قد انجلى فعلا وليس فقط في قصائد الشعراء.

- هيا، يجب العودة للبحث عن الطريق اللعين.

ما هي إلا سويحات قليلة قبل أن تصرخ فجأة في قمة الجذل:

- أخيرا، من هنا، هيا أسرع، يكفي ما ضيعنا من وقت.

كأن الغابة أصابها ما يشبه القرف من آدميين غير منتبهين لما توفره من روائع وأسرار فقررت أنه أن الأوان ليغريا عن وجهها.

- أه، عادت الانسامة إلى شفتيك. مهلا، ما هذه العجلة؟

تمتعت المرأة ببعض الكلمات ساهمة والحديث موجه لشبح ما.

- يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!

- أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكل الحقيقي لكل طريق؟

- كفاني فلسفة. تصور النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دش سلخن وفنجان قهوة ومرطبات وسيجارة.

- شبيهة طيبة، أما أنا فعائد أدراجي. ما زال لديك وقت كاف في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الورا.

- خذ أنت.

- يا امرأة لا تغليها في. تعالي، كوني بنتا طيبة. من سيطخ لي "المارنجوان" ويكوي جلود الحيوانات التي سألبسها؟

- لو كنت تعرف على الأقل كيف توقد النار!

- لم أتمتع في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي في، ساعيد الاكتشاف الأعظم.

- شكرا على دعوتك، والان تنبّر أمرك إذا أردت قضاء ليلة أخرى في العراء.

- كيف أتنبّر أمرى هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من ضلعي.

- هذا شغلك، أما أنا فمهيولة إلى النزل. واصل أنت الطريق الذي تختار.

- تقصدين أو اصل الطريق الذي اختارني.

- إلى هذا الحد تؤمن بالجبر؟

- موضوع قد نخوض فيه أملم فجان القهوة لساخنة. أه منكم يا أهل المدن، تضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة صفراء.

*

خاصية الطريق الآن أنه ليس متّجها إلى الأمام أو الخلف وإنما إلى فوق. المشكلة المتفاقمة على هذا الطريق ليس الدوار وإنما تنفس يزداد صعوبة وكلّ العالم داهمته نوبة بخل قرر أن يكون عطاءه من الهواء أقلّ من القليل. يصرخ القلب أنه على وشك إعلان الإضراب العام. يحتدّ الصداق والقامة المنشودة تتباعد نفسا بعد نفس وكأنها على سطح كوكب من مجرّة العقرب. يجب رفع الساق بعد لساق وكل واحدة يتّقل عمود من الرخام. أرمي كل مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثر، مرددا لنفسي ما تزال هناك بعد هذه الخطوة خطوة أخرى أقسم أنها الأخيرة.

يا إلهي ثمة رياضيون طلّعوا إلى قمم تتعالى على هذا الجبل بالآلاف الأمتار! يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الأدمي، وكلّ غيبة مألها التذليل والإذلال! لكن يا للأوباش، تتعموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقا مكتظا بباصات السياح!

كأنني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُبلدنا رفاك بالذي عشناه ونحن تانهون على قمم الجبال المرعبة، نكاد نهلك فيها إرهاقا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

نعم وكان من بينهم أترياء أترى البلدان يدفعون لأقفر قراء الوديان الموحشة بعض النقود لحمل أمتعتهم. السفره بالنسبة لهؤلاء المحظوظين مغامرة يفاخرون بها عند رجوعهم بيوتهم أما بالنسبة لحملة الأثقل فهي نزوة العناء وإذلال الحاجة. إنها الصورة الكاريكاتورية لرحلة الأدميين: نعمة لمن حابتهم طاولة القمار ونقمة لكل من سخرت منهم عند توزيع الأدوار.

خلفي وفوقي الشمس، تحتي ولماي ظلي أشرف عليه أتلمله بفضول كذني أكتشف للأول مرّة أن لي ظلا.

لا خيار غير التوقّف طويلا هذه المرة لألتقط ما بقي لي من أنفاس.

فرصة لتجديد الانتباه للطريق من هذا الطوّ.

لا شيء غير مسارات متعرجة يمنع بعدها من رصد كائن يمشي فوقها.

أحاول تخيّل شبكة آثارِ خطوات الأُميين الذين تتابعوا على السهل الذي انطلقت منه... وأيضاً الآثار التي رسمتها خيل وبغلٌ وحمير سَجينة تننّ بأثقل سَجانيها... ناهيك عن آثار بيبب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طَيّ الكتمان والسرّ. لكن أيّة مخيِّلة قادرةٌ على استحضار كل من تتابعوا على الطريق وأعطوه الوجود والشكل. مستلق على الظهر أسترجع أنفاسي لأحدق في السماء متابعاً سرب طيور دخل فجأة مجال بصري.

قد لا تختلف رحلة هذه الطيور في مشاقها ومكافأاتها جذريا عما تعرف كل الأجناس الحية التي ترتحل على سطح الأرض أو في أعماق البحر. فجأة ترسم طائرة نفائة خطاً أبيضَ يقسم السماء إلى اثنتين. تبرز طائرة ثانية هي الأخرى بخطها الأبيض الطويل. تبدو الطائرتان كأنهما تتجهان نحو اصطدام قد تتساقط أشلاؤهما فوق رأسي. لكنهما من حسن حظي وحظ ركبها على غير نفس المستوى من الطريق. يحصل التلاقي فقط بين الخططين ليرسا قاطعا ومقطوعا لم أره يوماً على سبورة السماء. ترى ما الشكل الذي يتخذه الطريق في أعلى طبقاتها وأي أنواع من المرتحلين يتبعونه جرياً وراء أهدافهم المجهولة؟

مما يقال إن هذا الطريق أنهار جبارة صاخبة، لا من المياه المتدفقة وإنما من الرياح الهوجاء، تدور حول الكوكب تحمل على متنها كائنات حية مجهرية يسمونها الجراثيم والفيروسات والفطر أضف إليها غبار اللقاح رسل أشواق الأشجار للأشجار. والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مئات من الأمتار ساقطها ولو زحفا على البطن.

أخيراً المكان الذي أوصيتُ، فل أمرتُ بالوصول إليه وكلُّ من حملهم الطريق إليه لم يرجعوا منه كما وصلوه.

كم وقف عند هذا الجبل من شعراء ساعات وأياماً بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجدداً بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة.

جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه بيتسم (كيوكسي)

جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطراً

جبل الخريف ساطع اللمعان كأنه يتزيّن

جبل الشتاء بعيد لا مُبال كأنه نائم

منهم من جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعداً بحاجة إلى شيء أو أحد. كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسم عندهم صلاة المؤمن!

قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أوحى للفنانين بمثل الكمّ الهائل من اللوحات، والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذت له من رسوم. أروع ما في هذه اللوحات تجرّدها

الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة.
العنصر القار الآخر أشجارٌ مقترقة تكاد لا تلحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمة دوماً شكل لا يكاد يُلاحظ لأدنى يفضّل التواري، أكتشف أخيراً حجمه.
بعيدا عن الأنظر، مشدوها أمام جمال الجبل انبهار بكر. انبهار كل البدايات.
هل ثمة فنان أكبر من هذا الذي تفتقت عبقريته عن مثل هذا المشهد!
تحضرني قصة الرجل الذي تضرع لله أن يدخله الجنة فهمس في وعيه انظر حولك يا غبي أنت وسطها.
أضم راحتي كئندي أصلي ثم أنطلق في التصفيق وداخلي صراخ صامت يتعالى من الأعصق: براقو الله!

*

والآن كيف هو المشهد من فوق القبة الزرقاء؟
لا خيار غير السفر بالوكالة والحظ لم يسعفك بأن تكون من الذين أوصلهم الطريق لأبعد نقطة في الفضاء الحسي.
يخيم الصمت على قاعة العرض بانتظار سفرة ولا كأي سفرة.
فجأة يدوي انفجار يصم الأذان. يخيل إليك من فرط يقّة تقنيات التسجيل الصوتي والتصوير، أنك ستشعر بلهب النار يلفح وجهك وبرائحة الخن تخلق منك الأنفاس.
تدخل رؤوس بعض النظارة الأكتاف والصاروخ الجبار ينطلق وعلى ظهوره المكوك ملتصق به التصاق الرضيع بأمه.
ترصد كالميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الخن وهو يتلاشى رويدا رويدا.
ثم ينفصل المكوك. انتهت عملية القذف وتمركزت الكاميرا في موضع يمكن الأدمي من إلقاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض، وكان من الأصح تسميته البحر.
ها أنت تتابع على شاشة عملاقة ما يراه المحظوظون من المحطة الفضائية التي لن يصلها أغلب المرتحلين.
لا يغرنك انه اتخذ لون هذا البحر فقد ارتدى طوال تربيته العاصف أكثر من لون. هو توشح بلون حمم البراكين عند ولادته ... ثم باللون الأسود وقد هدأت هذه الحمم ..ثم باللون الأخضر عندما غزت الطحالب والأعشاب سطحه تدشن عصور اتصار الحياة ..ثم باللون الأبيض في أزمان سؤدد الجليد والتلج... أخيرا لونه الحالي منذ غطت المياه جل مساحته.

بخصوص الشكل، كم ظلموا ذلك الرجل المسمى قاليلي فالأرض فعلا كوكب فعلا كروي الشكل مستدير استدارة البرتقالة والتفاحة والشمس والقمر.

على ماذا أركّز والذهن مشدود مأخوذ بجماله المهيّب؟ على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصنّف؟ على البياض وهو كغرو دبّ ألقى على كتفي غائبة؟ على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟ على الصفرة تضيق الخناق على النهر الخالد كأنها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟ على الحمرة استقرنت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟

إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين، لا إمكانية لتحسس ندى عشب الصباح أو لسماع أي صوت والحال أن كل ما يتدافع على السطح لا يكف عن الثرثرة والصراخ.

ومن هذا العلوّ الشاهق يستحيل عليك تبيّن شبكة الأثار التي ترسمها من القدم الأقدام والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء، والزعانف على أمواج البحر.

من هذا العلوّ الشاهق لا مجال لرؤية تجمعات البشر الكبرى التي يسمونها مدنا وتجمعاتهم الصغرى التي يسمونها قرى ولا مجال لرؤيتهم في بيوتهم وغرف نومهم أين يقضون جزءا لا بأس به من زمن الرحلة يلجئون إليها كما تلجأ العصافير لأعشاشها وجحافل النمل لغيراتها ولنفس الأسباب القاهرة.

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق السور الأعظم واهرامات مصر وأمريكا الوسطى وكل ما كدّست الأجيال الماضية من آثار.

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق كل ما كدّس جيلي وجيل الآباء من موانئ عملاقة، من مطارات عملاقة، من جسور عملاقة، من مصانع عملاقة، من أنفاق تشق بطون الجبال المتكبرة.

ما لا تراه العين المجردة من هذا العلوّ الشاهق شبكة مسارات القطارات والسيارات على الأرض والأساطيل في البحر والطائرات في السماء تنقل البشر وما ينتجون .

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق شبكة الأنابيب التي تنقل البترول والغاز من أبعد مكان إلى أبعد مكان وشبكة والألياف التي تنقل الأفكار والصور بسرعة البرق إلى كل فج عميق.

أين قدرات النحل والنمل الأبيض وحتى دود الأرض من قدرة الأدمي على التحكم في هذا الكوكب وفقا لمصلحه ولنزواته !

أنت أملك عالم يبدو تحت السيطرة وسيّده ومرّوضه الأدمي المهندس.

تدرجيا يمحو السواد بقارة الألوان. يرسم النور بقع ضوء أصفر خافت لكبرى مضارب الأدميين ومن هذا العلوّ الشاهق يمكنك وأنت تتابع تحرك المكوك التعرف على حدود هذه القارة أو تلك.

تنظر لشكل القارات فتحسبها قارة موجودة من الأزل على شكلها الحالي والحل أنها-
ومقياس الزمن بملايين السنين لم ولن تكف عن التغير انقساماً ثم تقارياً ثم انقساماً جديداً
وهكذا إلى نهاية وجود الكوكب نفسه.
كم من ألواح على سطحه تقاربت وتباعدت لتخلق وتدمر قارات ومحيطات تظهر
وتختفي وعذاب الزمن بملايين السنين!
كم شهيد هذا الكوكب العجيب من زلازل، من انفجارات براكين، من أنهار سالت وجفت،
من صحار تمددت ثم اخضرت لتعود لجفافها القاتل!
كم من جبال انبثقت من قاع بحاره وكم من رياح وأمطار أحنث هامتها لتسويها بالهضاب
وبالسهول!
كم من أحداث، من حوادث، من تقاطعات طريق، من فرص جاءت بها الصدف وذهبت
جعلت منه كوكبا يتيماً، فريداً، لم ولن يشبه يوماً كوكبا آخر على اتساع الفضاء
للإمتناهي!
كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظ جعلته الناجي من
كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار!
كم تتابع وتنفردت على سطحه في أعماق بحاره وفي اتساع السماء من أجناس حية
كلها تتبارى غرابة وإعجازاً!
كم من بشرية شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبهر المرعب لتختفي يوماً
تلفها الغرابة والأسرار!
يا للخوارق والمعجزات التي جعلته يوجد ومن وجوده توجد الحياة بكل ما فيها من
قدرات الخلق والإبداع.
يا للصدف الرائعة التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه
الحياة بكل ما أبدعت وأنجزت.
هو لم يكن مقترراً، حتمياً، متوقفاً، محتماً أو ضرورياً. كان مجرد إمكانية من بين ما لا
يحصى ولا يعد من الإمكانيات ومع ذلك فهو موجود بكل ما في المفهوم من أبعاد ومن
أسرار.
تحتي أكبر رحم لا ينفك عن ولادة ما لا يحصى ولا يعد من الكائنات ومن الأجناس.
تحتي أكبر مقبرة لا ترفض جثة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل
بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل صنو الحياة.
يا ترى كم من أجناس حية ومن بشريات جديدة ستتابع على الركح قبل ان يغلق هذا
المسرح أبوابه نهائياً وقد انتهت كل العروض!
كم من ملايين السنين قبل احتضار يحوله إلى كتلة من الصخور المنابة عادت إلى جوف
الشمس!

فجأة تحتل بقعة بيضاء حلزونية الشكل جلّ فضاء الشاشة. إنه إعصار مرعب يستعدّ للاعتداء على الأُميين المسكين.

مما يقال إن الجنس البشري استطاع أن يبني ما يسميها الحضارة في العشرين ألف سنة الأخيرة على سطح هذا الكوكب لأنها كانت فترة استقر فيها المناخ بعد فترة طويلة من الصقيع والجليد... وأنها فترة ستنتهي طال الزمان أو قصر.

حتى داخل هذه الهدنة المناخية - الطويلة نسبياً إذا قسنا الزمن بعمر الأفراد لا بعمر الكواكب ثمة تقلبات مستمرة منها من ستجعل الحياة يوماً شبه مستحيلة.

مسكين من سيأتون العالم وقت يكشر فيه المناخ عن انبياها فتنهار المجتمعات والدول والحضارات وتعم الفوضى وتآكل الناس بعضها البعض لا بالمعنى المجازي وإنما بلسلكين والأنياب.

على الأمد الطويل يتنبأ البعض ستطلى سماء الكوكب يوماً بالأخضر لتشرق على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجنوح المتهوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية ماؤها بكثافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون. صور مرعبة لكوكب يحتضر وقد نفثت براكينه كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقرضت على سطحه الأجناس بالملايين. أه تريد طرد مثل هذه الصور من فكرك. ليكن. ها قد استعد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويتكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف بدوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك إلى نهاية النهاية.

كم هي بدائية تلك التصورات التي لا ترى في هذا الكوكب المستعرض مفتته أمام الأنظار المنبهرة إلا ديكورا وخشبة مسرح تتابع عليه كائنات من طبيعة أخرى برزت من اللاشيء أو من إرادة مجهولة والحال أننا أمام كائن حيّ يحمل ثم يلد ويغذي ويواري في ثراه كم من أجناس حية كلها فلذات الكبد!

كيف لا يتنبأك حبّ جلف لهذا الكوكب الذي تترك انه هو الوطن الحقيقي... الوطن المشترك لكل الكائنات... الوطن الذي لا مكان فيه لغريب.

شيئا فشيئا يتحول الانتباه من التركيز على اللؤلؤة الزرقاء إلى الصندوق إلى الفضاء للامتتاهي الذي تسبح فيه.

تفغر فاك دهشة وأنت أمام لوحات فنية ليس مثلها لوحات في أغنى المتاحف.

كأنّ الفنان الأعظم - أراق بلا خطة مسبقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة الأشكال ثم رصعها بقناديل الشمس وفوانيس المجرات... والنتيجة متحف ربّاني يستعرض فيه هذا الفنان الأعظم من الروائع ما يذهب العقل.

كم غريب أن يثير الجمال فينا إن فلق حداً، شعورا يقارب الألم!

تتضح أبعاد الفضاء الحسي الذي ظنناه يتوقف في البداية عند حدود القرية ثم عند حدود الوطن واليوم عند حدود الأرض. هو في الواقع صحار مترامية الأطراف كثبانها مجزأت من كل الأشكال والألوان ورملها كواكب وأقمار وأحجار من كل الأحجام تذهل العقل.

إن هذا هو الحايوي الأكبر الذي نسميه العالم والمنغلق على كل ما يوجد من محتويات منها الكائن الأدمي الذي يحويه في ذهنه!
أمام كل هذه التساوعة المرعبة للفضاء اللامتناهي وكل هذا الزمن الذي بالكاد ينتبه لبروزنا واختفائنا، تتسطح كل القامات وكل الأحداث وتتضح لكل الكيانات حجمها الحقيقي. حقا لا أتقه من قصتنا بمقياس كل هذه التساوعة، لكن هل ثمة أهم منها بمقياس الآن وهنا؟

هل بقي لمفهوم الطريق معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟ حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل حاسب على الحساب؟ ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفرض عن ظهره آخر راكب مجددا إلى أين؟... إن بقي في مستوى كهذا معنى لسؤال ووجود لسائل؟

ليواصل اللعين إلى حيث يتوهم هدفا، أنا الذي سأترجل منه لألقي نظرة من أبعد موقع على ما تركت ورائي أو تحتي. هناك بين ذلك الربع الخالي وتلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعد من المجزأت توجد حبة الرمل التي هي بيتنا، الجوهرة الثمينة التي اتخذت عبر التاريخ حمرة حجارة البشم، سواد درة الفونيكس، خضرة الزمردة، بياض اللؤلؤة وزرقة البياقوت، الجوهرة الثمينة الموضوعية على ستار لا متناه من فخر الدمقس الأسود المرصع بالأنوار الآتية من أرجاء الفضاء اللامتناهي.

هل من جوهرة مثل هذه تدور رحول شمس من شمس هذه المجرة أو تلك يمكن أن يصلها الطريق يوما نكتشف فيها كائنات حية مثلنا؟ إيه هلجس البشر وسؤالهم المتكرر خاصة في هذا العصر: هل نحن وحدنا في هذا الكون؟

مع كامل الاحترام لكل العلماء والفلاسفة والشعراء الذين طرحوا ولا يزالون هذا السؤال أقول إنه مصنوع من كم هائل من الغرور والتبيلد والجهل.

طبعاً لسنا وحدنا. كيف نلقي على أنفسنا مثل هذا السؤال وحوالنا وبقرينا ما لا يحصى ولا يعد من كائنات حية هم في هذا الكون اللامتناهي الجيران الذين لم نحسن جبريتهم.

العالم بما هو محتوياته من بني حريّة وآل ثبات

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرد وعد يوم لا كسائر الأيام.

- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحميّة أيّ مسؤولية في حال التعرّض لحادث. أسرّ في أذن رفيقة المقطع الجديد من الطريق:

- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكون. ألا ترفض هي الأخرى تحمل أدنى مسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميّتها الكبرى حتى وإن كنا نتوهم أننا أئمن حيواناتها؟

- لا تخلّق لنا مشاكل مع قوَى نحن في أمس الحاجة إلى حيادها، خاصة اليوم وفي مثل هذا الممكن.

يهمس الرجل العبوس: رجاء لا كلام بصوت عال ولا ضحك من الآن.

يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحفّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيّاً من الحيوانات الحرّة التي جننا نتطلّف عليها في عقر دارها.

يمسك الدليل بزراعي ينبهني لعلامات لا يدرك معناها إلا هو

- انظر يا سيدي إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكّها، وهذه طريقة الثيران للتخلّص من الهوامّ التي تسكن جلودها. انظر هنا، هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة.

هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار.

ثم نعود للمشي ولا شيء غير الفراغ والغبار والحرّ

تقطع المرأة عليّ انتباهي للفضاء الغريب وهي تنهر الدليل:

- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعود؟

يردّ الرجل متحرّجا:

- المحميّة غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحيانا وحشا واحدا طوال اليوم.

وحش؟ لله دركم أيها الأُميريون. ما أبرعكم في قلب الحقائق. من عرف منكم جنسا فيه جلاذون باستثناء جنسكم؟ من سمع يوما بنمر نكّل ساعات طويلة بنمر آخر؟ لكن ما

المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل مصطلح سبى وشنيمة؟ خيارى بنو حربية لمن تسميها الحيوانات وآل ثبتت عندما يأتي الحديث بصوت منهيب عن الأشرار. كل انتباهي منصّب على الفضاء الذي حولي بما ينغلق عليه من أشباح ومن أحداث ضاعت في ضباب الزمان وهي التي ربما حددت جزءا من مصيري.

تُبادرني المرأة بلطف لن يطول:

- الظاهر أنّك لن تكون أسعد حظًا من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".

كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:

- انظر إلي هناك.

- لا أرى شيئًا.

- نفّق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟

الحقيقة أنني لم أرَ من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبتُ البحر حدو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجّل على الدوام. يومها كل ما فزت به أنني نزلتُ من السفينة الصغيرة أتوّجح كأنني شربتُ كل الخمر التي حرّمها الدين وحرّض لشعر على تناولها.

تمدّ لي رفيفتي بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:

- ربما وصلنا يوم الإضراب العام.

- أيّا كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها -على ما يبدو- لا ترغب مطلقًا في لقائي. كنت أنتظر استقبالًا آخر. الفيلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان تزغرد القردة احتفاءً بمقدم الصديق لوفى.

- نعم، كيف لا نتزاحم للسلام عليك وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل البذيء الذي يسمونه لاصيد الرياضي؟

- رجاء قل لي لهم هذا الكلام لعلمهم يعقلون.

ما الأدميون بالنسبة إلى هذه الكائنات التي تتفادانا؟ أخطر الوحوش التي يأتي منها موت صاعق مُتَوّ من بعيد؟ لكن من يعرف منها أن هذه الوحوش المرعية تسير نوريت من الجنود المدججين بالسلاح لحمايتها.. لحمايتها؟ نعم من نفس الوحوش الغير مرخص لهم بالقتل.

يتسمّر الليل مشيرًا إلى مُبهم ما:

- سيدي، انظر هناك!

- لا أرى شيئًا.

- نفّق النظر يا سيدي!

- في ماذا؟

- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!

- آه، تقصد هذا الخط.

- إمضاء فهد. لا أحب فكرة وجود حيوان كهذا يمثل هذا القرب. هيأ بسرعة لكن دون هرولة.

تختفي رغبتني في ملاقة السكان الأصليين لهذا المكان، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم وخشيتي أن يتركوا في مثل هذا الإمضاء.

نعاول التحرك إلى الأمام والطريق يتوغل بين أعشاب تحتصر عطشا. يهيمس الدليل وهو يُنزل بندقيته عن كتفه:

- من هنا فصاعدا المشي ورائي فقط. ممنوع منعاً باتاً دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، ثوقفاً فورا دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهم هنا سبع سانحة انجليزية متهورة.

قدر الحيوانات أكلة اللحوم التي تسكن هذه الربوع أن تقضي جل رحلتها جريا وراء أكلة الأعشاب والجوع يعتصر أمعائها وقدر الحيوانات أكلة الأعشاب أن تقضي جل رحلتها هربا من الأظفر والانياب والخوف هو الذي يعتصر امعائها.. نعم ليس في هذا العالم غير اكل ومأكول، قاتل ومقتول وأهم فعل فيه قتل أما الباقي من الأفعال فتعاليق وهوامش.

أهمس في أذن امرأة متزايدة للتوتر:

- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حاد.

- كن جنديا، لسنا في حديقة عومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصيد.

- وهل المدن التي جننا منها حقا جد مختلفة عن هذا الغاب؟

يأمر الدليل باستراحة قصيرة. يختفي وراء أكمة من الأشجار الهزيلة مؤكدا على ضرورة عدم التحرك.

نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوع الدليل بقلق متزايد لطول غيابه وقد اتضحت لنا فجأة ضرورة التأدب معه وحتى مداهنته بلا انقطاع.

نتوجه إلى مراقبتني بسؤال لقطع الصمت القلق.

- ماذا تفعل بهذا العود؟

- أعايب هذه النملة التي غامرت بتسلق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بداهة ليس أسهل من وضعنا.

- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تقترس الحشرات التي يضعها سوء طالعها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيجن قلبك على الأدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم على الأقل خلقوا على هلمش معاركهم شيئا اسمه "الصلب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقرزة.

- تكلمى بلحترام عن أنجح مخلوقات الله حتى وإن جهل الأعميون الأغبياء قيمتها والدليل ألا أحد منهم جاء خصيصا هذه المحمية من أجلها.
- هذه الكائنات المقرزة أنجح مخلوقات الله؟ تصد أنجح مخلوقات الشيطان.
- يا امرأة أي جنس يفوق النمل انضباطا، شجاعة، تضحية وعملا دؤوبا لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرب يوما؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحقّق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي والغزو والرقّ والحرب. أي جنس آخر لا قائد فيه ويسير لمرّته على أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حلاجة إلى شرطي أو نبي؟ أليس هذا سرُّ بقائه منذ مئات الملايين من السنين؟ على كل حال هو اليوم مراقب بفضول و إعجاب متزايدين من قبل المختصين في الروبوتات والذكاء الاصطناعي . كلهم يحاولون تقليد تفكيره من كيفية تهوية البيوت إلى اختيار أحسن طرق استكشاف فضاء مجهول. صدّقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهما الشمس إلا للنمل.
تيزر مرافقتي كتفيتها تخالني أمزح.

أخيرا يبرز الدليل من وراء أكمة الشجيرات وهو يواصل اقفال أزرار سرواله.
تبادره المرأة المتزايدة نقاد الصبر عاد الصلف بعد إن انحسر الخوف.
- افترض بعد الشرّ عنك-أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعاً.
كيف كنا نخرج من هذه الأحراش؟

- اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيم بالرانيو وإلا تتطلق الدورية. اسمحي لي بأن أردّد ما قلته هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرك حتى وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأحراش بلا بندقيّة وخارطة ولبيل محض انتحار. أسف، بالنسبة لكما ممنوع دخول الأدغال حتى للتبول، في الخلاء فقط.
أقترح على مرافقتي رفع الحرج فلا تستقطع الفكرة.

- أديري لي ظهرك وأديري لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.
نعود إلى المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ متقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المبحّج؟... إلى من توجّه بالتهديد أو بالغزل؟... هل يُغازل نثرا أو شعرا؟... هل تكون يا طير أكبر شاعر في هذه الأدغال.. ترى كيف تشعر وتفكر هذه الكائنات وهل ثمة فلاسفة من بني حرية وآل ثبات تساعلوا هم أيضا ماذا يغطون في هذا العالم؟

أفيع على همس صارخ للدليل:

- انظر هناك!

- أين؟

- تحت قدميك!
- لا أرى خدشا.
- هناك، هناك، هناك!!!
- آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسانحة منكوبة الطالع حتى ولو كانت إنجليزية.
أثر آخر سيئجي قريبا. هو والأثر التي تركتها كل الكائنات على الطريق.
- لا يا سيدي إنه لو حيد قرن. لنتبه، قد لا يكون بعيدا.
وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تملسا مع كل هذه الأنواع من الحيوانات التي تنبخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة... هم السابقون ونحن اللاحقون... التحسّر نعم، لكن كم هو رائع أن كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وُجِدت يوما... على كل حال المحمية نفسها من الأثر... ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجع صدى عالم اختفى أو هو بصدد الاختفاء.
يهمس الدليل في اذني:
- سيدي، انتبه للبراز اليباس. هذه علامت وحيد القرن الذي رأينا أثره منذ قليل. مرّ من هنا منذ يومين تقريبا.
انتباه متحفّر ثمنه تؤثر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كلنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار.
ما الغرابة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العلم إلا بالخيل والظن؟ ألا نقضي العمر في تتبع الأثر ولّما نجد صاحبه؟
لا شيء خارج عن المعتاد في ركضنا وراء حيوانات تتمتع وتفرّ منا.
فجأة يتوقف الدليل مشيرا إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:
- انظر هناك!
- هذه البقعة السوداء.
نعم، إنه قطيع من الثيران الوحشية.
- نقرب لنرى بوضوح.
- يا سيدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقى في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما نود.
تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار. يشب فجأة من وراء الأكمة كأن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.
- حصان هنا ويمثل هذا الحجم!
- يا سيدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى "امبالا"، والمتوسطة الحجم وتسمى "نيالا"، والضحمة وتسمى "كودو". ما رأيك واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.

- تقصد أنني رأيت خيال كودو.
يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرففه طول اقتعال التأديب
وكيج ما به من سوء مزاج.
- كأنّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقدرون ضرورة
التحكّي بالصبر.
- نعم يجب أن نتحكّي بالصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصّر على تقادينا.
استجار المسكين بأعماق الربع الخالي قتيّعه للصيد لا يصده الحرّ. استجار بأبعد أماكن
لصحاري البيض فهول وراءه لا يخيفه الجليد. استجار بعرض المحيط ففتش عنه وراء
كل موجة. استجار بالجبال الشمخة فوضع للإمساك به الأوتاد على الجبال. استجار
بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جنوح الأشجار لتباغت خروجه الحذر ليلا.
استجار بالصعّغر فخلق له المجهر. من الفضاء تجسّس عليه بالأهوار الصناعية يتبعه وقد
رَشق على ظهره واثيا إلكترونيا. كم من سيّاح ومصورين وطلاب دكتوراه يركضون
هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين! أتري كل هذا الإصرار على تعقبه لإدراكنا أن سرّنا
من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو؟
تعود رفيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.
- على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحمية. سمعتُ أن فيها قطعان فرس
النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستبتخر هي الأخرى.
يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقا صغيرا عجيبا باتجاه كدس رمادي يطفو بعيدا على
سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكا:
- نعم أتكلّم “الهيبو”، أعرف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني
أحدهم فسيتقرب، أذاك قُتروا المسافة. إن بقي بعيدا عن الشاطئ يتملّنا بلامبالاة فلا
خطر. إذا خرج من الماء أنصحكم بالجري وتسلّق أقرب شجرة.
تحدّق فينا الكائنات بتقرّز ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيدا داخل البحيرة.
- هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوما أن أتكلّم الجملي والجماري والحصاني
والكلابي والقططي وحتى البعوضي. للأسف، لم يسعني الوقت لتعلّم كل هذه اللغات
الحية، خاصة لم أجد من يعلمني. لأجرب أولى كلماتي بالهيبو. ففففففوووو.
يستغرق الدليل في الضحك:
- بيدو، يا سيّدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.
- حسب ما رأيثُ لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.
ينكس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لساني، ماذا لو ضيّعني في هذه الأحرار؟
يدخل الرجل قوقعته والطين يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن
يوميها ضاع لأن لنا دليلا لا يعرف يمينه من شماله.

والشمس تتأهب للرحيل لنجلس ثلاثتنا على جذع شجرة مينة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقنا. أعود لمعابثة رفيعة لسفرة:

- هل تعلمين أن القبيلة وكل الكائنات الموجودة هنا كانت تركز قبل ألفي سنة في البراري التي جنث منها؟ لكن بشرا اسمهم "الرومان" قرروا أن تكون تلهية الشعب أساس السياسة، فبنوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هائلة للتمتع بمذبحة تدوم أحيانا ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات ملاعبهم على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين نعم الملايين من القبيلة والأسود والنمور والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خلق "بزنس" كامل كان يدرّ الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئا فشيئا فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوغلون فيها جيلا بعد جيل هربا من الوحوش الحقيقية. هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناهم فيها. لا غرابة أن تتوارى عن الأنظار ترتجف رعبا وقد شمتت من بعيد ورائحنا الكريهة.

تُضلل المرأة المرفقة عدم التعليق خاصة والدليل يدعوننا إلى مواصلة المشي.

ساعات لا أكثر منها متعة وعمقا لا يندرنى بنهايتها إلا صوت دليل لا يعرف أنه بالنسبة إليّ أذى مهمته على أحسن وجه

- أسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر.

تهمس المرأة الغاضبة في أذني.

- نهار كمل من المشي من أجل خدش وكدس خرا وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان.

هذه المسكينة لم تتعلم إلى الآن أن سيد المرتلين من يعبر العالم كما قال لاوتسو.

"لا هدف ولا وجهة.

يغم كل لحظة

ما تقمته له الحياة"

سمر الليلة الأولى

حول النار والليل أرخى سدوله على مخيم وسط أحراش منسية من كل الخرائط هذا الحديث أو ما يشبهه بين أميين وضعتهما الصدفة جنبا لجنب.

-أي حصيلة بانسة! بالطبع سيادتك غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس.

- لا تكفين عن لشكوى من غياب الكائنات التي جننا لإزعاجها والحال أن ما يضغط عليّ كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في العهد الذي ترك خدشا على جذع، في

الكودو الذي أُرعبناه في أعلى أوقلت القيلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة، في الأسد الذي قتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف من قتل.

- هل أغلق عيني لاستحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع هذا الأسد؟

- استحضري أيضا ما في هذه الغلبة من كاننات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفرا لبيضاها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا يقبل لنا بتخيله.

- كفى، أصبّثني بالدوار.

- انتبهني لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجاة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحدثه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هب فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظارتني فأذت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عفتي وتسرّب من فوق إلى تحت ببطء مثير، لكن هذه الأشجار التي تحفت بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حبرك... انتبهني ل... أشباح الأوائل... بكل الأوائل الذين مروا من هذا المكان .

- ما رأيك أن نرقص ونضرب لهم الطار لعلهم يتكلمون بلسانك.

- لست بحاجة لطغوس بدائية كهذه، لي طغوسي السرية تغنيني عن كل ضجيج.

- بجدّ كأنك تعوض سحرنا ما كان نقصنا في الواقع هذا اليوم، اصدقني القول، هل ندمت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟

- أبدا، أفضلها على خيار الأغبياء الذين يتجولون في عرباتهم شبه المصفحة يزعمون سكان هذا المكان. يتصورون هذه المحمية حديقة حيوانات. لكن لو فكرنا قليلا: محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط.

هذه المحميات "باتتوسانات" للحيوان، لا غير. كم تذكرني بتلك التي وُضع فيها بشر سُموا "الهنود الحمر".

- باتتوسان حيوانات! فنتبه لما نقول عن بلدي، قد أضطرر للوشاية بك للبوليس.

- آخر محتشد حيواني زُرته اسمه طارونغا بُني على هضبة غناء تشرف على البحر. كل السجناء حتى في تلك الحبس المتحصّر وفي تلك البلاد المتقدم كانوا هم أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شرطي! أتذكر جيدا أحد سجناء تلك البانتوسان الصغير. كان كلب بحر، جُرع غمدا، يرمي له المروضّ بسمكة سردين إذا قلم بحركات تشبه الأيمنين، والأطفال حول المسبح يصفقون له فيطّدهم سجين الحرب يتسوّل غداء مُنع بالقوّة من البحث عنه في لجة المحيط. إنها نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبد على القفز، وفيل مخطوف على الرقص ووجود مخصّي على المشي إلى الوراء.

ترى ما الذي يميزنا حقًا عن الكائنات الحية التي نتقاسم معها العالم ويعطينا عليها كل هذه السلطان؟... الكتابة؟!.. هل تكون هي السر؟... ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى تتطور إلى حالة أرقى لتغيير في الجينات وهو ما يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر بالكتابة نقل تجاربنا وتوظيفها والزمن المطلوب بحسب بالقرون وأحيانًا بالعقود لا أكثر؟

أعود لمرافقتي أتحسس دفاعاتها وتقنياتها في المراوغة.
على فكرة ألا يثيرك أنه لا وجود لأية منظمة تطالب بوضع حد لعقوبة السجن المؤبد لأطول حروب الأُميين مع سكان العالم الأصليين؟
- حدائق الحيوانات والمحميات الطبيعية سجون ومحتشدات لمساجين حرب؟ هل أتهم ضربة شمس مفاجئة؟

عودة للمزح لتخفيف الضغط على المرأة وعلّي.

- صحيح ، ليس لهذه الحيوانات ما يدعو للاحتجاج . لو زارت يوما لسجون التي نضع فيها الأُميين لفهمت حظها وهي تتمتع بكل هذا الفضاء وكان في السجن الذي عرفت لا يتجاوز مسلحة ساحة مدرسة أدور فيها نصف ساعة صباحا وبعد الظهر . على فكرة لمانا لا نفتح سجون الأُميين هي الأخرى للزيارات السياحية؟ على الأقل ستمكن مداخيلها بعد خصم رشاي الإدارة والحراس والقضاة من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلا. ما أنا متأكد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحا منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات سيتدافعون للضحك على السجناء ورميهم بالحجارة وبلدور.

كل ما نعاني من بعضنا البعض وما تعانیه منا الكائنات الحية التي وضعها حظها البنائس في طريقا غياب الاحترام.. هذا الشعور وما يولد من مواقف وتصرفات هو قيمة القيم.. هو الشكل الأذكى للتقنييس والازدراء الشكل الأغبي للتدنييس...يوم نجعل منه ميتداً الخبير ومنتهاه في تعاملنا مع بعضنا البعض ومع كل الكائنات الحية الأخرى ستصبح الرحلة تجرية أقل وجعا وصعوبة للجميع.
تضحك مرافقتي ضحكة لا مرح فيها.

- تُبالغ. تُبالغ. تُبالغ.

- أبدأ، ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا يرتطم السجين وهو يدور في الفضاء الخائق، تارة بالحيطل وتارة بالقضبان. ثم يعود إلى الحيطان لتدفعه نحو القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى الحيطان....

يوم نقرر أنه بعد الغاء رق البشر حان الوقت لإلغاء رق الحيوان...يوم نعيد للحيوانات المستعبدة حريتهم في عالم كلنا فيه ضيوف سواسية ومصيرنا واحد...يوم نقبل بأنسنة

الحيوان وحيونة الإنسان..يوهما قد تكون خطونا خطوة جبارة في تحقيق المهمة الغامضة لرحلتنا في هذا العالم.

- نعم ، ثم ماذا ؟

- ومن الحيطان إلى القصبان ومن القصبان إلى الحيطان.

- ضربة الشمس على ما يبدو وخطر مما اعتقدت؟

- بل وجع ذكريت عن شهور طويلة قضيتها في زنزانة أكبر بقليل من خزانتيين.

-واصل افراغ ما في جعبتك ، ربما سيخفف عليك ذلك بعض ...الغضب، نعم أشعر بك غاضبا وليس فقط موجوعا.

-أذكر أنني وقفتُ طويلا أمام قفص كانن تسميه للغة "غوريلًا" طبعًا بنكهة احتقار- وهو جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئًا باستثناء تحريك حصاة صغيرة بقطعة من الخشب. يومها تلاقت النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و"لشيء" بما لا يدع مجالًا للشك يحقّ فيّ يسألني: عرفنتي، ثم ينسحب بالسرعة التي برز بها. يومها حدثت معجزة بالغة الندرة اسميها لا عليك...

- وفي الأخير انصرفتُ مُضيقًا إلى جعبتك من الأوجاع حزنَ الغوريلا، على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضا أنه ثمة أكثر من غزاة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات الضعيفة وجنت في حدائق الحيوان التي تستنكر وجودها حياة أمينة لا يتهدد نومها زئير الأسد؟

- ولوجبات الثلاث مضمونة، لا تعب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخدمات. ماذا يريد أكثر من هذا، ذلك الغوريلا الكنيب، وحتى ذلك الأسد الأسير الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

تنتهد رفيقة الطريق وهي تشير إلى الدليل بصدد إعداد العشاء.

- أرجو أن هذا الغيب يعرف الطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها أذ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية أنت الذي يحاول إغرائني بالادعاء أنك طبّاح ماهر.

- نكّرّيني، بالفارق الأسلمي بيننا وبين الكواسر المحيطة بنا. نحن سنتعشى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميّز إنثائها بصبح الشفاء بالأحمر وذكرها بلبس ربطة العنق وأن هنا ما يجعلنا نعتقد أننا نسوى أكثر من بقية الكائنات.

تعود رفيقة السفرة المثيرة لما تظنه مزحا.

- كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.

- يا امرأة، رحماك... لا تفتحي جروح طفل نبخوا واكلوا يوما أمامه أعزّ أصدقائه.

تفتح الذاكرة ملفت طفل في سنته الرابعة أو الخمسة يفتح عيني الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، وديعا، بريئا، كان يحنو عليه ويملكه كما لو كان له الأب والأم. وفي هذا الملفت المحفوظ على كل التفصيل، يضرب الخروف المقبول الهواء بقوانمه الأربع لدقائق طويلة، واقتل يمسح سكينه في مندبل أبيض هادنا راضيا عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقضتيه الصغيرتين، والرجل مصر على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقدر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بد من جزه بعيدا حتى لا ينقض مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدها ويمرّقها إربا إربا. ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وويل يصم الأذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعل خروفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلمك إلى الأبد!!! أصوت نسائية أتية من أعماق الماضي تردّد: كفى الآن، تعمل لجلس بيننا. لا تنق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعشن ضللكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصيان" لعشاء العيد! صوت الأم: يا بني هون عليك، إنه مجرد... قصد أنه، على كل حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كبش العيد ونحن نضحّي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الأدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوة المجهولة الماكرة اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهزّ الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه لما قبله. لا تكفّ دموعه عن السيلان يعذبه عجزه، هو الذي لم يقدر على حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يخفتي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلخ والتقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلقّف أيادي الأم والخالة والجدّة شيئا أسود لزجا يضعنه مباشرة على نار الكائون. تصرخ فيه الجدّة بالكفّ عن الدلال وتذيه أمه بلطف فيه بداية نفاذ صبر ليتنوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تقهمني عاده، هل نسيت أنها تناديني يا كيدي؟ لا أريد طعامك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت.

تهزّني مراقبتني من كنفتي:

- ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم الذئبي.

- المصيبة أنه معروض على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لأعنا في سرّي كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أر في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقنولة المعلقة في واجهة دكاكين الجزارين.

تغتتم مرافقتي الفرصة لتسجيل نقطة أخرى لصالحها في نقاش - كما هو الحال في أغلب سجلات البشر - صراع بالكلمات بديلا عن الصراع بالكلمات.

- خاصة إذا تكس عليها الذباب.

- سأسمح لك بسبب قومي وخذي راحتك، أما سبب قومي فخئ لي أنا وحدي. أو اصل. هناك ما هو أفضح من تكالين الجزائريين ببلدك وببلدي: محطات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخلو فكر أحد أنها تعيش رعبا صامتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أم أو أخ أو أب.

تقاطعني امرأة تقف الاستنكار وهما الوحيد أن اوصل.

- ارتفع صوتك، الدليل ينظر إليك باستغراب.

- ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

- وماذا فعلت أمام المنظر البشع؟ هل شممت الجزار والشواء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سراحها؟

- لذت بلفرار بكل شجاعة وروح مسؤولة عالية. للانتقام مني ومنهم كانت تكئيني صور عبوة ممتعة لقطيع من الأدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزار، ينتظرون أن تنفذ لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها.

- غريب، أنا أيضا "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجر بالحبل أدميين يتوقفون أحيانا للتبول تحت الحيطان.

- روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستشوق رواحتها المثيرة! عطيل فوق ديمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرجا، إنها حقًا لصور منعشة للروح!

تضحك رفيعة الطريق إلى أن يتملكها السعال. أعتم الفرصة للتفيس عن كل ما تراكم داخلني من أوجاع الطريق.

- أنكر يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الأدميين طبعًا). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئنت تحت لضرب لتصطف الواحدة وراء الأخرى في ممر لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبادلته القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرد علج، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمر إلا بمخيلة البقر؟ ما هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع أمي يضع بين قرنيها مسدسا بكتام للصوت. يضغط على الزناد فتتهوى على الأرض كل صاعقة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلقة في الهواء ميتة - أو هذا ما يتناه لها المرء - وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كذلك التي شاهد في الموانئ. يتقدم أنذاك الجزار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتندقق شلالات من الدم والرجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي

معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزارين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستل الأحشاء، الذي يقص بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذلك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضع دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين.

على فكرة هل انتبهت يوما لكون الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أضرب بحدائي يوما وأنا في حالة هستيريا ثعبانا، أو فأرا، أو سرب نمل، فصدر منه سبب أو صوت منكر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُذبح. لَمَّا يثب الأسد ليمسك بأنيابه حنجرة الغزال يُقتل الأول ويموت الثاني جحفاً بهما وقارُ الصمت. أما عند الأدميين فيرفع القتل عقبرته بعويل يجمد الدم في الشرايين والقائل يصبح كالمجنون يحيا الامبراطور أو عائش الوطن وحتى بلاهة من نوع يحيا الموت.

كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء -إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات- أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدعون؟ ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟
- ربما معك حق، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعا الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟

- ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟

- موافق شريطة أن يقبل البعوض بهدنة وألا تترصد بنا الكوابيس على الضقة الأخرى. إنها ليلة تشبه كل ليلة ولا تشبه أي ليلة. ليلة أرق تنتظرنني رغم إرهاق يوم طويل، ليلة ستضوّر فيها الأسود جوعا هي التي لا تصطاد إلا في حلك الظلام. ليلة تنام فيها الطرائد نصف مطمئنة والبنر المكمثل يدفع عنها رعب الأظافر والأنياب.

"الليل وطوله شيكي)

والقرود يرنو إلى السماء حثرا

كيف الإمساك بالقمر؟"

على خط التماس بين لوعي واللاوعي يصبح صراخ الكائنات مفهوما. تتحقق أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبادل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن شجرة سنط شاهرة شوّكها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعا طالبا النجدة، فتصرخ جحافل النمل الممتطية ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القاتل.

فوق الرقعة الكبرى لاعب الشطرنج مواصلا لعبةً تتزايد إثارة وتعقيدا. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها، ولا يبخل على الصياد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصياد؟ كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بذاته.

*

من الغد توفظني رقيقة لسفرة:

- انهض، إنه الفجر. يكفي ما نمت.

- عن أي نوم تتحدثين، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا اليعوض.

ما أرق هذا التنسيم. ما أروع هذا الهدوء. ما ألطف هذا الجوّ. يا ما في هذه اللحظات من سحر! صدق من قال: إن استطعت، فأجعل كلّما حيثك فجرا (المسعودي).

أي شيء أهم من التمتع بهذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء. كم صدق أيضا المثل الصيني: اغتنم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصوّر.

تهز مرافقتي كتفّيتها تستعجلني لعودة الركض وراء أشباح حيوانات.

نزدر فطور الصباح لننطلق مجدّدا بحثا عن أصحاب الأثار الذين يعدنا الدليل إنهم سيّدافعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا الأخير.

ساعات أخرى من المشي ولا شيء مما يريد الدليل ابهارنا به.

بدأ الحرّ والفراغ يؤثّران على أعصابي (رافعا صوتي متوجها إلى الدليل المكسوف)

- طيّب والان، لا أرى خدشا ولا آثار أقدام ولا خَر!!!

فجأة يتوقف الدليل ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين الطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. مانا بالضبط! التفتّ إلى المرأة فلذا بها باسمّة مفتوحة العيدين على أقصى اتساع. تهمزني وهي في قمة الجذل:

- وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.

- أنت، أما أنا فلم أصل يوما مكانا أو وضعا إلا بعد الأوان أو قبله.

- اتكون رأيها وترفض الاعتراف؟ فاجانك أكثر من مرّة تخلع نظراتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

- لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أر شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمزّ عمّ تتحدثين؟

يهمس الدليل: فرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظّ بروية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة لسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. مازال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

تهزّ المرأة كتفّيتها.

- سيكون يوم زفت مثل الذي انقضى.

- أمّلنا الأخير في الكسلى، من سهر و البارية إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يغطّون في النوم. كأنني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشربون كل التريعة وسيادتك تغطّ في النوم. أه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل التشايط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الحلو قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو كوكو...

- تغني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سحر جمال صوتها أمةً بأكملها. كوكو كوكو تعجن في البندرية !!

يضع الدليل مجددا إصبعه على شفنيه قافزا كلُّ ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمة.

هذه المرّة وصلت حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول. تنتصب أمامي عن بعد عشرة أمتار على الأكثر أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقها بالغة الطول تثبت عليها رؤوس ماعز أو غزلان كأنها جعلت لرعي السحاب.

ها هي تصطف على شاطئ الغدير تتبادل بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة.

تنجح أخيرا في إزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال ثم ترفع رؤوسها بسرعة كأنها تخشى مفاجئة غير سارة.

فجأة تتواجه زرافتان فينقطع عنق الأول مع عنق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نباتا في اتجاهين معاكسين. ثم تدير لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تختفي عن الأنظار بلسرعة التي برزت بها.

من جديد، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع هذا الذي أسميه منذ مدة غير بعيدة "الشيء".

هلا أنرتني أخيرا !... هل هذه الكائنات التي جئنا نتعقبها وتلك التي تعوننا عليها وتعونت علينا مشاريع تجرّب عبرها إمكانيات خلق لا تتضب أبدا؟... في هذه الحالة ما الذي تجرّب في الأمامي بعد أن استنقنت الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال دون توقف من قطب إلى قطب؟
تصرخ مرافقتي:

- اللعنة على هذه الحيوانات الغبية، لم تترك لي الوقت لأخذ أية صورة.

يتوجه إليها الدليل بنبرة من نقد صبره من الأبلهين:

- ياسيدي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثا عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أيّ من هذه الحيوانات المقام في مثل هذا المكان .

لا، لست إلا عجوزا خرف قبل الأوان... كل ما في جيبك اللعب على تنوع الأشكال وتغيير المقاييس... هل لك حقا بعض التجديد؟ مثلا علم بلا كواسر وطرائد، ومع هذا لا يخلل له توازن.

تنوجه إلى امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.

- على فكرة، سيانك لا تحمل أبدا كاميرا ولا تهتم بالنقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفلرغ.

- هل انتهيت أنكم تستعملون في لغتكم فعل shot لأخذ الصورة.

- وحده شخص سيء الظن بالبشر وخاصة بقومي يظن أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

- اللغة أكثر من وضع ملصقت الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلم ورويته للعالم وتعامله معه.

تغير المرأة الموضوع مجرّبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟

- أفضل صورة مع الفيل والثور والكركن وحيد القرن، بمحض الرضا وكلنا أحياء نرزق. إذا رفضوا لي الأمر، فسلكتي بصورتي أتوسط العزة والبقرة والحصار واضعا ذراعي على ظهره، أمامي الديك والكلب والحمل وخلفي الحصان والجمال يعبثان، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت علي جناحيها ولا بأس أن يكون في منقلها غصن زيتون.

أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي تترصده وراء الأعشاب، ثم سأصرخ مثل طرزان أنبهاها لوجود لحم طري شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.

- انتظر نتوّقها وستعرف تكلفة بطء الأدميين في الركض هربا من الأدميت.

نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات لعينة قرزت أن تمنع عنه بقشيشا يدرك بخيرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق "فلاش" الكاميرات أو رصاص البننقيات عليها.

يلتقط الذهن الشلرد آخر جمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:

- حقا، سوء الطالع يلاحقا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعادة رؤية البعض منها حتى أول يوم.

أنتخل في الحديث:

- ققط هنا في الأحراش؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكيز حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخمنني. حقا، إنها حيوانات عجيبة.

تيز مرافقتي كتقيها.

- ققط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجرّ صغار القوم إلا أشبع الكلاب.

- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد من المارة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقتبل العمر لظراوة لحمهم.

- يا عدو البشرية، لا تنتظر مني تعاطفا إذا التهمك قطّ جانح من قسط هذه المحمية اللعينة.

- لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظمي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قديدا، أه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجفبه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أقطع منه مذاقا، مالح، تنكسر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قرّزت إناثنا لسبب لا أعرفه ولا أظن أنهن يعرفنه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

فجأة يتسمر الدليل من جديد في مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.

تجثو مرافقتي على ركبتيها وكلها تاهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:
- هل رأيته؟

- أه طبعارأيته، هل تعتقدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعكس.

- اطمئني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهمس متوجها إلى الدليل:

- عفوا، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

- الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

- عجيب!

يتنظن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كفيه مفضّلا متابعه الحيوان وهو يدخل ببطء الأحراش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟

تقطع عليّ رقيقة الطريق خواطري.

- بريء أفلت من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.

- لكنه لن يفلت من حنوكم عليه فردا بعد أن دمّرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرون.

- هل جرحك؟ لا تؤلخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألسنت من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟

- كل الأمر توّرعني بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، و....الحرج.

هل كنت تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الأدميين، وأن له تقريرا عن رحلته يجب أن يدوّنه لينال به الشهرة بين بني جلدته السميكة؟

على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على مانا أركّز
وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشذ انتباهي.
تستعيد المرأة حيويتها وهي تلفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات
الدليل وهو يهني، صاحبة البقشيش المنتظر ببطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا
فعلا رميم غزال طومسون اصطادته حسب رأيه لبوة ماهرة لا أسد كسول خلافا لما
يعتقد أغلب السياح.

*الصيد! أهمّ حدث يشهده هذا العالم منذ الأزل... نوعان اساسيان منه... الأول صيد
الأسد للغزال... من ثوابته ضراوة انقضااض الصيد وثاقفة مراوغة الضحية، الحسم
السريع بالخاتمة السعيدة للأكل والفضيحة للمأكول أو بتجدّد العقد بين الغزال والحياة، بين
الجوع والأسد... الثاني صيد تثين الكومودو لثور راقد في الوحل يكتفي بعضة واحدة لا
تنسب له إلا في جرح بسيط لكنها تحقنه بسم بطيء المفعول... لا يبقى على التثين إلا
ملاحظة ضحيته أحيانا لأسابيع ينهشه هنا وهناك وفي كل عضّة يحقنه بمزيد من السم إلى
أن تخور قوى الثور فيسقط لضة سائغة تمرّقه المخالب والأنياب وهو نصف ميت نصف
حي... يأخذ صيد الأنمي للأنمي من تقنيات الأسد والكومودو، والظروف وحدها من تُملي
أي الخيارين الأفضل.*

يتواصل الهمس بين الدليل ورفيقة الطريق بخصوص الفاعل والرجل يؤكد لها أن الفاعل
ليس الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة الذي قد يكون قريبا منا لأن الفهود تفرّ
بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني أوى.
حتى هنا كانت يسرق بعضها البعض وتحتل لوضع الغنيمة خارج شره المنقسين،
كانتات جائعة تبحث عن كانتات خائفة وكانتات تبحث عن النجاة من كانتات
جائعة، المسكينّة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا يوجد، لو
تمعنت هي في مصيرنا، ما جعلها تحسننا عليه...
فجأة تتحرّك بعض أغصان أشجار قريبة منا يتعالى منها صراخ منكر.
بهمس الدليل: لا تهتما، مجرد خصومة قردة الشمبانزي.

أهمس في أذن مراقفتي:

- على أيّ شيء يتخاصم بنو عمومنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شبيهة مكتنزة العجز
على خلافة طاغية مسنّ، على الشهرة بين الشبلب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدى
الذي تهدد حدوده المقدسة جفاف الأعداء؟ لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ
الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان.
تضحك مرافقتي.

- ليس الأمر دوما هكذا. تذكر ما يُقال عن بني عمومنا الآخرين: اليونيو. يكفي أن
تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال

غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما إن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى إلى شعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتنزعا بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.

- لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصلح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.

تطيل مرافقتي للنظر إليّ ثم تسألني لا تخفي سخريتيها.

ماذا تفعل؟ تشم أوراق هذه الأشجار العجفاء !

- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأفني وأضعها على طرف اللسان متحصّرا على عجزني عن استنشاق رائحة الشمس وتذوّق طعم السحاب.

الأشجار!... لا أحد من زوار هذه المحمية يعيرها أدنى اهتمام وهي أعجب وأغرب كائنات هذا المكان قل أعجب وأغرب محتويات الحاوي الأكب... عندما يكسر لها غصن تخلق لها غصنا جديدا على عكس الأدمي الذي يستطيع تجديد ذراع ذهبت به قنبلة... هي لا تموت لما تنمر النيران تسعة أعشار " جسدها " وإنما تتجدد بينما يكفي أن يتمر المرض عضوا واحدا من الجسد الأدمي حتى تنتهي حياته... يركض الأدمي في كل اتجاه لحل مشاكل الجوع والعطش والشجرة تحل كل مشاكلها ثلثة في مكانها... يقال إن من سخرُوا حياتهم بحثا في أسرارها لا يكادون يصدقون ما يكتشفون... هي تتكاتف وتتعاقد بينها تتبادل المعلومات عن الأخطار التي تهددها... هي تدافع عن نفسها تتسمم الحيوانات التي تتبالمع في قضمها... هي تتعاون مع الفطر، مع النمل، مع الطير، مع الريح وحتى مع النار للحفاظ على وجودها... آه لو كنت قادرا على فهم ثرثرتها الصامتة... هي قمة التكنولوجيا النظيفة والنكية في التعامل مع الماء، مع الريح، مع الحرّ والقرّ... ما بدأ يتضح لكبار الباحثين أن الأشجار تشعر ولو أنها تشعر لا كما نشعر كما أن الأزهار تسمع ولو أنها تسمع لا كما نسمع وكما أن الحيوانات تتكلم ولو أنها تتكلم لا كما نتكلم... كل هذا النكاه الصامت وفي المقابل كل هذا الغباء الصارخ لكائنات منتصبة على طرفين تجهل كم تدين بوجودها للأشجار التي تجتث وتحرق دون أن يرفق لها جفن ! ينظر إلينا الدليل مطولا لا يخفي ملله ولسان يقول : كفى منكما ومن هذا اليوم اللعين... أمامي للمخيم لاستريح من وجوهكما.

نهار آخر من الغبار والحرّ والجري وراء الأشباح انتهى ومعه العذاب اللذيذ.

سمر الليلة الثانية

في المخيم تصرّ مرافقتي على مواصلة الترتوة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت وهم جنبنا إلى جنب.

قالت والنار نلتهم آخر الأغصان وشخير الليل يعلو ويهبط:

- يا رجل، قلت لك انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكر؟

- في ضرورة العودة لعبادة الأشجار أينما وجدت وعلى أية حال.

- العودة لعبادة الأشجار! ... يبدو أن الحرّ أثر عليك أكثر مما كنت أتصور.

- ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موفى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرة عبقرية كهذه لعبادة لامي يدّعي أنه ابن الربّ! برّيك هل في الأيمن ما يُعبد؟

- ثمة كثير من العنصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصري معاد لكل البشر السود والبيض وبقية الألوان والأشكال.

- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم، خاصة الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كانوا يتقمّون لها بالاعتذار عندما يضطّرون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن للشجرة تبكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت اقتلاعها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلنا نأمل بمستقبل للبشر أن منهم من يتجمعون آفا يحقنون بالشر المقس، ويتعدون للقوى التي ترقد في الجذور والجذع.

- نعم المشكلة أن التننيس لا التقديس هو اليوم القاعدة.

- أنكر يوم مشيّد وراء نخلة مقتلعة لحينها، وجزّار البلدية البيئيء الحامل لجنتها يسدّ الطريق، وطابور طويل من السيارات وراءه. كم كرهت الأعياء وهم يزمرن بعصبية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات. أحيانا أتساءل الطريقة التي تموت بها الأشجار. على فكرة ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نانية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة. عشرة آلاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتبجج تقرير له الحد الأدنى من الجديّة. أه، لو علّمتني سرّها.

برّيك، ماذا لو فقدت الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لنتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبعث إليها الأطفال والعذارى نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدسات التي لم نقدّمها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها وإن نطلب منها شيئا باستثناء أن تمنحنا مجددا ظلّها وجمالها.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين مترا بين أغصان شجرة سيكويا عمرها ألف سنة، تحميتها بجسدها من منشل تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنث الثلاث وعشرين سنة تقّات بما يرفعه إليها من مؤونة حقنة من العقلاء مثلها. لم تقبل بالزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها "لونا" لن تقفّ خطيا. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول "نحن لا

نتصرف كما يجب أن يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما قابلا للسكن “

- هل عليّ أن أفهم أنك تحاول أن يمتلئ قلبي بالإيمان القديم؟ لكن قل لي قبل أن أقبل بدينك الجديد، كيف هي اللطوس؟ حنثني عن الصلاة مثلا، كيف تقيمونها أنتم عبدة الشجار.

- كل صباح قبل الذهب للمستشفى أردتي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. الزراعان إلى فوق عشرة مّرات، عشرون مّرة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحراس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلّص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين.

- ويعد الصلاة؟

- مُتقطع الأنفلس أجلس في حضرة المهابة والجلال مرددا في سري: يا سيدي جوناس، يا سيدي جوناس!

- من؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.

- جوناس، الاسم الذي أطلقته -هكذا نون سبب- على الكائن غير الأدمي غير الحيواني المشروف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البط ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن الغوث والمحجوب وسيدي الخافي وسيدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.

- أشجارك ومنها هذه التي تتترك بها -إن سمحت لي باستعمال المصطلح المجمع عليه- فيها من يسمّم الحيوانات ومن يخنق أشجارا أخرى وكلها تتصارع بينها على الفضاء والشمس.

- ممكن، لكن هل رأيت يوما شجرة تقول كلاما بديئا، أو تغّي “أهواك وأتمنى لو أنساك؟”. آسف للخبر المفزع وهو أن أعلى درجة سلم الكائنات الثابتة وبعدها تأتي الحيوانات وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

- لا بدّ أنك كنت في حياة سابقة قردا مشاكسا ومعارضاً ففّر لك أن تمسخ أميا في هذه الدنيا كأشدّ عقاب.

- تفسير منطقي. لهذا حولت في هذه الرحلة أن يبقى ملقي نظيفا علّ السلطات العليا لعلمها تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.

نعم لن أقبل بالبعث إلا نخلة أو زيتونة أو أرزة والأفضل شجرة كاوري أو سيكويا ، شامخ الجذع، ولرف الأغصان، رام بجنوري بعيدا في أغوار العتمة... في شرابيني تتنقّق عصارة الحياة، محمّل بكلّ البذور، بكلّ الأزهار، بكلّ الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد... محمّيا بظلي يفكر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشردّ، يتسلقني الطفل... على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أطعم من هبّ ودبّ لا

انتظر جزء ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحدا أو حدثا، لا أخشى أو أمل شيئا... صلب، تين، هادي، صامد في وجه الأنواء والدهر...الرياح والفرائس والنحل رسل أشواق... تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم يقصص الليل منتبه، شارذ الذهن، أغفر على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوي تلثم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.

*

تلتزم مرافقتي الصمت وكأني تفكر في منفع أن تبعث هي الأخرى شجرة . ثم تغير موضوع الخصام المقتعل.

- لننم أشجارك المقدسة وهذه الحيوانات اللعينة التي تصر على مواصلة لعبة الغيضة معنا. تعال، كن ودا طيبا. قصّ علي قصة مسلية ورقيقة كذلك التي تُحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الأسمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ووثام، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. لك لي مثلا عن دبّ النسيج الذي كنت لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كلبك الصغير الذي كنت لا تفارقه.

- ليس لنا دببة في الصحراء، اللهم إلا إذا كانوا أخفوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأمرين.

- ربما كل لك نمية جميلة لجمال أو كلب أو حمار.

- أخشى أن تضحكي مني إن حدثتك عنه، عديني بعدم فضح الأمر.

تُعدني مرافقتي بالأمن وأنها لن تفضح السرّ، على الأقلّ طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة بل ومن بدايتها مع بعض المبالغات القليلة هنا وهناك. كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرقق السماء والأرض بهرجة الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي.

كان جدي لا يملك غير حوش متداخ وحمار وجمل يعيناه على أعماله الزراعية وقضاء حوائجه الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخمسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلا. باعت كل محاولاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلّقه وهو بجرمه وأنا بقامتني؟ وإذا وجنته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنت باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قرّرت تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكن معهم. من يومها قطعْتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة معرفة في القدم بين قومي وقومه.

لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أنقذته إياه من أصناف التعسف والدلال. كان عنتز سهل الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأنّي فارس الفرسان أركله في جنبه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ

فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثم أخرج سفي المصنوع من سف النخل من غده أرفعه عاليًا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرت على أعداء أبي.

- هل كان جدك يتركك تأخذ حملاه متى شئت؟

- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى من فرط تسرعني فك الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدي، كان ككل جد يحترم نفسه ودوره ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطان عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كل يعرف حبي الشديد لعنتر، لذلك كنت المكلف الرسمي والوحيد بلأ أخذه ليشرب من العين، والمشرف الأول على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ما تزال توح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القرب الرطبة المطلية بالقطران.

- توقّف ستيكيني. لا أتصوّرك تحدّثت يوما عن رائحة حبيبة فرقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثير.

- يا امرأة، أحدثك عن عنتر وتحذيني عن النساء! أه يا عنتر، كم كنت أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طليقا تسطو على حريم الغريم، توسع ملكك وتطرد كل حمير يُحصّر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد من تحنى الأذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الناس حمار مثل حماري! أه يا عنتر، رحمتك الله أوسع رحمة، رزقني فيك جميل الصبر والسلوان وأسكتك فسيح جناته، في القسم المخصص للحمير. بالمناسبة، ألا تشاركييني استهجاني الشديد أنه لا أحد من حكماء الأدمية، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الأدمية الثابتة منها والمتحركة، فسأحمّل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في فضاء خيال البشر لجنة للبعير والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قلبته من كائن لا يجازى في الشر اسمه الأدمي. الاستثناء الوحيد الفئران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة في خيال من يعشقها.

- الخلود للحيوانات! ألا يعني هذا الاعتراف لها بروح الحيوانات لها روح!؟

- لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فيبالتأكيد له روح. لا يجذل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية الأسميين. ألا تعلمين أنه لولا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشكّن إلى المحراث.

عن تكران الجميل حدّث ولا تسئل... هل كنا نتعلم الصيد لولا أسننتنا الذناب وحلقونا الكلاب؟... هل كنا نصبح مزارعين وبناء قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاة وفرسانا لولا مطّهم الخيل؟... ألم تشكل الحيوانات النموذج والقوة، ونحن نحاول تقليد هببة الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب وذكاء الغراب؟... على الأقل رسم أو ثلثنا لها اللوحات على حيطان

الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد... أما نحن أحفادهم الأغياء فنستغلها دون حياء أو عقدة ذنب أو نضعها في أقباص من مختلف الأحجام .

- واصل رواية قصة حيك الأول ...

- فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتز، لكنني حملت هواه في فوادي على مرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيتّ محصننا قلت: لم لا أشتري حمارا أسكنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفّر عن كل خطاياي السابقة بمنحه نوعا من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نكّلت به البشرية على مرّ العصور؟

- أخيرا عرفْتُ ما ساهديك. تريد أخذه معك في الطائر؟

- لا داعي لتكلف المشقة فيلدي يعجّ بالحмир، بل منهم من تبنوا أرقى المناصب.

- تكترني بذلك الأرستقراطي الذي نشر إعلانا عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الجيرى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقلموا دعاوى قضائية على الرجل. بجدّ، ما الذي كنت ستقبل بحمار بطل يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحني. كل المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس لسياسي الثائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقبْتُ جيراني وكلهم ميسورون لا يركبون إلا المرسيديس؟ ماذا لو تقطّن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صحفّ السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!

- فعلا كانت حظوظك لإقناع مواطنيك برواك دوما معدومة. لكن لو اكتشفوك في الثالثة صباحا على ظهر حمار لأصبحت معدومة ونصف.

- خاصة مع قرية الماء. أعترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلّى عن حلم جميل كهذا.

- من الجبن أو من التعقّل؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. يُدين أغلبية القوم أن الكذب قولم الأقوال والجبنّ قولم الأفعال. المهمّ، تخليث عن المشروع برمته ولم يبق لي للتفيس عما في وجداني غير حمار الفلاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعانتني على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسّدك. لا أشتهي شيئا قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حدّق في الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيرتُ موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرّق إلى إمكانية أن تربط حمازه أواصرّ نُسب بحمير الجنوب وربما لم لا بحمير قومي، وهل يمكن أن يكون -

هكذا بمجرد الصدفة دانما من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما قصده ولا سر اهتمامي بداية لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جل الأميين في مثل هذه الكائنات المفهورة الأسيرة.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجدياء التي حكم علي ظلما بالانتماء إليها، أصبحت أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جنح الظلام حيث لا وجود لبوليس سياسي. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أوصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعيس برمته. تصورييني على عنتر الثاني متسكعا بين المجرات، أזור الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غازيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرا ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقيني، لا عدو يهددني، لا خصم ينقسنني، لا نصير بيتزني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تخلا ولا بنت تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردد وقد أيقن أنها مقلضة رابحة مسبقا بين طبيب برجوازي من الأحياء الراقية وريفي مكرر. نتحنج بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحتُ فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستكثار الشديد في عيني فسارع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مائة وأربعين. انفجرتُ في وجه الرجل وقد اتخذتُ تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ علي وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوي هذا الثمن وحتى أقل، هو أنت وكل الأميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم لتسميم حياتي. يوما جمع الرجل فلسه وبقية أدوائه وهرب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شك أنه اقتنع أن من يتعقونني على حق في مراقبتي. ماتزال مراجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلما تنكرت الثمن الذي طلب.

- وهل كنت تريد الحمار مجانا، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

- لا تقتعلي عدم الفهم.

- بصراحة، هل كنت قادرا على دفع الثمن الحقيقي؟

- طبعاً لا. كل أموال الدنيا لا تشتري تلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهاذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها... تلك الجلد الأعجوبة... ذلك الجهاز المناعي العبقري... تلك الحواس الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان... تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرة من أي مصنع عصري اخترعه الأميون!

حفنة من الدناتير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تطلب ابتكارها وتجريبها ملايين السنين!

حفنة من الدنانير قيمةٌ تعقيد مخيف يكشفه الباحثُ، فأغرا فمه من التعجب والإعجاب في كل خلية، في كل نسيج، في كل عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون بفرزه هذا الكائن تُكَلِّف الملايين، ويقول لي هذا الأحمى الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين ديناراً!!!

- ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعر الحمار بمليار راند.
- لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عترة.
- تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعا قديمة.
- الدور عليك أنت... في ماذا تفكرين؟

- في غياب تكلفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأن القطط والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والفئران والعصافير والحجاج وبقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جديرة بالاهتمام، أو أقل غرابة من هذه التي أتينا نتعقبها.

نعم وألف نعم، هل نحن حقاً بحاجة إلى الهرولة في كل اتجاه والروافع على أعتاب بيوتنا؟ عجبني ممن يتدافعون إلى المتاحف والمحميات وأعمال الفنان الأعظم على نعمتهم، مجاناً، في كل لحظة على مرى حجر من بيوتهم.

- لا تغتمني، غداً يوم آخر سنرى أخيراً الكبار الخمسة مصطفين رافعين لافتات الترحيب والاعتذار.

- غداً يوم آخر ستواصل فيه استقزازي. ليلة سعيدة. ثرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟

- ثمة من يهتف بسقوط الأحميين بصفة عامة، ومنهم من يخلط بنا نحن تحديداً: Go home، Go home، home

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعاً إلى الضفة الأخرى من هذا العالم لربما تلاقي فيها هذه الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة. أي نوم في هذا الضجيج؟ يا الله يا جماعة. لو خفقتم الصوت قليلاً لتتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود. أه يا صمت صحرائي الغالية!

سمر ليلة الرحيل

نهار آخر من الغبار والفراغ والحر انتهى ومعها العذاب اللذيذ.
في المخيم تصر مرافقتي على مواصلة الثرثرة، لا أصعب على الأحميين من التزام الصمت وهم جنباً إلى جنب.
- كلمني.

أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أول نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكارني، وترتخي أعصابي، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي؟

- يجب أن يقتصر اليوم على شروق لشمس وغروبها، على أولى تبشير الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهرات العائلية ومنغصت العيش الأخرى. بربك لماذا يجب أن تكون هناك أوقات غيبية مثل الحادية عشرة صباحا والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ من حاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكارى ومدبري الانقلابات؟

- بما أننا دخلنا في تنظيم الزمن على هوانا، أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحفظ إلا بلسيت والأحد.

- السميت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا. هو محتمل بكل تهديدات الاثنين.

- وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

- يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعلقة، وأكتوبر لأنه شهر العرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي ويلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحب برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من المشاكل المقرفة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلا. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوما وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إذن إكراما للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكثوية ولا نلظن إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحز ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحا والسادسة مساء ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك أن يكون حقا زمنا رائعا وقد طهرناه من كل وقت مضيق للوقت؟

- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيديتك؟

- كل التي أعقبت ظهوركم، على الأقل التي دشنت ما تسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء كمن يسمى ظهور الطاعون والجذام ولسل عصر الصحة! نعم يجب إلغاء المائة ألف سنة الأخيرة. قبلها ولما بين السنين كان العالم موفور للصحة والعافية. تصوّري ثراه الفاحش آنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوّري الديكور الرائع الذي كان يتحرك فيه أجداننا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصلية. تصوّري الفضاءات العذراء وكم كان البحر هدانا على السطح زخرا في الأعماق بما لا تصدق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحار بصدد التصخر جبيل من البلاستيك. بصراحة ألا تعتقدن أننا نوع من الفيروس الخبيث داهم هذا العلم المسكين كما يداهم الأيدز أجسام المصابين بالمرض الخبيث؟

تواصل مرافقتي حتى على الكلام وهي بين فضول واستنكار.

مسكين هذا العالم وقد تورط فينا ورطة لا أدرى كيف سيخرج منها. نعم، كيف سيحل مشكلته وقد أصبح وجود البشر مصيبة وانقراضهم مصيبة أعظم.
- كيف؟ فسّر.

توجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختفاء البشرية مثلاً بوباء لا يبقى ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قبائل بطينة الانفجار تبتّ سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبتترول، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.
- إذن سيتحملنا العالم طويلاً لأنه لا خيار له.

- نعم سيتحملنا من باب "مكره أخاك لا بطل". ألم تخالjk الفكرة يوماً أننا بالنسبة إلى جلّ كائنات هذا العالم غاريت مثيرة للتقزز والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي الساعات أمام المرآة تثبج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتها إلا وانفجرت بالضحك.

- ما أنا متأكدة منه أنني لستُ العفريّة التي تصف بالنسبة إلى كلبى وأناى لو متُّ غدا لُخمل الحداد عليّ.

- كل الحيوانات ومنها كلبك ستُقيم الأفراح والمآدب. لو اختفينا لما افقَدنا إلا الجراثيم والطفيليات والفطور التي وجنت فينا مرتعاً خصباً، خاصة القمل ونحن مصدر قوته الوحيد.

كم من أنمي ينتبه لكونه عالماً بأسره تسكن جلده وكل فتحات جسده جراثيم لا تحصى ولا تعدّ وأغلبها ترتحل طيلة حياته داخل أمعائه تعيش وتموت فيها.. كم غريب أن نكون في أن واحد رحالة في علم وعلم ترتحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

- عدت للسكوت، أي فطاعة أخرى تختمر داخل ذهنك يا عدو البشرية؟

- نقيّة صمت حدادا على كل الكائنات التي نكل بها الأدميون، وخلصه أمم الخرفان والبقر. نعم يجب إقامة التماثيل للفار وهو الكائن الوحيد الذي كل الصاع صاعين للأدميين عبر ما كان نقل إليهم من جراثيم الطاعون.

في ملفت ما زال بعيداً في غياهب المستقبل صور مرعبة عن مُنثّ مطوّفة، عن شوارع مُقفرة، عن مستشفيات تفيض بالمرضى، عن ملايين المحبوسين في بيوتهم يتابعون مذعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفزعة عن فيروس خرج فجأة من المجهول مفاجئاً الجميع بتجاسره على الكبار والصغار، على علياء القوم وعلى الدهماء، على أفقر الشعوب وأقوى الدول... لا شيء يُختزل نجاح تطاوله على الجنس البشري وعلى صفوة من فيه كدرّ وضع أمة متعجرفة وهي شاهرة صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها، أقمارها الصناعية في وجه الأمم المنافسة، تدعى أنها لا تفعل كل هذا إلا دفاعاً عن أرواح وأرزاق مواطنيها... ها هو الكائن المجهرى يقطن عليها فيزهق في

أسابيع قليلة مئات الآلاف من الأرواح كاشفا كم هي عديمة الجدوى صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها وأقمارها الصناعية ويصنف عامة كم هي تافهة أو هام الأدميين عن تفوقهم المزعوم وكم بيالغون في تقدير قوتهم وأهبيتهم وكم هُش وجودهم على هذه الأرض التي لا زال البعض منهم يؤمن أنها وقف عليهم وحدهم... أنتسكي مما تفعله بنا الفيروسات وقد نكون أخطر الفيروسات التي أصيب بها هذا العلم؟

نتنهد مر افقتي تقطع علي تفكير متوجس قلّ.

-المهم أن تبقى هذه الحيوانات اللعينة بعيدة عني هذه الليلة. من حسن الحظ أنها في عالمها ونحن في عالمنا.

- نحن عوالم مترابطة مثل كوم من الدومينو ان سحبت منه قطعة يمكن لكل البناء أن يتهاوى.

- سفسة كالتي تجيد باستمرار.

-اسمعي هذه القصة التي وقعت مؤخرا في بلد اسمه الهند. ظهرت فجأة أوبئة غريبة أتت إلى ارتفاع نسبة الموت والمرض في كامل البلاد. بعد أبحاث معمقة اكتشف المختصون أن الأمر مرتبط بقرص تلك الطيور المذمومة التي اسمها الجوارح والتي تعيش على الجيف بدل تكلف مشقة ونبل الصيد مثل النسر والصفور.

- وما العلاقة؟

- العلاقة يا ست الكل أن الهندوس لا يكلون البقر. عندما تموت هذه الحيوانات تترك في العراء فنقتات منها الجوارح لا تترك منها الا العظام للشمس. باختفاء الجوارح نتيجة تسممها بكل ما تنتج من مواد كيميائية منها التي كانت تترسب في جوف الأبقار التي كانت تقتات منها بقيت جثث هذه الأبقار في الهواء الطلق تتعفن وتصبح مرتعا خصبا للحشرات والجراثيم. هكذا انتشرت هذه الجراثيم في الماء والهواء والتربة ومن ثمة انفجار الأوبئة. وهكذا اتضح لكل كم كان البشر يبنون بصحتهم وحياتهم لطيور يحتقرونها.

- هل أقام الهندوس التماثيل لهذه الجوارح وأطلقوا أسماء سادة القوم منهم على كبرى مستشفياتهم؟

-لا ولكنهم سارعوا لسنّ قوانين لحمايتها وتعهد صحتها حتى لا يؤدي انهيار عالمها لانهايار عالمهم.

- ما نسيته أو تناسيته أيضا هو أن حيواناتك التي تمجد وتتباكى على مصيرها لا تملك ذرة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدد لك ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبر على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواصر تلتهم صيدا ما زال ينبض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صياد رهيب يصارع على الأنتى وعلى الغناء بكل عذف. ثم من أدخل في صراع البقاء الشفقة غير الأدميين؟

- من قال لك إنني ضدّ كلليل الأدميين أو إنني متعاطف مع كلليل الكائنات غير الأدمية؟ أبغض دون حرج أو عقدة ذنب-الذباب والبعوض وكل هذه الهوام التي أطلقتها الإدارة العلمة وكأنها الأظافر المقصوفة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفأة. أرايت أفصح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الأمي الجديد. بالمقارنة-آية في الجمال. والجراد، من أي مخيلة مريضة خرج كائن كهذا؟ تبتسم مرافقتي وكل ملامحها تفضح تئرا تريد اخفائه. ثم تغير الموضوع كما يفعل المحرّج دوما.

- افترض أننا... انقرضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.
- الأوفر حظًا للإرث النمل، لكن دعمي غير المشروط للدود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الدود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر والبستاني الذي أعدّ لتكون حاضنة الحياة.
تنتهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعتراقاتها للقسيس أيام الأحد.

- بجدّ بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستتدارك حتما خطأ تغييبك عند وضع التصاميم.

- لسبب ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيت في هذا العالم الملآن بالكائنات الجدة العليسة غير الأدميين يضحكون ممّا يبكيهم ويبيكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم من أقصموا في هذا العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. قد تكون هذه الأسباب الوحيدة التي تجعل السلطات العليا تواصل المراهنة على تجربة لا أحد قادر على التنبؤ بمآلها.

تجنّبي رفيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.

- والآن وهذه آخر ليلة لنا هل لك أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية؟
أقول لها أم أحتفظ برأيي قد لا تفهمه.

- مرة أخرى ولن تكون الأخيرة: لماذا أصررت على هذه السفرة؟
أعترف أم أعتبر الموضوع؟

- لم تردّ على سؤالي.

أقول لها إنني جئت حاجًا لما نعتقد اليوم أنه المكان الذي انطلقت منه ملحمة الأدمية.. فمن هذه الأرض أو من أماكن قريبة منها انطلق أولنا جريا وراء الطراند والمطر وإغراء ما وراء الأفق طوال مئات الآلاف من السنين إلى أن وصل بهم الطريق إلى القمر... في هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكلت النماذج الأولى للذين والسحر والعلم لترويض القوى المرعبة المتحكمة في مصيرهم ... وفي هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد لشعر والأدب والراوي حول النار يردّد ملاحم

كبار الصيادين...في هذه الأرض أو ما جاورها اخترع الأوائل السيلسة والقنون
والتقاليد لفض نزاعاتهم حتى لا يصبحوا قرانس بعضهم البعض
كلّي أذان صاغية.

- الحقيقة أنني جئت لإثراء نص يتطلب استجواب سكان المكان حتى أعرف كيف هو
العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبنى عمومنا المتأرجحين على الأغصان.
- خمس دقائق من الجد لا أكثر.

لم أكن جدياً في حياتي أكثر من هذه اللحظة... نعم كم بوّتي استكشف كيف هو العالم
بعيون الدلافين والفراش والنورس... كيف هي صورته داخل ذهن الفيل والنمر... كيف هي
الطبيعة عندما ينظر لها التسر من القمم الشامخ بعينه التي تُبَت داخلها مجهر يبصر أدقّ
التفاصيل... هل كنتُ سفضل عالم القطر هو على ما يُقال بلون الرماد، أو عالم الكلب وقد
اختفت منه حمرة الشفق ولا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء وخضرة الحقول؟... يا
ناس، أريد استكشاف هذه العوالم، حالا، الآن، على وجه السرعة وإلا سأشكوكم جميعاً إلى
"ما"...

للأسف حتى هي لن تستطيع لك شيئاً...

نعم محكوم عليّ وعليك أن نرتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الاليمين. أما هذه العوالم
المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمتنا، فحزّمة إلى الأبد... ترى كيف هو
الوجود حيوانياً وشجريا بالمقارنة مع الوجود آدمياً؟ لكن من أين لنا دخول ذات الحيوانات
والأشجار، والنساء بالكاد يفهم ما يختلج داخل الرجال والرجال بالكاد يفهمون كيف هي
حياة النساء؟

وماذا أيضاً؟ أفرغ كل ما في جعبتك.

- جنّت أيضاً على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا بكتشافه وراء كل الأشكال
القدسية التي بليس.

- جنّت تبحث عن... الله... هنا، في محمية حيوانات برية؟

- أين تريدني أن أبحث عنه؟ في معابد تقبض بموظفين يتمعشون منه دون حياء
وبشحثين يتسولونه دون كرامة.

أضاعنا الفلاسفة والمندبنيون والسحرة الذين اختلقوا لنا صورة كائن هلامي مخفي،
بعيد، ملتحف بالغرابة والسرّ ولا يمكن لعين أن تراه...

وأعجّ الأرض تخلو منك حتىّ (الحلاج)

تعلّوا يُطلبونك في السماء

تراهم يُنظرون إليك جبراً

وهم لا يُبصرون من الغماء

انظر للمولود الجديد وستراه... انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه... انظر لتفتح الوردة
وستراه... انظر لجمال الفهد، لجلال الأسد، لأناقة الغزال وستراه.

- ابحث عنه أين تريد أما أنا فلا أعتقد بوجوده أصلا.

- لا أعبى منكم أنتم معشر الملحدِين. تخططون بين حاجتينا إليه وبين تصورنا البدائية له، بينه وبين القضاعات المرتكبة باسمه، ترمون كما يقال الرضيع مع حمام الماء القدر.

- أما أنتم معشر المؤمدين من كل النحل والملل فلا أدكى منكم. والدليل أنكم لا تتفقون على تصور لهذا الرب الهلامي وتتقاتلون بينكم لمعرفة المفضل منكم عنده!

- أتعرفين مقولة غاندي "الله بمثابة قمة جبل وكل الأديان مختلف الطُرق التي تؤدي إليها لا يهَم تسلق الجبل من هذه الجهة أو من تلك. بقدر ما يتباعد الأديان عن السطح الذي انطلق منه طريقهم، بقدر ما تتطهر مشاعرهم وترتقي أفكارهم بقدر ما يقتربون من الله وأيضا من الأديان الذين تسلقوا الجبل من جهاته الأخرى. كم صدق الرجل، تأملي حياة ومقولات كبار العقول والقلوب في كل الأديان، لن تجدي بينهم فوارق تذكر.

- نعم وأعرف أنه قال أيضا "الأديان لغات ناقصة يستعملها أناس ناقصون للتعبير عن حقيقة كاملة"...مما يعني منطقيا أنه لا جدوى من كل هذه الأديان. أفضل مواجهة الواقع على محاولة تجاوزه سحريا كما يفعل كل المتدينون من أمثالك.

- أنت لا تدفعين نقودك لشراء البرامج التي تخرب حاسوبك. لا تختارين إلا أجودها والتي تتماشى مع حاجتك. هكذا ما فعلته الأدمية منذ البداية. شحنت دماغها بالبرنامج الذي يكفل لها كل مصالحها في فضاء الواقع وفضاء الخيال. طبيعي أن يلقى النجاح الباهر حتى بالاسماء والتصورات الساخنة التي يسخر منها أمثالك. كما يقول جورج بوكس: كل لنماذج غير صحيحة لكن البعض منها نفع أكثر من غيره.

- وما هي تصوراتك غير الساذجة له؟

...

تكلم وعليك الأمل.

-التي تستحيي من إقامه في صراعاتنا الدموية..التي تكف عن إصاق الصفات الأدمية به.

- يبدو أنك تنتمي لدين لا أعرفه.

ديني؟ الذي أوصى الشيخ الأكبر.

عَدَدُ الْخَلَائِقِ فِي الْإِلَهِ عَقَائِدًا وَأَنَا إِعْتَقَدْتُ جَمِيعَ مَا عَدَّوهُ (الحلاج)

ديني؟ الذي أوصى به النليل الجليل حتى وإن وضعت الاحترام قبل قيمته الأولى

لقد صار قلبي قلباً كلَّ صورة فمرعى لغزلانٍ وديبّر لرهبان (ابن عربي)

وبيت الأوثان وكعبة طائف أدبني بدين الحب أني توجّهت

ركايبه فالحب ديني وإيماني

تيزر مرافقتي كتفيها أمام كلام لا يعني لها شيئا. فجاءت تسحب هاتفيها النقل من جيبيها.

- ألم ننطق أننا سننسى وجود هذا الشيء اللعين؟

- لا تقلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقا بإحكام إلى نهاية هذه المغامرة الراكبة. فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقل لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد. كلنا ننتظر خيرا ما...

- نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي أنني حققت بنجاح المهمة التي كلفت بها عند الولادة و من ثمة تهاني الإدارة العامة لشؤون الكون .

- ولم تصل لحد الآن! يا عيب الشؤم.

- ستصل حتما يوم أقرّر فحواها بكثير دقة مزيفا امضاء الله .ستسلمها يدي اليمنى إلى يدي اليسرى فأفتحها خافق القلب لأرقص طربا وأنا اقرأ ما فيها من أخبار رائعة تتجوز كل أحلامي.

- وفي الانتظار ، جنّت إلى هنا لعلك ...؟

- جنّت أبحث عن تجربة تحصل تلقائيا ودون سابق إنذار أسميها اللقاء ... معجزة لا أفهم طبيعتها. إنها تجربة فريدة عابرة كلمج البرق تمر بها الذات وهي تكتشف فجأة ذاتها في مرآة ذات أخرى...وهي تعي كم تتشاركان في نفس الآلام والأمال وكم تتعطشان لنفس الحبّ والطمأنينة والاحترام ...وهي تنتبه أن وراء الصورتين صورة ذات النوات... وهي تفهم أخيرا أن كل ذات ليست إلا لشكل-الحالة -اللحظة لهذه الذات القتوس.

- ومتى عرفت أخر مرة مثل هذه التجربة؟

عشية وصولي هرع ل هذه الأسواق الإفريقية التي أعشق وهي طفرة الألوان والروائح والأصوات. انتهى بي التسكع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمال محتشم وقور كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبت ساهمة بعضا ولا شيء أمامها. لما انتهت لوجودي حدقت في باسمة ثم بادرني بإنجليزية أسلم من التي أتكلّم: تُشتري مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبت دون تردد: ليكن. التقطت المرأة الغريبة بعض الحجيرات من حولها. اجنّثت بعض الأعشاب المحترقة. منّت لي الكلّ في خرقة فزرة واللؤلؤ المنضود في فمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكة ومدنتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه. - لما مدّت لي المرأة الغريبة حجيراتها وبعض العشب المحترق أطالت النظر إلى على وجهها ربع ابتسامة حنونة مرحة...تلك اللحظة شعرت بأنه "هو" الذي يتسم لي.

-انتبه، بدأت أغير.

أن الألوان للعودة إلى الهزل والى مواضيع أقل حساسية...أو هكذا يبدو...

- لا داعي للغيرة، هل تتزوّجيني؟ بشرفي أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضرربون نساءهم.

- لحذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضرين أزواجهن، ثم هل ستقدر على مهري؟

- كم؟

- مائة بقرة ببيضاء على الأقل، هذا إذا أعجب منظرك أبي.

- للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعنزة. تبقى السخرة عنده لبيع سنوات. هذا أيضا كل معمولا به عند الأوائل.

- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

- قد لا أكون أحسن من يصطاد له، لكن يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن أمتع حذاءه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغذية البيض أحسن مني.

- النقاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أترجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمدك بقائمتها الطويلة.

- هل سمعت بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة إن الحجارة المذبية والأقواس وقلاند الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتمائيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفن أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر لختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كثر يركضون أسرع من الخطيب الخلطف. مسلكين أو اثلنا! سنوات من العمل الشاق لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقول ببيع أنتاجهم بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها.

- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثار، دية من كنتم تغتالون أيها النكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

- تعادل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أس البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن نكرا خرج من جسد ذكر وكلهم نون استثناء بخرجون من أجسادكن أنتن لا غير، ولا أتحدث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتهن التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أس البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة والتجارة فالغنى فالفقر فالسرقة فالعدالة فلشرطة فلسجون،

- فقط؟

- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة والستريت والمافيات أكلة السوشي وأكلة لسياجيتي وأكلة الهامبورجر وأكلة جناح القرش.

- يا لله!

- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حل أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سواعدهم سنوات طويلة عند عمهم المرتقب أملا في الحصول على البنت البلدية. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب بسببكن! لا غرابة أن يكون انتقلنا منكن رهيبا.

- بالضرب والخيانة الزوجية؟

- بما سميناه -وبصوتنا رثة فخر كاذب وتأثر مفتعل-تحزّر المرأة. هل لاحظت أن أهم دعاة هذا الشعر الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شعّلي دماغك الأثوي الصغير. تلمّلي أهم التغييرات المجتمعية عندما تُمكن الأنثى من حق الشغل، من واجب الشغل-ومن التعليم الذي يعدّ له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين الجنسين". سنكتشفين آنذاك أنه بقدر ما "تحرّر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرّر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا. كما حطبتُ أمّ تقاحه وتقيحه، كنت لا أملك شروى نقيز ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدّميا كما كنا نقول تلك الأيام، بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. أنثى بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل! عندي شعورٌ مُبهمٌ أن الأوائل سيركضون ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن أحدهم سيمسك بي يطرحني أرضا ويشبهني ضربا بجزمته.

- سلّم عليه من طرفي وبلغه تضامني وتشجيعي.

- كلّ ما أتمناه أن يتواصل التقدّم في هذا المجال. تخيلينا بعد عشرة آلاف سنة وقد وصل المشروع الذكوري الخبيث إلى هدفه الخفي. ستأتين أنت تخطيبيني من "ما". قد تخيّرك بين مائة ناقة بيضاء أو السخرة لديها لعشرين سنة. فصحك بالعرض الأخير بدل جمع ثمن النوق سذين بعيدا عني. الوالدة امرأة طيبة لن تضربك إلا يوما بعد يوم وسنقتص كثيرا من لحظات الحب وراء ظهرها. بعد نهاية العقد تُلخّذيني عند أمك مع بقية العفش، لكن انتبهني، لن أقبل أن تضربيني فأنا ابن "ما"؟ وما أدراك، وجداتي ينحدرن مباشرة من بلقيس وعليسه والجازية الهلالية.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيتها السعال. مؤكّد أنها ستكتشف طال الزمان أو قصر-أنني كنت لطرف حيوانات المحمية التي زارتها تلك الأيام، أنها لم تنتبه للأمر إلا وهي تودّعني عند باب المطار.

ثم تستعيد جثّيتها.

- تُذكّرني بجذّتي جاثية في كنيسة قريتنا، مع فارق واحد. أنت طول لوقت جاث أمام شموع القداّس والعالم كله معبّدك. والآن كفى تهريبا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

- وهو؟

- هل حصل اللقاء بين أدمي وأدمية تائهين وضعتهما صدف الطريق وجها لوجه.

نعم... ونحن نتبول في الهواء الطلق طبقا لتعليمات الدليل، أنت تُخفين حرك وأنا أكتّم ضحكي.

**

العالم بما هو محتوياته من كيانات ما قبل الحياة

لا توجد سفرة تُجدد فيك أقدم تجارب الأوانل وهم يصلون مكانا غريبا قدر التي تقف بك في مدينة نائية والليل أرحى سدوله.

تبتُّ في ساحة المدينة شبه المقفرة قلعا متزايدا. تتلاطم داخلي مشاعر مغرقة في القدم، عن أخطار مُبهمة تترصد، عن وجع الشعور بفقدان التحكم والأهمية.

كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمى "اليفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تصل بلدا لا يعرفك فيه أحد فالمرحح ليس تغيير المكان وإنما تغيير المكانة... في غير الاتجاه الذي ترغب.

بغرابة سحتتي وجهي المطلق باللغة ما قد أصبحت في أدنى درجات سلم مجتمع يتصارع أفراداه باستمرار على أعلى الدرجات.

والآن إلى أين؟ حتى العلامك لا تعني شيئا وحر وفها مجهولة عندي.

هذا مارُّ ربما يدلني. أتوجه إليه بلغة يُفترض أن أغلب الناس يعرفون بضع كلمات منها.

يعرض عني الرجل وكأنّ الذي خاطبه عفريت خرج لثوه من القبر.

هذا أمني آخر قد يفهمني ولو أن في مشيئته المترنحة ما يجعلني أشك في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيَعوني نادرا ما كانوا من المخمورين.

يُعرض الرجل عني بدوره لا يُخفي انزعاجه.

تبرز من الظلام امرأة لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلاجذب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب لتفادي أن أحرك داخلها أعرق غرائز البشر.

ماذا سأقول لها؟ سيديتي، أنا أجنبي مزمن، غريب محترف، لاجئ بالوراثة، منبوذ بالطبع والتطبع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض.

من الأحسن الاختصار والدخول مباشرة في صلب الموضوع.

سيديتي أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دليني، جزاك بوذا ألف خير.

المرأة بانتسام عريضة:

- أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أهدب أهرام كثيرا، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.

- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

- أه نزل السعادة الأبدية! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيديتي، (بصوت خافت) اللهم كثر من رعشات لذة هذه المرأة لصالحة.

تخيلتُ أو سمعتُ المرأة تنهّد هامسة لنفسها: أمين.

الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمتونك بها.

أخيرا النزول في ابتداله، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأعراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإبهار وذرّ الرماد في العيون.

على فكرة، هل انتبهتُ أن الاماكن الأدمية، شُيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي وسطح خارجي، أن اهتمام الأدميين انصبّ دوما على السطخين يتكفون ما يتكفون لتزيينهما لكنهم لا يقدرّون على شيء بخصوص الفراغ الذي تنغلق عليه كل الأسطح.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قُصر مزرکش بكل أصناف الزينة وأعلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش.

تقول لي: نسيتُ يا مسكين أن فراغ بيوت الأغنياء ملآن بما يتكفون من أموال طائلة لملئته بأجمل الأثاث.

طيب، لكن قل لي كيف يكون التمتع ببيت ممتلئ من القاع إلى السقف بالتمائيل واللوحات التي تضاهي قيمتها ما يوجد في أكبر متاحف العالم؟ لا بدّ من الفراغ الفارغ وإلا في ماذا ستمدّ رجلِك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مسكين أصحاب القصور، كل هذا التبذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض لوحات القصدير.

تقول بدأتُ تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا الهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين! يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع.

رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل الجسد من مكان إلى آخر بالطائرة، ويقطار يكاد ينتظرك تحت سلمها، ثم بسيارة لدفعه أخيرا داخل قفص حديدي بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الوسائل اللعينة التي اخترعناها لتسهّل علينا السفر فألغّت متاعبه ومُتعتّه!

لا يبقى عليّ إلا اللقاء نظرة خاطفة على غرفة عادية فيها برّاد زلخر بكل أصناف المشكولات والمشروبات التي سيُدفعونني فيها ثمنا موجعا عند المغادرة.

يجب أيضا تعديل المكيف حتى لا يضايقني التبريد بنصف درجة زائدة.

ماذا تصرخ في أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبل، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟

من الغد سيرنّ المنبه منذراً أنه أن أول نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث ستبديل نفس الوجود منذ سنين نفس الخطب لإثبات ما هي مقتنعة به سلفاً. كم من حيل للتجميل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما

سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتفل بنفسه، يستمع لنفسه، يهنئ ويكافئ نفسه داخل حلقة الضيقة، والعالم في طفرته وفوضاها لا منتهية ولا عابئ. شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق.

أن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددت به عينًا كل السلطات ودعوت إليه كل المتمردين دون أدنى نجاح؟ لأست القائل السيد من يعطي المثل لا من يعطي الأوامر. ربما سيتبعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحي، وسكان هذه المدينة، ولم لا العالم بأسره؟ ستفنيق السلطات العليا من الغد لنكتشف هدوء مريبًا في شوارع أفقرت وبيوت أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قررنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة على أنها ستغير جذريا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة في التعامل معنا.

تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضة تحت الضغط، وأنها أصرت على عنادها خوفا من فقدان ماء الوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاهي وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نريج على الأقل الوقت الذي يضيقه في الجري وراغنا واحدا واحدا!

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين.

أسارع لوضع لافتة "عدم الإزعاج" على باب الغرفة، والمعني بالأمر العالم كله، وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح.

والآن ماذا سأفعل بكل وقت الإضراب التاريخي؟ لماذا لا أنسج على منوال ذلك الأرستقراطي المعادي للثورة المدعو دوماستر والذي حكم عليه بالإقامة الجبرية اثنين وأربعين يوما في غرفته عقبًا على خطأ ما، فتوكل وجّهز نفسه لاستكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها؟

ألم يكن الرجل على حق في سخريته من الرحالة المغامرين قرنان قبل المسمى ليفي شتراوس- إذ لا يوجد فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحديقة البيت إن غابنا في التهور؟

على فكرة، ألم يكن من العنل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة العبقريّة؟ ألم أحلم أن يتميّز نصّي عن كل ما كُتب وسُيكتب في أدب الرحلات؟

وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واقفا ألفا في المائة من عدم افتضاح أمري، وحيث أن هذا الدوماستر شبه مجهول بين قراء لغة موليار فما بالك بقراء لغة المتنبّي، وحيث أن احتمال ظهور نقد مغرض يفضح السرقة شبه معدوم، فإبني قررت بكل أريحية نسبة الفكرة إلى نفسي.

ها هي إذن رواية أول رحلةٍ لهدفٍ منها ليس استكشاف الاتساع وإنما استكشاف الضيق، ليس البحث عن الأدميين وبقيّة الكائنات وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه، ليس التفكير في كبرى القضايا وإنما تناسيها.

خير البرّ عاجله وأفضل الاستكشاف الذي ينطلق حل أخذ القرار.

تبدأ الرحلة المثيرة بتفحص ما يوجد داخل الحمام. إذن حنفيّة، دشّ، ستار، مناشف، فرشاة أسنان، مشط صابون جسم، صابون حلاقة، موس حلاقة، معجون أسنان، كوب ماء.

أوف! لا شيء مفاجئ أو غريب أو مثير للانتباه أو الحيرة. بلضبط كل ما أريد من رحلتي الميمونة هذه.

يجب الآن استكشاف غرفة النوم والصالون الصغير الذي يجانبها.

ثمة السرير، الخزانة، المنضدة رائع، لا شيء يحرك داخلي مشاعر الرهبة والخشوع والانبهار أو التقزز والخوف والرعب.

يتوقف البصر مطوّلا عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع لقول بأنني لا أناطر مطلقا موقف الأرستقراطي الفرنسي الكسول وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتعنى نصف صفحة كاملة بفضالها على الجسد المرهق. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الرجل والحال أن المرء مضطر لتسلقها والنزول وراءها للدخول أو الخروج من الحمام.

اللجنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء حتى بأراج المكتب أكثر من ربع ساعة، وذلك الأدمي ارتحل في غرفته اثنين وأربعين يوما كاملا!

كم من مرة سلطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوما؟ (كسر الرقم القياسي بيوم واحد على الأقل)

أضيق في حساباتي ومراجعة نتائجها وكلها دوما متناقضة.

فكرة صاحبا، إذن، ليست بالعقريّة التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعفّف، فأمني نزيه مثلي لا يسرق أبدا ما هو ليس بأدنى حاجة إليه.

أستسلم بهذه السهولة! لأكن وفيّا للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل.

أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسقلا عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة. ما العمل بكل هذا الوقت المترصد بي؟ استعمال الهاتف لإزعاج الأحباب والأصدقاء؟ لا أكرة شيئا من بين كل الأشياء التي تحيط بنا قدر كرهى للهاتف الثابت منه والمحمول.

الأشياء! يا إلهي، لم انتبه يوما أنها هي أيضا من أهم مكونات العالم الأدمي!

فجأة يتملكني الجذل وأنا على يقين أن اثنان وأربعين يوما لن تكفيني لاستكشاف ما في هذه الغرفة من أشياء وما تتعلّق عليه من معطيات عن الأدميين ورحلتهم.

يجب التأكّد في البداية أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أيّ سبب" موضوعة في الواجهة لصحبة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ من منكم انتبه للتناقض؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟ نقول: لكن الشيء لا يغلّق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثمّ جواز تسميته بالمفتاح.

تخلّص سهّل فهذا الذي أقصد صنّع وطوّر وحسّن على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترساتات والسجون والمكتبات والتكنات والبندق والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سريّ للغاية"، كل هذا خوفا من جشعكم وقلة أدبكم وفضولكم، أيها الأميون الخطيرون.

لوظيفة الأساسية لشئناك هذا بما لا يدع مجالاً للشك إذن هي الإغلاق. أما الفتح أي الرّفْع المؤقت للإغلاق فمن المهام الثانوية، ومن ثمّ دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح بالمفهوم الواسع الذي أريد فيوسفني القول إننا لم نخترع بعد شئنا من هذا القبيل.

كم كانت الرحلة تسهّل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح الطوب والعقول وأخرُ لفتح أبواب محتشدات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أراج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارها التعيسة.

ثمّة إذن قصور لغوي في تسمية الأشياء.

يمكنني المرور الآن لاستكشاف منظم لكل ما تنغلق عليه هذه الغرفة من أشياء ولرّجئ لما بعد الكشف مسألة معنى وجودها.

يبدأ العدّ مباشرة بتفحص محتويات حقيبة السفر المفتوحة على السرير: جواز سفر، بدلة، قميص، وشاح، دفتر، ديوان المتنبي، كيس الملابس المستعملة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، حقّان، باقة ياسمين، طية تمر من الذقة الفاخرة. ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتفطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ ليس داخل الطية إلا تمر لذيذ يمكنني أن أكله كله بما أن أيّاً من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العام.

والآن ماذا داخل الأشياء التي أخرجتها من جوف الشيء؟ أه ثمّة في جيوب البدلة بقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة.

المال!

لا شيء يلعب دوراً أخطر من هذا الشيء في رحلة الأعمىين. ان حضر هو الذي يفتح أمامهم كل الأبواب، إن غاب هو الذي يصفقها في وجوههم. هو الذي يرفعهم، هو الذي يخفضهم. هو الذي يكزّمهم، هو الذي يكلّمهم. هو الذي يخدمهم، هو الذي يستخدمهم. هو

الذي يعرّي كل قبحهم، هو الذي يغطّي كل عيوبهم... وهو على الدوام مخلوقهم وربّهم وهم إلى الأزل أربابه وقرابينه.

مواصلة جرد محتويات الحقيبة التي هي جزء من محتويات هذه الغرفة التي هي جزء من محتويات هذا المنزل الذي هو.....

من الأفضل رفض مواصلة التفكير في هذا الاتجاه والتركيز على الشيء الذي وضعت عليه الشيء الذي أتقده .

بصراحة من منّا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثاً فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر" في السرير والحال أنه هو من يفتح لنا رحلته كل ليلة لنتراح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوفّر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت.

مظلوم كبير آخر هذا الحذاء الذي سينتظر ثلاثة أيام كاملة قبل أن أعود الى خدماته. بخصوص هذا الشيء تحضرني قضية شانكة. قيمة الأشياء المقدرّة بكمية المال الضرورية لاكتسابها.

إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقرّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعات وبينها؟

مثلاً كيف نقرر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجارة الملونة أشياء تدفع فيها مبالغ خيالية ويتقتل البشر فراداً وشعوباً لاقتنائها؟

الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء تكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النيلية مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبعات الانجيل التي لمستها أنامل جونتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شراهة التي تضطر مالكيها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يقف الحذاء شامخاً في وجه كل هذه النظريات مستخفاً بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عبقرية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه قلادة حول العنق تثير غيرة النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتم باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل... ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء!

تصوّر كم كلن مشي الأوائل عذاباً صرفاً قبل أن يضع الحذاء حدّاً له. لا غرابة أن يكون هذا الشيء من بين الأشياء الأولى التي خلقها، بل وحتى قبل الهاتف النقل، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كلن يوسعنا تحمّل الطريق لو لا الحذاء صاحب الأيدي على قدمينا؟

ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تُلصق بلمسكين. كم تُظهر للأشياء من عقوق أقطع ما فيه لامبالاة، هي أقسى القسوة واجهنا بها الأشياء أو الكائنات.

تداهمني صور عشرات الأذى التي أبلبها على الطريق وتخلصت منها رميا في الزباله لا يعنيني من مصيرها شيء، والحال أنها سهلت علي الطريق كما لم يسهله دين أو علم أو أدب ولا حتى موسيقى.

"وحده الحناء القديم (روبرتو جيوارزور)

لا يحتقر الطريق

وحده يستطيع حملي

إلى حيث يجب

بعدها أو اصل حافيا"

تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموما ولهذا الشيء على وجه الخصوص.

ها أنا بعد التاكّد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس علي) أسحب الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأنني راهب مسيحي يصفّل الصليب قبل القداس. يا له من منظر مهيب والأدمي المعترف بالجميل أخيرا ينظف الحذاء ويلمعه لأجله، هو الحذاء، لا لأغراض لابسبه. المشكلة أنني سلكون يمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة عاجزا من هنا فصاعدا عن حشر قنمي داخله رقعا به، أي خوفا عليه من العفس والروائح. لكن كيف سأواصل الطريق حافيا بكل ما عليه من الشوك والحصى والزجاج المهشم والمسامير وخرا الكلاب وقشور لبطيخ ويقع النفض على الشواطئ؟ نقطة أخيرة بخصوص هذا الشيء العظيم.

أذكر أنني قشيت يوما بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء وواضح لما حباه الله به من بطة في الفهم وفي المشي على طريق الحلّ، وهو دوما متخلف عن متطلبات الوضع بسنين وعقود. صنتق أو لا تصنتق؛ لا أحد يبيع أذى من رخام في هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقير الذي لا يلبق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلا خاصة بالنسبة إلى مشاء كبير وسريع ككاتب هذه السطور.

إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات ذرية من الطين والقشّ حتى الصنف الجيد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن تصنع من هذه المدة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا. على السرير أيضا البيجما وقميصن وجوارب وبطلتان وملابس داخلية أي جملة الأشياء التي نسميها الثياب.

من يقدّر قيمة هذه الأشياء التي نليس إذا استئثنا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات عصور ليست جد بعيدة. كان المرء يوماً لا يستبدل جيبته إلا عندما يستحيل ترفيعها للثمن المرعب للقماش والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حل انتهاء المعركة إلى الجثث ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغام. يكفي أن أنظر إليها مرمية على الأريكة لأقدر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك من الأميمين خاصة الإناث من ينتبهون أكثر، لكنني أشك أنهن يُظهرن لها من الامتنان أكثر مما يظهر نحن الذكور.

فالثياب دوما مجرد منسوجات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء أو للتمويه أو لإبعاد الشبهة، أو للتمييز، أو لأداء مهمة فترة أو للاحتماء من خطر ماء، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطى للخادمة أو تُلقى في المزبلة. من أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطواها بعناية ووضعها على رف نظيف بعيداً عن أنياب الفران.

ثمة أولاد يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرد منديل، مثل المدعوة هرتا مولر التي تستأهل جوائزها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

“هل لديك منديل؟” سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحب مقعاً على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنالك. عند الصداغ نضعه على الجبين مبللاً بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربت الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمراً ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيساً ثقيلاً فإنه يلف منديله حول يده. نحرك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قرينتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلف منديل حول ذقه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتاً على قارعة الطريق كان هناك دوماً من يغطّي وجهه بمنديله.

كيف سأتجاسر مستقبلاً على الاستعمال العددي، والشيء يوضع على عيني من خزّ صريع الموت؟ من هنا فصاعداً إن أصيبت برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرّف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إذن إغراق الشيء النبيل بسوائل الأثنية اللزجة الخضراء، أو أسمح فيه يدي لأننا كائنات لا نحترم بشراً أو شجراً أو حيواناً ولا حتى منديلاً.

يقطع علي تفحصي الدقيق لكل ما هو ميعثر فوق السرير رنين مطول لشيء غير عابئ - على ما يبدو جاز درائي له. حقاً إنه شيء بلا أدب ولا كرامة.

تحضرني قصة تقول إن الله قرّر يوم القيمة وقف كل المحاكمات وتمتيع الأدمية بلسراح الشّرطي وبالغفو الإلهي الشامل وتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة الفاسدين الذين عانيت منهم كثيراً، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي دفعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدمع الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تتقصه المنغصات. نعم لا عدو لي بين الأشياء إلا هذا الشيء ولأسباب كثيرة منها المغرقة في القتم.

في ملفات الطفولة تدقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من "ما" صرخة هلمسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطبيين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة شرع من الفقراء. كانت تعود أغلب لوقت مُطرقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "ب".

في ملف آخر تهزّني "ما" من نومي بعصية: أخوك ينزف من أنفه. أسرع إلى بيت الجيران يهتفون للطبيب بالمجيء.

كم من ذكريات بشعة بطلها دوما هذا الشيء اللعين وهو يلاحقني بمضايقاته طوال الرحلة.

يرنّ صوته في غرفة الحراسة والساعة تشير إلى الثالثة صباحا. تصرخ الممرضة في السماعة: الرجل يفرغ من دمه. عجل.

من يستطيع الاطمئنان لشيء كهذا؟ تقول بأنني أتجنّى على جهاز يؤدّي خدمات جليلة، نعم؛ للأخرين، الذين يستطيعون مغازلة حبيبة أو الثرثرة مع صديق بلا مخبر يسجل كل كلمة يقولونها أو زميل له مكلف بترهيب.

أرفع السماعة ليفاجئني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلق الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلته صمتا بصمت، أنتظر أن يغلق هو الخط. تمرّ القدق كلساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضل عدم رفعه. يلمّح السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

تمرّ السنوات والعقود وهو دوما نفس الشيء السمج الحامل لكل خبر سغيه: سيدي، هجمات حاقدة في صحف المرتزقة تجاوزت كل الحدود. يجب معقبة أناس لا شرف لهم. أغلق الشيء وأهزّ كتفي: معقبة؟ لماذا أكلّف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحقد لا يدمر إلا الحقود والحسد لا يُذلّ إلا الحسود؟

يرنّ الشيء مصرا على نفس النهج في تنغيص حياتي: أسف سيدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.

المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، تلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلته، تمادى في المعاصي. فعوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أتى إلا أن يصغره إلى حجم غلبة سجلتر، مما شجّع كل أممي بالغ -وقريبا كل طفل- على حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب.

هكذا أصبحت تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمةجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع. أغرب ما في الأمر حُبُّ أغلب الأُميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء يرنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكلي من تفاهة وكم مضحكة هي خصوصاتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمة من سيوصون بدفن نقالهم معهم مواصلة لعادة مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورتين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صغير وحشرة وتكبير وتقليد للعصفير والنوتات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجُمَل أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي تفلحة وتفيحه بحشو أذني بكل الممكن من القطن والصبغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوت كم أزعجني في الحياة.

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرها. ما إن تنتبه لكرهاك لها حتى تبادلها كرها بكرها وأتذاك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صلمت منذ أيام. مؤكّد أن به عطبا ما. أقلبه من كل الجهل. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خطبه إن؟ لا أصدق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ عليك الأمان. ماذا؟ يجب أن أتأكب وما عليّ إلا أن اطلب نفسي وقد نسيني الجميع. لم لا؟ سيمكّني تتسم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرتها ولم لا الدس لتعطيم معنوياتها. كيف؟ ما عليّ إلا طلب جوالي من التلفون القاز؟ غريب هذا الصوت! "شكرا على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكلي: "يلعن أبوك يا ابن الكلب". الآن وقد طلبت نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتها. أه غير ممكن تقنيا. حتى نفسي لا تطلبني فكيف ألوام الآخرين! كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟

الساعة!

تيك تالك، تيك تالك، تيك تالك، تيك تالك، تيك تالك، تيك تالك. الشيء على أذني أتوهم أنه يحمل لي صوت الزمان .

ليس في هذا الصوت إلا خير مؤكّد. ثانية بعد ثانية تتوارى البداية، تقترب النهاية. حاول التوقف عن المشي وستكتشف أن بساط الزمان الذي تسير فوقه، هو لن يتوقف. حقا لنا حرية النثر: إيقاف التيك تالك بمحض إرادتنا بحيل حول العنق أو رصاصة في الصدغ أو كيلو غرام من حبوب النوم بالنسبة إلى الإنث. لكن ممّن سننثار والعالم بلكاد منتبه لقدمنا أو لرحيلنا؟

"نهار يزورنا كعابر سبيل (محمد برهان)

يفرغ ضوءه

فوق عقارب الساعة

يقضم شيئاً من أحلامنا

ثم يبيض

حتى قيل أن نشعل

نار المضافة"

ها هي الساعة موضوعة الآن على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة "المبة" أسلطها عليها كما تعلمت من المحققين في الأقبية المخيفة. لا بد من محضر مستفيض لكل جرائم الشيء وهي لا تحصى ولا تعدّ ويمكن اختزالها في جريمتين. أولاً التعدي على الزمان بمزيج أوصاله إلى ساعات ونقائق وثوانٍ وهو سبيل متدفق. ثانياً، ادعاؤها تمثيلاً، لكن من منكم توقف هرمه عندما كسرت ساعته أملاً في إيقاف شيخوخته.

والآن التهمة الدامغة: أي زمن تقيس هذه الساعة الغيبية؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدول؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الأنمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جريج ينزف أم الزمن المستتق لأيام العزلة الانفرادية في الزنزانت القذرة؟

نقرأ لأثمة الاتهام قبل الإدلاء بالحكم الجاهز سلفاً. "وحيث ترفض هذه الساعة شأنها في هذا شأن كل الساعات-الإسراع بالزمن حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نيّة لا يُعرف حتى عند النقل، وحيث يتبين من عدم توقف الزمن عندما تتعطل أنها تكذب في دعائها تمثيلاً ونيابته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطاً متواصلًا بحجة الوصول في الموعد فإرضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنازات على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمل إلى الخلف لتعيدنا إلى شباننا وطفولتنا، وإنما لا تنفك عن دفع الزمن قدماً بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والقاء. وحيث أن زمانها الذي تدعي قبسه زمنٌ ركيك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمن نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كهر جليد جامد منغلقي على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمنع في مغالطتنا بأن للزمن بداية ونهاية وحيث...

يرن الشيء المسمى "هاتف" الغرفة معتدماً فرصة فشلي في اكتشاف خطبه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرن إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من وراءها.

يغتتم لسان الدفاع الفرصة: نرجو من الجنب التسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جلييلة فلولها لاستحالة التنسيق بين أعمال الأدميين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير مما هو عليه، ولولاها لما نتبه الأدمي لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثم نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريق القضيبة، علماً

وأنا سيقم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمل لساعته
ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمرا كلما سُدحت له الفرصة.
تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك. متى انطلق العداد؟ ما ميزانيتي من الزمان؟ كم وُضع منه
في رصيدي لحظة الصرخة الأولى؟
ما أقصر هذا الليل (شيكوي)
تُرى كم بقي
لي من ليالٍ؟

حقًا يا شيكي تريد أن تعرف ما بقي من رصيدك من العمر؟ قد تعضن أصابعك ندما لو
فلجأك جيّ حبيث بالردّ.

أن أوان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعي عليه، وحيث أن عقوبة
الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تؤدي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء
المحتاجين للإسراع به، فإننا حكمنا على الشيء المائل أمامنا بالجنون المؤبد.

كيف يمكن للساعات أن تُجرن؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن
العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيئها الميكانيكية الصارمة
الواثقة من أنها تنتقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وتلقائية. والآن
لُحِيط تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-12-2-4-5-7-8-9-11-10-.-
تأمل دھولها وتوقها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي ستربحه
وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الوراء،
والزمان لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حواث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقا ثماني
نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غائرته منذ
ساعتين وعندما تحنّج يبنهك بنفاد صبرٍ أنه ليس مسؤولا لا عن جنون الطقس ولا عن
جنون الساعلت.

أين القلم لأمضي به الحكم؟ أه القلم! الشيء الذي كنتبث به أول رسالة حب، أول نداء
للثورة والذي ساكتب به لنقاعة وتقيحه وصيبي! أين الورقة البيضاء؟ أه الورقة البيضاء،
التحدي اليومي، الفراغ المخيف.

لكن أين النظارات لأعيد قراءة ما كتبت؟

أه النظارات! كم من مرّة أسرت الأم في أذن الطفل المتهور، وبعد تجدد الكارثة تحاول
إخفاء نموع الغيظ والقهر: يا بني أرجوك كفت عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان،
أتريد أن أجوع إخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئا بدونها؟ نعم، كم أدين
للنظارات فولاها لعبرث عالما ضيلبه خارجيا أكثف من ضيلبه داخليا.

كم كنت أفضل أن أرتحل وفي حقيبة السفر نظارات تنقّق في ملامح روح وفكر كل ذات
ترافقني على مقطع من الطريق أو على الأقل لا تُكسّر، ساعة تتحكم عقاربها في سيلان
الزمان كما تتحكم الحنفية في سيلان الماء، فلم يقرأ أفكاره ويكتبها مباشرة دون أغلاط،

ثياب لا تحتاج إلى غسل وكَي تكون لي جلدا ثانيا، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب، حذاء يمكّنتني من القفز فوق الجبل البحار، وخاصة هاتفت لا يررّ وإن ررّ فلخبر سعيد.

انتبهنا من كل الأشياء التي هي في متناول اليد. يجب مواصلة الاستكشاف والانتباه لكل التي تحاول الإهلات من الرصد...أو التي لست مستعجلا لرصدها.

أه طبعاً هذا التلفزيون الذي لا ينفع فيه مزيد من التجاهل. لو كن هنا الشيء حقا ابن حلال وصدیق الناس الطيبين أمثالي وعزيفا بأقدار الرجال، كما بخل عليّ هذه الليلة بما تشناق اليه روعي: الأخبار الطيبة عن عالم مصاب بتتبع نوبات الصرع.

لنقترب منه بشديد الحذر نفتح مع قطع الصوت لعلّ وعسى فيه ما يشجع على المشاهدة. لا شيء على الشاشة غير نفس الوجوه المضحكة، العابسة، الجميلة، القبيحة، المخيفة، المرعبة، السلخطة، المتشجّة، الهادئة، الحائرة على شفتيها ربع ابتسامة بوذا ومونا ليزا. يا شيء قلنا لهذه السهرة نريد فيلما وثقيا بالغ النقة والمصدقية عن رحلة الجنس البشري. أه غير متوفر حيث حجبتة رقابة كل الدول بالإجماع ماذا؟ ليس لديك إلا فيلما عن حرب طروادة ضدّ الاغريق ومشاهد مذهلة عن صراع هكتور وأشيل. فيلم هوليوودي آخر عن الياذة هومير لا شك أنه سيفعل بها الأفاعيل كما هو الأمر دائما عندما يتناول السينما كبرى روائع الأدب الإنساني. لا شكرا.

هومير! ما الذي تفصك حتى لا تنتصب اليوم في جبال اثيوبيا وسهول بريطانيا ومنن الأمريكيتين معابد زوس بدلا من كنائس المسيح?... ما الذي جعل اسطورة مريم وعيسى تغلب اسطورة أفضون واقيجيني?... لماذا هيكلت قلوب وعقول أمم عديدة مأساة الأم والابن لا مأساة البنات والأب?... أه يا نبي بلا بخت، لو كان لك منير أعمال من طينة القديس بولس، لكان العالم غير الذي نعرف اليوم!

على فكرة، ما الذي يحاول هذا الشيء تقليده أو التلميح به للمتنبهين من بني آدم؟ أن العالم شائنة ونحن صور تندافع على سطحها، غير متنبهة لعيون تراقبها ربما باستغراب، أو استهجان أو بيلس متعاطم؟ حقا هل توجد كائنات ما ننظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء السحاب تقيم جودة تمثيل أدوارنا.

اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن سادجا. أعود للعمل بعصبية لاكتشف كل ما سهوت عنه: قنينة عطور، شلميو، غلبة شكولاتة، أريكة صغيرة منزوية أفلتت من الرصد.

فجأة أنتبه لإثناء موضوع على رفّ. يبهرني كَمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جريا وراءه جرفيون صعدوا إلى الجبال يُقبّون عن المادة العجيبة التي سيصنعونه منها، الشيء الذي استقرّ طوال قرون قريحة الفنانين وطمع الأثرياء وجشع التجار، الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على اكتفهم الموجهة عبر الجبل والبحيرات والأنهار، الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرفأى

الغرب الأدنى والأقصى، متحذّين العواصف والقراصنة قاصدين مرفأً في أقصى لشرق محجّر عليهم مغادرته ينتظرون أشهراً حملات قوافل أشباه العبيد. الشيء الذي رجح به جشعون غرق منهم الكثير وغرقت معه أئمن بضاعة، الشيء الذي مثل سرُ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز: البورسلين.

هنا نغتم الفرصة للتذكير بأننا نفعل مع الأشياء ما نفعل مع باقي الكائنات سواء قدت من لحم ودم أو من هذا المعدن أو ذاك: نكره ونحب، نعلم ونعدل، نبالغ في التحقير وفي التكريم.

اعتبر شبه التقديس الذي يوليه بشر البلاد التي تشرق منها الشمس للأشياء المخصصة لحفظ الشاي وإعداده وشربه يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال ويفضّلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل.

لا تنسى ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء القديمة وحرصهم على وضعها في مخازن ومتاحف على أبوابها عسس على أهية قتل من يمدّ يدا إليها؟ لا تنسى أيضاً حبّ الإناث للأشياء التي تتدلى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الأنميين عموماً على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تُلبس ولا تُصلح حتى لنقل الكلام الفارغ.

استحضر ما تكلفه من مشاقق سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أفوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبّد لها، ناهيك عن كل الجهد الذي تكلفه البشر في صنعها واقتنائها.

طيب، ليكن أننا أمام حالات تطرّف في عبادة الأشياء، ولنعد إلى تلك التي تأخذ منا قسطاً من الاعتبار ليس فيه إفراط.

اعتبر الكتاب مثلاً. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنارة، المرشد، المرئي، الدليل الصديق، السمير والمنته الأكبر! كيف لا يكون المسافر ممنوناً له، وهو الذي يأخذنا إلى كل زمان ومكان.

تصوّر حرج الوضعية لو خُيرت عند الإفاقة بين الحناء والكتاب، وتحديدًا بين فرديتي حذاء سميك وبين كتب طاو تي كنج. أجمل هدايا "ح"!

ماذا بقي مخفياً؟ لا شيء؟ أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إننا أرد أن يخفي عنك شيئاً وضعه في الصدارة، في الواجهة، على مرمى حجر.

لا بدّ أن يكون الشيء أضخم ما في هذه الغرفة وواضحاً للغاية وكثيفاً للغاية. أه إنه جهاز التبريد طبعاً. هو لم يكفّ بضجيجه المتواصل عن محاولة الاختفاء لكنه على رأس القائمة.

حان دور الالتفات للشيء المخفي في صغره البالغ؟ غلبة الكبريت؟ هذه المشبكات لمنع الأوراق من التناثر؟ أم هذا المسمار المسمى "بقة"؟ يالي من غبي وشكراً للخاتمة على

قلة عنايتها. إنه بالطبع الغبار الذي تسميه اللغة أيضا "الهباء" وتصفه بصفة آلية بأنه "منتور". الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنتور الذي يحتل كل الفراغ بما فيه فراغ الكون. لسبب ما تنير في هذه الخاطرة قلعا غامضا. أسارع إلى المرأة أتأمل شكلي مَقْدَرًا كم من غرام من الغبار سيغطي في آخر المطاف. تصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لأدمي جلس على الأريكة، لساق على الساق، قبل أن يتبخّر في سحب خفيف! كم سيطلب كنس هذه الوساحة من وقت، و"الويك أند" على الأبواب!

بلمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلدات تبحث في المشكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو مُنطَلَق كلِّ شكل والشكل الأخير له. ربما الأمر ليس سهوا وإنما جُبنا. أعدك بالاهتمام بالموضوع حال انتهائي من تدوين الرحلة، فناعتي أنه لا موضوع أهمّ، ويوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصّي الجديد: إنّا للغبار وإنّا إليه راجعون.

*

لتفحص طبيعة الأشياء التي تعكس جزءا من طبيعتنا يجب التفكير الانطلاق من البديهيات التي لم تعد تسترعي انتباه أحد...مثلا أنه لا يُعرف لا للأشجار أو القطط الرغبة أو القدرة على صنع أشياء تعينهم على البقاء وتحسين شروطه.

يقال لك لكن الشمبازي تستعمل الأحجار والأعواد بحثا عن القوت. صحيح، لكن أين هذا من قدرة البشر على صنع واستعمال هذا الكم الهائل من الأشياء التي لا نتصور قدرتهم على العيش بدونها؟

لاستعادة الانتباه لأهميتها في وجودنا ووجود العالم الذي نعبر، تصوّر أن جنبا ألقى بتعويدة 7432 المختصة في الغاء كل الأشياء في ثانية واحدة. هكذا ستجد نفسك عاريا بدون نظارات وحتى الأسنان الصناعية اختفت من فمك. الأخطر من هذا أنك ستجد نفسك في عالم لن تعرفه وقد اختفت منه السيارات والطائرات والدراجات والعبّارات والهراوات والكمنجات والحفارات والسماعات والحفاظات وكم من أشياء أخرى كانت من معالم العالم الذي تعرف.

حتى لا تهزّ كتفك مستخفا بفكرة تبدو لك في منتهى السخافة اعلم أن أخشى ما يخشاه علماء الطقس والفلك انفجارات جبارة في الشمس تحدث كل إحدى عشر ألف سنة تؤدي لظهور رياح كهرومغناطيسية تجتاح كوكبنا وتمزق شبكة الكهرباء على كامل الأرض. حدث هذا أكثر من مرّة مما أدى في بعض مناطق الأرض إلى توقف المصاعد في العمارات والطائرات في المطارات والتدفئة في العمارات وسلسلة طويلة من الكوارث نتيجة توقف جملة من الأشياء كالحواسيب عن الاضطلاع بالمهام التي جعلت من أجلها.

بداية وجود الأشياء مرتبط بوظائف حيوية تلبي حاجيات طبيعية ملزمة ما للادميين، بل قل هي حاجياتنا هذه بشتى أصنافها تُرجمت لأفكار، ثم لصور، ثم لمشاريع تحققت في أشكال فرضناها على المواد التي وجدناها أو استخرجناها بالقوة من المحيط. لولاها لما ذهبنا بعيدا. فالأدمي، خلافا للذب بفروه، للبعل بحوافره، للنمر بأثيابه وأظافره، أفاق في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه. هكذا أُجبر على تشغيل خلايا دماغه ليعوض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها. مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تفوقنا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟ ألا يُقاس الكمال في كائن باكتفائه بذاته؟

أه بدأ النعاس يغلبني . أن الألوان لمشروب أسود سألخ له مرارة الحياة، لفنجان قهوة. فنجلن القهوة ! كأنني أراه لأول مرّة وهو الذي صاحبني طيلة حياتي. الشيء الذي بين يديّ الآن كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولما وذوقا. هو يُحدث صوتا إذا ضربت جداره بملعقة ومنه تتصاعد رائحة شهية للسائل الذي جعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كل عليّ للتأكد من الأمر دفعه إلى السقوط من الطاولة وتكف مشقة جمع كل هذه القطع؟

“على حقّتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بال

أشلاء صحون

مواسير معوجة

أسلاك

علب سجائر فارغة

حطب، بلاستيك

أوان مهشمة

تنتظر البعث مثلنا”

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الأدمي وبقيّة الكائنات مسربل بالغموض، مخلوق كما يحبها كل خالق لا تعصي أمرا ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها. مواصلة الجرد.

أه ثمة نقص فادح في قائمتي لأنني لم أرصد إلا الموجود من الأشياء والحال أن لخطرها وأهمها التي لم توجد بعد والتي تتشكل ببطء في أذهان أدميين لا يعشقون شيئا قدر عشقهم خلق أغرب الأشياء.

اعتبر مثلا بعض التي يتفحصها ذهني بنوع من الحسرة على عدم توفر الإمكانيات لتسجيل براءة اختراعها وتصنيعها على أوسع نطاق لتحتسّن من ظروف رحلتي ورحلة الجميع. المرشاف نموذجا.

من هذا الرجل المكبل بالأصفر، ما الذنب الذي اقترف، ما العقوبة التي يجزّ إليها؟ إنه متنفّ مرتزق ارتضى لنفسه دور كلب يذبح ويعضّ كل من يتهدّد سلطان سيّده. ولأنه تعلم في مدارس الشعب الغليان وجامعاته واستعمل علمه في خدمة طاغية يسرق ويضطهد ويقمع ويحتقر هذا الشعب، فإن محكمتي العادلة حكمت عليه بعقوب المرشاف وهي مصاصة مهمتها استرجاع كل المعرف من ذهن رجل لم يكن جديرا بها. تقول: هذا يعني أن المسكين! ... بالضبط، مُسحت ذاكرته وعاد نماغه مثل الصفحة البيضاء. من هذا المجرم الآخر؟ إنه صاحب الكلب وملقه أثقل بكثير لذلك حكمت عليه المحكمة العادلة بالعقوبة القسوى.

تعال معي إلى حيث يوجد الشيء الآخر الذي افخر بأنني أول من وضع تصاميمه ولو أن العمل عليه لا زال مقصورا على فضاء الخيال: "الأفورتوار".

لا تسألني عن سبب هذا الاسم الغريب، فليست مضطرا أن أقول لك كل شيء وما عليك إلا أن تشغل دماغك وتتعلم الكلام بلغة مسيو فيدال. الرجاء التزام الصمت، فهذا المكان الذي يتوسطه الشيء له رهبة خاصة لأنه نهائية الطريق بالنسبة إلى من ثبت ضدّهم أنهم اعتدوا على الحياة ودّسوا قداستها.

وحيث أنه لم يعد ممكنا وضع حدّ لأية حياة بشيء هجمي مثل الإعدام شنقا وخنقا وتسميما وقطعا للرؤوس بالخنجر والسيوف والمقصلة، فإنه تقرر اعتماد جهازي هذا للتخلص من عتاة المجرمين مثل الذي جاءوا به للتو واللحظة من المحكمة. إنها ضريبة حظ حقا لأنك ستشاهد كيف يعمل "الأفورتوار".

هذه غرفة تنفيذ الحكم. وهذه الأنثى هي والدة المحكوم عليه. انظر كيف يمددونه برفق على الطاولة المصممة للغرض والرأس متجه نحو فرج العجوز الراقدة بدورها على الطرف الآخر من الطاولة. تشاهد الآن دخول الرأس واختفائه شيئا فشيئا بين الفخذين ثم دخول الكتفين والبساط المتحرك للطاولة يدفع بشيء من الصعوبة بقية الجسم، والأم تصرخ بلألم الوضع المعاكس وتشدّم القاتون الذي حكم عليها باسترجاع ما ولدت بعد أن تبين أنه غير صالح للوجود. تسألني لماذا لم يذبحوا له الحذاء وهل من الإنصاف أن يعود الرجل إلى رحم أمه بحدائه وبقية الثياب؟ اعتراض وجيه لكنه ثانوي جدا فالأيادي الخفية التي صنعت الرجل هي الآن بصدد نزع الملابس والحذاء وإعادة تفكيك كل ما قامت به طيلة الحمل. هكذا يعود الجسم للضحك جنيبا ثم نطفة ثم تفرق البويضة والحيوان المنوي الذي أخصبها ويذهب كل في حال سبيله، ثم يتواصل الطريق العكسي حتى العتمة حيث يقع تفحص الخطأ بتمعّن من قبل المهندسين المختصين.

ماذا قلت؟ كان بوذك أن تراني الممدد على هذه الطاولة! أه منكم يا أولاد حواء. والآن إياك من الأسئلة البليدة حول ما الذي كان يحصل لو لم يكن للمجرم أم حية، وماذا لو كانت الأم هي المجرمة، فأنت تعلم أنه ليس لكل مشكل من حلّ، بل إن القاعدة فيه أن أغلب مشاكله بلا حلّ... أعني بلا حلّ مرض لكل الأطراف.

ربما الشيء الوحيد الذي قد ينقذها من رحلة محكوم عليها بالفشل جهازي المفضل: المرصاد.

أنت في هذا العالم كمن يشق طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم وغاريت وأشباح، أخطر ما يتربص بك ليست هراوات وسككين قطاع الطريق الحسّي وإنما أفكار ثبتت في أشداقها ثياب قاطعة. هذا ما يجعل من الضروري تطوير علم التنبؤ بخلق المرصاد القادر على الإنذار السريع بقرب بروز عاصفة دينية جديدة أو إعصار استبدادي قادم، أو طوفان عنصري لخر، أو موجة طريفة من الجنون الجماعي، أو حرب أقطع من كل التي عرفنا. هكذا يمكن لجبل عاقل إرجاء ولادة الجبل المقبل لتترك الوقت لتبخر الليبرالية والوطنية والقومية والعنصرية والأصولية لهذا الدين أو ذاك، وكم من ملوثات أخرى.

أه انتهيت أنت أيضا لاستنتاج متسرع في لحظة غضب واحباط أن هذا عالم لا يصلح ولا يُصلح ومن الأحسن لك البحث عن عالم آخر يستأهل الوجود فيه .

تعال اركب المرحل وما أدراك ما المرحل.

داخل الجهاز الذي تفققت عنه كل عبقرية الذكاء الاصطناعي والعلب الفيديو يتصفح المرتحلون" كاتالوج" زاخر بلجود الرحلات لأروع العوالم. تفضل. كأنك غير مطمئن لخدمت الجهاز وترينني أن أجرب أمملك؟ لا شكرا، والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف تصرخ أريد أن أخرج! أريد أن أخرج! هل اكتشفت المسكنة التي سحبت لها طولة الضار المرة الأولى رحلة أنثى معاقفة فقيرة سوداء دميمة والتي اختارت هذه المرة رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم ورع متاعب الرحلة وملذاتها بأعدل مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطاياه كلما دفع فيها أعلى الأثمان.

وحيث أن كل الحلول اثبتت فشلها في اصلاح علم بداهة غير جاهز لاستقبال الرحالة، لا حلّ غير إدارة الظهر له والعودة من حيث اتينا.

أداة آخر سفرة في هذا العالم جهازي السحري الأخير: المعكاس.

الزمان الآن يسيل من المصب إلى المنبع. غدي البارحة وبعد الغد ما قبل البارحة. عيد ميلادي المقبل الذي احتفل فيه بتناقص سنة لا الذي يوضع فيه على كاهلي عبء سنة إضافية. عما قريب سأقول للشباب ما فعل بي المشيب.

يوم ناقص بعد يوم ناقص يستعيد الجسم ليوئته، خفته، قوته. ذهبت أيام الظهر والركبتين. ذاب الشحم الذي في البطن وفي الأوراك. نبت الشعر على الرأس فأحم السواد. عادت للحواس قدرة رصد أدق اختلاجات المحيط.

تندافع من المصب إلى المنبع سنوات الكدّ والجدّ... سنوات مراكمة لتجارب... سنوات اللقاءات الأولى مع الأميمين، مع فظاعاتهم وروائعهم. يا إلهي هكذا كانت “ح” وهذه لصبية هي “ما” وهذا الشاب الوسيم هو الذي كان في قصتي “1”! كل هذه الوجوه التي تمنعت فيها يوما والتي لختفت بلا أثر! ...

يصل الزمان الراكض القهقري منعطفًا ضروريًا. تقصر القلمة شيئًا فشيئًا. تتسحب القوة من عضلات لم تعد مقولة.

يتلعثم اللسان، تنتفك الجملة وقد فقدت الكلمات انضباطها ومعناها. ترتبك القدمان والرجلان لا تقويان على حمل. أنا الآن على أطراف الأربعة أحمو، تركت المشي ورائي مع كل ما تركت من مكتسبات زمان الاتجاه المعاكس.

يتعالى صراخ الرضيع وهو يدفع بقدميه البضتين قملًا يقيد حركته. إنها المرحلة من الرحلة والذات كالإسفنجة تمتص معطيات محيط غريب متقلب، تتفاعل معه أحاسيس بأحاسيس، مشاعر بمشاعر، لا تشوش على تفاعلها لغة قد لا تكون إلا تعويض خلل أفلتت منه بقية الكائنات. يطلّ عليه وجه مشفق يتساءل: من هذا الكائن الغريب الذي يلمع في عينيه شيء كأنه حضور جئي أو كهل. صرخة الانهيار والرعب... الأخيرة هذه المرّة لا الأولى.

يبدأ تسلقّ النفق المظلم للارتقاء أخيرا في مسبح الماء الدافئ. ما الذي دهانا لنغادر مكاننا كهذا نصرًا على الخروج لعالم كانت تبلغنا منه كم من إنذارات التهديد وكم من صرخات الألم.

أه كل هذه الأفكار من وحي ما يتدافع في الفضاء الإقراضى الزاخر بطفرة من الأفكار التي لا ندري هل يجب أن نستعجل تحقيقها أم أن نرتعب من الإمكانية.

اللجنة نسيت إضافة حسوبي للقائمة وهو أول ما أخرجت ما حقيتي. ربما تناسيته من فرط الغيظ فمنذ أكثر من ساعتين وأنا أدفع القطعة تلو الأخرى على شاشته فتسقط بسرعة لا تصدر أي صوت.

كل مرة أقرأ على الشاشة رسالة: أتريد اللعب من جديد؟ أجيب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمئى نفسه باستعادة كل ما خسر في الجولة الماضية. عبثًا، والرسالة دوما نفس الرسالة: كثنّ مات.

أعود للصراع بلا أمل كبير.

مرة أخرى يعلن الحسوب بسرعة نهاية المباراة: كثنّ مات.

خليط من المهانة وشهوة الانتقام.

لجُزِبَ التهديد.

- اسمع يا برنامج، تتركني أريح أو أدخل فيك فيروسا قصاب بالجنون مما سيضطرنني إلى رميك في سلّة المهملات.
كشّ مت.

- يا برنلج، يكفي أن تقول لي من أي جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيدا محبوبا في هذا القمص. إن ألححت، ستكون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلكم في كمبيوتر نقل أرقى لفسحة نهاية أسبوع.
-كشّ مت.

- وماذا لو زَجَّكَ تفجيحه. أترضى لصهرك بتواصل مسلسل الإهانات هذا؟
-كشّ مت.

الرابعة صباحا! أرهقّ الحاسوب المسكين ومن حقه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضته عليه. انظر كيف داهم الضباب عينيه واختلطت عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب... عفوا يا ابن الأمي.

عند الصباح يُقْبَقُ باب الغرفة بلطف لكن بإلحاح. أقفز من فراشي أفرك عيني لازلت لم أخرج تملسا من غريب الأحلام. أفتح الباب لمجهول مبسم.
- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنى أنك ارتحت. ينتظرك في" اللوبي" كثيرٌ من الأصدقاء ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضل بسرعة.

وكانه تمّ الاتفاق بين أكثر من طرف على عدم تركي لحالي، يرنّ الشيء في ظهري. بصمت بسرعة. يعود إلى الرنين ثم بصمت عائدا بعد توائن لرنين طويل. إنها "ح" وطريقتها في إعلامي أنها هي التي على الخط. أجزم أنها تريد التأكد أنني ما كنت سأسئسئ دواني الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا.

كيف الهروب من البشر وهم يلاحقونك لئما كنت، مباشرة أو عبر ما يخلقون من أشياء، بكرههم وبحبهم!

داخل قاعة المؤتمر يظنونني أدون بكل اهتمام كلماتهم التاريخية والحال أنني منهمك في رمي أفكار مشوّشة بخصوص هذا المكون الأساسي للعالم الأمي الذي نسميه الأشياء. المؤكد أن هناك ارتباط وثيق بين وجودنا ووجودها. اعتبر تاريخها وستري أنها يتحرك وفق ثلاث خطوط قوة هي نفسها التي يتحرك عليها تاريخنا: تزايد العدد، تزايد التعقيد، تزايد الاندماج بين مختلف المكونات.

ادرس تاريخ البشر في علاقته بهذه الأشياء وسترى أنه يتحرك هو الآخر وفق ثلاثة مسارات: تزايد القدرة على صنع أكثرها تعقيدا، تزايد الإمكانيات التي توفرها، وتزايد تبعيتها لها قد تصل بنا يوما لحالة نصبح فيه عبيد عبيدنا.

ها قد بدأت تنزاحم على حدود ما نسميه "الواقع" أصنافاً متفارقة التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغدا "السيبورج"، وكلها كائنات

يقال إنها ستكون قادرة على تفكير أسرع وأصفي من الأدميين، ولم لا على مشاعر أرقى وأفعال أدكى؟

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزوا خارجيا لكائنات من وراء مجرة العقرب، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاع حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير القابل للتصرف في تقرير المصير. آنذاك يا ويلك والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهاتف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيما تمهيدا للاشغال الأكبر الذي سيحيل مدن العالم إلى محميات من نوع امفلوزي تأتيها الكائنات الجديدة للتسلية والتفلسف.

تساءلنا من نكون وماذا نمثل بالنسبة للحيوانات والأشجار. ها قد تحول السؤال حول هويتنا ليصبح ماذا سنمثل يوما قد يكون قريبا بالنسبة لكائنات مثل السيبورغ ومختلف أجندس الروبوتات؟

أناكون مجرد حلقة تقامت من سلسلة الأجناس الحية وأن مهمتنا فتح الطريق لكائنات أكثر تطورا سنتي بعننا لخلق عوالم أطرف وأجمل وأخطر من العالم الذي خلقنا؟ كم مؤسف أن " طوملي" لم يأخذ الوقت لكتابة مذكراته وأن "لوسي" لم تترك لنا شهادة مفصلة عن رفاق رحلتها لنعرف من كان أوائلنا.² إنه تقصير لن أتحمّل مسؤوليته في حقّ مخلوقاتنا من سيبورغ وروبوتات قد ترث عا هذا العالم، ومن ثمّ الشهادة التالية عن الأدميين لعلها تعينهم على تصوّر من كانوا بالنسبة لهم الأوائل والألهة...ومن كانوا بالنسبة لنا الكائنات الأكثر قدرة على أن تخوي في ذهنها العالم الذي يحتويها.

**

² "طوملي" اسم أطلق سنة 2000 على قحف عظمي لكائن عاش قبل سبعة ملايين سنة ويعتقد أنه كان منطلق الطريق الطويل الذي سيصل عبر كثير من الأجناس المندثرة إلى البشرية الحالية. "لوسي" اسم أطلق في سبعينيات القرن الماضي على رميم انثى من الأوستراوبيكتس وهو الجنس الذي وجد قبل ثلاث ملايين سنة ويعتقد أنه كان حلقة الوصل بين القردة والبشر الحاليين (الناشر)

الكتاب الرابع بنو سفر

لا يولد البشر مرة واحدة يوم تلدهم أمهاتهم
فالحياة ترغمهم أن ينجبوا أنفسهم باستمرار

غابرييل غارسيا ماركيز

مقدمة الكتاب الرابع

قد تكون أصدق صورة لرحلتنا في هذا العالم أننا نرتحل فيه كالبحرلة على متن سفينة تطفو على سطح المحيط الأهوج والصراع داخلها بين الركاب على أشده حول من ياكل على طاولة الرين، من ياكل من القمامة ومن يكون المأكول.

من الطبيعي أن تكون لخر المشاغل هؤلاء الركاب في مثل هذه الظروف التمتع بمنظر القمر على سطح البحر أو استكشاف العجائب التي تتحرك في أعماقه المظلمة. كل المطلوب منهم للحفاظ على حياتهم أدق معرفة بمن هم الركاب الآخرين والهاجس تفادي شرهم وإن أمكن حسن استغلالهم .

تصور وضع كريستوف كولومب وقد تحولت أولوياته فجأة من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب إلى سبر أغوار بخارة سفن "سانتا ماريا" و"بنتا" و"بينيا" المشكلة أن استكشاف رفاق رحلة الحياة ، رهائن السفينة والعاصفة والمحيط، ليس أمرا هيناً.

التجربة المباشرة؟ لكنها محدودة بحكم العدد أي استحالة أن تعرفهم واحدا .
حدث ولا تسأل عن تعدديتهم .

هناك آراء من تثق في حكمتهم وخبرتهم ككبار الفلاسفة والأدباء والفنانين من كل العصور. للأسف تكتشف يوماً أنها أغلب الوقت غلاف مزاجهم يُخفون وراء ما يسوقون تشاؤمهم أو تقولهم وذلك من منطلق أزماتهم الشخصية مع من جربوا من بشر. ثمة أيضا استحالة النظر إليهم بعيني البعوضة والفيل والنملة والقطة والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود .

تصوّر كل ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذاكراتها. ربما كنا سنرفع ضدها قضايا في الثلب والتعدي على الأعراس.

يبقى أن أهم عنصر يمنع المعرفة المعمقة قصر زمن الملاحظة وموقعها. كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة بمشاهدة بني سفر من انطلاق أول مرتحل إلى انقراض آخرهم.

إنه موقع لا يحتله إلا من تسميه اللغة الرب. لست متأكدا أنه حتى هو كان سيصبر على متابعتنا واحدا واحدا وتحمل مشكلتنا النافهة. محكوم عليك إذن أن تنظر للنامي، مثلما تنظر لباقي تظاهرات الموجود من أسوأ موقع ممكن: ذات مجهولة لذاتها تتأمل ذوات أخرى أكثر منها ضياعا والزمن محسوب بتقدير شديد للذات التي تشاهد وللذات التي تشاهد.

أخيرا الصعوبات المتعلقة بالملاحظ نفسه على ما هو عليه أي استحالة الالتزام بلحياد المطلوب من كل راي يُنتظر منه أن يقدّم المعلومات لا الأحكام.

أي كلام "موضوعي" يمكن أن أقوله عن الأعميين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب الوقت؟ كيف لا وهم يسمون حياتي منذ ارتطمتي بهم.

لكن لماذا أتحمّل وحدي وزر هذا الاعتراف؟

بريك ألا يسمون حياتك إنثا بالادعاء عليك أنك تغلب الحمام مسيحا كلما أخذت دشًا، أنك تستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظاراتك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ؟!

ألا يسمون حياتك وهم رضع لا يحلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل مع المضايقات المعروفة لكل الآباء والأمهات؟!

ألا يسمون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنثيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التقفية التي لا تنتهي؟!

ألا يسمون حياتك وهم مراهقون يكفونك مصاريف تقصم الظهر أجره أطباء الأمراض الجلدية والنفسية؟!

ألا يسمون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالحجارة يدعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التوّ واللحظة، وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سدج مغرورون جهلة؟!

ألا يسمون حياتك وهم كهول ينقسونك في كبرى المناصب والحل أنك أنت وأمك أعلم الناس بأنك بها الأجدر؟!

ألا يسمون حياتك وهم شيوخ يرتعون ويهدون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوما، أو ما أنت عليه في الواقع لم تنتبه لقرار السنين؟!

ألا يسمون حياتك حتى لحظة خروجهم من هذا العالم وأنت مضطرّ للوقوف في الحز وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق الأعميين وهم يتبارون في افتعال الخشوع والحزن يستمعون لتأبين مضحك عن خصال التقيد الكثيرة التي لم تكتشف إلا وهو على وشك الانزال إلى الحفرة؟!

وكانه لا يكفي أنهم أهدوا عليك يومك يجب أن تدلو ببلوك أنت أيضا في النفاق الجماعي وأنت تقدم التعازي مقتعلا الأسي والحال أنك تردد لنفسك على الأقل نقص منهم واحد.

بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطيرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة وخرافات مقتصة يؤذي التعرض لها للوقوف في أحسن الأحوال في طبور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوأها للمثول أمام كبير محكم التقيش ليأمر بحرقك حيا بعد ما تيسر من التعذيب.

تقول مستنكرا إنه موقف غير لائق بلسان يدعي الاعتدال الموضوعية في كل ما يفعل ويقول؟

بريك هل أنا من قال فيهم؟

" فيا رب إنّ الناس لا ينصفونني فكيف وإنّ أنصفُتهم ظلموني (أبو العتاهية)

وان كلن لي شيء تصدوا لأخذه
 وان نالهم رفدي فلا شكر عندهم
 وان جندوا عندي رخاء تقرّبوا
 وان طرقتني نكية فكهبوا بها
 سامنع قلبي أن يحن إليهم
 وأحجب عنهم ناظري وجفوني
 وان جئت أبيغي شبيهم منعوني
 وان أنا لم أبذل لهم شتموني
 وان نزلت بي شدة خذلوني
 وان صحبتني نعمة حسدوني
 وأحجب عنهم ناظري وجفوني

قد تصرخ في: يا ناكر الجميل، اليسوا هم من قتلوا لك الطريق، من اعطوك كل ما تحتاج، من علموك كل ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ أليست "م" و"ح" و"تفاحة" و"تفاحة" من هؤلاء البشر الذين تقول أنهم سموا حياة سيادتك؟ طبعاً، طبعاً يا هذا، معك نصف حق، لكن اعلم أنك تؤكّد نظريتي، فسواء نظرت إليهم بعين السخط أو بعين الرضى النتيجة دوماً واحدة: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار. هذا ما يجعل من مروجي إمكانية الكلام عن الأدميين بصفة موضوعية مجرد فصل آخر من مسمي الحياة. شئت أم أبيت كل ما تقول وتكتب عن الأدميين وصف للحالات الموضوعية والنفسية التي تمرّ بها في علاقتك معهم.

هذا ما يجعل من كل وصف لهم رسماً لصورتك في مرآتهم ولصورتهم في مرآتك، ولا علم آخر بك أو بهم خارج هذا الانعكاس المتبادل. عامل خطير آخر قد يهدّد فهمهم: التبدل الذي يأتيك يوماً من طول حبهيم ومن طول كرههم. لذلك عليك انتظار الأزمات وعودة الانتباه لتتفاعل معهم بكل جوارحك ثم الإسراع لشهدتك لتقطر الحروف حبا وكرها. المطلوب إذن من أي شهادة ذات قيمة الصدق لا الموضوعية. على اعتبار قدرة الترامى طول الوقت بفضيلة لصدق هذه، وانطلاقاً من كل المحاذير التي ذكرتها أعلاه، هذا كل ما أعرف عن الأدميين والصراع معهم، ضدّهم، ولأجلهم في ذروتهم.

**

المعطيات الأكثر موضوعية عن رفاق الطريق

ثمة من قال بخصوص الأدميين نحبّ منهم واحداً أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية لا يثيرون فينا إلا اللامبالاة.

شيء من التصحيح: عادة نحبّ منهم أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، لما بخصوص الأغلبية التي لا تثير عند المتبدلين إلا اللامبالاة فهي تثير في منذ الصغر فضولا عارما.

في بعض أقدم ملفات الذاكرة يشدّ الطفل طرف أمه صارخا:

- "م!، انظري كم هي سميئة هذه المرأة!

يفهم من التفاتها يمينا ويسارا في حالة انزعاج واضحة أنها محرّجة من كلام لا يجوز النطق به بصوت عالٍ لسبب يجعله.

- أسرع، بيت العرس ما زال بعيدا وأخشى أن نصل متأخرين.

- "م!، لماذا "ليخنوث" ؟

- قلت لك: هذه مواضيع سنتحدث حولها لاحقا، ليس الآن.

- "م!، تقولين دوماً إنني رجل، فلماذا ليس لي شارب؟" م!، متى ستكون طويلا مثل كل الرجال؟

-... "م!، لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه جدّي سوى جدّي؟

يفرح الطفل لأن في ضحك أمه نبرة استحسان.

- أصبحت يا بنيّ، ولو أن هناك استثناء ساحتك عنه يوما. والآن، توقّف وأمسك بيدي حتى نعبر في هذه الزحمة.

يجيل الطفل البصر لا يعرف على ماذا أو من يركّز أكثر... على شحاذ بلا رجلين يزحف على البطن، والناس تتفادى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتفادى به النظر إليه؟ ... على أنثى بثياب ملوّنة كالطاووس أيلم الربيع ؟ ... على لأدب مضحك للشكل ؟... على شاب مقنول العضلات... على عجوز تتكئ على عكاز... على وجه مفلطح يعنو قمته شعر أحمر.. على وجه كأنه حُفَرٍ في خشب بُنيّ بسكين... على وجه ثالث غطته لحية كثيفة.. على رأس شعره بلون القمح؟

هو لا يعلم أن أغرب الأدميين مظهرا ينتظرونه في منعطفات الطريق الكثيرة القادمة: اللواتي تلبسن أعلى أنواع "الكيمونو" وكلّ "جايشا" لوحة فنية أجمل من الأخرى، الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أبيض كأنه الخنجر في عمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، الخلق لكل شعرة تثبت فوق الرأس، المخفون قسماهم داخل

أدغال من الشعر، الرسلمون على جلدهم رسوما أخذت أياما طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال. هو ما زال يجهل أنّ اختلافهم في المظهر لا شيء مقلنة باختلاف سلوكياتهم. على أقصى الطيف الذين يقدّمون الأضاحي الأدمية لآلهتهم وعلى الطرف النقيض الذين يرفضون ذبح بقرة.

كم من إخراج لفكرة واحدة، كم من تقاسيم لا نهاية لها للحن يتيم! ينتبه الطفل إلى أنّ وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كزاسه وأقلامه حل وصوله البيت ليحاول رسم كائن منتصب له جذع يتفرع منه طرفان طويلان للوقوف والمشي. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان آخران. على قمة الجذع هذا انتفاخ مستدير تلوّه ألياف متقلّبة الطول مختلفة اللون.

- "م! هل يوجد بشر برأسين؟

- لا يا بني، يكفيننا وجع رأس واحد.

- لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى أن تشتغل.

- من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثانية والثالثة؟

يجزّب الطفل أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضا وضع الرأسين الإصفيين على الكتفين. يفيض الرسم سريعا بالرؤوس، تتلّى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار. يكتشف الكهل يوما أمام لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقروا أبدا عن نفس اللعبة.

"كلهم في هذا العمر يريّون الرسم مثل راقطين... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلّم الرسم كالأطفال!" (بيكاسو).

ربما واجه الإله النحاتّ رسام نفس المعضلة، ليكتشف الحلّ الذي كان الطفل أصغر من قبول بساطته وثاقته وتبعاته. أليس أكثر الحلول اقتصادا خلّق كائن برأس واحدة لكن بأعداد رهيبية؟ آنذاك، ما الذي يضير المجزّب الأكبر أن يمرض أو يتعطلّ هذا الرأس أو ناك وهو يتوقّر على كم هائل من الرؤوس لمواصلة تجارب لا يعلم إلا هو هدفها! في أقدم الملفات عن الأدميين ما توفره حاسة الشمّ تفصح ما يريّون التسنّر عليه بخصوص ممّا هم مكوّنون.

ذات ليلة يصرخ الطفل متوجّها إلى "م! وهي مضطجة حدوّ" "ب!:

- أف! هذه الرائحة، "م! أخرجي الكلب بسرعة!

كان في ضحكها المكتوم وندحة "ب! - حرج واضح خاصة وأن الكلب لم يشاطرنا ليلة غرفة النوم.

أول انتباه للطفل أنّ رَبَّ البيت -وربما حتى ربه- يضرب أو تضرب كما يضرب هو، تخرج منه أو منها، روائح كالتي تصدر منه. كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دوي قنبلة تنفجر تحت الماء.

انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال -وأنا أداوي نفس الحرج بسعال حادّ اتباني على غير سبب:

طيب غطيت على الصوت بلسعل، بماذا ستعطي عطر هذا الذي غمرتنا به؟ لا شيء طبعاً اللهم إلا الانفجار ضحكاً.

البشر أكياس مليئة بسوائل مشبوهة ذات روائح غير عطرة تفلت منهم عند عجز التكنم عليها؟ أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات بها "أنف أن تسكن اللحم والعظم" فما بالك أن تكون قمامة متجولة. من المؤكد أن هذا سبب ولع الأسميين والإنث منهم على وجه الخصوص بالبخور والطور يدفون فيها من قديم الزمان أعلى ثمن للتغطية على ما لا يمكن إنكاره؟

ماذا الآن عن دور حاسة اللمس؟

هي تعطي عن الأسميين أروع الانطباعات خاصة عندما يلتصق الرأس بصدر الحبيبة أكانت أما وأنت طفل أو المعشوقة وأنت العاشق. لكن حذار من لمسهم خاصة في مواضع حساسة إن كنت لست على أوثق صلة بهم فقد تفاجأ بصفعة جدّ محرجة. طقس المصافحة هو الحالة الوحيدة التي يقبل بها الآخر والهدف لما تتغلق اليد على اليد التاكّد من أنها خالية من السلاح.

تبقى حاسة اللمس فقيرة بالمعطيات التي تحتاجها لتقادي خطرهم أو للنفذ لما يعتدل داخل ذواتهم. يمكنك أن تقضي ليلة كاملة تتلمس جلد الحبيبة وشعرها. لن تعرف ما تضمّر أكثر مما يعرفه عنك الطيّاب في الحمام أو الملك في المستشفى وهو يفرك جلدك وعضلاتك.

على العكس من هذا يمكن القول إن للذوق إمكانيات أوسع أو هكذا اقترض البعض.

أليبت أصدق أدوات المعرفة وأولها لدى الأدمي الشفتان والأسنن واللسان؟

خذ مثلاً المعلومات التي تأتيها والفم مطبق بعناية حول حلمة الثدي منتقخ بالحب، والسائل الدافئ الرقيق يُبعد عنّا الجوع أبعض حالات الشعور.

النقطة القصوى في مثل هذا الاستكشاف تذوّق وإبتلاغ لا فقط ما يسيل من الثدي وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحمله. هكذا استنتج بعض الأوائل أن النقطة القصوى في أي مشروع لمعرفة الأدمي... أكله.

كلن ديوجان -المسمّى سقراط المجنون- لا يفهم استنكار أكل اللحم البشري، بل كلن يدعو بحماس إلى تذوّقه باستمرار ودون أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما يتمازج الباحث والمبحوث فيه فيصير إن شيئاً واحداً.

كان كهنة "الأزتك" يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخائفة للأضلحي البشرية وسط أهازيج الشعب وبعد انتهاء الذبح كانت الأشلاء الدامية لظوب ما زالت تنبض تُعَدَّم إلى مأنبة السدة يتذوقونها بمزيج من الذة والخشوع.

قيل -والعهدة على المؤرخين- إنه كان قوم في منطقة اسمها أوروبا، إبَّان عصر يسمى النهضة، ملك عظيم راع للدين والفن والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان جلالته يحمل على الدوام في جيبه قتيبة صغيرة من مسحوق اللحم الأدمي يمضغه متأبياً. وفي أوروبا المتحضرة هذه، وُضعت أصول وقواعد لتذوق اللحم البشري. فيعد قتل الأدمي شقفا باسم الانتقام الشرعي الذي يسمونه "عدالة"، تُترك الأجساد معلقة على هلمات المشانق أطول وقت ممكن حتَّى يتعفن أعلى الرأس، ثم يحصدون العفن يدفعون فيه باهظ الثمن. عادةً تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك يجّهزون الميت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطري ثم يتقاسمون بينهم المسحوق الثمين. قصص متوحشين وكفار نحن "خير أمة أخرجت للناس" منها براء؟ عن الجاحظ طيب الله ثراه، بعض الأشعار التي تتبونا أنه ثمة من أوانلنا من تذوق مع الضأن والماعز والجمل لحم ابن آدم وحواء.

وأنتم أكلتم سحفة بن محم
تداعوا له من بين خمس وأربع
وقال شاعر آخر:

إن سرك الغدر صرفا لا مزاج له
قوم تواصلوا بأكل الجار بينهم
ثمة من قال في قبيلة تُدعى بني قعس:

عدمت نساء بعد رملة فاند
وباتت عروسا ثم أصبح لحمها
وقال شاعر يهجو قبيلة اسمها باهلة:

إن غفقا أكلته باهله
تمششوا عظامه وكاهله
وأصبحت أم غفقا ثكله

يبدو أيضا أنّ أجدادنا كانوا ذواقة يعرفون أطيب أجزاء الأدمي:

أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم
هذي الخصى فكلوها من نفوسكم
كلبا فلا تجتروا بعدي على أحد
كما أكلتم خصاكم في بني أسد

تقول لتفسير الموقف وحتى لتبريره إنها الضروريات التي أكل فيها آدميون جثث رفاقهم وقد تقطعت بهم السبل في أعالي الجبال الموحشة أو في أعماق الأدغال.

لكن كيف تبرّر أكل ارستقراطية المكسيك أو الملك الفرنسي للحم الأدمي؟ يقينا أنه كان مؤمنا بأن هذا الذي يمضغ ويتلع يحتوي على القوة الغربية التي تغذي البركان الذي بداخله.

ألم يكن نبلاء "الأزتك" يبحثون وراء طعم اللحم الأدمي عن طعم الذات نفسها وحتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟

ألم يكن هنود غابات الأمازون ينقلون سحريا زخما من المأكول إلى الأكل؟ لهذا يمكن القول إن أكل الأدمي كان وما يزال في العقل الباطني أكمل الوسائل لمعرفة هذا الذي نرى فيه أنفسنا نخترل بالعملية زمن البحث في أسرار قدراته ونحن ندمجها كلها داخلنا دفعة واحدة.

في حال اقتناعك بالفكرة كآبصر طريق للمعرفة، من أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سرا أو وقت المجاعات فقط؟

ثمة إمكانية نشر إعلان على الإنترنت كما فعل أحدهم: "أرغب في أكل أدمي، فهل من راغب في أن يؤكل". فجاء متطوع مدّ عنقه للذبح ليصبح "الباحث" من البحث.

أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الإنترنت قادرٌ على تعقبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من "بروكسي" ناهيك عن صعوبات التخلص من العظام.

خذ العبرة أيضا من مصير أدمي من بلد اسمه أوكرانيا، قُتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصا في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة، والحل أنه كان مجرد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تخدان من استعمال هذه المنهجية الأولى تتعلق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلا أن بعض الأدميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض بشع يسمونه مرض الكورو، لا نتمناه حتى لألد الأصدقاء.

لكل هذه المحاذير الصحية والقانونية ننصح بترك جانبنا فكرة أكل البشر للتعمق في دراستهم ربما إلى أزمان أخرى قد تتطور فيها العادات والقوانين.

ما الحل إذن والحواس الخمس لا تنفع لسبر أغوارهم أكثر مما تنفع لفهم كتاب تأمله ولمسه وشمه ومضغ غلافه وأوراقه؟

الردّ التجربة المباشرة وما عداها مكملات لا تضرّ في شيء ولا تنفع كثيرا .

**

أو كيف أنهم أخطر الكائنات على طول الطريق

تسألني "ما" عن أحوالي بعد كل هذه السنين من العربة. انفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الأوجاع المترسبة فيها:

- يا أسوأ دليل، يا مجرمة في حق خمسة صغار، أي محكمة تنصفنا منك؟
تبهت ربع ابتساماة الأم. تقطّب جبينها. تتردد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب ثم تقرر الثبات.

- قل لي كيف كلن عليّ أن أفعل؟
- تسأليني كيف؟ اسمعي يا جاهلة كيف كان عليك إعدادنا لمواجهة الادميين.
أثب أمامها لأمتل الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، ويدها الأخرى تمسح دمعاً.

- اسمعي وانظري يا أسوأ أم كيف تتصرف الأم الجديرة بهذا اللقب. هي تدخل غير نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحاً بفتح الباب ركلا بالرجل. يتعالى الصراخ منها حاداً أمراً نافذ الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال وسأعلمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ندلكل أحداً.

يثب الأطفال من فراشهم مرعوبين. فيزداد صراخها: يا الله، بأسرع من هذا. تقتعلون عدم سماع ما قلت. اللعنة! من تئاب؟ من؟ أنت، إلى العزل، تبكي! والله لأقطعن عنك هذه العدة ولو تطلب الأمر أن أقطع لسناك. لتهي العهد الذي كنت أرميك في الشارع دون إعداد مُحكم. وأنت يا بنت، خمسة جلدات هذا الصباح لتتعلمي الوقوف السريع عندما أصرخ بالأوامر. أنت الطفل رقم 2، قلت: ممنوع مواساة الأخت. ستذهب مباشرة إلى الخزانة تقضي فيها النهار مباشرة بعد نهاية التمارين. وأنت كبير الأطفال ازحف على بطنك حتى الباب إلى أن تتعلم عدم رسم مثل هذه السحنة على وجهك.

بعد توضيح المقاصد يمكنك رمي قطعة خبز جافة للخمسة الوحوش الصغار وبعدها مباشرة التمارين.

يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليوود.

يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: "هايلي هايلو هايلي"، نحن للألم مستعدون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء متحفزون، الويل للذي منه كل نقمة، إننا منه لمنفقون.

مباشرة تمارين الجودو والكاراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكتمة للصوت.

بعدها التمارين النفسية للصبر على الأذى وحسن استعماله ضد الآخرين، كل الآخرين.

إذا بدأت بضرب أصغرنا ضرباً مبرحاً تشجيني على الضرب. لويل له إن ارتدى في أحضانك مدفوعاً بعبادات قديمة ما زالت مستحكمة. لا بد أن يأتي رتك لا ليس فيه: دافع عن نفسك أيها الغبي، لا أم لك في هذا السيناريو وإنما دليل كفاء يعلمكم العالم على حقيقته والأمين على طبيعته.

آخر دروس الصباح تعليماتك بخصوص فنون القسوة والخديعة. بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى كل أصناف الخصوم والمنقسين والأعداء وهم في كل منعطف من منعطفات الطريق. نعم، هكذا كان عليك أن تربي أطفالك أيها الأم الفاشلة.

لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى "مما" تضحك إلى أن يأتيها السعال.

- أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما أن أفتن في أول آدمي يعترضني غيظي ضرباً بالحداء ولم لا برصاصة في صدغ بعض الأوباش.

- كم أخففتي ذلك اليوم عندما وجدتك بين غلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مدس. يا الهي، لا أصدق إلى اليوم أنك كنت تريد حقاً الخروج به إلى المدرسة! كيف وجدت هذه الأسلحة اللعينة؟ طلبت من خلك أن يأخذنا إلى القرية وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقاً تحت إحدى شجرات توت البستان.

- ماذا فعل "با" عندما اكتشف خيانتك للمقومة الباسلة؟

يلمع في عيني "مما" مرح خفيف، ممزوج بقليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكوناته سخريّة خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفي بالرجل الذي ابتليت به بعلا.

- هل تظن أنه كان يتذكر أنّ بيتنا كان من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟

لحسن الحظ لم يكتشف الطفل تلك الأيام كيف تُستعمل المدسّات، وإلا كان طريقه أخذ اتجاهاً جدياً مختلفاً. تصوّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدس يقبل زميلاً ويجرح المعلم الذي حاول التخلّل. البوليس يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجيين على القتون".

لكن ألم يكن من حقّ الطفل امتشاق السلاح لدخول قسم فيه ذلك الكم من الراسيين الأزليين يسومون من هم أصغر منهم شتى أنواع الأذى.

ابحثّ دوماً وراء الهدف المعلن - عن الهدف الخفي وراء المؤسسات التي يخلقها البشر، ومنها مدرستهم العزيزة التي يطمون بأنّها ستنتج لهم أجيالاً أحسن من التي ما زالت عائشة للأسف.

ستكتشف أن أهم مهمة لهذه الأخيرة ليست تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب.

أين تعلّمنا لأول مرة الوقوف في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والتعرّف على سلم الرتب والمسؤوليات والتدريب على أبجديات القتال، وكلّ صغير يستبدّ بالصغر منه؟

داخل الفصل يبدأ باكرا تلقين كل أطفال العالم تواريخ انتصارات دموية مرعبة، وأسماء كبار الجزائريين. ثم تُغرس فيهم البذور المسمومة لتتطلق أحلامهم بالمشي أمام كتابهم لنصرة قوم هم أحسن الأرقام.

وسط ساحة المدرسة تبدأ التمارين الأولى استعدادا للحرب الأزلية. يُترك للأطفال أنفسهم مهمة تدريب كل قادم جديد، على مواجهة العنف الغريزي للجنس البشري -والحمد لله دون سلاح سوى القبضتين- وما على كل صغير إلا تدبر أمره، ليتعلم باكرا أبجديات الصراع من أجل البقاء.

وفي بعض الملفات التي لا أحب فتحها، يواجه الطفل خصمه منتبها لأول مرة أنه فرغ الطول مفتول العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. يختار بسرعة المواجهة لأن أمر الأب الجبار المزروع داخله أن الاستسلام أمام إنس أوجان ممنوع، ممنوع، ممنوع.

تضيق ضرباته في الهواء لا تصل أبدا الوجه البغيض. ثم يندلع الألم فظيما ما بين الفخزين ينذر بضرورة شد الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي. لا يسقط على الأرض إلا لينهض، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربات قبضتين كأنهما صنعتنا من حديد ورخام. يستجد الطفل بكل ما بقي فيه من وعي وحنوية ليتصب من جديد على قنميه المترنحتين ليسقط مرة أخرى، ثم يعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوى مجهولة.

هكذا يتعلم كل طفل بمثل هذه التجربة كم هو رخو في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر، والقبضة الموجهة للخصم هي التي تدرسه طوبوغرافيا جسم ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانيات المتعة والعذاب. هكذا يتعلم أيضا هل هو رخو الروح أم أنّ فيها صلابة ستمكته من النبات في ساحات كل المعارك التي سيمر بها الطريق.

يلمح الطفل من خلف انتفاخ عينيه نظرة الاستغراب في وجه المعتدي وصورا مشوشة لأطفال يتهمسون، كأنّ شينا كالقلق بدأ يستشري بينهم. فجأة تتوقف ضربات المطرقتين. يطلق المراهق ساقيه للريح، أيقن أنه أدب خصما عنيدا يتبعه أصحاب أحرسهم صمت متعجب قلق.

هذا طفل سيرفض أن يكون الفريسة أو المفترس وإنما الى نهاية الطريق الفارس الذي لا يخضع لظالم أو معتدي.

ها هو يواجه هزيمته وكله سعادة بأنه لم يستسلم لخوفه مستبظنا منذ ذلك اليوم المشهود أن الشجاعة ليست ألا تخاف وإنما أن يعصر الخوف منك الأحياء فترفضه، أن يصارعك فتغلبه، أن يزين لك الاستسلام قتلظه.

بتكرار مثل هذه التجارب -سواء كانت معارك أطفال ومرافقين بالقبضتين أو معارك شباب وكهول بالأفكار أو بالمؤامرات وحتى الحروب، تترسخ عند الطفل القناعة التي

سبحان من جعل أطفال الأعميين ملانكة أظهارا يفقدون براءتهم بتقدمهم في العمر، والحال أنه لا أشرس ولا أعف ولا أظلم ولا أتمد أنانية ونرجسية من الأعمى وهو طفل. لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش موزع بالعدل والقسط على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية للأطفال مع بالغ الأسف.

أليس جل ما نعانیه من بعضنا البعض تواصل الطفولة فينا؟

أليس كل طاعية طفلا رفض أن يكبر محاولا إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمة يريد لها أمه؟

نكبر كنا في العمر بتعقب السنين، لكن عذاب الضج يتوقف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة فبقى نعانى طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أرذل العمر.

كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيدني مرحا، وأنا الوحيد الذي يسمع في أوج معركة كبر أهل الدين والعلم والسياسة أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول والزمان اكتفى بتغيير القشرة لكن النواة لم تتغير.

بريك، ألم يأت الوقت ليتمهل أخيرا أحدا مسؤوليا قول الحقيقة بخصوص الأطفال، وأخطروهم للرضع؟

لا أحمل أي واحد منهم -وهم يضعونه بين ذراعي عنوة لأقبله مفتعلا الإعجاب بجماله ونباهته المبكرة- إلا على مضمض. هلعي الكبير أن يتبول علي اللعين أو أن يغتتم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة.

للمدافعين عن حقوق الطفل والمستنكرين لكل عنف ضد فئات الأكياد، أقول نعم، نعم، كل حجاجكم هذه أعرافها جيدا وردتها في أكثر من محفل. لكن، بيني وبينكم وبعيدا عن الأذان المتطفلة، وعلمنا أنني دقت الفلقة أكثر منكم بكثير، أي وسيلة غير بعض الصفح المحكم للتعامل مع هذه الوحوش الصغيرة وهم بهذا الكم الهائل من النزق والطيش والغباء والعنف؟

ثمة أسباب أعرق لخوفي من الأطفال عموما ومن الرضع على وجه الخصوص.

بالله عليك، هل ولد هولوكو، أو تيمورلنك، أو هتلر، أو ستالين، أو بشار الأسد بشوارب وحذاء بمهملتين؟ ألم يكن نيرون حولا أتحدث عن كاليجولا -هو الآخر ملاكا كانت تنوب القلوب لرؤيته واستبشر بقدمه أب وأم وجدة وأعمام وأخوال لا يعلمون ما يُعد ملاكهم هذا من فظاقت ما زال التاريخ يتذكرها مرتجفا من الهول؟

من خصائص هذا الذي يختزل كل الشر في الأعميين والذي اسميه "الذي منه كل نقمة" أنه يلبس كل الأنفة وحتى قناع أحب الناس إليك.

يشنّد صراخ " يا" مخطبا أشيلا لا يراهم إلا هو وهو المصيبة إن غاب والمصيبة إن حضر:

- هل رأيتم بريق عينيهِ؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غضن الطرف يا ابن الكلب. غضن الطرف واطلب العفو. لا تريد أن تبكي. لقد كسرتُ شوكة من هم أصلب منك عودا ألف مرّة. أنا سيّدك يا كلب-ستعلم أنه لا خيار لك غير الطاعة.
هل من باب الصدفة أن يسألني الأهل عن أحوال "سيدك" لأن لهجة القرية تسمى الأب "سيّد"؟

تشنّد سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربات.
- رحماك، رحماك، سنقتله.

- سأقتله وأنت معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!
يوصل المراهق الراضئ الخضوع لمتسلط -أبا، حاكما، أو إليها-التحديق في الوجه الغاضب المحمّل بالأم السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.
تحت وابل الضرب يبتسم لبيت شهير غير منه كلمة واحدة:
أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للعصا نهّي عليك ولا أمر.
يجن جنون "ب".

- تبتسم، تواصل الاستهزاء بي، سلكس شوكتك مهما تنطعت يا متمرّد.
يخطر للمراهق أنه أن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليها ونزع العصا منها وتبشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أشباهه بين العنف والقوّة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمل تبعات كسر ذراع من يبغض أشدّ البغض، لكن من أين له تحمل تبعات كسر ذراع من يحبّ أشدّ الحبّ؟ إنه فصل من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا تضاهيها في الصعوبة -وان بأشكال مختلفة-إلا علاقة الأم بالبنات، الأخ بأخيه، الزوج بزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد بخالقه.

كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي يسدّه أمامه؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تخطفه يد المنيّة؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي تواصل الحياة فتح الطريق أمامه؟
يصرخ الرجل في أوج الغضب لا هثا ماسحا عرقه متوجها إلى مناصر مجهول:
- قتلني بتحدّيه الدائم. قلبي، قلبي، عجلوا بالطبيب!

يرمي بعصاه على الأرض وبجسده المرفق على الأريكة منتظرا أن تأتيه "م". بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع، مثل أنه دوما على حقّ وأنه أكبر من أن يعيا بشطحات مراهق.

قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحديّ؛ فلذات لا تتشكل إلا باعتبار تفنّكه من أب أو غير أب، افتكاك اليد العارية للقسمة من فم

المتبع. وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالاعتراف، وهي وحدها القادرة على تدميرها برفضه. لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية. اللهم اجعلني يوماً من نبأه الذوات لا من منمريها.

وفي آخر ملفت عن صراع الإراقتين، يواجه الشاب نظرة أبيه لا يرفق له جفن، نافخاً ببطء مدروس في غليونه الجديد، وحركاته تتضح بما مفاده أنه سيد نفسه، أنه وحده من يقرّر علامات الاحترام التي تجب.

يعود الصراخ بنفس الحدة وكلّ الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تدخّن أمني؟ خسنت يا كلب. ما زلتُ السيد الذي تنكس في حضرته العيون.

يتسمّر البصر على البصر. تتضح للابن الموجوع فجأة الحالة الحقيقية لرجل وضع رحله على قارة الطريق بعد أن أرفقه الجري في كل اتجاه، لرجل مقهور من تجدد منعه من دخول صحرائه الغالية، والمانع شرطي محلي ورث عن الغازي الأجنبي نقاط التفتيش، لرجل محبّط هزّمته الدنيا وأشبعتها سخرية من محاولته تفصيلها على ذوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه فشل في حياته.

فجأة يلمع الاستغراب في عيني الأب كأنه دهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبُه طفلي؟

تبقى العصا معلقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يُعيد إلى عمدته سيفاً لم يعد له نفع. ثم يحقّق في ابن لم يتفطن أنه أصبح شاباً وفي عينيّه شيء من البغض وشيء من الحب، شيء من النقم وشيء من الإنكار، شيء من الاستقزاز وشيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء من اللامبالاة، فضلالة عابرة من الكلبة ثم تجدد المرح.

ينفجر "أبي؟ ضاحكاً: لله درك إنك رجل. والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعاش أصدان في هفص واحد.

*

يفتح لك العالم ساحات المعارك الواحدة تلو الأخرى كأننا لم نأت هذا العالم إلا للصراع مع ذاتنا ومع الذوات الأخرى.

يلبس "الذي منه كل نقمة" قاعاً جديداً وقد تحول الصراع من ساحة المدرسة إلى ساحة أكبر بكثير.

يحقّق في كبير الشرطة السرية طويلاً يظنّ أنني أول من سيحوّل اتجاه النظر:

- نكتفي هذه المرّة بالاستجواب. أنذرك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى الأمور الجتية.

يريد مني هذا المستخدم الخُصوع للتهديد، والغريزة عندي الهجوم على كل من يهددني!

لم يكن الرجل المخيف يهدد في الفراغ.

يصبّ البوليسي المكلف بذور الدشع مخزونه من الشتانم البذينة علي: قل لنا كل شيء. يحدث في زميله المكلف بدور الطيب بايتسامه فيها تصنّع التعاطف. إنه الذي سألني في أحضانه مستجيبراً به من قسوة الآخر ومعترفاً له بكل شيء. هذان الغيبان لا يعرفان أنني لا أكف عن تقييم الأدوار التي يلاعني إياها الناس، بحسن الناقد المجرب، أبحث بلا كلل عن الجديد في ميدان حلاسف فيه القليل من الابتكار.

أرفع الصوت واصبح الاتهام.

- ما زلت تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب والشرير؟ يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرابنا!

أتوجه إلى المكلف بلعب دور الشرير، أمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعن يعرف من الجلادين وما هي آخر اتصالاته بهم ومن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.

يتنسم المكلف بدور الطيب مؤكداً أن طرفه الوضعية جذت لديه الانتباه. يفتح المكلف بدور الشرير فمه دهشة وأنا أمر لنصحهم بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يُفسدوا الطيبة التي تختفي وراء ملامح الغوريلا التي تشوهه.

ينفجر الرجل في وجهي:

- أنا الذي ألقى الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصور وأنت تقابل الإرهابين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأني أسمع لسان حاله يستعظني: لا تكن سمجاً، أنت المتهم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولاً إخفاء أسرار تعرف جُلهاً، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعب الذي لا يرحم أحداً. برأس أمك الغب دورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى.

نعم، لا بد من أن يلعب كل دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن من قال لهذا الممثل الرديء إنني لسنت المكلف بدور المحرض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطلقات كل تجديد.

هذا عالم مسرح ليس فيه إلا نوعان من الممثلين. هناك الذين يمثلون أدوار غيرهم يمارسون مهنة تمكنهم من أكل الخبز وخاصة من التخلص دورياً من ذواتهم مدة تقمص نوات أخرى. هناك الذين لا يمثلون إلا أدوارهم يجاهدون لأدائها أحسن أداء وقلماً يُقنعون ومنهم هذا التعيس الذي يريدني أن لعب دوري كما يراه هو والحال أنني لا لعب إلا الأدوار التي أختار.

المشكلة الكبرى أن هناك دوماً ثمن باهظ لرفض لعب الأدوار التي قررتها سلطة مخفية هي نفسها كمشة من الممثلين الرديئين.

ذات صباح وأنا مستغرق في افكاري ماثيا في الطريق تصرخ في ظهري سافلة: أيها السفيل، ألا تخجل في عرك من معكسة شريفة مثلي. يتجمّع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون في أنني من تجمعت فيه كباثر الموبقات. أصبح الشارع كأنه لا

نهالية له والأوباش ورائي ورّعا الاستقزازَ في نظم محكم. فهذا مكلف بالكلمات النابية،
وذاك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أُن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنتي خائن ابن
خائن.

تسارع وتيرة الشتائم. تفتح فتاة هما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تنقياً منه رذاذاً من
البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أُمّي. يفتح المرّة أفواههم دهشة ثم
يُطأطئون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفوية التي تمشي
وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية.

في مستوى حديقة الحيوانات تُفتعل حشود الذي منه كل نقمة قطع الطريق علي وتوجيهي
إلى بابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: قفص القردة.

تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستارا أبيض لزجا يسيل على النظارات نازلا
على الجبين والوجنتين نحو شفّتين مغلقتين بأشمنزاز. تتدافع الأيدي بحثاً عن نصيبها من
جسد استحلّ حرمته إجرام الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي وفي عرفهم
أن هذا أقصى الإذلال-حصارخا. من تحارب، يا عميل، سيذك وسيد الخائن والدك.
كيف أحمي نفسي من عاصفة حدّ داهمتني على غير انتظار، رعدّها الحدّ وبرّقها الغباء
والجهل؟

الهرب؟ لكن إلى أين؟ العون؟ ممّن؟ أجيل البصر حولي باحثاً عن هبة من "الشعب"
الذي ندّعي كُنّا أننا على استعداد للموت من أجله لفرط علوّ الأخلاق والهمة فيه. يضاطئ
المارّة رؤوسهم ويسرعون الخطى.

فجأة أنفجر ضاحكا وأنا أكتشف البوليس بصور الحادثة لسهرة ممتعة سيضحك فيها علي
الفجّر ويشتمّون.

من أين يأتي النور؟
(البياتي)

ونحن في كل العصور حجر الطاحون

تستبدل الأغلال بالأغلال في الطبور

بيبعنا الطعأة للطعأة والملوك للملوك

في ملفت أحرّ ونفس الغوغاء المأجورة تهاجم سيطرة تحملني مع بعض الأحرار أصرّخ
في السائق: لن يرهبونا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلمّ السجن الذي جنتنا من
أجله أننا لن نخذله أبداً.

يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة
بإرهاب دولة صادرتّها العصابات، مثل زورق تتقاذفه الأمواج.

يصرخ أحدهم فيم يبدو قائد العصابة: يا نبيل كفى.

فجأة تكفت الرياح عن اللصفير وتفرق الأمواج لحظة الغرق. أه، لم تكن هناك أوامر
بالقتل هذه المرة. مجرّد إنذار آخر وربما الأخير.

نبيل؟ النبل في مثل هذا الكائن كرائحة لياسمين تتضوع بها جثة كلب مرمية على قارعة الطريق منذ أيام.

تغلق المدينة أبوابها في وجهي مجدداً كأنني لم أسكنها يوماً ولم يكن لي فيها صاحب. يشيح بوجهه من يعترضني في شوارعها متحرّجا. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدهم يُسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ لُن غباراً شوه لمعان حدائه. يقتعل من كنتُ ولي نعمته وهو يمرّ أمامي أنه لم يرني وأنا أول من رأى مصدوماً ومتضابقاً. إيه والله هكذا هُم البشر.

ما أكثر الأحباب حين أعدم لكنهم في النايبات قليل (لشعفي)

لم يبق لي من مكلن أمشي فيه طويلاً وعرضاً، ولا خشية فيه أن الأقي أميا يغير الرصيف، غير بيت فارغ ومطوق. الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الأدمي أنه ذوماً في وضع أحسن مما يتصوّر وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا علم له بالمصائب التي أفلتت منها، مثلما لا وعي له بالتي تترقبه.

ذات يوم تمسك بي من الخلف أيدي عصبية وتدفعني لأخرى بغلظة نحو سيرة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيراً أمسكني هؤلاء الذين جاؤوا لاختطافي طفلاً. كم أظهروا من طول النفس طوال هذه السنين والعهود. نفسٌ لا يضاهيه إلا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين "ما" هذه المرة لتحميني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطب الجبين ومن حام؟

بأخذوني إلى مركز إيقاف مرعب الصيبت.

كل الفضاء الآن زلزلة ننته، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير.

أنت لا تجزّب الوجود بكل حلوه ومرّه إلا من خلال العلاقات التي تربطك بالأميين، التي تربطهم بك، التي تربطهم ببعضهم البعض... وهذه العلاقات دوماً شبكة بالغة التعقيد ومن التفاعلات والأفعال متواصلة التحرك على طيف واسع من الحالات طرفه الأقصى أنت من يعطي الأوامر والطرف النقيض أنت من يخضع لها لا حول لك ولا قوة. في هذا المكان أنت على أقصى طيف الخضوع لقوى قادرة على جعلك هباءً منتورا أي لحظة.

لا شيء تفعله سوى المشي طويلاً وعرضاً كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباح ما زالت تصرخ بالرعب والألم. ذلك لأن لكلّ زلزلة ذاكرةً ملقأتها جدران ملطخة بلبراز والدم. أحاول استحضار الوجوه وتخيل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عضية وهذا السعيد الذي لم يترك إلا أربعة عصابات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش صبر.

ثلاث أفات من صنع الطبيعة تترصد بني سفر: تشفي الأوبئة، جنون الطقس،

زلازل الأرض وانفجار براكينها... ثلاث أفات من صنع الأدميين: الاستعباد والاستعمار

والاستبداد... في أفة الاستعداد يتخذ "الذي منه كل نعمة" شكل النحاس المتصرف في الأدمي الآخر كما لو كان شيئاً أو حيواناً... في أفة الاستعمار يتخذ شكل الغازي المتصرف في الأدمي الآخر كما لو كان عبداً للاستعمال والاستغلال... وفي أفة الاستعداد يتخذ شكل الطاغية المتصرف في الأدمي الآخر وكأنه لم يخلق إلا لعبادته وطاعته.... وفي كل الحالات الويل للأدمي المقهور إن هو احتج أو قاوم .

فجأة ترتفع من الزنزانة المجاورة صرخة سئلاحتي سنوياً، في النوم وفي اليقظة، بين يدي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجذ، تُذكرُ بأعمق وأرهب ما تعلمتُ عن الطبيعة المخفية لأدمي يلاقيك في الطريق مُسكماً، تُضمه لصدرك لا تدري ما الغول الذي تُقتل.

يصل الصراخ أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلاً ثم صغيراً ثم حشرجة.

تنطلق قهقهة عاهرة وأوامر صارمة بلصمت وأخرى بالاعتراف بكل شيء.

كيف يمكن أن يكون الذي منه كل نعمة حبيبة أو طفل؟ بل كيف يمكن أن يكون له أم أصلاً؟ كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحل أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أمي؟ هل هو كائنٌ جاء من عالمٍ آخرى لتنمير الأدميين بغرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ هل هو شيطان طُرد حتى من جهنم؟ فرضية رهيبية وأقطع منها أنه أدمي، بل وله أم.

لا يُعرف عن أي كائن حي أنه يمارس التعذيب باستثناء الأدمي كما لا يُعرف تقننه في طرق القتل. عند الحيوان هو عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القتال حياته ولو بثمن حياة المقتول.

أما الأدمي فقد اخترع بتر أصابع الأدمي الآخر اصبعاً بعد اصبع واعتصاب أمه أو زوجته أو ابنه أمام عينيه ووضع خازوق في بده وكَي القميص الذي يلبسه وتجاهل صراخه وأنبهه وبكاهه ثم والأجهاز عليه بالنبح والحرق والخنق ولشيق والصلب والدفن حياً وحتى نبش القبور للتمثيل بالجنث.

أي طرق جديدة ستخترع الأجيال المقبلة لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم؟ اللعنة إما الذي يجعل من الأدميين مثل هذا الكائنات البشعة الذي لن تجد لها نظيراً في القسوة والندالة؟ بل كيف سُمح لكائنات كعده بأن توجد أصلاً؟

من أين للمرطين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم نتاج تجربة قوة اسمها الطبيعة، انكار أننا أمام أكبر غلطة ارتكبتها هذه القوة؟ ألا يلاحظون هم المتشدقون بالموضوعية في كل مجال ما تدفعه هذه الطبيعة من ثمن باهظ لوجود الأدمي وهو ينكل بالأدمي الآخر وبكل الأجناس الحية وبالطبيعة نفسها وكان المخلوق جنّ حونه لا يتوقف لحظة عن تمير خالقه .

أما بخصوص المرطين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم مخلوقات لخالق اسمه الله فالحيار الوحيد لمأهم بين فرضيتين. الأولى أن الله لما ارتكب الأمر كان في حالة

متقدّمة من السكر . الثانية أن كأننا بمثل كماله لا يمكن أن يخلق مخلوقات ببشاعة الأدميين . إذا كان فعلا بريئا من هذه التهمة المشينة التي يلحقونها به منذ غابر العصور فالخالق الحقيقي إذن هذا الشيطان الذي تسميه اساطيرهم ابليس .

لم يضعوني في هذه الزنزانة صدفه . لختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على ذلك حصوني .

لا ينفع أن أجلس في أبعد ركن من الباب وأن أضع رأسي بين ركبتي وأصابعي داخل أذنيّ، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت .

أيّ كانتات رهيبة هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب جعلته أداة سُلطتها في الدنيا وحتى في الآخرة...

اللعنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبكاء طالبا الكفت عن تعذيب الرّجل، ولهم مني كل ما يريدون . سأواصل المقاومة بسلاح ليس لهم ضده أي سلاح .

ألا يُصدر الأدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرّجل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع . يجب تنبيهه بلطف . حذار ، ستوقظ الأطفال .

فيتسامل الصغار ويوشوش في أذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصد .

لا، لا، تبالغ حقاً، يا رجل سنقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش . ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أحنّك عن صحتك وتحدثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحمّله القلب . يا رجل، من يحنّك طبيب كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيراً . تعب الأذنان من روعة صمت مفاجئ كما تعب الرتبان من الهواء عند نهاية أزمة الربو . قد يكون أطلق لآخر غرغرة . قد يكون بصدد مسح دمانه

والتفكير في الأعداء التي سينتقمون بها لتبرير زلّة اليد وسوء التقدير . لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل بلّفت في خرق قدر ثم يوضع في صندوق

محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لثيم، لتراه مرتخيا يتصيب عرفاً تعلقو محياه ابتسامة الزهو والنصر . تتحول اليدان من الصدغين إلى عيينين فاضتا بالنموح، والرأس

منفون عميقا بين الركبتين .
بعد مركز الإيقاف، السجن .

المشكلة ليست كثرة مفترقات الطريق وكثرة قطعاه ولا حتى اكتناظاه، إنما توقفه غير المتوقّع .

تتداخل الفضاءات والأزمنة . في مشهد ما زال بعيدا في غياهب المستقبل يهيمس في السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة: من هنا سيدي،

حذار من دخول الزنزانات ففيها بعض المجانين الخطرين . يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سزى الخبر سريل النار في المهشيم . تتعالى الصرخات تصمّ الأذان: الرحمة! العفو!

كلنا أبناؤك! سيدي الرئيس أرجوك . انظر إلى هنا!

لأنظر لنفسي أولاً وقد انشطرت إلى ذاتين، ذات شبح سجين جالس على الاسمنت البارد الرأس مدفوناً بين الركبتين يحاول استحضار صورة تفاحة وذات شبح أنت من مستقبل ما زال بعيداً يراقبه بسخرية ممزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماتة يهمس فيه: تريد إصلاح مثل هذه الكائنات! حقا يا لك من غبي.

قدر المصلح أكان نبياً يريد إصلاح البشرية جمعاء أو ابسط شخص يسعى للتغيير في أصغر ميدان الارتطام بمنتهيين يخدم الوضع مصالحهم ولو على حساب أغلبية الناس... قدره أيضا الارتطام بضحايا هذا الوضع والجبن يجعلهم يقبلون اليد التي تصفعهم ويعضون اليد التي تريد كسر أغلالهم.. يا للمسكين والمصير أن ينكأ به الظالم وأن يتنكر له المظلوم.. طبعاً كل تضحياته لا تذهب دوماً سدى لكنها لا تغير شيئاً جوهرياً والوضع يعيد نفسه بألف شكل وشكل كأنه ممنوع علينا أن نبني مجتمعاً لا ظلم فيه... هل لأننا بحاجة لتواصل القصص المثيرة التي نشغل بها وقتنا ومنها قصص نضال المصلحين وتضحياتهم المثيرة للإعجاب عند أنصارهم وللشفقة الساخرة عند أعدائهم؟

*

يفتح أخيراً بلب السجن الصغير لأجد نفسي مجدداً وسط أوسع سجن وحلبة الصراع الكبرى ما يسمونه الوطن.

من أين لي التركيز على العدو وأنا أرقص رقصة الديك المدبوح، والذابحون رفاقي الذين يدعون محاربة من لأحارب.

كم صدق القائل: اللهم أعني على أصدقائي، أما أعدائي فأتأ بهم كقيل.
القاعدة أن الصديق الحقيقي هو أجزء من يصدق ما يروج عنك من إشاعتك وأول من يغفرك لك إن صدقت. في هذه الساحة اللعينة التي يسمونها السياسة، الصديق هو أول من يُصدق عنك الأراجيف وآخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك عن الخلل الرقيق في ساحتها كبحثك عن أم لأطفلك في مأخور.

تخور قواي من شدة الطعن فأسقط جاثياً على ركبتني. تمر صفوف أصحابي فوق رأسي تدوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدو جاثياً على ركبتيه، لا أعرف هل أخطر جرح الذي أصابني به الصديق أم العدو. يهمس في:

- أتعتقد معي حلفاً ضد أصحابي وأعيانك بالمقابل على أصحابك؟

أهز رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقه، حتى ولو خان هذا الأخير.

يصرخ في أحدهم قبل أن تنوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:

- يا مغفل، من يبحث عن الوفاء يستثمر في الكلاب لا في الأدميين.

القئون الأول في السياسة ليس لك في هذا الميدان إلا صديق اللحظة وعدو اللحظة وحليف اللحظة مع إمكانية تبادل الأدوار أي لحظة. لذلك ما تحتاجه الحلبة السياسية ليس

محاربا سانجا يعتقد أنه مسنود الظهر بخليف وليس أمامه إلا من يبارزه، إنما راقص باليه صيني في معركة سينمانية يدور على نفسه برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حنجرة العدو في الوقت الذي يسدّد فيه ضربة قاضية بساعده لحنجرة الصديق يردي الأول قتيلا ويترك الثاني جثة هامدة.

ها أنت تتصرّح لله : اللهم خذهم عندك أصدقاء واعداء ووزعهم كما تشاء على جنتك وجهنّمك.

المشكلة ماذا ستفعل أن أنت تخلصت من كل الأعداء والأصدقاء والسياسة كأخطر أنواع العلاقات الاجتماعية لا تكون إلا بهم . يتحول الدعاء : اللهم كثر أعداءهم لكن رجاء ارفع مستواهم .

أي لذة في لعبة لا يلاعبك فيها إلا من ليس له قيمة وليس له قيم !
لحسن الحظّ ثمة من بين اللاعبين الذين لهم قيم وأولها الشرف. هؤلاء للتعهد لأن الصراع معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر.
للأسف أغلب اللاعبين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم خَوْض في الوحل وصلحهم من نكد الدهر.

نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهد لأن صداقتهم نعمة النعم والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداء.

وفي كل الحالات لن تصل قيمة تظن نفسك في مأمن من الأعداء الأصدقاء والأصدقاء الأعداء إلا واتسع أنواعهم يتنقّس في ظهرك والسكين بين الأسنان.

إنه "الذي منه كل نعمة" عندما يوضع على وجهه قناع المنافس.
هو على يقين أنك حَجْرُ عنثرة في وجه ما يريد، أنك أخذت منه ما لا حقّ لك فيه أو أكثر مما تستحقّ، أنك لم تُعطه حقّه من هذا الشيء أو ذاك، أنه سيفتكّ منك ما هو أحقّ به منك كلّ ذلك ما كلّف.

قدر الألمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهي هذا الآخر. هو يريد السلطة لثي يريد ويريد المجد الذي يريد ويريد الثروة التي يريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهيه كلنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تذبّز أمورنا في هذه الحلة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لتنسج على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارها في أنفسنا. هكذا تنطلق أولى بوادر الصراع التي سيقودنا لكل ما نعاني منه على امتداد الرحلة، من غيرة وحسدّ وصراع وظلم. إنه العيب الهيكلي في طبيعتنا، الذي لم ولن نفلح في إصلاحه أو تجاوزه تربية أو فلسفة أو دين أو سياسة.

"ومن يُدقّ الدنيا فاني طعمتها
وسيق لبنا غنبيها وعذابها (الإمام الشافعي)
وما هي إلا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجتنبها كنتَ سلماً لأهلها

وإن تجتنبها نازعتك كلابها"

لا فرار من "الذي منه كل نقمة" لا في أدنى درجات سلم الثروة والسلطة ولا في أعلى هذه الدرجات.

يهمس الطبيب العسكري ونحن ندخل عنبر آخر الجرحى

- كان كمينُ البارحة لجنودنا مكلفا ...

أرفع يدي أطلب الصمت.

على فراش الألام ثلاثتهم لأشهر طويلة من العذاب، بعدها سيتلقفهم مصير لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

- ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُترت ساقه؟

- لا خوف على حياته سيدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطرّ إلى بتر الساقين، الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في إنقاذ بصره.

بشّر يزرعون الزيتون وبشر يزرعون الألعلم! هكذا هم البشر.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص بل وأن ينام الزوج مع امرأته والمرأة مع بعلمها وليس تحت مخدة الذكر مسدس كاتم للصوت و خنجر مسموم تحت مخدة الأنثى تحسبا لكل الاحتمالات.

مبالغة! كل الجلادين خرجوا من بين جحافل هؤلاء الناس العاديين الذين تلاميهم في كل مكان ولا واحد منهم كان متميزا عنهم بشيء.

عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنزوٍ من دهاليزها، تترصد كل الاستعدادات القادرة على جعل الأدمي أكبر مجرم قادر على أن يزرع على طريق الأدمي لغما من المتفجرات كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألعلم.

يا لهذه القفلة التي ترتحل وسطها تتوهم الأمان وأخطر من يترصدك على الطريق قد يكون الذي يمشي خلفك أو الذي يمشي جنبك يروي لك ذكريات طفولته!

*

يأتيك من تواصل المواجهة مع "الذي منه كل نقمة" وتجدها بعد كل صلح قصير، ملل مصحوب بشيء يشبه العثيان. لا فائدة أن تصرخ فيه: كفي، أريد سلاما دائما ولو بشروطك. هيهات. هو كتلك النباتات المضرة التي لا ينفع فيها قتلاح أو سموم أو حرق. لا جدوى من قتل شكله الأول، ولا الواحد بعد الألف، أو التصالح مع كل الأصناف التي يتخذها فنحن دوما مطوقون بأشكاله لا فلات من قبضته ولو أصبحت من القديسين، خاصة إذا أصبحت أكبرهم.

إنه الذي يحسدك على النور، على الهواء على دفء الشمس، على خريف الماء على دوي الرعد، على نزول المطر. هو دليل السوء والشّر الذي يودك في مجاهل الغابة ليضيقك عمدا. هو من يحفر أمامك الحفرة لتقع فيها، من ينصحك بالطريق الذي ينتظرك فيه

قَطَّاعِ الطَّرِيقِ. هو من يسرق حذاءك لتمشي حافيا على الأشواك. هو الذي يدفعك نحو صحاري الموت يمنع عنك الماء عند العطش أو يفزبه لشفتيك المتشققتين ثم يبعده ضاحكا متمسئا. هو الذي يدعو الكواسر لتقاتل من لحمك ولم تلتفط بعد نفسك الأخير. هو الذي لا يترك لك الخيار إلا بين الحرب الأزلية والاستسلام المشين. هو الذي يتبول على قبرك ضاحكا

كأنه لم يخلق إلا ليكون مغلقا كل الأبواب، واضعا كلِّ العرقيل، معسرا كلِّ يسير، منغصا للوجود. الوجه البشع للعالم. اللهم امنع عنه النوم و احرمه من الموت. لا جدوى للغضب والضعينة. لنحاول كما يفعل الأميون دوما تبرير ما لا تبرير له واضفاء المنطق على ما ليس له منطق. ماذا لو كانت للقوى المبهمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود الذي منه كل نعمة، منها أنه ضروري لنبقى منتبهين، أن غيابه كن سيجعل قصصنا بانخة وبلا طعم، أنه هو الذي يؤكد فينا أخذ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهج نارا ونورا ونحن نقاوم ومنتصر.

لا، لا، ليس بهذا الثمن .

يرفع الحالم ذراعاه بالجاراة تتطلق لعنان السماء تريد شج رأس من ارتكب هذا العالم ووضع فيه هذا النوع من الكائنات فترفرف لحظة لتتقضَّ عليه كالعقاب، عقابا على الإمعان في تمرد عقيم تحالفت لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجه بأول لعنة إلى عالم أفاق معي متربصا بي وبغيري: ما زلت موجودا! كلُّ لا أحد رضي بأن يريحني منك ولو بما دفعتُ فيك.

تلك أتني أضع العين كل ليلة في المزداد العلني متوجها إلى مُشترٍ ساذج قد يسهل التعرير به. خذه بفس و هذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غزا وهو الأمر الذي يتطلب النقليل من مطمحي. أتوجه إليه مجددا كل صباح متتابيا ولا أملٍ جَنِيًا لي في عقد الاصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالمٌ كاملٌ الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجانا، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

ربما الحلَّ ضربه في مقتلٍ وقف تدفق ضحاياها.

لهذا نشرث منذ مدة على موقعي في فضاء الصقر والواحد، إنذارا صادقا وإن بتوقيع مزيف.

“نظرا إلى الازدحام الشديد، ولأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فلن العالم يعلم أنه قرَّر التوقف عن استقبال الزوار وذلك إلى أجل غير مسمى”.

أسلط النظر على امرأة تدفع أملها ببطنها المنقح، تهذد بمولود جديد عالما شبع من المواليد الجدد ناهيك عن الكثرة المقرفة للمواليد القدامى.

أتوجه إلى المعنى بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطف مستعملا هاتفي الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد: لم تقرا الرحلة؟ لم أبلغ في شيء، أسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدقني، من الأحسن أن تبقى في دنيا الغيب إلى أن تحين فرصة أخرى.

ربما ستصبح القوى المجهولة في تخيل عالم أقل خطرا وفضاعة، أما هذا! ثم هل فكرت في ضرورة ترك الأرض تستعيد أنفاسها!

يصمت الشيخ متجاهلا ما في قلبي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثم أشعر بالمتهور يهز كتفيه يجب ألا أحيط ولن أوصل تحمّل مسؤولياتي تجاه الجنس البشري.
يا مجنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهز للسكن. ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!

ترمقني المرأة بريبة كأنها أحسنت أنني أريد بذريتها شرا.
قل لأمك أن تهذا. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أذنها أنني أريد خطف حبيبتيه وأن عليها أن تطلب بوليس النجدة. يا غبي، لا أريد بك إلا خيرا. وأنت لا تريد بي إلا شرا! أه منكم يا أولاد حواء.

قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، النجدة، هذا الأجنبي وفي مثل هذا العمر يعاكس النساء الحوامل! صدق من قال مصائب البشرية من مصدرين لا غير: النساء وأمتهن.

أقولها ولمشي متحملا كامل مسؤوليتي: الأثني أسنّ البلاء. ألم يكن من واجب هذه المرأة حال ظهور بواذر الحمل أن تشي بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها العادل، وأن تسلم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالواحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعدت الكرة وهي فخورة بما اقترفت المبيض والزحم. هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟

آخر محاولة: تنظيم مظاهرة عارمة وتهديد القوى المبهمة التي قد تكون برمجت هذا العالم كلعبة فيديو وجعلت من الشرير الأعظم البطل الأول في سيناريوهاتنا الخيئية.
تقول ساخرا بماذا سنهدّد أنت المسكين هؤلاء المبرمجين القادرين على خلق العوالم؟ بما يخطر على بالك، المهم أن نهتدّمهم بشيء ما علنا نثير فيهم مخاوف ما ولو لحظة عابرة. الدليل على موافقة الجميع حضورُ مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا الذي منه كل نقمة، فتردّ البشرية ورائي بحقد عارم وجذل الشز: لا، لا، لا.
بدايةً موقّعة لأكثر مظاهرة في التاريخ سنؤنذّر القوى المجهولة التي تتحكم في كل هذا السيرك بضرورة الأسراع في الكفّ عن تجاهل صلواتنا وأخذ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء.

ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فائر والهتاف متقطع وأصواتٌ نشارٌ تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدّين هم أشكال الذي منه

كل نعمة، تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظالمين الرجعيين هم كلهم أبناء زنا ومخلفات الذي منه كل نعمة !

ها قد تفككت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يسبق مطالبه ويصفي حساباته مع من يدعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنقاذ فكري العظيمة وإسكات هذا الغبي الأخر وهو يصرخ: خطفوا طاقم أسناني وأنا أهتف. لأتوجه إلى الحشود مخاطبا العقل والضمير وحسن المصلحة العامة: يا جماعة لا بد من وحدة صماء وحرص الصفوف.

تتعالى أصوات الاستحسان فلاسب ولاصغير، بأسرع مما كنت أتوقع. يصلني صوت المكلف بتسميم حياة كل زعيم من زعم الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاور في صياغة البيان الختلي؟

ماذا لو صححت: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. أه يسكون بخنقي يريدون التثبت من حزامي!

أنا الآن كالأسد الجريح يلحق جراحه خارج ساحة المعركة، ينظر بشماتة للذئاب وبني أوى تتصارع بينها، ولقطع الخرفان يرعى حشيشه.

أوف! ليأكلوا بعضهم بعضا. إن كان لهذه الكائنات عُذر ولحد للوجود فهو كثية اللحم واللحم التي سيوفرونها للود ناهيك عن كل ما تبرزوا طوال رحلتهم من الخرا سادا للأعشب والنبات.

أه، وبخصوص عُذر وجودي؟

كثية المواد المذكورة أعلاه، كل الأمل أن تكون من الصنف الذي لم يسمم زهرة ولن يصيب دودة بإسهل.

تنتهي طال الزمان أو قصر لاستنتاج واحد: المنفذ الوحيد من الذي منه كل نعمة.. الموت.

آخر عقبة قبل أن ترتاح منه نهائيا تحمّل مراسيم الجنائز.

هي عند الأدميين كالختن والزواج: مناسبة لملافة الأجزاء الذين فرّق بينهم الزمان، لتبادل الأخبار والنكت لإتمام الصقلت، أحيانا لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت. يكفي أن أتصور كيف سيكون موكبي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي الذي منه كل نعمة خلفي، بواصل الحسد تعذيبه لأنه ليس هو المرفوع على الأكتاف.

يجنح بي الخيال لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.

كانني أسمعهم يتهمسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أظنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه ونوبه التي لا تحصى. هل رأيت ما أشنع نظراته. لا يلبس ربطة عنق، مظهره مظهر عامل فلاح، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبؤس الذين صبغت الشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الأفريقي أن

يريد نفسه سيّدا لنا. حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا الله من سحنته البشعة.. ثم خاتمة كل المناقشين يستتفرون بعضهم البعض لمزيد من السبّ: يا ناس، "اذكروا موتاكم بخير".

حقا ثمة فلة بجانب كل هؤلاء الشامتين من يحزنهم فعلا رحيلي. لأواسيهم بما واسى الشاعر مودّعيه:

"في يوم وفاتي عندما يسيرون بنعشي (جلال الدين الرومي)
لا تظنّ أنّي متألّم لفراق هذا العالم
فلا تبك من أجلي ولا تقل وأسفاه وأسفاه وأسفاه
فوقوعك في مخيض لشيطان مدعاة للأسف
وعندما ترى نعشي لا تصرخ الفراق
فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي
وحين أودع القبر لا تقل الوداع
فالقبر هو حجاب على مجموع الجنان"

كم أخطأوا جميعهم في حقّي: الذين بالغوا في كرهى لجهلهم أو لتجاهلهم لما في من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم لنقائصي وعيوبي. كل لي ككل الأدميين بعض الحسنات تتسيها زلاتي، وبعض الزلات تغفرها لي الحسنات، ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك. قدر الأدمي ألا يكون إلا صورا في الأذهان، صورته في مرآة من بحبونه، صورته في مرآة من بكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يعبر طريقها، بالكاد تلمحه وحتى صورته في مرآة ذاته خاطئة. أما من له هذه الصور المتباينة في كل المرايا فشبه مجهول للأخرين ولنفسه أولا.

بالله عليكم يا من أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقموا في العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركت لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا من أحببتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبلوا في العزاء. تُزغرد النساء للمولود الجديد وينتحن على الميت، والحال أن تمام العكس ما يجب.

لعنات الحّارين الصامته وهم يزفرون غيظا من الحرّ وصلابة التربة. على فكرة، لماذا يجب أن أودع في جوف الأرض؟ لماذا لا يُلقى بجسدي عاريا فوق الكثبان على بعض الكواسر وثلالب الصحراء وقاربيها تجد أخيرا نفعا في أدمي؟ الراححة! من سيضابق إذا رُميت بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تعلق فتحت الثرى حيوانات أصغر من ثلالب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أحممتني. "ماشى" مع الدفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بئر لأدفن فيها ورأسي كالعادة إلى الأعلى.

"سأرقد في كل شبر من الأرض (محمد الفيتوري)
أرقد كالماء في جسد النيل

أرقد كلشمس فوق

حقول بلادي

مثلي أنا ليس يسكن قبرا"

يا هرمس، يا رب المسقرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جنّات الخلد، أت الذي يعرف محو الخطي، امح كل آثاري حتى لا يواصلون ميت منذ قرون ملاحقتي بلاسب والشتم.

أخشى ما أخشاه أن ينتصب الخطيب المفوه لأخر اعتداء. من قال أكبر الأكاذيب عند البشر قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصّيد؟ نسيّ لاشقيّ خطبة التّأبين.

ها هم على أهبة الاستعداد وراء خطيبهم الهمام لحشو فم الميّت بعنقود العنب الذي رفضوا إعطائه وهو حيّ أصغر حيّة منه.

كل شيء إلا انتصايهم فوق قبري يخطبون. إكرام الميّت دفنه. نعم وبصمت. وحده الوجع لصامت في مستوى مهابة اللحظة، ما عدا هذا مسرحية عديمة الذوق.

لله درّ هؤلاء البشر. يكتبون عليك حيّا، بالتقص من قدرك، ويكتبون عليك ميتًا بالزيادة فيه.

إياكم ثمّ إياكم، والله لو خطبتم خطبكم الرثانة على حافة قبري لرميتم بالحجارة من خلف السحاب، أو لتقلبت عفريتًا يأتي لياليكم بأفزع الكوابيس.

ولأنني لَمّا انبثقت في هذا العالم، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوه يمدحني بخصالي المرتقية، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا "مما" وخلة وجارة تدّعي أنها قابلة، فإني لا أريد في وداعي إلا ثلوث نساء آخر: تفلحة وتفيحه و"ح" التي غمرتني بحب لم أستحقه يوما.

تُهال على جسدي آخر حفنة من التراب، أبصر من خلالها بريق الرضا يلمع في أعين تعصر عينا من مائي جفّة دموع التماسيح.

فوق القبر يتواصل تنفق سيل الحياة، نهر جبار علت أت من أعماق التاريخ، لا يوقفه سدّ آخر. ما هم مثل هذا النهر لأن قطرة تبخرت منه.

"ميّت أنت والى الأبد (لوركا)

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان"

على باب المقبرة سيودّع الناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقرب الناس إليّ عائدون عاجلا لها وللضحك بأسرع مما أتصور. أي أهمية للأمر الآن وقد أدركت لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائيا.

على الشاهد أريد أن يكتب هايكو ليسا أعدت صياغته بما يرضيني ولا يغيضه.

"أخيرا نجوت منكم

والآن تعال يا صرصار

عَنْ عَلَى قَبْرِي؟

يكمل الخيال بقية الاحداث.

تواصل المشاهد في فضاء خيالي أستيق الأحداث وأحاول تصور ها .
ها قد عدت من حيث أتيت. بوسعي الآن أن أضع رَحلي انتهت مشقة السفر. قبل الإخلاق إلى راحة العدم، علي أن أجد مكتب التظلمات لأسجل إدانتني التامة لفكرة خَلق كائني مثل "الذي منه كل نعمة" وطلبي الملح بسحب دوره من السيناريو في النسخ القادمة من العوالم التجريبية .

طبعاً لا أعبي من هذه الفكرة ... كما لا افلات لأحد من قانون الجاذبية لا افلات له من قانون التناظرية القاضي بأنه لا وجود للشيء إلا بنقيضه ... مما يعني أنه إذا كان لك محبوب لا بد أن يكون لك كارهون... أنه كلما ارتفع عدد المحبين كلما ارتفع عدد الكارهين... أنه كلما وصل الحب عند محبيك أعلى درجة كلما وصل الكره عند كارهيك قمته ... أنه كان بوسع كم من كارهيك أن يكونوا من محبيك وبوسع كم من محبيك أن يكونوا ألدّ الخصوم والصدف هي التي وزعت الأدوار... أنه من العبث السعي لقلب الأعداء أصدقاء إذ سيتركون حتى ولو نجحت في الأمر الفضاء شاغراً لينبت لك كم من أعداء جند ناهيك عن التسبب في فقدان كم من أوفى الأصدقاء... أي حلّ تجاه وضع لا خروج منه ولا خروج عليه غير قبوله كما هو بل واعتباره الوضع الضروري لكي تكون لنا التجارب والقصص التي تشكل حصيلة رحلتنا.

أتمسّر مذهولاً وأنا أرتطم بالنظرة المتجهمة لمخرج الفيديو واسمه بالصدفة جبريل وهو ينقل البصر تباعاً من وجهي إلى ملف غليظ، ومن الملف الغليظ إلى وجهي. طبعاً هذا ملفي وهو بدهاة زلخر ثقيل. بماذا؟ بشكاوى الأطفال الذين تفوقت وتكبرت عليهم... بشكاوى الأب من طفل متمرد ومراهق وقح.. بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عقرت أنفهم في التراب... بشكاوى الطغاة الذين أشبعتهم تهكما وتحقيراً... بشكاوى كل الذين ظلمتهم حين أنصفوني، الذين حجبت عنهم نظري وجفوني عندما كانوا بأبس الحاجة لحبي وتضلمني، الذين لم يسلموا مني ألاحقهم بسخريتي وشماتتي حتى وهم في الخرق البيضاء.

أه، ما زال هناك المزيد من الملفات!

ماذا أيضاً؟ شكوى الأعشاب التي اجنتت أو دُست غير عابئ بماذا اجنتت أو على ماذا أمشي... شكوى الفئران التي سممت صغارها في غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق ... شكوى الخنافس التي كانت تخرج ليلاً خانفة مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقائل الرهيب يفاجئها بالموت الفظيع ... شكوى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكياً من رداءة طبخها... شكوى شعوب النمل التي لاحقها في الحديقة بالدعس وخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات.

كيف لا أنفجر ضاحكا، لا يكفي أنني كنت "الذي منه كل نقمة" لكل هذا الكم من الأعميين
التعساء، بل وكنت أيضا غولا وعبئنة لما لا يُحصى من الكائنات الحية الأخرى!

**

أو كيف أنه لا معين على أهوال الطريق سواهم

يُذَقُّ الباب بإلحاح وأكثر مدعاة للتحفز القلق أصوات رجال الشرطة ترغي وتزيد. لكنهم لم يأتوا هذه المرة لأخذي وإنما هم بصدد محاولة منع شخص مصرّ على زيارتي. أيكون لشقيق الذي رافقني طوال الرحلة وكان صديقا أكثر مما كان أختا؟ لا هذه المرة هو الصديق الذي كان لي أكثر من أخ والذي وقف بجانبني محاميا في كل القضايا الملفقة التي لاحقوني بها أكثر من ربع قرن. يفرض للرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حقّ منع الزوار عنه.

يسلم عليّ مهنتنا بسلامتي. يلقى بنظرة ثابتة حوله، متعجبا من خلوّ البيت تقريبا من كل أثاث لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضبان. ثم يدعوني إلى جولة على القدمين لمعرفة حبي للمشى. بصّر وسجارتته الأزلية بين شفّتيه، على المرور أمام المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس لتعلم الجميع، مع من يقف وأي قضية اختار.

هذا رجل أصدق مثال على تجني الشاعر على الأدميين أو على الأقل تجاهله أنه لكل قاعدة استثناء وهو يتشكى لمن يريد السماع:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوما به انقلبوا (أبو العتاهية)
يُعظّمون أختا الدنيا وإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا

لا، هذا آدمي ليس مع الدنيا وصاحبها وإنما مع من أدرات لها الدنيا ظهرها ومن انقلب عليه الأصحاب والأحباب.

أما زح للصديق -الأخ أخفي تأثري:

- أرهقت من يتبعونا من الشرطيين بهذه المشية السريعة.

- ما أكثرهم، هذا بلد يجب أن يسمى بوليسستلن.

- مساكين مثلنا، لا تقسو عليهم. أقص عليك ما حدث يوم أطلق سراحني. أخذوني إلى بيتي في سيارة عادية.

داخلها بادرني أحدهم: تظنوننا وحوشا؟، مانا تريد؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟ واصل الرجل لا يشبه إصراري على الصمت: هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركت فيها؟ التي حصلت أمام مقركم؟ ... طالبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسه أحد بأذى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟

كان الصوت مختنقا وكأنه يغلب عبرة صامتة. قلت لا ماذا فعلت. قل فتحت القبة بنت الكلب التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعظها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا.

على خدي الأيمن، انظر. هنا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعبها المقرّر لا يكفّ عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني.
كل كوارث الدنيا تأتي من تعذيب بعضنا لبعض (فريتنو بيسوا)
بنية فعل الشر أو بنية فعل الخير.

تلك اللحظة تدافعت إلى الذاكرة صورة "ب" ويده على خده وغضبه لم يخدم بعد عقود من صفة الضابط الأجنبي، قد تكون سبب الصدام المزمّن الذي لم ينجح في تخفيفه حتى نوائي. يا رب، كم من آلام عينية يلحقها الألمي بالألمي!
دون وعي ارتفعت يدي مرّرتها برفق على الوجنة الملتهبة، أسمح ببلغ العناية والبطء آثار بصقة لم تجفت منذ شهور.
قلت للرجل عفوا أخي، وقبل صغارك من طرفي.

المضحك المبكي في هذه الخصومات والمعارك التي نستلثك فيها جلّ عمرنا أن كل الفاعلين فيها يعتقدون أنفسهم أخيارا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عادلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة. تمنع عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أخيار أشرار وأشرار أخيار، بين مهوسين بهذه العقيدة وهائين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الفريسة لهم وحدهم... والألمي على اللوام كذاب مفترى عليه، سارق مسروق، ضحية وجلاد.

كلّ مرافقي تأثر لكنه أثر تغيير الموضوع.

- هل جعت؟ أي مطعم تفضّل؟

- بعد طعام السجن وما أطيخ بيدي، كل طعام سيكون زردة.

- لنذهب إلى مطعم المتوسط، هناك أحسن أنواع فولكه البحر وصاحبه صديق.

أمام أفخر المآبب التي أصرّ الرجل على اختيارها بنفسه، ينقل الحديث من موضوع إلى آخر، وهو يرجعه دوما إلى ظروف عيشي.

- لا بدّ من تدفئة بيتك في هذا الشتاء الماطر خاصة وهو شبه فارغ؟
لا أتمالك نفسي من الضحك:

- لا تقلق، بدويّ متعود على خشونة العيش.

- عندك مدفأة في الصالون، لماذا لا تستعملها وتسلم قريبا؟ أم هي للزينة فقط؟

- لا، هي شغالة، لكن لا بدّ من... بالمناسبة، إلى أين وصلت المحاكمات الأخيرة؟
- غدا، سأذهب للدفاع في إحداها.

- تعرف لماذا طلبت منك عدم المرافعة عني أمام الموظف المكلف بإصدار الحكم الجاهز سلفا. هذا قضاء لن يغير الله ما به حتى يغير القضاة ما بأنفسهم وهو وضع لا أعتقد أنه سيحصل قريبا.

يتبسم الرجل الهادي.

- قد لا نرى قريبا تحول هذا القضاء المستغل الى قضاء مستقل وأنا معك أن كل هذه المحاكمات السياسية مسرحيات ساقطة. لكن ما تدعو إليه من مقاطعتها، أمر يصعب قبوله على مهني مثلي. بيني وبينك ماذا تريد من محام أن يفعل أو حتى أن يكون إن منعه من الكلام.

نعم ما المحمومون دون الكلام الذي هو وظيفتهم وهويتهم ووسيلة رزقهم شأنهم في هذا شأن الوعاظ والمرتبين والتجار والسياسيين والصحافيين والدجالين وكم من مهين أخرى لا بضاعة لها تتاجر بها غير الكلام .

يجذبني الصديق من ذراعي بلطف لانتبه له.

- على فكرة شقيقك يشدكي أنك تخرج وحدك ليلا إلى شاطئ البحر. لا داعي لاستقراز الشياطين وتسهيل مهمتهم. تذكر أنك تتعامل مع "كابو" مافيا وعصابات لصوص استولت على بلد. آخر سؤال وأرجو أن تتقبله بصدر رحب.

- قل وعليك الأمان.

- ما الذي يجعلك تقبل بكل هذه الأخطار التضحيات من أجل هذا ... هذا القطيع الذي تصرّ على تسميته بالشعب؟

علمني أنبل من عرفت من البشر وهو الذي حرم من الحرية سبعة وعشرين سنة أن الانسان الحرّ ليس الذي يناضل من أجل حريته وإنما الذي يناضل من أجل حرية الآخرين... وأنا أريد أن أكون ذلك الإنسان...

- نعم أنا معك في ضرورة النضال من أجل حقوق الإنسان، لكن أه لو كان لنا أناس يناضلون أيضا من أجل اضطلاع هذا الانسان بواجباته، خاصة في هذا البلد الذي لا يبدو الربط فيه بين الأمرين بديهيا.

طوال حياتك وانت تطالب من الآخرين ضمان حقوقك -الاسم الآخر لحاجيتك الأساسية- وأولها حقك في الوجود وفي الشروط الموضوعية والمعنوية الضرورية ليكون هذا الوجود نعمة لا نقمة... طوال حياتك وانت مطالب من قبل الآخرين بالاضطلاع بواجباتك تجاههم أي تمكينهم من نفس الحقوق التي تطالب بها وإلا أصبح الوجود عندهم نقمة لا نعمة... أتعس ما تعيش الذات من تجارب حين تنتهك كل حقوقها بالعنف وتفرض عليها كل واجباتها بالقوة... اروعها حين تتضجر من متعة التمتع بالحقوق دون أدنى نضال مع متعة القيام بواجبات دون أدنى كراه.. قلما يتحقق مثل هذا التوازن ومن ثمة حالة الأوضاع التي نعرف والقصاص الرديئة التي نتخطى داخلها على امتداد الطريق.

تنتهي السهرة الممتعة ويصرّ الرجل الطيب على أن يوصلني لباب البيت والتأكد من أن الذين يتبعوننا منذ خروجنا منه لن يقتحموه مرة أخرى.

من الغد أفيق لأكتشف كدسا كبيرا من الحطب أمام الباب. تلتهب النار في المدفأة ويسري لأول مرة منذ أسابيع طويلة شيء من الدفء في الجسم والروح.

نعود للمشي بعد أيام والرجل الطيب المصّر على تقفد أحوالي كل يوم يركض ورائي لا هنا يمسخ عرفه:

- أنت تصرّ دوما على الجهر بالحقيفة كأنك لا تعلم كم يكره هذا النظم أي شكل من أشكال الحقيفة ...

- النظام وحده؟ يا ليت. أغلب البشر يدعون حبّ الحقيفة وهم لا يخشون إلا هي ... يفرّون أمامها أسرع ما يركضون وراءها، أكاديميهم هي حقائقهم وحقائقهم أكاديميهم. لا أؤمن لديهم من خرافاتهم وأساطيرهم ومن اسدال لستار الكثيف على تاريخ أبطالهم وقديسيهم وأنبيائهم والويل لمن لا يشارك في مؤامرة التديجيل على النفس والأخر لنستطيع مواصلة العيش مع بعضنا البعض.

- كأنك بدأت تتضح ، على فكرة قد يمكنني إعانتك على ما تكلفك السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتها على رأسك. كيف أحوالك مع زميلك العزيز في الكلية وإلام وصلت الخصومة التي صارت حديث صلونات المدينة؟

- طلبتُ منه رسميا أن يتوقف حالا عن الصلاة والصوم حتى لا يزيد في نرفة الله. قلتُ له سوّي وضعيتك مع الناس ومع نفسك، بعدها يمكنك العودة إليهما قد يقبل بهما لغفور الرحيم من جديد.

- مما يقل همسا وجهرا أنه لا أحد يريد هذا الطبّ الشيوعي الذي تحاول فرضه. وضعك في الكلية يتفاقم يوما بعد يوم. زملاؤك الأعزاء يكرهونك، طلبتُك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكز الصحية المتخلفة. يُقال أيضا إنه لا أحد يجلس على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من صرامة مع الطلبة المسلمين.

- يكذبون عليّ كعادتهم. بخصوص صرامتي الكاذبة هل تعلم أنني كتبت رسالة الدكتوراه لإحدى طالباتي من الألف إلى الياء.

- لا أصدّق.

- فعلتها والله دون تقاضي فلس أو مراودة المسكينة.

- ولو! هات التفاصيل وسرّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.

- طالبة من بلد بعيد جمعت في أن واحد قلة النكاه والجمال والمال. دخلتُ مكتبي ذات صباح ترفل في أسماها بكية لأن كل من توجّهت إليهم من زملاء الأعزاء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلى ريقها وتمسح دموعها إن هذه الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بلّمن الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيثُ أن أقول لك إنها قضت في دراستها ضعف السنوات السبع المعتدّة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تننر في كمل الكلية.

كيف لا يتغلب يوما تعاطفك مع الأديميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أن جكهم يعانون من كم هائل من الامتحانات والمحن وأن أخطاهم وخطاياهم أغلب الوقت رنود فعل قليلة الفعالية على علم يعبث بهم عبث القطّ بالفأر!

شيء ما تحرك داخلي يلهم بمد يد العون لأدعي سبوح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلاً، الإعجاب أمام عناد هذه الأنتى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوت مثل كل من ابتلاه الله بما ابتليت به من مصير. قلت لها هذا موضوع سهل، جمعنا له كل المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدت أرمي أول مسودة في وجهها. تمالكت أعصابي وقضيت معها يوماً كاملاً في مراجعتها ثم طلبت منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجيبة مستننة من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعدي حصل ثبته إجماع على أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا وقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها. قلت لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضتكم يوماً تباع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يسوه الله أحسن مما سوى ذهنها. نظروا إلي باستغراب وقد بدأت الشكوك ترودهم بخصوص ما ستجاسر على فعله. قلت نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محققين آخرين قد ينتهبون للخديعة ويتسبيون لي في مشاكل جديدة أنا في غنى عنها. قلت في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة منصب رئيس قسم ينتظر ولحدا منكم. لم يش بي أحد بل تتابعوا على إصلاح ما كنت أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارق في خضم مشكلي المتعددة. أي جارة كريمة أعارت المسكينة فستأنا يوم نقاش الرسالة ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعلنتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شفتيها بالأحمر لكي تبدو من فصيلة بني آدم وبنات حواء. يوماً كُننا لأنفسنا الثناء ولم نقصر في مدح مثانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت إليها وكيف ستغير وجهة الطب الاجتماعي للعشرية المقبلة. كل هذا أمام عاملات نظافة الكلية ملأنا بهن المدرج ليقعلن متابعة كلام لا يفهم منه شيئاً. بعد نهاية "النقاش" مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة، رجعنا إلى المدرج يحض بنا وقرار العلماء لنعلم البنات أن رسلتها قُبلت بعلامة مشرف.

لما أتمت قراءة قسم أبقراط وهي تتلعتنم، همست في أذنها أن قسمها لأبقراط لا يعنيني في شيء، كل ما يهمني لحرارم قسمها لي بالأنا تلمس أبداً مريضاً وألا تغير من الوظيفة التي وجدتها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقف عملها على الكشف على الأطفال ولحالتهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستاناً أنيقاً والكعب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحب عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني، شكراً. لحظة سعادة صرف وتصالح خالص مع الذات والآخر.

تنهد الرجل الطيب وقال:

نعم يحق لنا أن نغفر لأنفسنا والآخرين ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضاً على العطاء دون انتظار حتى كلمة شكر.

نعم وألف نعم، بحق للأدمي أن يغير لنفسه كل جزائه تجاه الأدمي الآخر وحتى تجاه أضعف الكائنات وهو الوحيد القادر على أسمى أنواع العطاء والبنيل.

*

وحيدا على الشاطئ المقفر يمكنني التفكير بهدوء واستحضار بقايا نقاش حول نار في محمية افريقية مع امرأة جمعتني بها صدف الطريق.

ليلتها قلت لها وأنا أعبت بعود أقلب به جمر النار التي تجمعا حولها لسهرة الوداع - صحيح، كم نكلنا بالحيوانات ومع هذا... هل سمعت عن المعابد التي يقصدون فيها الفران، عن الأطفال الذين يغسلون قفلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، عن وليمة القرود السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حذب وصوب ليأكلوا ما أعده لهم البشر؟ هل سمعتي برجال ونساء قبيلة البيشونوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ثمة بشر يقولون عندما يتحذون عن فرد: فلان، السيد فرد. لا يجب أن ننسى الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النور لغسلها وتغذيتها وأخذها للفسحة في ضواحي الدير. تصوري أنهم خلقوا في بلد أعرفه جيدا حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طبعا الحزب الحيواني.

ليلتها قالت تزيد من رفع معنوياتها ومعنوياتي. أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حدّ وضع لثام على الفم خوفا من التهام ذبابة والمشي والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ. ثم لا تنسى من يزرعون المسامير على الجنوح لتتكسر عليها آلات قطع الأشجار.

قلت وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجنوح الموعودة للمنتشار الكهربائي. قالت هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أخفاد موبيديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسن أخلاقي مرهف وخير فطري في الأدمي؟

قلت عندي ما أحسن. إذا تصادف ووصولك المدينة التي يسمونها "التقاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقدّيس فرانسوا، فسرعي بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الأدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتظة، يتحرك طاوور طويل وكل أدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقط، بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمل. عند الوصول إلى الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد يبارك الأدمي ويبارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبين للمتعبدين الصلّمتين ولو في قبس وعي عابر أننا كلنا أقرب لبعضنا مما نتصور.

كما هناك حمم تجد أحيانا طريقها للسطح فينجر بها البركان، هناك داخلنا "شيء" مطمور في أعصق الأعصاق يربطنا بجذع الحياة وهو الذي يثيق طريقه نحو

سطح الوعي عند البعض مخترقا الطبقة السميكة لتبلدنا المزمّن قَتَّي منه الرسالة والأمر... طالما هناك من يتقبل الرسالة ويفهمها، طالما ما زال أمامنا أمل في الخلاص. عمّا يقدر عليه الأدمي الذي يحبّيك في البشر والذي اسميه "الذي منه كل نعمة"، حدّثني جدّي وأنا طفل أنّ الأجنبي قال له وقد تمخّضت عنه العاصفة: عُصتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلَة وبأي ضربة حظ وصلتُ الخيمة. لم يبالغوا عندما حدّثوني عن كرم البدو. أليست للضيافة في هذه الصحاري حقٌّ طرفٍ وواجب الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال "الذي منه كل نعمة" يوجب في هذه اللحظة الفياقي القاطلة التي تفصل بين أرض يَهْرَبون منها اسمها المكسيك وأرض يَهْرَبون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرَجَّح فيها مرور المهاجرين غير الشرعيين أو ضياعهم.

في قصة أخرى يروي لنا الأدمي التائه في مصاعب هذا العالم وأحواله: عُصتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجعدت من البرد قلت في نفسي إني هالك اللهم إلا كانت النجاة في ذلك النور. إنه مصباح كوخ، الأمل ألا يكون وكز قطع الطريق.

تفتح الباب امرأة مبتسمة. تخاطب الأدمي المتماوت جوعا وبردا بلُغة لا يعرفها لكنه يفهم من نبرتها أنّ عليه الإسراع بالدخول. تصفّق الباب وراءه مشيرة إلى مكان على يمين رب العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المندبل على الطاولة! تُرى، هل ينتظرون ضيفا؟ طبعاً، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدقّ الباب في أيّة لحظة.

كم من قصص عمّا يقدر عليه الأدمي محبّة لبني جدّته وقد تبلور في وعيه شعور مفاجئ بأنّ الأدمي الآخر ليس إلا ناته تتخبط في قصة أخرى وأنه هو نفسه ليس إلا الذات الأخرى تورطت في قصته.

على أي حل كنا نعيش دون هذا الذي يرافك على الطريق يُعيبك على أحواله وأحواله! لنقل إن "الذي منه كل نعمة" هو الأدمي الذي يمشي طوال الرحلة أمامك دليلاً وخلفك حارساً، الذي يُخرجك من رمل متحرّكة كادت تظفر بك، الذي يُطلق صرخة الفزع لينبّهك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوة إلى الخلف عند شفير الهاوية، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بذلك من شدة البرد، الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون منّ، الذي تنكئ على ظهره تنتظر مرعوباً وسلاحك في يدك بروز الذئاب، الذي يتغاضى عن واضح خوفك ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يترصص به من ذئاب، الذي تعرّف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته، الذي لا يقتعل سمّاعك وإنما يُصت إليك حقاً، الذي إذا انتصرت عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتز، الذي يزيهيه

نجاحك وبيكيه أن يراك فاشلا، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ماء، الذي يُؤوي نكرًا في قلبه تُواصلُ داخله أعرب أصناف الوجود.

نعم، "الذي منه كل نعمة" هو الحالة التي يتخذها العالم عندما يتكفل بحراسة أخطر مقترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهقين والمحيطين، خوفا من أن يتوقف تنفق الحُجاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغمري الوجود على الثبات.

آخر ساعة سهرتي الليلية مع مع البحر. اشعر بأنني في خطر داهم وأنا أنتبه لمجهول يركض ورائي ويده تمسك بذراعي. تدوي داخل الذات كل صفارات الإنذار المعهودة. تتراءى لي بسرعة البرق الصور المعتادة وكيف سقُتاد نحو سيرة رابضة حيث ينتظرني آدميون بسنن متجهمة وعيون يتطاير منها شرار البغض. تتباطأ نقات القلب وأنا أسمع الألمي المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنبًا إلى جانب: بارك الله فيك وفي من معك على ما تفعلون من أجل كرامة الإنسان.

تربُّث يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضيع الرجل في الظلام، لا يترك لي الوقت للتمتع في ملامحه.

إنه الآن شعور من كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عثر أخيرا على والديه. صتقتم صراخي في وجوهكم بسبب وبدون سبب؟ مجرد ردة فعل على حب خيل لي أنكم لم ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجددا على شعر ابنته. هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لساني لمن أخلجته التأتأة. مكائتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روحي لمن رهن روحه عند الشيطان. بورك فيكم.. بوركتم، بوركتم، بوركتم جميعا.

**

في تباين الأدميين وما الذي يفرق بينهم ويجمعهم

كيف يمكن للأدمي ان يكون تباعا أو في نفس الوقت " الذي منهم كل نعمة " و" الذي منهم كل نقمة " ؟
قد لا توجد ظاهرة تطرح عليك كما ههنا من التحديات في فهم هذا الكائن والتعامل السليم معهم قدر التناقض الهائل في تصرفاته والتباين المدهش في مواقفه وهو على الدوام :

صغيرٌ يطلبُ الكبرا	وشبيخٌ ودٌ لو صنُغرا (العقاد)
وخاليٌ يشتهي عملا	وزو عمل به صنُجرا
ورب المال في تعب	وفي تعب من افتقرا
وزو الأولاد مهمومٌ	وطالبهم قد انقطرا
ومن فقد الجمال شكى	وقد يشكو الذي نُهررا
ويشقى المرء منيها ما	ولا يرتاح منتصرا
ويبغى المجد في لهفٍ	فإن يظفر به فترا
شكاةً مالمهم حكّم	سوى الخصمين إن حضرا
فهل حاروا مع الأقدار	أم هم حَبِروا القدرا

هل ثمة بعض الثوابت تعيننا على إحلال بعض النظم في فوضى هذه التعددية التي لا قدرة لنا على التعامل مع تعقدها ؟
اعتبر أولى وأهم متطلبات العالم من كل مرتتل ومن ثم أولى الخصائص التي يجب أن تكون موجودة فيه دوما: الشجاعة.
تكتشف بلكرا أنك أمام نوعين من الأدميين.

ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حط فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيترجع إلى الخلف مبهورا ومذعورا. ثم يخرج من جديد وقد استشارته الأحاسيس القوية، يدفعه الفضول ويشده الخوف. يتغلب عنده الفضول وكله نفاذ صبر وحتى تسرع في مغادرة الوكر. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم تستقر أنيابه ولا درع بحميها سوى الجراءة والتحدي. ها هو الأدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفظا يبحث عن الصيد وعن الأنتى وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاطم الأخطار تتعاطم الغنائم، أنه لا بد "مع الشهيد من إبر النحل"... وأحيانا تصبح الإبر أئمن من الشهيد. لا شك أن مخطط الرحلات سيكتب على هامش ملف كل مستكشف من هذه الطينة: يعين لمهمة أخرى في عالم أخطر.

لكن ثمة التصرف الآخر والأدمي بخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حط فيه ليخضه بسرعة وقد فلجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثم يخرج

من جديد يدفعه الفضول ويشده الخوف. ها هو على الطريق كالغزالة التي تتركض وسط أعشاب عالية تتربص داخلها الأسود.

هم هذا النوع من المرتحلين العود بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألّمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجع... وهو ما لا تبخل عليهم به أبدا.

قد يشتم من كلامي أنني أفضل صنفا على صنف. أبدا، لا لشيء إلا لصعوبة وجود النماذج النقية.

لنتفحص هذه الحالة التي نعجب بها أشد الإعجاب: الشجاعة. هي فضيلة مكتملة الأوصاف ظاهريا وموجودة كاملة عند أقلية. لكن لو دقت فيها لاكتشفت أنها أغلب الوقت- عند الأكثرية خليط من العيوب كالتهوّر والمجازفة والخفة والبحث عن التصفيق ومحركة الأبطال المزعومين.

والأن تمعن في مشاعر كل أنمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الأدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غيب الخوف أو اقتلاع من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فن إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فن التغلب عليه.

*

لنبق في مستوى تباين المواقف أملم التحديات التي يطرحها العالم على كل مرتحل ولنبدأ بالتحديات الفكرية.

مما يقال عن الأدمي أنه حيوان عاقل أي أن العقلانية من طبيعته بل هي الصفة هي التي تميّزه عن بقية الحيوانات.

ثمة الموقف الذي يوصف بالعقلاني وهو الذي يقبل الأدمي من خلاله أنه تجاه العالم جاهلٌ عاجزٌ فيسعى إلى تجسير الهوة بالعلم والعمل.

هناك الموقف اللاعقلاني عندما يرفض الأدمي أنه جاهل وعاجز في مواجهة العالم، فيجسّر الهوة بين الرغبة وتحقيقها بالسحر والصلاة.

هنا أيضا قد يتجاوز الموقفان في نفس الشخص : نموذجاً نيوتن عالم الفيزياء الكبير الذي كان يمارس السحر. انتظر أيضا لحظة يُصاب أكبر عقلاني بمرض عضل لتري حدود عقلانيته وكيف سيركض نحو كل الدجالين بحثاً عن علاج وهمي.

في نفس الظاهرة وإن على مستوى آخر .

عن أنمي يُدعى الخليل بن أحمد: "النلس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك نابل فذكروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحق فاجتنبوه".

المشكلة في هذا التصنيف التفاضل بكل ما فيه من تسرع و سطحية في الأحكام وهو يضع الأذكياء المرحب بهم في جانب والأغبياء المرفوضين في الجانب الآخر .
كم كان الجاحظ مُحَقًّا في قوله: "وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ومتوقِّع البلاء في البلاء وإن سلم منه، والعقل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء". نعم كم كان الرجل حسيفا عَرِيفا بالبشر: "وإنَّ الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكُّر مثاليه ويحابون الصدق بتذكُّر منفعه وتناسي مضلِّه، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق، ولما رأوهما بهذه العيون".

*

ماذا الآن عن تباين المواقف العاطفية من العلم أي عن مزاج المرتحلين فيه بغض النظر عن قدراتهم الذهنية وكيفية استعمالها.
ثمة المتفائلون ويمكن أن نعدَّ من بينهم أبا نواس وألكسندر دوماس الأب والجاحظ وكلهم نماذج للأنمي الضالِّك المضحك، المرح، لشره، النهم، السكير، العاشق، المبدِّر، السلخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القلبض على الحياة بكل نولجده، المحبُّ لها حبُّ الأكلول للذجاج المحقر .

نحسب منهم أيضا كل القائلين بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتَمٌ بهدائيتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بعثُ ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي.

لكناك تجد أيضا من بينهم مثشائمون ونستطيع أن نعدَّ من بينهم قرَّاء كتب النحو ولاسي الأسود وأن نحسب عليهم كل الذين سكتوا بعد أن بخت أصواتهم بالتقدم "الحتمي" وبالتحاق المتخلفين بالمتقدمين ويقرب عصور الحب والعدل والرخاء.. كل الذين كفروا بما آمنوا به طوال حياتهم من قرب انتصاب ملكوت الله... كل الذين اكتشفوا أن لا الثورة قرَّبتنا من الهدف، لا الدين ولا العلم.. كل الذين أيقنوا أن أغلب من عبروا هذا العالم استعانوا على أهواله بالخمير، بالأفيون، بمهدئات الأعصاب ولا شيء من كل هذا نفع يوما... كلَّ الذين سلَّموا بأن الأحداث، أو سوء الطالع، تدفع بنا نحو القطب المظلم من ذاتنا.. كلَّ الذين أيقنوا أننا لن نعرف طريقنا إلى الله في تجربة الحياة ولم يبقَ إلا تجربة الموت... كل الذين جعلوا شعارهم المثل الصربي: ماضيها مظيم وحاضرنا لا يُطاق، من حسن الحظُّ أن ليس لنا مستقبل.

يبقى أن هناك شيوخ تظنهم في حداد مزمين وهم يحبِّون في السرِّ النكتة ورقصة البطن، بل منهم من يرقصها بلتقان، وهناك أيضا كثير من المرحبين ظاهريا الذين يمارسون الكأبة السرية.

لننكر صنفا ثالثا لما ينتبه له المحللون: المثشائلون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لطمهم بكرم العالم وببلاهة اليأس منه ورفض التفاؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه .

عن التباين في المزاج العام ينتج التباين في طريقة التعامل مع العالم ككل. ثمة الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصّرُ على تخليصه من القسوة والفظاعة والقيح والظلم. مثل هذا الصنف في حربٍ لا تَضَعُ أوزارها أبداً لتغيير ما ليس قابلاً للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمنة من الحفيظة والضعينة تجاه من يرفض مساعبه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلَّ خططه وبشلهها. ولأن العالم لا يرضى عنّ هو سلاحه عليه ولا يحبّ من يكرهه، فبُك ستراه يكيل الصاع صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقة متأزّمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تُسمّ حياة الضيف وحية مُضَيّف يزفر غيظاً من ثقل دم الزائر ومتنفسا السعداء لحظة خطفه لروحه.

وفي المقابل ثمة الأدمي غيرُ المكترث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقيضه السدّج يبكي ويصرخ. لنقل حتى لا نتهمه ببلادة الحسّ إنه واع بأن العالم لم يُخلق على مفاسه، وأنه اكتشف بطول ممارسته له أن الحكمة هي في إشلحة البصر عن الغائط والتركيز على الورد. فرق هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العالم، والثاني عابرٌ سبيل أنيق لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يُقبل بامتنان ما يوجد به عليه العالم الكريم ولا يُزعج العالم البخيل بالشكوى والشتم.

*

أيا كان المزاج والموقف لا خيار للأمين غير الفعل في العالم وليس فقط ردّ الفعل بالغضب أو الرضا، بالتقاؤل أو التشلوم . تبرز هنا تعددية رصدها عالم اجتماع اسمه سيبولا ، يخشى منها أن تزيد في تشاؤم المتشائمين .

يقول هذا الملاحظ الحصيف في الشؤون الأدمية أنه لا يمكن الحكم على الأميين إلا بأفعالهم ونتائجها. من هذا المنظور لا يوجد على سطح الأرض إلا أربعة "أعراق أدمية: الذين تُنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء، الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار، الذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء، الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.

وراء تصنيف سيبولا خبر سيء وخبر أسوأ. بماذا أبداً؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى والأغبياء هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكماء؛ أن الأنكباء لا يقدرون خطورة هذا النوع من البشر خاصة عندما يبنون في أذهانهم نموذج المدينة الفاضلة.

الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغير في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبية قلّة لا تقدر عليها تربية أو يدين أو سياسة.

هل هذا سبب تباين البشر في فعل الخير وارتكاب الشر؟

كم من أممي تترك الحبل على الغارب لغرائز الجنس والعنف والتسلط وكأنها النواة الصلبة لطبيعة البشر.

نموذجاً لفيثيا وهي تنمّر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمّم الأقارب والأباعد، لتعيد طريق العرش لابنتها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك مويقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها الفحشاء مع الرضع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال سويّ. لكن تاريخنا عرف آدميين من أمثال المسيح وبوذا ورابعة العدوية والأم تيريزا وغلدي.

المشكلة أننا أمام حالات قصوى ممثّلة " الذي منه كل نقمة" و" الذي منه كل نعمة " أي أننا أمام النقطتين القصويتين لطيف واسع من تصرفات الخير والشرّ هو الذي يتحرك عليه أغلب البشر باستمرار وفي الاتجاهين .

معنى هذا أننا لو عرفنا القصة الحقيقية للقديسات لقلّ إعجابنا بهنّ ولو عرفنا القصة الحقيقية للمومسات لما كان حكمنا عليهن بالصرامة المضمّنة في الكلمة لإهانة. تُطرح هنا قضية التعددية الأخلاقية ولماذا تجد من عند الأدميين من يتمسكون بالقيم ومن يتجاهلون وجودها.

في فيلم غنائى شهير يعرض أب متشرد سكير على البروفيسور هيجنز يبيعه ابنته ليزا دوليتل بعشرة جنيهات حتى يجرب عليها نظرياته في علم الكلام وربما أشياء أخرى. رداً على استنكار البروفيسور وهو يساوم: إمكانيتي المادية لا تسمح لي بأن أكون صاحب أخلاق وأن أنزل تحت هذا المبلغ.

ثمّة إذن آدميون تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشهم بلن يكونوا أصحاب قيم عليا وفي المقابل ثمّة من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصاء قذرين، كذابين، مخادعين، مجرمين يبيعون بناتهم وحتى زوجاتهم . هل هذا التباين في مجال التصرفات الأخلاقية هو نتيجة للتباين في الظروف الموضوعية لرحلتهم في هذا العالم ؟

*

ولأننا في نصّ يشبه الحياة برحلة فنتخيّل معي " قطارا" نعبّر به هذا العالم وفيه أربع درجات جد متباعدة في كل ما يخصّ الرفاهة والأمن .

الدرجة الأولى هي التي ترتحل فيها النساء الغنيات، ومعدّل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة بفضل تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء وتقاني الآخرين في السهر على رفاهتهن.

خلفهن ترتيباً مباشرة رحلة الرجال الأغنياء لتمتّعهم بنفس الظروف المادية والمعنوية ولو أنهم يعيشون أقل من نساتهم لبعض العادات السيئة مثل شرّه التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكاف للقلب.

القاسم المشترك بين رحلة الدرجة الأولى والثانية أنهم هم من يعطون الأوامر لا من يتلقونها، أن أغلبهم لم يروا الحرب إلا على شاشة التلفزيون وأنهم لم يعرفوا الجوع إلا أيام الصيام.

هم أيضا من يخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويدعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العليا بالتنصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخبرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثلث درجات 'قطار' الرحلة هي التي تسافر فيها النساء الفقيرات. هنا تتعقد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشقاء ومرضى نتيجة تفتير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا.

أين رحلتين حتى هن من رحلة الأثمين الذكور الفقراء رُكب الدرجة الرابعة. هم لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أحثكم عما يعثون طوالها. هم من يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسفل ويسكنون مدن القصدير. هم من لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرود الجماعي لأسباب اقتصادية. هم من يكلون من فئات مائدة السادة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاحبهم، ولهم حق غير قليل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تُزاد على بعضها البعض في البشاعة والحاق ما لا يُصوّر من أصناف لوجع.

إنهم من يخترعون الأديان والتقاليد وحركات المقاومة والثورات الفاشلة منها والناحجة نسبيا. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة الأثرياء من الرجال والنساء) بأنهم جهلة، قرون، لصوص، مجرمون، أوباش، رعاغ، عوام، إرهابيون ومخربون.

بداية ثمة ظلم فلاح وراء هذا التنظيم لقلعة المرتحلين. هل طبيعة التنظيم المتقدمة على ولادتنا هي سبب ظهور الشعور بالظلم، أم هل أن وجود الظلم كمكون صلب ودائم للذات هو سبب الحيف في توزيع ظروف الارتحال؟ لكتاب يدعى برنارد فربر رؤية تنتصر للاحتمال الأخير.

يلاحظ هذا الباحث الحضيف الآخر في الشؤون الاممية أنك إذا وضعت سئة فتران في دهليز وضعت لهم كمية قليلة من الجين خلف جولز عدة، تفرض عليهم صراعا شرسا على الغناء، فإن الوضع المحدد هذا يفرز بسرعة تنظيما يتشكل من سيئين يستحذان على جل الغنيمة، وعيئين في خدمتهما، ومتمرد، ومتسول يعيش على الصدقة وفئات الآخرين.

المثير في التجربة أنك إذا جمعت سئة سادة تأخذهم من عينات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكلية: سيّدان وعبدان ومتمرد ومتسول. إن أخذت سئة مستضعفين أو سئة متسولين من عينات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه نوّما، كلُّ هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك. لقاتل -اشتّم مني سوء النية- أن يقول إن البشر ليسوا فنرانا. ردي أن المدهش ما تُظهره الفران من أوجه شبه عديدة بنا .

المهم أنه أصبح لنا مقياسٌ موضوعيٌ لتقسيم الأُميين لا يتعارض مع ما نعرف وإنما على العكس يُدعمه. من يستطيع إنكار توزّع الأُميين في كل مجتمع إلى سدة وعبيد ومتمردين ومسؤولين؟

من ينكر سرعة عودة أيّ مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد عاد المتسولون لتسولهم وأصبح فيه العبيد سادة يسومون رفقيهم القدامى نفس الخسف بانتظار موعد الثورة المقبلة، ولكل فصليل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصليل من السدة قرة معينة على الإيذاء الموصول إلى التمرد.

أيّ عجب بمثل هذا التنظيم أن تنزاح في الفضاء الرمزي دياناثٌ متعددة أي دياناث سدةٍ متسلطين ودياناث عبيد متسولين ودياناث ثوار متمردين؟
صراحة لا شيء فيه هذا يجعله منصفاً للأُميين المسكين.

فلسيد مهذّب طول الوقت بالغريم وبالعبد وبالمتنرد. كل هذا يُفسد مزاجه ويجعله يعيش على أعصابه إلى نهاية الرحلة. لا تقلّ وضعية العبد بؤسا وهو يعيش في خوف يُسيّم عيشه وفي تسميم حياة السيّد وهو خائف من تبعث خوف عبده. أما المتمرد فكلنا نعرف مصيره البائس وكيف سيُقطع رأسه بلسيف أو بالمقصلة أو ينتهي في جوانتنامو ويأخذ عقوبة مدى الحياة، هذا عندما لا تصل المأساة نروتها وهو الذي أصبح من يُعذب ويُقطع الرؤوس، انتقاما مما لقيه وتمهيدا لعودة الرقاص إلى نقطة الانطلاق.

لم يبق إلا المتسول. هل هو المحفوظ الذي أُنقذ رحلته. تنكّر كلّ الوقت الذي يُضيعه السيّدان في معارك افتكاك السلطة والحفاظ عليها والوقت الذي يُضيعه العبدان في العمل والشكوى، والوقت الذي يضيعه المتمرد في إعداد الثورات الفاشلة.

يُطلت المتسول من كل هذا وقد فهم من أين توكّل كيف العالم. فموقفه مبنية على حياد هادئ رصين يُخفي لامبالاه بالوضع، بالمنتعنين منه وبالثائرين عليه. لذلك نادرا ما يزعه سيّد أو عيّد أو متنرد، فلا أحد يطلب منه شيئا أو يلتفت إليه أصلا. حتى قطعة النقد التي تمكنه من سدّ الرميّ، تُرمى له بقادي النظر في عينيه. هكذا يمكنه التفرغ للشؤون الهامة، لا عمل يرهقه، لا سلطة يورقه همّها ولا مؤامرة يديرها قد تكلفه حياته. لهذا هو قُدوتي لا السيّد الذي أرثي له، والعبد الذي يوتر أعصابي، والمتمرد الذي يُضحكني عبثاً ما يقول وما يفعل.

قد أدبّع سرّاً هائلان إن قلتُ إنني أخطط لأكون متسولا. طبعاً إن يحملني أحدٌ على محمل الجدّ أو قد يحملوني إلى المستشفى إن وجدوني على قارعة الطريق في بلدي أنتسول قطعة خبز والابتسامة على محياي. لا حلّ غير الفرار بعيدا ربما إلى بلاد سينا وهي منذ القدم وطنٌ أرقى أنواع المتسولين.

تقول لا داعي للمبالغة في استحسان وضع المتسول. هو أيضا معرض لكل أصناف المنغصات، والحروب المستعرة على طول الطريق تمنعه من التركيز على جمال الجبال والسحب، ناهيك عن إمكانية سقوطه في فخ قتل نصيبه له متسول خان السلك، ولا أتحدث عن الجوع الذي يمزق أمعائه وعن القمل الذي يرتشف دمه بئهم. صحيح لكن ألا يقول مثلنا " الهم فيه ما تختار "؟

*

المهم في هذا الموضوع من النص ليس البحث في طبيعة هذه القوة القاهرة (التي قد تكون ارادتها مقوشة في جيناتنا) وإنما التركيز على أهم تبعاتها وهي أنها هي التي تتحكم من وراء الستار في كل ما نظن أننا نتحكم فيه.

التحكم ؟

لا هدف يجري وراءه الادميون، طول الوقت ، في كل الظروف، بكل تصميم وباستعمال كل الوسائل قدر هذا التحكم.

هم على اختلاف أصولهم العرقية والدينية والاجتماعية وتباين عاداتهم وتقاليدهم ومؤهلاتهم الذهنية يسعون للتحكم في اجسادهم بمنع المرض وتأجيل الموت... للتحكم في نواتهم يريدون نحتها لتقترب من مثال صنعه الخيل الفردي والجماعي... للتحكم في رفاق الطريق عليهم يكونوا مطية لا عقبة... للتحكم فيما يسمونها الطبيعة يبعون تطويع امكانياتها في خدمة صالحهم... للتحكم في العلم بوضعه داخل اطر فكرية مطمئنة تجعله مفهوما وقابلا للتحمل.

هكذا خلقوا السحر والطب والعلم والتكنولوجيا والدين والسياسة والحرب والفن والتحليل النفسي، الخ، الخ .

كالعادة سترى الادميين يتوزعون على طيف الظاهرة . في أقصى الطيف تجد من لا يتحكمون حتى في اجساد صانرتها العبودية .على الطرف الآخر تحكم الطاغية في شعب من الرعايا أو تحكم الشيخ في مرابه أو تحكم الغاسل في جثمان الفقيد .

بين النقطتين القصوتين كل درجات الفشل والنجاح في فرض الإرادة .

النتيجة تسليم الادميين يوما أن اجسادهم هي التي تتحكم فيهم وأنها هي التي تقرر متى تخرج من الخدمة... أن محاولة التحكم في طبيعة لا يفهمونها إلا بصفة سطحية ساذجة خطأ الجهل وخطيئة الشجع وأنهم يدفعون ثمن تطاولهم غالبا إن عاجلا وإن آجلا... أنه يستحيل التحكم في بعضهم البعض وقد جُبلوا على الصراع الشرس والتنافس المزم... أن سلطتهم جد محدودة على ذات صنعتها قصص متقدمة على وجودهم وتواصل صقلها ظروف مستقلة عن ارادتهم.

ثمة منهم من يعهدون لأخر محاولة قل لأخر حيلة للتحكم على الأقل في هذه الذات التي هي كل ما يملكون .

أنهم كل من تصوفوا أو انسحبوا داخل الأديرة والهدف التخلص من كل أشكال شهوة التحكم كشهوة المعرفة المطلقة أو التمتع المطلق بطيبات الحياة أو القدرة على فرض الإرادة على الذات الأخرى والعالم برمته.

لكن أليس ما يحرك اعتزالهم وتنسكهم وصلواتهم للتخلص من شهوة التحكم ، شهوة أعمق وهي شهوة التخلص من شهوة التحكم أي أنهم يدورون في حلقة مفرغة لا خروج منها بأي نوع من التجنيل على الذات؟
ثمة من يختارون حلا جذريا للخروج من هذه الحلقة المفرغة وثابت قدرتهم الفعلية على التحكم في ذاتهم وفي العالم نفسه .

ليسمح لي القارئ بالتوقف لحظة عند ظاهرة لم تأخذ في هذا النص حقها من الاهتمام والحال أنها أهم ما يميّز الأسميين عن باقي الكائنات الحية: الانتحار.

لا راعي حكي يوما أنه شاهد بأمر عينيه خروفا يخرج من القطيع ويتوجه لحافة هاوية ليلقي بنفسه في الفراغ وقد قرّر أن الحياة الخروفية غير جديرة بأن تعاش. كذلك لم يعرف أن بقرة في اسطبل دخلت في اضرب جوع وحشي احتجاجا على تعسف صاحب المزرعة . في نفس السياق لا أحد أثبت أن شجرة أضرمت النار في اغصانها للاحتجاج على انتهاك حرمة الغابات.

وبانتظار معرفة هل ستتحرر أكثر أنواع الروبوتات تقدا (ربما هذا ما سيرقص له مخترعوها طربا وقد أيقنوا أنهم وصلوا لأعلى مراتب الخلق) ، لا خيار أمامنا غير اعتبار الانتحار ميزة لا "ينعم" بها إلا الجنس البشري.

توقّف على الصورة قبل أن يطلق الأدمي الرصاص على صدغه.

تخيل معي كل رسائل هذا الراحل عنّا بوجهها لكل من يهيمه ولا يهيمه الأمر:

أنت الذات التي استعصى عليّ التحكم في شهواتها، لا سلطة لك عليّ بعد هذه اللحظة وقد قرّرت الغائك جملة وتفصيلا .

أنت العالم بكل اغراءاته التي قيّنتني بها طوال رحلتك لأتحمل كل موبقاتك وقسوتك ولامبالائك ، احتفظ باغراءاتك لم يعد لها عليّ أي سلطان.

أنت القوة المجهولة التي قررت متى تبدأ رحلتي. لن أترك لك قرار متى تنتهي لأني أرفض مواصلة تجربة لا اقبل بتكلفتها ولم تعد تعينني لأسبابها ولا أهدافها .

أنت المؤمنون بهذه القوة ، على حذائي ما تتوعدوني به من عقاب لتمردي هذا ، لم اعرف من عقاب أشدّ من الارتحال معكم .

هل ثمة تحكّم فوق هذا التحكم والأسمى يثبت ولو عبر ظاهرة رهيبه مثل الانتحار أنه في آخر المطاف كائن حرّ يقرر في آخر المطاف هل يواصل الرحلة أم يخرج من القفلة.

³ التوقف عن الأكل والشرب كقصى درجات احتجاج المساجين السياسيين في سجون الاستبداد (لناشر)

الحرية !

أتكون حجر الزاوية في طبيعتنا المفترضة ؟

على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث. فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدو جريح.

هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي... من المفروض إذن أن يكون لهما نفس التصرف. العكس هو الذي يحصل أغلب الوقت.

ترى من سيجيز على العدو مستوليا على ما يستطيع سلبه ومن سيمد له بقرية الماء ليبذل شقيقه؟

يستحيل على أي ملاحظ يتابع من الخارج تصرفات الجنديين التنبؤ بمن سيفضّل هذا الخيار على ذلك؟

التجربة والنتيجة نفسها في أي ميدان أيا كان تشابه الوضع المحدد.

خذ آدميا وضعه في أقصى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلطها على مرتجل. اجعله منذ نعومة أظفاره محروما من الحنان من التشجيع من التثمين. عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.

لا أحد يعرف من سيصبح قاتلا بالجملة ومن سيصبح قديسا يستشهد لإنقاذ جلاديه؟

اعتبر الوضعية المعاكسة. خذ آدميا آخر ووفّر له منذ نعومة أظفاره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. من سيصبح ملاك رحمة ومن سيعش ويموت بليدا يرى فيما وهبته الحياة وخرمت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟

لذلك نوقّع دوما المفاجأة وأنت تُراهن على مواقف وتصرفات هذا وذاك، تصيب مرة وتخطئ مرّات.

نعم قد تكون الحرية حجر الزاوية في بناء الذات وأصلب الدعائم التي تستندها.

*

في آخر المطاف أهمّ سؤال : هل ثمة وراء كل التباين الذي يظهره الأُميون في أهمّ خصائصهم ما يوحد بينهم بغضّ النظر عن كونهم يولدون كلهم من أنثى ثم ينمون ويموتون يوما ؟

بعبارة أخرى هل ثمة وجود لنواة صلبة يسمونها الطبيعة البشرية تكون منبع تعديتهم العجيبة؟

إنه سؤال مطروح من قديم الزمان بقوة على الواعظ الديني ، على السياسي ، على الطبيب النفساني ، على الفيلسوف مثلما هو مطروح على الألمي العادي.

أليس في اكتشاف الرّدّ الصحيح مزيد من فهم هذا الذي نتعلم معه من المهّد الى الحد
ومزيد من القدرة على التنبؤ بما سيفعل في هذا الوضع أو ذاك ومن ثم مزيد من القدرة
على التعامل الفعال معه ؟

لكن عما نتحدّث؟
لنقل في مقاربة أولية أن الطبيعة البشرية في مفهومها السائد منظومة مفترضة من
الصفات المادية والنفسية ولها ثلاث خصائص :

هي لا توجد إلا عند الأدميين وتميزهم عن بقية الكائنات الحية . التعذيب نموذجا
هي ثلثة تنتقل من جيل لأخر منذ غابر العصور دون تغيير يذكر. الكلام نموذجا.
هي موجودة عند كل لبشر وذلك أيا كان تبليغهم في العرق والعمر والدين واللغة
والوضع الاجتماعي. الضحك نموذجا .

المشكلة أن هناك شرط آخر للحديث عن طبيعة الشيء أو طبيعة الكائن: التناغم .
مثلا، من طبيعة الحديد كما يعرفها المختصون الذوبان إذا تعرض لحرارة تبلغ 1538
درجة. لكن أي استغراب سيتمكن منهم لو اكتشفوا أن الحديد يرفض الذوبان نثرة إذا
كانت درجة الحرارة 1600 درجة و لكنه يقبل بالذوبان نثرة أخرى إن وُضع بضعة
دقائق في الجليد.

في نفس السياق من طبيعة الغزالة أن تفرّ أمام السبع الذي يريد التهامها ، لكن أن تفرّ منه
مرة وتجاهله مرة ثانية و أحيانا تهاجمه بقرنيها الصغرين !!!
في غيب شرط التناغم من أين لك إذن أن تتحدث عن طبيعة أمية وأنت أمام كائن
تصدق في وصفه إن قلت:

" الظلم في شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلم " (المنتبي)

وتصدق في وصفه إن عارضت الشاعر :

"العدل في شيم النفوس فإن تجد ذا زكة فلعلّة لا يعدل"

عن أي طبيعة بشرية يتحدّثون إذن ؟ ألسنا دوما أمام كائن تتعاش داخله الخاصية
وقيضها وكأنك أمام وعاء يتجاور داخله الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا تتطفئ النار؟
ألا يجب الحديث عن الطبايع بدل الحديث عن الطبيعة ... اللهم إلا إذ كانت هذه المفارقة
الغريبة هي النواة الصلبة لهذه الطبيعة البشرية؟ !

يتحول السؤال ليصبح ما معنى وما الفائدة من أن تكون لنا مثل هذه الطبيعة المحتملة بكل
هذه لاستعدادات والملغمة بكل هذه التناقضات ؟

**

ما نتعلم عنهم أين تتعري أجسادهم

تفتح "ح" فمها مندهشة وهي تسمع اقتراحي لسهرة نهاية الاسبوع.

- عتبة ليلية!

أهز الكفتين:

- كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض "الستريبتيز" ولا شيء آخر.

تقطب "ح" الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

- سأتحمل من جديد خطابك الممل عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدي على الكرامة البشرية الخ. لا شكرا، وعلى كل هذه عروض لكم أنتم الرجال.

- أنا بحاجة لزيارة هذا الأماكن لمواصلة أبحاثي.

- أبحاث؟! وفي عتبة ليلية بل وعتبة عري؟!!

- نعم سهرتنا هذه الليلة أخطر أحياء هذه المدينة واحقر عتبة ليلية في أقر أزقتها. مؤكدا أنني سأجد في الطريق إليها ودخلها بعض المعطيات الهامة التي أبحث عنها. أي قيمة لشهادتي عن الأميمين إن اغلقت بشرية الليل من مومسات وقوادين وسكاري ومشردين وتجار اخدرت وضحاياهم الذين يحتضرون على قارعة الطريق بعد آخر جرعة من مختر مغشوش.. تعال أرجوك، لا أتجاسر على دخول هذه الأماكن وحدي.

- خشيتك من العيون؟

- التي بدخلي.

يتلقنا ليل متجه لا يفتح في تحسين نواياه ما تتكلف المدينة من أنوار.

الليل!.. بقرة الزمان التي تتوارى إبانها الأشياء عن الأنظار تستعيد أنفسها كثررة ما مسحتها الأنظار... التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله والشيطان والمخبرين...

أخيرا قاعة ضيقة عائمة في شبه ظلام تعبق برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر. أجيل البصر بين الجمهور والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل رفيقتي النظر إلي باستغراب غير مفتعل.

- مالك تنظرين إلي، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

يقطع علينا بداية افتعال مشلدة ضاحكة بروز شابة شقراء، فارعة الطول، مكنزة لصدر، خرجت من وراء ستار قدر لتحمل ركبا بحجم طلولة صغيرة.

"أنت تزجي ريفها بقوامها... فتأطر الأعلى وماج الأسفل" (ابن هاني)

تنفجر "ح" ضاحكة:

- تعي! أنت! أظن أنني مُقدمة هذه الألية على أكثر من مفاجأة.

- ألا يغنون؟ لم لا أغني أنا أيضا؟
- أنتم الرجال لا تتحدرون من الفردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظ أنني لا أفهم الكلمات.
- إنها كلمات جميلة وجدّ مهذبّة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يتثنّى. رددي معي: أملن أمان، وبالمناسبة كفي عن إصااق التهم المشينة بالخنازير.
تواصل "الفنانة" التثني وهي ترسم على شفيتها ابتسامة مهنيّة أستشفت من وراءها بقليا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة، وتواصل الحياء والشعور بالإثم عند المرأة المكتملة النضح الباهرة الجمال.
هذا وجه آخر لم تنزل في رسمه يد الرسام الأعظم... كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قليل أن يضع ريشته وقد علت على محياها ابتسامة النصر؟
- بهرك جمالها، أليس كذلك؟
- لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ وليست من حلي وحلل. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بلبيجاما إلى الحمام لغسل أسنانها. وفي كل الحالات لست من النوع المغرم بالنساء الجميلات أو من بالمثل الإفريقي "من يتزوج امرأة جميلة له نفس مشاكل من يملك أشجارا مثمرة على قارة الطريق".
تعرض عني "ح" لا أندري هل هي غاضبة فعلا أم تقتعل الغضب.
كل انتباهي مركز المرأة التي على الزكح لا التي بجانيبي.
تشرع "الفنانة" في خلع قميص جدّ شفاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور.
من ينتبه أن الثياب لا توضع على الجسد فقط للزينة والحماية والتميز وإنما لنقول للصيد: تحت الغلاف جوهر النصّ.
يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات! كأني بجحافل الكائنات التي تدقّ على باب العالم تتضرع لطولة القمار أن تسحب رقمها لتقوز بشرف الولادة وقداسة الحياة من هذا الجسد بالذات.
تنهزني "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.
- يا امرأة امسكي لسانك حتى أبقى منتبها لكل المعطيات التي جنت بحثا عنها.
تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها. تهمس في "ح".
- تسمي هذا رقصا؟
هذا عالم لا تقدر قيمة الكائنات والأشياء فيه إلا بمعرفة النقيض... ثمة ما تحاول هذه المسكينّة تكلفه من فنّ والجسد وحده الأداة.. ثمة الفنّ الذي تغفر فمك أسلمه وأنت تتأمل الرافضة الروسية تكاد تطير في السماء محمولة على ذراعي مراقصها أو الرافضة الهنديّة تروي بحاجبيها وأصابع اليدين وقدميها ملحمة راما وسيتا.
- لم نأت لمشاهدة باليه بحيرة البجع أو ما تيسر من البهاراتانتيام.

- بدأت أشك أنني أعرفك حقاً.
- كم أنت محفة ، لرجاء إن عرفت من أنا ألا تبخلي علي بما أتوق لمعرفة منذ خلقت .
فجأة يتعالى الصفير والصراخ والمرأة تنخرط في معاينة حمالة الصدر.
تبلغ هستيريا النظارة أوجها عند نزع الصدرية ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص.
يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها أهات تعجب، أو دهشة أو وجع.
تبدأ المرأة المسكينة اللعب بأزرار بنطلونها الضيق تعد بعرض المستور على من جاءوا
لهتك كل ما يحرمه نفقهم المعتاد.
مسكينة! حقاً؟ من قال إنها لا تشارك مرح المتفرجين، أن اللعبة ترضي لديها حاجة
أعمق من حاجة المال؟ ألا تعلم ما يعتل في أنفك مشاهديها من إعجاب بجمال جسم
فاتن للأنظر، سالب للعقول؟ كأي أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تأملوا، سبحوا.
هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبد الأسمي للشكل الذي تجسد فيه وهو شغله الشاغل
صيانة وتعهدا وتجيلا منذ أولى خطواته على الطريق؟
يُرمى البنطلون أخيراً بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفاف والمرأة تواصل التثني
على أنغام موسيقى عاهرة.
المأذبة أمام الجائعين ولا مجال للإمساك بما تعد.
تنفجر شئمة حغيرة أرتج لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابتني في الوجه.
هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تثير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل
تصفتحت هي الأخرى كالسيلسي ووحيد القرن؟
ثم تتسارع وثيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراقبون تسللوا إلى قاعة رغم أنف القانون
ونظارة هانجين لاشك أن فيهم من هم تحت وطأة الخمر أو مخدر ما .
هم لا يختلفون في شيء عما تلاقي في الندوات العلمية والنزل الفاخرة وقاعات
الانتظار الشرفية في المطارات..ربما الفارق الوحيد أنهم يرتدون ملابس أقل تكلفه
ويلعبون أدواراً أقل تكلفاً.
تهمس “ح” وفي صوتها نبرة لا تبشر بخير.
- خذ بالك، ستسقط نظارتك من فوق أنفك.
- هكذا تكون النهود وإلا بلاش الاقتعال والتكلف عند بعضهن.
- أخطبها لك؟
- الآن؟ وبلا مقدمات.
- كن على حذر. ذقت أظفري ولم تجرّب حتى الآن عضتي.
- صمتا يا امرأة، تأملي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للفاعه الهانجة تمنح للبصر عجزا مكنتزا لم يرسم مثله حتى ذلك
الفتان من بلاد الفلاندر المسمى "جوردانس". أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة
من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الأمامي عادة بين فخذيها، أكان نكرا أم أنثى.
يا ترى كم من هؤلاء النظرة الهانجين لم يدخلوا هذا المكان القبيح لإنكاء شهيرة
جنسية وإنما لغايات مبهمة كالتي دفعني اليه ؟ هل هم يصدد رؤية ما أرى خلف
المظاهر الخالية؟... هل داهمتهم هم أيضا صورة نظراتي بُعد وقُرب وضعنا على
العينين التي كان بهما حور؟.. أسنان سوداء وأخرى صبيغها النيكوتين بالأصفر... نهدان
سقطا فوق البطن وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تنان بحمل ما لا يطلق من مترهل
الحم والشحم... على من يتهمون ؟... هل شتانهم موجهة إلى المرأة أم للذي يرهل
ويمزق ويكس كل جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا
كنييا؟... هل هذه العلية الليلية الحفيرة محراب تتعبد فيه للألهة خالقة الحياة والصحة
والجمال، وينصق عليها لما تفعله بكل هذه الروائع؟... أتراني في كنيسة يجوز فيها الجمع
بين ما لا يجمع في الكنائس: الصلاة والسكر، العبادة والكفر، التقديس والتدنيس ؟
يعتقني الظلام من كل تحرّج. لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كل هذا المقدس، أنتقم
من جعل من هذه الروعة قمامة متجولة سترمي يوما لقمة ساعة للدود.

- انظري. إنها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُبّ ضلّة نفعه، وقد اكتشفت هذه الليلة وجهك المخفيّ قبل أن أتورط معك، يا رجل
هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟ المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتى
لا تقوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة
من الضحك تعمل داخلي. أصرخ مقتعلا الحماس الشديد:

- لا أصدّق أنها ستتجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

- لا تقتعل البلاهة. أليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

تهمس "ح" في أذني: كأيّ كنيب فجأة، حدثني، ما بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بذاتها وهو يكعب عال متيب.

من الأضمن العودة للضحك وهو من قديم الزمان البديل عن البكاء.

- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنها عازمة علي!، انظري، وصلت به منتصف

الساقين، أقول لك: ستخلعه، !!!

- وماذا كنت تنتظر؟ أن تحاضر في النحو المقارن.

- تحدثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أملنا! يا الله
بسرعة ورائي، لا أظن بول أو خرا حتى هذه الحسنة يعيق برائحة الفلّ والياسمين.

*

تواصل "ح" ضحكها مختبئة بين ذراعي، وسيارة الأجرة تأخذنا إلى البيت. ثم تتوقف:

- ما لك صامنت؟

- لأحاول التعرّف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها.
- إنه الذي أتيت لي به آخر سفرة.

- على فكرة، لماذا مواصلة عادة التعطر خاصة بتكاليفها الباهظة للعشاق والأزواج وكل الوقت الذي أضيعه في متاجر المطرات بحثا عن أجودها وأرخصها وقد اكتشفنا ما يفعله الماء والصابون بالروائح المخجلة؟

- كفى استقزازا رخيصا.

-استقزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثروات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجذع الذي تسمونه "الملك الشمس" نفسه كان نتنا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يتسلون أبدا ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشًا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقريّة والبسيطة والرخيصة التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في مدينتك الجميلة هذه، كل المرة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح شبلكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحيانا على رؤوس المارة. لله دركم، تتجشون على الخنازير وقد عبرتم جل التاريخ ملوكا وعبيدا تتصوعون أظفح الروائح ثم تدعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوما بحاجة إلى عطر.

- أه يا عدو البشرية!

- على فكرة، هل انتبهت كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا. هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشمّ ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟ قيل في الأدميين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا، ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة. أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبع والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمع داخلنا فما بالك لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار الغفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة ...

- أنت حالة مستعصية على العلاج. ما رأيك ان تعيينا بشيء من الصمت.

- تكلمي أنت وخذي حريتك.

- سأشتمك.

- كل ما تريدن. المهم استعادة أول نبرة لك رئت في أذني. أتذكرين؟ أتذكرين أول ألو، يوم اتصلتُ بقسمك بخصوص مريض حوّلتته لي ممرضتك دون ملقه؟

يومها قلت لنفسي يا رب الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه

الأصوات وثمان صنعهما؟ وهل لديه أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة؟ وكم يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتنا أجمل؟
يوميها قلت لنفسي لا بد من عذرهما كن واهيا-لأكلم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني سأكون ممنونا لها لو بعثت لي بشرية تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليلا وليلا، وبجانب دفتر صغير أدون فيه ما يوحى إلي به صوتها من أحاسيس ومشاعر.
-أه أفضل أن تحادثني هكذا، لم تغارلني منذ مدة، بل لم تكتب في ولا قصيدة شعر واحدة ولا حتى غنيت لي اغنية خاصة بي وحدي.
أغاني! أشعار!

أصخّ السمع لما يتعالى من أغاني الأُميين ومن أشعرهم لتكتشف أن الحب شغلهم الشاغل بل وفي كل عمر. لا تسمع على امتداد الطريق من كل الحناجر إلا صرخات شوق الأُمي للحبيب الموجود أو المنشود: "أعدا أفاك؟" اطلب عيني الغاليتين علي وأغلى منهما رضاك"، "مولاي وروحي في يده ضييعها سلمت يده"، "من لكون دونك أنت الذي أفقتني للربيع وعلمتني كل ما أعلم"، "نور جمالك آية من الله"... الخ... الخ ...
قد يكون هذا الأُمي أصفى أنواع الذي منه كل نعمة أو حتى صنفا آخر من الأُميين يجب افراده وتمييزه وتسميته بالذي منه كل نشوة.

في كل الحالات هو منبع ومصب أجمل التجارب التي يعيشها الأُمي ابان رحلته...وهو الذي تتحقق معه على الأقل فترة هذه التجربة التي نسميها الحب أجمل حالتنا في مرآة الذات الأخرى وأجمل حالات الذات الأخرى في مرآتنا.

الحب شعلة نور ساحر هيبتت من السماء فكانت ساطع الفلق (الشائبي)
يطوف في هذه الدنيا فيجعلها نجما جميلا ضحوكا جذا مؤتلق
لؤلؤ ما سمعت في الكون أغنية ولا تألف في الدنيا بنو أفق

لا غرابة أن ترسم للذي يثير فينا هذا الشعور هذا الكم الهائل من اللوحات، أن تولف لأجله أجمل الموسيقى، ألا يتوقف الشعر عن التعزل به.
كم يخطئ ذلك الشاعر الذي اتهم بادعاء النبوة، "فخير جليس في الزمان" حبيب و "أعز مكان في الدنيا" لا سرج ولا بردعة وإنما الفضاء الذي بين ذراعيه.
أعود لممازحة "ح":

-البارحة أضحك طبيب الأسنان والمسكين جاثم فوق صدري يحاول اقتلاع ضرس بليد مستقر في أصعب أماكن الفم وصولا إليها. قلت للرجل لا تأخذ في خاطرك، رغم كل معزتك لدي فإني أفضل أن أكون بين ذراعي امرأتي.
تضحك "ح" إلى ان يأتيها السعال.

كم أنا سعيدة أنك تجد في صحبتي متعة أكثر من التي تجد عند طبيب الأسنان.
بعد الهزل، الانتباه على أقصاه وقد وصلنا البيت أخيرا.

ثمة طقوس معقدة للاقتراب الحذر من الآدمي الذي منه كل نشوة وهو الآن القريب
البعيد، المعروف المجهول، المحمل بكل الوعود وبكل الأخطار. الجسد أخيرا. كم له من
تمائيل، كم من لوحات، كم من قصائد، ولراقص دوما من تننيس إلى تقديس ومن تقديس
إلى تننيس.

تحذق الذات في الوجه الموعود فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس.
أي أوتار سحرية خفية تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور
المقورور عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عند رفع كأس الماء الزلال إلى
الشفقتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمه أخيرا بين جحافل الوجوه الغريبة،
شعور من وصل إلى الواحة والشاطي والملجأ والمرفاً بعد طول تشرد.

تهمس "ح":

- ستترك آثار ازرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عز الصيف.

ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنع:

- هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!!

تجبر الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامة تشجع على المواصلة. تتصاعد من الأعناق
رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنها المغلة السحرية المغلقة التي طل وقوفك
على بابها تضربها بقبضتين متشجبتين. أخيرا يفتح الحرم ويأتي أمر الدخول رقيقا لا
ليس فيه.

- هل تتقين بي وتسلمين لي أمرك؟

- نعم!!

- انتبه.

اتحد المعشوق بالعائسق *اتبسم الموموق اللوامق (الحلاج)*

واشترك الشكلا في حالة *فامتخا في العالم الماحق*

دليل يقودك الآن داخل مجاهله وأنت اللليل الذي يقوده في أعمق دهاليزك.

وفي جسدي تجبتين عن الهضبة *(أوكتيغو باز)*

وعن شمسها المدفونة في الغاب

وفي جسديك أبحث

عن المركب وسط الليلية الضائعة

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا
الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟ ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في
وعاء واحد!

- رويث.

- رويث.

هذا الكائن الذي بين ذراعي -والمتمجول الآن في فضاء أحلامه- هو الذي تسميه اللغة شريك الحياة أو على الأقل شريك هذا المقطع من الطريق... لا أحد عبر هذا العالم وحيداً... تصله قتلقتك الأحضان ولا تغادره إلا وأنت بين الأذرع التي تحملك لمثواك الأخير... كأن بالذات ثغرة لا تسد إلا بالذات الأخرى ولا سلوى إلا فكرة ان حاجتك لهذه الذات الأخرى لا تقل عن حاجتها الماسة إليك.

على تخوم عالم اليقظة وعلم النوم وأنا أحضن "ح" ، يصرخ في وفي أشباح خائفة كائن من نار ونور. "تحلّفوا حولي أيها اليوساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول عن كبرى مصائبكم لما وضعت أمني على طاولة التشريح الكائن الذي خلقه الله أذهلني فيه أنه مكون من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليها وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت وكأنيها أذرع الأخطبوط. قلت في نفسي: أي ذات تختفي داخل شكل لم أر له مثيلاً؟ يوماً وضعت أدقّ أجهزتي أتحمس بها ما بداخل الكائن من حالات. يا للهول! كيف لا أفاجأ ولا أغرر والمؤشرات تؤكد أنّ هذا الكائن هادئ، حالم، سعيد، مكتمل، مكتف بذاته، منغلق عليها، ومنسجم. أي إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلا خزي الفشل؟ ثم إنني أعدت الكشف أكثر من مرّة لتواصل أجهزتي التأكيد أنّ الأخطبوط برأسين لا يعرف العلم ولا يعرف الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أن الكمال فيه اكتمل.

إذن نجح غريمي أينما أخففت. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح من أقمني علقماً. فتحت الكائن لدراسة مستقيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوناً من جزأين لصقا معا بعنلية وإحكام. لم يكن من السهل تفريق الشفاء ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل. كم عانيت وأنا أفصل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميّة للكائن لم تُجد نفعا. أخيراً رقصت طرباً وأجهزة تحسّس الذوات تعلمني أن الواحد الذي جعلته زوجاً أصبح يشعر بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصام. لإتمام انتقامي سارعتُ بوضع الخوف والنفور والجفوة من النصف الآخر داخل كلّ نصف مبدور حتّى أعرقل، ولم لا أمتع بحثاً محموماً عن اللقاء، وإن تمّ ألا يدوم طويلاً. هكذا تنفّست الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد صنعتُ من واحد كامل اثنين ناقصين أنا أكبر مهندسي العنمة، أنا الذي

تسمونه إبليس."

هل الحب تجدد المحاولة اليائسة لجمع ذات مشطوبة وأوقات اللقاء على درتها انتصارنا على الشيطان؟

تستيقظ "ح" من اغفاءة عبارة.

- تعني! بماذا تهّمهم؟

- "أمانة عليك يا ليل طول" كلمات أغنية قديمة كنت أسمعها وأنا طفل تتصاعد من صندوق خشبي ضخم اسمه الراديو.

نعم، يا ليت هذا الليل لا ينتهي أبداً، نتواصل إلى الموت بين إغناء وبقية، ننعيم بالنفء بين الأحضان، بالطمأنينة وبالاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

- لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وُثرت من أعصابنا وهي لا تكف عن الشروق والغروب كأنها لم تستقر بعد على خيار.

- أه لو كنت قادراً على الشيء، والآن، ردي على سؤالي: من أنت؟
هل سمع المحبوب لكنه فضل الصمت؟

آخر محاولة.

- مجدداً، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به صمم "

- نم الآن، واتركني أنام. يجب أن أرتاح لمواجهة مشاكل زملاء والمرضى.

- اسمعي قيل أن تنامي هذه الأبيات لا أجمل منها حتى بضعف الترجمة:

يا معشر العشاق ما البشري قد ظفرت كفي بمن أهوى (أبو العتاهية)

ضممت كفي على دزة لا شراكة فيها ولا دعوى

لما تملأت سرورا بها أغربت عني سائر الدنيا

تواصل مغازلتني ... ! إنها ليلة حافلة بكل المفاجآت. على فكرة لا تقل لي إنك تريد العودة لمثل تلك العلية الحظيرة التي جررتني إليها هذه الليلة.

- لمواصله أبحاثي في الشؤون الامنية هناك أماكن ثرية بالمعطيات هي الأخرى ولن تمناعي في الذهاب إليها كما لا خشية لأن تلتقط لي صورة على أبوابها.

**

ما نتعلم عنهم أين تتعزى نفوسهم

ليس من باب الصدفة أن أول من علم الأدميين بناء المسارح في تصورات الهندوس ربُّ اسمه فالكسمان، أن مدرّيهم على الإيقاع كان ربا يسمونه شيفا، وأستلة الرقص ربُّة اسمها بارفاتي، وأن براهما إله الالهة لاغير هو أول من علم الأدميين فنّ التمثيل؟ لهذا لا أدخل معيدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين، ولا أدخل مسرحا إلا وجاءتني لحظة فكره ترك نعلّي عند الباب.

قد لا يتفق معي الكلّ في كون المعابد مسارح والمسارح معابد، لكن كيف يمكن إنكار أن المسارح مختبرات تُشرّح فيها الأرواح ومن ثمة تجد فيها أكثر المعطيات ثراء عن الأدميين.

كما حفظ تاريخ الطبّ ذكرى كبار مشرّحي الجسد الأدمي مثل قالبان وعبد اللطيف البخادي وفيزال، فإن تاريخ المسرح حفظ أسماء كبار مشرّحي الروح الأدمية مثل سوفوكل، ايشيل، أوربيد، موليار، زي-أمي أو شكسبير.

يشاء حسن طلعي أن يعرض أكبر مسارح المدينة مسرحية لهذا الرجل الذي يقال إنه لا تمضي ليلة واحدة على هذا الكوكب دون أن تعرض في مكان ما إحدى أعماله. أعزق في المقعد الوثير متنقسا الصعاء أرهقني طول الطابور. تمرّ بين الصفوف امرأة ميتسمة بين يديها رزمة من المطبوعات الأنيقة.

- سيدي هل تريد البرنامج؟

- نعم إن سمحت برنامج الرحلة.

- عفو!!

- كنت أمزح. تفضلي أعطني برنامج السهرة.

ثمة من الظرفاء من تكفل بحساب البرنامج الذي يهمني فيبين أن الأدمي الذي يعيش سبعة عقود يقصّي ثلاثين سنة في النوم، اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون، اثنتا عشرة سنة في الثرثرة، ثماني سنوات عمل، ثلاث سنوات في الأكل، سنتين في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النقال)، ستة أشهر في المراحيض.

تبّا لهكذا برنامج.

ألقي نظرة على البرنامج الأنيق وفيه بعض التفاصيل عن مسرحية طبقت شهرتها الأفاق لأنها تُشرّح كل الشرّ الكامن في أعماق الأدميين وتُشرّح كل الآلام التي ترافقهم إلى أن يخلصهم الموت منها!

تُرى هل بوسع المخرج الشاب أن يأتي بشيء من التجديد؟

أه لو ترك للممثلين حقّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرض البارحة، ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة.

آه، لو تُرك للنظارة حقُّ اقتراح تغيير بعض المقاطع وحتى السيناريو بأكمله لا يهَمُّ أن يتقلب المؤلف في قبره سخطاً أو أن يصفق صارخاً يرافقه هكذا أحسن بكثير!
تنطفئ الأضواء تدريجياً.

تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. لكن أليست قصصنا فوضى من الأحداث والحوادث، لماذا لا تضيف لها الكتابة فوضاها الخاصة؟
يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. تترك خلفنا ما نسميه “الواقع”. يُزاح الستار ببطء مبالغ فيه.

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جننا جميعاً للتمعن فيها، نبحث عن شيء غير محدد. يبدأ الممثل في الصراخ ليعلمنا جميعاً أن ألما فاق كل حدود التحمل يمزق روحه.
- “في نومي وبني شقيق! اتزعت مئي في مرة واحدة الحياة والتأج والزوجه. يا للفضاعة!
يقنُّ شديح الملك المقول يستنهض همة ابنه يحفز فيه أعرق غرائز الأُميين: الانتقام.
- لا تتوك فراش ملوك الدنمرك يُدس بالفسق والزنا للعين”.

في المشهد الموالي يراقب كلوديوس الملك المنقلب المتزايد قلماً ابن أخيه. هل فهم أنه قتل والده وعشيق أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟
أدلة حول جريمة ما فرقها جريمة ؟

لو يعلم الناس أي نوع من المجرمين يسكنون القصور التي تتحكم في حياتهم لما استطاعوا النوم ليلة واحدة... يا له من عالم يتعايش فيه المنطق مع اللامنطق، المعقول مع اللامعقول !... صغار المجرمين في السجون وكبار المجرمين في القصور... صغار المجرمين لا تكرر لهم إلا في الصحف الشعبية وملفات المحاكم وكبار المجرمين تكرأهم محفوظة في كتب التاريخ... صغار القتل والمحتالين للسب واللعن... كبار القتل والمحتالين لعبادة الجماهير الغبية... كل المجتمعات وأن تباينت تعقيداً و" تقدماً" منبئة على نفس النموذج... الخرفان في المراعي والأسطبلات، الذئاب في التكنات والقصور، الأسود في الغابات والسجون... والكل يتخبط في أوهام بيدها الزمان كما تبدد الشمس الضباب... أوهام الخرفان حول قرب وصول المسيح المخلص... أوهام الأسود حول قدرتهم يوماً على الحكم دون أن يصبحوا ذئاباً... ولو هام الذئاب حول دولم حال لا يدوم على حال.

يتوجه الملك المجرم إلى هملت خانفا متودداً، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.
- “إنه جميل ومحَبب من طبيعتك أن تؤدّي ولجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أن أباك فقد أباً وكذلك والده، ومهمة الباقي على قيد الحياة التقيد بواجبات البنوة في الأسمى، لكن لمدة. أما الإصرار عليه فجنأ كأنه الكفر”.
تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا يثب من مكانه هذا الذي مرَّق عهداً مقدساً ربطه يوماً بأخيه وهاملت يروي، متكلِّفاً السذاجة، قصّة تخلص إيطاليّ اسمه "كونزاجو" من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسمّ مسكوب في الأذن.

إنها قصة أخرى عن نكث العهود والعقود. أغلب قصص الأدميين تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد ماله الانتهاك عاجلاً أو آجلاً. لذلك هم دوماً بحاجة للدعاة والقضاة عليهم يحفظون عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم. عبثاً.

يصرخ الملك القاتل: عليّ بالنور، النور!

أيّ نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبط فيه، ومن أيّ مصباح سيّشع؟ ليست الأمّ الخائنة، الخفية، الخائفة، بأحسن حل. ها هي تحثّ بولينيوس على أن يصدّقها القولُ بخصوص تغيّر طبع هاملت. تُرى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في أحشائها؟ يصرّح الرجل برأيه كمن يُصدر قراراً لا طعن فيه:

- "سأختصر. ابنك النبيل مجنون. أسميه مجنوناً وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".
- "أريد أكثر مادةً وأقلّ بلاغةً".

- "يا سيّدي، أقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنه فعلاً مجنون وإنها لمأساة".

تتوسلّ الملكة إلى ابنها الذي أهدته الجريمة الكراهُ صوابه.

- لا تقل شيئاً لآخر. كلمتك خناجر تدخل أنفيّ. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يوصل الملك افتعل السذاجة.

- هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موثٌ والده؟

يستحيل الصبرُ على كل هذا القدر من سوء النية وهو أكره ما كرهه عند الأدميين.

يستسلم الذهن كالعادة لأفكار تتدافع من أعماق اللاوعي وقد انهارت الحدود المصطنعة بين ما يسمى الواقع وعالم الخيال. ها أنا وقد أصبحت أتحرّك في فضاء مواز أرفع إصبعي في وجه هذا المنافق.

- عيب يا رجل. ألا يكفي أن تقتل أخاً، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه، والأّن تسخر منّا متسانلاً عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أوّل من يعرف السبب.

يرمقني القاتل بحقد:

- ما دخلك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوّج من أشاء.

يقرب روزنكراتز وقيلدنسترن رأسيهما من الملك يهمسان في أذنه.

- من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصّة أخرى ومن مستوًى آخر لعالمنا، فهو مُعارض وكلّ المعارضين للسلطة بقلبه مرضٌ.

إنها اللعنة التي تمنع الحكام من صوب القرار...هم لا يتعلمون إلا مع مفتري أو متملق أما الصديق الصدوق فملتزم الصمت لفهمه عبث كل نصيحة.

يعرض عني الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهمة. ترمقني الولىة امرأته باستهجن، فأعنتم الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف، وملقي بخصوص سبب السلطات العليا زاحز، ولا تُضيرني قضية إضافية.

- كيف لا يُجنُّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للأدميين! أي إسن أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته ولُمه قُتلت والذة وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! امش، يُلغن أبوك يا قحبة.

يواجهني الممثلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفت عنا أنك وبداءة لسانك. ألا ترى أنك تشوش علينا. نحذرك من التمادي في هذا التدخل السافر في شؤوننا.

يا لخبية الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنهما طعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هب لنصرتهم. لكن جود الأميمين ونكرانهم للجميل أمر عا، يكز مون اللئيم ويتمردون على كل كريم مُدُوجدوا.

أجبلُ البصر حولي أقيم مدى تأييد القاعة لي وتفهمها لغضبي المشروع واستعدادها للنفاع عني إذا نشبت معركة علة بين النظرة والممثلين. أفلجأ بهوء جبراني، ذلك لأن لطور المشاةة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التوقع لجزوني مباشرة إلى مركز لشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الأدميون عندما يخلطون بين الفضاءات المكونة لعالمهم.

*

ينتهي الجزء الأول من العرض. يخفي الممثلون تحت وابل من التصفيق وراء الستار.

يعبر جاري بصخب كبير عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. التفت إليه باسمًا متذبا:

- أنتصوّر! أخ يقتل أبا وينكح الولىة امرأته! كل هذا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إلى الرجل الأنيق بحدز. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركة ما، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الإنتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كيفية زملائه الأعياء الذين يتوجهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصلي هذه المدينة.

يفتح برنامج السهرة يُشعرني أنه لا يتوي فتح نقاش مع غريب مثبوه.

من قال له إني لا قوي الصمت؟

- يالها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوق إلى معرفة الخاتمة. هل تظن أن هاملت سينجح في الانتقام من عته؟ بالمناسبة، من هو مؤلف هذه القصة التعيسة؟

- (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء) ألم تقرأ الاسم على اللائقة؟

- لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر وحول أية قاعة لقضاء السهرة. لمار أيت طول الطبور قلت لنفسني: لا بد أنه عرض جيد، فلم لا أجزب؟ يا سيدي هل أنرتني مشكورا باسم مؤلف هذه المسرحية الراككة؟

- المؤلف وليام شكسبير، "مون يون مسيو".

- وليام من؟

- (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم):

شكسبير، شك-سبير. ألم تسمع عنه من قبل؟
أحدق في الفراغ مُطَوِّلاً.

- فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعت أحداثها في مدينة إيطالية اسمها "فينيسيا"؟ زرتُ هذه المدينة شخصياً، لكنني وصلتُ إليها، وبُخِتي كما تعرف، غداً فيضاً لا يُصدَّقُ أغرق كل سُوارِها في وديان من الماء. إنَّها حقاً لمأساة أن يضطرَّ رجل مسكين إلى قتل زوجته ثم تتركه اللعينة يتخبط في مشاكل لا نهاية لها مع الشرطة والقضاء وإدارة السجن والجلاد. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن "الفاندتا" والشرف الذي لا يُحفظ إلا وقد أربق على جوانبه الدم! هل تعلم أنَّهم جيراننا، نرى شواطئهم بالعَيْن المجرَّدة في بعض الأيام؟ أخذوا ممَّا هذه العادات التعيسة وانقموا ممَّا باعراقنا بالبييتزا، البييتزا بفواكه البحر، بالأجبان السبع، بالطماطم والبصل، بالزيتون، بالملوخية والهريسة،
- (باحترار دون مساحيق) شكسبير ليس إيطالياً، "مون بون مسيو".
- صحيح ما أغاني، إنَّه دانماركي بالطبع.

- (بمرح مفاجئ والرجل يكتشف متعة الحديث مع هذا المتخلف القادم من وراء البحار) ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنَّه إنجليزي "مون بون مسيو"
- ماله إذن ومشكل الطليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام؟
- (ببداية نفاذ الصبر) جُلَّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

نعم، لكن عن نوع معيّن من الإنجليز...الذين يسكنون قصور شاهقة تشهد أروقتها أروع القتل والانتحار بعد أن أرفقت أبطالها القضايا الفلسفية الكبرى من نوع "تكون أو لا تكون"... بصراحة أفضل أبطال تشيكوف ومشاعلم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك بعض الفونكا في الدانتشا الأبلية إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعها قريباً دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة.
- طمأننتي. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العرض؟ في أي شرفة تظنُّ أنَّه
جالس؟

يحدق في الرجل بذهول. لا شك أنه قرّر أن يروي الطرف، واختار من سيتفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سينكّم بها عليّ.
- "مون بون مسيو"، أخشى ألا يكون قادراً على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.
هذا الأدمي المحظوظ يعرف اسم المؤلف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ مئة لا يقترها بالضبط... لكن هل يعلم أن هناك خصومة متواصلة منذ قرون حول هويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بركره الركبان أم أرسطراطي إنجليزي كان يخشى على نفسه من الرقابة ومشكلها المقرّفة؟ ... هل يعلم أن مقاطع كثيرة كتبها المؤلف، أيّا

كان، أسقطت من النصّ وأخرى تصرّف فيها الناشر دون رخصة إلا من أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قسنا أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتع هو والمشاهدون بـ "هابي أنذ"، وأنّ وأنّ مراجعة النصوص وتزييفها قاعدة لم تسلم منها حتى، بل قل خاصة، تلك التي تُرتّل في المعابد؟

ينهض الرجل من مقعده يدير لي ظهره بكل ما يقدر عليه من احتقار. إنها الاستراحة. الوقت الضائع... الوقت الضائع؟! ابل هذه فرصة للتجول بين المتفرجين والانتباه لما لا أعيره عادة أدنى اهتمام .

ما الذي يمكن تسجيله في نظري الصغير عنهم وهم يتدافعون نحو المشرب لتتطلق الألسن بعد أن فُرض عليها أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة؟

أول ملاحظة أنهم تكلفوا ما تكلفوا من جهد ومال لحضور هذا "القدس" حتى يروا أنفسهم الأمارة بالسوء في مرآة الممثلين...حتى يروا أنهم ليسوا وحدهم ضحايا مقادير ظالمة... ليتأكدوا مرة أخرى من فهمهم لموعظة الواعظ ينبههم من قديم الزمان عبر كل الوسائط لضرورة الالتزام بالوصايا العشر وعواقب الاستخفاف بها.

لكن لاعينا، هم وضعوا للحظة كل هذه الأمور الجدية بين ظفرين. مهمهم هذه الدقائق المعدودة ممارسة رياضتهم الروحية المفضلة : الشكوى من ظروف الرحلة، تحديدا من "عزّ مضي، من حلول مُصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجرّة في صراع هائل، من عذّى غلت صيحاتهم، من كُفّ ليس فيه درهم، من ليالي تجرّح العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرغما ويغادرها مكرها".

من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قدّمنا لحياة أعطتنا دون تغيير اللبس والشتم والسمع والنوق والبصر؟..ما الذي قدّمنا لعالم أعطتنا دون مقابل البحر والنهر والسهل والجبل وليل الصحراء؟..ما الذي قدّمنا لكل من أعطونا دون منّ قصائدهم وموسيقاهم

وعصارة أفكارهم ليسهلوا علينا الحياة والموت ؟

موضوعهم المفضل الثاني خصوماتهم التي لا تنتهي.

هم يتخاصمون كل لحظة وبخصوص كل المواضيع يواصلون خصوماتهم هذه حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: "وأشارت (الدراسة) إلى أن التملل احتل المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممارسات العشر المسببة لمشاحنات السرير في أوساط المتزوجين البريطانيين، تلاه التمشير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة:"

هذا الخصام الأزلي هو الذي يُعطينا في فضاء الحواسِ الحروبَ والانتقالات والإرهاب والشجاذ على الطريق العام ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطفت الأطفال والنصب والسرقَة والقتل بين الأحياب، جلّ العفن الذي يمكّن طفيليات تُعرّف بالمحميين والقضاة وكثيئة المحاكم والسجانين ومزوّجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف.

أما في فضاء الخيال جبالأسلن في الروايات البوليسية فالمواضيع دوماً حول من كره من ومن تأمر على من، ومن قتل من. هكذا تُعبر العالم وأنت تسمع وأصواتهم تتصاعد من الشلر، من صفحات الكتب، من المسارح بالنقد والتجريح والتهكّم والسب والشتم والإدانة والتهديد.

اللعنة! اللعنة! اللعنة! كفوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجل من الأولى بالاعتبار... كفوا عن خصوماتكم بخصوص من ملك الحقيقة ومن يزال أسير الخطأ... كفوا عن خصوماتكم بخصوص من دان بالدين الصواب ومن لا يزال يتخبط في أساطير الأولين... كفوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجدر بالحكم ومن الأقدر على ممارسته، بخصوص من سرق هذه الأرض ولمن يجب أن تؤول... كفوا، كفوا، كفوا... أضجرتوني بخصوماتكم العبيئية، بخصوماتكم السريلية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم الدموية، بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخامسة وأنتم أطفال في الخمسين... كفى.. كفى... أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحنّل المزيد من خصوماتكم المقرّفة... ماذا! استجبتّم لدعائي! صنقتموني؟ مع من تريدون أن أتمتع بلذة المصالحة بعد أن تمّعت بلذة الخصام؟

*

يرنّ الجرس منذرًا بنهاية الاستراحة.
يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افتعال الاهتمام بخصومات هملت وأم هملت وخطيئة هملت وجدّ أبوهم كلهم.
ها هي أوفيليا تركض في أروقة القصر تتتمّ مرة لنفسها مرة لتؤول قننت المسكينة عقلها.

- 'حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نونّي هاي نونّي، وعلى قبره
تهاطل المطر دموعاً!!!'

يتوجه لارتس شقيق أوفيليا إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقده الألم هو الآخر صوابه بانتظار أن يرحل بعقله.

- هل ترى هذا يارب؟!؟

المسكين! لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا وأكثر لا يهمه استنكار الأدمي لصمته وهو يعلم أن هذا الكائن هو في نفس الوقت أوفيليا الضحية البريئة وكلوديوس القادر على موبات يحمرّ منها وجه ابليس.

كفى من هذا الأئين المقرّف.

عمّ تتحدث في آخر المطاف هذه التمثيلية التي طبقت شهرتها الأفاق؟ طبعاً عن الصراع الأزلي على السلطة.

لا شيء يعزفك بطبيعة الأدميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتقاتلون للتمكن منها وهم كمن يقاتل للحق في النوم مع أخطر أفعى.

لا يفهم بعمق سبب هذا الصراع إلا عندما توضع على مكثك ورقة تنظر لها مطولاً وفيها مطلب العفو عن محكوم عليه بالإعدام وأنت وحدك من يقرر هل سيساق هذا الشخص إلى المشنقة أم سيقتل الصعداء وهو يبشر بخير قبول مطلب العفو. ماذا عن شعور ديكتاتور نصف مجنون يقرر بالدخول في حرب لا تبقى ولا تذر وعن قراره الأوج هذا ينتج تدمير حياة الملايين. أليست السلطة وخاصة السلطة المطلقة مشاركة الأسمى الرب في أهم مميزاته ووظائفه أي التحكم في الحياة والموت؟

نعم لكن ماذا عن الثمن؟
عن خبير في عادات الشعوب القديمة قوله إنه لما يموت ملك قريبة من قرى كمبوديا في القرون الوسطى، كان كل رجل في عمر ووضع اجتماعي معين يهرب إلى الغابات خوفاً من أن يوضع على العرش لعلمه أنه سيضحي به قرباناً للالهة في أول جفاف أو طوفان. عن مؤرخ للتاريخ الإسلامي قوله إن قائداً عسكرياً من المماليك وقع جزءه جزاً إلى العرش وهو يبكي لعلمه أنه سيدبح قريباً والقتال بين أمراء الحرب على هذا العرش اللعين لا يتوقف لحظة.

ومع هذا...كم من قصص يرويها تاريخنا الدموي عن تخلص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه جرياً وراء هذه السلطة اللعينة!

وفي ملف ما زال بعيداً على خط الزمان سيفوض بأحداث قد توصف بالتاريخية، سأنهض من مكتبي والأزمة التي تعصف ببلبلاد في أوجها أتلمل البحر وكأنتي أراه لأخر مرة. تتدافع في ذاكرتي صور كل الذين سكنوا قبلي هذه الهضبة التي تشرف على أحد أجمل مناظر العالم... صورة الملك الطيب الذي أعطاني "بياً" اسمه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيداً عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموماً... صورة ذلك الملك المسكين الذي وُلِّي بعده والذي أخرجوه هو أيضاً ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في أفقر بيت... وصورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرجته كبير حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بيته وحيداً منسياً... وصورة كبير الحراس الغدار الذي أخرجته الثورة بدوره ليفرّ جباناً ويموت منقياً. كل هذا لأن تسيير شؤون الأدميين مثل تربيعة الدائرة. إن حكمتهم بالعنف والظلم خضعوا ثم تمردوا، إن حكمتهم باللين والعدل تمردوا مباشرة والرقاص يفقر على مر الأنظمة والأحقاب من القوضى إلى الاستبداد ومن الاستبداد إلى القوضى، لا يتوازن إلا نادراً ولمرحلة لا تطول.

داخل ذهن مستنقراً إلى أقصى حدّ لوعيه بتعاطف الأخطار سؤال واحد لا غير: ترى هل جاء دوري ليخرجني أحد من هذا المكان ملفوفاً في خرق قنطرة تقيض نما.

قراءة أخرى للمسرحية.

من ثوابت طولة القمار أن تسحب للبعض الرقم الخاسر فيقضون حياتهم وخصوماتهم في الطوابق التحتية لعالم سنتصوره مبنيا على شكل عمارة. هي تعطي للبعض رقما يسمح لهم بسكنى الطوابق المتوسطة، وأعلى رقم للذين اصطفقتهم دون سبب واضح ليسكنوا أعلى الطوابق.

القاعدة الأولى: يتعذب الملوك والأمراء في الطابق الأعلى كالعبيد والسوقة في الدهاليز... وسبب العذاب هذه السلطة اللعينة غزوا وممارسة وقداننا بالنسبة الى لسلاطين وتتملا بالنسبة الى لمتسلط عليهم.

القاعدة: الثانية إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كل هذا لقناعة تُستبطن باكرا من قبل الجميع أن حدة الآلام تُخفُ مع العلو، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين. أسمال في الطوابق التحتية، بدلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحلّي والحلل في العليا وهيكال الآلام الذي غطي بالأسمال أو بالمجوهرات واحد. ما أسخفه من صراع أخذ جَلّ وقت رحلتي، والرهان التمتع بالعذاب في أعلى طوابق البناية. ما أخطره أيضا ولرهان دوما حياة المحكوم والحاكم.

*

تعطينا التمثيلية أيضا كل المواد الضرورية لتنظيم أهي يعتبر الآن أسباب الأمانا هذه. ثمة آلام الملك القليل. ظن نفسه بأمين من قانون أن كل الغنائم مكسب نضعه على قائمة ما سنخسر يوما.

ثمة آلام طريقة فقد ما نتوهم امتلاكه. بصرخ الشبح في قمة الاستنكار: "في نومي وبيد شقيق!" المسكين! ما زال مقتنعا أنه لو قُتل بطلا لهان الموت أما أن يسلب الحياة خيانةً وببئد شقيق فلا ثم لا. كلّ جزى الوسيلة أخزى موتا يبقى أهم فعل في حياتنا بعد الولادة.

ثمة آلام الملك القائل وعشيقته الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوما لنفقدّه يوما آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفلس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عزّت أمية عن هذه المظلمة أحسن تعبير متنهّدة: كل ما أحبّ حرام دينا أو محظور قانونا أو يزيد في الوزن.

والآن ماذا أفعل وقد بدأ القرف من كل هذه القصة يؤثر أعصابي؟ أعود إلى مضايقة الرجل؟

أهمس في أذن الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل وأمه تعيد عليه الحكاية التي يجب.

- يرضيك كل هذا؟ ألا ترى يا "مسيو" أننا نصنع القنابل الموقوتة التي نحملها داخلنا!

- شت، سيلانس مون بون مسيو، سيلانس!

- ألا يثيرك يا مسيو نفاق الأدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يتعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتبدروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيتهم في حلّ تلك التي يتخطون فيها؟

- أرجوك، أرجوك يا مسيو!

لماذا يرفض هذا الأدمي أن ينتبه لأخطر نظرياتي عن الأدميين؟ كل هذه المشاكل التي يفتعلونها هي لمجرد تدفّق هرمونات الإثارة في الدم لا غير. أليس الأدمي أفيون الأدمي وأيضا المنبه والمنشط؟

ماذا لو كان هدف الأوبار التي تمثل في الواقع أو التي نشاهدها على خشبات المسرح ليس البكاء من الأنا والضحك من تقاهة محاولات التخلص منها وإنما استكشاف الطيف الواسع للأحاسيس، للمشاعر، للأفكار والأفعال التي تقدر عليها الذات وهي تعيش مباشرة أو بالوكالة بكل الممكن من القصص في كل الممكن من الظروف... هل المقصود بالأمر اعتراف كل ما تزخر به الذات من طاقات الحواس والفكر والخيال عبر ما تعيش من أوضاع، قصوى لا تتشابه كليا أبدا؟

كيف البقاء مستيقظاً؟

بالتنكر أن التراجيديا على الركح وفي الواقع ليست إلا جزءا من الموضع الذي يشرح الذات الأدمية وأن هناك مبضعا لا يقل دقة وإيلاما يسمونه الكوميديا.

ألا تعرض على خشبات هذا المسرح أعمال العبقري الذي أسسه الأدمي المسمى موليار. كم أضحكت من أجيال على الأدمي وهو هاريجون البخيل، تارتوف المنافق، جوردان الجاهل وأرقان الخائف من الموت.

إذن يمسح أبو هاملت العرق المتسقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثما بمؤخرته على عرشه ويصدره وبيظنه على زوجته، ينعمان بسلطنة نهرا وبالجنس في فراشه ليلا.

يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السندويشات ويصق البزر على الجيران آخر همه ما يقوله للشقي.

- أه منك أيتها الهواجس المرعبة، تلاحقيني في النوم وفي اليقظة، أه وأه وأهات!

يتوجه إليه روزنكراتز أو قيلنستارن:

- يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكاً؟

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خَبر الحياة ويعلم أن الربّ يسمح بهذا ويكثر. يتعمق فيه الشكّ وتعلو موجات الفلق تكاد تغرق ما بقي له من سوي الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المسكين.

تمسح الملكة جبين التّجيس تصرخ فيه:

- أيق، تنفّس ملّيا يا حبيبي. لم أعرفك يوما بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بالشراب الساخن إلى الملك!
يحدّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

- أين، أين قبيل؟

- نسيت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلا غادر في منتهى الفلق.

يتنّفس الملك الصعداء مصليا للعداء أن تزيد المعركة الرّبع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجّه ربّه.

أن الألوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسود الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسما، وأوفيليا تضع يدها أمام فمها تُخفي ضحكة الصبليا المغرّمات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة.

ها هو أبو هاملت يتخبط داخل أفكار وصور لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنزّر وتُننّه؟ من يضمن له أنّ شقيقه لن يجني من الحرب انتصارا يثير إعجاب لولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفيّة.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكركه حتّى تكروه وتملّه وتعاث جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرّض حياته للخطر من أجل هذا اللّينيم. ها قد بدأت مخلوف الملك تخرج من مخابنها لترسم ملامح الواقع وكأثها الصور التي يرميها القنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسقط في يدي والقصة تنزلق في المجرى الذي جاهدت لإخراجها منه.

يا له من غيبي. بيّنا له بكلّ الوسائل أنّ امرأته تحبّه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيهلك المسكين الذي لم يفكر في الانقلاب إلا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة الأماسة. هل يوجد كائن غير الأدمي لينتج السموم التي تهلكه؟

تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكأبتك وأن تسير يوما بذكرها الركبان، لكن كل هذا النفاق حولها!

ألم تتفق مع عمك على قتل أريك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أما أن ترمي بأمك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغيض.

وأنت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هلمت وعمه يُنفذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض "الزهايمر" وكنت تفضل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائماً في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينين.

وأنت يا ولية! كل هذا بسبب مَلِك من الخياطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذعة الألم.

هل اعتقدتم أيها الأغباء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأول.

نقطة الضعف الوحيدة في نظريتي هذه تلبس الأميمين خبثاً مفراطاً ونكاه مكيفيليا نادراً ما تجدهما. أنظر إلى أغليبيتهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جل استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعلية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، كأن لا دور لها غير قيادتهم بخطى ثابتة باتجاه الاخفاقات التي يَضجُون بالشكوى منها. ولأن التجربة لا تورث كلون الجلد، فإنك ستراهم يُكزرون من جبل إلى جبل نفس الكوارث بثبات عجيب.

هذه مأساة لا ينفع فيها التهكم الأنيق. يجب دكها دكاً بالسخرية الفظة.

تُخَل هاملتة تنتهي لأن الملك المقتول لم ينبج إلا بنتاً ضيعة صغيرة وحملها دمه كبيرة. تأخذ الأميرة بمقاليد القصة بما يعرف عن الإثاث من فكر عملي وعدم تضيق الوقت في السفاسف المينافيزيقية وخاصة في جنون مرهق ومكلف لصناديق الضمان الاجتماعي.

تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبسّم هاملتة وهي تتابع فعل السم في جسد الأم والعم.

يموت القتلان فتنزّوج هاملتة في نفس الليلة صديقتها أوفيليا.

تنويعة أخرى على نفس النغم.

تندلع مشدّة بين بطلي هذه القصة التعيسة فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري في هلمت:

- ماذا؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجيدية إذن؟ تريد لي مكاناً دنيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنتظر إلى جوليات من عليانها أو تقول أنتيجون إنني بطلة أحر زمن، لم يجديني الدهر أهلاً لضرباته؟

- ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يُعيل بزولنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

- أقول لن أرضى بأقل من القتل وتحذثني عن خصومة بسيطة من فوق!

- طيب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضل التخلّص من حماتي.

- تريد قتل أمي يا مجرم. وتدعي أنك تحبني!

- يا ستي لنقل خلثك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الحالة.

تقرّر رفض العرض لأنّ جوليات غريمته الكبرى ستَهزأ من قصتها وستتبرّج عليها بعمق ألامها هي.

تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

- طيّب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعوّ شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمعته. تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثّر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، مَنْ أعطاك الحقّ في الحديث عن ألامنا بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضاً؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قُتل في الحرب أو قُضى نحبه على طاولة تعذيب قذرة. تمهل يا هذا في شكك المزمّن في نوابي. لسْتُ ضدّ التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضدّ المبالغة فيه. نعم، هناك ألام حقيقية علينا احترامها بعدم جعلها مادة لسخرية شريرة... لكن شريطة ألا تصبح بضاعة نتدلّل بها على عالم لا يطبق أي نوع من الدلال.

السخرية أسرع تقديرات الفكر وأعمق وسائله للفرز بين الصدق والزيف... قابلية الفكرة، أو الشيء، أو الكائن، أو العلاقة، للسخرية أصدق دليل على وجود خلل ما... كل ما هو قابل للسخرية لا بدّ أن يُسخر منه، أيا كانت هالة القداسة التي يُحاط بها أو القوة الفجة لحمانيته من الفضح... النكبي من يضحك من نفسه والغبي من يضحك من الآخرين... ليس كل شيء قابل للهزل وكل ما يمسّ بالكرامة خط أحمر...

*

لم يبق إلا رفع صوت تآؤيبي عاليا وإظهار كل علامات التبرّم للمزيد من إزعاج الناس وخاصة جاري.

أوف! أخيرا مات هاملت ومات معه القاتلان وكم من ممثّل آخر ناهيك عن موت كاتب هذه المسرحية المضحكة المبكية.

يتقدّم الممثلون صفّاً واحداً يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا.

يا لهؤلاء الأحميين، يصقّفون بحماس لمسرحية تعرض مدى فشلهم! هذا فشل في الحفاظ على ملكه، والأخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحبيلة أو القوة، وذاك فشل في الحفاظ على العقل أو لشرف أو الحبّ، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على حياتهم! لماذا لا أصرخ فيهم جميعاً مثل أنني اسمي اسمه صمويل بكت: أفضّلوا أكثر فأكثر.

ربما لم نأت كلّنا إلا لهذا، لتحقيق أنجح فشل ممكن، فشل طموحت بالغة الصغر، فشل شهوات بالغة النقا، فشل رؤى بالغة السطحية، فشل معتقدات بالغة السذاجة، فشل الخصومات بالغة العبث!

تعسا لقصص الأدميين، لا يغفر لنا وجودنا إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضح الحقيفة المرة، أننا كائناتٌ مأساوية وكائناتٌ تهزلية بنفس القدر. ثلاث ساعات بأكملها في تأمل فشل الأدميين و تحمل شكواهم منه! كان بؤسعي استنماها بكيفية أذكى. قراري النهائي: بما أن جلّ مسرحيات البشر عن فشلهم وآلام هذا الفشل ظن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهد الممثلون بأنهم لن يبنسوا ببنت شفة.

نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارُها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم، والتمن الذي يدفعون كُله للتمتع سويحات في مقعد وثير بالظلام والصمت. حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا بقي المغنّون وراء الستار واكتفى الجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بلعزف عليها.

يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسته مواصلا لعب دور الذواقة اللبيب الذي يقتر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحساس الثقلي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة خذوه لا يصقّق لأنه لم يفهم شيئا من المسرحية. وهذا المتخلف من وراء البحار أدمي هو الآخر لا يقنّ أدمية عن جاره، ومن ثم مغالبتة لزهوه بتفوقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة ولحة دوز وصحرائها في الاتجاهلت الأربع.

يشنّد دويّ التصفيق فثعبطني فكرة مزعجة، أن هؤلاء الأغبياء قد يعيدون علينا كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من ركافة الموسيقيين وحدهم. لا يكفت الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسوّلون مزيدا من التصفيق. أخيرا يخفقون عن الأنظار.

تودّ أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذيء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب للتنّة والسجانر الرخيصة، عمق البغضاء بين هلمت وأوفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير.

هلمت! المسكين مشغول بشبح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهمله الخمج الذي بمملكة الدنمرك، فمشكلته حُبّه الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض "الايديز" الذي شخّص عنده مؤخرا.

نفس الروائح والبذات والهموم الصغيرة لو وضعت أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات.

في آخر المطاف ما هذا المكان المغلق الذي نستعرض فيه مهازلنا ومأسينا؟ ما هذا الذي نسميه المسرح والذي يتبارى الأدميون منذ القِدم بوضعه في أجمل ساحات مُدُنهم؟

إنه المجهر الذي يمكّننا من النظر في الذات الأخرى، نكتشف فيها المستقنع والجدول والشلال الذي فينا.

إنه المختبر الذي ندخل فيه الأعماق المظلمة لهذه الذات ونحن في مقاعدنا الوثيرة لا نتعرّض لخطر.

إنه المرأة التي نتأمل فيها بعض الأدوار التي نمثل بها على أنفسنا وعلى الآخرين نكتشف عبرها كم نحن كائنات مأسوية وكم نحن كائنات كوميدية.

إنه العالم المصعّر الذي نستطيع فيه وضع اسم وصورة على كاتب السيناريو وتوهم معرفة مقاصده نعوض سحرًا جهلنا بكاتب السيناريو الكبير وبما يريد منا نحن البشر التائهين بين فضائي الواقع والخيال.

**

أو مدى ما يعادون لتعلم ما يفرض عليهم وما يختارون من أدوار

أغرق في المقعد الوثير وأنا المشاهد الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب قُل عن ترويض-الممثلين لأداء أدوارهم.

تخرج أليرا من وراء الستار متوجهة بخطى ثابتة نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير.

- جئتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن جبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يبرز من وراء الستار المخرج يبدارها ببرودة:

- ما هذه المشية؟ أذهبة أنت إلى الحلاق؟ أنت لا تدخلين مكانا عانيا للقائه عادي. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهدد بغضب الله وكمال أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الجنية يا امرأة!

تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تبرز منه كالجني من صمته متوجهة إلى دون جوان والبدان ممتدتان إلى الأمام كأنها تتصرع.

يصرخ فيها المخرج:

- ما هذا التكلف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.

تبقى الممثلة بين عُذو ورواح من وراء الستار إلى نون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد. يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إما تهزول بكيفية مضحكة أو تتباطأ بكيفية أكثر إثارة للسخرية.

يصرخ فيها المخرج لا يخفي مله من هذه البليدة.

- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!

تعود المسكينة المرّة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهزولة والركض نحو دون جوان الغارق في لصمت.

- أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها:

- جئتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن جبي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أن من أحببت يتعرض لغضب الله. أتيت لتحذيرك والتوسل إليك لتتقادي غضبا بدأت مؤثراته تتجمع.

ينفجر المخرج في وجهها.

- ما هذا؟ الفؤك مثل ماء بركة أسنة. يجب أن يكون كالماء، متساقطا من السماء، منحذرا من أعالي شلال، متسارعا في السواقي، متدفقا من النافورة. أعيدي من البداية.

تبلغ الممثلة ريقها:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحيبتكم! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...
- كفى. كفى. هذا ليس كلاما نتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهان إنقاذه من لعبة أبدية. هذا تفسير نص. كأني أسمع النقاط التي تحتّم الخجل. يجب أن يكون للكلمات ألوانٌ وروائح، أن تكون التعبير عن المشاعر لا التأشير عليها.
قل أحدهم: المخرجون نوعان: من يريدون أنفسهم آلهة ومن هم على ثقة أنهم فعلا آلهة. ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقحامها في الدور الذي يريد وإجبارها على تأديته بلطريقة التي ترضيه.

تبلغ المرأة ريقها: مجددا:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحيبتكم! لكن حبي اليوم له وحده. و...
المخرج الآن على أهبة الاعتناء الجسدي على الممثلة، وهي بين يديه كالفأل بين مخالف القطر.

أخي غرابية في الأمر وأنت لا تتعرض لاعتداء إلا وهو مرتبط بخطئك في تأدية مقطع من تور في سيناريو ضبّطت قواعده قبل دخولك مسرح الحياة.

- ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن أليفا الوعاء الذي يمكنك أن تمرّري عبره مشاكلك الشخصية. لكنني غير مهتمّة بمشاكلك الشخصية! أليفا وحدها التي تهمني. ما هي مشاعر أليفا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرّضا لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنها ما زالت تتصوّر إمكانية إنقاذ دون جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها. لكنها تعاني من تيكيت الضمير، من الشعور بالذنب لما اقترفت من حبّ لغير الله. أين المشاعر الملتهية؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتّى أنك تشعرين !

تبدأ الممثلة في الشكوى تلمح إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات للأسبوع المقبل. هيهلت. لا خيار للآلمي غير مواصلة تعلم الأدوار الإجبارية وفي الظروف التي يقرها المخرج وحده.

يفتعل المروض القاسي نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

- يا امرأة، قلّ لك كم من مرّة ليس هكذا!

إنه تصرف كل من يعلموننا أدوارنا: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا. هكذا سيلاحقك على طول الطريق المرابي والحبيب والمنقسط والشرطي والقاضي والزيون والتلميذ والناخب يصرخون فيك "ليس هكذا". بماذا يمثل فضاء الأفكار؟ بفلاسفة وأنبياء ودعاة يصرخون فيك ليس هكذا التفكير، ليس هكذا التصرف، ليس هكذا الإيمان!

يصرخ "يا" رافعا عقيرته: اللعنة! ليس هكذا! بفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا: ليس هكذا! ينتهد مطولا، يمسط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصببتني بالقرف والغثين، ليس هكذا!

كم من مرة صرختُ أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أغرب الممثلين وفي أخطر التمثيليات... تُرى هل أضفتُ شيئا لدور الابن والأب والحييب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحقّ وهو يصرخ في باستمرار ليس هكذا، ليس هكذا?...كم صعبة هي هذه الأدوار التي تُجبر على تعلمها باكرا، كم هي شاقة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكر، على الإلقاء، على الاستشارة بأعجاب النظارة!

تمسح الممثلة دموعها وقد بدت تفقد لسيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جنئك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله، يستشيط المخرج غضبا غير مفتعل:

- كفى! كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردد لك أن ما يعنيني اللم أفيرا لا اللمك أنت، أعيدي، أعيدي!

المسكين! كم يتكلف من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا في نفس الوقت. ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الوجود برومته بكل هذا العدد الهائل من الممثلين المبتئين؟

تتلعثم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

- جنئك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...
يعود المخرج للصرخ وقد أصبح شبه مقتنع أنه لا شيء يمكن انتظاره من هذه الغيبة.
ليس هكذا، ليس هكذا!

الممثلة الآن على قاب قوسين أو أدنى من نوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للادميين نموذج واحد ومتفق عليه لـ"كيف هو الهكنا" وإنما مقاييس تُنفس مقاييس ومقاييس تُشرع لمقاييس هي الأخرى بحاجة إلى من يشرعها.
ماذا لو تدخلت في الموضوع لنجدة المسكينة أصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج!

ربما شعر الرجل بما يعمل داخل مشاهد صامت متزايد الاستنكار لما يفعله بامرأة على وشك الانهيار العصبي.

يتوقف عن الصراخ ليلعب الآن دور المرئي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثلين من يمثل ناسيا أنه يمثل. لا أرى شيئا من هذا القبيل. حاولي مرة أخرى تهدأ المسكينة. أخرج محاولة.

- جنتك الليلية على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم أحببتك لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسووني أن أعلم...
انتهت استراتيجيتي الطبية. يجب العودة إلى نور البوليس الشرير.
- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!
هّم المخرج اعترض أقصى الألم والرقّة والحبّ والتهيبّ والرجاء من ذاتٍ شبيعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإفصاح عنها.
- كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنّه دون جوان الرجل الذي أحببت وهو مهتدّ بالعقل الإلهي. يجب أن يضحّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفرح والرجاء والتوسّل. ربّما أمكنّ إنقلاده لأشيء إلا لأنّ نبرة ما في كلامك أصلبته في الصميم. قد يتخذ طريقه وجهة أخرى لمجرّد علو نبرة أو تهذج صوت.
لا يزيد الوعي بالأمر الممثلة إلا اضطرابا على اضطراب.
- جنتك الليلية على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبي اليوم...

- كفى. ألم الغيرا بلا حياء أو تكلف، ألم مطلق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!
يتوقّف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه الغيرا بعد فشلها المتتابع في تقصص الممثلة.

يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنه حيوان تحت سكين الجزار.

- جنتك الليلية على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم...
خصّلت المعجزة، معجزة التمثيل. تبخرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات الغير.
تندفق الكلمات بلا نطق أو فواصل. يعلو الصوت ليبلغ دويّ الماء وهو يتساقط من علو الشلال ثم يتسارع في السواقف وهو خريبر. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكّن الأسمى من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمر بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!

محكوم علينا أن نلعب طوال الرحلة جملة من الأدوار تباعا وفي نفس الوقت هي التي نعرّف بها أنفسنا والتي يعرفنا الناس من خلالها مثل دور الشلب المثالي والأب المسؤول والأم المثالية والزعيم الملهم والمناضل الصادق والزوجة المخلصة والصديق الوفي والفتان غير المعترف بغيريته... كلنا ممثلون نتبع أوامر مخرج مخفي يصرخ فينا طول الوقت ليس هكذا، ليس هكذا !!!

يخرج المخرج من حالة التقصص العجيبة هذه لاهثا ماسحا عرقه. يتوجه بلطف إلى الممثلة المنبهرة:

- دور الممثل أن يتشكّل كفراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق اللاوعي فيك، ليحلّ فيك ال...!

ليحلّ فيك؟ ليحلّ فيكمّن، أو ماذا؟ فتح نواتنا ليحلّ فينا؟ الطول؟ اليس هذا المفهوم
المركزي في رؤيا توصف بالصوفيّة!
الانتباه هنا للمعنيين لكلمة التمثيل.
ثمة الممثل بمفهوم المسرح...والممثل بمفهوم الدبلوماسية.
هل نمثّل بالمعنيين للكلمة؟
إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، السؤال لماذا حكم على الأمي بأن يمثل أدوارا
ليست من اختياره ويشقى طيلة حياته لتعلمها ؟
إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، السؤال هو من هذا الذي نمثّل ونحن نلعب أدوارنا والذي
يجب أن نفتح له اللاوعي لينطق فينا ؟

**

أدوارهم المفضّلة وما تكشف من آلامهم وأملهم

المخرج الملهم الآن أدمي اسمه زي. أمي⁴ فلتتبعه وكلنا ثقة في رجل خبر كل الأدوار وله حدس مرهف بمن يختفي ورائها .

تتصاعد من جانب قصي من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطلبة. يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناع راهبٍ عايشٍ القصة الحقيقية للآدمي بل ويعرف كل التفاصيل.

يتوجّه إلى مشاهدين كلٌّ على رؤوسهم الطير.

- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلّته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.

يتوقف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمصا شخصيته.

- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

ثم يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

- يارب البيت، أنا مسافر قادمٌ من بداية الزمان والطريق أمامي ما زال طويلا.

مواصلة استبدال القناعين والانتقل من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.

- وما الذي حملك على تكلف هذه المشقة؟

- قدّر كل آدمي أن يظنّ ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلا توقّف به الطريق.

- ولماذا لا يقعد على مؤخرته سلطنا لا يزحج نفسه أو أحنا؟

- لأنّ الطريق هو الذي سيتحرّك به، فين الأحسن أن يبادر هو.

- كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إليّ؟

- الصنفة، يا صاحب هذا المكان.

- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلا أزهقت روحك.

الممثل لابسا قناع الراهب متوجها إلى النظرة المنبهرين: هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: أيّا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بدّ أنه ككل الكائنات مغرور معجب بنفسه. لم لا ألعب على هذا الوتر؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهت إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعتُ عن علمك وحكمتك وأنتك تعرف أسرار العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعتُ أن أسمع منك الرواية، الرواية الصحيحة لما حدث بالضبط لآدمي يحمل سرّاً لي حاجة ماسّة إلى معرفته.

⁴ زي أمي (1363-1443) من أكبر المخرجين اليابانيين والمنظر لمدرسة في فن التمثيل تعرف تحت اسم مسرح نو(الناشر)

إنه ملك قتل شقيقه واستولى على ملكه وزوجته، فجَزَّ ابن أخيه وجنّت خطيبته. يقال إن فظاعة جريمته أدت به هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فرّ من القصر واستجار بهذه الغاية ولم يخرج منها أبداً. ثمّة من يدّعي إنه تنسك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول إنه ما زال يدور في أدغالها باحثاً عن شفاء الروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تُشفي غليلي! إنني أجري وراء الرجل منذ زمن عَليّ أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوماً. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محض افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجالد، ربّما لجرامه ظروفٌ تخفيف. لا بدّ أن أعلم من هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقه السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همسا.

- توقفت عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كاني أعملتُ المفتاح المناسب في القفل. لجابني صاحب المكن بصوت فيه غلالة من الحزن.

- اعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.

- هل وجدته؟

- نعم

- أين هو؟ كيف هو؟

- تمالك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجّة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشفت الأرقى والحزن والخوف وتبكيك الضمير وكيف استحالت حياته جحيما وكلّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة. كل القصة بكل التفاصيل، بأدقّها.

هنا يتبادر الشك إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثيره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعت لغيره. هل يكون صاحب المكان هو...؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو. طبعاً إنه هو.

يشنّد القرع على الطبل والنفخ في الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظرة صارخاً: لا تصدقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. قصته سخيفة وروايتها بهذه الكيفية تزيدها سخافة على سخافة. كل هذا تمثيلٌ من أردأ صنف.

يجب التوقف طويلاً عند صراخ هذا المزعج الذي قطع علينا لحظات ممتعة ونحن نتجول داخل الداهليز المظلمة للذات الأخرى بلا خوف أو حرج.

ماذا يقول؟ القصة سخيفة! كل هذا تمثيل بل من أردأ صنف! ما الذي يقصد بمثل هذه التهمة الخطيرة؟

يبدأ الممثل في الانسحاب ووراء المهرج.

مهلاً أنت الممثل. ما زلنا بحاجة إلى خدماتك. أثرت اهتمامنا بفكرة ليس قناع الدور على الركح ثم خلعوه لتقتصص دور آخر. تفضل والبس أقتعة أهم الأدوار لتي يمثلها الأسمى والتي تتردد من جبل لجبل بنبات ملقت للانباه.

أما أنت المكلف بالصراخ لا تصدقوا شيئاً، الزم مكثك سنستدعك كلما عاد التبدل.

لبس الراهب قناع روبنسون كريزوي ثم يبدأ بالإلقاء وبه شيء من الارتباك:

يا سادة يا أفاضل أفقت لا أدري من أي حلم لأجد نفسي اتخبط وسط المحيط والعاصفة تزار كأنها وحش يريد التهامي. ولحظة خلت أنني على وشك الموت وجبت نفسي مرمياً على الشاطئ دفعتني إليه الأمواج العاتية. ومن يومها وأنا تائه في هذه الجزيرة المنسية من كتب الجغرافيا أتدبر قوتي كل يوم مما تجود به الطبيعة وانتظر الخلاص من سفينة قد تمر يوماً وتخرجني من هذه الوحشة القاتلة...

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. لا عاصفة رمته في هذه الجزيرة .. هو الذي جاءها طوعاً.

يلتح الراهب قناع روبنسون كريزوي ليلبس قناع سيجموند⁵. ثم يبدأ في الإلقاء الحزين. أخيراً بعد طول التشرّد في الغلب الموحش الخطير للجزيرة المنسية من الآلهة أبصرت كوحاً قلت قد أجد فيه أخيراً ملجأً يحميني من الموت الذي يركض ورائي.

تفتح له سيجليند الباب. إنها الأخت التي لا يعرف والحبيبة التي ستحمل قريباً طفله في أحشائها. يتردد لحظة في الدخول كأنه شغور بالذنب يصرخ في وجه المرأة: الشقاء يلاحقتني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي.

يلتح الممثل قناع سيجموند ليلبس قناع سيجليند.

تصرخ سيجليند: لا عليك، نخله هذا لشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. أنه عالم لا مأمون فيه من الشقاء، لكنك خارج هذا المكان أو داخله.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل وهذه المرأة ... للشقاء لم يوجد إلا بوجودهما.

من الأفضل الثبات والمواجهة وقد تورطنا بمجيبنا هذا العالم واكتشافنا للثمن لم يعد يجدي نفعا.

يلتح الراهب قناع سيجليند ليلبس قناع سيكفريد.

يصرخ فينا الممثل: الأسمى بطل لا يهرب لا اقزم ميم ولا فافرن التنين ولا حتى الرب ووطن. هو أتى العالم ليتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد المسجينة وراء ألسنة النار.

⁵ سيجموند، سيجليند، سيجفريد، ميم، فافرن، ووطن أبطال أشهر المسرحيات الغنائية (الأوبرا) للموسيقار الألماني ريتشارد فاغنر: خاتم نيبيلنغ (الناشر)

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. قصة أخرى ستنتهي كالمعتاد. بعد تحرير الأسيرة من نومها السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بمحرقة تقضي عليه وعليها وعلى الألهة أجمعين.

يطلع الراهب قناع سيكفريد ليليس قناع موسى. يصرخ الممثل ملوحاً بعصاه وتحت الإبط اللوح المحفوظ الذي خطّ عليه ياقبه بقسه أو امره ونواهيهِ للجنس البشري: اسمعوا واطيعوا وصاياي العشر.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: ما زلتُم تصفون خرافة وجود إله مهتم بكم فرداً فرداً ومشغول بمصيركم أفراداً وشعوباً! ولماذا لا ينشغل بكل غار نمل يتلعب حسنتك وسيئات كل نملة ويقرر أي نملة ستنتهي في النار أو في جنة نعيمه... على كل حال ليحتفظ بوصاياهِ لنفسه لا أكثر إثارة للشهوة من زوجة الأخ والذُّ من سرقة حملة.

يرمي الراهب على الأرض غاضباً بقناع موسى يضع قناع القديس بولس مهلاً فاتحاً ذراعيه على الأقصى: ابشروا، الرب انتبه لوجودكم أخيراً بل وقرر أن يبعث بابنه الوحيد ليفديكم بنفسه ويخرجكم من الورطة التي وضعتُم فيها أنفسكم.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: قولوا له يحتفظ بابنه، لو كان هذا المنقذ قدراً على انقاذ شيء أو أحد لبدأ بانقاذ نفسه من بُشع موت ممكن.

يطلع الراهب قناع القديس بولس ليليس قناع الدكتور فوست يصرخ الممثل: ما زلتُم تتقون في الله بعد كل ما رأيتم من لامبالاته بالأمم وصلواتكم ونذوركُم؟ اسمعوني، لا صديق لكم إلا إبليس، تعلوا ارهنوا ارواحكم عنده كما فعلت. هو على الأهل سيضمن لكم بعض المتعة في هذا العالم التعيس في حين أن منافسه لا يضمن لكم إلا العذاب دنياً وأخراً.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: انتبهوا للفتح. الشيطان ليس أكثر جدارة بالثقة من سيده.

يطلع الراهب قناع فوست ليليس قناع ينجلو صارخاً: انا ابن السماء لي الحق في مطلق السلطة والشهرة والحرية والجنس لا لا أخضع لشيطان أو إله لا شيطان غيري ولا إله إلا أنا.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا هذا الدعي، إنه مجرد آدمي سينتهي نهاية محزنة لا تختلف في شيء عن نهاية رعاياه الذين لُفّ ألا يراهم إلا بين ركوع وسجود.

يطلع الراهب قناع ينجلو ليليس قناع بوذا.

يبدأ الممثل خطبته بلهجة هدنة وربع إشمامة تضيء وجهه يدعي أنه لا حل لمشاكلنا غير تنظيف شامل يكتس من كل أرجاء الذات غبار وقادورات الطموح والطمع والغضب والحدق. هكذا يستطيع الألمي مواجهة ضربات العالم لا يرفق له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء، بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. إنه الانتصار بالضربة القاضية على الطمع والطماع والمطمع.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجه إلى النظارة صارخا: انتصار؟ ونحن نبتز جزءا من ذاتنا؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتينا من ارتكابها لذة الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مبنيا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟

يلعب الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المتنبئ. يصرخ الممثل لا حل إلا الذي أمركم به " لا تَلَقْ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرَبٍ مَادَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَكَ الْبَيْتُ".

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ يتوجه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا حرفا من هذا الدعي الآخر، لا أحد اشكئ من الدهر وسخط عليه ويكئ منه مثل هذا الألمي المعروف بجعجعته الفارغة.

يلعب الراهب قناع المتنبئ ليلبس قناع المغني سارج كانسبورغ. بعد حرق ورقة نقدٍ غالية الثمن يستعمل نارها لإشعل سيجارته ها هو يحول الصراخ بصوته المخمور: الرحلة عبثٌ محض فلنواجه عبثها بكل ما نقدر عليه من عبث.

يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخا: إنه ممثل رديء آخر يحاول لعب دور البطل العدمي لا هم له إلا إثرة الاهتمام باستفزازات مراقبين.

الدور الأخير

يلعب الراهب قناع المغني المهرج ليلبس قناع فراشة. يصرخ في النظارة المرهقين: حكموا عليّ بالمؤبد في جزيرة الشيطان، لكنني كنت أشطر منهم جميعا، تدبرت أمري للفرار من ذلك الجحيم، افعلوا مثلي لا خيار لكم إلا بين الفرار والموت تعفنا.

يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخا: هذا عالم -أرخبيل كل جزره محتشد يجاور محتشدا لا فرار لكم من سجن إلا لسجن أفضع.

يرمي الراهب بغضب غير متكلف على خشب الركح آخر قناع ويبعث برجله اليمنى الأفتنة المتراكمة على خشب الركح.

يتوجه مباشرة لأقرب حانة يشرب الساكي الى الصبح مع سكارى الحي وهو يزمر لنفسه ويصرخ في الآخرين: إشباع كل الشهوات؟ لتخلص منها جميعا؟ التآله؟ عدم الاكتراث بكل شيء أو على الأقل افتعاله؟ المواجهة؟ الفرار؟ اللعنة! كيف التعامل مع هذا العلم؟

**

وكيف أنهم ينتظرون دوما شيئا أو أحدا والموت وحده من لا يخلف الميعاد

حدث أكثر من مرة أنني خرجت من المسرح بوجع لساعات في فقرات العنق لأن كل هي كان تفحص القاعة والنظارة الجالسين في صمت آخر ما يعني التمثيلية. عندما ينحسر التبلد ويحضر الانتباه تعي بأن أهم ما في المسرح ليس الممثلون وإنما النظارة وقيلة الأنظار يجب أن تكون القاعة المكتظة لا ما يتحرك على الريح. لنقل في محاولة سير أغوارها أنها فضاء منفصل عن كل منغصات وأخطار العالم خصصه البشر لتحقيق أعمق رغباتهم والهروب من أعمق مخاوفهم. ففي مثل هذا المكان المحمي بسقف وجدران سمكية لا خوف من تهطل المطر أو من زوبعة تلج أو رياح رملية عاصفة. حتى البعوض تم التخلص من ازعاجه بأدوية ومطهرات تحافظ على ما يسمونه النظافة. لا خوف فيه أيضا من حيوانات كاسرة تترصد. أما الادميون الجلسون ورائي وأسلمي وبجاني فهم في وضع لا يثير أدنى ريب. لا أظن أن واحدا منهم يحمل بلزوكا أو مدفعا رشاشا ولا خوف أن تنشب بينهم خناقة يصفون فيها حساباتهم فيلطيخون ثيابي بدمانهم وربما بدمي. مثل هذه التصرفات متروكة للفضاء المحيط بالقاعة وهي على الأقل في هذا الفاصل القصير من الزمان جزيرة من السلام والصمت. أضف لكل هذا أننا نحيد داخلها كل الأوجاع والمخوف التي تتلاطم داخل أذهاننا بحكم تسليط كل اهتمامنا على ما يجري فوق الريح. نحن إذن في مكان تجمعت فيه كل شروط التمتع بالأمان والهدوء أهم ما نطلب من عالم نعيش فيه على أعصابنا من لحظة دخوله إلى لحظة الخروج منه.

لنقل إن قاعات المسارح ملاجئ نهرب إليها ننجو بأنفسنا من مخالب العالم نرتاح فيها من همومه ولو لبضع ساعات.. أما ما يعرض فيها من قصص فمجرد معاذير لوجود مثل هذه الأماكن الضرورية لمواصلة تحلل ما لا يحتمل.

يبقى انه من الممكن إضافة بعض المتعة لمتعة الاختفاء ساعات معدودة عن أنظار الشياطين والألوهة.

هذه الليلة يزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عرضا في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون والموضوع عنصر قار في أغلب قصص البشر: الانتظار.

النيكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات أدوارد هوبر، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدد شيئا أو أحدا.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملا أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب مئى السيد فودو إيلاعكما أنه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكل تأكيد. نفس الديكور لكن الليلة الموالية.
- يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.
- طلب مئى السيد فودو إيلاعكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.
- ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنى بالأمر.
- يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:
- طلب مئى السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.
- يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.
- لنبتعد عن هذا المكان.
- لا نستطيع.
- لماذا؟
- لأننا سنضطر للرجوع غدا.
- لنفعل ماذا؟
- انتظر فودو.
- كلّ الزمان توقف عند نفس المشهد.
- على الركح يواصل راعي الماعز الصغير ترديد نفس الجملة للرهيبة. طلب مئى السيد فودو إيلاعكما أنه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكل تأكيد.
- أتى أم لم يأتي، اهتمامي كله منصب على النظرة كم بودي أن أعرف ماذا يدور في أذهانهم.
- أغلبهم يعرفون أن المطلوب حضوره لن يحضر ومع ذلك فأعناقهم مشرّبة نحو الركح كأنهم ينتظرون معجزة تكذب ما يعرفون أصدق المعرفة.
- المساكين، كيف لا تحرك فيهم هذه المسرحية أعمق آمالهم ومخاوفهم كلهم في انتظار الترقية، أو تحسن الطقس، أو الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو قدوم الحبيب، أو قدوم المخلص... كلهم في انتظار شيء أو أحد يغير حياتهم ويعيد لهم بعض فرحة الحياة التي يفقدونها أغلب زمن الرحلة.
- يتكفّف الصمت داخل القاعة كأن التوتّر بلغ قُصاه. لم يعد الممثل الأول يتحمّل انتظارا عبيثا يدفعه شيئا فشيئا نحو الجنون:
- قلت لك إننا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوسا.
- يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب:
- وأين كنا البارحة حسب رأيك؟
- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.
- (بلهجة التحذري) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟

- ماذا فعلنا؟ لا نضيق وقتنا في حُطْب فارغة، لنفعل شيئاً ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كل يوم يحتاجوننا. ولو أنه من غير الصحيح أنهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمة أحسن منا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجه إلى البشرية جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللحظة، البشرية هي نحن. لنغتتم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمكّل بكرامة ولو لمرة واحدة الجنس الذي حُشّرنا فيه.

هذا الجنس الذي حُشّرنا فيه! هل يقدّر الرجلُ خطورة هذه المقولة؟ الجنس الذي حُشّرنا فيه! إنن الشكل الأسمى غلاف! من حُشّرنا فيه، لأيّ غرض، وما شكنا "الحقيقي" إنن؟

نفس الصمت في القاعة والنظارة منخرطون أكثر من أي وقت في لعبة الانتظار. كلهم كهول بشوارب ونهود. لا يصدق الأمر. أنت أمام أطفال في العشرين وأطفال في الخمسين وحتى أمام أطفال عاشوا "ثمانين حولاً لا أباً لك ولم يسأمو". كلهم يواصلون في هذه القاعة الاستماع للقصص التي كانت تروىها لهم أم أو جدة وحتى أب مرهق. هم لم يتوهوا منذ تلك الليالي السعيدة على تجديد متعة الاستماع لحكاية تمتص سحرها أعماق مخاوفهم وتتلاعب في فضاء خيالهم بأعماق رغباتهم المكبوتة.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

ترى من هذا الذي لم يأت لحدّ الآن ولماذا هو بمثل هذه الأهمية؟ ما الذي نتنتظر منه؟ أن يكون هو صاحب الوصفة السعدية الأبدية التي لا عتق فيها؟ أن يأتينا أخيراً بالترياق الواقي من الأوجاع ومن الموت؟ ربما أن يكون حامل الظرف المختوم بالشمع الأحمر ودخله هدف المهمة التي بعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟

يصرخ الممثل الأول:

- فلنذهب في حال سيبلنا.

- نعم فلنذهب.

- وإذا جاء؟

- سنكون قد نجونا.

كم من معابد مسارح تنوح بأجمل الأناشيد على مخلص حضر فعلاً بعد طول الترقب لكنه صُلب على خشبة ففرط الإنسان في فرصة ثمينة أخرى!... كم من معابد مسارح تتغنى بمخلص سيأتي دون أننى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الأدمي!.. لكن كم من مرة جاء المخلص قام بواجبه ثم رحل ولا أحد انتبه لمجيئه أو لرحيله!

يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا نفعل هنا؟ مجدداً السؤال الذي يلاحقنا ويلحقنا مهما افعلنا تجاهله.

- طلب منّي السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرءة المقبلة سأتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتى يتلقَى واحدة منها، أو حتى بيضة إذا كررَها ثانية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة مردداً: طلب مني السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكل تأكيد.

يقول الألمي لنفسه أو لتوعمه في الشقاء:

- ماذا لو تخليينا عنه؟

- قد يعاقبنا.

ينظر إلى الشجرة مضيفاً الشجرة وحدها الحيّة.

- نشق أنفسنا. لديك حيل؟

- حزام البنطلون.

- إبه قصير.

- تجذيني من القدمين.

- وأنا من يجذيني؟

أصبح صمت النظارة هو المثير لأعصابي.

ما الذي يدور بخلدكم؟ كيف يعيدون صياغة القصة في خيالهم؟ قد يكون للبعض قراءات تقرب من صياغتي أنا لهذه المسرحية ولكل ما شاهدت وعشت من مسرحيات والمنهجية الثابتة قلب كل كوميديا إلى تراجيديا وكل تراجيديا إلى كوميديا.

في فضاء خيالي ينظر الممثل الأول إلى ساعته غاضباً: يا ابن الكلب. لا أحب من لا يحترم المواعيد. إذا لم تنقصلت حالاً فستأخذ ضدك الإجراءات الضرورية.

تنظلي الحيلة على فودو يفهم أنه خسر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين كله ضحك وممازحة:

- هلو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقلت الزحمة!

يتسمر الممثل الأول. يفتح الثاني فمه ثم يخلقه. ينفجران بالضحك.

- فودو زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المققوس.

- يا رجل، إنها زوجتك أنت بطنها المنتفخ وصدرها الضامر وشعرها المنفوش. ويحك خرفت إلى هذا الحد، فلم تُعد تعرف حتى زوجتك.

تقول كلام لا يليق بمقام المؤلف والنظارة وخطورة الموضوع. طيب لنحاول الارتقاء إلى مستوى كل هذا.

ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مرددا: طلب مئى السيد فودو، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبهيا لزحف ظلام غير معهود السواد.

هنا يدوي صوت لمجهول: طلبت مئى الشمس أن أبلغكما أنها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكل تأكيد،

(ضحكة شلمنة)

فقط للتذكير بأن أهم ما في الوجود يأتي دوما في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الاممي يتمتع مجانا وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أفتعتُ معقلى بالنعمة التي يتمتع بها وأنا أردد عليه قول الحكيم: "الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى". لا أحد منهم رأى يوما التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلُّ همَّه واهتمامه منصَّبَن على ما لا يملك من توافه الأمور.

إمكانية أخرى: راعي الماعز الصغير هو فودو. كان يدخل كل مرة بالخبر يحذوه أمل عارم أن يتعرّف عليه أخيرا النظرة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزجون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجتلى.

آخر عرض: فودو هو عزرائيل. تصرخ في هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق. صحيح إن لم يبق إلا أن نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نُسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيطان ما يكفي من الكفاءات في هذا الميدان الحساس. نعم، من هو فودو يا صامويل يا ابن بكت وإلا لا نلّم إلا نفسك.

يأتي الرد الشهير: لو كنتُ أعلم لَمَا بخلتُ عليكم بالردّ.

كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلفُ خَلق كائنين ورطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف أو يدعى أنه لا يعرف؟

تنتهي المسرحية.

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصول المنقذ من الانتظار كأن على رؤوسهم الطير والكل مقتنع في قرارة نفسه أنه أخلف موعدا بالغ الخطورة لأنه قصر في شيء ما لا يعرفه؟

هنا أسلرُح إلى باب الخروج والبسمة الهادئة تشع بنور الثقة مخاطبا المساكين: أنا أعرف من هو فودو...أوصاني أن أقول لكم لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلنسا تانهين إلا في أو هلمنا. أما المهمة التي جننا من أجلها والتي انتظرتم عينا تأكيد ما تعرفون فهي "ماشية"، بل وعلى أحسن ما يرام.

**

في أكثر المواضيع حساسية بخصوصهم

حسب مفكر يدعى سلن سيمون ينقسم الأدميون إلى قسمين: الذين يؤدي اختلافهم-أو عدم ظهورهم عبر التاريخ -إلى كارثة عظمى والذين يتواصل العالم بكل مصائبه وجدوا لهم لم يوجدوا.

تصوّر حالة العالم، لو أخطأ القدر فزالت يده ومحت من الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعوان النظافة البلدية لا يبقى فيه إلا المخبرين والجلادين والإعلاميين الماجورين والسياسيين الفاسدين.

يمكنك -إن كنت في حلة متقدمة من سوء المزاج والنية كما هو حالي وأنا أكتب هذه لسطور- أن تصنفهم إلى قسمين: الأدميون الذين تركوا بعد موتهم امبراطوريات سياسية وامبراطوريات مالية وامبراطوريات فكرية وامبراطوريات فنية والذين لم يتركوا إلا بعض الأطنان من البراز -تصلح على الأقل سمدا-والآلاف اللترات من البول وستين إلى سبعين كيلو غرام من اللحم والشحم توفر لحسن الحظ غذاء مقيدا للذباب الأزرق ولأجناس متعددة من الدود والجراثيم.

في معارضة جريئة لتصنيف سان سيمون سأقول أن التقسيم " الحقيقي" للأدميين هو بين الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا والذين يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء. والآن وقد استنفدنا سوء مزاج يوم حافل بالمشكل مع الأدميين يمكننا العودة للحديث بهدوء عن أولى وأهمية الإشكاليات بالنسبة لكل واحد منهم : قيمته بالنسبة للآخرين، لنفسه ولم لا للعالم كله.

أنصت لجلّ صراخهم أطفالا وكهولا ، ذكورا وإناثا، فقراء وأغنياء ، حكاما ومحكومين، فلاسفة وأميين، الخ.

ثمة في صراخهم هذا دوما ركن قار هو شكل من التفاضل أي ادعاء قيمة أعلى من قيمة الأدمي الأخر.

هكذا تعبر العالم وأنت تسمع المرتلين طوال الطريق يتراشقون بأفضلية عرقهم ودينهم وحضارتهم ومجتمعهم ووطنهم وعائلاتهم وذواتهم على بقية المرتلين. فواحد يصرخ أنه من " شعب الله المختار" والآخر أنه من " خير أمة أخرجت للناس" وثالث أنه من " قوم كلّ نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما"... الخ.

لا غرابة أن تفيض آدابهم بقصص الصراع على القيمة أو أن تخصص أمة بأكملها ركنا قارا من أنبها لشعر الهجاء والفخر.

لا غرابة أيضا أن تحوم جلّ معاركهم في فضائي الفكر والخيل حول أحق الألهة بالربوبية ومن أصدق الأتبياء وأحسن نظام للحكم وما هي الايدولوجيا التي لا يأتيها الباطل من خلفها وأمامها.

تراهم حتى وهم أباطرة وملوك وأمراء واثرياء وعلماء يبحثون دون توقف عن مزيد من رفع قيمتهم بتوسيع ما يتوفرون عليه من سلطة، من ثراء، من سمعة، من شعبية وشعارهم شعار النار وهي تلتهم كل ما يعترض طريقها: هل من مزيد !

*

السؤال هل ثمة وراء هاجس التأكيد على قيمتهم هاجس أقوى يسكن أعمق طبقات الذات وهو التأكيد من أن لهم فعلا قيمة ؟ هل تعاني الذات من شك مؤلم بخصوص ما تساوي حقا.

كيف نجيب على مثل هذا السؤال ؟ نحن لا نتفق على فهم موحد لقيمة الأشياء ولا على أدوات قياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الأدمي أو بآلية أدوات نقيسها؟ لنحاول ...

تصوّر أنك تنظر للأميين المتزاحمين حولك في الساحات العمومية بعيني عالم الجيولوجيا المنخرط في زمن يحسب بمئات الملايين من السنين.

أغض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون مثل حبة رمل في صحراء مترامية الأطراف.

وسّع مجال مخيلتك لتستحضر كم من أجناس حية تتابعت على هذا الكوكب طيلة الأربعمائة مليون سنة المنصرمة وكيف تبحرت لم تترك إلا بعض لرميم الذي تقاخر به بعض متاحفنا. حاول الآن تخيل كم عاش من الأميين على سطحه منذ أكثر من ثلاثمائة ألف سنة أي العمر المقترض حاليا للبشرية.

والآن اقتح عينيك وأعد التمعن في هؤلاء الأدميين الذين يتراكضون من حولك وستبتلور أول فكرة موضوعية عن قيمتهم.

بديهى أنه بمقاييس طول الزمان وشساعة المكان والكم المريع من الأجناس والكائنات الحية الأدمية وغير الأدمية التي تتابعت وستتابع على سطح حبة الرمل التي نسكن، يجوز الحكم بأنه ليس للأميين أدنى قيمة.

تجربة ذهنية ثانية للتمعن في المفهوم.

تصوّر الآن أنك تختار عيّنة من العقلاء والحمقى، وعينة أخرى من الذين يملكون أموال قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسالهم، وعينة ثلثة من القديسين وعتاة المجرمين، أنك تضع العينات الثلاث من البشر في أكثر المختبرات العلمية تقدما ومؤشرات المقارنة ليست نوعية ملابسهم وثمان الساعات التي يحملون وإنما طبيعة أعضائهم وحالة الأنسجة والخلايا التي تكونها ناهيك عن كيفية عمل أدمعتهم.

سنكتشف أنهم كلهم يمتلكون نفس الأعضاء العجيبة، نفس الخصلص المذهلة ونفس القدرات المثيرة لدهشة كبير العلماء أيا كان ثمن الملابس والساعات. أي ردّ تتوقع من الباحثين إن سألتهم هل للتديسين والأثرياء والعلاء قيمة أكبر من قيمة المجرمين والمعتمين والأغبياء؟

تصور ردّ مجوهراتي توضع أمامه زمردتان واحدة لُقت في خرقه قذرة وأخرى لا تختلف عنها في شيء لكنها لُقت في ورق ملون... ويسأل أي زمردة أعلى قيمة؟ معنى هذا أنك بمقياس ما يولد به كل البشر من خصلص وصفات وطاقات لست أرفع شئنا من المتشرد المغمور الملقى على الرصيف ولست أقل شأننا من أي سلطان جالس على عرشه أي أنه لكل الأسميين نفس القيمة. التجربة الذهنية الأخيرة.

أنت أكبر عالم في ميدان المورثات التي تشكل وصفا صنع كل الكائنات ومنها البشر. بقدر ما تتوغل في دراسة هذه المكامن لأغرب الأسرار بقدر ما تستشعر الذكاء لصامت قل العبقريّة المخفية التي صنعت الأسميين وتدبرت أمرها لكي يكون لكل فرد منهم ما يميزه عن بقية الأفراد. حتى التوائم الذين ولدوا من نفس البويضة ومن نفس الرحم يتباينون في أكثر من خاصية.

أنت الآن في متحف المتاحف تفغر فك دهشة أملم ما لا يحصى ولا يعدّ من لوحات مبهرة تتبارى جمالا وطرافة إذ لا واحدة تشبه أخرى والرسام المخفي وهو أعظم الفنانين وضع وجهها مختلفا على مليارات الوجوه التي يرسم .

إن...ولأن كل آدمي يحمل بصمات قوة عجيبة وضعت فيه كل عبقريتها...ولأن هذه القوة الخلاقة جعلته فريدا لا فقط في ملامحه وإنما في ذاته التي لا تشبه أي ذات أخرى، فالاستنتاج المنطقي الوحيد أنه/لكل الأسميين قيمة ليس فوقها قيمة.

واعجباها ! لا يكفي أن بنو سفر كانتات يتعائش داخلها النار والماء فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار، ها هم الآن كائنات لها نفس القيمة وليس لها أدنى قيمة وقيمتها في الكون لا تصاهاها قيمة !؟

**

الكتاب الخامس الملحمة

لا تشيخوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في
الفوضى ومهما حدث وأصلوا المشي وسط ضجيج
البشر وصخب الحياة.

كونفوشيوس

مقدمة الكتاب الخامس

يصل الطريق يوماً إلى أرض سبتا حاجاً لغير رجلٍ علمَ البشر أن العف ليس القوة بل للضعف في حالة هستيريا... وهُله آدمي مُصاب بتلك الهستيريا. أستوقف بمنتهى الأدب أحد المارة.

- سيدي أرجو أنني لست في انطلاقة مظاهر؟ أنا مجرد زائر غريب مررتُ من هنا بالصدفة. لا أريد نفسي محشوراً في اضطرابات طائفية أخرى.

يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهر، أنت أمام محطة قطارات مومباي وهؤلاء مسافرو يوم عادي، ماذا لو جئت في الأعياد؟

تعود بي الذاكرة لدهشة طفل في الخامسة أو السادسة ذلك اليوم المشهود الذي أخذ فيه "با" في أول زيارة للمدينة الكبرى. يومها كان شغله الشاغل فهم ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟

نعم هل ثمة سؤال أهم من هذا السؤال أيا كان زمان ومكان طرحه : ماذا نفعل كلنا في هذا العلم ؟

هذا الصباح، المزاج ليس على أحسن ما يرام ومن ثمة التوجه لتصورات ليست بالأحسن للمعنويات.

كأنني أسمع في فضاء خيالي موظفي مركز شحن سماوي ما يصرخان في بعضهم البعض:

- كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيهم إلى تحت؟

- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمني هذا الغبي أد3100-2154879365 الذي يقاوم ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش فيه حياة كاملة. قد تضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه.

تقول يا رجل العن الشيطان، ماذا لو كان العكس هو منطلق قصة القصص؟

ليكن. الحوار "الحقيقي" إذن بين موظفين فاسدين:

- تُرى كم من رشاي وتدخلات وتراخيص زائفة في هذه لشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي أد3100-2154879365 تأخر وسيفوته موعده القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

سواءً ثوّه طوعاً أو كرهاً، الثابت أن عدد الداخلين هذا العالم بدأ يفوق طاقة استيعابه والدليل أن ثلث الأميين هذه الأيام لا يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون الشباع بارهلبهم وبمظاهراتهم وثوراتهم التي لا تتوقف.

فرضيتان بخصوص كثر نهم أرفض الخيار بينهما داهمتني موجة من الجبن.
الأولى مرتبطة بواحد من أهم قوانين تشغيل هذا العالم: الرهان على الأعداد الكبرى.
كما لا بدّ من مئات ملايين النجوم لتشكل حفنة من الكواكب القادرة على توفير الشروط
الدقيقة لظهور الحياة، كما لا بدّ من غريلة أطنان من التراب للحصول على كيلوغرام
من التبر كما لا بدّ من مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في
إخصاب بويضة... كذلك لا منا ص من عشرات الملايين من البشر ليخرج من بينهم
موسيقي اسمه باخ و شاعر اسمه إيسا و آدمي أصبح إنسانا اسمه ابن عربي أو الحلاج.
بصراحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلا لأنني لست متأكدًا في أية خاتمة يصنفي العالم
وهل أنا من التبر أم من التراب. ثم الست المؤمن بآن لكل الأدميين نفس قيمة الزمردة
لقت في خرق فنرة أم وضعت داخل صندوق من فاخر الخشب؟
الفرضية الثانية التي سادف عنها لأنها في صالحه وصالح كل قرائي والبشر أجمعين
هي الفائلة بأن المهمة التي كلف بها الأدمي من قبل قوة مجهولة (أو كلف بها نفسه
مفتعلا أن هناك قوة مستقلة عنه كلفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهد بها آدمي
واحد.

لذلك كلن من الضروري أن يخلق بأعددا كبيرة في كل الجيل وأن تتابع الأجيال كما
تجدد أفواج عمال المنلجم، و القدامى يحالون إلى التقاعد لصالح أجسد غضة قادرة على
مواصلة العمل الشاق.

طيب، لكن ما هذه المهمة التي تحتاج لجهد كل هذه الأجيال؟ ما قصة هؤلاء البشر التي
لا مجال لفهم قصتي نون معرفتها .

أوف، خرجت من الزحمة المرعية . يمكنني التوقف لمسح عريقي. أعتنم الفرصة ورجل
واقف بحذوي ينظر مبتسما إلى هذا الأجنبي التائه.

- عفوا، يا سيدي هل تسمح لي بسؤال؟ في بلانا نحبي الآخر عن بعد ملوحين بيدينا
ليبتين له أننا لا نحمل سلاحا. عن قرب نصافحه نوكد ونتأكد أنه ليس بين الأصابع
الخمسة خنجر صغير... ثم نقرئه السلام. إلام ترمز تحيكتكم أنتم؟ هل هناك مغزى لضم
البيدين أمام الوجه وما معنى "نماستي"؟

- معناها نحبي المقدس الذي فيك.

يضم الرجل راحتيه اتسعت ابتسامة ثم يخطي داخل الزحمة.

**

في تقادم قصصنا عن هدف الرحلة وضرورة التجديد فيها

لاجدوى من اعتراض طريق أحد من المارة لتسألته عن سبب وجوده في هذا العالم وماذا يفعل فيه. من الأحسن أيضا ألا ترفع صوتك واصبعك في وجهه تذكره أن عندنا كبار الاخصائيين ينطقون كل المتسترين على الأسرار التي تهتم الأمن القومي البشري كله. قد يطلب بوليس النجدة أو سيلة اسعاف لحملك لأقرب مستشفى الأمراض العقلية. في كل الحالات هو كبقية المارة لا يعرف فعلا لماذا هو موجود وماذا يفعل في هذا العالم وإلا لكان السر على كل الالسن منذ زمن بعيد والمعروف عن الأدميين -الاناث تحديدا كما يدعى الذكور- استحالة حفاظهم طويلا على أي سر خاصة على مثل هذا السر. لا يبقى -حتى لا نضطر إلى اللجوء للطول القصوى مثل الشكوى بهم جميعا لـ"ما" - غير مراجعة ما كدسوا على مر العصور في المكتبات بخصوص الموضوع...والنتيجة دوما التي توصل إليها الرازي وكم من حكيم قبله :

لم نستغف من بحتنا طول عمرنا / سوى أن جمعنا قليل وقالوا

هل سأجد ضالتي في بيع اسمه الذكاء الاصطناعي ؟ ألا يقال عنه إنه مثل كاهنة معبد لفت الأريقي قادر على الرد على أي سؤال.

أتوجه إليه خائف القلب والذهن على أقصى درجات الانتباه: يا خزان كل معارف الأدميين منذ وجدوا، رد على طلاس إيليا لأعرف كيف أتصرف في بقية رحلتي.

لا تمضي ثواني على نقر السؤال إلا وتتدافع الجمل وراء الجمل في سرعة تعطي الانطباع ان هذه الآلة المتطورة إلى أبعد الحدود تعرف الإجابة الصحيحة ومن ثمة عدم ترددها لحظة واحدة.

يا لخيبة الأمل ! لا شيء غير آخر تصورات علماء الفلك والجيولوجيا والبيولوجيا عن انفجار أعظم وتشكل مجرات وشموس وضربة حظ كوكب عجيب وقر كل شروط ظهور الحياة وولادة ما لا يحصى ولا يعد من الاجناس على سطحه تعاقبت طوال مئات الملايين من السنين انتهت بظهور هذا الجنس الذي حشرنا فيه .

يا غبي ما اطلبه منك ليس أن تقول لي كيف حصل كل ما حصل، لكن لماذا؟

أه يجب علي أن أسأل كهنة المعابد الأخرى.

كم أضعفت من وقت في استكشاف ما جاد به خيالهم والمحصلة أنك دوما أمام صنف

آخر من القيل والقل والأسرار مصررة على تواصل غموضها.

ذات يوم يتغير منهج البحث بصفة جذرية.

كفى من هذه الاسرار اللعينة. لماذا لا أختار لها من الأجوبة ما يرضيني؟ أليس هذا ما فعله البشر منذ انطلق رحلتهم ؟

لماذا لا أولف قصة القصص والطموح ليس الخروج على الناس بالكشف عن كل الأسرار وإنما بلورة رؤيا تعينني على مواصلة الطريق.
لم لا اطلب وأنا الآن في أرضه بعض النصائح من الشاعر الذي أسكن أمة كامله أسطورة هو صاحبها !
لكن، هل سديجرني اهتمامه وقد انسحب من العالم الحسي بعد أن أكمل خلق عالمه غير مبال بفيالق النمل تتسلق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين والمنخرين؟
داخل فضاء خيالي وقد استنفرت كل الطاقات، ينتبه فالميكانيكي لوجودي. يبادرني باتزعاج لا يخفيه.
- ماذا تريد؟

أزاه يا سيّتا، ربّ عشق طفل تهجّي في حيك أجمل روايات القصة المقدّسة، تدخّلي، أريد نصائحه ولم لا بركاته!

أهمس بموضوع الزيارة بين رجاء واستحياء.
كما الذات بحاجة إلى بيت في الفضاء الحسي يوفر لها الأمان والراحة ومتطلبات الجسد الأخرى، هي بحاجة إلى بيت في الفضاء الفكري -الخيالي يوفر للفكر والروح ضرورياتهما. لذلك خلقت الأدمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسي لتلبية حاجياتها المادية الحسية وخلقت لتلبية حاجيتها الفكرية والروحية مهندسين معماريين في الفضاء الفكري-الخيالي مثلك.

- ثم ...

- كما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقّف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي-الخيالي، لا طاقة للأدمي على سكن نفس البناءات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتهاك دعلماتها أمام مطرقة الزمان، أو لتغيّر الذوق العام وارتفاع مقاييس الجودة عند المتساكنين، عادة لحبّ الأدميين استكشافات وخلق الجديد.

- ثمة بنايات للروح أثبتت متانتها عبر الزمان فلماذا لا نتكفي بها؟

جلّ ما يوجد في الفضاء الفكري من روى لتفسير وجودنا وتبرير معاناتنا لا يقبل به عقلي ولا يرضى به فؤادي لا لشيء إلا لشراسة أصحابها في اضطهاد من لا يصدقهم.
- انتبه لخطورة ما تقول.

- لا أدلّ على ضعف رؤيا من كونها لا تحفظ بقاءها إلا بالقضاء والجلادين. لذلك يجب العودة لبناء روى أقوى على أسس متينة لتندوم أطول وقت ممكن.

- (بنبرة فيها بعض التهكم) ومن هذه الأسس؟

- الانطلاق من كون القصص المؤسسة أدوات فكرية نصنعها من داخلنا لإعطاء هذا العالم شكلا مؤقتا لا يديل عنه سوى القلق والفوضى.

- وماذا أيضا؟

- الاعتراف بأنه ليس لنا لمثل هذا العمل إلا تصورات يصنعها ذهن البشري، والأمر سيتواصل إلى نهاية الملحمة البشرية.

- بعض الوضوح .

- وأن التقدّم في تصوراتنا هذه مجرد استبدال تصورات ساذجة بلأخرى أكثر تعقيدا، كما الأمر عندما تطور تقنياتنا من القدرة على بناء الأكوخ إلى القدرة على تشييد ناطحات السحاب.

- أية مقاييس للتأكد من جودة البناءات؟

- الأول ألا يتعسف الفؤاد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل بحاجيات الفؤاد.

- والمقياس الأخير؟

- أحسنُ الأساطير المؤيِّسة التي لا تزرع الألغام على طريق الأجيال القادمة... التي تسهل الحياة والموت للجميع... التي لا تخلق كفارا يجب قتالهم وان استحل الأمر تحملهم على مضض... أو شعبا مختارا يحق له قتل الآخرين والاستيلاء على أراضيهم... أو مبنوذين يتهمون باطلا بارتكاب موبقات في حياة سابقة... أو مستبدا في السماء يشرع للمستبذ الذي على الأرض... لحظة صمت.

- أتبحث أنت أيضا عن رؤيا تتجسد فيها أصوب الخيارات المتجزرة في الحقيقة المطلقة؟
- لا وجود لشيء مثل هذا... الحقيقة إما نسبية كما هو الحال في الدين إذ هي ما يجمع المؤمنون على أنها الحقيقة وهذا موقف لا يلزمهم إلا هم... وإما مؤقتة قابلة للمراجعة كما هو الحال في العلم إذ هي ما يتوافق أغلبية الباحثين على اعتبارها مرحليا الرأي الصواب في هذه المسألة أو تلك.

- ما الذي تريده مني وقرارك مأخوذ؟

- بركتك وتمنيّتك لي بالتوفيق في مشروع بناء بيت روعي لاستعمالي لاشخصي لكنه مفتوح على الرحب والسعة لأي ضيف.

يلقي عليّ الرجل نظرة طويلة كأنه يريد اختباري.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

مداعبة بمداعبة.

- من أمي. هي الوحيدة التي وثقت بي دوما وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقني فالميكى بنظرة فيها فضول مغلج ثم ترسم على شاشة ذهن ابتمسامة عريضة.

- هذا واقع جلّه مصنوع من قصص البشر فأخلق له القصة التي تريد.

يتلاشى للشبح الذي صنعته الذات لتتفحص عبر فكره وخياله ما يتبلور بصعوبة داخل فكرها وخيالها . يعود الحالم المستيقظ إلى الحالة التي نسميها الواقع.

القصة التي أريد ! طبعاً الأجمل، الأغرب، الأكثر احتراما لكل الموجود.*

الرواية لأخرى لاطلاق القصة التي تولدت عنها كل القصص

لا أحد يدري متى ولماذا بدأت رحلة البشرية وكل معطياتنا عن الماضي من مصدر واحد اسمه التاريخ. المشكلة الكبرى أن هذا التاريخ بما هو صورتنا "الموضوعية" للماضي... مضمّن في المستقبل.

كم اكتشافات سنقلب رأسا على عقب تصوراتنا الأكثر مئانة لأصل الأُميين وتغيّرها المتواصل مرتبط بالعثور صدفة على جمجمة هنا وعظم فكّ هناك. ما الذي بين أيدينا من مصادر أخرى؟ الأساطير طبعاً. لم لا نعتد عليها رغم ما أصاب سمعتها على مرّ القرون؟

أليست معالجة العقل الجماعي لمفاهيم بالغة التعقيد وهو يضعها في قالب شعري مجازي ليسهل وصولها إلى كل العقول والقلوب؟ أليست حاملة دوماً لحس، لفكرة، لفرضية؟ أهم ما فيها بالنسبة لمشروعي أنها تحتوي على مواد يمكن استغلالها، كما كان الآباء والأجداد يفعلون في الفضاء الحسّي وهم يعيدون استعمال حجر المعابد الوثنية لبناء الكنائس والجوامع.

داخل ملفاتي الكثير من هذه الأساطير وكلها تتبارى طرافة. أي واحدة انطلق منها؟ طبعاً التي تفرعت عنها كل القصص التي نشأت عليها. إنها أسطورة آدم وحواء وأجمل اخراج لها هذه القصيدة.

“وقيلها كنا في جنة عدن (أندريه شديد)

فضاء أتقده الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء

وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وعُد بلا خطر

فجأة طُرِدنا من الحديقة؟

قف. طُرِدنا من الحديقة!

نعم هذا ما تدعيه الرواية الشائعة للأسطورة حيث نقول أن ثعباناً خبيثاً زَين لآدم وحواء أكل تفاحة من شجرة في الجنة فعقبيهما الله بالطرد من حديقته هذه لأنه لا يحب من يظلف ثمار أشجاره بدون رخصة.

بصراحة كنت أفضل أن رواة هذه القصة وجدوا سبباً أحسن. مثلاً التدخين في المراحيض. من لا يتفهم شرعية العقوبة والتدخين بغض النظر عن اضطراره بصحة الشقيين كان قادراً على اضرام حريق في الجنة ربما كان سيؤدي لأضرار فادحة فيها.

في كل الحالات ومهما كانت الأسباب فإنني أرفض رفضاً قاطعاً أن تتطلق رحلتنا جميعاً بمثل هذه البداية المهينة وذلك استناداً على حجج دامغة سيفسق لها كل أنصاري. أولاً السردية تعدّ صارخ على كرامة الخالق وهي تصوره كمستبدّ بخيل حقوق ظالم ينكل بمخلوقاته بسبب معصية تافهة. هل ثمة ما أكثر ظلماً من طرنا من الجنة بسبب تفاعلة لا تسوى أكثر من قرش وربما حتى أقلّ بسعر التفاح هذه الأيام. السردية أيضاً تعدّ على كرامة آدم عندما تجعل منه كائننا بانسا قبل بلرل في المؤخرة والطرده والنفي ولم يردّ الفعل مثلاً باقتلاع الشجرة في لحظة غضب ورميها في وجه صاحب الحديقة وهو ما كنت سأفعله بالتأكيد لو كنت مكانه. أخيراً وليس آخراً هي إهانة للعالم عندما تجعل منه منفي لمرتكبي المخالفات حتى البسيطة منها.

كم غريب قبول البشر بالعيش والموت داخل أساطير تجعل منهم حيوانات خلقتهم الطبيعة صدفة أو دعى خلقتها الهة لا لشيء إلا ليعينوها! ... عجبني من تشبيههم بقصص تغيرهم بأصولهم ... تستمّ رحلتهم بعقدة نذب لم يرتكبوه ... تجعلهم يعبرون العالم على مخاوف لا سند لها ولا داعي... ناهيك عن التي تتهمهم بارتكاب جرائم في حياة ماضية تبرر ما يتعرضون له من ظلم في هذه الحياة .

مع كامل احترامي للمهندسين الخياليين- الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم لبيت روجي ستسكنه الملايين طوال قرون، أقول لهم أنهم لم يوقفوا كثيراً في مهمتهم حتى لا أقول في رسالتهم.

لكن لماذا نلومهم؟ ربما لهم أعداء . هم لم يكونوا أقلّ ذكاء منا ونوايا طيبة لتسهيل رحلة بني سفر . إذن لماذا ارتكبوا خطأ مهيناً بمثل هذه الخطورة؟ ليسمح لي القارئ هنا بفرضية بخصوص نشأة هذه السردية .

المعروف أن وراء الكثير من الأساطير أحداثاً صحيحة وقع تغليفها بما تيسر من الخيال وضاعت ملامحها بتقدم الزمان ثم سُوّقت للأجيال المتتابعة على أنها حقائق لا يأتيها الباطل من خلفها ومن امامها.

أية أحداث قد تكون وأدت سردية طرد آدم من الجنة؟ أجيل البصر حولي في هذه الصحراء التي أتدبر أمري للعودة إليها دورياً إن لم يكن بالجسد فبالخيال والحنين .

كانت "ما" تبغضها بغضاً شديداً لا فقط لأنها نفيت فيها مدّة بغير ارادتها وإنما خاصة لأنها كانت تقفد فيها طيب مناخ قريتها البعيدة في شمال البلاد وخضرتها طوال لسنة ومياهاها العذبة التي تخرج بسهولة من أبار سهلة الحفر.

ما كانت تجهله المرأة الطيبة أن الأراضي القاحلة التي نُفيت فيها كانت قبل عشرة آلاف سنة أرضاً خصبة تشقها أنهار جبلة وفي مراعيها الخضراء طيلة السنة كانت ترح الغزلان والزرافات والغيلة . ذلك لأن الصحراء مثل قلب ينبض من قبض الی ارتقاء

ومن ارتخاء إلى قبض أي من خصوبة وأمطار غزيرة إلى قحط وجفاف مدمر والسبب
تغير المناخ من النقيض إلى النقيض كل عشرين ألف سنة كما يقول أهل الاختصاص.
لنتخيل -ولو بشيء من المبالغة في تجميل الصورة- كم كان عيش الأوائل سهلا وحتى
ممتعا في فترة الصحراء الخضراء وهم يتنقلون بكامل الحرية داخل ارض غنية بكل
أنواع الثمار وصيد متوفر في كل مكان والماء الزلال تحت الطلب أينما امتد البصر.
ها قد أصبحت تدريجيا مراعيهم الخضراء التي كانت تسيل فيها الأنهار أرضا قاحلة.
ها قد تحولت الجنة إلى جحيم والشمس تحرق جلودهم والعطش يلصق الألسنة بالحلق
ولا شيء يؤكل إلا بعض الجردان الممتوتة هي الأخرى جوعا وعطشا.
لنتصورهم حول نار باهتة والمعنويات كنتك التي نعيش أيام الحداد. ينطلق شيخ القبيلة
واصفا للأطفال كم كانت هذه الأراضي القاحلة حديقة الآباء والأجداد وكم كان فيها من
أشجار ومن أعشاب ومن ثمار ومن انهار ومن شلالات ومن حيوانات تتبارى أناقة
وجمالا. مؤكد أنه كان هناك في آخر الحلقة طفل كان أنكى الأطفال وأكثرهم فضولا
وأسئلة مرهفة لكل من حوله... وأنه كان أكثر الأطفال انتباهها لكلام الشيخ.
كأنني به يتساءل: ما الذي حدث وسبب الكارثة التي يصفها العجوز؟ لا شك أن الأوائل
اغضبوا اقوى الآلهة فسلط عليهم أفزع عقاب ألا وهو طردهم من أراضي الخضرة
والوفرة والمياه العذبة لينقيهم في هذه الفيافي الموحشة.
لتتابع تفكيره إلى الآخر. ترى ما الجريمة التي ارتكبها الأوائل؟ أه لا بد أنهم سرقوا شيئا
لرب الأرباب والربيات؟ لكن ماذا؟ طبعاً أشهى ما في حدائقه، التفاح! التفاح!
ربما واصل تفكيره للسؤال الذي سينطلق منه السحر والدين والعلم: كيف يمكن العودة
إلى الجنة التي طردنا منها؟ هل أسرع طريق استرضاء رب الأرباب والربيات حتى لا
يواصل غضبه علينا.
قد لا تكون الأمور حدثت هكذا في التفاصيل، لكن اغلب ما نعيش عليه من أساطير دينية
وعلمانية لم تفرك إلا بهذه المنهجية: حية من الحقيقية تبنى فوقها قبة من الخيال.
أخشى ما أخشاه من نظريتي أن تصدق أيضا في المستقبل. ألسنا في هذا العصر على
حافة كارثة مناخية أخرى؟
تصوروا حفيدانا حول النار بعد ألف سنة من الآن يستمعن لشيخة القبيلة في ركن من
أركان مدينة مهجورة تحدثهن عن الجنة التي عاشت فيها الأمهات والجيدات.
أه يا بناتي حقا كانت عصورا ذهبية، نعم كانت هناك وسائل لمنع الحمل (الشيخة وهي
في الثلاثين تنتظر طفلها الخامس عشر) ولطباء أسنان (الشيخة لا تتلم وآلام ضرس
العقل تفقدنا عقلها) ووسائل اتصال تسمح بالتواصل مع من نريد في أي مكان في العالم
(الشيخة قلقة من تقطع أخبار كتيبة المغوارات وقد انطلقت منذ أسبوع لغزو حي الركام
الموجود وراء بقايا الطريق السيارة)

مؤكد أنه سيكون هناك في آخر الحلقة طفلة هي أنكى البنك وأكثر هن فضولا وأسئلة مرهفة لكل من حولها. لتتابع تفكيرها إلى الآخر.

تري ما الجريمة التي ارتكبتها الجدات لتنهال العصور الذهبية؟

أترك للقارئ تخيل الخطيئة التي ستختلقها النبية ستربتوفسكابا لتفسير خروج البشرية من جنة العصر المخبيل (ربما ستكون أكل الطبيعة برمتها وليس فقط ثمرة من ثمارها) وشكل الديانة التي ستؤسسها وستغزو العالم طيلة آلاف السنين.

المهم: بما أنه من الثابت أن آدم وحواء خرجا من الجنة لسكنى هذا العالم -والدليل القاطع وجونا جميعا فلا بد من سبب لهذا الخروج. علينا اختيار أي سبب شريطة ألا يكون الطرد للأسباب المذكورة أعلاه.

نعم يجب الضرب على الطاولة والصراخ في وجه المتعلقين بالصياغة المهينة: كلا ثم كلا، آدم وحواء لم يطردا من الجنة وإنما... لاذا بالفرار.

تيز رأسك: ما هذا الهراء؟ كيف! الرجل والولية عائشان في جنة خمسة نجوم إلى الأبد وبالمجان وتفول لي إنهما هربا منها لرمي أنفسهما بمحض ارتئهما في هذا العالم التعيس! هل نسيت أننا لا نعلم بشيء قدر تحقيق الجنة في هذا العالم والعودة إليها بعد الموت. هل تتصور حقا أنني سأشتري مثل هذه البضاعة؟

ردي أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعا من الجنة وأنت أعلم مئي بطول باع الادميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات.

تضيف لمواصله حشري في الزاوية ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملانكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

فعلا ليس من لسهل الفرار من مؤسسة مثل الجنة لا شك أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة لمراقبة الحدود منعاً لكل المتسللين غير القانونيين.

لا بد أنه كان لآدم وحواء داخل المكان شركاء أعائوهما، ربما بليقاف تشغيل الكاميرات لحظة الهرب أو بتوفير الجبال الضرورية لتسلق الجدران أو أية وسيلة أخرى.

لكن من؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعبان؟ كائن مقنع لم ترصده القصة؟

من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تُخدع بيقية وهو قادر على معرفة الأحداث حتى قبل أن تقع.

التفسير الوحيد إذن أن التصير المجهول كن... صاحب الحديقة أي الرب لا غير.

صدّق أو لا تصدّق، ذلك شأنك.

كل هذا الموروث النفسي والثقافي لن يجعل من السهل اقناع قرائي بانعدام جدية قصة الطرد.... أفنعت أم لم افنع، المهم مواصلة اقناعي نفسي بقدرتك الفكرة على بناء رواية أخرى لقصة القصص تكون أكثر عونا للادميين في رحلتهم.

*

إن في النسخة المزينة والمنقحة للأسطورة الشهيرة، أزمع آدم في سرّه على الفرار غير واع بمن أوحى له بالفكرة.
ذات ليلة صارخ حواء بالفكرة، فمطّنت شفتيها وحكّت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكّدة أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمرّ به أطفالها من محن وأنها أحجمت لحظة أمام الثمن الباهظ لكنها لم تلبث أن أعادت حساباتها. في آخر المطاف... لم لا ؟
إفي طبيعة موجهة فقط لمناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسرّ إليها الربّ بالفكرة وأنها هي التي فنّعت رجلها الكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أرهته صور آتية من أعماق المستقبل لما ينتظر أطفاله وأنه رضى وحواء تهدهد بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجزّب الجماع مع إبليس أو الثعبان].
أيّا كان صاحب الفكرة وبعد شجار مقرف ككل شجارات الأزواج يخُسم الأمر لصالح الفرار.

هكذا اشتعلت شائشات المراقبة -المكلفة بقراءة الأفكار- برسائل الإثذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر: "عاجل للغاية وسرّي جد". وعوض أن يبرق الإله ويرعد وتنفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم الربّ بل وتنفس الصعداء مناجيا نفسه أخيرا، أخيرا قرّر فرار هذين الغيبين، من يدري؟ ربما هما رهائي الناجح هذه المرة.

تنبيه: لن يقع التصريح بكل نوايا الرب ولن أكشف عن طبيعة المهمة الخطيرة التي أوكلت لآدم وحواء. أولا لأن المجالس بالأمانات ولا يمكنني ولو بالتلميح فضح كل الأسرار التي تمكنت من الاطلاع عليها من أوثق المصادر. ثانيا لأن تقنيات التشويق في كل رواية تقتضي أن أحافظ أطول وقت ممكن على سر الأسرار وألا أنقلسمه مع القارئ إلا عندما ينفذ صبره وقد دفعته أكثر من مرة -كما يفعل جلّ كتاب الروايات البوليسية - نحو تخمينات خاطئة بخصوص هوية المجرم وأسباب الجريمة الحقيقية.

بقية الأحداث كما تصفها الشاعرة الملهمة:

“سارعا إلى تغطية عربيهما بالجلود (أندريه شديدي)

دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف

تعتقا يرتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضيق من الجلد

يواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعا لم يستعدا له

تجاوز آدم ضغيفته

مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجوزها
إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئاً
وأنه كون يتلعثم بأولى كلماته
علم مقيد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي
عالم تحت مطرقة الزمان
يجب تعلم الموت فيه
عالم غير مفهوم
بتبذيره الرائع والمرّوع
معا سينمكتانه لا سلاح غير الهشاشة والإصرار
معا سيدان أمنية الشرّ والجنل.
تعبير الغضاء والقرون.
ومن خلال ضباب الزمان
تأبعهما الصدى بالأمر"

الصدى إطبعا صوت الرب الهامس في أعماق اللاوعي للكائن المتشكّل داخل خياله.
تغلب تفاحة النوم وأنا أروي لها هذه الصيغة غير المرخص لها لانطلاق ملحمة
الادميين.

2- ب؟، ماذا قال الصدى لأدم وحوّاء وهما يفرّان؟

- خذا معكما ابليس لا مناص من اصطحابه .

ربما واصل همسا لنفسه: وإلا كيف سيعرف البشر ما الخير في غياب الشرّ، ما
المسؤولية في غياب الحرية وما الحرية في غياب الجبر والقهر؟

**

وقال لهما الصدى العالم الجديد بانتظركما انتظر الطفل لأمه والسبع لفريسته .

وراءهما الآن باب الجنة والعالم الجديد بأسره أمامهما.
تدير حواء بصرها في الفضاء لتسلع أبهرها النور والألوان، حائرة اللب أمام كل هذه الروائع... شلالات متدافعة من أعالي الجبال... أنهار متدفقة بين الروابي... بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار... كثبان من ناعم الرمل... جبال مكللة بمهابة الشيب... بحار تهشّ الريح فيها على الموج... غابات تعانق أشجارها السحاب... سماء مرفوعة بلا عمد...

يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟
صبرا قليلا يا نافذ صبر لم يبدأ بعد .

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح وقت الا تستطيع تحديده بما أن الساعة لم تُخترع بعد: أنا جائعة ولا أكل جاهز هنا.
ينتبه بطلنا إلى التغيير الجذري في الوضع وأن هذا العالم لا يوفّر شيئا عدا وجوده، أما تدير شؤون الوافدين فسؤوليتهم هم لا غير.
كيف فاته أن الإقامة في الجنة كانت على حساب ربّ المكان، أما هنا فهي على حسابه !
ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزجر به صمّ العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا يعول إلا على جهده، لا مكان عندي إلا للأكل ومأكل... وأنا أكل الجميع.
هل أخطأ التقدير؟

يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاه حيث لا جوع ولا جري مضن وراء فطور الصباح.

تتجاهل المرأة رجلاً ستبقى تعاني منه على مرّ العصور.

ثم تبدأ في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، البحيرات الزرقاء والخضراء كسبح للصغار يوم يولدون، الجبال الشاهقة للتزلج يوم يخترعون هذه الرياضة. يجب التأكد أيضا من سلامة الغابات وخلوها من الحُفَر والشياطين حتى لا يُصاب الأطفال بأذى. هام جدا تزيين أول كهف ولو بأبسط الرسوم بانتظار ذلك الطفل العبقري الذي سيرسم صورتها في لوحة "مونا ليزا".
يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.

ينفد صبر حواء يوما والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين المتحركتين.

- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجة أنك جائع. هذا

فعل يَلِيْقُ بَابِنِ أَبِيهِ وَلَا يَلِيْقُ بَابِنِ أُمِّهِ. وَأَنْتَ هَابِيْلٌ، اغسِلْ رَجْلَيْكَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْقَادُورَاتِ
وَنَمْ قَدْ ضَفَقْتُ ذُرْعَا بَقْلَةَ طَاعَتِكَ.

يصرخ هابيل بغضب، هو الذي ورث عن أبيه حدة الطبع وسرعة الانفعال:
- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن
أذهب إلى أي مدرسة.

هذه المرّة، لن تأخذه "م" بين ذراعيها تعنّتر، تواسي وتقبّل نموّعه. لا مناص من الحزم
حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهامّ في ما يبدو أجمل لكن أصعب
العوالم.

يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة. أن الأوان للمرور لفصل آخر من قصة القصص.
ذات يوم تصرخ حوّاء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي ولا ترجعوا إلا بما
خرجنا من الجنة نبحت عنه.

“الأرض لكم (جبران خليل جبران)

تنتهج بلامسة أقدامكم العاربية

الأرض لكم.

وشعوركم مسترسلة تتوق إليها الريح

الأرض لكم

وأنتم الطريق”

يصرخ أحدنا: لننتجه إلى حيث تشرق الشمس، نحتفي بها ونهلّل وهناك نقطفها ثمرة
طازجة.

يصرخ آخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا نغيب،
ننهي وجود الليل المخيف.

يصرخ ثالث: بل إلى الشمال فربما الذي جننا من أجله مطمور هناك تحت الجليد والتلج.

يصرخ أجنين أو أعقل أطفال حواء: أريد البقاء مع أمي.

يتم أول اتفاق بين الأوانل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه
المعكس، وأنتم تفرقوا هناك داخل هذه الغابيت الخائفة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف
تلك الجبال الشاهقة.

أي شاعر عبقري مبصر أو أعشى قادرٌ على نظم القوافي لإلياذة تتعنى بكل هؤلاء
المعلمين الأفاقين، المثتردين المستكثفين، الخجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ
غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء
والأرض ولا حتى غفريت الظلام!؟

ها نحن ولمثلت الآلاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاءً لا يُحدّ بحدود،
نجري وراء الريح والسحب، يجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به
الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن تكسر لها ذراعاً ومن الفيل قبل تمزيقه إربا

إربا، نقاتل الكواسر حتى لا نؤكل ونقاتل الأدميين حتى لا نُقتل وقد أصبحوا هم لا غير
أخطر الوحوش.

أليس هؤلاء الأوائل بأرجلهم الحافية وأيديهم العارية ويطونهم الخاوية وقلوبهم الصامدة
وعقولهم المستنقرة هم الأبطال الذين نخجل أمام جسارتهم كل ما ندعي من بطولات؟
توقّف على الصورة.

ألا تلاحظ شيئا بخصوص من خطوا أولى خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر
السن! لا مكان في العالم اليافع للمسنّين الذين تجاوزوا الثلاثين.

ماذا تقول وأنت تحرك يدك أمام أنفك؟ أه الروائح لتي تنبعث منهم.

حقا من منا يرضى بتزويج ابنه لولاحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجداننا جميعا، وحتى
أجداد ملكة إنجلترا التي تمّوه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم
الأزرق الذي يسيل في شرايينها . هي توقفت في قراءة شجرة أجدادها حيث كان من
مصلحتها التوقف لكن لو واصلت لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليلة كبار اللصوص
واقنلة فحسب، وإنما أيضا سليلة هؤلاء الشبان الهمج اللثين.

ملاحظة ثانية بالغة الأهمية يفخر هذا النص أنه أول من انتبه ونبه إليها. لا أحد منهم جزر
حقيبةً تُصدر صريرا مزعجا. إنه الدليل القاطع على حكمة هؤلاء الشباب، وبإلعار
الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محتملين بأفقال من أصناف عدة، منها جسم يئنّ بما زاد على
اللزوم من الثوب والشحم.

ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ أه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خائفون
ومخيفون.

تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلايب.

إنه عالم لم يُخلق للجبناء. إنه عالم صارم القوانين أولها أن الحياة فيه تتغذى بالموت
والموت يتغذى بالحياة وكل الباقي خشوٌ وتفاصيل.

يأتي يوم يئن فيه أحدا وقد ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها
إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع!

يأتيه رجع أنين تائه آخر: لم نكف عن المشي منذ أجيل ولم نصل، لا إلى حيث تشرق
ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم تساعه أخرق، نحن تائهون فيه إلى الأبد، هل من باب
نجاهة؟

أنين تائه ثالث: يا لهذه الصحاري الصفر نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة
للمس!

وأخر: يا لهذه الصحاري البيضاء ووجع خناجرها التي تثبتت في فكّ الجليد والتلّج!

وأخر: يا للرعب الذي يتّفه فينا كل هذه الكواسر نهارا وهي تتعقنا بأظافر وأنياب لا
طاققة لنا على مواجهتها بأيدينا العارية! يا لهذه الكواسر التي يمنعا عويلها ليلا من النوم
نرتجف بردا وخوفا داخل مغارات مظلمة تسكنها هذه الجرذان الطائرة المقرّزة!

يا لهذه الطيور المشؤومة التي تُرْفرف فوقنا تنتظر من يسقط منا لتتهش لحمه !
يصل الأئين ذروته عند الغبي الذي لم يأخذ بنصيحتي بخصوص أحسن طريقة
لاستكشاف البحار فإق عنده أيضا الغثيان والدوران كل قدرة التحمل..: يا لهذه الصحاري
الزرق تكاد نموت فيها رعبا قبل أن نقضي فيها غرقا!

تحمل! ليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟ ماذا نفعل طوال الرحلة، غير
تحمل الحرّ والقَرّ، غير تحمل الجفاف والطوفان، غير تحمل الضجيج والصمت، غير
تحمل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل صعوبة الحياة وصعوبة الموت؟
لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بعمق الأهمم والتوجه للوحيد القادر على إغاثتهم.

صلاة الأدمي: يا من أوجدنا في هذا العالم المبهير المرعب... حنن علينا قلب الأرض
والبحر... ضعنا في حماية الشمس والقمر... احفظنا من أنياب الكولسر، لا تجعل دمنا لها
شرابا حللا... وقر لجوعنا اللحم والشحم... فجر لعطشنا عيون الماء الزلال... يسر أمننا
الصعب والوعر... ضمّد جرحنا... جند فينا كل فجر شجاعة الأبطال.

الصدى (الأثر في العقول والقلوب للغة المبهمة التي تتوجه لها صلواتنا منذ الأزل): يا
أحلام أحلامي... يا الأم الأمي... يا أمل أمالي. يا أفكاري وخيالي... يا لحمي تقطعه
أنيابي... صبرا جميلا ستفهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي.
قد لا تكون انتبهت لأهم ما في هذه الخطبة العصماء للصدى: نبرة الصوت. هي حقا
مُعْمة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كلّ وراء القول المسكوت
عنه: سنستنون كل الأهمم وستحمدونني عندما تجدون ما بعننكم لأجله، يوم تحقّقون لي
المهمة التي شرفنكم بها مع بقية مخلوقاتي الأخرى.

لنفعل لتصديق، هل لنا خيار آخر؟

رغم تطمينات السلطات العليا تواصل المعنويات انهيارها أمام تقاوم الصعوبات خطوة
بعد خطوة.

يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أبيه: تخشيت قدمي من المشي، عُصتُ إلى الخاصة
في الثلج وفي الوحل، تمزّقت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفي من
الحمل، تشققت بداي من الحفر، جفت العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريق
اللعيّن طريقه دوني. لن أتقدم خطوة لأخرى.

أهمس في أن تقاحه أفيقي، لقد توقفت الأوائل عن المشي ودخلوا في أول اضطراب عام .
تفتح البنت عينيها وفيهما بريق التصميم كأن شيئا داخلها أدرك أن المهمة المقدسة في
خطر وأنها قد تقشل حتى قبل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تقيحه بدورها جاءها الوعي بخرج
اللحظة.

- "يا؟ ماذا يجب أن نفعل؟

- الأميون في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خنا بأيديهم كما تأخذان بيدي
لتجبراني على الركض والصراخ والرقص

يستيقظ المستكشفون في الغد وبهم جذل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

- غريب. أنا أيضاً!

- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا ولحدا.

- لا بل أنا المختار، تسلق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفي، صارخا ضاحكا ومغنياً أن أجري به. أخذني الملاك الثاني من يدي قائلاً وهو يضحك ويدعو الآخرين للركض وراءه: «هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغير حياتكم.

تصرخ تفاحة: القصة عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفاً فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلاً فلا ترتجف، «مما» من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا. تصرخ تفاحة: أنت الباكية والبائسة، أما أنا فلا أبكي أبداً. ثم تنفجر باكياً لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلاً.

- «بب»، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.

- هذه قصة يرويها أكثر من راوٍ. تكلمي. ماذا فعل الأنيبي المسكين لكي يبقا ويبعد أنياب النئاب؟

- خرج الرجل وابنته الصغرى -التي كانت المفصلة عنده كما يعلم الجميع- إلى الغابة للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجوداً بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفاحة إلا أن صلت لله لبيعته بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثم لمع البرق وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرع إليها «بب» وأخذ منها عوداً ملتهباً وعاد مع ابنته فرحاً مسروراً ليشتعل المدفأة.

- يا غبية، وكيف استطاع «بب» من الغد أن يشتعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرة ينتظر الرعد والبرق.

- أنت الغبية وليست لديك قصة أحسن.

- بلى، إذن خرجت تفاحة مع «بب» لتدله على مغارة اكتشفتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميقاً جداً جداً لا يمكن الدخول إليها إلا زحفاً على البطن. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوماً مشتعلة، فاستطاع «بب» أن يأخذ جمره منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.

- يا غبية، وفي الطريق سقط المطر على جمره فتأفقت النار.

بعض العنصر الخفيف وشيء من جنب الشعر، وهو أمر تسهل السيطرة عليه من قبل قوة حفظ لسلام، خلافاً لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الثرسين بالترشق بصواريخ الغواصات الذرية.

من كان يتصور أن اكتشاف النار حتى في هذا النص سيكون بمثل هذه لصعوبة؟

تستولي تفاحة على الكلمة:

- أنا الذي أقود. وبعد أن اعتذرت نفيحه عن الببال الذي أصاب جمرة تفاحة وقيلت أختها الاعذار وتصلحتنا وانتهت المعركة مؤقتا، خرج أم، سلخا إلى الغابة يبحث عن النار. ما إن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجها لوجه مع علية كبريت بحجم بيت وجانبها سيجار فاخر من نوع هقلنا بطول شجرة سيكوبا.

تصرخ البنتان

- "يا"، لا تعش!

بجد؛ ليس لدي أدنى فكرة جديدة وطريقة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحول الأول في الملحمة العظمى. ألا يقل إنه لولاها لما تجاوز الأدميون حدود القارة التي كانت مهد الجنس البشري، إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والثلج وهم لا يملكون فرو الدب للصبر على ما لا يُتحمّل من البرد.

كم من تصورات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة التي لولاها لربما توقفت الرحلة في أولى مراحلها!

ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة.

ثمة قصة بروميثيوس الذي أخذته الشفقة بالأدمي فتصدى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصائر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك والسرعة والخفة وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرر من تلقاء نفسه مده بسر النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء... وهو ما كلفه العقاب الشهير.

ماذا لو توجهت إلى المصدر الذي تتأسسته القصص والنار آخر ما يقصه جهنم نفسها وهي كما هو معروف موجودة في فضاء خيال جل الأدميين جنبا لجنب مع الجنة.

لكن هذا يتطلب العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الأدمي أكثر من أي شيء آخر. قد يقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصة والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي تؤهله للبقاء في جهنم هذه. أما أن تقولوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالما، فهذا سيناريو لا يقبله حتى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقراء الرحلة وهم من عتاة المثقفين.

هنا يوكل الكاتب الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصل الأدمي على النار ومن أين سرقها. لماذا أتكلف كل الجهد وأنت تتدلل عليّ فالقصة، قصة الجميع. ما الذي يجعلني مسؤولا عنها أكثر من حضرتك؟

المهم أن الأدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدس وكل حواسنها مستغفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيمكنها من التغلب على الخوف من الحيوان المرعب، من قنوم الليل ناهيك عن نهاية مشقة مضغ اللحم النيئة وهضمها.

تقترب تفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لثوئي مُدبرة تترتمي في أحضان “ب” فيدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجدداً من النار. ترفض تقيحه أن تكون أقل شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن “م” لتلقف بجانب تفاحة تقرب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخن بالفرح وقد أحسنا أن النار تندفع عن الأصابع المتجمدة ألما مستديماً، ثم ترقصن حول النار إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزمهما التعب الذيذ. ليلتها نام حفنة من الأدميين لأول مرة ملء الجفون، أبعدا لبيض ساعات الخوف والجوع، والمسكين لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تترصدهم في كل منعطف منه.

تهزني “تقيحه” من كفتي: “ب” استيقظ، نريد بقية القصة!!
القصة؟ لموصلة السرد يجب أن تكون هناك عقدة. المشكلة أنني انطلقت في روايتي لقصة القصص بلا أدنى فكرة عن هذه العقدة.
نعم ما الذي خرجت الأدمية تبحث عنه مضحية بكل عطايا الجنة: الخلود؟ العلم؟ الحكمة؟ المتعة الأزلية؟ الراحة الأبدية؟
كل هذا كان متوقفاً إلى درجة القرف في هذه الجنة التي هربت منها.
ماذا إن؟

**

وقال لهم الصدى لا ترهبوا الدمار، إنه الشر الذي لا بد منه لمهتكم

لنفكر ملياً ودون أحكام مسبقة.

لا بد أن يكون سبب الهروب وضع لا يطبق و/أو طمع في شيء لا توفره حتى الجنة.

من المبالغة وصف الحياة في مكان مثل الجنة بأنه وضع لا يطبق.

لم يبق إذن إلا شره الأدمي لكل ما هو غير متوقّر أو بالكمية المطلوبة.

ما الشيء الوحيد الذي لا توفره الجنة؟ طبعاً الموت بما أنها المكان الذي ألغى فيه وبصفة نهائية ليستبدل بهذه الحالة التي تسمى الخلود.

[هل من الممكن أن آدم وحواء لم يهربا بحثاً عن شيء وإنما هربا للفلوات من شيء هو هذا الخلود.. فرضية يجب وضعها جانباً في هذا الموضوع من النص، سيأتي وقت

تفحص ما يدعيها وربما استعمالها لاحقاً]

إن لننتقل من فكرة أن آدم وحواء هربا من الجنة بحثاً عن الموت.

أين يكتسب هذا الموت صبغته الدرامية المثيرة حتى لا نقول المسرحية؟ طبعاً في ما يسمى ساحة الوعي أو الشرف أو سمها كما تشاء.

أشعر بكل قارئ حتى وإن كان بالغ التعاطف مع هنا النص على وشك وضعه جانباً والانصراف لما أهم بدلاً من إضاعة وقته الثمين في متابعة كلام بدأ يتحول هذياناً صرفاً.

كم أتفهم هذا الموقف وأنا نفسي على وشك وضع هذا النص جانباً والانصراف لما أهم بدلاً من إضاعة وقتي في متابعة كلام بدأ يتحول هذياناً صرفاً.

فعلاً هل ثمة شيء يخافه ويكرهه الأدميون قدر الحرب؟ فكيف يمكن أن تكون الشيء الذي سلموا في الجنة من أجلها؟

نعم، نعم، ومع هذا، ومع هذا!

أعدّد لك حروب الأدميين؟

أصّف لك حروبهم للدفاع عن العرض، عن الأرض؟

أخشى ألا يسعني ما بقي لي من زمن لروايتها كلها وهي الظاهرة التي تصاحب البشر مصاحبة الظلّ للماضي في عزّ الظهيرة.

انظر أيضاً كم يعتنون بها يهتدون كل ظروفها ويطورون فنونها جيلاً بعد جيل.

هم يعدّون لها أطفالهم بالكر، يحشون عقولهم بالتاريخ الكانّب منذ نعومة أظفرهم حول أمجاد أجدادهم، يقبّحون كل الذين لا يشبهونهم، يزينون القتل والموت من أجل الزعيم

الأوحد والوطن المفقود والدين الحنيف.

أضف إلى هذا حرصهم على تعهّد مدارس مختصة بتعلم القتل على أوسع نطاق يسمونها أكاديميات عسكرية يدرّبون فيها شبابهم على السير كالخرفان والقفز كالقردة والاختباء

كالحرباء والزحف كالثعابين والاقتراس كالكواسر.

كم يحتون أيضا إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك.
يَوْمها خصّصت المدينة المغيرة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطفت
على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لراحة الدم.
على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف
متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبروا وكبرت معهم الألعاب واللعب.
حقا ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبة لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنني
أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الأدمية
الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشائسة البيضاء.
إنها دوما نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البنيء
والأخضر البليد. كأن دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها
البعث ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدعي التقدم
على القرون الماضية، متخلف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش
رخيص بالمقارنة مع جلود النمر والتماسيح التي كان أجداننا يرتدونها؟
لحسن الحظ أنفذ مخرج الاستعراض سمعته لدى كل ذواقة الاستعراضات العسكرية
حيث وضع طلاب الاستشهذ على خيول أنيقة والبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود
وعمام خضراء وزودهم برماح زرقاء.

كان كبار القوم الذين حشرت بينهم خطأ يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة
متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بلطواير الطويلة للمدرعت المكلفة بالحفاظ على
ممتلكاتهم، قل على سرفاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكان
الذكور بصند مضاجعة الدبابات والإناث في أوج تمتعهن بمصن الصواريخ.
أختتم يومها الحفل بمشهد مؤثر وأم الشعب بردانها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم
تشقه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبة على متن عربية مصفحة مفتوحة تبارك أبناء
نذرتهم قربانا لآلهة الحرب، يبادلونها تحيتها للصامته بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم
الطير... ولا أحد واعيا آنذاك أن المرأة - التي كانت تحمل ويا لسخرية الأقدار اسم أكبر
مناض للعنف في هذا العصر- ستسقط مضرجة بدمها قربانا للبيع الذي تعبدت له ذلك
اليوم.

على فكرة...يا لخبية أمل الذين راهنوا على أن احتلال النساء أعلى مراكز القرار
السياسي سيخفف من عنف السياسة وسيقلل من حروب لا يعيشها إلا الذكور الواقفين
تحت سطوة هرمونات التسترون وقوع السكرى تحت سطوة الخمر.
ورغم ان انتاج النساء من هرمون التسترون جد متواضع، فإننا لم نرى تحسنا في
عنف الصراع السياسي وفي تواتر الحروب كلما وصلنا لأعلى مراكز القرار. هذا ما
يدعم رأي لا يلزم سواي ألا وهو أن نسبة الرقة والغلظة كما هو الحال بالنسبة للشجاعة
والجين، العقلانية واللاعقلانية، النبيل والنذالية، الأنثوية والاثرة موزعة بصفة عادلة بين

الرجال والنساء . الفوارق الوحيدة التي لا جدال فيها أنه ليس للنساء شوارب ولحي وأن بطون الرجال عندما تنتفخ فليس نتيجة الحمل وإنما بسبب الاكثار من أكل الحلويات في بلدان الجنوب ومن شرب الجعة في بلدان الشمال.

ثمة من قرأني من سيعودون لاتهمى بمواصلة التجني على الجنس البشري ذكورا وإناتا لأن هذه العروض العسكرية ليست لتمجيد الحرب والاستعداد لها وإنما لإظهار القوة للخصم وردعه عن ارتكاب حماقة أشعلها.

حقاً؟ لو كان هذا هو الهدف الحقيقي ولو كان للأمر أدنى جدوى لكنت الحرب القاعدة لا الاستثناء ولشاهدنا تراجعها من عصر لعصر واخفانها كلياً في عصرنا هذا... وهذا لم ولن يحدث.

تقول وهل تنكر على البشر كرههم الشديد للحرب وأنهم يفعلون كل ما في وسعهم لتفاديها. طبعاً لا مجال لإنكار الأمر بل سأضيف وثيقة هامة لدعم هذا الرأي وإن كان لا يصب (ظاهرياً) في مصلحة نظريتي .

هذه الوثيقة هي المواجهة العاصفة بين الرب كريشنا والأدمي أرجونا في إحدى أشهر الأساطير المقدسة للجنس البشري.

يصفر كريشنا على المحاربين ليقاتلوا تحت بصره فيبقى السيف في الغد. يومها قطب جبينه باغته السؤال: بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟

وفي هذه الأسطورة التي تضع ككل أساطير البشر أعمق المسائل الفلسفية في قالب شعري، يصرخ البطل أرجونا في ربّ لم يجد إلا ساحة معركة للتجلي: "لكنهم أساتذتي وأبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهارى وأقربائي كلهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبداً ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أي غنم من قتل بني دهرينا اشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليانسين".

يرفض الرب حجج أرجونا لأن للالهة في مستوياتها رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب.

- "يصدر منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنث المخجل".

ثم يمرّ للتهديد.

- "إن لم تقا تل فستكون خائناً يقال عنه إنه جبان. إن ضياع الشرف للنبيل أفضع من الموت".

كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصتهم المقدسة مكتفين بالقسم عليها في المحكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرّض عليه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ عيّر الرب بالخوف أم لم يعيّر.

- "ارشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومئة؟ أفضل أن يقتلني بنو دهير اشترا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموبقة".

الرب مجزياً الوعود البراقة.

- "إن منّ سنخّل الجنة وإن عشت ستملك الأرض "

يتمسك أرجونا برفضه يواصل محاجة الرب.

- " أن تكون خسارة لا تعوض. ألن ندمر سلالتنا، ويتدمير سلالتنا ندمر تراثنا؟"
كأنّي بكريشنا يهزّ كنفه إن كان له كتفان.

- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر."

وفي فضاء خيالي حيث لا حدود بين مستويات العالم ولا زمن له اتجاه واحد، أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضته. إن كان سيان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك لقتل الأحية والأصحب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطمعك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى عقلك. لا تتحرك.

يواصل الرب التحريض مستعملاً أساليب أقل ما توصف به أنها في منتهى الخساسة:

- "تغتمّ لمن لا يستأهلون الغمّ؟"

ثم يلتجئ إلى الجمل الرنانة .

- "إنّه الواجب. لا يرحب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة."

يتكفّف صمت أرجونا ثم... يستسلم،

يدخل المعركة متجهماً (لاوتسو)

حزينا، القلب يطفح شفقة

كما لو كان ناهياً لتقديم العزاء.

*

لأدخل المعركة معه كما لو كنت مرسلًا حربيًا لتسجيل ما أمكن من المعطيات عنّي أجد فيها ما يدعم أفكارى ولتكن فعلاً أم المعارك.

اصطفوا أنتم أصحاب الهراوات الصخرية في الصف الأول، أهل القوس وراعيهم، وراعيهم أهل السيف والدرع، وراعيهم أهل البنادق والمدافع، وراعيهم أهل راجمات الصواريخ العابرة للمجرات وراعيهم أهل الأسلحة التي لا يخلقها عقل سوى وإنما عقل آدمي. قلت تنظموا. إلى الوراء أيها المتسلّل من العصور الحجرية لسرقة قوس حفيبك. كفت أنت صاحب الراجمات عن التهمك على الممسك بالرتشّش فالمعركة لم تبدأ بعد.

والآن لتتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأحجارها، برماحها وبنادقها لتقجير الكواكب والشموس والمجرات.

أصرخ كما يفعل مخرجو هوليوود في مثلهم: "كشّين "

ينقضّ الأدميون على بعضهم بعضاً بسكاكين المطبخ، ببقاب الحمام، بالحجارة المدببة، بليدين العاريتين وبالأظافر والأسنان، بالهراوات، بالرماح، بالبنادق، براجمات الصواريخ، ، بحملات الطائرات، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق . لتتصاعد

الهنافات بأكثر حماسا وإيمانا : تحيا أمتنا العظيمة، يحيا وطننا المفدى، يحيا ديننا الحنيف، يحيا الموت.

يختلط صهيل الخيل بقععة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ.

يتعالى من مكان قصي من ساحة المعركة صوت شيخ بدين مولع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، أبارزهم بعقب السيجار، أموت صارخا: يحيا الملك.

يدخل مهووس آخر إلى ساحة المذبحة مغنيا بأعلى صوت: "لنسق أخاديد الأرض بدمائهم النجسة". هذا الغبي لا يعرف أن الدماء سواء كانت طاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب الأشمبانيا ولا حتى البطاطس واللفت.

يصرخ أندري بوكوليوبسكي في جنوده أرشقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفوقورود تبركا وبحثا عن حمايتها، فتتهمر بالدموع عيناها. يقال إن بكاءها أقام الدنيا وأقدها، أن الضبلب لفت المعتدين فتقاتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعوية محاربين، فالعذراء لم تنزف الدموع لتمكين هذا من النصر وذاك من تذوق الهزيمة وإنما حسب مصادرنا الموثوق بها من فرط الألم وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها مات موته الفظيعة على الصليب عبثا والشرّ دوما هو المنتصر.

وفي مثل هذه النوبات من الهمجية التي تتناوب دوريا، نرى الأدميين يرتكبون أفعالا ما كنت تصدق أن يوسع جيرانك الطيبين ارتكابها مثل سحق الرؤوس وسمل العيون واقتلاع الضلوع وبقر البطون وفتح الصدور وتقطيع الأطراف واستئصال الأمعاء والنزح والسحق والقطع والحقن بالسموم والصعق بالكهرباء والرمي من الطائرة وفي فرن القاطرة وتحت عجلات الدبابات.

في سجلّ الفظاعات " الطريفة" ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون. ثمة أيضا حقن سجناء الحرب بالجراثيم ثم ذبحهم والقفز فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية: اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه "إيشا".

أخيرا لا أخرا إخراج الرفلت لحرق الأعداء حتى وهم أموات. تقول مستحيل! عد إلى مأساة فرقة دينية تدعى "الكاتار" ومذا فعل برفاتهم أعدائهم من عتاة المؤمنين بلله عليك، أليس من الطبيعي أن يشعر المرء بالعار لانتمائه إلى الأدمية كما يخجل من به شمم أن يكون ابن عاهرة وسفاح؟

فعل الأفعال! طبعاً قاتل، قتل الآخرين وقتل نفسه.. بكل الوسائل التي تتبارى وتزاي على بعضها البعض في القضاة والوحشية.. فعلنا الأول نحن وبقية الوحوش الحية الأخرى حتى وإن كنا أقطعها في فنون القتل.

كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر ومازلت حياً أرزق! كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الأبطال برماحتهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني، وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مرّقت ولا تزال تمرّق كل يوم أجساد مسلكين وُجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه!

والآن جولة بين الجثث التي راكمتها المعارك على مر التاريخ، ويقل انه لو وضعت الواحدة وراء الأخرى لرسمت خطأ يصل الأرض بالقمر.

لنقحم في المشهد الامبراطور اشوكا الذي قتل تسعة وتسعين أخوا للوصول إلى السلطة ودمر ما لا يحصى من الممالك متجو لا بين تلال الأجساد المهامدة بعد انتهاء المعركة التي حسمت مصير مملكة كالينجا وأم منكبية على جسد ابنها تصرخ فيه "يا ملك الملوك، أنت قادر على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبي".

تمغنّ معه في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق لمواج من النماء وتتكّر كم من حلاقين وخياطين ونساجين وصناع مجوهرات و عطارين و عباقرّة جراحة تجميلية وموضة عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للانمي... وانظر النتيجة!

أيضا كم من آباء وأمّهات ومربين ومرشدين وعلاّظ وإصلاحيين ونوّار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين الادمية... وانظر النتيجة!

يتسلّق الشيطان قسمة جبل الأجساد المتركمة ليغرس علمه صارخاً وهو في قسمة التهكم والشماتة: أراني أن أسجد لهؤلاء الوحوش الذين خزبوا حديقته.

*

من أين لي بعد كل هذا الكلام مواصلة الادعاء بأن آدم هرب من الجنة بحثاً عن الحرب أو أنه وهو بكل هذه القضاة جدير بأن يراهن عليه إله ويعهد له بمهمة ما.

كل ما أوردت يدعم نظرية الطرد لا الفرار فمن الطبيعي أن توجد الحرب في عالم منفي يقضّي فيه الأدمي مدة عقوبته بعد طرده من الجنة وقد اكتشف الرب أخيراً كم شرير وخطر هذا الكائن الذي خلقه، لكن أن توجد بكل أهوالها في عالم بريء يفرّ إليه طوعاً آدمي بريء فكلام لا يقبله عقل.

أه ماذا يقول محامي الشيطان -عفوا محامي الأدمي دفاعاً عن موكله؟ إنه يذهب للحرب وهو مسير لا مخير والمسؤول الإله الذي خلقه بطبيعته هذه ثم رمى به في هذا العالم. لننفع التصديق ونحن نبحت عن أي فكرة تنفذ فرضية يبدو أنها كانت أكثر من متجاسرة على الحقيقة.

لهذا يجب أن نفهم ما الذي جعل كريشنا يضغط على أرجونا ليدخل المعركة رغم أنه وما هي دوافعه الحقيقية التي كان يخفيها وراء خطاب التحريض والتهديد؟ عودة للمعركة التي يدخلها الألمي منذ بداية التاريخ" حزينا القلب يطغى شفقة". تأمل كل هذه الحيوية والأمينون يقضون على بعضهم البعض. استمع للصراخ المتعالي من أرجاء ساحة المعركة وقد اختلط صهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ بهتافات الأبطال وأنصف الأبطال.

بيني وبينك ليس انتهاء للرحلة وسط مثل هذا الديكور الفخم أكثر إثارة من انتهائها على فراش مستشفى وسط غرفة صغيرة تضيئها مصابيح باهتة بيلك العرق وتذفك روائح الأدوية؟

بيني وبينك دوما، هل ثمة أفتر من الحرب على اعتصار أعرق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه لعالم أروع ما فيه خطر؟
بيني وبينك، هل ثمة حالة يدرك فيها الألمي كم هي ثمينة حياته أعرق من التي يجربها وهو بين المخلب والأنياب؟

من هذا الغبي الذي قال: أنا أفكر فلنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فلنا موجود.
تقول هذا ما تعنى به العسكريون الارستقراطيون على مر العصور يمجنون الموت في الظروف المسرحية التي يسمونها البطولة.

معك ألف حق، أنا أيضا أكره الأبطال -أقصد هذا النوع المزركش بالأوسمة-مقتنع أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في تعهد الحياة، أن البطلات هن النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهن على الطفل المريض، أن الأبطال هم الرجال في خروجهم إلى الصيد الخطر، إلى الحقل الغارق في الوحل، إلى المنجم الخانق وإلى المحيط المرعب.

اتفقتا إذن على عدم اعتبار هذه الفكرة سببا مقنعا لضرورة الحرب.
ما المتبقي؟ هل ثمة أجوبة قد تقودنا لتصور يقبله العقل حتى وإن ماطل في قبوله القلب؟

أليس صحيحا أن تطور الكم والكيف في الأسلحة مهد وصاحب وتسبب في تطور انفجاري في العلوم، في التكنولوجيا، في القوانين، وفي كل مظاهر ما يسمى التقدم البشري.

ألم تسفر الحروب عن تحرير العبيد وتحرير الشعوب؟ ألم تكن كانت أداة خلق دول ما كان لها أن توجد لولاها وعلاقات جديدة بينها؟

ألا يبني كل جديد على أنقاض القديم؟
أليس صحيحا أن المدن التي تدمرها الحرب لأجل بعد إعادة اعمارها مما كانت عليه قبل خرابها؟

ألا تشكل الحرب في فضاءات الفكر والخيال بين المدارس والنرجسيات المتصارعة
أداة لتجديد والتطوير في كل مجالات العلوم والآداب والفنون؟
هل يمكن تصوّر الحضارات البشرية دون الحروب التي بنتها ودمرتها؟
لنقل في إطار تواصل بحثنا عن عقدة لقصة القصص أن كريشنا كان يعلم ما يجعله
أرجونا أي أن الحرب ليست غاية إنما وسيلة لا مخلص منها لتأدية المهمة التي خرج من
أجلها آدم وحواء... وأنه لهما وسائل أخرى لا تقلّ عنها ضرورة.

**

وقال لهم الصدى هذا عالمكم تبلورونه على مسؤوليتكم أبهروني بما تضيفون.

ساحة المعركة وما يتعالى منها من صراخٍ وأهات وحشجة على أقصى طيف الأماكن التي تتجلى فيها قدرة الأدميين على التمييز... على أقصى الطرف الآخر قاعة غارقة في صمت مهيب أين تتجلى قدرة الأدميين على الخلق والابداع.
الموعد الليلة مع رابعة من روائع عملاق من عمالقة الموسيقى العالمية.
يستحضر الكهل الجالس في مكان قصي من هذه القاعة أول لقاء له مع إحدى أشهر أعمال الرجل.

تهمس الأم في أذن طفل أصبح مرافقا.

- يا بُنيّ إنك تصمّ أذانَ الجميع والجيرانُ يتنمّرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تسمّعها ليلا نهاراً؟

- ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرفتي.

ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تغلجُ ابنها نصف عار، متصببا على السرير، في حالة متقدمة من الهيجان يقود بمسطرة الحساب الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه هي ولا من يختبئون وراءها من إخوة منعورين.

- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقا بدأت أخشى أنك مصاب ب...

لوثة من الجنون؟ كلاً وإنما بموجات متتابعة من الفرح الغامر والروح في وصال مع أنغام ترفع من بنصت إليها إلى حالة تشبه نشوة الجماع.

ذات يوم تعبر المراهق فكرةً مثيرة . السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثلية وثالثة ورابعة، ومن يعرف؟ ربما سادسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تنكرر... لكن ماذا لو!

ها هو يقصد المتجر الوحيد في المدينة لبيع أسطوانات الموسيقى الأجنبية يسأل البائعة الإسبانية العجوز.

- سيدتي، هل لك سمفونيات لبتهوفن غير السمفونية الخامسة؟

- أسفة، لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايدن وتشايكوفسكي.

- من؟ لا أريد إلا لبتهوفن.

- انتظر، أنت محظوظ. أظنّ أنه بقيت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.

تمدّ إليّ العجوز كنزاً من أغنى كنوز البشرية لا يكلف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة

تبغ. تتسع ابتسامتها لا أدري لليوم تعاطفا أم تهكما ثم تقول لي ضاحكة:

- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المعنيّ ليس بتهوفن.

تتكرر المعجزة. يجتو المراهق على ركبته وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن إلى من يتوجه بالابتهل والحمد والشكر؟ ربما جزء من الشكر لامرأة زحلت منذ زمن بعيد ورفضت أن تُصنق أن صبيًا بذلك العمر ومن أمة أخرى يمكن أن يهيم حبًا بكل سمفونيات بيتهوفن، أن يجعل من التاسعة ملجأ المختار للفرار مما يزرع به العلم من شر ومن قبح. يقطع عليّ تسلسل الذكريات صخب يديشن به العازفون كل حفل، ربما ليذكروا بما تصدره الآلات من أصوات مُنكرة عندما لا يفرض عليها الأدميون ارادتهم. فرصة للانتباه لما لا يهتم به الناس في مثل هذه المحافل.

النظارة المستمعون أولاً. هم جالسون جنبًا لجنب لا أصوات مرتفعة ولا حتى ثرثرة هلمسة يحاذرون من السعال والعطس. كلهم انتباه، انتظار، تشوق إلى ما سيرك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجربونه إلا نادراً. أهم شيء أن أيديهم خالية من كل سلاح تركوا معها خارج جدران القاعة حروبهم وخصوماتهم التي لا تنتهي. ماذا عن الجالسين أمامهم وهم منهمكون في تجربة الاتهم والتأكد من جودة الأصوات التي سيستخرجونها منها عندما يبدأ العزف!

يتوقف البصر مطولاً عند امرأة جميلة تنفخ في شيء اسمه الناي. ما أنا متأكد منه إنها لن تغرس أظفارها في عنق زميلتها لأنها منقسمة شرسة... أنه لا عازف كمنجة واحد سيضرب عازفاً آخر مدعيًا أنه يشوش على عزفه ويسرق منه الأضواء... وأن عازف التشيلو لن يخرج غاضباً بعد رمي آله على الأرض لأنه لم يأخذ حقه من اهتمام قائد الأوركسترا.

كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفقون، متعاونون هؤلاء البشر الذين سينغمسون في النفخ والنقر وذب أوتار الكمان!!
تأمل الآن الأدمي الوقف مديراً ظهره للمستمعين وجهاً لوجه من سيتلفون أو امره للصامته.

لن ينهض أحد من الجوق ليفتك عصاه بحجة أنه أصلح للقيادة. لا أحد سيصرخ من وسط الجمهور أنه غير متفق على كيفية ترجمته للنوتات الموضوعية أمامه. هو مطاع لأنه لا يستبد بقرار عندما يلزم هذا بالنطق وذاك بالصمت وأخر برفع الصوت ورابعاً بخفضه. هو يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليلبور أحسن ما عنده هُمة الوحيد، إبراز المواهب والتسقيق بينها.

إنه السيد الخادم الكفاء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم لماذا لا يكون هذا الأدمي الذي تُنفذ أوامره ونواهيته وهو لا ينطق حرفاً ولا يهتد أحداً نموذج كل من يحكم؟ نحن إننا أمام مجموعة توزعت بينها السلطة بكيفية عادلة جمدت صراع النزجسيات ووحدت الجهود لتأدية مهمة نجاحها نجاح كل واحد ونجاح الكل.

أين ترى شيئا كهذا في علاقات الأدميين ببعضهم بعضا خارج تنظيم الأوركسترا
للسيمفوني؟

*

فجأة بصمت النشاز المفتعل لتتصاعد أولى نوتات السمفونية العظمى.
يدوي قرع الطبول فيحضر البرق والرعد داخل الذات لافي السماء.
تتحرك أعمق المشاعر بنسق الموسيقى، تغور معها في دهاليز الكأبة وترتفع معها إلى
أعلى درجات الفرح . انطلقني يا ذاتي إلى الأعلى، حلكفي، رفرفي، زغردي، غني،
ارقصي، ارتفعي، تزفعي، توهجي، أضئني لي ما بقي من الطريق.
يا للمهندس الفنان الألمعي الذي جمع أصواتا لا متعة فيها متفرقة متروكة للصدف
أولالأيادي الجاهلة ليستخرج منها أقصى ما يزخر به العالم من جمال!
هذه السمفونية التاسعة هي معلم بناه الأدمي يتهوفن من ممكن الصنع الذي تسمح به
الأصوات، مثلما بلور لاوتسو واين عربي وإيسا من ممكن الصنع الذي تزخر به الكلمات
أروع القصائد...مثلما بلور أكبر المهندسين المعماريين اهرامات مصر ومعابد الهند
ومساجد دار الإسلام بما تسمح به المادة الصماء .
أيا كانت الوسائط الحسية لخلق الجمال، كلت لسان حال الأدمي يقول للفنان الأعظم:
انظر ما الذي أنا أيضا قادر عليه.

السمفونية الآن في أوجها والعمل الفني على مستوى ما حققه الإبداع البشري في
كاتدرائية ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محل ورباعيات الخيلام ومعادلات
ملكسويل... والقاسم المشترك دوما ثوق آدم لتحقيق ما لا يستنفذه اسم أو صفة أو فعل.
أي كانتات أخرى قادرة على شيء كهذا؟

فجأة تتعالى الحناجر بالنشيد الرسمي للبشرية، تظفرت طاقة الشعر والموسيقى لترتفع
السمفونية إلى قسم لم يرق إليها من قبل فكر أو خيال والشعر من الأزل موسيقى بالكلمات
والموسيقى من الأزل شعر بالنعامت.

"تقدموا (شئرا)

تسارعوا

بزغت الشمس

وهذه قبلة باسم الأرض كلها

تأتيكم من وراء القبة السماوية

أسلموا أرواحكم إلى غمير الفرح

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

ابحثوا عنه، ابحثوا عنه....

تعلن السمفونية نهاية الجناد ، أن الفرخ عاد سيّد العالم، تصالحنا أخيرا مع ذاتنا ومع كل ذات بل وحتى مع العالم... أن الصدى مرتاح لنجاح تجربته، راض عن أدائنا وفخور... وأنه بوسعنا الآن العودة إليه نبشّره بأن الأدمي أخيرا أصبح إنسانا.

هل ثمة شيء يبزر وجود الأدمية ويغفر لها موبقاتها غير قدرتها على اختراع الفنّ عموما والموسيقى تحديدا.

هل تكون هذه الموسيقى هي ما خرجنا نبحث عنه؟
لكن أليس من المفروض في مكان مثل الجنة لا يتقصه فيه شيء- أن تتوفر منها أرقى الأنواع ؟ غير ممكن لأن روائع الفنّ لا تتبقي إلا من ذات مجموعة تتقلب بين السعادة والشقاء، بين الأمل واليأس، بين الفرح والحزن وهنا غير متاح في جنة لا تعرف إلا متعة ثابتة إلى الأزل. هل ثمة حركة في غياب المحرّك؟
إذن ماذا ؟

كل ما نحن متأكدون منه لحدّ الآن أن الكائنات الأدمية تتميز عن كل الكائنات الأخرى بلمستوى الذي أوصلت إليه ظاهرة الحرب وظاهرة الفنّ.

العقدة المعقولة لقصة القصص إذن أن آدم وحواء خرجا من الجنة بغية بناء عالم جديد الفنّ أداة الخلق في كل مجال والحرب أداة تدمير البالي وتهيئة ظروف التجديد ؟
لكن هذا يعني أنهما يبحثان عن بناء عالم مثالي. ما معنى مشروع كهذا والعالم المثالي الذي يتشدان هذه الجنة التي تركاها ورائها ؟
ثم ماذا عن الثمن الباهظ الذي يجب مواصلة دفعه جريا وراء ما قد يكون وهم الأوهام ؟

**

وقال لهم الصدى واصلوا الطريق لا تحبطكم آلام الدمار والاعمال

من مذياع السيرة المرهقة بثقل السنين تكثني آخر الأخبار عن الحروب العنيدة الجارية رحاما في العالم، عن الحرب الكبرى الهائلة العواقب التي بدأت الاستعدادات الحثيثة لها، عن آخر الأوبئة، عن آخر الجرائم في هذا المجتمع أو ذاك.

على فكرة، كم غريب أن لا أحد من المفكرين الكبار والصغار انتبه إلى أن آدم وحواء أخذوا قرارا غير ديمقراطي بالمرّة حيث لم يقوموا بتنظيم استفتاء حول خيارهما المتهور والأحادي.

نعم كديمقراطي (ولو تائب) أقول إنه كان عليهما مواجهة ذريتهما بما ينتظرهم في العالم المجهول.

ألم يكن خريا بهما أن يواجها المسافرين في القرن العشرين بما ينتظرهم: العيش في عالم الماكرونالد والكوكاكولا والكاجيبي والينك الدولي ومحتشدات أوشفيتز والطغاة النمويين واقتنابل الانشطارية وبرامج "اربح للمليون" ومرضى الزهايمر والموت بسرطان الثدي للنساء والإسهال والحصباء والسعال الديكي للأطفال؟

نعم كان عليهما مواجهة ذريتهما فردا فردا بتكلفة العملية أنت، نعم أنت، هل تقبل بقضاء جلّ أعوام الرحلة في منجم ملح أو في معمل رخام أو في حقل أرز أو في حقل قطن أو على الرصيف بقرب محطات القطار لتتغصب ويمرّ إليك فيروس قاتل؟ وأنت هل تقبل قضاء جلّ عمرك في مخيم لاجئين؟ وأنت الغبي الآخر، أترضى برحلة تنتهي ضح سطرأ أحمرّ تحت الخيار جريحا في ساحة معركة، مشنوقا، مقطوع الرأس بضربة سيف بارعة، في فرن للتصفيات الجماعية، تحت الأقدام إبان حجّ ميمون، بالتخمة، بالجوع، في سريرك عائما في إفرازاتك من فرط خوفك من قرب حضور عزرائيل؟ .. وأنت الذي يحاول الاختفاء وراء الظهور؟! لا فائدة من المحاولة، اعلم أنك ستنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل وبسببك أيها البلبد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخطّ "ب"، مما سيضطرّ الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشائمون والجميع -ومنهم كاتب هذه السطور- يستمترون اللعنات على رأسك أو ما بقي منه. لألك لم تجد ما تنتقم به غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين الجائعين أمثلي. أه نسيب أن أقول إن عمّالا في قمة التقوّر والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرموه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعاد مقبرة، وأن سائق القاطرة سيعطى أسبوع إجازة وسُجّل على طبيب

لشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسُّوق المساكين ضحايا أمثالك من المجانين
وما أكثرهم هذه الأيام.

نعم كيف لم تصرخ حواء في قبيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك وأنت كالدابة تجر
الحجر والملح والرخام، لوسط يكوي ظهرك، الجوع يمزق أمعائك، العطش يلهب
حلقك، الهوام تلسع وتعصن... وكل ما تصلي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة،
أه لو نبه آدم هابيل أن بإمكانية طاوله القمار أن تسحب له حياة المشتد، العبد، السجين،
المخصي، المومس، القواد، المستبد، الجلد، الجلع، المريض، المجنون، المشؤم،
المعلق، الثائر الفاشل...أو الفنان العبقري

من يستطيع استحضار ما عاناه يتهوفن من الأم قبل وأثناء تجميعه الأنغام التي سحرت
الملايين من كل الأعراق والأديان وسبقى تسحر كم من مرتحل آلاف السنين بعد رحيله؟
أي أزمات نفسية رهيبة دفعته لتدمير كبده باستهلاك مفرط للكحول؟ كيف واجه فقدان
السمع وهو الموسيقى الذي لا يحتاج لشيء أكثر من حاجته لسماع ما يؤلف من أنغام؟
وقبل يتهوفن من يستطيع تخيل عذابتك شوبرت وموزارت كم من علاقة الفن والفكر
الذين صنعوا معالم العالم اللامادي الذي نعيش فيه؟

أي مؤرخ موسوعي قادر على جرد كل ما تكلفه البشر من دماء ومن دموع ومن عرق
على امتداد آلاف السنين في محاولتهم اليئسة لترويض مختلف فضاءات العالم والسبب
الرئيسي صراع الادميين أنفسهم في عالم هو بالنسبة إليهم ساحة لعب وسلحة مغالبة.
تقول ومن أين لهما العلم بكل هذا والمسكينان لم يخترعا بعد القراءة في الفلج؟
صحيح، لا بد إذن أنها مسؤولية الصدى لأنه هو كل قادرا على قراءة المستقبل. لمن
لشكوى إذا كان القاضي هو الغريم؟

لمزيد تعكير المزاج يتجدد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة.
سيكون الرجوع من المدرسة بالقطنين الشريكتين تحديا عسيرا لأعصاب لا ينقصها
التوتر. لأفتعل اللامبالاة فالصراع غالبا عملية مسرحية لا تتواصل إلا باهتمام المشاهد.
كم من حروب كانت تتوقف سريعا بغياب المقرجين أو بتصاعد تناؤهم.
يتعالى الصراخ نذيرا بأن المعركة مرت من الترائق بالكلمات إلى العضّ وجذب الشعر.
يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكنزة من
أسفل الظهر محمية بالمعطف الغليظ.

- والأن هل من الممكن أن أعرف سبب المشاجرة؟

تشهق تقيحه بلدمع:

- قلت لها كم من مرة أن تنظر من نافذتها. لكنها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد
نافذتي لي وحدي.

تصرخ ففاحة تشهق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنَّها تدبر ظهرها لنافذتها، لا تريد إلا النظر من نافذتي.

بريك، أليست أغلب المشاكل التي يتحدَّث عنها مذياع السيرة وتلفزيون البيت كل ليلة نتيجة أن الرئيس ريدا غضب من الملك عمرو فجَهز الجيوش وبعث بحملة الطائرات وبالغواصات النووية المحملة بالصواريخ العابرة للقارات لتدمير مُدنه عقابا له لأنه نظر من نافذته بدل من استعمال كل نوافذه هو؟
أصرخ بأمر اعراف وقعه الحقيقي.

- انظرا فقط أملكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول ما يجري خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدِّي والعدوان المبيِّت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيارة أجد تفلحة واضعة ذراعها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفيحه ورائها تخرج لها لسانها.
تعود البنتان للخصام يختلط ضحكي بصراخهما وصراخ أمهما من الصالون تصرخ بالكف عن الصراخ.

كيف تحمل المزيد من صراعات هؤلاء البشر صغارا وكبارا وهي لا تتوقف داخل غرف النوم، داخل السيارة، في المستشفى، في الجامعة، في الحي، في الوطن، في العالم بأسره. من حسن الحظ أنهم لم يصلوا المريخ بعد وإلا لكانت أهم ما في نشرات الأخبار حروبهم بين الكواكب. ألم بين الأوان لوضع حد لكل هذا السيرك؟

*

أخيرا الليلُ وأمل نوم دون كوابيس لكن ثمة آخر واجب ابوي لهذا اليوم.

تصرخ البنتان وهم تقفزان على السيرك: القصة، القصة، القصة، القصة، القصة، القصة!

- قصة؟ بعد كل ما أظهرت ما طيلة السفر من سلاطة لسل! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد. على كل حال الدور ليس علي، أعتقد أنه على تفيحه شريطة أن تكف عن الرقص على السيرك.

- تفيحه لا تعرف شيئا، "يا"، أنت من يقود القصة.

لا يا حيويتي أفضل أن تقودها أنت، لأن التي تختتم داخل ذهني ليست من النوع التي يجيبها الأدمي...إنها قصة عن قرار الأدميين التنكيل بالعالم الذي ينكل بهم وقصة موازية عن قرار العالم التخلص من هذه الكائنات التي خرجت عليه ككابوس من كوابيس الرب.

لا بد مما لا بد منه. أي قصة أختار لهذه السهرة تتماشى مع مزاجي دون أن تقضه؟

طبعاً قصة مستمدة من هذه الأساطير التي أجمعها من كل مصدر وفيها لمن يجيد قراءتها كم من حقائق مغلفة بقدر كبير من الذكاء وقدر أكبر من المرح وحتى من السخرية الذاتية.

لم لا قصة الطوفان وكيف حاول العالم التخلص من القاصمين الجدد وكيف أنهم لم يمانعوا في الأمر إلا ظاهرياً؟

تصرخ تفاحة من أولى الجمل :

-إنها قصة نوح

تصرخ تفاحة وأنا أيضا أعرف أنها قصة نوح .

ما لا تعرفه البنتان ولا أي من الأسميين الساميين والهندوس الذين اخترعوا هذه الأسطورة حقيقة ما جرى. وحده من خبر كواليس السلطة وكيف تؤخذ القرارات المصرية قادر على رواية القصة كما وقعت.

إذن من دون تطويل.

"ولما عزمَت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان" ⁶

قف، عن أي آلهة يتحدث صاحب التقرير ثم لماذا عزمَت على تدمير العالم ولماذا بالطوفان؟

بعد قراءة متمعة لمحاضر جلسات اللاعبين الأسليبيين ومكافحة تقارير كل عيوني الميثوثة في كل أركان الفضاء الخيالي الذي تتحرك فيه البشرية، يمكننا أن نكشف لكل قراء الرحلة تفاصيل أهد أخطر تقاطعات الطريق.

يومها افتتح الجلسة المهيبة لمون -رع بنفسه.

-أيها الزملاء والزميلات المسجلين في دفتر آلهة البشرية المعترف بهم قتلوني، اجتماعنا الليلة بلغ الأهمية حيث لم يعد مجال للتراخي والتأخير في موضوع الأهمية. حتى لصدي يبدو أنه انتبه للغلطة التي ارتكبها. هو مثلنا جميعا مصدوم من هذه الكائنات. أخيرا فهم أن آدم ينوي أن يكون صانع العلم لا صنيعته، ماله لا مملوكه.

يتدخل زوس بقوة:

- حقًا لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على الدمار الهائل الذي تلحقه هذه الأهمية اللعينة بالحديقة المقدسة. هل رأيتم كل هذا الحمق والتهور والقسوة في اقتلاع الغابات وتسميم الأنهار والمحيطات وتلويث السماء والأرض؟ هل رأيتم هذه الوقاحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظها العائر أن يضعها على طريقها؟ بل هل رأيتم فظاعة حروب هؤلاء البشر وامعاتهم في قتل بعضهم البعض. قتلها وأرددها أكثر من أي وقت مضى: الأدمي كائن لا يصلح ولا يصلح. يجب إيقاف هذه التجربة حالا، يكفي ما كُفّت.

ينفجر بعلى ضاحكا:

- آه الآن انتبهتم للكارثة! أما أنا فمُنْتَبِه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فُجرت على رؤوسهم بركان "تويبا". للأسف قدرة هؤلاء الملعين على الصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ إيزيس في وجه بعلى:

⁶ نص شهير منقوش على حفرية من البحرين عمرها بضعة آلاف من السنين (الناشر)

- أنت سبب تلك الكارثة العظمى! أخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة لكنك نجحت في تدمير كما هائلا من الأجناس البرينة! أما وحقي لا يوجد رب ثانوي أعبى منك. يصرخ لمون رع بأنه لن يقبل الخروج عن آداب الجلسات العامة ويلمّر الإلهين بالكف عن تبادل اللكمات فهذا اجتماع رباني وليس حلبة ملاكمة. يستطيع أخيرا كريشنا أن يسمع صوته:

- لا، لا، كلكم تبالغون في التجنّي على جنس بالغ الطرافة. يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصاخب:

- كيف؟ نسيت ما قلته في سهرتنا عند اللات والعزى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم. يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:

- قلتها من البداية وأردد لا خيار غير اغراقهم بالطوفان. يتدخل وطان بالعنف المعروف للإلهة الإسكندنافية:

- نعم لنغرق الكوكب كله حتى لا نترك فرصة لمختبي في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".

تسارع أئينا بالموافقة:

- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحلّ يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسمك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرّة. وحدها إيزيس المنهمكة في ارضاع ابنها حورس من تعترض بالطيبة المعروفة عنها عن كل قرار بتصفية الأدمية.

لكنها مشغولة برضيعها وليست مستعدة لأكثر من ابداء رأي خلافا لإله شاب مستعد للذهاب لأبعد من التعطف مع الأدميين.

تقول بقية النصّ المحفور في ذاكرة اجمل الأساطير.

"أراد الإله إينكي/نقلا الأدمية"

من إينكي هذا؟

كل ما نعرف عنه أنه هو الذي حمانا من الانقراض وأتنا ندين له كلنا بوجودنا ومع هذا لا اسطورة تخترع له ولادة رائعة، لا ملحمة تتغنى ببطولاته وأمجاده، لا ديانة كبرى وحتى صغرى تقدسه، لا أتباع يلهجون بحمده ولا حتى معبد صغير فوقه رخلة شكر وامتنان. ألم أقل لكم دوما أنني لم أجنّ على الحقيقة بخصوص لوم الأدميين وأن أهم خصائصهم الجحود ونكران للجميل.

طيب، لكن ما الحجج التي ساقها هذا الإله المظلوم كي لا تنتهي رحلة الجنس البشري برمته.

[تلخيص المرافعة القيمة]

“أيها الآلهة أيتها الآلهات، حضرات الزميلات والزملاء:

نعم أنتم محقون في استنكاركم للعدد الهائل من الغابات التي دمرها الأدمي، للعدد المريع للحيوانات التي أذلت واستترق وأباد. نعم الأدمي مجرم كبير لا جدال في ذلك، لكنه أيضا ضحية كبرى. لا تنسوا كم كن ولا يزال طريدة الكواسر المجهرية التي حصنته بالملايين عبر العصور. تذكروا ما عانى ولا يزال من تقجر البراكين، من ميدان الأرض، من غضب السماء تعاقبه تلة بالجفاف وأخرى بالفيضان. ثم إن قضينا الآن على الأدمية فيماذا نعوضها؟ لنتركها تستند وقتها القلوني ونعد المكان للورث. بخصوص الأجناس التي يتحسر عليها لسن النافع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وفي كل الحالات التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس مثل بقية الأجناس الحية الأخرى-الحق في الخمسة ملايين سنة القانونية.

ختاما أودّ تنكيركم هذه تجربة خاصة يراقبها الصدى لا غير، وهو لم يعط أمرا بليقها خلافا لما يدعي بعض الزملاء والزميلات.”

يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهتدة بالانقراض نتيجة تواصل البشر، وهو ما قد يحيلهم إلى التقاعد المبكر ويقل من سلطاتهم داخل المجلس المؤقت. لإنهاء نقاش مرهق يتفق الجميع على الحسم بالتصويت.

لا يحصل إنكي إلا على صوته وصوت ايزيس فيخرج غاضبا ومعتنقا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع لأن المصالح الضيقة بدأت تغطي على المصالح الكبرى. على كلّ هو قزر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته. بل هو خطّط لكل التفاصيل حتى لا تتجح خطة زملائه غير الأعزاء. كيف؟

تواصل الأسطورة: "فاختار الملك زيوسدرا وعلمه بناء السفن ليحمي حياة الإنسان"

ويقيم في أرض العبور

أرض لملون حيث تشرق الشمس".

والآن كل التفاصيل عن أكبر عملية انقاذ في تاريخ العالم كما وردت في التقارير المتقاربة.

ينهر إنكي آدم -المسمى الآن الملك زيوسدرا اصار خافيه أن يعجل بالعمل وأن يكف عن الشجار مع أنثاه قبالا بكل ما تريد حمله من عش حتى وإن كان غير ضروري. أخيرا يصبح آدم جاهزا للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من آثام الأدميين. يعمّ الماء كل شبر في اليابسة مغرقا كل ما تحمل على سطحها من بني حرية وآل ثبات. تبدأ السفينة في تسلق الموج تارة وفي السقوط تارة أخر في هاوية تبدو بلا قاع .

على متن السفينة التائهة في هول الطوفان تفكر حواء في الانتحار، عاقت النوار ومَلت مشاكل لا ولن تنتهي مع آدم وغدا مع ذريته الشرسة.

تندافع الأفكار السوداوية في ذهنها المرهق: شكرا لك يا اينكي على حسن النوايا، لكن هل ثمة شيء في هذا العالم ما يستأهل البقاء من أجله. كم كانت فكرة الفرار من الجنة طمئنة. حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بلكوايبس الذي نسميه "الحياة"، وما على آدم إلا أن يتبعني في اليمّ أو أن يجزّب خلق حواء أخرى من عظم الساق. من أدرى مني أن هذه الأثني تمثّل علينا وعلى نفسها، أنها ستتدبر أمرها لتكون التبعات الوحيدة لقرارها تسميم ليلة طبيب الحراسة. ككلّ انتحار أثوي خفيف لا بد له من إخراج جيد. تنتظر حواء قبل افتعال رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم، أن تخترق أشعة القمر كثافة السحب ليراها آدم فيقرب منها ليمنعها بوابل القبل من تنفيذ قرارها.

أصرخ فيها: هيا خلصينا، افزي؛ قترمقي بنظرة سوداء. حقا لا أفهم كيف أحبّنتي "ما" طول حياتها ولا أتحدّث عن "ح"؟
البيتان بصوت واحد مثقال: "با"، لا نجّك إذا واصلت هكذا. ثمّ ترحلان إلى الضفة الأخرى للعالم.

يمكنني أن أوصل القصة لنفسى غير متيقن حتى الآن إلى اين اريد الوصول بها. إنن تنفس "اينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حواء عن فكرة الانتحار وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلّة خبرة الربان. كل الأمور على ما يرام. كيف لا والصدى يدعم خطّه من وراء الستار.

المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من صغار الآلهة -ومن بينهم عدد لا بأس به من الانقلابيين- إلى اجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرد وإحالته على المحاكمة، وخاصة مواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

ومما أسرت به كالي في أنن أفروبيت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:

- مسكين اينكي، لا شك أنه يجلم هذه اللحظة بحمامة تطير من السفينة بحثا عن الأرض لصالبة التي ستصلها للسفينة. أه لو يعرف ماذا أعدنا له؟

ينقضّ جبل من جليد من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة نجاه الأدمية. ها هي تغوص في الأعماق وقد أصبحت هي الثابوت والمحيط المقبرة.

تصرخ تفاحة وهي تغالب للبقاء مستيقظة

-هذه قصة التيتانيك، شاهدت فيديو جميل عنها

تهمس تفيحة لنفسها

أنا أيضا اعرف أنها تيتانيك وليست وحدها تفاحة التي تعرف.

نعم إنها قصة التيتانيك لا أحسن منها لتطعيم قصة نوح واستخراج أقصى ما يمكن من المعاني من تلافي القصتين.

عودة للأدميين المساكين وهم في أصعب وضع يمكنهم مواجهته على طريق لم يبخل عليهم بكل أنواع الصعاب.

هل يُعقل أن تموت الأدمية في اللحظة التي اقتنعت فيها بضرورة الحياة؟ ثم ماذا عن الحيوانات البريئة؟

يمسك آدم بشعر حواء يجزّرها إلى الخشبة التي يمتطيها صارخا كالمجنون: البنتان، البنتان؟

ترفع تقيحه عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشده؟

تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تقيحه؟ يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.

- انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الأدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدى، أصر، تمسك، تشبث بالحياة؟

تتضرّع حواء للصدى لا تعرف أنه هو المنقذ وأن إنكي أداته لا غير: أعطنا فرصة أخرى. سننجز المهمة هذه المرة وسنعود لك بهذا الذي بعثنا نبحت عنه.

إنكي الآن على زورقه مجدفا ببطء شديد يتحسس طريقه في الظلام الدامس.

تصرخ فيه تفاحة دخلت حلمي ودخلت حلمها: انظر يا إنكي إلى يسارك، تقيحه على مرمى مجداف، إلى اليمين قليلا. هكنا، نعم هكنا، والآن ترفق في جذبها وغطها بسرعة؛ إنها تموت بردا، لا تنس دميّتها إيتي وإلا سترفض لصعود. ثم تتوجه إلى

- "يا؟"، انظر لقد جعلت زورق الإنقاذ يصل في الوقت ويتشل الجميع؟ لست رائعة؟ بل أنت أروع من رائعة يا حيوبتي. أنت الحياة لا شيء آخر. برافر لك وللرب إنكي.

كأنّ صبرك نفذ من هذا النص ومن تناقضاته المفصوحة.

مهلا يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في عقدة قصة القصص والأدمية منذ انبثاقها مقسمة بين إغراء لا يقاوم للوجود وحنين جارف للعدم.

**

وقال لهم الصدى ستعلمون كم في تجربة الوجود من نَعَم

تستيقظ تقيحة باكية، ترتجف بردا مبللة بمياه المحيط. تتقلب على جنبها تترك عينها بلحثة بعصية عن دميئها ايتي. تسارع تفاحة تحكم حولها الغطاء.

- "ب1، حلمت حلما مرعبا...ظلام ومياه سوداء وسرير مستشفى وأنت جالس حنوه تيكي... بءاء"، دثري.

تكف طفلة الخمس سنوات عن الارتعاش. تستعيد جيوتها، عادت إليها الطمئينة وهي بين الأحضان الدافئة.

- لا أحب قصتك، كل شيء فيها مخيف وقبيح.

- أنا أيضا يا حيوتي لا أحبها، لكن ما حيلتي. هي التي ترويني، لست إلا النقل.

- لا، لا، إنها غطتك، أنت لا تعرف كيف تقود القصة.

تتدخل تفاحة بحزم:

- من هنا فصاعدا لن يكون في قصتنا إلا "كثيبيير" من اللعب والفرح والأشياء الحلوة. أنا أفود ولا أحد يقاطعني وإلا هربت بالقصة إلى غرفتي.

إذن وبعد النجاة من الطوفان أرسدت لسفينة لمحملة بالناجين من الغرق على شاطئ جزيرة "جمبيبييلة" جدا جدا ليس فيها إلا الأزهار والأعشاب والأرانب والعصفير وغابات لم يكن فيها ذئب في النهار ولا غول في الليل. هكذا كان يوسع الطفلين اللعب فيها دون أن يخافا أو أن يخاف عليهما أبواهما.

تقيحة هامسة في أذن أختها: لا تنسي الفراشات والجدول الصغير حيث أستطيع المشي دون أن أنزلق على أحجاره الملساء.

البيتان هما الآن من ترويان قصة العالم لأبيهما داهمه كسل ممتع

تفاحة: ذات صباح والشمس تطل من وراء سحب لطيف، أرادت الطفلتان الخروج للنزهة والجري وراء الفراش بالقرب من جدول صغير لم تكن فيه حجارة ملساء واحدة. لكن "ما" قالت: ليس الآن، فلا بد من طبخ الكعكة في الفرن وأنا بحاجة إليكما. فصرختا لا، لا. نريد الخروج الآن. فقالت "م1": إذن هذا "ب1" معكما فهو سيزعجني إن بقي يتفرج في إعدادي الكعكة وسيزعجني أكثر إن حاول إعانتني. والآن هيا كلكم، جميعا خارج المطبخ، لا أريد أيا منكم بين رجلي قبل أن أدعوكم إلى الحضور. أذاك لا يتكأ أحد فالكعكة لا تؤكل إلا ساخنة.

تقيحة: ما هي إلا دقائق معدودة حتى غابت الطفلتان عن الأنظار وهما تركضان لكن "ب1" رفض الجري معهما هذه المرة لأنه كان متعبا من كثرة العمل، فجلس بين الأعشاب

حذّر الجنول الرقراق مَنكنا على جذع شجرة بصرخ: لا تذهبا بعيدا وإلا فسناكل الكعكة باردة وستحتجّ علينا "م١٠". "يا"، يمكنك أن تقود القصة قليلا. لا تنس تحذيراتنا وإلا نسحب منك الكلمة.

لا خوف من أي انزلاق وأنا أسكن الآن الوجه المضيء من العالم، تلك الذي نعيش فيه أرواح الأحاسيس والمشاعر وتُتَبِّنا فيه أروع الأفكار.

أفضل لئ تواصل . هكذا يجب أن تكون الأمور والأطفال هم الذين يروون القصص لأبائهم وأمهاتهم حتى يأتيهم نوم هنيئ

تفاحة وهي تهزّ والدها بلطف:

- "يا"، ارتفع شخيرك، انظر إلى الإكليل الذي صنعته لتفحيه. الآن أنت الذي ستصنع لي إكليلًا.

هيهات أن تخلص من إزعاج الأطفال. هل من خيار آخر غير النهوض متثاقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية، أنظمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثيا على ركبتي أعتل من وضعها.

- هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفحيه ولية عهدها.

تصرخ تفحيه وهي في قمة الجذل:

- المطر... المطر... المطر!

ترفع البنثان عقيرتهما: "أنا أعني تحت المطر..."

- تغنيان دون شمسية! لكن البطل لا يغني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.

تلقط تفحيه عُود خشبٍ ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكل مشغول بلشمسية دفاعا عنها واقتكالا.

تنثبه تفحيه للأوامر القائمة من بعيد.

- "م١٠"، تناديننا عَجَلًا.

تنثبه تفاحة لأمر آخر قد تترتب عليه بعض العواقب المزعجة. ترفع إصبع التحذير:

- انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضر من فرط الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك! م١٠. لا داعي لتتقطن للأمر.

تضع الأصبع بين أسنانها مستغرقة في التفكير.

- سندخل البيت خلسة ثم تعطيني البنطلون أنظفه.

الحلف الأزلي بين البنث وأبيها ضد الأنثى الأخرى ولو كانت أما وزوجة... حلف لا يضاويه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضد الذكر الآخر ولو كان أبا وزوجا.

حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه!

كأنني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه يصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفد من طول هذا الفاصل.

هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول اقتعال مُوء القطر. ربما لا يفعل سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. من يعلم أحسن منه أن هذا الأدمي الممعن في وداعته، إنما يستعيد قواه للانقضاض عليه مجدداً؟

المهم أن تدوم الألفة أطول لحظة ممكنة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الأدمي العالم وشأنه لا يحاول تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الأدمي وشأنه لا يريد امتحانه، أو ترويضه ولا للتخلص منه. أتوجه إليه: دخيلك انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحنا مهلة إضافية.

تعود إلى العالم ابْتَسَلَمَتَه. ربحت هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها. نتدافع ثلاثتنا نحو الباب لمواجهة منعا صارما بدخول بيت نُظْفَ لتوّه ونحن بكل هذا البلب والوحد ملء أحنذيتنا. تصرخ الزوجة المزمنة والأم الأزلية:

- لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحنذية. نتحملون وحدكم - وخاصة سيادة الأب - مسؤولية الزكام وما ينجر عنه من مشكل لا نخل لي فيها. شكرا على الباقية يا حبيبتني إنها جدّ جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغيّر شيئاً بخصوص الأحنذية. تُنزع كُلهَا في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفّة. تراوخ تفاحة كسبا للوقت.

- أجدك "ما" أنني سأنزع حذائي وسأغيّر ثيابي فيما بعد، أنا جانعة والكعكة ستبرد وهي ليست لذية إذا بردت.

- الدلال مع "ب" فقط، قلت الآن.

لا شيء في نبرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجدد الخصام، ومع ذلك لا شك في جدية الأمر واستحالة تجاهله. أخيراً وبعد تغيير الملابس والأحنذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زُهوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها. تحتجّ ضاحكة: كفى قُبْلا بأفواهكم المملخة. النجدة، إنكم تخفقونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال!

تستعيد تفاحة زمام مبادرة أفلتت منها أطول مما تحتمل.

- "يا"، الآن نلعب لعبة المدرسة وهذه المرة أنا المعلمة، وأنت و "ما" وتقيحه التلاميذ.

- طيب، إذن تفاحة معلمتنا ونحن التلاميذ، تقيحه على يميني و "ما" على يساري.

تقف أمامنا تفاحة تلوّح بعصاها وعلى قسماتها علامات الأمر والنهي.

- سنبداً درس. لا أريد التشويش من أحد. تلميذ "ب"، كف عن الضحك وكذلك التلميذة "م". تقيحه، اكنبي في كراسك: ذهب قبيل إلى الغابة وعاد بباقة زهور إلى أمه.

تصرخ تقيحه: سيدتي، التلميذ "ب" قرصني، قرصني، قرصني، قرصني!

- بريء والله يا سيدتي بريء.

من يدري ربما لكون فعلا بريئا.

تحتج التلميذة "م":

- أنا من قرص نفيحه؟ يا ولد يا كذاب.

يشتمل حريق المسطرة في أصابع طفل ذاق الأمرين من مساطر المعلمين.

أصرخ أه يا أصليعي، قتلرني نفاحة بالصمت ثم براءة أول صفحة من كتابها. تتبخر الأحرف أو بالأحرى تصيح هير وغلبيات لا أعرف لها نطقا. يتعثر لساني لا أمثل أو أفعل. إنه رفضٌ وعي الباطني التعرّف على الحروف، بل قل الاعتراف بها حيث لا مكان للكتب ولكتابة في عالم كهذا استعاد أخيرا عقيبته. تقول ماذا عن الشعر! حتى الشعر، خاصة هو، فأغلب ما فيه صراخ الألم لا يغفر له حتى أنه صراخ أنيق.

ينفذ صبر "سيدتي" من تواصل قرص نفيحه ودغدغة أمها.

- تلميذ "ب"، أنت تشوش. قف ووجهك للحائط معاقب لنهاية الحصّة.

أفقت أمام الحائط وقبعت من الورق فوق رأسي تثبت ما لا داعي لإثباته، فالكل يعلم منذ قديم الزمان أنني حمار القسم. تسترجع الذات بسرعة عاداتها القديمة مع كل الحيطن التي أوقفوني أمامها. ستكون جولة ممتعة في الشروخ والبقع. لكنني الآن في غير العالم الذي كنت أفق فيه أمام الحائط أكثر عن ذنب لم أرتكبه. هذه حالة خاصة جدا يتوقف فيها العقاب حال بدايته، على فرض وجود العقاب فيه وحتى فكرته.

- تلميذ "ب"، عد إلى مكانك ولا تقررص نفيحه مرة أخرى... لا، من الأحسن أن تجلس على الأريكة شريطة ألا تغافلنا فنتام.

تصرخ نفيحه: أنا المعلمة. تثب على أختها تفتك منها العصاب. تبدأ في إعطاء الأوامر. تنهمك نفاحة في قراءة النص الذي أمرت بقراءته. تغتم "ما" الفرصة للانسحاب وأغتمها لدخول قوقعتي.

تقطع على عودة الإغفاء معلومات منفردة عن نشوب شجار آخر بين سينتي وتلميذتها المشاكسة، عن بد ترفض بقوة تسليم أناملها الخمسة لحريق المسطرة، عن لسان يخرج في ظهر المعلمة يستقرها. لا شيء جدي في هذه الخصومة فنحن في الوجه المبارك للعالم الذي ليس فيه إلا القصص التي نحب.

*

للعالم كما للقمر وجه مظلم ووجه مضيء. الوجه المظلم أين تسود الحرب ويستأسد الغياء والقيح والشتر والذي منه كل نعمة سيد الموقف.

ثمة الوجه الآخر أو قل طوال حالة هدوء عبوة لم يعد يلاعبنا ابانها لعبة القط بالفأر. كل الأفعال في هذا العالم -أو قل في حالته المباركة هذه- هائلة، سهلة، بسيطة بلا تكلفة أو رهان... بلا أهمية في عرف تلك العالم الآخر الذي سواصل التعف عن شمه من جديد.

إنها ليلة ساخنة والصيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة. كم من مواضع
 سنشد المتسامرين بالحديث إلى آخر هزيع من الليل مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون
 بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما طرفة الحبور والمرح.
 إنها نوادر عن جيرانٍ وصلوا متأخرين عن مواعيدهم ... عن أقارب ركبوا القطار في
 الاتجاه المعاكس... عن ربّات بيوت أطارت الريح غسيلهن فجاء الجيران به البهين... عن
 الزواج الذي تُلخّر أكثر من مرّة لعدم توفّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّر القرار على
 الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حصباء بنت ابنة العمّ التي أصابتها يوما قيل
 الامتحان فقبل المعلم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي"
 إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى
 خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل
 فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث
 أتى ليأتي بأخرى كاملة للضيوف.

لا مكان بين الجلسين لمتجهم، كلهم استبتنوا نصيحة الشاعر:

قل البشاشة ليس تسعد كانوا يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (إيليا أبو ماضي)

قلت ابتسم مادام بينك والردى شبر فانك بعد لن تنبسا

وسط سلحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصل العسات والخالات الشكوى الضلحكة
 (الرجال! الله وكيلك، لكن "الله يخلي لنا رجالنا") ثم تبادل آخر أخبار الحيّ (همسا) عما
 يقال حول حبّ فلان لفلان وكيف أن الخطبة تمت سرا وأن العرس قد يحصل حل عودة
 الخطيب من بلدان المهجر محملا بالهدايا...

تتجدد معجزة الحياة لا شيء فيها ممل التكرار.

يجمع الحبّ كئنين رقيقين يمزجان روحيهما وجسديهما يفتحان وهما في ذروة الشوة
 طريق الحجّ للحاجّ الجديد والشاعر كعادة هو الشاهد على الليلة القتسية.

في ليالي كتمت سرّ الهوى بالندجى لولا شمس الغرر (ابن الخطيب)
 مل نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
 وطرّ ما فيه من عيب سوى أنه مرّ كلفح البصر
 حين لذّ الأتسُ شيئا أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
 غارت الشهب بنا أو رنما أنثرت فينا عيون النرجس
 ساحر العقلة معسول للمي جل في النفس مجالّ القفس
 سدّ السهم وسمى ورمى فقوادي نهبه المقترس

ينكّر بطن حواء شيئا فشيئا فيتعلّم آدم عادة جديدة لن تقارقه إلى يوم خروج الطفل
 الموعود: متابعة نقت القلب وأذنه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على
 شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق.

تأمره بإعداد القهوة لأنه ينتج دوماً أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق.

ثم ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، فتمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذاقتها.

يفتعل التواضع يستحثها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيه ما يريد وبعض القيلات زيادة، ثم تنهض لتعلق الغسيل على الشريط، تفكّر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

في هذا العلم جلّ قل طوال حالته المباركة يصل الطفل الموعود في الابن ودون تكليف أحد مشاق حضوره ولا حتى أمه وهي تضعه كما تنتفح الوردة لإطلاق لريجها. ها قد كبر مالكا كل أدوات استكشاف العالم وها هو يركض مع صبية يدفعون بعضهم بشدة مفتعلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحثون شيئا قدر شدّ شعر البنات. ها هو يبحث عن أعذار تضحك كل من حوله: والله يا "ما" لسئ أنا. يكذبون علي. آه يا أنني.

تؤنّبهم الم الأزلية والان كفت عن الركض أصبنتي بلدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك.

أنا قلت لا أشرس من الأدمي وهو طفل، لا أعنف من الأدمي وهو طفل، لا أظلم من الأدمي وهو طفل، ولا أشد أنانية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمّهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. إنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تم الاستيلاء عليه من قراصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات والجيدات والخالات والعمات - خاصة المسجلات في القوائم الانتخابية-والله تقدّمي كمعارض بدائي للرضع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليل أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه يؤسعي إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النافذة حتى عندما يتولنا علي أكثر من مرّة. أما بخصوص الأطفال فلما على قناعة على الأقل هذه اللحظة-أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.

وفي هذا العالم جلّ قل طوال حالته المباركة هذه-يعكف الطفل على كراس يضيئه نور المصباح. يهرش رأسه، يتشاءب ويغفو. ثم ينتبه فيعود إلى التمرين يتعلّم تصريف الأفعال بانتظار اليوم الذي سيخرج فيه باحثاً عن الفعل الذي كان له البذرة الأولى. يسقط الكتاب من يديه ويسقط رأسه على الصدر فتقدم "ما" على أطراف الأصابع تحاظر ألا يصدر منها صوت. تجمع الأقلام ببالغ الرفق. تحصل ابنها ببالغ اللطف للفراش. تسمح على

شعره تُغالب ضحكها. تطبع على الخد الصغير قبلة الحنان والحبّ واضعةً على جسده النحيل كَمَا خانقا من الأعطية بحجة قدوم الشتاء وسرعة إصابته بلرشح.

وفي هذا العالم -أو قل طوال حالته المباركة هذه- يثبّ الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجلٍ اقتطعها من جزء من الزقاق الضيّق خلف البيت. يضع صورته الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع الدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحيّ لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظمّ. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذه. تبدأ المباراة بتصنيف النوى في خطّ مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشّون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابتها القنفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكداس نوى مشمش الخاسرين. ياله من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من العثّ. ثم ينفجر الفرح دخله ودخل الرابحين والخاسرين على حدّ سواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هائجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مفتح وغير مقتنع من طرف الجيران.

يطرح هذا التساؤل إمكانية وجود أماكن أخرى قد لا تصل مكانة البيت لكنها توفر هي أيضا بعض أروع لحظات تجربة الوجود. تقول لنجعل على رأس القائمة السيرك.

لّف والعياذ بالله! مكان يضحك فيه الأطفال من مهرج حزين وتضطرب فيه حيوانات أسيرة للقيام بحركات سخيفة مهينة خطيرة عليها! كلاً ثم كلاً، لا مكان لمثل هذا المكان في العالم طوال حلته المباركة هذه.

المعجب! تقصد المكان الذي أريقت فيه نماء القرابين البشرية والحيوانية على مرّ العصور... المكان المطوق بالإسمنت والحديد وبطوابير البوليس تنتظر تدافع جماهير مقموعة لتفجّر ما بداخلها من عنف مكتوم... المكان الذي تشاهد فيه القطعان البشرية المرعوبة تهروا نحو باب الخروج فتتساقط الأجساد عفا بالأقدام... المكان الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلية الانقلاب... الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة... الذي ينظمون فيه مسابقات الغرور... الذي يمشون فيه بخطى عسكرية حاملين أعلامهم... الذي يقف فيه الزعماء المنفوشون كبرياء يصقون طويلا لبني عائلتهم ويجلسون حالما تظهر أعلام العوائل الأخرى... الذي تنتهي فيه كل الألعاب بهزيمة هذا وانتصار ذاك... نعم سأضعه على القائمة وسأذهب إليه ومعى تفلحة ونتيجة يوم يعرضون فيه ألعابا تنتهي دوما بمنتصر ومنتصر.

رأبي الشخصي الذي لا يلزم سواي أن أجمل مكان في هذا العالم -أو قل طفلة حالته المباركة هذه- (بعد البيت طبعاً) حديقة عمومية تنفع فيها أم جميلة عربية رضيها تجلس بالقرب من البركة الصغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن أحر الأخبار.

لنصف إلى الصورة العجوزُ التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبعج والكائنات تتدافع إلى نصيبها من الخب ومن الخُب.

تقول: لا تنسَ مقهى صغيراً على الضفة الأخرى للبركة يسعد فيه الرجال باحتساء القهوة السالخة وتبادل أحر النكت. حتى أكون داخل الصورة سأجلس على العشب والظهُ مسنوداً إلى جذع أرزة أملاً عيني من كل هذا الجمال الوديع، أنتفس ملء رئتي أريج الورد ورائحة العشب المقصوص لتوه.

ثمة أيضاً مسرح" الباليه". لم لا يكون هو صرة العالم في حالته المباركة هذه. أليس المكان الذي نخرج فيها اللسان لمن فرض علينا أجساداً للمرض والموت فجعلنا منها لُوات لاستكشاف الخفة والرشاقة والجمال؟

أه اتريد المرقص على رأس قائمتنا، لم لا؟ هل ثمة مكان أروع للرقص من فوهة البركان قبل الانفجار أو بعده.

وفي هذا العالم، أو في حالته المباركة، هذه يترَبّع الفنان الموهوب على كرسيه المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدأ العزف على الاكورديون. ينحني ملك الزولو بمنزله الأحمر وطبقية جلد الفهد على رأسه أمام الأميرة النمساوية سيدتي هل ترقصيني فقيل بلمتتن. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليدورا على أنغام "فلس" الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهنوية فيجذب بخصرها الراقص الإسباني يضرب بكعب رجله خشب الركح. تتقدم الراقصة الباليينية لتنتهي على الأتغام. تفرع الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تذكر الباليي الأولى فيتدافع إلى الساحة أباطرة الصين وأميرات اليمن السعيد للرقص إلى قيام الساعة.

تصرخ تفيحه أن القصة ما زالت قصتها وأنها لن تقبل إلا بأفضل مكان لديها خاصة عشية الأعياد. موافق.

لنطلق أطفالنا داخل متجر ألعاب الصغار نضحك لانبيهارهم أمام ما يزخر به من ديبية ونمور وقيلة من الصوف وُدْمى من كل الألوان. هل تأملتهم وأفواهم مفتوحة دهشة كم تغفر لهم أنهم كانوا رضعا وأنهم سيصبحون من جنس المراهقين بعد سنوات ستمرّ بسرعة البرق.

على كل حال العالم كله في حالته المباركة هذه حديقة ألعاب للصغار والكبار على حدّ السواء.

وفي هذا العالم -أو قل وهو في حالته المباركة- على الطرف الآخر من المدينة لي موعد آخر مع جحافل تتدافع داخل ملعب لن نحمله وزر بقية الملاعب. أمام مدارج هذا الملعب المكتظ الليلة بعشرات الآلاف من النظارة والضجيج في أوجه، يتقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الخدم والحشم. شينا فشينًا يتبين أنه عمود طوله أربعة أو خمسة أمتار مطلي ذهبًا تحسبه ذراعًا مرفوعًا إلى الأعلى ينتهي بقبضة مفتوحة وفي راحتها مجسم الكرة الأرضية.

يصل حشد الخدم بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء ستقام عليها مباراة رياضة يسمونها كرة القدم فتطلق فجأة للشمراخ ويرتفع إلى عنان السماء دويّ جمهور صلبخ جذلان وبداهة سعيد.

هم يخرجونه كل أربع سنوات في مواعيد مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر الحفلات التي يعرفها البشر.

يُسحب الصنم بعيدًا إذ لا يجوز إبقاؤه تحت أنظار قد نتعود وتملّ رؤيته فأولى خصائص المقدّس التوارخي بعيدًا عن الأنظار ليبقى محفوظًا بالغرابة ولسرّ.

ينتصب أحد النظارة واقفاً. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعداد. إلى من تتوجه صلاة المتفرج وأهليج الجمهور؟ إلى هذا الصنم الذي يتشارك في حبه جل سكان الأرض على اختلاف معتقداتهم ومشاربهم: لرب "كاسلعالم".

يتواصل الحفل بفريقين من الأدميين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق ابيض يتسابقان تحت أنظار الحضور الكثيف لتسجيل أهداف صعبة المثل ترمز لطول جريتنا وتشوقنا للحظة نسجل فيها نحن أهدافنا.

بداهة ثمة تحت طبقة معطيات السمع والبصر عن حفل رياضي مبنتل طبقة أعمق من الرسائل والمعاني.

الآن وهنا، أخيرا ولو لزمن قصير عابر، البشر جميعهم سواسية تجمع بينهم متعة الوجود... لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة الصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه للإيذاء... على المدارج لا اثم ولا فسوق... على الساحة لعبة قواعد واضحة لا مكان فيها للغشّ والظلم... وتحت أنظار الجميع وسلطة حكم نزيه مفض من قبل الرب المخفي يعاقب فورا وعد لا كل من يتناول عليها.

كيف لا يتفجّر الفرح عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الأدميين مأساة مسترسلة أخيرا تحت السيطرة!

نعم، ظاهريا نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في قداس تحتفي فيه البشرية بتحقيق كل ما تسعى اليه جاهدة منذ بداية ملحتها في هذا العالم.

إنه حفل ديني مكتمل الصفات قد يوصف بالوثني والوصف لا يغير في الأمر شيئا.

كم تغيرت أنواع الطعام وطرق طبخها عبر العصور! لكن حاجة الأكل بقيت وستبقى ثابتة واحدة عند كل البشر.

كذلك الأمر مع الحاجة الدينية. هي ثابتة عبر العصور، وحدها مظاهرها التي تتغير. كم عبد البشر من أو ثل قدت من الحجر، من الأشجار أو من أجمل الصور وأروع الأفكار وكم سيعيدون!

أه لو قبض لي رؤية ألهة وكهنة وطقوس ديانات العشرة الألف سنة المقبلة! سقف الملعب الضخم مفتوح على سماء داكنة بتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة -وكم هي على حق- قوى الدمار والموت التي تزمجر حولها وداخلها.

في كم من أماكن على سطح الكوكب تتدافع جماهير جنلى لتقبر في الشوارع والساحات كل الفرع المطمور داخلها لا يهتم الظرف أو السبب. يشجنني جاري على رفع صوت بدا له محتشما ومحزجا. يجب أن أسخن أكثر فلست متعودا على الصراخ في هكذا مواكب. تداهني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودت على وجودهم في الصورة بدر وعهم الشفقة وخوناتهم الحديدية وهرواتهم الموجهة.

إنه حفل تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملونة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تفرق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"وضيع". بدهة ثمة في العملية سخرية من الحرب والناس يرمون بعضهم بعضا لا بالرصاص والغازات السامة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تسقم حياة الأدميين وهم أخيرا سواسية صبغت وجوههم وثيابهم نفس الألوان وانتشت أرواحهم أخيرا بنفس فرحة الحياة.

إنها نفس الجماهير الجذلى وإن بأزياء مختلفة وبطيول تفرع أنغما مختلفة تنزع شوارع أماكن اسمها ريو، نيس، فينيسيا، نيو أورليز، نوتينج هيل، اورورو، نتريف، كيبك، بازل، ساو فنسنت... والقاسم المشترك نوبة تتكرر سنة بعد سنة من الفرحة الجماعي.

الفرح أتمن ما يكافئك به العالم على طول صبرك على محنه... أبلغ صور نجاح هذه المغامرة التي نسميها الحياة.. هو اللحظة التي هي بعنى عن كل الزمن الماضي، وعن كل الزمن الآتي وقد اكتملت فيه كل نعمة الوجود.

كل هذا صحيح لكن مثل هذه الأماكن لا تفتح أبو ابها أسبوعيا لنفس المتعة والحال أن هذا ما نتكرم به الأسواق؟

ألا تستحق ولو لهذا السبب المرتبة الأولى في قائمة أجمل أماكن العالم وهو في حالته المباركة هذه؟

كم أحبّ الوانها وروائحها! أحب صراخ الياعة يمازحون المرة يفألزون بما تجود به الأرض وسواعد البشر.

أحب المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها نون سلاح ولا نية لأي عنف أرجأوا معاركهم التي لا تنتهي إلى ما بعد فسحة الروح والجسد. أحب رؤيتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي وعما يأخذ.

أحب أكثر التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار وشتى أصناف التوابل الآتية من أبعد أصقاع العالم أنتقي بعناية ما سيمكثني من طبخ الدطبق تطرب له براعم التذوق ولا بأس أن يساهم في الحفاظ على صحتي وعلى معنوياتي.

على ذكر ما تزخر به أسواق الفضاء الحسي من طيبات الأكل والشرب، أقولها متحملا كامل مسؤوليّاتي: لا وجود لمكان يستأهل أن يكون مركز عالمنا وهو في حالته المباركة هذه إلا ذلك المكان الذي تتوسطه ثلاثة عامرة تطمئننا أن عهد المجاعة وكلى إلى الأبد... خاصة عندما يعيق برائحة القهوة الساخنة وبعطر نسائي خفيف.

نعم المطبخ هو صرة الفضاء الحسي للعالم أو قل للعالم في حالته المباركة هذه. ذات ليلة تنقض "ح" على الثلاثة بحماس غير عادي. تستولي على ما بداخلها من بيض وزبدة. تخلط كل هذا بلسكر ثم تضيف قذرا محترما من الشوكولاتة الساخنة الذائبة بانتباه من يصنع قنبلة وبخشوع من يصلّي صلاة الخبازة.

حسب ما تفضلت به من الشرح المطلوب من كعكتها أن تكون في نفس الوقت صلبة وأن تبقى الشوكولاتة سائلة في باطنها. كيف يمكن للشيء أن يكون صلبا وسائلا في نفس الوقت؟ إنه التحدي الذي أصبح يمرور الأيام ويتعند الاخفاقات-هاجسا عند "ح" وبالعدوى عند عاشق مرطبت "ح".

تضع رقيقة الطريق الكعكة في فرن لا تقارقه بالبصر الحذر مترقبة بعصبية لحظة الحسم. يأتيها أمر من داخلها بأن الوقت حان. تبادر بسرعة لإخراج كعكة إثبات الذات. فنقل جديدا وعلى طول الخط. الكعكة جافة ولا شيء يسيل منها عند القضم. أسارع للمدح. لا تهتم "ح" بكلام معسول تعرف أن نصفه موااساة صادقة ونصفه سخرية شامته.

تواصل "ح" بحثها عن الوصفة الصحيحة وكم من وصفات ستجد وستجرب والفشل هو الفشل. ثمة دوما خلل ما، إما في نسب المواد وإما في درجة الحرارة أو في مدة الطهي. شيئا فشيئا يتسلل إليّ قلقها. أكتشف يوما أن مشاكلي مع خصم حقير، واستعصاء العالم على الفهم وتسارع السنين ومشاكل الأمة والبشرية، وموعدي الذي أرجئه باستمرار مع طيبب الأسنان، وبقية المشاغل الأخرى، بدأت تتراجع إلى الخلف أمام هذا الملف الضخم والموضوع محل نقاش مسترسل وتجارب لا تنتهي.

تعود "ح" ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر. أسألها وبي حذر مفاجئ:

- أنقنت حياة مريض؟
- أحسن من هذا.
- اكتشفت خطأ في تشخيص أحد زملاء وضحت المسكين أمام الجميع بإتسامة مشفقة.
- أحسن من هذا....
- لا وجود لأحسن من هذا.
- بلى، حلّ كعكة الشوكولاتة الذائبة. وجدته عند صديقنا الأرجنتينية. هيا اتركني أعمل.
- الآن؟ في منتصف الليل.
- الإعداد الأولي فقط لأن العملية على مراحل. يجب أن أذوّب بعض الشوكولاتة وأن أمزجها بقليل من الزبدة وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمل غدا.
- في الغد تعود "ح" إلى تجاربها. تصبّ نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة الذائبة في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة لا تملّ من الشرح.
- فهمت سرّ النجاح ولماذا فشلنا لحدّ الآن؟
- تظنّيني غيبيا؟
- فسّر.
- إذا اعتبرنا سرعة الضوء التي تحددها النسبية العامة وإذا ضربناها بالقطر المجهول ليوزون" هيجز، فإن...
- لا تكن سمجا. سيصبح سائل الكعكة يابسا بأسرع من الخليط الذي وضعته في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج إلى وقت أطول ليصبح يابسا هو الآخر.
- هذا بالضبط ما فهمت وسأهنئي نفسي على فطنتي حالما يتضح صواب الوصفة. على كل حل، ليس لي ما أخسر. متعة الكعكة إن نجحت أو متعة الشماتة إن فشلت.
- تنتهده؟ ح"، بدهة غير مستعدة على غير عادتتها للدخول في أي مزح.
- أسألك أحيانا ما الذي حبّبتني فوك؟
- عجيب، إنه نفس السؤال الذي يقضّ مضجعي... متأكدة أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ؟
- هل تستطيع أن تغلق فمك فقط لخمس دقائق متتاليات؟
- لا.
- إذن تفضّل على برّه.
- كما قال لا أدري من: نحن هنا بارادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس لرماح.
- انتبه سلخرك بالقوة.
- إياك، لا فكرة لك عن نفوذ أصنقائي في منظمات حقوق الإنسان.
- تجاهمني؟ ح" بين ضحك مكتوم وغضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعي. لا تنطلي الحيلة. تدفعني بركة إلى خارج المطبخ موصدة الباب ورائي. لم يبق إلا انتظار الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح ح" الباب لا أرى إلا ظهرها وهي تهجم على نافذة الفرن

لتصرّخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج يقطر بلشوكولاتة الساخنة للسقطة.

«الحياة اليومية (رائيو)
بأعمالها المتواضعة السهلة

مهتمة بامتياز

كدم تنطكب من الحبّ

نعم فقولها متحملا كل مسؤ وليتي الفكرية والفلسفية والميتافيزيقية المطبخ هو صرّة العالم... على الأمل في حالته المباركة هذه.

ماذا؟ تُبدي ترددا في الاعتراف بوجاهة خيارِي! بربك أليس هو أولُ مختبر تمغن فيه الأدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه علومنا ونحن نسحق الأشياء، ندوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخنّها ونتمغن في النتائج، ثلّة هي كوارث ونارة أخرى هي ألدّ المفاجئات؟ حقا لا يمكن القول إن ما جرّيناه على الدجاج والأرانب كان غاية في الأنفة أو اللطف، لكن من يجادل في كونه المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستنتاج.

هنا لا يفوت النصّ تقديم بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطّرنا مع بلغ الأسف-إلى التهامها وعلى رأسها الدجاج لكل ما عرف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظة مُعتبرا زلّة لسان لا تُعقّر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحفر كما ينبغي دلجة مانت عيّنًا.

أعتمد الفرصة هنا للتقدّم أيضا بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطينا ثمارها وتولّبتها مظهرة كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن لأخص بالذكر تلك التي أعطينا النمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرتقال.

تقول، نسيب الفلّ والياسمين والحبق والتعنّاق، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. من منعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهدين لكل جزار تسبب في آلاف قتلاها سلحته وتمثله ويعفّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة. بجدّ من أعانك أكثر أوقات الشدة؟ لبقلاوة والمقرروض والغريبة والشباكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية وبصفة عامة السكر والعسل والزبيب والفستق واللوز والبنّيق... أم اسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ونابوليون وأبو عبيدة الجراح؟

كل هذا لا يمنع من القول من وجهة نظر الأسمي طبعاً أن كل الأفعال التي تمارس في المطبخ حلالّ لا غبار عليها قانونيا أو أخلاقيا ولا حتى جماليا وأخصّ بالذكر منها أفعال أكل، تنوّق، مضغ، التهام، شبع... أفعال تستمدّ قيمتها من عالم عبّره أغلب المسافرين وفعلّ جاع أكثر الأفعال تصريفا.

خذ الآن بقية الكلمات التي ترنّ في أرجائه مثل كسكسي بالقاروص، بريك بالتن، طاجين جين، بسويسة بزيت الزيتون الحلوى الشامية بالمكسرات، مسفوف بالدقلة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست بريك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها إلى ما وضعته الأدمية النهمّة تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسطيلة والمعرونة بفواكه البحر والسوشي والكزّي والثام وكعكة التفاح والبطّة بلسكر المحروق والسيبوجن؟

أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنمو وبقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها!

على فكرة .. كل هذا الكلام المعسول عن خروجنا لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثنا عن الذات والله، تبرير نخفي وراءه أننا ما كنا نغادر حوض نسانتا لولا جشعنا للشاي والملح والقهوة والسكر واللبان ولتوابل النادرة، نبحت عنها وراء ألف محيط لا يهمننا للحصول عليها استعداد قارة وحتى عالم بأكمله. نعم قوليها على مسؤوليتي الشخصية أن الأوائل لم ينطلقوا في رحلة استكشاف العالم إلا ركضوا وراء حيوانات طيبة المناق كانت تركض هي نفسها وراء الكلاّ والماء؟

*ما أغرب أن يكون أول دليل تبعه بنو سفر ضريبا في الأرض ذات الطول والعرض
غزاة خائفة أو جاموسة تائهة!*

للإمعان في نفس التفكير الذي قد يعتبره البعض استفزازا وما هو باستقزاز. بحق سكلي وبوكوز وأمك صقلية وبقية المحسنين للأدمية، ألا تشعر أن النصّ وضع أخيرا الإصبع على الخلل الرئيسي في الملحمة البشرية؟ ألا تصف كلمات الطبخ أشياء موجودة بصفة لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والبادنجن والبصل والثوم والبقونس.. أشياء ثابتة لوجود والحال أننا نضيع الوقت والجهود في الجري وراء أوهام لا وجود لها إلا في أذهاننا المرهفة مثل الدين القويم والشريعة السمحاء والجدلية المادية والوطن المفدى والشعب المقدس والمستقبل الزاهر والمدينة الفاضلة والماضي المجيد. ألا تفسّر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟

أليس صحيحا أنه إذا أصيب المستهلك بالتسمم فإنه لا يتهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحل على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا ليجثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بدلية شك في السلامة العقلية للطباخ؟ أخيرا لا أخرا، في الحالة المتكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائيا من كتاب الطبخ حال ظهور أول حلة تسمم، أو تعدّل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مزّ القرون لا مجل للتخلص منها إلا بحرب لا تبقى ولا تنزّ؟

تصوّر في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف المتدينون والسيلسيون كما يتصرف الطباقون. بديهي أنهم لو فعلوا لما عرفنا أهوال العالم في حالته اللعينة تلك.

أه على ذكر أفضع ما نجرب في ذلك العالم ورغم ما سبق من التبرير والمواساة والقبول الغاضب بظاهرة اسمها الحرب، يعلن في هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه الجنود الاضراب العام.

يغتنمون فرصة عيد الميلاد للخروج دون سلاح إلى الأعداء الغارقين مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وقرانا. برتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضا يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يلكون من زاد بعضهم وهم يصيّنون سخطهم على أكل لا ليشع منه إلا ضباطهم الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّه كرة فتقلب ساحة القتال إلى ساحة لعب يتدافع فيها كهول استعادوا إستيئتهم باستعادة قدرة اللعب. يتعالى صراخ المرح والضرباّث البارعة تسدّ لكرة لا تعرف أين مرمى الخصم بما أنه لا أحد يعرفه ولا يعرف حتى من هو الخصم. المهم الجري وراء الكرة ودفعها في كل اتجاه ليفيق الطفل داخل الكهل. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تنكروا أن أباهم الذي في السماوات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضابط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية وبقوافل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع هؤلاء المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغياء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

في ساحة قتال أخرى يخرج الجندي من وراء أكمة يمسك بنظونه ببديه وقد فاجأته القنابل وهو يقضي حاجته الأدمية. يقهقه الكاتب أوروال رافضا أن يطلق عليه النار فرجل يمسك ببظلولونه لا يكون عدوا جديا ولا حتى عدوا.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه تتحول "ساحة الوغى" لمكان تغرّ الضحك والسخرية من كل المتدافعين إليها للعب أدوارهم البائسة.

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه يتولج الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التناؤب لتكرارها الممل. مهلا، ثمّة شيء جديد في السيناريو المقرّف. للقوم طقوس تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كنوع من مقبلات شبيهة القتال. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرّة إلى فارس العدو؟ من؟ المهزج الرسمي!

الذي يراققه في حَلِّه وترحاله ربما قَرَّر الأمر ليعبث برسالة لحتقار إلى العدو، أو ليضحك من مضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهزجون... أو كقرار غيبي من جملة القرارات الغيبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.

يستعطف أبو دلامة مولاه منكرًا إياه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسهك إلا بسكاكين المطبخ.
عَبثًا.

آخر استعطاف: بما أنه قَدَّر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شيعانا، أيأمر لي أمير المؤمنين بنجاجة محمّرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنًا الدعابة ومثمنًا في قرارة نفسه قيام المهزج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله.

يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى سلحة “الوغي”.

من الطرف الآخر للسلحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدي سيفه ويهزم حصانه صارخًا بشعار أبله ما. دخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها ألامه.

ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكذب صدق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبه شاهز... نجاجة محمّرة.

المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كقفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شيئًا يشبهه:

أبو دلامة: أتعرفتني؟

الفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

- هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصفت بعد؟

- لا والله.

- هل هنكت لك عرضًا؟

- لا والله.

- هل قتلت لك أبا أو أمًا؟

- لا والله.

- هل ظلمتكم يوما؟

- لا والله.

- هل سرقت منك شيئًا؟

- لا والله.

- هل جاءك واش بكلام قبيح يدعي أنني قلتك فيك؟

- لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العن الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعا مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، لُشّر، الدجاجة لا تزال سلخنة وكذلك الخبز.

ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس يتفرّجون في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا نجاجة بشهية واضحة ويدردشان كأخوين فرّقت بينهما الحياة وتلاقيا صدفة من جديد.

لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأعداء من الآخرين، الذي يفخر بجبنه حين يفخر الآخرون بشجاعته، ورَبّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسما وروحا.

أنت من أدرك أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في العيش والدفاع عن الحياة... أن البطلات هن النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهن على الطفل المريض وفي طول صبرهن عليه سنوات وعقودا... أن الأبطال هم الرجل في خروجهم للصيد الخطر، للحقل الغارق في الوحل، للمنجم الخائق وللمحيط المرعب... ومع هذا ترى من يتدافعون لسلاحات المعارك يريدون إثبات ما لا حاجة لهم لإثباته وما لا يثبت في كل الحالات بهذه الكيفية وإنما بعكسها.

إن كنت من عشاق الحرب رغم كل ما قيل فيها منذ وجدت ثمة سلاحات في هذا العالم ترضي فيك غرائز لم ننجح كلنا في لتخلص منها. لا تنس أسلحتك من بلونات ضخمة ورشاشات ألوان فاقعة ومخدات غرفة النوم. أطلق العنان لغرائز الخنف فيك. كل من تصيبه بضربة بالون بارعة أو تمكنت من رشته بالألوان، عدوّ بغضب خلّصت العلم من شرّه، لكن احذر أن تستشهد كثيرا. تسأل: ماذا نفعل بكبار العنيفين الحاملين بالتصفيات الجماعية والمحتشدات الضخمة؟ حتى هؤلاء فكرت فيهم يا من تسخر من النصّ ومن صلحبه. نأخذهم إلى مكان خصصته لهم فيه دمي من البلاستيك شبيهة لأقصى حدّ برؤسائهم وأزواجهم وأطفالهم، وعموما بكل البشر الذين يكرهون، ثم نمذّمهم بسكاكين لتقطيعها، وإبر لوخز عيونها، وأخيرا بصفائح بنزين وولاعات لحرقها ونزّ رمادها في كل اتجاه.

لا بدّ حتى في هذا الوجه المضيء للعالم من تبادل الأخبار بين أبناء وبنات عائلة فرق بينها اتساع المكان وتسارع الزمان

تواصل المنبوعة الجميلة ذات الشعر الأشيب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خريف ماء السواقي“: من مرسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهو وتثمر رغم القصف الغبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال وُلدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحقّونهم بكل ما يقدر عليه الإدميون من حب ومن عطف.

بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سلمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطف غير مصطنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعلن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا لدخل المحطات. ويتقصر الموضوع صرح لنا سواق القاطرات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قزرت إلخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرين واقتروشوا الأرض وفتحوا علب السلنديش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيد وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة رفع المسافرون السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل الخلل الحاصل هنا وهناك. والآن نمزج للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقريّة البشرية من اختراعات تليها حصّة الشعراء الشبان.“

أجمل ما في هذا العلم مشاريع اختفاء السيرك ومراكز ترحيل الأجانب ومخيمات اللاجئين ومصانع السخرة والمواخير والسجون والمحاكم والتكنات ومصانع الأسلحة وأوكاز التضليل التي لا تعيش إلا بالأخبار السيئة كما لا تعيش الجراثيم إلا من العفن. لتواصل التخلص من كل الأملكن التي ليست إلا دليلا على يؤس الطول لأصعب المشاكل.

وفي هذا العالم أو قل طيلة حالته المباركة هذه تنهار جدران كل الكنائس والمعابد والجوامع وقد فهم المؤمنون أن ادعاء احتواء المقدس في كيانات من الصخر، من الطقوس والمعتقدات مثل ادعاء احتواء المحيط في قارورة ثم التقاتل لمعرفة أي القوارير أحقّ بملكية المحيط. ها قد تشققت جدران كل الأديرة فرغت من رهيل ورا هيلت توشحوا بالأسود أو بالأصفر. هم فهموا أخيرا انه لا جدوى لمحاولة الهروب من العالم وهو يلاحقهم بكل ما فيه من جمال، ومن قبح من خير ومن شر داخل زناناتهم انتبهوا أخيرا لصدق لشاعر

خلت في القفر أنى أصبحت وحدي / فانا الناس كلهم في ثيابي (إيليا ابو ماضي)

هم فهموا انه لا معنى للانعزال في ركن من بلخرة تواجه أشرس العواصف وعلى شك الغرق في أي لحظة وتصور ان هذا سبيل نجاة النفس والآخرين.

هم فهموا ان ادارة الظهر لمآسي الانسان بحثا عن الخلاص الفردي في هذه الدنيا او في
الآخرة فرار الجبناء من المسؤولية أما الشجاعة فهي في الانخراط إلى آخر لحظة في
آلام وآمال البشر .

في هذا العالم -أو قل في حالته المباركة هذه- لا أحد يدين أحدا والله نفسه لم يعد يعبأ بخطأ
أو خطيئة.

شاهدت بحانة شيخا ثملا (عمر الخيلم)
قد غطّ لنومه بلا إحساس
أصغيت له يقول في سكرته
الله لطيف بجميع الناس

وبينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، يفاجئني العالم بلخر هدايا اليوم كأنه
حلا للفنان الأعظم الذي علم الرسم موني وبيسارو وفوقان إعادة تلوين السحب.
ها هو يضع بريشته على أطراف رماديهما الكنيب لمساة جد خفيفة من الأصفر الوضاء
متابعا بخيط جد نقيق من نقط النور تعزج حواشيها. ثم كأني به يغير موضع فرشاة
الرسم والنور يتوغل داخل السحاب فاضما فالمزيد من الرمادي العيوس. تكتمل
اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا
عمد.

أي حاجة للركض من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن أقاصي الجنوب لأقاصي
الشمال ومثل هذه الروعة موجودة في كل مكان. ها أنا أترنم بكلمت أغنية غناها أقيح
وأجمل صوت لأكرم فنان وبعده كم من آدمي شاكر حامد وممنون.

"أشجار مزهرة

زرقاة السماء.

ألوان قوس قزح

صراخ الأطفال

أصنقاء يصافحون بعضهم

قلت في نفسي

"What a wonderful world !

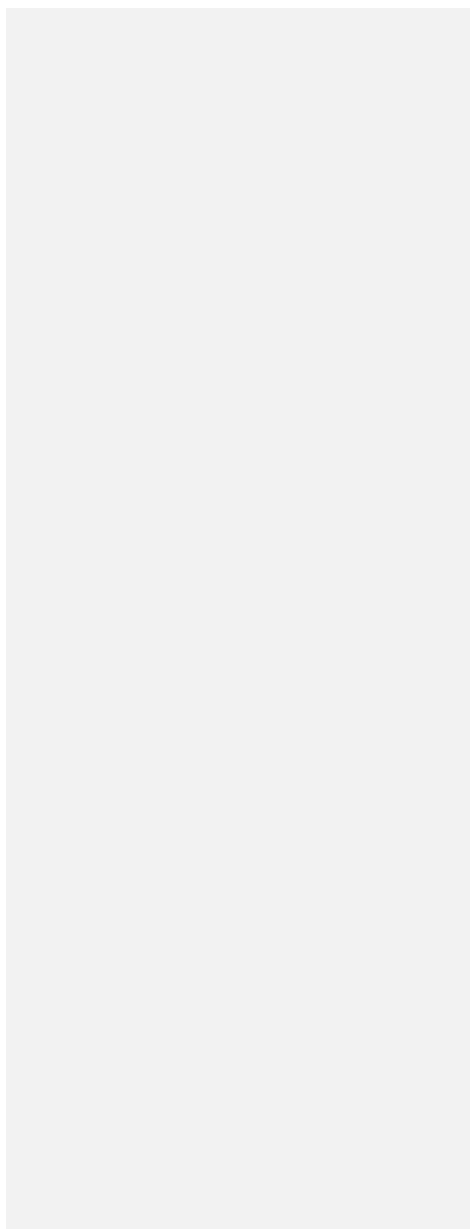
نعم، كم صدق الشاعر:

"ثمة شيء محبب (شيكي)

في هذا العالم

الذي جنّاه للموت"

الذي جنّاه للموت؟ قل الذي جنّاه لتجربة معجزة الوجود والموت مجرد شرط من
شروط هذا الوجود.



وقال لهم الصدى لا تبحثوا عني في مكان "إني بين ضلوعكم تقلبني الأفلس جنباً إلى جنب"7

لا وجود لمرتحل غادر مسقط رأسه ولم يشده الحنين إليه يوماً. كذلك الأمر بالنسبة
للأمية ولشوق الجارف لبيت أبيها لم يغادرها لحظة.
هكذا شدّ قدماء المصريين للرحل إلى أبيدوس، ..وقدماء الإغريق إلى دلفت... وقدماء
البريطانيين إلى ستونهنج-درنتون... وقبلهم جميعاً شدّت الرحل قبائل لم يحفظ التاريخ
اسمها إلى أماكن عفا رسمها منذ زمن سحيق تدعى كلها أنها بيت المقدس.
وفي القائمة الطويلة ثلّ مرتبّ ثلثه وسط الصحارى الحمر، جبيل يُدعى طيئشان، بحيرة
اسمها كليلاش، معبد على قمة اسمها بوبا، مدن اسمها شافين، كوياسان، كويكابانا، بيت
لحم، روما، فليطيماء، سانميشل، طوس، هاردوار، ارميستار، بنزرس، أماناظة، لاهلسا،
شيكوطو، بور ويودور، القدس، سان جاك... الخ.
كم من أماكن في الفضاء الحسي اصطفاها البشر ليجعلوا منها البوابة للعالم المخفي الذي
توجد وراءه كل الأجوبة وصاحبها الذي لا نسمع إلا صداه!
"فإن رمت شرقاً أنت للشرق شرقه وإن رمت غرباً أنت نصب عيان (الحلاج)
وإن رمت فوقاً أنت في الفوق فوقه وإن رمت تحته أنت كل مكان
وأنت محلّ الكلّ بل لا محلّه وأنت بكلّ الكلّ ليس بفان"
بحثاً عن لقائه يشدّ بنو قومي الرحال منذ قرون إلى مكان اسمه أم القرى.
تنتهد 'ما':

- كم أنا سعيدة أنك... ظفرت بما كنتُ أتمناه لك دوماً.
لي فقط؟ كان الحجّ حلمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت التوج به حياة من أن يُعتبر
طلباً وتكليفاً.. كم رددتُ لنفسِي أنا جدُّ مشغول هذه السنة سأخذها إلى الحج السنة المقبلة.
نعم، السنة التي تليها فما زال أملنا متسع من الوقت. هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...
- السنة المقبلة. كلمة رجال هذه المرّة.
- فات الأوان يا بني، فات الأوان.
- أي أوان هذا الذي فات؟
- نعم. نعم يا بني لم يفّت أي أوان.
كيف أهوّن عليّ والسرطن ينهش جسدها والشعور بالذنب ينهش روحي.
تفهم "ما" الذي يختلج في صدري.
- هوّن عليك يا بني... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيراً كل تفاصيل حجّك...
لست مستعجلاً، أليس كذلك؟

7 بن عربي - من ديوان ترجمان الأشواق (الناشر)

نعم، لستُ مستعجلاً هذه المرة.

- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تم اختيارك لتشرف على البعثة الطبية المراقبة لحجاج هذه السنة. الموعد غدا فجرًا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تُعرف الإدارة وكيفية عملها. على كل حل هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس. ربما عيّنوني للمهمة لأنّسك فلا أرجع لمواصلّة تنغيص عيشهم، أو أملا أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء.

- بعد الشّر عن كيدي، والآن أصدّقني القول، لماذا تقاديت دوما أسلّتي عن حجّك ولم تقم بمراسم التبريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجا وما زلت شابا؟ حدثني عن كل تفاصيل السّفرة المباركة من بدايتها إلى نهايتها.

أصف كل ما حدث أم أنلق أنا أيضا؟ كم حملت بهذا المرحلة من الرحلة... خُطاي في خُطى أجدادٍ كان حَجّهم إلى الأراضي المقدّسة مغامرة العمر... السفر على ظهر ناقّة بيضاء خلّقت في عنقها الأجراس والتمايم... النوم بالنهار والسعي ليلا تحت القبة المرصّعة بلنجوم...

يبدأ الرحيل في ما نسميه الواقع بالوقوف ساعت مضنية في طابور تسوده الفوضى لإجراءات البوليس وتسجيل حقائب ملانة بالثياب وبما أعدّته زوجة كأنها تخشى عليّ من الموت جوعا. يواصل الشيطان المكلف بالسخرية من بلحلامي بحشري في طائرة مكتظة بل وفي مقعد الوسط بين بدينة بشعة وشيخ أسمن منها.

عند وصول بوابة الأراضي المقدّسة التفتيش من قبل شرطيّ علبس يبحث في جيوبي وفي حقّيتي عن الكتب الممنوعة. ثمّ التدافع الشرس داخل الحافلة المكتظة المتوجهة إلى أولى مدينتي الحج.

لا حلّ غير اللجوء للحلم اليقضان دفاعا عن سلامة الروح من اعتداء الضجيج والحزّ وروائح البنزين والعرق.

كم كنت أودّ - ربما في الرجوع - المرور على مدينة السلام للسلام على روح رجل تعلمت منه ما يجب على كل مرتحل تعلمه.. أه مارة يتغامزون درويش من بلاد المغرب يبحث بين الرصافة والكرخ عن أخبار ذلك الزنديق... هنا أركبوه على البغل... عبر هذا الطريق سافره إلى ساحة الذبح... هنا جلدوه ألف سوط وهو يردد: أحد، أحد... هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى... هنا صلبوه... هنا انتظروا جودمه ينزف أبّزّن الخليفة بضرب عنقه... هنا علّقوا رأسه... هنا حرقوا جسده لكن روحه الطاهرة صعنت لتلتحق بالذات القدوس.

فجأة يتوقّف تتابع الصور في ذهني في وأنا أسمع زعيق الفرامل وصراخ الركاب:

- حقّيبة سقطت من سطح الحافلة!

يتوجّه إليّ السائق بلطف: أسف، يا سيّدي إنها حقّبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تنفجر وأن أغراضك لم تتبعثر.

صحيح أنني أمرئته بذلك وكنتُ في ذروة افتعل الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد الدين والفضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتى. أيعطى أن تصبح أقدس سفرة حلمتُ بها سنين هذه المهزلة؟ من هذا الذي يسخر منى منذ بداية السفر؟ إن كنت غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سقُف راجعا. لم أكن يوما ضيفا قبيلا على بشر أو إله.

أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلتُ من الحافلة متوجها إلى حقيبة رايضة تنتظرنى على الاسفلت، كيف رميتها بالحجرة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهرول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبة اللعينة تركض ورائي والتمر يقهقه ويحرص.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تقجر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخذة تحدد في مطولا.

- يا بني أية أهمية لما نعاني على الطريق... المهم أنك وصلت بيت الله وعدت منه سالما.
- الطريق بالنسبة إلى أمثالي أهم من... إنفل إن للطريق أهمية كبيرة.

بل هو لي كل شيء... اه يا أولى خطوات المغامرة المقدسة والأخطار كامنة في كل منعرج، متى تعودين... متى تعودين؟

أخيرا صراخ السائق: يا الله كلكم على بزة ولا تمشوا على رؤوس بعضكم البعض. في طفوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعتك مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك للسلام على من أشر لأقصر الطرق المؤدية إليه.

ومما روئته للمحتضرة أنني لم أصبر على اللقاء، أنه حل وصول "المنورة" آخر ساعات الليل رميتُ بالحقيبة اللعينة على فراش التزل، أنني هرعته إلى المسجد أترنح من التعب وبى أمل سُدج أن أكون أول الداخلين، فإذا بي أخزهم.

زحمة مخيفة. تدافع فقط غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان. حملني تيار الأمواج الأدمية إلى قبر المصطفى حيث تشرئب المهج والعيون.

فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط! الشيء المخصص لحثّ الحيوانات على الطاعة وعقاب الأدميين بكثرة العقوبات إذلالا.

ربما لا وسيلة غيره للوقوف في وجه جشع وحمق الأدميين. لا شك أنهم كثوا دون هذا السوط سيسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم، لا يتركون حجرة أو عظما ليبنوا حولها في أراضيهم قبابا وزوايا يضعون داخلها ما

نهبوا للإبهار واستغلال إيمان البسطاء. كم من سوابق في كل الدنياات!

ألم تكن أكبر تجارة في العصور الوسطى في بلدان الغرب العثماني تجارة العظام المزيفة للقسيسين والمسلمين المزيفة لصليب المسيح؟ هكذا بنت مدينة باري مجددا طوال النهضة على حج لرميم قديس اسمه نقولا سرق من مدينة قديمة اسمها ميرا كان القديس أسقفها.

المضحك في الأمر أن أهل البندقية سرقوا السراق ليزينوا به كاندراينتهم وبالطبع كان كل المسروق مزيفاً.

بقية الأحداث التي كانت "ما" تستعجل تفاصيلها والتفاصيل داخل التفاصيل. حاذرت للقاء بعيداً عن السوط. جاهدت للاقترب ما أمكنتني من مثوى هذا الذي كانت "ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي مَنْ تؤمن أنه الشفيح الذي لا تُرد له شفاعته.

يصرخ في أدهم: تحرك يا أخي أنا أيضاً أريد إلقاء نظرة على قبر سيدنا. يدفعني آخر بمنتهى الغلظة: تقدم مالك؟

لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة.

هنا برقد من تسمى باسمه الملايين عبر العصور.. النبي الذي تقست معه الكتابة، الذي أقطعنا لغة الضاد وطنا... ترى ما وراء كل هذا التمجيد كل هذا التعظيم، كل هذا التقديس الذي يحفت به؟.. طبعاً الاحتفاء بالألامي الذي استطاع أن يصبح إنساناً، بالإنسان الذي تحققت فيه مرامي القوة المجهولة التي قد نكون إحدى تجاريتها... لكن ليس فيه أيضاً احتفاء كل ذات بذاتها وهي لا ترى في هذا النبي غير الدليل للهدف الذي تسعى إليه، غير همزة الوصل بينها وبين هذه القوة المجهولة التي يسميها بشر هذا الزمان والمكان لله؟

أجبل البصر مطولاً بين مشواه الأخير ومثوى الصتيق الراقد جنبه، وعلى جنبه الأخر برقد الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء. يا لهؤلاء الموتى، يعلمون الحشود وهم صامتون، يحركون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون ولا أمر يصرخون به. تهمس "ما" بصوت متزايد الضعف.

- عد إلي...

- تواصلت المهزلة بل كادت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرر السلخر المجهول أنني عوقبت بما فيه الكفاية على ذنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي.

قلوا وقد حان وقت الصلاة: تقم لتؤمننا. كيف أعترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان، أنني انهمكت في الإعداد المادي للبيعة ولم أعد إلى تعلم طقوس نسيب قواعدها منذ زمن بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب للوقوف والسجود وأما يُرثل في الأثناء. كان حقاً موقفاً محرراً للغاية. النجدة يا كل من يهّمه أمري!

تتسع ربيع ابتسامة،^{٩١}.

- لا تقل إنك لم تجد مخرجاً وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها.

- من استجاب لندائي؟ "الغوثة"، "المحجوب" مدعوماً بـ "سدي مرز" وكل ما في هذه البلاد من أولياء صالحين... بركتك أنت؟ المهم أن ربنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدوية. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ اتضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرض يسكو

لشيبُ شعره. علمتُ أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفاً مئيباً. نتحدثُ بوقارٍ ثم توجّهت إلى مساعديّ قذلاً: من شيمنا تبجيل أكبرنا سنّاً، فليقدّم فلان يوماً بنا هو للصلاة، لا فضل هنا لطبيبٍ على ممرّضٍ إلّا بالتقوى.

لا تقوى "ما" على التماسك فتتفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.

- يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...

- إنها غلطةٌ ب! لَمّا فرض عليّ الصلاة بالقوة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلّا ما جرّني إليها بالقوة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأخرج له لساني. كان يتمتم بالآيات وأتمتم بالمحفوظات. اختبر قوةٍ آخر بين طاغية يأمر وينهى لا يكف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيده التجرّز إلا عنادا على عناد. ولَمّا ابتلّغه المجهول من جديد فسختُ كل الطقوس من ذاكرتي رفضاً له لرفضاً للطقوس.

على فكرة، أتتذكّرين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة ويعيد طبع أوراق المكتب وحتيّ ملفّات القضايا القديمة، واضعاً لقبه الجديد أمام اسمٍ كان يدّعي دوماً أنه بغير حاجة إلى ألقاب الغرور.

تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تقبّر الضحك في عينيها.

- يا بني حرام عليك. أيوك صلى الخمس في أوقاتها منذ رجوعه.

- شريطة أن يوجد أحد يصلّي أملمه، بل فولي من يمثّل أمامه ولو كان القطر.

- يا ولده، أنت لا تغتلب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.

من الثبرة والقسمات، الأمر ليس الكفت عن اغتياب الرجل وإنما مواصلته. حتّى "ما" تعرف الخبث! تكشّف يوماً أنك لا تعرف الأدميين مهما عرفتهم، أنهم يفاجئونك حتّى وهم على فراش الموت.

من كانت حقاً "ما"؟ من أنت يا "تفاحة"؟ من أنت يا تفيحه؟ وأنت التي قاسمتني الفرائش سنين، أي كائن كنت أضمّ بين ذراعي؟ من أنت أبيها الرجل الذي تقدمت إليّ دوماً تحت اسم "يا"؟

لا أحبّ إليّ من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.

- تظنين أنني أغتاب من هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوماً أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّ دوماً: كن أسداً وكلّني؟

- واصل، لا أريدك أن تسكت.

- أتذكّرين قصة وصول "أنيّفلس" الأراضي المقدسة كما رواها هو نفسه...

- يا ولده...

- عفوا قصة وصول زوجك الأراضي المقدسة.

- يا ولده!

- عفوا قصة وصول أبو أولادك الآخرين...

- يا ولدا!!

- طيب يا للة، مما صرح به 'يا' أنه لما وصل الأراضي المقدسة نزل في أفرح فنادق يثرب ولم القرى ولم يخرج منها إلا نادرا حتى لا يضطر إلى الاحتكاك - هو الذي لم تحمّل أمه غيره برعاع القازات الخمس مدعيا أن كل أمراض القاموس العالمي للطب هاجمته في أن واحد.

تذكرين كم مرة أتى إلى البيت معلنا أنه دخل النزاع الأخير يمثل علينا تمثيلية وصيته الأخيرة وهو أول من يعرف أنه لن يترك لنا شيئا نقاسمه.
تواصل "ما" منع ربع لبّسلماتها من فضح ما يعتمل داخلها.

- آه يا بني من أمراض أبيك!

- ما أحلى تلك الأيام. كأنني أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تسمحين عرقا وهمايا عن جبين يحترق بحمى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخا: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم.

كانت ذاتي هي التي تستعيد عافيتها وأنا أراه يثب من فراش لزمه حتى يُخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا نتحمّله فقط وإنما نحبه أيضا. ربما كان يمثل اللحظة التي يرهيبها أكثر من كل شيء، يتمرّن على امتحان لا بدّ منه متمّعا بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.

آه لو كان مرضك مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تثبي على رجليك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب.

- سرحت مجددا، قيم تفكر؟

- في الملل الذي عاناه إبّان حجه هذا. ما الفائدة من الحجّ في مثل هذه الظروف والحال أن

....

تنتهد "ما":

- لم تتغيّر رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرة كنت المخطئ وهو المصيب.

- آه، تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوما تحبين هذا الرجل وما تزالين.

- هو أيضا كان يحبك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهرك!

- وفي وجهي كان لا يكتف عن الصراخ: النار لا تخلف إلا الرماد! النار لا تخلف إلا الرماد!

- وأيضا كان يردّد لي وأحيانا لنفسه: أنا الشرارة وهو اللهب.

- بجد... أم الجملة من اختراعك؟

تصمت العجوز وهي الآن طفلة تخاف أن يجرمها هجوم النوم الأبدي من سماع بقية قصة مشوّقة يرويها لها ابن عاد من أغرب رحلة كم كانت تودّ أنها رافقته فيها.

- عد إلى الموضوع أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالة ولا تنس حادثة.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يقي بحقه أو يستغده وصف؟

تهمس "مما؟"

- حدثني... حدثني عنها....

- أبصرتها من آخر الصفوف وظهري للباب من شدة الاكتناظ. مشهد ليس كمثلها في عالم الأدميين.

إنه مشهد بحر زبد أمواجه الخرق البيضاء لمئات الألاف وعليها أخشاب الشيوخ والمرضى طاافية... بحر أمواجه لا تتدافع نحو الشاطئ لتتكسر على حاجزه وإنما تحاصره وتطوف حوله... من المخرج العبقري الذي وضع لوحة يمثل هذا الجمال والجلال؟... فعل الأفعال؟ طبعاً عبء، صلى، قنّس، تبثّل.

هذا عالم تناظري لا يوجد فيه شيء إلا ووجد النقيض مما يعني أنك لا تكتشف فيه مطلق الروعة إلا وداهلك بنصفه المكوّن الآخر: مطلق الفضاة وشكلها الآن زحمة قطع فقد كل الضوابط. كيف هو يوم الحشر إذن؟

من عرف تجربة المشي لكن بأقدام غيره وعضلات صدره تدفع الأجسام الضاغطة على جسده بحثاً عن نفس قد يكون الأخير؟! تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطون والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعاً الأيمن ملتصقا بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقى ليسرى معه إلى جاوا.

أخيراً الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحنيّتهم والكل يصرخ ويسب الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أنخرط في الطقس ونحن أمام أقدم وسائل علاج الذات؟ يستيقظ الطفل النائم دوماً بعين واحدة داخلي. يأخذ في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيز منه "ما" طول الوقت.

أما المراهق النائم بالعين الأخرى فهو على مزاج جدّ مختلف. كيف لا يتعاطف مع الشيطان وهو يكتشف يوماً أنّ المسكين طوبى كما نطالب دوماً، بالشيء وبعبسه، وكلّ بممتجنا نية مسبقة لإسقاطنا في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال. فلو عصى أمر الله بلسجود لأذنب لأنه لا يُعصى لله أمر ولو أطاعه ساجداً لغير الله لكان الذنب أعظم؟ تحمّله هو وحده مسؤولية الشرّ الموجود في البشر! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم حقاً لما سمح لموظّف عنده أن يغويهم؟ ثمّ أليس صحيحاً أنه لو لم يكونوا قابليين للإغواء لما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ أمّا أغواهم غاي!

تنوجه أفكار المراهق لساخر للكهل المتزايد حرّجا: كفت عن رمي هذا البريء بججيرتك، وإن أردت الرمي فصوّبها إلى هؤلاء المجذّين. برّبك هل ثمة شيطان غير

الآدمي. إبليس كبشٌ فداء ضحية سلطات عليا تحاول عبره التغطية على قتلها. من تلعن أول معارض وقف في وجه أول قوة في الوجود ليصدح مرفوع الرأس: لست أداة أو بوقاً؟ أليس هو جدك الأكبر وجدك كل التوار على مرّ العصور؟
الأكيد أنه ولي هذا الشاعر الفحل.

"رباه لو أن في طول انتظار غد
جدوى لما أسمعك الريح شكوانا (السياب)
وما كان حتما علينا أن يعذبنا
طاغ وأن يشهد الرحمان بلوانا
النار أشهى فهايت النار تصهرنا
يوم الحساب ومتعنا بدنيانا
إن كان لا يدخل الجنات داخلها
إلا شقيا على الأولى وغرثانا
وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا
فاحفظ عبيدك فالشيطان مولانا"

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هنا الكفر؟ لماذا تلعنه "م" لو كان بريئا... إنه الوسواس الخناس.. هذا ما علمني سيدي الشيخ وما كتبه على لوح في الكتاب.
يرفض المراهق الدخول في جدل مع طفل ساذج. لكن ما رأي الكهل؟
الحقيقية أن موقفي ما زال مبهما في هذا الموضوع من النص والرؤيا بالكاد تكتسب أولى ملامحها.

كم هي معقدة هندستها وبيداخلي من المهندسين ثلاثة لا يتفقون أبدا على رأي.
كل ما أستطيع في هذا الموضوع من النص مصارحة الاميين بالحقيقة التي يحاولون تجاهلها. يا أيها الناس، لي ولكم أطيب خبر سمعتموه: الملائكة التي وضعت فيها كل الحسنيات مفهوم مشخص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجدد فيكم، أزلي، متجدد، لا يجتته عنف أو إفساد... أيها الناس، لي ولكم أسوأ خبر سمعتموه: للشيطان الذي وضعت فيه كل الموبقات مفهوم مشخص يرمز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشر متجدد فيكم، أزلي، متجدد لا يجتته فن أو علم أو دين.
ألتفت حوالي وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار.

تحسبا لكل الإمكانيات، أرفع صوتي لأبنت للجميع أنني من أكبر الساخطين على الشيطان الموجود فعلا خارجته، وأنا لسنا هنا لثتم أنفسنا والتخلص مما بداخل الذات من نجاسات.

لا يلتفت لصراخي أحد وكل مشغول بتصفية حساباته مع كبش الفداء.
يقتر حماسي بلسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى بر الأمان انطلق وألوية الأولويات الآن الخروج حيا من الزحمة المرعبة، إن أمكن بكل أطرفي.

كلهم أتوا هنا للفوز بالجنة، لكن لا أحد منهم يريد الموت.
وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفي المرعب للاميين وهو الذي يحاولون عبثا إخفاء تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون إلى ألفاظك

يرضون بها غرورك إن كان لك ألقب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتى إن لم تكن أنتي يشتهونها. يبهضون بتأدب جمّ تاركين لأول عجز مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك مبتسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرد تصنّع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة. آنذاك ترى لهم عيوناً متجهمة وسنناً مخيفة، وأرجلاً مستعدة للمشي فوق خذك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشياً عليك. إنها الآن نفس وضعية الباخرة التي يصدد الغرق والمحلّ التجاري المغلق الذي اندلعت فيه النيران من كل مكان.

هل هي نهايتي أنا أيضاً وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجتمع فيه الله وإبليس وعزرائيل في أن واحد؟ على كل حال أليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم تتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

تنهار امرأة بدينة أملمي مغشياً عليها بين أقدام، بل قلّ حوافر قطعان بشرية فقدت كل ضابط أو هدف باستثناء البقاء على قيد الحياة. كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلّت به القدم تلك الليلة، وهو يئنّ بثقل الحشود المتسلسلة جسده وهو يختنق ويسحق ويمحق ويتفكّك؟

من أين للغة مصطلحات الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

ثرى ما الذي شعرت به المرأة البدينة هي سجين غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثاً لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟ ترنّ صرخة الاستغاثة إلى اليوم في أنثي والضحية تعرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوح بالوداع لعالم غير مكثرث. اللعنة، كانت مريضة في عهنتي لكني فشلت في منعها من دخول حلبة الموت التي خرجت منها لا أدري بأيّ أعجوبة حيا بل وبكل مكونات عدا النظارات. كوابيس الليلية أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه لشيطان ضاحك ليس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من لبن تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ أنقذوني فأسرع إلى نجدتها ليقول لي اللعين: الزم مكثك، هذا إفطاري وكلّمك اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسي على حافة السرير. - هون عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعدّب نفسك دوماً؟ لست مسؤولاً عن موت المسكينة. تنظر إليّ مطوّلاً وفي عينيها مرح خفيف. إنها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

- ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمة؟ ثمة من قال لي إن كل الذين لثموه حجزوا في حياة سابقة.

لا بدّ أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

- نعم لثمته ثم... دخلت... البيت وصلبت بين جدرانه.

تنتصب قفحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندهن وهي على سرير الموت.

تتوقف تفيحه عن القفز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.

- "يا"، ماذا قالت جدتي لما بحت لها بلمس.

- لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

لم أكن أمزح. من عادة العالم أنه إذا بخلَ تجلوزَ حدودَ البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم. تتوقف تلك الصباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. فتح السفير بابها هلمسافي أدني: هيا اركب ولا تسأل إلى أين؟

باب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدداً بنفس بالجدران الأدمية؟ يدفعني مرافقي أملمه لأعبر البوابة الضخمة. إنه المشهد الذي يكاد لا يصدق دهشة أن تكتشف البحر من دون ماء. السلحة مترامية الأطراف التي لا تفرغ أبداً... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

- ما الخبر؟

- إنه يوم غسل الكعبة. الملك بنفسه من يقوم بالعملية. يُفرغ فيه الحرم باستثناء نخبة من المدعوين تدبرث أمري لتكون بينهم.

يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكّد من الهوية والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر لسود لا أصدق أنني ألتئم الحجر الأسود.

يبادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند باب نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عجلاً. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.

يفغر الطفل-المراهق-الكهلُ فمه يكاد لا يصدّق ما يعيش.

في معابد الأدميين الأخرى، يعبرون عن انبهارهم بالمقدّس وخشيتهم منه وتزأفهم إليه بتشييد أعلى وأعدد المباني يحشونها بكل ما يقدرون عليه من روائع الفن، لا يتراجعون أمام الإفراط وسوء الذوق في تكديس الرخام والعاج والذهب. إلا هنا.

لا شيء على الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء ولا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرد. الفراغ فراغ عين الإعصار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه وللفنّ على تصوّره؟ تنهار فجأة كل الحواجز كالسدّ أمام جارف السيل.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى، على النهار والليل. الحمد لك والشكر على الماء،

على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد. الحمد لك والشكر على الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري على البحار، على الأنهار وعلى السهل والوعر. الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التين والكرم. الحمد لك والشكر على الغناء، على الضحك، على الصداقة، على الحب وحتى على المحن التي تصلب عودنا. الحمد لك والشكر على هديتي الحياة والموت.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزمجرا: الحمد على الجراد، الحمد على البعوض، على السلّ، على الطاعون، على الحساد، على الأعداء، على الأغبياء، على الجذام وعلى قمل العانة.

ثم يصمت جاءه التهيب حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تطلب منه شيئا!
خاصية قازة في الأدميين. ثراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلمت أن هناك خراج الذات قوة محبة تستجيب لكل طلب يدعم بنوع أو آخر من التملق أو الابتزاز.

كم غريب أن نستجدي التراب ممن أعطانا التبر بلا حساب، أن نتعامل مع المنزّه عن الصفت والاسم كما لو كان بخيلا يُستجدي بمساجعة، هو الذي وهبنا عالما بأسره لنعبره سادة لا متسولين. كم تشققت دوما في هؤلاء المتسولين وهم يعودون من حصص الاستجداء في كل معابدهم على مختلف أديانهم بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها. كم روضت نفسي لأكون من غير طينتهم أرفض أن أتكف بشرا أو إليها أنفة أملك البشر وحياءا أمام الله. أو اصل افتعال التعفّف ويواصل الطفل صراخه داخلي وكأنه لن يغفر للغبى الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.

- هل من كبرياء أمله "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟

من أحوح إلى الإعانة مئي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟
تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة.

يا تربية شجرة الوجود، يا جذورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كل أوراقها ويا كل ما أثمرت من ثمار، النجدة، انني يائس انني بائس، انني تائه، لكني على الطريق.

غريب سرعة استجابة الدعاء. يرفع الحاجب من نيرة همسه الصراخ: أسرع، وصل جلالة الملك، يا الله برة، برة.

إنه "هو" لا غير الذي يطردني وكل الفضاء يعيق بامتعااض فيه من المداعبة أكثر مما فيه من السخرية، من العتاب أكثر مما فيه من التقرّيع، ولسان حل الصمت يقول: حتى أنت تستجدينني!

معذرة يا من أعطى فلم يبخل، يا من وهب فلم يمين، يا من تكرم فلم يتبخج، يا من
أعدق عطاياه لا يهقه نكران أو عرفان.

*

حانت لحظة الوداع. ينفرط العقد ليركض كل واحد في اتجاه.
ماذا لو كانت الوظيفة الحقيقية لكل مكن يحج له الأدميون لم الشمل دوريا لعائلة
تاه أفرادها عن بعضهم البعض لا يجدون لشيء قدر أن تعيد الأقدار التي فرقتهم جمعهم
ولو مرة واحدة في هذه الحياة؟
تتحرك الشرطة بحثا عن تخلفوا عن الرحيل. لا مشكلة لي في الإسراع بمغذرة الربوع.
فان غرامي بالبريق ولمعه (ابن عربي)
وليس غرامي بالأماكن والترب
تستعجل؟! بقية أغرب قصة سمعت في حياتها.
-أرجو أن الإياب كان أقل تعباً من الذهاب.
نعم كان رائعا لكن في فضاء خيالي .

قافلة الرجوع محملة بقراب ماء زمزم ، بتوابل سرنديب، بحرير الصين، بلبيان
حضر موت ويعطور سقطرى...لا بد من البحث عن قطاع الطريق وقد أخطأوا رصد
مكان عبور القافلة لأعطيهم مما تنن بحمله الإبل..عند وصول واحة الأباء والأجداد
توزيع ما بقي من حمولتها وطلاق سراحها لتتعم هي الأخرى بالحرية...أنا الآن داعية
الشبيخين أوصل تعليمهما في بلاد جارت علي من يوم ولادتي وضمن بي أهلها الف مرة
ومرة..سامي السلاطين وفقهاء السلاطين في صفوف متراصة والشرر يتطاير من
عيونهم..الفرار! إلى أين والسلاطين وفقهاء السلاطين والدهماء أخطر سلاحهم في كل
مكان؟

تلس "ما" كتفي برفق لأوصل حديثا هو كل ما يشدها الآن للحياة.
- أه تفاصيل العودة إكدت الطائفة ألا نطلع بنا لمشكل الصولة. ألم أقل لك إن المسكين
اغتنموا فرصة الحج للتسوق وفرصة التسوق للحج. "حج وحاجة" مثلما يقولون. كانت
سنة أجهزة الفيديو خلافا لمواسم الذهب في لسنوات السابقة.
- أنت أيضا يا بني رجعت بفيديو.
- أنا! أنا ابن؟ أينفأس رجعت بفيديو ككل الناس! وكمشني عون الجمارك الوحيد الذي لا
يقبل الرشوة! وخرجت من المطار أزفر من الغيظ لا فقط لأنني دفعت الرسوم والغرامة
ولكن لأنني كنت الوحيد الذي دفع! من أين سمعت هذه الاقتراءات الجديدة علي؟
- أنت من رويت لي القصة.
- تقصدين شخصا يشبهني جاءك خصيصا ليشوه سمعتي عند الكائن الوحيد الذي لا
يصدق اقتراءات الناس علي؟

لا نجرب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن ننفجر ضحكا أو عندما نقهقه وقد أسدلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.
تُسَلِّط عليّ؟ نظرة فاحصة وكأنتها تتأهب لأخر التعليمات.

- لست بحاجة إلى أن أوصيك بالنلس أو بلخوتك، انتبه لهشاشة النلس، خاصة من بيدون لك أقرباء. إيالك أن تجرح كاننا، ولا تنتقم؛ لا تحقر لا كفر في هذا العالم إلا الاحتقار.

تعود إلى ما يشغل بالها منذ زمن طويل

- عدني أن تُصلح والدك.

ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارمٌ بأن أطمئننها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرهقتها عقودا وضعت أخيرا أوزارها.

- اطمئني، غفرت له منذ زمن طويل والفضل لمشاعلي مع عصا أثقل ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم.

كم من مرة قالت الأم لأبنتها: يا بني، لو تعرف كم كنت لا زلت ظالما لو ذلك!

مؤكد أن الرجل ظلم بقدر ما ظلم ولربما أكثر. ظلمه الوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل كما هو الحال دوما مع الادميين-لتختفي يوما الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم.

ظلمه أيضا أينما زال على إيمائه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا الفتات.

إنها الصور النمطية المبتذلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الأباء الطيبين لا تقل عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الأباء الشريرين؟

ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف عند الأباء والأمهات وأنه نفس الحب عند الكل حتى وإن أخفق الأباء في التعبير عنه؟ أيكون الوهم السائد الذي يُعطي للإناث الدور الأجل هو نتيجة استنثارهن بذهن وقلب الطفل في أولى وأهم سنواته، بينما الأباء المساكين يموتون إرهقا بحثا عن لقمة العيش لإطعم عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تفوق مكرهن على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامة. هل نجلهن في تسويق صورتهن على حساب الذكور المغفلين أكبر عملية غسل للدماغ عرفتها البشرية؟!

كرجل وكأب، وتحملا لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركا لكل ما سبق من مظالم لجفت بالرجل علمة وبالأباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عيد الخبيثات، بل وسنجد عيد الأباء خكالية في الحركات النسوية-يوم ثلاثة أيام كاملة لا يوما واحدا وخالصة الأجر بالطبع.

ليكن أيضا في علم كل من يهّمه الأمر أنني قررت استدعاء كل قراء الرحلة في نهاية النص لحضور حفل لمضاء معاهدة سلام تتصن على أن الأباء سيَتوقفون من هنا فصاعدا

عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آبائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقيل المرور لليوفيه سن تبادل الخطب تحت لتصفيق الحاز لمدعوين يغالبون نموهم من فرط التأثر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركه لجبل جديد من الآباء والأبناء، آخر همهم تنفيذ الاتفاق، علما وأن كل من وقعوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر. لم أكن أعلم يومها أنني سأطبع قريبا آخر قبيلة على جبين الرجل الذي سميتة دوما "أين في الناس"، أن دمعة حارقة ستسيل على خذ سكتة إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب!

أي والله، لم يكن لي طوال رحلتي غيره خصما ومنغسا... كل من لاعبوني الدورأحياء وأموات لم يكونوا إلا أشكاله الباهتة. تصورت أنني انتصرت عليه بالضربة القاضية لما وصلت للقمة التي استعصت على طموحه لكنه هو الذي انتصر علي بالضربة القاضية وأنا لم أجر طوال حياتي إلا وراء الأهداف التي رسمها هو.

كم سيخيب الرجل ظني ذلك اليوم أنا الذي أمنت دوما أنه قادر على لي ذراع أي عدو فإذا بعزرائيل يطرحه أرضا يجزده من وسامته وأنفته وفصاحته وهو لأول مرة لا يقاوم ولا ينتصر. نعم، لم أعرف له مثيلا على كثرة ما خالطت من الرجال وأشباه الرجال. كانوا يظنونني أسخر منه وأنا اسميه السيد إنيئناس وأنا أقصد كل كلمة. أي والله، أين في الناس أب مثل أبي!

تمسح المحتضرة نموها وإتسامة كاملة كالبرد ليلة اكتماله نضياء وجهها. تطيل النظر إلي وهي أحسن من يعلم أنها تراني لأخر مرة.

- أتعرف لماذا قُدر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟

- الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطفوس. بجد، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير خدمة المرضى لا أكثر... بالليل وبالنهار بكل جوارحي بكل ما أوتيت من علم ومن جهد، بالليل من التقاني الذي أخذته منك.

- هل كان يريد منك شيئا آخر؟ ألم تكن تخدمه وأنت تخدم عبادته، اطمئن، هو راض عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وأخرة. سر محروسا على بركة الله لا ترهب شيئا ولا تحش أحدًا.

يا لضربة الحظ التي وضعت تحت نمتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شد أزري وتربتي حتى وهو يلفظ أنفاسه.

ها هي تكمل رحلتها في هذا العالم قائلة: "هو" راض عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها. تفتح "ما" عينها على أقصى اتساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي سترك وراءها. من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لثموت في بيتها... صرختها وهي على باب القسم فاجأها ساطع النور واتساع لسماء ومهابة قوافل السحب: يا وجه ربي!

يا وجه ربّي! العالم كله وجه الله! العالم بأسره بيت المقدس!؟
يتوقّف بصرها على وجهين يحدّقان فيها بعيون دامعة. تُلامس يدي الشعر المجلل
بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ أو حرّ. يجثو الطبيب طفلاً الآخر على
الأرض الوجه بين اليدين تارة، وثارة أخرى يقتعل زيادة سرعة تدفق الدواء في
الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئاً لذاتها
وإنّما تدعو فيها لليبقين على قيد الحياة. ترفع الأم الأزلية ببضع وصعوبة يدها في حركة
آتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين. تنطفئ الشمعة
التي احترقت من طول إضاعتها لطريق الآخرين.

"نقد الزيت (كبير)

صمت الطبل

استرخى الراقص

انطفأت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد".

أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الصغير آخر فرائض الحج الأكبر ونحن
كلنا نأتي هذا العالم حجاجاً.

تتلقي "الباشاملما"⁸ رفات "الماما" والدفن فيها كالعائد بعد طول الفراق إلى حضن أمه.
هيئات أن تخفّف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

"ولو حفروا في درة ما رضيتها
ولو أودعوك الجحيم خفنا مصيفه
فيا قبر وإم من تراك، لتينا
عليه وآه من جنائك الخشن"⁹

آخر حفنة من الترى ثم صوت المرثلة: اللهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فتردّد كل
روحي: أمين.

حولي كلهم يردّدون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنا لله وإنا إليه راجعون!

من إنا هذا؟! ... من هذا الذي نحن منه والذي إليه نحن راجعون!؟

**

⁸ الباشاملما اسم الأرض الأم في لغة الشعوب الأصلية لأمريكا الجنوبية
⁹ الجندل: الحجارة (الفاشر)

الكتاب السادس الغريب

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن.
ستصبح صومعة الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن.
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن.
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن.

حافظ

مقدمة الكتاب السادس

في 31-12-1999 بالتقويم السائد

يال لي من مرتحل محظوظ وقد جننت العالم في زمن ليس مثله زمن والحال أنه كان بوسع طاولة القمار أن تجعلني أصله في أوج أزمان ركيكة لا يحصل فيها شيء أو ليس فيها الأروبة والحروب.

حقالم احضر ولادة كوكبنا منذ أكثر من اربعة ملايين سنة... ولا شاهدت انطلاق الحياة في اعماق البحار قبل ملياري سنة... ولا تابعت ارتطام كويكب تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة أنهى سطوة الديناصورات وفتح بلب المستقبل أمام الثدييات الصغيرة التي ستتبع يوما بعيدا جنسنا البشري ... ولا كان لي شرف مشاهدة أوائلنا ينطلقون قبل مليون سنة من قارة ستحمل اسم منطقة من بلدي لغزو كل قارات وبحار الفضاء الحسي من العالم.

ولكنني - ويا للشرف الأثيل - وصلت العالم وعبرته والبشرية في أوج منعطف جديد في تاريخها ربما يكون الأهم وهو المحمّل بكل أخطار الفناء وبكل آمال مستقبل قد يتجاوز أكثر أحلامنا جموحا.

ما أعى به بتفحص ما الموجود اليوم في الذاكرة الجماعية أنه منذ انطلاق رحلة الألفية قبل مليون سنة تقريبا عرف أوائلنا ثلاث ثورات عارمة قلبت حياتهم رأسا على عقب أي قطعت مع الماضي أكثر مما واصلته.

هكذا كان لجيل منهم شرف حضور انطلاق الحضرة الأولى وأساسها اكتشاف النار... ولجيل آخر بعد مرور مئات الآلاف من السنين شرف حضور انطلاق الحضارة الزراعية وأساسها اكتشاف المحراث... ثم بعد أقل من عشر آلاف سنة عايش جيل محظوظ ظهور الحضارة الصناعية أساها الآلة البخارية.

ها هو جيلي يعايش باكتشاف الحاسوب قبل خمسين سنة فقط انطلاق الحضارة الرابعة. داخل هذه الحقبة الجديدة من تطور البشرية-التي لا أحد يعلم متى ستنتهي وعلى أي شكل ستكون الحضارة الخامسة -قَبِض لي في فترة وجيزة بقصر عمر آدمي أن اعليش انهيار امبراطوريات في الفضاء الحسي وولادة امبراطوريات في الفضاء الافتراضي، أن احضر انفجار وانطفاء كم من حروب، أن أواكب صراع شعوب وأمم وابدولوجيات تتنافس بشراسة لصياغة العالم وأن اشهد الطريق يتجه إلى الأعلى قاصدا الكواكب والنجوم.

ومما يزيد في امتناني لطاولة القمار التي اختارت هذه المرة أن تكون في صفي أنها مكنتني أيضا من من حضور أضخم حفلة نظمته البشرية في تاريخها الحافل ليس فقط بالمائم وإنما أيضا بالحفلات.

كم غريب أن تكون هذه الحفلة مخصصة للاحتفاء بليلة من الرحلة شاءت لصدف أن ترمز في روزنمة بعض أمم المرتطيين إلى دخول زمنهم ألفية جديدة -ومستيقين الحدث بسنة كاملة-لدخول قرن جديد!

كل ما عليّ للتمتع بالحفلة العظمى تتبع مرارها على شاشة التلفزيون. يفتتحها ملك مغمور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها "تونجا" متقما بأول مظاهر التبرجيل للضيف الكبير.

ترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو و سيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواعد. يواصل "، الطيف" تسلله غربا يمدّ ظله على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئا فشيئا. تتصاعد الهتافات من مكان يدعى موسكو. يمعن "، الشبح" في زحفه نحو الغرب ليغمر مدينة اسمها روما. يخرج إلى الشرفة المطلّة على جماهير الأنميين عجوز مهيب مرتعش يبارك الحشود ويبارك سعادتها. كيف لا يتنخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجربة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمواسم الليلة المشهودة. فجأة تشتعل الأنوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مرحة أحالت أنوارها الليل نهارا. يتدافع بشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتفجير مخزون الفرح الذي بداخلهم لحتفاء بأهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يرزقون.

يتعالى صراخ ملايين الحناجر تعجّبا وإعجابا أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم.

أي صورة للعالم أبلغ من هذه؟ ... على لوحة الوجود تفجّر ما لا يحصى من تقط النور وكل نقطة ملحمة كائن حي...هناك في ذلك الركن الشرقي من اللوحة حيث الألوان أكثر اشراقا، تفجّر قصتي ثم اختفاؤها بالسرعة التي ظهرت بها... أي أهمية للأمر بكفيني شرفا أنني دعيت يوما لأكون جزءا من العرض.

تصل الألفية الجديدة إلى مشارف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضا سكرانة بالأنوار والصخب. بداهة قرّر هؤلاء القوم الإفراط في مظاهر الترحيب. الترحيب! ربّما هناك هدف خفيّ لمن نظّموا هذه العاصفة من النور والنار. ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة التي يسمونها لندن طوال سنوات آخر حرب خيرة في إسقاط كل مغيرت من السماء؟

ترى هل ثمة مؤامرة خفية هدفها إسقاط الزمن نفسه فينتهي كل شيء ومنه عذابتنا التي لا تتوقف.

ها أنا أمسك بأنفاسي لا أعرف هل يجب أن أصلي لنجاح المؤامرة أم لفشلها. حولي لا شيء توقف مما يعني أن الزمان يواصل بسط ظلاله علينا. خيبة أمل أم تنفيس للصداء؟ أه الشعوران في نفس الوقت. على كل حال لا أحد يجأ بمشاعري وحتى أنا لا أعيرها كثير اهتمام.

إذن ينجر الزمان من محاولات بانسة لمحاولة اسقلطه فوق المدينة العجوز مواصلا تقدمه نحو الغرب
تعبير الألفية الجديدة الشواطئ الغربية دون أن تسقط في المحيط أصابها الاعياء كما كنت
أتمنى. تستقبلها في ساحة اسمها تايمز سكوار نفس الحشود الأدمية بنفس الفرح.
ينتهي القرن الجديد ببسط ظلاله وقد وصل أقصى غرب القضاة الحسني.
على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيرا ثم أجلس شاخصا إلى
السماء.

لا يبقى لي غير مدهنة القدم الجديد لعل يكون أكثر رافة بي وبنا جميعا من الذي يقال أنه
ولى الأدبار ارتاح منا وارتحنا منه.

ها أنا أناجي شبح يعجز خيالي عن اعطائه أي شكل: لكيد أنك قرن ابن حلال لا كالذي
نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخ آخر ما كان ينقصه سفك الماء. يكفي أن
ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبوح ليفهم أنك أتيت وفي جرابك أخيرا العدل والمساواة
والفرح والسلام والحرية لآل نبات وآل حيوان. نعم لماذا أحضلك أكثر مما تتحمل، فهل
كانت عصور المجاعات والطاعون والعبودية التي جاءت بها القرون التي سبقتك أرحم؟
هل سيفيق من الغد كل البشر بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الداننين
وقد انتهت نوبة السكر.

ليلة أرادوها، هكذا بلا حجة مقنعة، مفصلية بين مستقبل غمض وماض مبهم ولا أحد
يدري متى ولماذا انطلقت هذه القصة، وإلى أين تحملهم كما يحمل تيار النهر العاتي
قطرات الماء التي تشكله.

يا للمسكين! ما الذي يخبئه لهم المستقبل؟

للصراحة آخر ما يهمني مستقبلهم ، كل ما يهمني مستقبلي. هل ستكون نهاية هذه الالفية
هذا القرن ، هذه السنة ، نهاية معاناتي وخروجي من هذا البلد الذي أصبح لي سجنا
أعيش فيه على حسابي؟

**

أو كيف أنه محكوم على الألمي أن يعبر العالم غريبا بين غرباء

أخيرا المدينة التي سأقضي فيها سنوات النفي بعد أن فُتح لي باب الخروج من السجن الكبير الذي يسمونه الوطن.

أرتمي على أول مقعد في عربة المترو شبه الفارغة. على الطرف الأخر من العربة ثلاثة مراقبين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولحث رفقه على الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ آه، إنها لهذا الأجنبي القذر!

لم يكن الرحيل يوما سهلا على الألمي، لا بحكم اتساع المحيط وضراوة لصحراء وعلو الجبل وفيضان الأنهار وأنياب الكواسر فحسب، إنما أيضا لأنه في كل فضاء يفيض بالأميين غريب، أجنبي ومشبوه يترصده ألمي آخر إن لم يكن بسلاحه فلباسان مُضى من كل سلاح.

لا رغبة لي ولا وقت اضيعة في مشلحرة سخيقة مع كمشة من الأدميين صغار السن والغفل، يكفي ما على سطح الأرض والبحر وفي السماء والفضاء من خصوماتهم. السجاد الآلي في اتجاه الخروج. تجدد الانتباه للبشر الذين يحملهم سجاد الاتجاه المعكس. تتدافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي مباشرة عوّضتها أخرى كم هي مُشابهة ومختلفة. كلها كما نحتها جياكومتي في تمثال الرجل الماشي. لها نفس الأضلع الحادة والملامح المتجهمة الأبصار الشلخصة نحو الفراغ.

الكل منطلق على ذاته، لا تسمع إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم لصجيج أت من الإناث بكعيهن العالي، كأن بين إصرارا على مواصلة بنت إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

كلهم كُتبت محكمة الإغلاق لا ترى منها إلا العنوان... أما النص فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه... أغلبهم منغلغون على أسرار بقية، متخبطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون، عاتشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها باستراتيجيات في منتهى الغباء، يحملون قصصهم كالمسيح صليبيه على ممشى الألام... ومع هنا يا لحبيبتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وعدوا بكنز لا يعرفون له مكانا.

أي كايوس لو انطفأت كل الأضواء نهائيا واضطرت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام.

خليط من الأحاسيس والمشاعر يتلاطم داخلي وأنا أنقل النظر بين الوجوه والظهور.

خليط من الأحاسيس والمشاعر يتلاطم داخلي وأنا أنقل النظر بين الوجوه والظهور.
هذه أنتى ممشوقة القامة كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس.
عينان تلمع فيهما شهوة حادة. أخرى تتفعل اللامبالاة. قوة قاهرة تلوي عنقا لتلحق الذات
ما فاتها.

هذه نظرة مطوّلة للصياد يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم. ظلال من الحزن
في عينين أرهقتها الحياة كثيرا، لا تتوقف حتى على الوجه المثير. بريق غير عمياء
تبعث في قشعريرة، يأس موجه يلمع في عينين تضلان النظر إلى الأرض سلّمتا بدوام
الهزيمة وعبث الفضل.

تختفي الحسنة التي شدت كل الأبصار دون أن تترك لي الفرصة للاستدارة وإلقاء نظرة
على الوجه الذي سحر كل الوجوه.

هذا عالم أغلى قيمه الجمال... محكوم عليك أن تُعبّره رائيا مرئيا، والكل يقيم مدى
قربك وبعدك منه... هل ثمة أصعب من الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقف لأن
نصيبك من الجمال زهيد؟... ما أروع أن تحقّق فيك عيون الجاحل ترنو إليك كما للنجم
الساطع في حلّكة الظلام... ما الجمال؟ مسألة هندسية بحثة مرتبطة بدقة رسم ملامح وجه
أم إطالة النموذج الأصلي في أنجح نسخته؟

هذه نظرة خلّتها ستتوقف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلقت ولسان حالها يقول: لا
شيء في هذا الأدميّ جدير بالاهتمام.

كم مخيف ألا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إليّ، أو اهتم بي أو لاحظ كم أنا
مُرهُق مَهْموم أو غباً بطموحتي ومشاريعي أو استقرّته أفكارى.

"كم تسكّعت شرقا وغربا! (أغنية صينية)

كم لاقيت من البشر!

ولا وجه أتذكّره

تعبت حقائبي

ظليّ وحده الرقيق"

لكن متى اهتممت يوما بالأدمي المجهول ، أو شعرت بألامه أو عنّت لي هذه الألام شيئا
أو لاحظت كم هو مرهُق ومهموم.

اللجنة! أنا أيضا ألقيت عليهم نفس النظرة العمياء، مسحت أشكالهم ببصر لا يرى، وهم
يبيرونني بنفس العيون التي لا تبصر.

كم مؤسف ألا أحد من هؤلاء الأعراب يقف مسلما ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك
بالقبيل والدموع.

من ينتبه لكون الأغلبية الساحقة من البشر الذين نتنفس ونسطمهم منذ الإفاقة أعرابا لست
لهم إلا نكرة ضائعة وسط جحافل النكرات.

يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأفئق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطأ أو ذاك والإشارات الصلته وحدها الدليل.

أخيرا يتبسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف لبيحتني بالسرعة التي برز بها. إنه آدمي أصبح أخيرا إنسانا يقول لي: تشجع ثمة مخرج لنا جميعا من كل الأنفاق! فجأة يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يفعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حجة إلى قرار من الأنا الواعي. هكذا شعرت برجلي اليمنى تبدر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، ويدي اليمنى تمسك بيد اللص ويدي اليسرى تسرع لخنقه. تصرخ امرأة يبدو أنها تابعت الحادثه بانتباه شديد: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيدا سهلا، هؤلاء اللصوص لا يستون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني يصدد الإقالات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللعنة! من قال لهذه الغيبة إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تملص مني لفجان قهوة ليحدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالم كثر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغيبة لتناول القهوة التي فوتتها على المسكين لتمدني هي بتصريح مطول عن حالة رحلتها، علي أزيح بعض الغرابية عن الأيمن بصفة عامة وعن النمط الأدمي الأكثر انتشارا، هذا الذي اسميه أحيانا الذي منه كل وحشة.

لكنها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألقوا نظرة خاطفة على المشهد وتدفعوا كل واحد يركض على الطريق الذي رسمته له الصدف والأقدار.

أخيرا الهواء الطلق. أخيرا الشراع الرئيسي للمدينة التي سقضي فيها سنوات أخرى من النفي. على طوله مظاهر الزينة، أجملها أضواء زرقاء رُصعت بها أعصاب الأشجار. قد لا توجد مدينة في العالم تعج بهذا العدد من الأجانب المتدافعين عليها من كل أرجاء الفضاء الحسي لألف سبب وسبب وهي غير عابئة بمن يدخلها ومن يخرج منها. صورة مصغرة لعلاقتنا بالعالم نفسه.

على الرصيف المكتظ المتباح والمستولون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والفقير داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يقتلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليبهروا الخدم بمكرماتهم الخيالية.

ورائي قوس النصر. على من؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجزار الكبير الذي رفعه، لكن من يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعا ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عبثا. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعففة أُخرجت من أرض عرفت أكثر حروب الأدميين وحشية وغباء، أنه كان واحدا من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشلء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يملأ كل الذين التهمتهم الحرب ولم يحفظ لهم التاريخ مائة أو اسما. يا لها من جائزة أحرزها ولا علم له بالشرف الأثيل! أية قارئة فنجان كانت تتجرأ لتقول لأُم المولود الجديد إنه سيعيش نكرة وسموت أبشع مَيته، لكنه سيصبح من المشاهير يقف ملايين مجهولين إجلالا أمام قبره ولا أحد يعرف الاسم الذي أعطته له.

فجأة التفت خلفي مدفوعا بقوة قاهرة لأهز الكتفين وأنا أتذكر أنني خرجت أو قل طردت هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حرا لأول مرة منذ سنوات ولا مخبر ألصق بيبي وظلي يتنفس في عقي.

نعم لا مخبر ورائي، لكن هذا لا يعني أن الجماهير ستتدافع لرفعي على الأعناق. كم سُمشي في شوارع هذه المدينة لا وهم لي حول ما يدور بيال من يُلقون علي نظرة متجهمة: أجنبي من جنس الإراهيين، خطر، مهَيّد للنظام، لخزينة الدولة، لصحة العمومية، لا ترجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.

نوبة من الكبرياء المجروح. أليس قدر “النقيس أن يكون غريبا حيثما كان؟” (المتنبى) لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيفة وإنما سكان المكان أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غريبي إضافة لكونهم وإن ولدوا في هذا البلد وهذه المدينة هم مثلي عابرو سبيل. كلهم مثلي يبحثون عن طريقهم في مدينة يظنون أنها منبتهم وهم لا يظنون فيها غربة عن غريبتى. كلهم سيرحطون عن هذه المدينة بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها. كلهم يعيشون فيها قصصا فيها الكثير من الأوجاع لا تبعد كثيرا عن قصتي إلا في التفاصيل داخل التفاصيل.

يصل الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كم هائل من أفضع قصص الأدميين.

ثمة من خسبوا كم من رأس بلضبط سقط في هذه الساحة وتوصلوا لرقم 1119 منهم من كلن برتية ملك. المسكين! ماذا دهاه ليولد ملكا، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكا في غير الزمان المناسب!

انتباهة لاختلاجية، امتعاض هنا وعلامات نفد صبر هناك. يجب أن أتحرّك بسرعة؛ لا مكان هنا لمن يسد الطريق والويل لمن يتلأأ. ليس عوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي مُنصب على أشباح نساء ورجال خلقت رؤوسهم وأيديهم مقيّدة إلى الخلف كُتسوا فوق عربات مجرورة بالخيول والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة التي أرث لها ظهري هي وقوس النصر. أريد نسياتهما معا. تُرى ما الذي كان يعتمل داخل رؤوس على وشك السقوط جاحظة العينين في فقة معدة خصيصا لتلقفها؟ هل تكون هذه المرأة

التي تبيّت على كل الأمواج قدرا لا يُحتمل من الألم هي الملكة التي تضافت عليها كل الأحقاد وسقوها في مثل هذا الموكب كما ساقوا زوجها من قبل؟! المسكينة! ما الذي دهاها لتولّد ملكة بل وفي غير الزمان المناسب. لو جاءت قبله أو بعده لربما أصبحت أم للشعب والقديسة التي تتبرك بها العجائز والعداري؟

كيف الإفلات من صُراخ صلمت بملأ الفضاء ويتعالى من مبانٍ متجمّمة تقع على بُعد بضعة مئات من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمفصلة وتبعته أمه التي أجبروه على القول إنها كانت تضاجعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميرا وولي عهد ملك على وثنك الغروب. ربما كان سيصبح أكبر الملوك حكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولت القصر سحبت له سيناريو سموت فيه كمدا قيل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف.

إنها مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يعبا بكل ما عرف من المآسي ولا أهمية لها إلا بالنسبة إلى الذات التي عاشتها.

على يساري البرج الحديدي الذي أصبح رمزا للمدينة والمطلّ على نهر هو منذ نشأتها شريان يضيخ في جسمها حيوية التجار والمهريين والمسافرين والغزاة. أيا كان نصيبها من الرنق والجمال وطرافة الأبنية، هذه المدينة ككل تجمعات الأدميين منذ سكنها بيوت الطين والحجر مرآة أحسن ما فيهم بما تعجّ به من بيوت عبادة وجامعات ومستشفيات ومكتبات ومتاحف ومطاعم ومقاه... وهي أيضا مرآة أفضع ما فيهم بما تعجّ به من مواخير وسجون ومحكم وتكتلت وحدائق للحيوان ومسالخ لذبح الملايين منهم يوميا.

هذه المدينة ككل تجمعات البشر غاب وأغلب من فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكن، وعلى حسابهم إن تعذّر الأمر. وراء الواجهات المنمقة يخفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيال والتجسس والدعارة والجريمة.

أه، أخيرا وصلت هضبة القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا من يغازلها طويلا. يا سيديتي جنيف، بجاه المسيح خفي من الأم روح ذلك الطفل لا أظنها ارتاحت إلى اليوم، وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك وإلى دين ليس الذي تدينين به، لا تنسني ألامي أيضا وقد تحالف ضدي كل ما في ديني من أولياء ومن صالحين.

أخيرا الحي الذي ذرعه سنوات شبلي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأنثر كتاب. لا أحب إلي من مقاهي هذه المدينة. داخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريات، لا تسمع إلا بعضا من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نادي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي. صدق من قال إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثير ابحثا عن الدفء لسمعهم ولسمعوك، إن بعدت

عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيل، أحدث عما بحثتُ عنه دوما: الدفاع دون أَسْع.

لا بد من العودة للطريق. الوجهة الآن المكتبة العظيمة.

تصلني كاللطفة المفاجئة على الأنف لعنة سكير اتخذ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجسادا مبللة بالبول والكحول والغرق. أمني آخر لم تُحياه أكثر طاولة القمار اللعينة. لن أعرف شيئا عن الظروف التي أوصلته إلى هذا المنعطف من طريق رحلته. أما هو فبالكد انتبه لمروري أو لمرور كل من تجاهلوه فعلا أو افتعلوا تجاهله لوعيم بهم لا يستطيعون له شيئا.

أه هذه أدمية تظن أن بقدرتها أن تفعل لي شيئا حتى وإن كنت غير ملقى على الرصيف أنقياً.

ثُبادري صبية وابتسامة بلهاء على الشفتين.

- هل تعرف الرب؟ هل تدرك إلى أي مدى يجك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟

- لا، شكرا، عندي أوهامي الخاصة بخصوص من يسيّر هذا الكون، أما حُب ربك لي، فكم أود أن يكون أكثر وضوحا هذه الأيام.

تمضي البنت في حال سبيلها لن أعرف عنها أكثر مما تعرف عني.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كتب. الشّد والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز.

صخبٌ مفاجئ. منشرد يرمي بسمامة من صفيح على الأرض يفتش فيها هو وكلبه عن شيء يوكل.

من قال: الخيار أن يتصفح القلب أو أن ينفجر؟ تصفح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرة، أمام لشحاذ العجوز الجالس ذاهلا على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستششق دخان المحرك، أمام المتسول المضطجع أرضا في رواق المترو، أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل في أماكن بشعة يتكسد فيها من أفقتهم المصائب كل صواب.

فنون رداك يا دنيا	كعصري فوق ما نصف (أبو العتاهية)
فأنتِ الدار فيك الظلم	والعدوان والسرف
وأنتِ الدار فيك البغي	والبيغضاء والشنف
وأنتِ الدار فيك الهيم	والأحزان والأسف
وأنتِ الدار فيك الغدُر	والتنغيص والكلف
وفيك الحبل مضطرب	وفيك الببال منكسف

ويك لسكنيك الحين والأفات والتلف

أية غرابية أن يقفز البعض خارج البساط السيّر، أنهكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماهم جثبا، ضائق ذرعا بجمل ليس من ورائه نفع؟! كم من خُطام بشري سأرى على صفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يُلتي دوري ضحية آخر لغم زرعه منتقم هو الآخر مجهول!

أجلسُ إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتب الأدميون عن الأدميين وبكل الرسائل المبهمة التي تحملها باقي مباني المدينة. فهذه المدينة تُصنّ عظيم مكتوب بالعرق وبالدم والكاتبُ التاريخ. وأيضا هي مدينة الثوار، أمرهم الذي تقرأه في كل مكان: فَكِّرْ من خارج كل الأطر، تَمَرّد على كل الصيغ، جِدّد ولا تتوقف عن الإبداع، كلُّ شيء مقبولٌ إلا الرداءة.

جُوّ كهذا هو جرعة الأوكسجين للمخنق ونُفخ الطيّب لمن عاش في أرض والتّن يملا خياشيمه.

ليس أمامي الآن إلا حفنة من الأدميين لا يميزهم عن باقي المهرولين في كل الاتجاهات إلا تشغالهم بجمع القمامات يرمونها بسرعة في عربات ضخمة بالغة الصنيج والبقح تسدّ الطريق على سيارات نقد صبرها.

إنهم آخر من تدافع على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها المرفأ وأنها أيضا العاصفة. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال، بلا دليل، بلا خارطة بلا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

"الطريق ليس صعبا (كبير كجاردي)

الصعب هو الطريق."

لا شك أن بينهم كُتابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الأدمي يصفون معاناته في هذا العالم وهو تائه في الصحراء بلا ماء ، أو غريقٌ أنقذ آخر لحظة من برائن البحر ، أو مغامرٌ يلبس بانس يخترق الجبال خلسة ليلية صقيع يُمرّق أحشاه الجوع، لينتهي على أعتاب هذه المدينة شبيه مَيّت من الإرهاق، صارخا: يا ملاذ المضطهدين لا تصدّيني، ويا ولحة النور لا تحرقني جناحي.

ربما يأتي يوم ينشد متفقسا الصعداء.

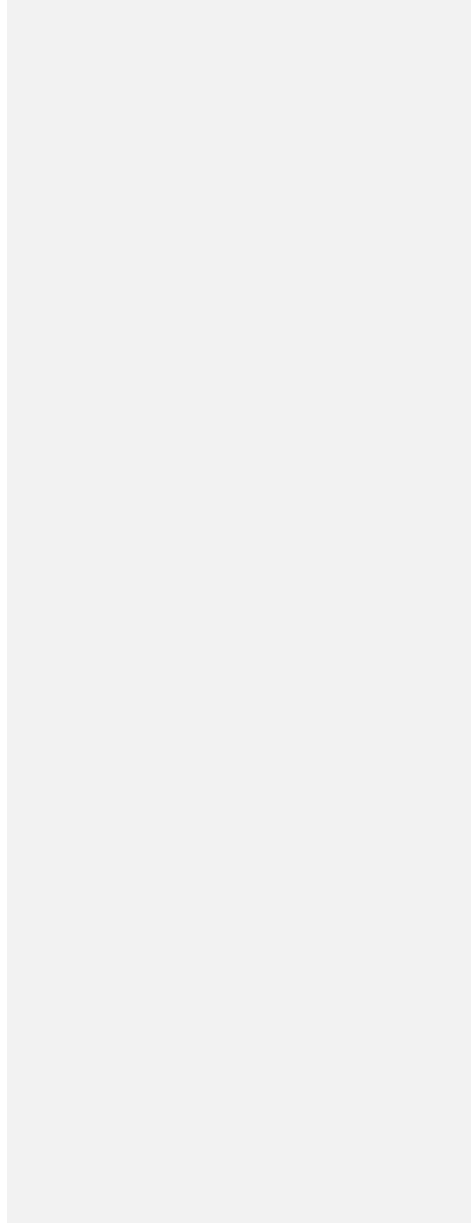
"تحت أزهار الكرز (بيسا)

لا وجود بيننا

أبدا لغريب"

أصعب ما في الأمر ليس أنني غريب لكل الغرباء الذين تعجّ بهم هذه المدينة. أغرب ما فيه أنني غريب... حتى لنفسني.

**



أو كيف أن الألمي يستكشف عالما لا يعرف عنه شيئا بذات جهله بها أعظم.

يحقق في الشحاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت: بونبول¹⁰، تفه!

كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟
لوعدا! يقارم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ أسْتَمِرّها في صدقة تعود علي بلدعاء لا بالثمتم، بل ها هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا اللص الأجنبي!
لا يبقى لمامي سوى الفرار، وكأنني السارق وهو المسروق.
ما يجعله هذا الشقي أنني أجنبي مرخص له في الوجود وليس كالغريباء الذين يختبئون في الأقبية خوفا من اكتشاف أمرهم وترحيلهم خارج الحدود.
في كل الحالات توجد الآن في محفظتي بطاقة بلاستيكية سأعيش على هاجس فقدانها أو سرقتها مدّتي بها سلطات البلاد. جبالغ الامتعاض-تحفظني مؤقتا من عنف الذين يدعون أنهم ليسوا غريباء في هذه المدينة.

قد يكون من مزايبا هذه البطاقة تظميني حول هويتي، ففيهما معطيات مكتوبة عن اسمي ولقبتي وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام يبدو أنها تحدد ليبروقراطية مخفية من أكون.

ومما يقال هذه الأيام أنه سيكون بوسع ما يسمى الذكاء الاصطناعي معرفتي أكثر مما أعرف نفسي بما سيجمع عني من معطيات تمكنه من التنبؤ بكل ما سأفعل وأقول. ياليتيه يقول لي أخيرا من أكون اللهم إلا اذا كان هو الآخر عاجزا لمام رغم أظنان المعطيات أو بسببها على ابداء أي رأي.

أمر احد الحكماء " اعرف نفسك". موافق ياسقراط لكن من أين أبدأ والمجهول الذي يسكن داخلي لا يبدي أي رغبة في الكشف عن هويته ونواياه الحقيقية؟
على طول الطريق "هو" الذي يحدّد وقت الجوع والعطش والحب والنوم والحلم، ناهيك عن وجهة المسار. هو من يفكر ومن يتنكر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم ولحظة الموت.

لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و" هو" يقودك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي، كأنك مجرد طرد يُسلمه مجهول إلى مجهول. من قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني أريد أن أموت أصلا؟

"من يبادر داخلي (روبرتو جباروز)
عندما لا يكون الأنا؟

¹⁰ سبة عنصرية في إحدى البلدان (الناشر)

من يحلم داخلي عندما أحم؟

من يوقظني على العدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتها

وكأننا كنا يوماً أصحابها"

كيف لا يتعمق الإحساس أن داخلك أنثين (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف) واحد رسمي ومعترف به والآخر يعيش في كنف الطي والكتمان.

بربك ألا يدهشك أن تكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظن نفسه المالك وهو فيها مثل ضيف لمضيف مجهول!

تكلّم يا من يسكن بين الضلوع دون عقد كراء أو موافقة من صاحب المحل.

ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القريب بيننا؟

كم مرّة صرختُ في هذا الذي يختفي وراء الستار والذي يجرّني كما يشاء، ليعرّف بهويته، فكنت كمن يحدث الجبل!

كم مرّة تحايّلت على صمته بشتمه والتملّق الرخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملّق البحر!

أواصل مع هذا استقرازه: هل تقبل لذات، أنت في آخر المطاف جوهرها، بمثل هذه المظلمة؟ هل يمكن على الأقل أن تحسّن خدماتك؟ اتفقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من أعماقك لآلم أو لآمل، لفضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيل لي أنه "هو" الذي يتنسم ولسان حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض ولا داعي للإلحاح.

ما يواسيني بعض الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذه الورطة.

كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون من المجهول الساكن داخلهم: جرّبت إغراقه بالخمر، إطفاء لهيبه بهذا المخدر أو ذاك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة، بالحكمة أو الفن... عبثاً. طرقت بابيه بالعلم فلم ينفع، بالتفلسف فلم ينفع، بالفن فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع. لا نتيجة أياً تكن الباب الذي تُطرق، والشيء أصمّ لا يسمع، أبكم لا يتكلم.

ما الحلّ وقد استعصى التفاهم والتعايش؟ الطلاق طبعاً، كما يفعل كل الأزواج الذين أرهقهم الخصام واستحل بينهم الوفاق.

أين القاضي الذي سيصدر الحكم، ما الوثائق التي سقدّمها ضده هذا الأنا الآخر الذي يعاكسني؟

ماذا لو سارع "هو" بتقديم القضية ضدي عملاً بمبدأ كل الخبثاء: ضريني وبكي وسبقني وأشنتكي.

كأنني أسمعوه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئاً، يسمع ولا ينصت أبداً. لا ينتبه إلا لأقلّ الأشياء والأمور شيئاً. أسرّ في أذنه بألف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن

فهم، فيلصنفة أو على وجه الخطأ. له في كل موضوع رأي سخيّف. لا يثبت على موقف إلا إذا كان الهذيان عينه. ذهنه صامّة أنظفها دورياً فيسارع إلى ملئها بكل أصناف الوهم والهوس. ذاكرته لا تحفظ لروائع الرحلة أثرا. أشير عليه فلا يسمع. أتبهه فلا ينتبه. أعلمه فلا يتعلم. أهذنه فلا يبدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولاً أو نصحاً. أمره بما هو في مصلحته فيتتطع. أنفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيمغن في النزق. أريه الطريق المقطوع فلا يتوجه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقها بعناد الطفل المدلل. ألف لعنة على هذا الشكل الذي قبلت التجسد داخله. لا بدّ من نقاش معتمّق مع الهندسة العامة حالما تنتهي هذه المغامرة. أيّ جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيّف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا الفشل.

لا أتحمّل مزيد التجنّي. أبدأ في تصييف هذه الاتّهامات الظلمة لدحضها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّر القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامة بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

إني أشهد في نفسي صراعا وعراكا (إيليا أبو ماضي)

وأرى ذاتي شيطانا وملاكا

هل أنا شخصان يابى هذا مع ذلك اشتركا

أم تراني واهما فيما أراه

لست أدري!

عبثّ كل هذا التفكير؟ طبعاً، لا طلاق ممكن والأنا الظاهر المخفي توأمان مشدودان من عظم الصدر.

تدخل فراش النوم هاربا من سيّدك الوحيد فتجده يترنّص بك داخل ألف كابوس.

تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ أو تغيّر فإذا به هو الذي يوقظك.

تتنكر على لا يعرفك فتكتشف أنه كان القناع. تبغي قتله فإذا به اليد التي تربط الحبل والرجل التي تدفع بالكرسي.

ثمة إمكانية لحل جذري. أدخل إحدى النور المظلمة التي تحب الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات الأخرى ومشاكلها التي لا تنتهي مع ذاتها. في فضاء خيالي المفتوح لضياقتك بوسعك أن تخاطب المرأة الواقعة خلف منضدة تستلم المعاطف الثقيلة: لا معطف لي، لكنني أودعك" نفسي" للسهرة، لا حرج إن ضيعتها وهذا بقشيش محترم لأجلّ الخدمات.

كم ستشعر بالخفة مقدراً كم كان اللعين أثقل من جسم صلاق على رجلي كسيح.

سيناريو آخر.

تتوجه الى المرأة وأنت تحلق: ما رأيك في الاحتفاظ بجيكل وهايد معا. خلصيني من الاثنين. وافعلي بهما ما تشائين.

فراق الذات لذاتها! طلاق بالثلاث بين الأنا والانا! أي جزء سأرمي خارجي رافضاً كل صلح معه؟ أي جزء من ذاتي سيرميني خارج العنق أنا المتكلم؟ هل سأتحفف حقاً من أنفالي أم هل سأكتشف أنني لا أعيش إلا بهذه الأتقال؟

تخاطبك المرأة: من أين لي أن أرفض لك طلباً، هل أنت مستعد؟ تعطي إشارة الانطلاق لعملية امتصاص جيكل وهاید. تبرز من الغد لصحافة الشعبية بعناوين صالحة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمام مرآة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة. الأطباء لا يجدون تفسيراً للظاهرة."

حقاً كم لنا من أنا؟ الأنا للمعروض للخداع أو للابهار... الأنا المخفي عن الأنظار، الأنا الذي يعيش بعض قصته في فضاء الحواس... الأنا الذي يعيش أهم فصولها في فضاء الخيال... الأنا الذي يرحل ليلاً ليعيش في عالم الأحلام... الأنا الذي سيسكن فضاء ذاكرة الأحياء عند الموت... أليس من الأصح أن يكتب كل واحد منا من هنا فصاعداً أمام كل فعل نحن، ولنفسر البعض هذا بجنون العظمة.

قد تكون الصعوبة الأساسية أن الذات كطبقات الجيولوجيا: على السطح ما تظهر وما تدعي لنموه به وتخاذ، تحته طبقة ما تخفيه بمهارة وبوعي، تليها طبقة ما تخفيه بلا أدنى وعي، أخيراً الطبقة الحاملة لكل الطبقات أي كل ما تجهل حتى وجوده في أعماق أعماقها. محكوم على وعينا بذاتنا أن يكون مثل أشعة الشمس التي لا تضيء إلا سطح البحر وبعض الأمطار تحته أما الأعماق فمحزومة عليه إلى الأبد.

نعم ما هذه الذات التي تنقسم لجزء على السطح يضح بالشكوى، وجزء في الأعماق لا يتكلم، لجزء ينفذ صاغراً وآخر يأمر دون تكلف عناء التفسير، لجزء يجهل تقريباً كل شيء وجزء كأنه يعلم تقريباً كل شيء؟

طوال بحثك عن وفي هذا الحاضر الغائب تُفجأ ببعده اللامتناهي ويقربه الشديد. تفاجأ أنه أنت تتأمل صورتك في المرأة، أنه صورتك في المرأة تتأملك أنت. ولما تتصوّر أنك أمسكت به تكون كمن تتعلق قبضته على الريح.

أي خيار غير مواصلة البحث عن ذات هي التي تستكشف بها العالم وأنت كما يقول المنل البوذي كالفارسي الذي يركض في كل اتجاه بحثاً عن الفرس التي يركب!

**

لَمَّا يَنْخَرِطُ بَحْثُ الذَّاتِ عَنْ ذَاتِهَا فِي طَرِيقِ مَسْدُودٍ.

في ملفات الشباب وتعلّم مهنتي بيدارني صديقي الطبيب الشرعي ضاحكا وأنا أحكم لبس القفّاز.

- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقك أن تعرف بماذا قتلته.
- الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. طلبتُ التشريح للتأكد.
- انظر ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تقدرون عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.

- لا تضعي وقتي يا جزّار، هيا توكل على الله.
يرسم الرجل بسكينه أخدودا عميقا في الجسد العاري ينطلق من تحت الحلق إلى الصرة. يدخل يده تحت الفك الأسفل مستنلا بفضاطة ودفعة واحدة اللسان والحجرة والمريء والقصبة الهوائية. ثم يشقّ الصدر مخرجا من داخله هذا العضو الذي ما زالت القصص القديمة تجعل منه معقل الحبّ.
لم يبق إلا انتزاع كيسين يحتلان جانبي فقص العظام يمثلنان بأول نفس للقادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل النهائي.

يرمقي الزميل ساخرا.
- مالك؟ هذي من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كيش العيد لا أكثر.
كلّ هذا العبي يعلم... كأنه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدام جروحي! يواصل استقرازه شجّعه تزايد ارتباككي.

- أتريد أن أنادي لك طبيبا؟
- ها ها، نكتة بانخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!
يصرخ متكلفا مزيدا من الاستقراز:
- انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على الورقة المربوطة في رسغه.

ثمة على ملامحي ما يثير عند الرفيق مشاعر أكثر ترفعا بي.
- يا ولد، منظر كيرثي له الأعداء فما بلك بصديق مثلي. لا تحمل نفسك ما لا تطيق.
لخرج لحظة لتتنفس شيئا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكنم السرّ يوما على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ لكذيب النفاع عندما أفضحك أمام الزملاء.
- قلت لك واصل.

نواصل ويواصل الجسد السلكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استقرازه بالنخز والقص والافتلاع والتقطيع والكلمات البذيئة. لم تطلق شفثاه أها واحدة لحتجاجا على

انتهاكنا حرمة الترابية. هل نحن أول من اعتدى عليها؟ هل كان له يوما حرمة ترابية أصلا بل هل كان حقا سيّد هذا الجسد؟ تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك تفعل به ما تشاء، هو منذ الإفاقة ملك مشاع تحت تصرف الأبوين والأهل والمجتمع والدولة والأطباء والغاسل وحافري القبر... ثم الجرائم والدود.

"السقم يحفر سراديبه في ناتي العفنة
عبد اللطيف الإدريسي)
كم هي اللحظات التي انتبهت فيها إلى جسدي
الذي سيغدو الجثة المأوى لكل الحشرات السافلة"
يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:

- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم. بالمناسبة، ألم تخالجك يوما الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟ ثم يغمزني:

- كبد هؤلاء الكحوليين ضخم بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانباً، وإن أردت شيئاً من لحم الكتف. لا تتردد في الطلب. انتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط الفتحة من يديك أمام الممرضين. يكفي ما يقلع عناء، حتى لا تخرج غداً جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عرب لتزويد حوانيت شاورمة المدينة بلحم موتى المستشفى الجامعي.

- كفى ثقل دم. لا يهمني الكبد. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل الأعراض كانت السرطان في الجهاز الهضمي.

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أطلع بعد قفاري.

- هل ترى شيئاً؟ وجدت هذا الورم اللعين؟

- الورم، لا، وإنما وجدت كثيراً من البراز. تريد الحقيقة يا قتي، تشخيصك كان مخطئاً من البداية. لنتظر المعلم، إما بيرنك وإما... الويل لك من لسانه... والآن ما رأيك في فتح الجمجمة؟ اغتتم فرصة زوّقن مزاجي لسيلحة في أعماق المسكين.

كم من أطباء في ماضيها القريب علقوا في المشاتق لتجاوزهم المحظور وهم بشرحون في الأقبية جثثاً مسروقة من المقابر. يا للمساكين وقد شاء حظهم العاثر أن يرتطوا في أزمان تخلط بين العلم والسحر! يا لبختي وأنا أشرح هذا الجسد المسجى على الجليز لا مشكل لي مع شرطي وجلاد!

نأخذ في قطع فروة الجلد بسرعة وليها من طرفيها ثم نمسك بمنشار لنشر الجزء الأعلى من العظم. نواجه أخيراً بعضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلقاً بغشاء هشّ لم يقاوم طويلاً المقصّ والسكين.

يقصّ صاحبي على النماغ يفصله من جذعه ويستله من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

أه هذا هو العضو الذي تقول عنه قصص العصر انه مغلّ النفس الفكر

و العفل! .. هو الآن مثل كتاب مَرَقَت وبعثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفاوس... مثل أسطوانة مَحَيَّت منها كلُّ الأنعام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقير... مثل أَعَدُّ وأُثْمِن لعبة نجح طفلان كبيران في فتحها وبعثرة مكونات لا يفهمان منها شيئاً ولا يَقْتَران ما ورائها من عقيرية الصانع كم تكلف صنعها من ملايين السنين.

انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخوا يقطر دما. كل الأشلء بين يدي الآن. مكُونات الجسم مصطفة على الجليز الأبيض. لم يبق إلا الطقس الأخير وهو لا يقلُّ إلا عجا عن تقطيع جثة للبحث عن سبب إخفاق المريض في الحفاظ على روحه وإخفاق الطبيب في صدِّ الموت وهو يخطفها منه.

كان رئيس قسم الطبِّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقَّف طويلاً أمام الأشلء يتفحصها من وراء نظاراته السمكية باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكلف الممثل. كان يقَلِّبها بقضيب حديدي يتأكد أو لا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجليز الأبيض، أننا صَفَّفناها وفق أوامره. كانت دَقَّة القطع وبراعة القَصِّ من شروط رضاه، ثم كان يمرُّ لتفحص العلامات التي تفسِّر فشل لشكل في المحافظة على ذاته.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلء الدامية متوقفاً طويلاً أمام الأمعاء المقوَّحة.

- انظر إلى هذه الحَبَّة الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكَّد أن نظارتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحصاً من أحد زملائنا أطباء العيون. ربما كان سرتانا قابلاً للاستئصال لو شَخَّص في الإبل... أه كم مؤسف...

لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النيرة التي يتقنه بتقليدها كل الأطباء الثبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيباً جاهلاً مثلك عاجز عن التشخيص على الحيِّ سينتردُّ كثيراً على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد.

لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

- يا "مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصن وعلى مَيِّت.

يفتعل الرجل الترفع عن الدخول في مهاترة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملئ عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلء الذي سدغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

- يا حيوان لقد جرحت "المعلم" وقد ينقم مني.

- هل يظن هذا البليد أنني لم أرح؟ اللعنة عليك وعليه وعلى التخصص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكشتاين!

- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستتردك مجاناً بالمخ الطراز وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. لم يقصد الأستاذ تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية

مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.

- جزارون وخيطون أيضا. يا له من تخصص!

- تحسبنا لا نهتم بأناقة جثتنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.

يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهو.

- نسينا الجراند.

نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة لصباحية. كذلك نفعل مع القحف الفلغ. مؤكداً أن صلحنا لن يشعر بالملل إذا كل من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان الغليظ بخصوص انتصر فريق المدينة لاسحق.

يخرج من قاعة التشريح طبيب شاب يد فارغة وأخرى لا شيء فيها والطفل النائم بعين واحدة دخله متزايد الامتعاض من عجزه عن فهم ما الروح، أين توجد ومن أين تخرج عندما يختطفها ما يسمونه الموت.

عن أول لقاء مع الكلمة الغامضة وانطلاق المخاوف المبهمة التي تثيرها الى اليوم .

تطلق "ما" في بعض أقدم ملفات الذاكرة صرخة مدوية وقد وصل العويل من بيت الخال والجار منذرا بحدث جلل.

ترمي كل ما بين أيديها، تهرع إلى البيت القريب تحضن خلة جالسة في حلقة نساء

يلطمن خدودهن ووسطهن رفيق اللعب مسجي بلا حراك.

ذهن الطفل الآن فوضى مطلقة. ما الذي يحدث هنا؟ هل يحمل على محمل الجد إعراض حسين عن قدمه؟ مؤكداً أنه سينهض صارخا من مرقدّه ليقفز جريا معه نحو أشجار الزيتون واللوز.

ما هذه الروح التي عانت إلى خالقها وهل خروجها سبب سكون رفيق كل مقالبه؟ غريب، كيف خرجت منه وهل سيستطيع كل هذا الصراخ إقناعها بالعودة إليه لنتتهي أزمة قد لا تكون إلا مرضا جنيدا لا يعرفه؟

يواجه الطفل لأول مرة باحتمال أن ابن خاله لن يلعب معه هذه المرة ولا المرات القادمة، أن الروح الهاربة لن تعود لوكرها. يصبح للشك يقينا والكبار من الرجال يحاولون إبعاده برفق مشبوه ولطف غير معتاد ليأخذوا الطفل الآخر بعيدا عن الأنظار وهو دائما ساكن لا يبدي اهتماما بوجود ابن عمه متزايد الخوف والحيرة والهم.

وعند الرجوع إلى البيت تتراحم أسئلة أخرى: هل من الممكن أن تقرّر روحه هي الأخرى الفرار من جسده فيضعونه في خرق بيضاء وتأتي خالته لتلول ووجهها مدفون في صدر أمه؟

لا بد من إجابة تطفئ اللق الذي شق فيه هذا الصباح كما تشب النار في الهشيم.

- "ما"، أنا لي أيضا روح ستخرج مني؟

- بعيد الشرّ عن وليدي وسبعة أطفاف وخمسة وخميس وعين الحسود فيها عود، قل أعود
برب الناس من الشيطان الخناس.

حقا الحب تلطف ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعتت في مكوناته
لوجدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب ثمين وجزء كبير من أهميته تأتي من كونه
هشاً، عرضة للعطب، مؤهلاً لتختطفه منك في كل لحظة تقاطعات الطريق.

الأم الآن في أوج الحب لأنها في أوج الخوف، هي التي تعرف ما لا يعرفه ابنها عن
الأمراض القاتلة التي تهدد حياة أطفال الفقراء.

- "ما"، أين ذهب روح حسين؟

- إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسح جنته يا حبيبي.

- ولماذا دعاها خالقها؟

تضع الأم إصبعها على شفتي الطفل. يفهم من نظرتها أنها لا ترغب في الخوض في
الموضوع. أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- "ما"، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.

- حتى الجيران؟

تحاول الأم منع ربع ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.

- حتى الجيران.

- "ما"، ما معنى الروح؟

تتخلّص من الحرج بمحاولة المزاح.

- هي أنت يا روجي.

لا تزيد الإجابة الطين إلا بلبّة. وهل يكون للشخص الواحد روحان؟

تصرّ "ما" على التملّص من السؤال الضخم. يجب ترصد ظهور الدليل الأخر. هو
يعرف ما تجهله أو تخفيه "ما".

- "با"، ما هي الروح؟ لماذا تخرج هل تعود عندما تخرج؟

تتغيّر نبرة الصوت. تتلاشى منه نبرة المرح. ها هو يمارس طريقة "ما" في التهرب
دون وإبل القبل ويتحدث باقضاب مريب عن حضور "الساعة" دون أن يتكلف غناء
شرح ما "الساعة" ومتى تأتي ولماذا تأتي ولماذا تسمى الساعة وليس الدقيقة.

ومما بقي عالقا في الذهن من خطبته الطويلة أنها مئة من الله حيانا بها دون الحيوانات،
أنها موجودة داخل قلوبنا، تحركنا وتتحكم في كل ما نفعل ونقول. كم كان الرجل يغالط
طفلا جاهلا وهو يتبحر في الحديث عن الروح بطلاقة من ملك المشكل من نواصيه،
والحال أنه كان يخلط بين المفاهيم ويبنى عليها تصورات شكلت بدورها مدة قصص
ساذجة تشيعها منذ آلاف السنين رؤى غير متقنة لم تفعل إلا زيادة الحيرة داخل العقول
والخوف داخل القلوب.

يوضع الملفت على رفت من رفوف الذاكرة. تمرّ السنوت والعقود قبل أن يعاد فتحه لإضافة بعض المعطيات.

تصرخ الممرضة: أسرع يا سيدي! صرع متتابع التوبت منذ ساعات. أواجه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود إلى الانقباض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقرّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائياً وقد ترابطت التوبات الواحدة وراء الأخرى. البنت في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء "الهاليوم" سائلاً في الشرايين أنفع من التعاويذ.

تتحرك داخل الطبيب الشاب أسئلة الطفل وحيرته أمام هذه الأعجوبة الجديدة. بوسع الروح أن ترحل ثم تعود كان شيئاً لم يكن.

تفريق الفتاة ذاهلة. لا بدّ من الصبر دقائق طويلة قبل أن تسترجع كامل وعيها والفترة على الرّد على أسئلة المهني الذي استعاد هو الآخر كل انتباهه.

- يا أنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟

- بالتباعد وبالغرابية. كأنني في حلم. تقول أمي إنني أمشي إبان التوبة ولا أتذكّر أنني مشيت. تقول إنني تكلم ولا أتذكر إنني تكلمت.

كيف لا تأتي الأدميين فكرة التّفنص وكان الذات التي تسكن الجسد تخرج في هذه الحالة من وكرها، أو كان ذاتاً أخرى خرجت من وكر مجهول لتحلّ محلّها؟

أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم مثاقيل الخطى:

- سيدي، إنه ورم ضخم وعصيق في الفصّ الأيمن؟

يلقي الجراح المحنك على الصور نظرة متمعنة مقيماً ما سيلقاه من صعوبات وهو يستأصل الورم الخبيث.

- سأحاول أن أفعل شيئاً لكن الحالة فوق كل أمل. أدخلها حالاً إلى غرفة العمليات.

حول طاولة معدنية سجيت عليها المريضة المبتجّة، يتجمع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء وجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كانوا وصلت لتوّها من عالم آخر.

يُحلق شعر الفتاة لتتناثر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كلّ بي خوف تذبذبها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شقّف هو آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرائجة مركز الذات وعربنها. عليّ أن أكون ابتداء من الآن، منتبهاً أشدّ الانتباه، حذراً أشدّ الحذر، حاضرًا بكلّ حواسي، خاصةً و"المعلم" مشهور بصرامته لا يرضى من مساعديه إلا بمطلق الانضباط.

ها هو أخيراً العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يختبئ في أعماقه الورم الخبيث.

مسكين ذلك الفيلسوف الجاهل المسمى ديكارت الذي خرج بحقيقته مدّعا أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدة بيتيمة تتوسط العضو الزخو ومنها تخرج كالهواء من بالوننا المثقوب لتذهب إلى مكان آخر يواصل فيه المحتوى قصته دون الحاوي الذي أصبح فجأة بغير حاجة إليه.

كم من علماء جهلة أدعوا بعده أن معظمها بطينات هذا الدماغ ووزعوا مكوناتها بخيالهم الواسع كما شاءوا: الإحساس باللذة وبالآلم في البطنين الأول وفي الثاني الفكر والعقل في البطنين الثالث مركز، الذاكرة في البطنين... والحال أنها لم تكن إلا فراغات داخل العضو لا تحتوي إلا على الماء!

العالم في الرؤى السانحة هو أكبر العلب التي تحتوي على كل الموجود من الكائنات وكل كائن عليّة داخلها علب اسمها الأعضاء ... من الطبيعي أن يضع فكر التعليل الروح داخل الدماغ وكان قد وضعها في السابق في عليّة القلب وعليّة الكبد... قد ينقلها غدا داخل عليّة الخلية، فعليّة الصبغيات فعليّة شوارد النّرة... في أي عليّة سيضع أصغر العلب؟

يلحظ "المعلم"، ونحن نقرب شيئا فشيئا من الورم، شرود ذهني. ينهرني بفظاظة فأنتيه محرجا. تتصاعد الحدة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك، أن أفعل ما يقول، لا ما أتصوّر أنه قال.

ينقصم العقل أو الانتباه أو سمه ما تريد إلى جزء ياتمر بأوامر أسنّاذي وجزء يواصل العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توترا.

الروح، النفس، الذات، ! فرضي مفاهيم يجب الخروج منها ... كيف؟ .. الانتهاء من تصور الروح كشيء من غير طبيعة الجسد... اعتبارها زبدة خصائص هذا الجسد وأوج قدراته في حالته التي نسميها الحياة... بالضيبط كما هو الحال مع الفكر الذي هو زبدة خصائص الدماغ السليم وأوج عطائه يعمل بكل طاقاته ... ليسنا بحاجة إلا لمفهوم واحد هو الذات ولتصور يجعلها كقطعة النقد الواحدة المنحوتة من نفس المعدن وإن بوجهين متباينين ومتكاملين الوجه الحسي الذي نسميه الجسد والوجه غير الحسي الذي سماه الأوائل النفس أو الروح.

تتصاعد حدة صوت جراح معروف بواسع خبرته وهو ينهر الممرضة والمبج ويصرخ أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا مع كل هؤلاء الاغبياء المحيطين به . الرجل في حالة من الكرب ولا داعي لأخذ صراخه على محمل الجد . بداهة هو غاضب من نفسه ، من عجزه ، من الأقدار الظالمة التي وضعت مثل هذا الورم الخبيث في مثل هذا الرأس الجميل.

بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة، بحق كل جهل الأميمين، بحق كل أمالهم والأمهم، بحق كل إثمهم وبراعتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة!
كأنّ العالم هو الذي هرّ كتفيه.
يضع الأستاذ جانبا كل أدواته يخلع قفزه وينصرف صامتا.

أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعر الحريري يرمى بلامبالاة في المزبلة. يصرخ "المعلم" فجأة وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحاذية حيث ينتظره مريض آخر:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

سيدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟

- لا تتهرب. هذا أيضا جزء من المهنة ولا بد أن تتدرب عليه.

تلعب نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببكاء صامت.

لأود بالفرار لأرمي بجسدي المرهق على أول كرسي أصادفه في الممر. أخلع حذائي لتفقد حلة الانتفاخ في قدمي. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنويتي منصبة على الأجزاء "النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنت أنتصب لولاهما؟ هل تمتعت يوما بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشيا على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أخلق لي نظرية تحدث بذكورها الركبان تدعي بكل صلف الجهلة أن القدمين مغفل الذات؟

نعم، لنرد الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الأدمي. إن أصبحت من الرجال الذين تنحط لهم التماثيل، ليقصر تمثالي على قدمين التحمنا بالطريق. يمكن للنحات أن يأخذ بعض الأفكار من جيكومتري فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار. توقّف في أروع أعماله عند قصبية الساق لا يعنيه كل ما فوق... بكل ما فوق؟ المحمول على هذين القدمين... جسدي والنسخة الوحيدة التي أملك منه.

أنتبه فجأة أنه ما زال متماسك الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة التفكك وتقديمه غذاء للكائنات السافلة.. أنه لا زال للنمر الذي أروض، الخروف الذي أحمي، الحمار الحرون الذي أنفع إلى الأمام، الخنزير الذي أمنعه من التمرغ في الوحل، الجمل الذي يحمل كل الأثقال، النسر الذي أخلق به عاليا لأرى العالم من أرفع موقع. نعم، لكن ماذا عن الشغل الشاغل لطفل تدبر أمره لبيخل مثل هذا الأماكن على أشد الثقة أنه سيجد فيها الردّ عن الأسئلة التي لم تفارقه من يوم فارقه حسين؟

يقطع عليّ تتابع الأفكار مرور عجوز مرتعش ناهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة والمدارك العقلية لفحص روتيني قبل كل عملية على الدماغ. فجأة يتضح لي طريق لآخر لمواصلة الجري وراء الفرس التي أركب.

**

ذكرة ورقة الغصن

في ملفت ما زال فارغا ينتظر أن تملأه أحداث مستقبل محتمل بأخطار مبهمة ، ينهض عجوز ذاهل من فراشه. يتوجّه نحو نافذة الغرفة ليبتسمر محققا في شجرة زيتون علاها الغبار. يلتفت إلى باب يُفتح وامرأةٍ ترتدي الأبيض تُبادرُه مُفتعلة المرح:

- صباح الخير يا سيدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيبة. هلا تبعتني الآن لمقابلة الدكتور.

من هذه الأنتى؟ لماذا تبتسم لي؟ من أين تعرفني؟ أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟

تواصل المرأة المجهولة كلاما لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئا:

- هذا اسمي مكتوب على أعلى الصدر: الاتسة زهور. انتبه دوما إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكر الطريق. وصلنا إلى العيادة. لن أقدم لك بنتيك طبعاً، سنحضران المقابلة مع الطبيب وللردّ على بعض أسئلته.

طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشاب الأسمر برقع ابتسامته تتسّر على بقلبا خجل قديم؟ من هذه المرأة ذات الشعر الكستنائي والأخرى ذات الشعر القصير الفاحم؟ لماذا تتفحصانني بهذه النظرات الدامعة؟

تجيب المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تداخلت الحدود وأمحت الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بالحيل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجبلان البصر بين الشاب الذي لم يَدهما بعدُ ووالدهما الذي شارفت رحلته على الانتهاء أقطع نهائية.

يتفحص الطبيب الشاب شكله المرتعش القادم من مستقبل غمض مغالبا قلقا لا يفهم تفقمه، ثم يستجمع شجاعته.

- هل يمكن، يا سيدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللجنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفت عن التحديق في العجوز المتزايد ارتياكا وتوتّرا:

- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والننا!

تتخلّ الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:

- خطيبٌ مُفوّة لا يجد اليوم أبسط الكلمات. لا أصدّق أنه "ب". كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسي أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ تفقيحه:

- معقول ألا يتنكر أنه قَبَلْنَا البارحة! أننا نحن مَنْ أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسى رجلٌ كهذا اسمه واسمي؟

تتدخل من يعرفها التَّصَنُّح تحت اسم تفاحة:

- الشهر الماضي رأيته يمرِّق ديوانه المفضل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخل من الحديث فيها تتعلق... بالنظفة... بنظافة اللسان أيضا.

يريدون العجوزَ مهتبا وهو يتابع لحظة بلحظة تسللَ الظلام وانطفاء الأنوار في فكره، وذاكرته تنزف كما ينزف المذبح مما فيه من دم... ها قد أصبحت ثأته تعيش اللحظة بعد اللحظة بعد اللحظة، ولا رابط بين اللحظات وكلُّ فعل يمسح ما مضى من أفعال وكل شعور يمسح الذي سبقه لتتجمد تجربة الوجود في جليد حاضر أزلي لا يسبقه قبْل ولا يتلوه بعد... هل من نهايةٍ أقطع لرحلة ظنِّ الألمي أنه خَبِرَ كلَّ فطامعها؟

من طبيعة الكوابيس نُحَلُّ من مهامها كُشِفَتْ لُحْشَى ما تخشاه الذات... ما تحول عبثا زَمِيه بعيدا في أعماق اللاوعي.

إنه كابوسي هذه الأيام وأنا أعلم الناس بحكم مهنتي أن من يضيِّع ذاكرته ضيِّع ذاته.

أليست الذاكرة كفعلي (التذكُّر)، وكَمَدَة (المعطيات المحفوظة) للشرط الضروري لوجود هذه الذات؟

ما الذاتُ دون الملفات التي أودعت فيها تجاربها منذ بداية فعلها في العالم وتفاعلها معه؟ لا شيء في آخر مراحل الرحلة أهم من تجنيد هذه الذاكرة في آخر جهد، علمًا تشع بكل نورها لتضيء الأعماق التي خرجت منها الذات قبل أن يُطفئ الموتُ قَتِيلَ وعي حائِرٍ أو أن ينفخ عليه قبل حلول الأجل مرضً حَقِيرَ اسمه العته.

أنا مجددا في فضاء خيالي أتوسط "مكتبة" فتحت لي كل خزائنها وفيها أكادس الملفات التي احتفظت بأدق التفاصيل عن كل ما عشت طوال هذه العقود السبع التي مرّت منذ الإفاقة.

أفتح ملف ما يسمى بلغة العصر "الخوارزميات" أي زبدة القناعات التي ترسبت طوال الرحلة داخل ذاكرة تتزاحم فيها المعطيات التي تضيء الطريق أو تضيعه:

لا شيء في هذا العالم يدعو للتقاؤل، لا شيء يدعو فيه للتشاؤم... إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بدّ للتقيد أن ينكسر، المشكلة أن فيه من لا يعيش إلا بالقيود... البقاء للأصلح في النظرية، وفي الواقع للجبناء والانتهازيين والخبثاء الذين عرفوا من أين توكّل الكتف... الاعتدال فضيلة الفضائل وهو تنازلٌ من موقع القوة عن الكبرياء والمصالح، لكنه رذيلة الرذائل إن كان تنازلا من موقع الضعف عن الكرامة والمبادئ... المافيا دولة بصدد التكوين والدولة مافيا تَخَجَّت... اللغة هي النظارات الذي نرى بها العالم والعشاء السميك الذي نضعه على العينين... الديمقراطية توهم إمكانية انبثاق الصالح العام من الإرادة الحرّة لشعب تتناقض فيه المصالح ويتجاوز فيه بنسب مجبولة الأنكباء والأغبياء،

المتعلمون والجهلة، الأخيار والأوياش... غريب أمر من قال "لا أؤمن بالله، أؤمن بما هو أعظم" ... أو الذي زايد عليه "الله موجود لكنه ما زال غير جاهز لمهاتمه" ... أو الذي تجاوز ألمه كل الخطوط الحمر "من الأفضل له ألا يكون موجودا، من يغير لربّ شقاء كل هذه العوالم؟...الأنايية ليست أن تحب أنك وإنما ألا تنتبه لحاجة الآخرين من الحب... يريدونني أن أؤمن بآفكارهم وأنا بالكاد أؤمن بآفكارهم... الوضع دوما أسوأ مما نعتقد وأحسن مما نظن... يوجد في العنف من القوة ما يوجد في البونوغرافيا من الحب... لا عيش لكريم في بلد شعبه غنم وحاكمه ضيع... واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لأخراك كأنك تموت غدا... لا يُخلص هذا العالم مسيخٌ واحد وإنما يُخلصه كلُّ واحد منا شريطة أن يتنكر أنه هو الآخر المهدي المنتظر...كل الروى تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقة الواحد إلى العند، وإرجاع العند إلى الواحد، والحال أن العالم على النوم واحد- عند، عدد واحد... نعم كم صدق أنكرسيس القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الصغار ويمرّ قها الكبار... ثمة من يتوهم أن العصر الذهبي كان في الزمن العابر وثمة من يتوهم أنه في المستقبل "المشرق" والحال أنه لم يوجد في الماضي ولن يوجد في المستقبل إلا ما يوجد في حاضرنا، كل ما يتغير الشكل والإخراج... السنيّة من يعطي المثل لا من يعطي الأوامر... في موضع ضعف لا تستسلم، في موضع قوة لا تنتقم... بين الغباء محاولة تغيير البشر ومن الإجماع عدم المحاولة، الهزيمة ليست ألا تحقق لحلامك وإنما أن تتخلى عنها، الخ... الخ.. الخ

هذه زبدة تجربتي في الحياة!!! ثم من يضمن أن لها أدنى قيمة؟

عودة للملفات الوحيدة التي اعرف أنها لا تكذب ولا تخطئ.

بماذا أبدأ؟ طبعاً بأبكر ملف، الذي حافظ على أولى أحاسيس رنة خلخال الأم، وقع قطرات المطر على نافذة غرفة النوم، خرير الماء لأول نهر اعترض الطريق، رائحة الطيب للساحن والبخور والمتصاعد من الكائون مختلطة برائحة احتراق الفحم، طعم أول شاي شديدة الحلاوة شديد المرارة تطبخه جدّة جلسة على الحصير لا تتوقف عن التثرثره إحساس -طعم أول قبلة وشفة نافذة الصبر تضغط على الشفة المكتنزة للحبيبة الأولى.

أه هذه ملفات قصص الحب والعشق والغرام .

هيكليتها ثابتة لا تتغير، لكن كم من تفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل تعطي

لكل قصة نكهة تختص بها وحدها وتميزها عن ملايين القصص المشابهة... ترى ما الذي أضاقته قصصي لهذه القصص؟ ترى هل كان في البعض منها شيئاً من الابتكار أم كانت تكرارا مملا لنفس الأدوار والمسرحيات؟

أه هذا ملف الفصل الأخير قبل مغادرة الممثلين خشبة المسرح .

كأنك وقد أشرف السيناريو على ذاتك جنوة نار سقط عليها المطر، كأنك موجة لم تعد تحركها ربح، كأنك بركان خمد، كأنك حلم جميل ارتطم ببقطة بشعة. تقيق كل ذات لوحنتها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

تككف "ح" الدمع رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرح. إنه أول لقاء منذ آخر فراق لا يبرر وجوده وعذابه سوى لذة المصالحة واستئناف الخصام.

- هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيت على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذو النافذة. فتحت الجريدة واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عنها والقطار ينطلق. آنذاك قررت أن أجلس على أبعاد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور داخلي نهائيا. تراجعت آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئا كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان علي أن أعطيك تقاحة وتقبحه.

- لم أكن أقرأ وإنما كنت...

- لا تحلول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حملت أن تكي وراسك على صدري.

- ليكن. هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولا ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعا. لله ذره، فحل إلى آخر لحظة.

- هل بوسعك أن تكون مثله؟

- ماذا؟ تشككين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتنني مصيبة مع النساء.

- أريد أفعالا لا أقوالا.

- سترين عند المغادرة.

تفتح موظفة النزول فمها وأنا أفقع الحساب:

- حجز لصيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

- لا أسخر منك أنت. بل هذا ثمن الغرفة مسبقا. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيدا، فلا تسلموها قبل السادسة ظهرا.

وعند باب النزول تدير لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع.

- إلى أين؟

- ربما ظننت عندما قبلت هذا الموعد أنني تراجعت في قراري.

- من يتفهمك أحسن مني، أنا أيضا لا أريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي..

- بلى، وداعا.

لا أحد عبر العالم وحيدا لكن لا أحد يصحيك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه بتركك أو تتركه وراءك ذات يوم. كذلك الأمر مع “الذي منه كل نشوة”. عينا أصرخ في “ح” وهي تدير لي ظهرها ركضة نحو نفق المترو.

- يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشدك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تتسي موعنا والغرفة بالثمن الذي دفعوني.

مقدورك أن تمضي أبدا (نزار قباني)

في بحر الحب بغير قلوب
وتحب ملايين المرات
وترجع كالمك المخروع

هذا أيضا ملف سميك بكيفية لا تبشر بخير.

إنه عن مشاكل الأدمي وهو منخرط في علاقة حب من نوع آخر والصعوبات دوما نفس الصعوبات.

تدافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عرها اسمها المراهقة. إنها المرحلة من الرحلة التي بصم فيها الأدمي لذنيه عن كل نداء، وقد اقتنع أنه لا نكاه يبزر ما في العالم من غياب، لا روعة تتسي ما فيه من فطاعة، لا براءة تحذر ما فيه من أثم، لا رقة تغطي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحة مقبولا. المرحلة التي يقر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم:

- إنها لا تاكل منذ أسابيع وأنت لا تحرك ساكنا.
نخلت البنيت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدّر عليه؟
أحاول فتح منفذ للقلعة المعلقة.

- يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها.

تدير لي تفجحه وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيّ كان.

يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:

- سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هامة إلى مهمة أهم، من سجن إلى منفى، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كل تخرج فتصبح الكلمات سهاماً مسومة ترشقها الأم في قلب الأب المنذب.

- طبعاً البنيت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بلوكالة، وقهّ للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميّة وموتها على حسابك وحكك.

تنتهي تقيحه في غرفة إنعاشٍ قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محققاً في الحائط. تمرّ أمامي الممرضات يتبادلن ضاحكات آخر فضائح القسم. أقطع ما في العالم لامبالته لا ما يُلحقه بنا من ألم. كم يخيل إلينا أحياناً أن العالم أعدّ لنا شمسهُ وقمره وبشره وفرصه خصيصاً كأننا ضيوف الشرف في وليمة الحياة. تُثبِّنا الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقيّة الذوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث الغيبي أو الرصاصة الطلّشة أو المرض الحثيث لنواجه بالحقيقة المرّة والعالم يسحب منا فجأة كل ما أعطى كأنه لا يعرفنا ولا يهيمه من أمرنا شيئاً. أقطع ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واعٍ أو مبالٍ بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعطاء وممن افتق منه كل ما يملك.

"لم نجن بدنيا الكرب دنيا المحن (عمر الخيام)

إلا غصص الروح وغم النفس

ما هنا من مات بهذا الزمن

ما أسعد من لم ير نور الشمس"

أقرب يدي من اليد المتدلية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالناز. أراقب تدفق السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلا جلدٌ أصفر على عظم بحجم الفم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جفّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدم غير كل ما يقدر عليه الإنسان من حب عاجز.

كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُثمِّنا بأكثر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحاً لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أقطع ما أعيش من الألم. على العكس حُبِّي الآن لها لا تسعه السماوات والأرض.

قد يكون أحسن من فهم طبيعته الأعرابي الذي سئل أيُّ أطفالك أحبُّ إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القسم المشترك بين لوضعيات الثلاث؟ الهشاشة أمام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاضد الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سَعِينا لحمايته بأعلى ما نقدر عليه: الحب.

حتى الشيخ الأكبر لم يدرك من هذا الذي يسميه الحق وهو يربط الإيمان به بحبه فالحق ليس هشاً ضعيفاً مهددة حياته لا ضمان لتواصلها إلا حُبنا له... اللهم إلا إذا قبلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأن حب الذوات التي تبلور فيها هو طريقنا الوحيدة للتقرب ممن يبقى من الأزل إلى الأزل فوق كل عبادة وكل حب.

يتواصل اضطراب البنيت عن الحياة وكأنها قررت أنه من الأحسن اختزال طريق الالام والذهاب مباشرة إلى نهاية النفق.

يا إلهي أي شيء جنت من أجله هذا العالم يستأهل كل هذا الألم، واليبقي الذي ما زال ينتظرنا في كل خطوة إلى نهاية الطريق؟

هذه المرة فاقت ضريبة الوجود قدرة الدفع. صدق من تنهد: أي مكان تشؤون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أصدّق منه الذي سنّ القاتنون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد وأصدق منهما من صنّح: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل.

ليبتئ كل شيء. لئمت تفيحته ولأمت حذوها. الموت! وليمة من الفكر واللاشعور. "شبيعة" من اللاوجود. نخسة من العدم. طفرة من السلام. نهاية كوابيس النوم واليقظة. الراحة الأبديّة.. وكل هؤلاء الأغبياء حولي الذين لا يخفون شيئا قدر خوفهم منه.

أي معلّقة سأضع على باب هذا العالم وأنا أصفقه ورائي خُلصني منه الموت أخيرا؟
حذار، حذار، عالم غير قابل للفهم أو للترويض...

حذار، حذار، عالم قاس، فظّ، لنيم، بخيل، خداع، مرهق، محيط...

حذار، حذار، عالم يضع أمامك على طول الطريق العقبة فالحفرة فالحائط الشاهق، إلى لحظة السقوط في البئر التي ليس لها قاع...

حذار، حذار، عالم قدّرك فيه جوع لا يُشبع، ظمأ لا يطفأ، حبّ لا يدوم، مشاريع لا

تكتمل، آمال لا تتحقق، والرياح فيه تجري دوما بما لا تشتهي السفن...

حذار، حذار، عالم لا يعبا بك، لا يهتم من أمرك شيء، سيان عنده أن تكون أو لا تكون...

حذار، حذار، كلّ معاركه بلا نصر وكل منتصر فيه بلصنفة أو في غفلة من الزمان، هو في آخر المطاف مهزوم...

حذار، حذار، عالم تأتيه حاوي الوفاض، ترحل عنه بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها،

مضطّعا ما كسبت رغم ما دفعت فيه من باهظ الثمن...

إنه عالم أحسن موقف تجاهه فعل الرسام تولوز لوتارك وهو يخلع سرواله أمام البحر

يتعوط ولسان حاله يقول: هذا كل ما تستأهل يا عالم، خرائي عليك.

أتوجّه للرافدة على فراش الجمر بلوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلنا بها تحية التعرف يوم الوصول: لغة الرّضع.

كلّ شيئا ما نفذ أخيرا إلى شيء ما... لمس شيئا ما... حرّك شيئا ما... أتر في شيء ما... غير وجهة المسار. أيكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمت بما فيه الكفاية... أنها تكلمت أخيرا من شيء كانت تريد التأكيد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوما بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعماق أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستجرف الإثنين.

لا أصدّق أنني وأنا أسمع تقيحه تهمس مبتسمة برد ليس فيه كلمات.

تتجدد في شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إلي وتبتسم.

- هل... هل؟

- ن، ن، نعم، نعم، نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقنق في عينين بدأت تدب فيهما الحياة من جديد.

- "يا"، هل ستبقى معي هذه الليلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

- ويعداها نعود إلى المنزل وقد فك الإضراب؟

- نعم

- لمواصل المشوار؟

- لمواصل المشوار.

- على علاقته ومصاعبه ومتطلباته؟

- على علاقته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد تعود تقيحه إلى الحياة وأعود إلى مشاعلي لا أريد شيئا قدر فسخ الكلبوس من ذاكرتي بأسرع ما يمكن.

إنها قصة من بين ما لا يحصى من قصص حب الآباء لأطفالهم وحب الأطفال لأبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فرص تدارك ما مضى من أخطاء. إنها تجربة من بين ما لا يحصى ولا يعد من تجارب ذوات محكوم عليها أن تستكشف طيف الأحاسيس والمشاعر الممكنة بشريا والويل للمساكين الذي تنفعهم هذه الظروف نحو أعمق وابتعد وخطر مناطق هذا الطيف.

حقا عزف الآباء عند مرض أطفالهم من الآلام ما عرفت. لكن هذه التجربة بكل أطوارها وملابسها وتناجها لم تحنث إلا لي أنا... والتباين في التفاصيل داخل التفاصيل نتيجة أنني كنت أبا لهذه البنت بالذات بكل خصائصها التي تميزها عن كل البنات، أنني كنت ابنا لأب دون كل الموجود من الآباء، لأم دون كل الموجود من الأمهات.

لنستم هذا المستوى من الذات أين تتجاوز أحداث بتفاصيل خاصة بي وحدي وقاعات مستمدة من تجارب ذاتي لا غير ذاكرة الأنا دون سواه... وإن استهوتنا صورة الشجرة ذاكرة ورقة الشجرة أيام الربيع.

**

ذاكرة غصن من الأغصان

ننزل للعالم وهو في طور من تاريخ لم نختره نفيق في مكان عينته الأقدار وزمان حددته طاولة القمار. نعيش ونموت داخل قصص لاناقة لنا فيها ولا جمل تشكلت سنوات وعقود وحتى قرونا قبل ولادتنا ومع ذلك لا خيار غير الانخراط فيها وقد أصبحت قصتنا شتينا أم أبنينا مجرد فصل من فصولها.

كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي وذاتك، لا البيت يعلم ولا الأشباح .

هل كانت ذاتي تتشكل كما هي عليه الآن لولا العلاقة العاصفة التي ربطتها على طول الطريق مع الرجل الذي كنت أسميه بين فخر وتهكم " إينفيلس "

بل هل كانت قصتي توجد أصلا لولا قصته؟

لا غرابة أن يتحول البحث عن ذاتي بسرعة إلى البحث عن ذات الذي تفرعت قصتي من قصته.. أي عن كل ما تراكم في ذاكرتي حول هذه القصة لإدراكي أنها ما زالت تفعل في فعلها الصامت وعبت بالأمر أم لم أعي

يحضرني كم كان معجبا بشاعر آخر جعل من قصائده الكلام المقدس الذي يبرر به كل ما يقول وما يفعل.

لماذا جعل من هذه الذات الأخرى القدوة والمثل؟ هل لتعريفه في ألامها على الألام التي عبثته طوال حياته؟ ترى هل سأجد منبع ألامي في منبع ألام دليل الدليل؟

أعود إلى قصائد لا تُلقي وإنما تُزجر، بالحناء عن الأسباب الدفينة لعردة متواصلة قوامها التقاخر والغضب والبحث المرضي عن المجد.

هل كانت نزوة مأساة الألمي المعروف تحت اسم المتنبي وقوفه اضطرابا على أبواب الملوك يستجدي من يحتقرهم، هو الذي كانت بنفسه أنفة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالحن ليختبر قوته المزعومة، أم لأنه رفض له شهواته أو بلغ في التقدير بها عليه؟

ينتبه للسبب أديب أعمى عريف بالألام وما تفعله بالمعذبين في الأرض. غريب! كيف لم يستترع انتباهي يوما أنا أيضا أن الرجل فاحز دوما بنفسه لا بقومه خلافا للمألوف، أنه بكى وأبكى الأجيل على جدّه، لا على أب أو أم أو أخ أو ابن، أن ديوانه لا يبدأ بنكر حسبه ونسبه. ثمة إذن منطقة مظلمة في قصة الرجل ربما وجد فيها "با" شيئا عزز به الصلة.

لكن "با" كان معروف الحسب والنسب وكان له أب معروف وأم معروفة. أم معروفة!

لم أسمع "ما" -على كثرة منحها للناس- تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جَدِّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوجها بعد وفاتها. الأهم، لم أسمع "ما" الذي كان يذكر والده بألف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتِي: أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته... أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه!

كل ما يحتويه ملفت هذه المرأة اسم يحفت به صمت مشبوه.

تحين فرصة الحفر في سرّ قد تملك "ما" بعض مفاتيحه.

- ألا تعتقدين أنه لو كان له أشقاء علموه باكرا أن يُقاسم لما أقرط في دلاله علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمّه المكلفة بتدليله؟

تُقاطعني "ما":

- لم تُنلله يوما أم.

تعصّ على شقيقتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

قد أكون حركتُ أشياء خطيرٌ تحريكها. فضولي أهمُّ من ترفّق يحضر ويغيب.

- لم تنلله؟! ربما كانت مريضة أو أن مرضها أثر في طبعها وفي طبعه. ربما المرض سببُ عدم إنجابها لغيره.

يأتي الردّ قاطعا وفي لصوت نبرة لستهجان.

كلّام لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟

- لا تغيري الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتيا ب مينة. حقي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تُسكّن "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ أمي ظهره إلى الحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.

- كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فُخرج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مُقنع أو غير مكتمل. يجب أن يكون رفضها استقبال ضيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ تُبدئها التي التصقت باسمها؟ جرمه من حب بقي طوال حياته يركض وراءه؟ هل هذه الجذّة التي لم أعرفها هي سببُ الوجد الذي جعل "با" طول حياته كأننا متألما مؤلما كم تسبب لي وللآخرين من أوجاع.

لكن على أيّ أوجاع كانت تمام جنّتي "كالي"؟. ربما لم تقبل بالضيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جافّة؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبعها، من ساهم في تكوين هذا الطبع الشرس الذي عُرفت به، صنقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهم، كما هو الحال دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟ الأهم من هذا كله، هل كانت هذه المرأة تترك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لأنها ستتسبب في سلسلة من المصائب لكم من نساء وأطفال أبرياء على امتداد أجيال؟

إن أترت قصة جدتي بكيفية جذرية في تكوين شخصية "با" لتطبعني بها من خلاله إلى الأبد. ما أعرب أن تُشكل أحداثاً لا تدخل لك فيها ما بك من خصال وعيوب و ما أعرب أن يقول البعضُ بحريته وكُننا مُسيرون بأحلام وكوابيس من سبقونا. ماذا عن الأحداث التي صنعت قصتها هي والتي قد تُفسرُ جزءاً كبيراً من تشكل ذاتها؟ مواصلة الحفر في ذاكرة الأم رغم المقاومة للصامتة.

- وأيضاً؟ تكلمي.

تنسحب "م" داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بداهةً ثمة شيء لا يمكن لأُم أن تحدث فيه ابنتها... شيء ربما تهلمست به النساء يوماً بعيداً عن أذان الأطفال!

لأحاول الجمع بين مختلف قطع "البازل". ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأن لا أحد تحبب في أحشاء أمه غيره كما هو حال الإنياء. ثمة عدوة للنساء وتكليه بكل أنثى رماها الحظ العائرُ بين ذراعيه مكبسا الحليلات والحليلات يشبعن إذلالاً وخيانة وطلاقاً. هل محبتي للنساء وترقفي الدائم بهن مُجرّد ردة فعل على ردة فعل على زلات أفعال لا أحد يعلم متى انطلقت؟

كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تغفر. الخيانة الزوجية؟ جدُّ مُستبعد. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالنبح تحت التكبير والزغاريد. مفهوم رجال تلك الزمان والمكان للشرف، يحنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة -لا يهتم أن تكون أختاً أو أما أو زوجة أو بنتاً- بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبهم زناة، إن لم يكن بالفعل فيلنوايا. ماذا لو كان السرّ اكتشاف الطفل باكراً ما تهلمست به النساء، وأن المرأة لتي رفضت لابنتها ضيفاً، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟

عن أب الأب الذي كنت أسميه جدي حمد صورة أوضح ومن ثمة قدرة أكبر على رصد كل ما تركه في ذاتي من آثار.

موكد أن قصته هو الآخر تفعل فعلها في صمت داخل ذاكرة ليست مستودع ملفات الماضي وإنما خزان تجارب الذات وتجارب الذوات التي نسجت قصتها.

إنها قصة أخرى عن صراع الأدمي مع العالم متمثلاً في صراعه مع الصحراء بتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل والعوامل المميزة لهذه القصة تظافر الفقر، مع محتلين أجنب، مع محتلين من نفس الجلدة، مع ابن مشرد في أصقاع العالم تأتيه أخباراً أخباره من سجن أو من منفى.

أقدم الصور الصفراء عن لرجل طويل، نحيف، حفر الزمان في وجهه من تجاعيد الألم أعفها وأعفها شكلاً، يمشي دوماً مرفوع الرأس، وثق الخطى، يحف به وقار هادئ، حاملاً مسحاته القصيرة المحدودة وكأله يحمل سيفاً، عائداً من "الغوط" حيث أمضى يومه في تعهد نخلات عجاف.

كان يواجه دوماً كل ما تتنقّق عنه مخبّلة الطفل من أنواع الشقاوة بإبتسامة تقول واصل ولا تهفك أوامر الزجر. لكن الأمر بلصمت كان صارماً لا يقبل جدلاً وهو يجلس لترتيل جمل من كتاب أصفر رثّ من النوع الذي تخفيه «مما». هكذا تعلّمت وأنا لم أتجاوز الرابعة. أن عليّ أن أصمت حين تحضر القراءة. أذكر أنني كنت أغفله وهو يبدأ حركته الغربية وقوفاً وركوعاً وسجوداً وجلساً لأفتح كتابه هذا أوزق الصفحات ببطء، ثم أبدأ الترتيل بلغة لم يسمعا من قبل جن أو إس، ولن يفكّ يوماً رموزها عالم لسانيات، وكلي أمل أن تتواصل حركات الشيخ إلى ما لا نهاية حتى أوصل لعبتي.

كم كنت أحب مرافقته في أول هزيع من الليل، خاصة في تلك الفترة الزائفة من السنة المسماة رمضان، إلى حيث يلتقي الشيوخ لمواصلة الترتيل والأطفال لمواصلة اللعب. وفي ساحة ضريح جدّ الأجداد الذي كان أول من حطّ الرحال في ولحنته، كما نمرح بانتظار فراغ الكبار من صلاتهم، وكان الرهان الاستيلاء على قطع القود التي ترميها العجائز فوق قبر الولي. كان الشيخ يخرج عند انتهاء التراويح من حلقة الشيوخ، يأخذ يدي برفقه المحبّب ميمماً الحوش نطق كلبان الرمل، والنجوم هي التي تضئ لنا الطريق، يتكفّف الصمت داخله وداخلي. لم أعرف للوفار وللجلال رمزاً إلا هو على كثرة من رأيتهم يفتعلون أمراً كان عنده فطرة وغريزة.

كم مرّة سمعت «مما» تردّد قصة وصوله بيتنا ليلاً قائماً من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف نام تحت حائط المنزل والبرد على أشدّه، وكيف عاتبته على فعلته لما اكتشفته عند بروز الشمس مقروراً يرتعش، وكيف اعتذّر بخجل لأنه خاف إرعاينا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة وربّة البيت في رعب دائم من زوار الفجر. هذا الرجل كان أباً لشخص يصل البيت في آخر هزيع من الليل، يطرق الباب بمنتهى القوّة، يوقظ الجيران، يأمر أطفاله الخمسة أن يمثلوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقلّوا كتفه الأيمن ويحمدوا الله على عودته سالماً. ثم يلأم «مما» بنزع حذائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزيد لتلكوها.

ما من شكّ أنني أدين بأحسن ما في ذاتي لهذا البدوي الذي لم يملك طفلة حياته إلا حماراً وبعض النخيل وحوشاً منداعياً... أن قصته لا زالت توجه قصتي كما لم توجهها قصة أخرى.

المشكلة كم من مناطق مظلمة في قصة هذا الجدّ أيضاً وهو من النوع الذي لا يتحدث كثيراً لا عن الآخرين، لا عن نفسه.

حتى لو عرفت قصته مع الجدة المعذّبة بسراً ما ويوجع لم يفهمه أحد، لأحالتني قصتها بالضرورة إلى قصة النوات التي صنّعت قصتها. من أين لي معرفة قصصها وأنا لا أعرف حتى أسماء أصحابها حتى ولو كنت واثقاً أنها هي الأخرى تواصل فيّ هلها لصامت؟

**

ذاكرة الجذع الذي تفرعت عنه كل الأغصان وكل الأوراق

أما وقد أمسكنا ببداية الخيط فلا بد من مواصلة تتبعه على أمل مجنون أن نفك كل كبة الغزل ولم لا الإمساك بالطرف الأول من الخيط.
 بحثاً عن القصص التي صنعت أجداد الأجداد الذين صنعوا قصتي وبلورا ذاتي لا معين غير أخبار تنتقلها الذاكرة الجماعية التي ترسبت بعض مقاطعها في ذاكرتي.
 مما تقول هذه الذاكرة الجماعية أن أجداد جدي وجدتي كانوا قوما سكنوا أرضاً بعيدة شرقاً تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحار مرعبة تفتح على محيطات تضيق في مجاهل لا يتخيلها خيال. كل قصص هذه المرحلة من رحلتنا الجماعية تتحدث عن إبل وخيام وصحراء مترامية الأطراف ورجال يبتهلون لآلهة اسمها ذو الخلصة وهبل واللات والعزى. كل الملفات ترون بقععة الشعر وترتم السلاح. كل الصور لنساء لهنّ عيون المها وشعر يغار من سواده الليل، لرجال لهم وجوه كأنها نحتت بلسكين، صور قوم إذا شجعوا تهوّروا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلموا أفرطوا، إذا ثاروا كفروا وإذا حنّوا ذرفوا الدمع مدراراً، لا يضاھيم بشر رقة وتوحشاً.
 لم يُعط " أَيْقَاس " لآنية له ماتت في سنتها الأولى اسم الخنساء صدفة مثلما لم يعطني صدفة اسم ملك مات منقياً.

مما يقال عن هذه الشاعرة -الأنثى الوحيدة التي قال عنها بشر إن غلبت الفحول- إنها ظلت تندب طول حياتها موت أخيها البطل وإنها ظالت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محو اسم صخر من ذاكرة القبيلة.

“يا عين مالك لا تبيكين تسكيبا
 إذا ربّ دهرٍ وكان الدهر ريبا
 فابكي أخاك لأيتام أرملة
 وأبكي أخاك إذا جاورت أجنبا
 المجد حنّهُ والجد عُنْهُ
 والصدق حوزنُهُ إن قرئهُ هابا
 حطاب محفلة فزاج مظلمة
 إن هلب مفضلة سنى لها بابا
 حمال ألوية قطاع أودية
 شهيد أندنية للوتر طلابا
 سم العداة وقكالك العناة إذا
 لاقى الوعى لم يكن للموت هبابا” .

يقيني أن "ب" قرأ الخنساء، أنه انبهر بما قرأ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اختمر داخله ببطء، أن مناهج ومسلك فتحت داخل ذاته، أن أهدافا قاهرة تحدت لها والشعر منذ القدم ما تستودع فيه القبيلة تعليمات صنع ذوات أطفال الصحراء.
 يقيني أن الشاعرة البدوية هي التي رسمت ل "ب" نموذجاً استبطنه طيلة الرحلة بأمره أن يكون الجريء، الجميل، سم العداة وفزاج كل مظلمة.
 كم غريب أن قصة ثار حدثت قبل أكثر من ألف سنة بين قبيلتين لعبت دوراً أساسياً في تشكيل كم من ذات منها ذات "ب" ومن ثمة ذاتي!

اللغة ليست فقط أداة تواصل بين الأحياء، هي أداة تواصل بين الأحياء والأموات، بين الأحياء والذين لم يولدوا بعد... هي عبر كل كلمة رؤية قبيلة أو أمة للعالم... هي الذاكرة الجماعية التي تحافظ على هذه الرؤية وتنقلها من جيل آخر... هي التي تترسب في أعماق كل ذات تشكلها وفق خيارات متقدمة على وجودها أحيانا بالآلاف السنين.

وحسب ما تراكم في الذاكرة الجماعية أن هؤلاء الأجداد هاجروا من فيقهم القاحلة نحو فضاءات الماء والطين عاثوا فيها فسادا وأن ملكا من ملوك الماشين وراء أذنان البقر، أطمعهم للتخلص منهم في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدولم خصبة خضراء، فيها سبانيا بيض البشرة لهن عيون بلون البحر بارعات في فنون الحب. تقول القصة الجماعية التي تفرعت منها قصتي الفردية أن هؤلاء الأجداد افتعلوا تصديق الملك الذاهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر... أنهم توغلا على خيلهم باتجاه المجهول يجزؤون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير، أن جذة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر المنسدل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها بعثت لاستكشاف الطريق بطلا أسمر اسمه من اسم الهلال جمع الحرارة والدهاء وأنه هو الذي رسم العلامات لتتدفق جحفل الفرسان... أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيفهم يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فضاة ما عاشوا وما فعلوا لا يصنقون أنهم ما يزالون أحياء... أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة... أن السيف عاد لعمده يوم تبين أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حط الرحل وأن كل مكان ليس الممكن، ومن ثم فكل مكان هو المكان.

كيف لا يكون،^{٦٤} الرجل الذي لا يستقر في أرض وقد ولد من كل هذا التشرد؟ كيف لا يتواصل حب الرحيل داخلي تُصب في فضاء الخيال خيمة سوداء على سطح أبعد كوكب والكون برمته صحرائي رمله نجوم وكتبايه مجزآت؟
بديهى أن لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكلت منه ذاتي.

فجأة ينقطع الخيط الرفيع وقد أصبحت المعطيات الضرورية لتواصل البحث موزعة في ذاكرات لغت وشعوب أخرى.

بقدر ما تتوغل عميقا في الماضي بقدر تبهت التفاصيل ثم تضيق في الضباب. أنت كمن يحاول تتبع طريق رسمته آثار المرتحلين لكنك تنظر إليها من جبل شاهق ثم من طرفة تحلق في أعالي السماء.

ومما يرويه بعض أهل العلم أن أجداد أجداد الأجداد خرجوا منذ عشرات آلاف السنين من ربوع سواحل قارة اسمها أفريقيا، أنهم ولوا وجوههم نحو الشمال بحثا عن صيد يأكلونه وهربا من صياد يأكلهم، أنهم مشوا قرونا وقرونا يتبعون الشواطئ متوغلين من حين لآخر في أعماق الأراضي البكر، حفز الروح الفضول، وحافز الجسم الخوف والجوع والعطش.

أية قصة سأنتقي لي من بين كل التي تملأ الفضاء المثير لتكون منطلق قصتي؟
لنختار تلك التي فقد فيها جدُّ ما من سلسلة الأجداد رجله اليسرى في معركة مع الفهد.
وهذا جدّه قبل أن يأكله الأسد وهو في ريعان الشباب. أين في الناس جدُّ مثل جدي تلك
لصياد الذي كانت تفرّ أمله الأسود؟ لنظر إلى هذا البطل الذي كلن جدّه وهو رايض
وراء أكمة، ووترُ القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الغيل في الحفرة المعطّلة بالعشب حنو
الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحمك الذي
سيوفر لنا أياما أخرى من الحياة.

لهؤلاء الأجداد بلضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صببت في
الجداول التي صببت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكّلت منه ذاك وذاتي.
يقال إنهم نزلوا يوما من أشجار الغابة بمنتهى الحذر مقتربين من حدودها يقون نظرة
خاطفة على السهول المفتوحة على الأفاق، أن أشجعهم انتصب واقفا لأول مرّة في تاريخ
الجنس ليرى هل ثمة ما يتحرك داخل الأعشاب العالية، أنه ألقى نظرة جشعة على جيفة
تُعد باللحم ونظرة خائفة حوله يرصد من يترصدها من كائنات جائعة هي الأخرى لها
خناجر مثبتة في الأثداق وسيوف مغروسة في القوائم.

لا بدّ من مواصلة الحفر، فلهؤلاء الأجداد أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي
صببت في الجداول التي صببت في الجداول التي صببت في الجداول التي صبّت في
الجدول الذي تشكّلت منه ذاتي.

تتعطل كل امكانيات الخيال وكل مسار يضيع داخل ضباب كثيف لتاريخ مغرّق القدم.
عن نقطة من هذا المسار وفي مقترق جديد من ذاكرة الخيال وخيال الذاكرة، تقترب أنتى
وجِلّة بحذر من غدير تريض التماسيح على ضفته. إنها لوسي جدة كل الأجداد... تلك
التي تسميها القصص حوّاء... في وجهها قسمات تنذر بقرب بروز ربع ابتسامتها على
وجه هادئ وقر، وملامح ابتسامتها واسعة وضحكة مرحة دائمة، كلُّ صاحبها سمعت
لثوها نكتة أعجبتها.

موكد أنني لن أفأمامها معجبا متعجبا وملايين السنين تفصلنا... ربما أمام رميمها!
يستقبلني مدير المتحف بكل أدب ملقيا نظرات الريبة على جحافل أعوان الأمن الذين شاء
حظي العائر أن يتبعوني معارضا يخافون مني، وحاكما يخافون علي. يا للفرصة الثمينة
وأنا أستطيع على هامش اجتماع يوصف بالهلم وحتى بالقمّة، أن أزور هذا المكان
لسماعي بما يحتوي من أشياء لها بالغ الأهمية في نظر كل الباحثين مثلي في الشؤون
الإنسانية. لا بدّ أن أستعيد أنفاسي المنقطعة قبل أن أستطيع التركيز على ما يقوله الدليل.
اللجنة، نسيث أنه لا يجوز الركض في مدينة على هذا الارتفاع وأنا لم أعش أغلب عمري
إلا في السهول بين الصحراء والبحر.

على طول الحائط خزائن حديدية كالتّي تُخبأ فيها السندات والأموال المسروقة. ما بداخلها
لا يقدر بثمن وهي تحتوي على رميم لوائل أوائل الأوائل: الكائنات التي انتصبت يوما

على قدميها تطع على الثرى أولى خطوات طريق ستنتابع عليه أجيال العابرين على
جسر الوجود.

من أين لنا التوقف عند أي محطة لنقول هنا بدأ الطريق وكل بداية لا تنبثق من
فراغ؟... لا بد لها من ظروف مهيبة ولا بد للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد
للظروف التي مهّدت لها وهكنا إلى... إلى أين، إلى ماذا؟... ربما إلى ضرورة خلق
مفاهيم أخرى غير البداية والنهاية... إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع
مفهومين ربما هما مع كم من مفاهيم أخرى سراب من صنع الخيال والفكر.

يقطع عليّ تفكيري صوت مبالغ للتهذيب والاحترام .

- سيدي، نحن جدّ فخورين بأننا نملك في هذا المتحف أقدم الأثار عن بداية الإنسان. كما
نفخر بأن بلدنا هو اليوم بشهادة كل العلماء مهد الإنسانية.

ادعاء مشكوك في صحته وأكثر من مكان في القارة قد يكون المنطلق وأغلب الظن
مجرد محطة من بين كم مجهول من المحطات. على كل حال هذا علم يتغير باستمرار
وما زالت هناك كثير من الاكتشافات التي قد تحمل لنا مفاجئات ضخمة.

كم غريب أن طبيعة ذاتي وسرها المكنون ليس موجودا في الماضي وإنما في
المستقبل، وكلّ اكتشاف جديد وكلّ نغلة نوعية في خلق التصورات تغلبُ رأسا على عقب
كل قصصنا عن قصة القصة التي تفرعت منها كل القصص!

عن أي ذاكرة نتحدث هنا حيث لا تجربة مباشرة تحفظها أولى طبقت ذاكرة الذات ولا
لغة تنقل عبر كل كلمة وكل مفهوم تحافظ على تفاعل الآباء والأجداد مع العالم؟ لنقل
إننا أملم ذاكرة جماعية تسعى لإخراجها من اللاوعي إلى الوعي نخبة من العقول تنقّب
في صخور الجبال، في رمال أعماق المحيط في الهواء المحبوس في جليد العصور
الماضية، في رميم كم من حيوانات منقرضة وكم من بقايا شبه آدمية للكاننات الأولى
التي فتحت لنا الطريق. هذه النخبة التي نسميها العلماء هي التي تبني أسس معالم ذاكرة
جماعية مهمتها الأولى استحضار القصة الكبرى التي تولدت منها كل قصصنا.

فقط؟ ماذا لو كانت الذاكرة الجماعية محفورة عميقا داخل كل خلايتنا بكيفية لم نفهمها
بعد؟

لنسم هذا المستوى من الذاكرة بكل ما فيه من معطيات ثابتة ومن فراغات واسعة ذاكرة
أوائل الأوائل أو الجذع الذي تتفرع منه كل الأغصان.

**

ذاكرة الجنور والتربة

كل هذه المعطيات المتناثرة في ما لا يحصى من الملفات داخل طبقات الذاكرة مثل جمل كتاب موزعة دون ترتيب على صفحات تداولت أرقلمها .

أي نفع منها إن لم توضع في سياق مستمر سل تجد فيه كل جملة مكانها ليتضح أخيرا معنى النص؟

قبل التفكير في البحث عن التسلسل السليم للجمل والصفحات يجب مواصلة التجميع . على طولة التمهيص الآن ملف حادثة كان يوسعها أن تكون آخر نقطة على الطريق.

تلك الليلة تراجع الموت كالنسر ، انقض على شحور لم يلمسه إلا بجناح.

فجأة داهمتني من الاتجاه المعكس للطريق سيارة بسرعة مرعبة. وبينما الأنا مسلم بنهاية الحياة، برز من الأعماق مجهول شعرت به يُلمي على العضلات الممتشجة أو لمزه فلا يخطئ الحسلب ولا هي تتواني عن طاعة، وقد تعرّفت على سيّدها الحقيقي.

هي الآن تتدافع إلى عمل سريع، فعّال، منسق، ناجع، منقذة بدقة فائقة تعليمة صادرة من هذا الساكن الداخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

تنصاع السيارة التي كفتْ لُودها، كما لو أصبحت هي الأخرى جزءا لا يتجزأ من هذه العضلات. هكذا شعرت بها تثب في المنعرج القاتل حيث يجب لوثب، تستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأسا على عقب ثم تتوقف بلصيط حيث يجب التوقف.

في ظلمة الليل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت دابة من حديد كادت أن تكون لي كفا، استعاد الأنا وعيّه، لثرتعد الفرائص بخوف مغلج لم يعد له مبرر... ليتجدد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والتعجب.

كم من تجارب حتى ولو لم تكن بمثل هذه الخطورة تثبت أن هناك شيئا بداخلي يعرف كل ما أجعله!

في ملف من الماضي القريب غدتُ الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجزب لذة دوار خضر هذه المرة ولا لذة تصحبه. يميد العالم بي وقد أصبح بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. كأنّ الجسم أسلم قيادته إلى عاصفة هوجاء تكوّنت داخلي ترفعني مرّة إلى عنان السماء وترميني أخرى في أعقق هاوية.

لا مجال للانتصاب والعاصفة الهوجاء داخلي ترميني كل مرة على الفراش. تُئيني أوامر مبهمّة من قوة غامضة بالكفت عن التنخل فيما لا قنرة لي عليه. أشعر بمجهول يعيد ترتيب البيت نون أن أفهم كيف يتصرّف. لسّت من الآن فصاعدا غير مجرد مُشاهد يتابع قوَى تنصارع داخله منتظرا جسمها.

شينا قشينا ودون تدخل أي طبّ أتى اليوم الذي استطعت أن أقف فيه مجددا على قدمي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترنحا لأتعلّم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق.

كل هذا لأن "شينا" ما داخلي شخص أين يجب، عالج أين يجب، مُصلحا ما أفسده عطبي غيبّي.

المشكلة أن هذا الذي يعرف أكثر مما يعرف الأنا الواعي... ليس على كل شيء قدير. وفي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلال من سائل أحمر لزج ساخن كرية الزائحة يُخرج الأم من صوابها وهو يرفض الكفت عن السيلان. تلك الليلة جاعنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحا لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيّده. ومما بقي محفورا في الذاكرة أنها كانت تتكلم معه بلحترام شديد، أنها كانت تأتمر بكل ما يقول، أنّ الغريب عيس وقطبّ الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيرا من المال، أنها اعتذرت بفقرها، أنّي كرهت الرّجل لما أحدثه في "ما" من خرج وأني أجببت تلك اللحظة أن أكون من يعرف كيف يوقف تنفّق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعمل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال.

كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقّف الدم عن التدفّق من أخي إلا بعد تدخل الغريب، والحال أنّه خرج منّي أكثر من مرّة ثم توقّف دون حجة إلى أحد؟

يوم بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد درسه عن السائل الأحمر وكيف يتنفّق ولماذا لا يتخنّر في الأوعية، وكيف يرتك الشيء المجهول أحيانا فلا يكفّ عن السيلان مما ينذر بكثير من الويلات للمصاب، أصحّ السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حواليّ انتبه للموضوع كما كنت له منتهيا.

الثابت لا أحد علمنا كيف نوقف النزيف أو كيف نشغل العينين والكليتين والقلب والسمانة عضلة التي تحرك أجسادنا ومع ذلك نحن نشغلها تلقائيا وبكل سهولة كما لو كنا أعظم المخترعين وأنكي المهندسين وأمهر التقنيين... ومع ذلك لا قدرة للأنا الواعي على معرفة من هذا الذي يعرف ولا كيف يعرف وخاصة لماذا لا نعرف ما يعرف كم مرة خيل لي أنني ذلك الحمزّ الشهير الذي يحمل أسفرا لن يفك يوما ألغازها.

"قد كان بيور روما في خلدي (عمر الخيام)

ان اخرق درع الفلك الدوار

كي اعرف معنى قلم يسطر ما

باللوح وسرجنة وناز

حتى هتف العقل بأن قد جمعت

في نفسك كل هذه الأسرار!"

في نفسي كل الأسرار! شكرا على الخبر الطيب لكن لماذا هي محرمة علي؟

عودة إلى الصراخ العقيم لمشاكسة العبقري الصامت داخلي أضحك مني ومنه: سيادتك تعرف كل أسرار هذا الجسم وأنا أحصل على الصفر الزنآن في فرض الفيزيولوجيا. سيادتك تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعتل. لو كنت ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فننقسم العبقرية كشر يكين نزيهين.

الجواب طبعاً لا إجابة. لا يزيد هذا الصمت إلا على اصراخي أن أعرف أو على أقل إن يكون لي تصور معقول

لهذا الذي يعلم داخلي علماً عجبياً ويمنع علمه هذا من الوصول إلى فكري الواعي؟ كم حلمت أنه فتحت لي خزائنه، أنني وجدت طريقة ما لأقنعه أو لأجبره على صب ما تعلمه في وعبي فيعود الارتباط بين العمق والسطح. ربما لا جدوى لذاكرة مطلقة قد تغمر وعينا السطحي كما تغمر موجة التسونامي سباحاً غير ماهر.

من بحاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها على ظهره كل لحظة من السفر بحجة إمكانية احتياجه إلى هذه المعلومة أو تلك. جهأنا الذي نشككي منه خيال العلم الذي فينا... لحمايتنا؟!!

كل ما نحن متكدون منه كل واحد منا -ولو اعتبرناه أكبر 'جاهل' -يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده ضد ما يخر به العالم من فيروسات وجراثيم وطفيليات، كيف بنمو تدريجياً، كيف يتمكن من إيقاف نزيف من أنفه بكل فعالية، كيف يتدارك التهابا في الأذن الداخلية دون حاجة إلى طبيب، أو كيف ينجح في استعادة توازنه كل لحظة وهو يضع الخطوة تلو الخطوة، فيمشي مستقيماً لا مترنحاً كالسكران.

لذلك لم أحمل يوماً على محمل الجد مقولة سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئاً" لا لشيء إلا لإدراكي الغريزي أن كل أمي، حتى سقراط، عليم بكثير من الأشياء.

نكر كل متحذلق ييشد "يا من تدعي في العلم معرفة الخ" بعمق المعرفة الهائلة التي نخترنها كلنا حتى ولو كانت أغلب الوقت محرمة على الوعي.

نحن كائنات نعرف... وتعرف أنها تعرف... وتعرف أنها تجهل... وتجهل أنها تعرف... ولها أيضاً تقييم متواصل لمعرفةها.

ما أغربها وضعية والمرء كالجالس على كنوز قارون، يقضي عمره في لبحث عن المفتاح والذي في جيبه لا يفتح شيئاً! قد يكون للمجهول الذي يسكنني أسبابه الوجيهة في إسدال ستار كثيف بين مستويات الذاكرة.

إن في صدري يا بحر أسراراً عجاباً (إيليا أبو ماضي)

نزل الستر عليها وأنا كنت الحجابا

*

أهم ما يتميز به هذا المستوى الأعمق من الذاكرة العلم الصامت الهائل الكامن داخله أي داخل كل فرد منا وحتى داخل كل كائن حي من أبسطه إلى أكثره تعقيدا .
ومع هذا ...

نحن أمام معرفة تخطئ عندما يولد رضيع مشوها وتعجز عندما لا تجد الإجابة الفعالة لصدّ هجوم فيروس قاتل وتضعف عندما تشيخ الأنسجة والأعضاء وتقل في الحفاظ على الصحة ولن نقول على الحياة لأنه من الممكن أن فصل كامل من هذا العالم مخصص لمعرفة كيف نموت.

نحن إذن أمام علم يراكم نفسه بمرّ الزمان ولسنا أمام علم مكتمل من الأزل أغلق خزائنه على حقائق ووصفت ليس للزمن عليها أي سلطان.

مثل هذا التطور لا يكون إلا بوجود ذاكرة تخزن معطيات التجارب الماضية بما فيها من نجاحات وإخفاقات ويمكن لقوى التجديد الانطلاق منها لخلق الأكثر طرافة وتعقيدا وفعالية في تقصي الأهداف المنشودة.

هذه الذاكرة هي التي تختزل كل ما تعلمته الحياة منذ بداياتها الأولى إلى لحظة تشكلها في كل ما خلقت من كائنات متصاعدة التعقيد ومنها هذا الكائن الذي تتأمله كل صباح في المرآة.

حتى هذه الذاكرة ليست إلا جزءا من الجزء الطيفي من جبل الجليد.

مواصلة التمعّن فيها مثل الغوص في بئر بلا قاع.

هذه الحياة ليست نفسا إلاها مكتملا يُنفخ في جسد هامد فإذا به يستيقظ من سبات العدم.

هي الخاصية الأساسية لهذا الجسد عندما تشغل كل أعضائه وتقوم على أحسن وجه بالوظائف الضرورية للبقاء مثل الإحساس والتفكير والتحرك والفعل والتوالد.

لم تخرج هذه الأعضاء من العدم مكتملة الخصائص.

هي تشكلت على امتداد ملايين السنين انطلاقا من خلايا أولى راكمت على امتداد الزمن الطويل خبرات مكنتها من المحافظة على شكلها، من التكاثّر والتحسّن والدخول في شبكات متزايدة العدد والتعقيد أعطت الأنسجة التي أعطت الأعضاء التي أعطت الكائن الحي.

حتى هذه الخلايا الأولى لم تخرج من لا شيء وإنما من تجمّع وتعاضد جزيئات كيميائية تكوّنت هي نفسها من تجمّع وتعاضد ذرات يقصّي الكيماويون العمر في دراستها منها الكربون والهيدروجين والأكسجين والنيتروجين.

كيف تستطيع هذه المواد أن تبني أشكالا متزايدة العدد والتعقيد تنتهي بكانتلت بأعجاز النحل والنمل والشجر والبشر، لا بد أن يكون لها هي الأخرى ذاكرة لا شيء إلا المحافظة على شكلها وعلى الأشكال التي تكونها على امتداد ملايين السنين.

لنسمّ هذه الطبقة الأعمق من الذاكرة القصوى ذاكرة الكل الذي نحن جزء من أجزائه والذي سأسميه " الشيء " بانتظار أن تتوضح بعض الأفكار بخصوص أصعب مفاهيم الرؤيا.

خاصية هامة لطبقات الذاكرة التي تطوق ذاكرتك الواعية على سطحها كما يطفر الزبد على أعماق المحيط... هي ليست مثل طبقات الجيولوجيا التي تتراكم فوق بعضها البعض لا تضيف إلا الثقل للثقل... هي في تعامل مستمر وكل طبقة لا تكتسب خصائصها إلا من الطبقة التي ترتكز عليها تمتص منها كل ما تحتاج للمحافظة على كيانها ثم تنطلق منها منه للتوزيع والابتكار والتجديد وكل ما سيبتج عنه تكون الطبقة الجديدة التي سترتفع فوقها... هكذا ترى كل طبقة تشهد تحولا نوعيا وهي تنتقل من الحَيّ إلى الحَيّ، من الحَيّ البسيط إلى الحَيّ الأكثر تعقيدا، من الحَيّ الأكثر تعقيدا إلى الحَيّ الذي يتبلور داخله الوعي وحسنّ الجمال.

انت الان امام المرأة افقت لتوك من النوم بصدد غسل أسنانك .

توقف لحظة. تلمل هذا الوجه الذي تعكسه لك المرأة.

إنه وجهك بدون شك وأنت في هذه المرحلة من عمرك وعمر الرحلة.

ما من شك ايضا انه وجه خُصّصت به دون ملايين البشر الذين يتدافعون على سطح الكوكب.

حتى ان صحتّ مقولة ان لكل واحد منا ستة أشخاص يشبهونه تمام الشبه فانه لا واحد منهم له نفس القصة التي تميزك في ادق خصوصيتها عن قصص كل البشر.

لا أحد منهم وان تشابهت قصته في ثوابتها مع قصتك عاش ما عشت وعرف ما عرفت وجرب ما جربت لا لشيء إلا لتباين ضروري في الزمان والمكان وتسلسل الأحداث والدور الذي لعبه ارتطام الصدف بالضروريات ولصنف بالصدف.

والآن انظر بالبصيرة لا بالبصر لما وراء الصورة التي تعكسها المرأة لتكتشف صور من أحببتهم أكثر ومن أجوك أكثر من مقلة العين.

هم الذين تدين لهم بالوجود ويقصصهم التي بنيت عليها قصتك نقضا أو إراما، زيادة أو نقصانا، تواسلا أو قطعية، ترديدا أو تجديدا.

ونحن نتوغل عميقا داخل ماض يتباعد يتباعد الأفق على الراكض تخفي ملامح آلاف الأدميين الذين صنعوا قصتك والذين تواسل دون وعي جزءا كبيرا أو صغيرا من قصصهم.

استحضر بقوة الخيال صور الأوائل – أجداننا جميعا- وهم يفتحون لك الطريق وسلط بصر البصيرة على ذلك الشيخ ذو الثلاثين سنة وهو ينن لم تكفت عن المشي منذ أجيال ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعه أخرج، نحن تانهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاة؟

للتسارع وتيرة الزمان ونحن نعبر الملايين من السنين لنواجه بشبه ادمية اسمها لوسي
جدة كل الأجداد، تلك الابنتى التي تسميها بعض الأسطير حواء... وفي وجهها قسمات
تندّر بقرب بروز ربيع ابتسامه على وجه هذى وقور... وجه أمك وامى.
كلما توغلنا في عمق الزمان كلما اقتربنا عبر أغرب الأشكال من الخلية الأولى التي
انطلقت منها كلها الكائنات الحية ومنها أنا وأنت وكلنا جميعا.

هل انتهت رحلتنا بحثا عن أصولنا العريقة؟ طبعاً لا.
فحتى ولادة الخلية الأولى يقال في أحضان البحار الدافئة مجرد منعطف من الطريق
الذي اوصلك للمرأة التي نكتشف فيها لأول مرة الطبقات المترامية التي تشكل ذاتك.
ستار آخر -وربما ليس الأخير- لا تخترقه إلا وأنت تستحضر اللينات الأصلية التي
تجمعت لتبني كل الجزئيات التي بنت الخلايا التي بنت الأنسجة التي بنت الأعضاء التي
تبني الجسد الحي.

إنها الذرات التي طبخت في أعظم أفران اسمها النجوم ثم تبعثرت في الفضاء اللامتناهي
لتتجمع على سطح هذا الكوكب وتوجدني وتوجدك.

نعم لكن ما الذي يُوجد قبل وجود النجوم وقبل ما أوجد النجوم وقبل ... ؟ دوار ،
نوار، دوار !

متى بدأت الرحلة ؟ طبعاً لما بدأ كل شيء .. متى تنتهي؟ طبعاً لما ينتهي كل شيء .
الآن وقد استجمعت شتات ذاتك وأنها تبدأ وتنتهي مع كل شيء، يمكنك أن تتشدد مع شاعر
انتبه لإمكانية رائعة ومربعة .

"لما رميت جانباً هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)

الذي أسميه الأنا

أصبحت كل العالم الشاسع "

**

الكتاب السابع الرؤيا

"لا نفع لأحد من هذه الحياة
إن غامر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص."

بريهادارانياكا اوبنيشاد

مقدمة الكتاب السابع

هذا عشاءً آخر انتهى بسلام. إنها فرصة لإلقاء سؤال لم أجسر يوماً على طرحه على أي من البنّتين.

- تفاحة وأنت تقيحه، هل كنتُ الدليل الذي يكتبُ الزبائنُ عنه رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار وتوصيةً أكيدة ومُلحّة وعاجلة بترقيته؟
تبتسم تقيحه:

- أصوتُ لفائدة رسالة لشكر والتوصية بالترقية؟
أسلّط نظرة حنرة على تفاحة، فتبتسم بمكر:

- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأيي.

ثم تستعدّ للهبوط وهي دوماً مثل والدها، وقبلة الذي كان أباً لأبيها هي عجلة من أمرها. تتوقف بغتة وكان هناك ما يدفعها إلى الكلام وما يمنعها عنه. تمسك بذراعي ونحن نعبّر باب خروج المطعم الصغير.

- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيسند إليك من قبلي هذا الصيف.

- تقصدين!

- ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جَدًا.

- أنا زين الشباب ينادي له يا جَدّي! يا بنت استحي.

يا إلهي، أبهذه السرعة مرت كل هذه السنين، كل هذه العقود لا انتبه لتركاضها!

كم صدق شيخ جليل تعلمت عنه مهنتي عندما قال لي يوماً: ما زلت شاباً لا تنتبه لعمر طلبتك، ستعي أنك أصبحت شيخاً يوم تفجأ بصغر سنهم وكم هم ثابتون على نفس العمر سنة بعد سنة.. وأنت وحك الذي بهرم... إيه والله كم صدق الرجل! ها قد أصبحت لا أدخل المدرج المكتظ إلا وأفاجأ بوجوه رضعُت تثبت على أجسام عملاقة فأردد لنفسى فعلاً، كم هم صغار السن ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي أهرم. ثقلت مني جملة طائشة.

- أه، إذن هذا عالم عيبي كما ترددين، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج. تصدر تفاحة صرخة تدّعي الغضب. تقفعل تهديدي بأظافر مشهرة في وجه باسم. تتدخل تقيحه:

- كفى ضوضاء على قارعة الطريق.

تمرّر تقيحه يدها أمام وجهي:

- "يا"، عُدّ إلينا.

أُتوجه إلى طفلي التي ستصبح "ما" وقد عاد النص إلى نقطة السطر.

- تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الإحرام بتأريخ مسيو فيدل وقومه شهر... الموافق في
تأريخ "ما" وقومها ل... طيب سنرى فيما بعد... الوصول تقريبا في...
تضحك نفيحة:

- اترك هذه الحسابات للأطباء. المهم أن نغتتم الشهور القليلة القادمة لتجديد مخزونك من
القصص للقادم الجديد.

تأخذ تفاحة في تقليد صوتي:

- كفت الأميرة دوما مليئة بالفضول وبلجراً، لا تخشى إنسا أو جئا وكانت تحقّق كل ما
عزمت عليه.

تعود نفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكالك الكلمة، لتفود قصة لا تعرف إلا هي كيف وإلى
أين يجب أن تقاد.

- وكانت الأميرة للصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء آخر تعينه
على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعم الخير.

- اعترفا أنها كانت قصصا مسلية وأني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي قد
تساعدكما على مصاعب الحياة.

تقاطعني تقالعه:

- لسنا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا
وغشّ بريء يتبعه بضاعة قديمة.

- خشية في غير محلها. لا أكره عندي بعد التبلد إلا التكرار. أعدك سأضع قصة لم تُرو
من قبل لأطفال وفيها أجمل بطل وأكثر العقد تشويقا.

يشرد نظر نفيحه:

- كان يا ما كان، طفل همّه الأوجد الكشف عن سرّ الأسرار وهمّه الأوجد الآخر ألا
يكشف شيئا لتبقى الأسرار أسراراً.

- آه، أخيرا شمة كائن على هذه الأرض يفهمني. أليس أقطع ما ينتظرنا بعد طول البحث
أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبداً أو أنه سرّ لا يستأهل كل المشاق التي تكبنا لكشفه...
أو أنه حقاً استأهل كل هذا البحث، لكن ماذا سنفعل بوقتنا وقد اكتشفناه؟ والآن كفى تهربا
من مسؤوليتكما، نعود للموضوع، أعول عليكما بخصوص الشهادة... وأريد تسبحة.

يمدّ الدليل يده للبقشيش وكأنه أنهى مهمته في قيادة السانحين في أدغال هذه المحمية
الخطرة الكبرى التي اسمها العالم. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدقة. تهزّها تفاحة
بحرارة تقلد الشكر المبلغ فيه.

تطبع نفيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها
حتى لا تخنق فراشتي السحرية.

طيري يا قبيلة. اعبري كل فضاءات العالم. حظي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركني
وباركت في نرّيتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب، تنظلي من راحة شبح إلى راحة شبح

آخر تتسلفين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدات، تحملين الشكر لكل من عبوا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحواء وقد قبلا لنا بأنيل المهام. تهمس نقاحة في أذني قبل أن أدير لها ظهري:

- "يا"، إذا كان المولود بنتا سألّميتها حرّة نيمنا بالحرية التي تعشق.

نعم الحرية مع المسؤولية أئمن هدايا تجربة الوجود، مرحبا بحرة في عالم الرعب والانبهار ولتتحمل مسؤوليتها هي أيضا في إخراجها من كل هذا الوحل الذي يتخبط فيه. أي طريق أطول للبيت حتى أبقى ماشيا أطول وقت؟

لست في عجلة للرجوع و "ح" على فراش الألم تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها حتى لا تزيد في أوجاعي. مسكين جسدها الذي كنت أولع له البخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته الترانيم... الجسد الذي كان ساحة قوحتي، الذي كان قيثارتي أستلّ منها لحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان منخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي. هو الآن بطن رخوة، أسنان صبغها اللتخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طرب له من التجاعيد، نهدان مسكينان لم يعد يشتهيها فم رضيع أو عاشق لا يتحسّسهما إلا لرجل يلبس الأبيض همة لاكتشاف السرطان.

وأنا الآخر لست بلحسّن حال/ وصلت إلى العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك الذي كنت أستغفّر به طلبتي: "وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير". إنه العمر الذي تكفّت فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت.

كلّ هذه الحياة إبحار على محيط نُسلفنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقوارب كسّر الدهر صواريخها وتدافع الماء من ثقوب حفرنا الكثير منها بأظفرونا.

ها أنا أتمم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبلي:

"المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل"

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طوييييييل.

ومع هذا ...

حان الوقت -أو قلّ هي آخر فرصة-لاستجمع شجاعتي المزعومة. سأخذ "ح" بين ذراعي أضمّ حطام جسد إلى حطام جسد لأهمس في أذن رفيقة أطول مقطع من الطريق الكلمة التي رفضتها لها ولنفسى عن حياء غبي: أحبّك.

كم نخلط بين الحب والشهوة، لا يتضح الفرق إلا والحبيب فقد الجمال والصحة والشباب. على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الأنمي، على فراش الولادة نسخة جديدة له ... كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول... تواصل مشروع لا

فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجبولة التي لا يعصى لها أمر.

ماذا قالت تفاحة؟ يجب أن أعد للقدام الجديد أجمل قصة.. قصة لم تُرؤ من قبل لطفل! أية قصة؟ طبعاً قصة القصص التي تنضح ببطء منذ عقود داخل ذهني... طبعاً هذه القصة التي أسميها الرويا.

على طريق البيت، البحيرة التي أتيتها كل مساء لمتابعة غروب الشمس وراء أشجار السنديان الشاهقة. لم لا لتوقّف بعض الوقت والمقعد العام الذي أفضّله شاعر يدعوني للتركّم بالجلوس؟

أخرج هاتفي النقال من جيبي وعذر وجوده فيه أنني استعمله أساساً للكتابة وسماع الموسيقى.

أين توقفت كل هذه السنين عن جمع أفكار الرويا شغلتنني عنها هموم الحياة؟ أه تذكرت ... خرج آدم من الجنة بمحض ارادته لمهمة بقيت غامضة طوال رحلته... أفق في عالم عجيب مبهّر مرعب... ضرب في الأرض ذات العرض والطول جيلاً بعد جيل يستكشف ما تحفل به من غرائب وعجائب... مكلّ وأخرج كل أدوار البنوة والأبوة والحب والصداقة والعداوة مجرباً من أقصاه إلى أقصاه طيف ما تقدّر عليه الذات الانسية من أحاسيس ومشاعر وأفكار... عاش كل الممكن من قصص النجاح والفشل، الشقاء والسعادة... أعاد تشكيل العالم بأعمل الساعد والفكر والخيال لا يكلّ من البحث عن الجديد والمبتكر في كل ميدان... اخترع الحرب لترفع فيه طرفة الانتباه وليجدد بها كل قديم بالي... بنى له على طول الطريق واحات يستريح فيها من ذاته ومن أهوال عالم لا يرفع عنه ضغطه لحظة... يشدّه الحنين دورياً لهذا الذي المبهّم الذي خرج منه فيصطفي من الأرض أمكنة يتخيل أنها الأبواب التي تقفح عليه...

ما الذي بقي لتكتمل روايتي لقصة القصص؟ دوافع خروج آدم من الجنة... طبيعة المهمة التي جاء العالم من أجلها... هويته الحقيقية... خاتمة سعيدة لرحلته ككفا من هذه النهايات التعيسة التي تحفل بها روايات لا تنجح إلا في مزيد من تعكير المزاج.

نعم لن تكون رحلة الأدمي في روايتي لقصة القصص سلسلة من الصدق العمياء، من الأحداث الثقيلة، من الصراعات لبائسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهضة، من المتع العابرة، من النجالات النادرة، من الإخفاقات التي لا تُحصى، من الآلام العبيثية، ومن لنهايات المحزنة، من الخلود في جنة أو جهنم أو من تكرار العودة لهذا العالم في حال أسوأ من الذي جربنا مراراً وتكراراً بطيب، لكن كيف أخلق مثل هذه القصة والتحدّي ألا تكون مجرد انتقام سحري من روايات ساهمت في تصعيب الرحلة، أن تكون مقبولة من العقل والقلب على حدّ سواء، أن تشجع على الابتكار في خلق الروى لا أن تغلقه. تتدافع الأفكار يتسارع النقر.

كتابة متوترة ترسم الخطوط العريضة والتعليمات والمحاذير لهندسة لبنات بيتي الروحي.

أنا الآن كالقنّان الذي يخطّ بقلم الرصاص على الورق تعليمات انجاز المشروع والرسوم
التجريبية الأولى لبناية معمارية تجد فيها الذات أخيرا ما يلبي أعمق حاجياتها الروحية.

"بنيْتُ على الرمل (أدولف ستاف)

لكنّ كل شيء انهار

بنيْتُ على الصخر

لكنّ كل شيء انهار

واليوم على دخان المدفئة

سألني."

**

[أول لبنة للصقل سبب إدارة آدم وحواء الظهر للجنة - البحث في مكتبة الذاكرة الجماعية عما يدعم الفكرة]

بخصوص الواعز الحقيقي ليروب آدم وحواء من الجنة الكلمة لادمي يتحمل هو أيضا مسؤولية الطرح "المستقر" لكاتب هذا النص.
إنه المخرج السينمائي جون بورمان في شريط زاردوز.
السيناريو : سنة 2293 أصبحت التكنولوجيا قادرة على خلق جنة اصطناعية تُوقر كل المطلوب من أي جنة تحترم نفسها أساسا الخلود وذلك في شكل مَحْمِيَّة تتحصن منذ قرون وراء أسوار شاهقة والنعيم الأبدي الذي بداخلها وقفت كالعادة على أقلية محظوظة، أما قدر الأغلبية فالبقاء الصعب الأليم في عالم تحول أكثر من أي وقت مضى إلى جحيم حقيقي.

لا شيء يثير حفيظة هذه الأغلبية قدر هذه الجنة التي لا يقدرها لا على التمتع بها ولا على نهيبها وتدميرها رغم تعدد محاولات تسلق أسوارها المنيعه.
يكشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة أو هكذا خُيل إليه منفذا للمحمية، فيدخلها هو ومحاربه شبيه مقتنع أن ساعة الثأر قد حانت.
لكن أين قوى الدفاع، هو الذي كان يظنها ستجبره على أشرس معركة في حياته؟

المشهد الأول

يتابع لصيّد الهمجي ببصره شيئا يتقدم نحوه باسماء ممدود البدين.
شيخ! ألا تؤكد الأخبار -التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم- أن سكان هذه المحمية لا يهرمون أبدا!

يصرخ في الشيخ:

- الأسطورة التي تقول إنكم لا تشيخون إذن كاذبة!

- ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.

تستعري انتباه البطل رنة الحزن في كلام الشيخ. ما يهمه يجب أن يحث هذا الكائن المقرّر على الكلام ليفهم أخيرا سرّ قلعة استعصت على أشجع وأنكى الأجداد.

لا حاجة لتهديب فالشيخ لا يريد إلا الحديث.

قل الشيخ: اسمع مَنِي القصة أيها المنقذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري. هنا لا أحد يعبا بلزمان. كنا نشعر أن الجشع والغباء بصدد التعجيل بنهاية الأدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعدنا لها العدة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر. اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما جئناها المدينة الفاضلة كما كان الأوائل يتخيلونها في السماء بعد الموت، الجنة كما كانوا يسمونها.

وأصل الشيخ:

- وصنعنا كل التعليمات لإدارة شؤون الجنة هذه في الزمردة السوداء، منها أن كل من يخرج عليها أو يهددها يعاقب بالشيخوخة الأبدية لا أمل له في راحة الموت. الزمردة السوداء هي دعمة كل شيء هنا وضمان وجودنا. هي حراسة خلودها وخلودنا. لا تقرب تلك المبنى الذي هو محرابها ومنه تسير وتتحكم في كل شاردة وواردة، وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هولا من أفضع ميتة.

غريب! الخطاب يحذّر من شيء ولغة الجسد تغري بالعكس.

الصيد الهمجي محادثاً نفسه:

الزمردة مقتلهم إذن! لحظة أمرها سيتهوى الجدار الشفاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ، وسيكون أعظم نصر. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث ياربة القبيلة.

كانّ الربة المعنية بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه - هكذا دائما بمجرد الصدفة-فتاة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بالدمقس والمجوهرات. تتوجه إليه الفاتنة ممدودة اليدين كأنها تبتهل:

- من هنا أيها المنفذ.

المنفذ؟ لماذا أطلقت عليه هي أيضا هذا الاسم؟ لماذا ربة الخشوع في كلامها؟

يواصل الصوت الساحر: تعال أيها المنفذ الذي فرغ الصبر من طول انتظاره كلّ هذه القرون. اتبعني، أنا دليلك في هذه الدهاليز. الطريق للوصول إلى الحرم من هنا. استعد. ستعترضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستنجح.

تنطلق الفتاة تقود البطل في الدهاليز الغربية ووراءها من بعيد ذكور وإناث يرفطون في الحلي والحلل، لا يخفون وراء ملامحهم الجميلة توجسا قلّقا.

من أول خطوة أحسن بألم لا يُطاق ينهش لحمه كأنّ قوى مجهولة استنفرت لصّد أي معندي.

من أين له أن يقاتل بالسيف والنصل عدواً يواجهه من خلف ألف ستارٍ بأسلحة لا يتصوّرهما عقل.

- قولي لي من نحارب؟

- قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاع هو واللليل الجميل أكثر من مرّة. ثم وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدة الألم فظيعة لم يجربها من قبل. كانت تضعه كل مرة إلى صدرها تُغطيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. ستصل وأصبح لك زوجة.

عند اجتياز كل عقبة كانت تضحك كأنها تنشفي من عدوّ ستنتقم منه الّد انتقام.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبّعهما من بعيد ثم تتفرج أساريرها: من هنا الطريق إليها.

حتى في الجنة مؤامرات ومتمآمرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يدلون حين تختلط عليها الطرق؟

قلت له بعد أن قطعنا شوطا طويلا: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفعلك في شيء. هنا حرمُ الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحداً واحداً ممنوعون من دخوله. انخل وحدك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها ضدك. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأسأتنا.

الزمردة السوداء في قبضته أخيراً.

علمُ الكون وقدرة الخالدين في راحة يده!

رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!
لحظة تردّد.

ألم يأت للاستيلاء على كنز الكونز؟ لماذا لا يستعمل كل هذا العلم، كل هذه القوة، كل هذه السلطة لمصلحته ولمصلحة قومه؟

لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء المختئين.

يطبق براحته على الزمردة السوداء فتنتفضي كل الأتوار. تنهاوي الأسوار ليتقحم الزمان المحمية كما يقتحم الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ.

المشهد الرئيسي

يسمع الصياد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.

يَشُدُّه منظر الخالدين وهم.. يركضون باتجاه رجاله يتضرعون: أنا، من فضلك! أنا! أنا! النكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد. الغانيات يمزقن القمصان ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن البيدين في شلال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضحك سميعة يوماً.

إنه تعجّب من يرى غزالاً يركض صوب الأسد أو خَمَلاً يرتمي في أحضان الذئب.

يتقدّم الشيخ للهمجي الذاهل أمله أغرب لوحة حيّة شاهدها أمني.

- بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.

- سنتكلم قبل ذلك. من أنت؟ من هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟

- هذا أقلّ ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سادين لك بعد لحظات بلراحة الأبدية.

اسمع مني أغرب قصص الأسمية المجنونة.

كانت الجنة حقاً مكاناً مثيراً في البدايات. عرفنا من كل أنواع اللذة، لا فقط لذّة الحواس وإنما أيضاً لذّة العقل والروح. شبعنا جنساً وعلماً وصلابة وموسيقى. لم يطل بنا الوقت قبل أن نكتشف أننا لَمَّا ألغينا الألم، لم يعد للذّة معنى، أنه لم يبق للجمل قيمة بما أننا

قَصِينَا عَلَى الْقِيحِ، أَنَّ الْحِكْمَةَ اخْتَفَتْ بِمَا أَنَا صَفِينَا الْغِيَاءَ. أَنَّ الْخَيْرَ أَصْبَحَ كَلِمَةً فَارِغَةً مِنْ أَيِّ مَعْنَى وَقَدْ انْقَرَضَ الشَّرُّ. لَمْ تَعُدْ بِنَا حَاجَةً إِلَى الشَّعْرِ وَالْمَوْسِيقَى وَنَحْنُ لَمْ نَعُدْ نَعْرِفُ لَوْعَةَ الْأَسَى. مَا الَّذِي سَنَسْعَى لِمَعْرِفَتِهِ وَقَدْ عَرَفْنَا كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ بِمَاذَا سَنَمْلَأُ الْوَقْتَ الْمَتَوَقَّفَ الْمَمْتَدَّ أَمَامَنَا إِلَى مَا لَا نَهْلِيَهُ، وَقَدْ جَعَلْنَا مِنْ نَهْرِ الزَّمَانِ بَرَكَةً أَسَنَةً لَمْ تَلْبِثْ أَنْ تَصَاعَدَتْ مِنْهَا الرِّوَايِحُ الْعَفْفَةُ. كُنَّا كَالْأَطْفَالِ الَّذِينَ يَحْلُمُونَ بِأَكْبَرِ مَصَاصَةِ مَمْكَنَةٍ. لَمَّا صَنَعْنَا الْمَصَاصَةَ اكْتَشَفْنَا أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ

يُوَاوِلُ الشَّيْخُ: كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ قَالَ يَجِبُ إِنْهَاءُ هَذِهِ الْمَوْيِقَةِ. كَذَّبُوا آدَانَهُمْ فِي الْبَدَايَةِ. حَسِبُوهَا نَزْوَةً. قَالُوا لِدَرْسِ أَكْثَرِ، اسْمِعِ الْمَوْسِيقَى أَكْثَرَ، مَارِسِ الْجِنْسَ أَكْثَرَ وَتَعَبَّدْ أَكْثَرَ. فَعَلْتُ كُلَّ ذَلِكَ، لَكِنَّ الْمَالَّ الَّذِي تَسَلَّلَ إِلَى رُوحِي فِي الْبَدَايَةِ بِيْطَاءَ شَدِيدٍ تَفَاقَمَ إِلَى دَرَجَةٍ لَا تُطَاقُ وَقَدْ أَصْبَحَ هُوَ الْآخِرُ ثَابِتًا ثَابِتَاتِ الزَّمَانِ الْمَشْلُولِ. كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ بِذَهْوَلٍ مُحَاوِلِينَ التَّغْلِبَ عَلَى بِلَادَةِ حَسَنٍ مَتَزَايِدَةٍ الْعَمِيقِ وَأَنَا لَا أَكْفُتُ عَنِ الصَّرَاحِ فِي آدَانَهُمْ أَلَمْ تَهْمَوْا أَنَّنَا نَعِيشُ أَفْطَعُ عِقَابَ لِرَفْضِنَا أَوْلَى قَوَانِينِ الْعَالَمِ السُّوَيْ؟

حَكَمُوا عَلَيَّ بِالشَّيْخُوخَةِ الْأَيْدِيَّةِ. كَانُ ذَلِكَ مَكْتُوبًا فِي قَوَانِينِنَا وَكُنْتُ أَوَّلَ مَذْنَبٍ فِي عَالَمِ الْخُلُودِ. كَانُ رَجُوعُ الْأَلْمِ كَرَجُوعِ الْمَطَرِ بَعْدَ الصَّيْفِ. انْتَعَشْتُ رُوحِي فِتْرَةً، لَكِنَّ الْأَلْمَ الْمَوْبَدَ مِثْلَ اللَّذَّةِ الْمَوْبَدَةِ، وَضَعُ لَا يَحْتَمَلُ.

يَتَوَقَّفُ لِشَيْخٍ مَاسِحًا دَمْعَةً جَوَّوَلَةً ثُمَّ يَسْتَنْفِرُ رَوَايَةَ أَغْرَبِ قِصَّةٍ لِلْأَدَمِيِّينَ مَذَّ وَجِدُوا. تَتَرَجَّبُ نَمَا الْوَعْيِ دَاخِلَ الْجَمِيعِ أَنَّنِي عَلَى حَقِّ وَكُلِّ يَكْتَشِفُ يَوْمًا أَنَّنَا أَصْبَحْنَا سَجْنَاءَ زَنْزَانَةٍ لَنْ يَحْرُرْنَا مِنْهَا إِلَّا رَجُوعَ الْمَوْتِ. كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ وَقَدْ وَضَعْنَا فِي الزَّمْرَدَةِ أَمْرَ الْإِغَاثَةِ وَتَعْلِيمَاتِ التَّصَدِّي لَأَيِّ وَاحِدٍ مَنَا يَحَاوِلُ الْإِغَاثَةَ؟

بِصَفْتِي أَوَّلَ مَتَمَرِّدٍ عُهِدَ إِلَيَّ بِالْبَحْثِ عَنْ حَلِّ. الْوَحِيدِ الْمُمْكِنِ اصْطِفَاءً مُنْقَذَ لَا تَعْرِفُهُ الزَّمْرَدَةُ وَبِالضَّرُورَةِ مِنْ خَارِجِ الْمَحْمِيَّةِ.

كُنَّا قَبْلَ هَذَا الْقَرَارِ نَرَعَاكُمْ كَقَطِيعٍ، كَحَقْلِ تَجَارِبٍ مَمْتَعَةٍ. كُنَّا نَجْرِبُ عَلَيْكُمْ نَظَرِيَاتِنَا، لَنَرَى رَدُودَ فَعْلِكُمْ عَلَى هَذِهِ الدِّيَابَةِ أَوْ تِلْكَ، عَلَى هَذَا النِّظْمِ السَّيْلِسِيِّ أَوْ ذَلِكَ، عَلَى كُلِّ مَا يَخْطُرُ بِيَابَانَا مِنَ الْكَوَارِثِ الطَّبِيعِيَّةِ نَقِيصِ طَاقَاتِكُمْ وَحُدُودِهَا. فَجَاءَتْ أَصْبَحْتُمْ أَمْلُنَا الْوَحِيدِ. قَلْتُ يَجِبُ تَكثِيفُ التَّنْكِيلِ بِهِمْ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ لِاصْطِفَاءِ أَكْثَرِهِمْ جَرَاءَةً وَنِكَاءً وَحَقْدًا وَتَصْمِيمًا عَلَى تَدْمِيرِنَا ثُمَّ نَدْخُلُهُ الْقَلْعَةَ وَنَدْلُهُ عَلَى مَكْمَنِ الدَّاءِ.

كُنْتُ يَا زَارِدُوزَ آخَرَ حَلْقَةً مِنْ سَلْسَلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْمَحَاوِلَاتِ الْفَاشِلَةِ. بَوْرَكْتِ، بَوْرَكْتِ أَيُّهَا الْمَنْقَذُ وَقَدْ نَجَحْتَ أَيْنَ أَخْفَقَ قَبْلَكَ كَمْ مِنْ مُغْلَمَرٍ صَنْدِيكِمِ تَطَلَّبَتْ مِنْ جِهْدٍ حَتَّى تَكُونَ جَاهِزًا لِوَضْعِ حَدِّ لَأَكْبَرِ خَطَأً وَأَكْبَرِ خَطِيئَةً يَرْتَكِبُهَا الْإِنْسِي.

ثُمَّ خَطِيئَةٌ أُخْرَى ارْتَكَبْتُهَا الْفِكْرَ الْإِنْسِي فِي لِحْظَةٍ ضَيَاعٍ وَهِيَ خَلَقَ تَصَوُّرَ جَهَنَّمَ... لَكِنَّ كَمَا رَاجِعُ فِي قِصَّةِ زَارِدُوزَ فِكْرَةَ الْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ، هُوَ سَبِقُ وَابْنُ بَيْتَ عِبْرَ قِصَّةِ رَابِعَةِ الْعَدُوِيَّةِ فِي خَطِيئَةِ فِكْرَةِ الْخُلُودِ فِي جَهَنَّمَ. فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ يَسْتَوْقِفُ النَّاسُ الْمَرَاةَ الْجَبَلِيَّةَ وَهِيَ وَهِيَ تَرَكُضُ وَبِيَدِهَا الْبِيْمَنَى تَلُو مَاءَ وَبِيَدِهَا الْيَسْرَى شِعْلَةَ نَارٍ. سَأَلُوهَا إِلَى أَيْنَ أَيْتُهَا السَّيِّدَةُ

الجليلة؟ قالت لإطفاء نار جهنم بهذا الماء واحراق الجنة بهاته النار حتى لا يعبد البشر الحق عن خوف او عن طمع...يا لها من إهانة لا تغتفر- حتى وإن كانت عن غير قصد - تتحمل مسؤوليتها روى سبيبة الهندسة جعلت من الخالق سيدا يروض عبدا له بالجزرة وبالسوط وتجعل من المخلوق عبدا يعيش على التزلف لسبيده خوفا من اغضابه وطمعا في عطاياه .

يمكننا الآن مواصلة صفل نفس الفكرة بدمج فرضية النص وحسد الفيلم. للشيخ: كنت أسمع داخلي باستمرار صدى صوت يقول " سمحت لكم بهذه التجربة لتأكدوا من عبثها. أن الألوان للعودة إلى النسق الذي أردتم الخروج عليه. لا تبحثوا عن الحل خارج أسوار صنعتموها بأيديكم وعقولكم وسجنتم وراها أنفسكم، ابحثوا عنه داخلكم."

كان أمر الصدى واضحا: يجب الخروج من هذا الوضع. لم يكن الأمر سهلا والأغلبية تعيش في حالة ذهول دائم. ذلك يوم ارتطمت به -وكان الأمر صنفه- هو الرجل الذي أعاد لي الأمل. كان، لسبب ما، غير واقع تحت تأثير التخدير العام وكان يتكلم بصفة غير معهودة. يوم اكتشفت أنه يخطط للفرار حيث الزمن، قلت لا بد أن أعينه، لكن يجب إقحام تلك المرأة المسماة حواء في العملية فهي أيضا من نفس الطينة. إنهما أملنا الأخير في ولادة آدمية جديدة تعيد لنا هدية حياة حقيقية ومعها هدية الموت. أحمد الأقدار أنني لم أظن الحسابات ولا الاختيار.

أضاف الشيخ وقد داهمه نقاد صبر دام كم من أيدية:

- هلم، خلصني من كابوس هذا الخلود اللعين. اهذي الطعنة التي ترجيتها كل هذه الأحقبق. تمهل لأشعر ببرودة النصل وهو يخصص بين ضلوعي. أريد أن أتمتع برؤية الدم وهو ينفجر أخيرا خرا طليقا من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به سألخنا لرجا يتدفق كالشلال، أريد أن أملأ نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة.

قالت مقاطع الشيخ وهي تنتظر إله برقة ويثها على ذراع المنقذ: أنا التي فُذته داخل الهيكل. نصله لي قبل كل واحد منكم. يأخذ آدم قراره. يخرس خنجره في صدر الشيخ بلطف فائق وهو ينظر إليه مبتسما فيلفظ المتمرد الأول أنفاسه وكأنه في ذروة الجماع.

بما أنه يجب لأن تكون لكل قصة عظة ما، فعظة قصة زاردوز أنه إذا اعترضك بلع لبق يريد بيعك الخلود في الجنة بأخر درهم في جيبيك. فكر مليا. مؤكدا أن هناك استثمار أحسن لدرهمك الأخير هذا.

يلتفت زاردوز-آدم لحواء لأهم عرض في تاريخ الجنس البشري: الخروج معه للعالم لتجديد بشرية تلتزم هذه المرة بالقوانين التي سنها هذا الذي لا نسمع إلا صدها في عقولنا وقلوبنا .

تتردد حواء. من أين لها للشجاعة للقفز في أحضان عالم مجهول قد يثير فيها مجددا الحلم بالعودة لهذه الجنة الجهنمية؟

**

[هندسة لبنة المهمة التي خرج من أجلها الأدمي إلى العالم يجب أن يكون لها من الأهمية ما يبرر تكلفتها الباهظة]

هيا يا بنت، اخرجي من الرحم، يكفي من الانتظار المزعج وطول الدلال الذي قرصته علينا في بداية النصّ.

لكن الترتد في خروجنا للعالم -ولا أتحدث عما يصحب الأمر من وجع وصراخ من ثوابت انطلاق الرحلة.

لا بد أن وراء الظاهرة أسباب منعنا التبلد من الانتباه لخطورتها والتوقف عندها.

ترى هل يفتح إبليس ستر المستقبل أمام القادم الجديد في أهم تقاطعات الطريق ليرى كيف سيجد نفسه تائها في فضاء أخرق الإتساع، يرعبه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين، طريدة تركض خائفة هربا من صياد جائع، صيدا جائعا يجري وراء طريدة خائفة؟

هل تراءى فجأة لهذا الذي وضع ثياب الاحرام وعزم وتوكل كم من جيف سياكل، كم من جثث سيستخرج من قبورها أيام المجاعات، كم سيبعثر من قمامات في شوارع مظلمة بحثا عما يسد به الرمق، كم من مرة سيجلس القرفصاء بيكي حبيبا خائفة قواه مجبرا على تركه جيفة للكواسر والطريق لا يرحم مريضا أو جريحا...

هل أبصر نفسه وهو على مر العصور العبد الموثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة تننتة... المجذوم الذي يُساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجنوم... المريض الماشي بين تلال الجثث وراء قافلة طويلة من المهوسين بضربون صدورهم، أفقدهم حجم كارثة الطاعون كل صواب... البحار الناجي على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم خوفا من أن يلقي به الرفاق في الموج وقد نفذ الطعام والماء؟

هل تراءت له صورته وهو امرأة عجوز تتسول قطعة خبز على باب تكنة والجنود يطردونها لا يعملون أنها كانت في شبابها بانعة هوى مر على جسدها كل ما في هذه التكنة من ذكور لنام؟

هل استيق آلام يوم جدع أنفه ليؤكج الحاكم المجنون لقطع العبيد أنه السيد... يوم رميه وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنه بعد تختطه... يوم جرّه إلى أعماق الأرض ورناته تحترقان ليستخرج لهم معادنهم الثمينة وكأنه ليس هو أثن معدن... يوم دفعه لمواجهة الكواسر يضحك عليها القوم من رعبه وهو يواجه الأنيلب والمخالب بيديه العاريتين... يوم قطع يده بلسكين بحجة أنه سارق سارقي قوت أطفاله... يوم تعذيبه من

قبل رهائاً مجائنين يتهمونه بالتستّر على دينه المضطّهد... ويوم تكديس الحطب تحت رجله ولا نفع لصلاة أن يخنقه الخنّان قبل أن تلتهم النار جسدا ظنّ أنه عرف كل الممكن من العناب.

هل استشرف هذا القدم الجديد أنه سيكون مملوكا يقف أمام خليفة يصرخ من أكل بطيخي ثم يقتر البطون مقشّسا عن بطيخه وسط الأمعاء الدامية... أنه سيكون جارية سجيّنة إلى آخر العمر في حريم بمشربية تطلّ كل صباح على شواطئ محرّمة عليها إلى الأبد... أنه سيكون طفلة قال والداها أمام الشرطة لتبرير موتها-إنها سقطت من السلم وكلّ الجبران يعلمون أنها نفقت في آخر علقه، مات منها الجسد تحت اللطم واللحم بعد أن ماتت منها الروح بنقص الحب... أنه سيكون يتيما سمل المجرمون عينيه لأن طفلا أعمى يندّ ما لا أكثر على عصابات التّسوّل المنظّم... أنه سيكون طفلا يساق عبر مسارب جبال مرعبة، خراسه يهزجون بكلام غير مفهوم وعند همتهم المقدسة يكسرون جمجمته قربانا لالهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض... أنه سيكون امرأة توضع في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم، أوصى الراجمون بعضهم البعض ألا تكون حجارتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا يملوا طول زفة الإعدام... أنه سيكون جارية تنبج في ليلة ليلاء مع مئات الجوّاري لأن إمبراطورا مجنوناً آخر صدّق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين... أنه سيكون شاعرا صوفيّا معلقا على جسر مقطوع البيدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون... أنه سيكون لاجئا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أبشع... أنه سيكون جنديا سيقتل في آخر حرب برصاصة طائشة عشية وقف إطلاق النار... أنه سيكون جريحا يحتضر فوق أرض معركة عبثية وأطفال جياح يقشّسون جيوبه ونساء جاتعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ونما... أنه سيوقف في طابور طويل ينتظر مرتجفا من الرعب أن يقطع رأسه بعد أن سقطت المدينة المحاصرة وأسلم سكانها لسيوف القتل بالجملة... أنه سيساق ما لا يحصى ولا يعدّ من المرات إلى الإعدام شنقا وسحلا وخنقا وحرقا وقطعا للرأس بالفأس والسيوف... أنه سيكون قبيلة كل الأنظار والحشود تتشبتّ بجلبابه وهو لا يقدر على شيء لأحد ولا حتى لنفسه... أنه سيكون شحادا على باب كم من معبد لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء... أنه سيكون اiban الحياة صيدا للجرائم وعند الموت وليمة للدود...

كأنني بكلّ امرأة حبلى تشعر بقلق مفلج لا تدري له سببا والرّفس اللطيف الذي تعودت عليه في أحشائها فجأة يتوقّف نهائيا.

أه أخيرا شيء من المنطق في هذه القصة الفظيعة... ألا يفرض الحد الأدنى من العقل نكوص آدم وحواء على أعقابهما والمهمة أيا كانت بثمن كهذا لا يقبله عقل... لا بد إذن من سبب قوي يفسر قوي تغلب الأدمي على آخر مخاوفه.

أتخيل أنني أنا من أقتنعه بالإمعان في خياره للدفاع عن حقي في الوجود ضاربا بعرض الحائط ما سيحصل للمسكين الذين شاء حظهم وصول العالم في أسوأ زمان ومكان. ثمة أحسن من الكلام. لأفاجئه بصور البحار والبراري والجبل المكلمة بالضباب التي ستستخرج منه صرخات الإعجاب والعجب.

والآن إلى النقر على وتر الأندلس: طعم الزيتون والتمر والتين والعسل، روائح الياسمين والأرض المبللة بالمطر والحطب فوق النار ودخان قطار أسود يركض خيبا عبر حقول الزيتون والعنب.

بقية المعجزات التي تنتظره: حفيف الأشجار، خرير الماء، همس النسيم، صفير الريح، شدة الناي، زقزقة العصفور، ثغاء الماعز ونقر قطرات الماء على نافذة غرفة النوم. اللعنة، نسيت أنه يسمع أيضا الأصوات المتصاعدة من غرف الولادة والتعذيب ومن ساحات الحروب... أنه يسمع بكاء ضحايا الاعتصام نساء ورجالا وأطفالا بعد نهاية أظلم ما تمر به الذات من ألم وإذلال.

لادفع بصورة طفل يُضحك كل من حوله، يمشي راقصا أو يرقص مشيا بتلك المشية الراقصة التي لا يعرفها إلا الأطفال... أو هو مسافر في الرابعة من العمر أنه على زجاج الحافلة يتأمل منبهرا أشجار نخيل خضبت هلماتها حمرة الشفق...

لإكمال المهمة لأحرك فيه مشاعر الأب العطوف، الأم الحنون، الصديق الوفي، الحبيب المحب، الإنسان المصحح لكل خلل، المتتارك لكل نقص، الفاهض بعد كل كبوة، الرفيق بأضعف الكائنات، مشيد معابد الخير والحق والجمال.

كيف؟ ما زالت فيه بقايا رهيبة؟

يهمس النص في "أذن" كأنه متواصل التردد: اسمع قبل أن تأخذ قرار لا رجعة فيه. ثداهمه أناشيد باخ وموزارت تلحفاها قوالي فاتح خان لتصل وليمة الروح ذروتها أصبحت قرآنا بصوت عبد الصمد وأذانا بصوت فيروز.

يواصل صوت فيه من الدعاء ما فيه من الرهبة: تأمل الشكل الذي سترتحل فيه... خاصة أصابع اليدين. لقد صممت بدقة للنقش، للحنن، للرسم، للكتابة. الأهم فُدرئها على القرع، على النقر، على النفخ، على ذبح الأوتار. تمنع فيما ستخلق من أصوات.

تنصاعد الأنغام لؤلؤا منضدا من بيانو شوبرت وشوبلن ثم تتفجر فلسات مرحة ليوهان شتراوس.

ينتبه القادم الجديد إنه لم يعرف في أي من رحلاته الأخرى تجربة كهذه.

يتبلور في فكر مبهم قرار لا رجعة فيه أنه قبل بالمغامرة الجديدة، أنه سيقتصد للشكل الأدمي لا شيء إلا لأنه الكائن الوحيد القادر على خلق الموسيقى.

تعود الطمأنينة لكل آدمية حبلى وهي تكاد تقسم أن الجنين الذي بأحشائها... يرقص.

*

كأنّي اسمعك تسخر إذن هكذا نزل آدم إلى هذا العالم بالرغم من كل ما ينتظره فقط لمجرد
تأليف الموسيقى وسماعها. تصيف غاضبا: يا رجل تدعي النزاهة، لكنك تغتم كونك
صاحب النص لفرض ذوقك وخيارك على البشرية جمعاء. تسخر من تنقضات من
سيقوك من مهندسي فضاء الخيال ولا تعي بتنقضتك الصارخة. ألم تقل إن آدم هرب من
الجنة عافت روحه المتعة؟ ما الموسيقى إن لم تكن وسيلة لإفراز هرمونات المتعة في
دماغك الناشف. ثم ماذا عن فن فورك الذي قال إنه لم يأت هذا العالم إلا للرسم؟

*إضافة لوجود من لا يحبون الموسيقى-إيه والله ثمة بشر لا يحبون الموسيقى بل جعلوا
النفور منها جزءا من تدينهم- لا خيار لي غير أخذهم في الاعتبار وهم لبالغ الأسف جزء
من البشرية... مما يعني أن عليّ اكتشاف السبب الذي يرضي من يكرهون الموسيقى ومن
يعشقونها، من نذروا حياتهم للرسم، للمعرفة، للعبادة، للمغامرة أو لجمع طوابع البريد.*

لكل من يقول السؤال فاسد من الأساس (إذ لا أحد كلف آدم بأية مهمة... ولم يكن له يوما
الخيار بين أن يكون أو ألا يكون... وأنه موجود في هذا العالم نتيجة تظافر صدف عمياء
بكماء صماء... وأنه سينقرض يوما دون أن ينبته الكون لظهوره أو اختفائه الخ)، نرجو
منه التحول إلى النصوص التي تدعم أسطوره ونتمنى له رحلة طيبة داخلها.
نعود لمواصلة بناء بيتنا الروحي الخاص بنا وحدنا.

مرة أخرى، ما الذي جاء الأدمي من أجله هذا العالم قابلا بكل أخطاره؟
عوض الضياع في قائمة طويلة من الفرضيات تشكل في الواقع الخيارات الفكرية
والروحية لهذا، وذلك، لتتساءل عن الفعل الأول الذي قام به آدم وحواء حالما أغلق باب
الجنة ورائتهما.

لا بد لهذا الفعل أن يكون متقدما على كل الأفعال والتفاعلات أي الأفعال المتشابكة،
متحكما فيها، محددًا لها، مانعا ظهورها في حال غيابها، منهيًا فعلها بانتهائها هو.
مثلا نحن لا نستطيع أن نؤلف الموسيقى، أن نقصّي العمر بحثًا عن الخير والحق
والحقيقية والجمال، أن نصلح العالم، أن نتعيد للقوى المبهمة التي قد تكون رمتنا في هذا
العالم لتعاقبنا، لتختبرنا، لتكافئنا الخ... إلا إذا وجد العالم.
لكن كيف يوجد بدون الذات التي رأينا أنها تبلوره عبر حواسها ولغتها وخيالها وأعمالها
التي أعطته الملامح الذي نعرف.

هل يكون أول فعل أناه آدم هو فعل... أوجد؟

أوجد! هل هذا الفعل حجر الزاوية في بنايتنا الروحية.

**

[تفحص فعل " أوجد" ... التأكد من كونه يصلح دعامة صلبة للرؤيا]

لنبدا بالطواف حول أقرب جيرانه لأن الأفعال لا تتجاوز بالصدفة إلا نادرا وهي كالطيور على أشباهها تقع.

ثمة كما قلنا فعل وُجد ويعني أن الشيء أصبح موجودا أي خرج إلى الوجود أي خرج من العدم بما أن العدم هو عكس الوجود.

ثمة فعل وُجد وله في لغة الضاد معنى طاع هو اكتشاف الشيء المبحوث عنه كمن يقال وجد فلان نظارته التي قضى نصف ساعة في البحث عنها. بطبيعة الحال صلاحكم هذا لم يجد نظارته إلا لأنها كانت موجودة خرجت من العدم الذي كان قدرها قبل ظهور أي وجود العلم والصناعة والتجارة وكل العوامل التي مكنته من ألا يعبر عالما عانما في الضباب.

لفعل وجد أيضا معنى مخفي في لغة الضاد لا يقل أهمية عن معناه الأول وهو الذي يشير إلى درجة من درجات الحب لصوفي.

أهم معاني الأفعال القريبة من فعل أوجد هي إن ما يخرج من العدم، ما نبحت عنه ونجده بالبر، وأيضا ما نبحت عنه ونجده بالبصيرة والحب أدق أدواتها. يمكننا الآن لتجاسر على الفعل نفسه نسأله ما المعاني التي يشير إليها؟

يقال أوجد فلانا أي أغناه...ويقال أوجد فلانا بعد ضعف أي قرأه...ويقال أوجد على الأمر أي أكرهه وألجأه...ويقال أوجد الشيء أي جعله يجده ويظفر به...ويقال أوجد مطلوبه أي أظفره به...ويقال أوجد على المعصية أي أكرهه عليها... ويقال أوجد الله الشيء أي أنشأه من غير سبق مثال.

لمزيد من التدقيق ما الأفعال المرادفة لفعل أوجد؟

بسؤال المعالج اللغوية نجد: أيدع، أيزأ، أخذت، أفضى إلى، أئجج، اخترع الخلق، استحدثت، استنبطت، اكتشفت، اخترع، خلق، سبب، سوى، صور، كورن، وأند.

يمكن التساؤل الآن أي فعل دخل القائمة يستوعب أهم معاني أوجد ويختزل كل ما في المرادفات من إضافات: طبعاً لا يوجد أقوى وأشمل وأعمق من فعل خلق.

يجب تفحص هذا الفعل واعتصار كل ما يمكن أن ينغلق عليه من معاني.

بالخلق، نحن نُغني، نظفر بما نبغي، نجبر الشيء على أن يكون، به نسوي، نبدع، نتج، نخترع، نستحدث نستنبط، نكون نولد.

ليس هذا ما تعمله الحواس الإدمية الخمس عندما تبلور من مبهم أصلي هو واللاموجود نفس الشيء جمال وجلال الجبال والسهول والصحاري والأنهر والغابات... خريز السواقي ونشيد العصفير وهدير البحر... روائح الأزهار والعشب والأرض بأكملها

المطر... طعم الثين والزيتون وطيبات الأرض والبحر... البرد والحز، النعومة والخشونة، الجفاف والرطوبة، المتعة ولاذع الألم؟
انظر ما يفعله بمعطيات الفكر والخيال.

أليست مهمتهما خلق المفاهيم والتصورات والأديان والعلوم وكلها لم تكن موجودة قبل وجود الذهن البشري؟

نفس الشيء بخصوص الفن. هو لا يفعل عبر تجاربه التي لا تنتهي على الألوان والأصوات ومختلف المواد غير خلق أشكال لم توجد من قبل.

حدّث ولا تسأل عما يخلقه الأدمي بيديه من معلم يستحيل تصورها في كوكب آخر.

إنه عالم لم يوجد إلا لما أوجده الأدمي وماله التبخر يوم تختفي آخر نسخة منه حتى وأن تواصلت العوالم الأخرى التي تخلقها الكائنات الحية الأخرى الموجودة منها على سطح هذا الكوكب أو أي كوكب آخر فيما لا نستطيع تخيله من أشكال وحالات.

تقول أوجد انطلاقا من ماذا؟ في الرؤيا من مبهم مكون من مواد ومن قوانين أغلبها مجهولة سمينها العنمة وقلنا أنها هي التي تخلق منها الكائنات الحية الأخرى عوالمها الخاصة بما لها من أدوات رصد وتفاعل لا تملكها إلا هي .

كل هذا يسمح لنا بالقول إن آدم لم ينزل لأي فعل ثلوي مثل البحث عن الحكمة أو التعبد لإله، لو قضاء عقوبة لجريمة ما ولا لتأليف الموسيقى والتمتع بسماعها وإنما لأهم وأخطر وأصعب وأنبئ فعل ألا وهو خلق العالم وعلى وجه التحديد خلق عالمه، العالم الأدمي. ما الغرابة أن يقبل الأدمي بكل التضحيات والمهمة خلق عالم بأسره؟ ليس لكل ثمين ثمن؟

إشكالية كبرى في هذا التصور قد تسفه من الأساس... القول بمثل هذا الرأي يجعل من آدم الها... أليس خلق-إيجاد العوالم من خصائص الآلهة وحدها؟ ... كيف يكون آدم إليها وأقصى ما يطمح إليه أن يكون إنسانا؟

**

[هوية آدم حجر الزاوية في الرويا ، للهندسة بمنتهى الحنر والافتان]

منذ غابر الزمان والأميون يكّدسون في فضاء الفكر والخيال اسطيرهم بخصوص هويتهم.

بالعودة لخرّان أساطير الماضي التي تجاسرت على الرّدّ هناك أجوبة الأساطير الدينية التي تتحدث عن قوة غيبية لها خصائص البشر ولكنها فوق-البشرية أعطيت كما هئلا من الأسماء والأوصاف والصور.

هناك لجوبة الأساطير العلمانية التي تتحدث عن قوة مادية اسمها الطبيعة ليس لها من طبائع البشر شيئا.

ليس مستغربا أن تنتج الرويتان هويتين للآدمي على طرفي النقيض.

في الأساطير الدينية الأكثر انتشارا الآدمي كائن مخلوق بل من أخصّ مادة، ناهيك عن وضعه المشين كمطروود ومنفي وعبد مهمته في الحياة إرضاء مولاه الإلهي بالعيش طمعا في عفوه وخوفا من غضبه.

في التصور العلماني الآدمي كائن خلقته الصدفة الجيولوجية والضروريات البيولوجية لا غير.

يجب الخروج من هذه الثنائية والتفكير كما يقال من خارج لصندوق لكن باستعمال بعض المواد الجيدة الموجودة داخل فضائي الفكر والخيال.

ها أنا الآن بصدد تفحص أجمل وأعمق ما ظفرت به من الأساطير حول موضوع لا يستنفد.

أول ذرة في كنزي هذا أسطورة اغريقية شهيرة.

يرضى الآدمي الآخر بأن يريك أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أقنعة التمثيل.

ترفع يدك نافذ الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.

تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت...فثالثا فرابعا فخامسا فسادسا.

تتراكم عند قدميك الأقنعة والذات الأخرى تتباعد تباعد الأفق عن الراكض.

آخر قناع.

ترفعه مرتعش لليدين خائف القلب.

تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف...وجهك أنت لا غير.

لا تثبت من الأمر.

ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل أخلع طبقات الأقنعة التي يختفون وراءها ... لاكتشف كل مرة وجهي.

ها هم يتتابعون علي الواحد بعد الآخر وفي كل مرة يصرخون بالدعشة وهم يكتشفون دوما... وجههم لا غير.

لأجلهم ينقضون على بعضهم البعض والنتيجة دوماً نفسها.
هذا التصور للأسطورة الإغريقية من ثوابت الفكر، صيغ في أكثر من ثقافة وفي كل العصور بكلمات أخرى.

أجمل لإخراج الذي تجده عند المتصوفين والشعراء.

"وتخفق في قلبي قلوب كثيرة (بدوي الجبل)

فقد كان شعبا واحدا فتشعبا "

إنها فكرة موعلة في القدم أعاد العلم الحديث اكتشافها ليخرجها بلغته هو. فالأدبي في رؤياه مصنوع وفق "وصفة" تحتل ألف صفحة من كتاب يسمى برنامج المورثات.

الاختلاف بين الأفراد جمل مبعثرة هنا وهناك لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، أما ال 999 صفحة البقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.

انتبه هنا للتغيير الجذري-أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبيستولوجية"-مع تصورات الرؤى غير المتقنة للذات.

هي جعلت من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الغربية المختلفة الأخرى إلا بسجور، مرفوعة أغلب الوقت.

في التصور العلمي الجديد بالتركيز على تشابه ال 999 صفحة بدلا من الاختلافات في مستوى صفحة يتيمة، لن ترى إلا نفسك في ذلك اليهودي بذوائبه، في ذلك الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" العاري بجهازه التتلسلي في غمده الأنيق...في كل أدبي مهما تباعد شكله ومظهره عنك وعن أقرب البشر إليك.

أنا، أنت، هو، هي، نحن ... كلنا نفس الكائن وإن بوجه مختلف وفي ظروف وحالات متباينة؟

يمكنني الآن مواصلة جذب خيط كبة الغزل.

القول بل أن آخر قناع ترفعه عن وجه الآخر هو وجهك أنت لا ينهي الجدل وإنما يدفعه نحو مستوى أعمق.

ماذا لو كان كل هذا الوجه هو نفسه قناع؟ يصبح السؤال على من أو ماذا هو موضوع؟
الدرجة الثانية التي ساستعملها لمواصلة تشكيل هوية آدم هي أسطورة فيثون ومفهومها

المركزي الأفاتار अवतार

الأفاتار؟!!

قبل التمعن في هذا المفهوم البالغ الثراء والعمق رواية القصة التي جعلته موجودا.

تقول الأسطورة إن فيثون الإله الثالث للديانة الهندوسية قبل بالنزول إلى عالمنا الحسي متجسدا في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه رام، في نبي اسمه بودا وحتى في إله اسمه كريشنا... والتجسد العاشر مبرمج عند نهاية العالم.

توضيحا لكلمة أفاتار.

هي تحيل في اللغة السنسكريتية أولا إلى تجسد خالق في مخلوق وثانيا إلى ما تتكلفه العملية من صعوبة ووجع لأنه ليس من السهل أن يحشر الكامل نفسه في الناقص، للأ محدود في المحدود، الأزلي في الفاني... مثلما ليس من لسهل بالنسبة إلى لمخلوق أن يحتوي الناقص الكامل، المحدود للأ محدود والفاني الأزلي.

انظر أهم الاستنتاجات التي تفرض نفسها في حالة قبولك بالتصور: كل الكائنات التي يتجسد فيها فيشنو أقارب تتقاسم نفس الهوية كما يتقاسم الأطفال نفس الهوية وهم أطفال نفس الأب والأم... كل الكائنات التي يتجسد فيها ويتجسد فيها فيشنو متساوية القناسة بما أنها أغلفة متباينة لنفس المحتوى الالهي..

إن لم يكن الرجل أمام محطة بومباي يستهزئ بي وهو يضم راحتيه يسلم علي كانه يصلي امامي. هل كان يعرف ما كنتُ أهله أو كان يتذكر ما تناساه باستمرار؟
لنواصل اعتصار ما يمكن اعتصاره من المفهوم.

إذا كان الأدمي أفاتار من بين أفاتارات فيشنو، فهل من الممكن أن يكون فيشنو هو نفسه أفاتار لشيء آخر؟

عودة لما تعلمناه من فيلسوف اسمه دولوز Deleuze بخصوص المفاهيم وكيف أنها تتجسد بفعل الخيال في كانتات تختصر على العقول البسيطة وقت التفكير. نمونجا عزرائيل كمفهوم مجسد للموت، ليليس كمفهوم مجسد للشر، افر وديت كمفهوم مجسد للجمال، الخ.

السؤال الصحيح إذن هو ما المفهوم الذي يجسده فيشنو؟

أي قوة قادرة على أن تسكن وان تتشكل وان تدوم ولو زمنا محندا في كانتات جد متباينة شكلا وحجا مثل الأدمي والسمة والسلفاة والخزير البري... أن تعطي لكل هذه الكائنات وجودها ومنها الأدمي... أن تنوزع في الأدمي في السمة والخزير البري وفي كل أشكالها الأخرى بتمامها وكمالها وبكل عدل.

الإجابة الوحيدة الحياة طبعاً.

هي التي تجدها دوما وراء غلاف كل الأشكال التي تجسدت فيها.

هي موجودة بنفس الكم والكيف في الجرثومة والفيل، في الوردة وفي الزيتون، لم تقتر على أحد ولم تميزه بشيء، وإن اختارت في هذا وفي ذاك تجربة هذه الاستراتيجية أو تلك.

هي لا تنوزع على كل الكائنات الحية كما تنوزع تركة محدودة على كم هائل من الورثة هي التركة التي يقسمها كل الورثة بالعدل والقسطاس فتكون ولو قسمت ملايين المرات كاملة من نصيب كل وريث.

هي مشروع متواصل حيث ستجسد في أشكال لا قبل لنا بتصورها.

ليكن وأن كل الأشكال الحية ومنها الأدمي هي أنواع الأفتار التي تختفي وراءها هذه القوة الجبزة التي جسستها الأسطورة في إله سمته فيشنو.

نحن الآن مثل من وصل منتصف كبة الفزّل وعليه مواصلة جنب الخيط ليكتشف أين ينتهي.

السؤال المخيف: من أو ماذا يختفي وراء القرة التي تسميها الأسطورة الدبنة فيشنو والأسطورة العلمانية الحياة؟

لتواصل لعبة خلع الأتعة أي لنعبر أن الحياة هي نفسها ظاهرة تغطي على ظاهرة أعمق.

حسب آخر المعطيات التي توصل إليها العقل الجماعي في بحثه المتواصل عن بداية كل البدايات، الحياة بغض النظر عن تنوع أشكالها المذهل ودرجة تعقيدها المخيف مبنية دوماً من عدد محدود من لبنات مادية يسميها الذرات تتجمع وتتعاون وتتوالد تتفرق ووفق اليات غير مفهومة.

ما تقوله هذه المعطيات أيضاً إن هذه الذرات "طهيتا" في "أفران" اسمها النجوم .. مما يعني أن مسقط الرأس ليس المكتوب على شهادة الولادة وأن نقطة انطلاق الرحلة أبعد بكثير مما نعتقد.

كل ما يحق لنا قوله في هذه المرحلة من لعبة إزاحة لقناع عن القناع إنه ليست لنا تصورات ثابتة وكافية الذكاء بخصوص ذاكرة اللبنة وماذا أو من وراءها. إنه ميدان واسع لتصورات مستقبلية تعالج فيها مخيلة الفزّل والشعر آخر معطيات ما ستوفره أكثر العلوم تقمما.

ما نراه من تزايد التنوع والتعقيد في الأشكال التي تتخذها هذه المكونات الأصلية تزيح فرضية أن الأمر ارتظام الصدف بالصدف مما يعني أنه لا بد ضرورة من تصور قوة وراء هذا التنوع في الخلق والتزايد في الإبداع الذي أوصلنا للكائنات التي نعرف ومنها الأدمي .

لنعلّق مؤقتاً كل تصور بخصوص طبيعة من أو ماذا يختفي وراء القوة التي تختفي وراء كل أنواع الأفتار ومنها الأفتار الأدمي.

الأسماء التي أعطيت له لا تحصى ولا تعد . سماه الصوفيون " هو " أو "الحق" نبيها لاوتسو لاستحالة أن يكون له اسم

"الاسم الذي نستطيع نطقه ليس الاسم الخالد

أصل السماء والأرض، الالاموجود وهذا لا اسم له"

ورغم التحذير نراه بصف الكلمات لتصور ما لا يجوز ولا يمكن تسميته:

"مظلم وبلا قاع

سابق للزمان والمكان

فوق وخارج كل ولم يكن"

إنها حقاً لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا تسقط في أرواح وجود مسمى خارج المسي، من جهة أخرى لا بد من اسم إذا أردنا قصة لا تكون إلا ببطل محدد الهوية. حجر الزاوية في الرؤيا القطع مع ثنائية الخالق والمطوق التي اعطتنا أكثر السيناريوهات خطأ من شأن الأول والثاني... يجب العودة لحدس قديم تبلور أكثر من مرة في اصفى الأفكار وارق المشاعر لمهندسين رمزيين تراجمت رؤاهم لكنها لم ولن تختفي ابدا... إعادة صياغة هذا الحدس القديم كالتالي: الخالق هو كل المظوفات الحية وما قبل الحية التي تتجلى فيها قدراته اللامتناهية واعجازه المذهل.. المخلوق هو شكل حالة لحظة من هذا الخالق يواصل في مستواه ويأدواته تجارب الخلق.

*

المخرَج الوحيد للإشارة إلى هذا هذا الواحد الذي توزع في كل الأعداد هو الذي وجده الخوارزمي في ميدان لا علاقة له بموضوعنا: "لشيء".

كل ما يمكننا قوله بخصوصه ان حدود اللغة تمنع اعطاه اسما لان اللغة لا تسمى الا ما ترصد ونحن لا نرصده بحواسنا المحدودة ولا بفكرنا المتخبط المتحور طول الوقت... ان حدود المخيلة هي الأخرى تمنع من تصوره وهذه المخيلة لم تفعل عبر الاساطير والأديان سوى اضافة حسنات وعيوب البشر عليها.. ان حدود العلم تمنع من تحمليه نوايا واهناف هي دوما من نوايا وأهداف البشر...

لنقبل بأن يبقى إلى الأبد المجهول المطلق الذي ستنهك الأجيال المقبلة عقولها ومخيلتها في محاولة الاقتراب من طبيعته. لكن لنفعل ما فعله لا وتسو لإرضاء حاجة ماسة فينا أي إيجاد تصور له وإن كنا ندرك أن أي تصور له مثل العصا البيضاء التي يتلمس بها الأعمى طريقه في نفق مظلم.

أفضل صورة لإعطاء "شيء" الحد الأدنى من الملامح هي التي نستجد بها كل في المواضع الحرجة من النص أي صورة الشجرة.

هي التي ستعيننا على إعطاء آدم هوية تقطع مع تدنيس الأساطير الدينية وتقديس الأساطير العلمانية

آدم في الرؤيا مثل ورقة-ثمرة على غصن اسمه الجنس البشري تثبت عليه باستمرار الأوراق الأخرى أي كل الذوات المتشابهة في كل شيء إلا في التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

هذا الغصن واحد من بين ما لا يعد ولا يحصى من الأغصان التي هي كل الأجناس الحية المعروفة وغير المعروفة.

كل الأغصان بما فيها الغصن البشري متفرعة من جذع واحد يمتد تحت الأرض في شكل جذور عميقة هي التي تضخ للجذع والأغصان والأوراق العصارة أي الحياة بما هي وظائف واليات وطاقات.

هذه الجذور التي تتحرك داخلها قوة الحياة هي نفسها شكل حالة من أشكال العتمة التي تعطي للشجرة ككل ولكل مكوناتها مقومات وجودها.
انظر الآن تبعات هذا التصور على هوية آدم، خاصة بمقارنتها بالصور التي رسمتها الأساطير الدينية والعلمانية.
خلافاً للأولى الأدمي ليس من طبيعة خسيصة ومختلفة عن طبيعة القوة الغيبية التي يدين لها بالوجود.
هو غلاف من بين ما لا يحصى ولا يعد من الأغلفة التي تنطق عليها هذه القوة بكل طققاتها العبقرية.

هو ليس منفصلاً عنها فما بالك متمرداً عليها، هو جزء لا يتجزأ منها.
هو ليس عبداً لها لا لشيء إلا لأنه شكل -حالة لحظة لهذه القوة.
كما هو ليس عبداً حسب الأسطورة الدينية هو ليس سيداً حسب الأسطورة العلمانية.
هو ليس فوق وخارج الطبيعة لأنه هو الطبيعة.
وعلى وجه التحديد هو شكل من أشكالها، حالة من حالاتها، لحظة من تاريخها الطويل.
هو لا يختلف إلا في التفاصيل داخل التفاصيل عن بقية الأشكال-الحالات -اللحظات التي تتخذها هذه الطبيعة.

مما يعني أنه ليس أكثر أو أقل قداسة من السمكة والسلمخة والخنزير البري.
الخلاصة أنه كان من أنبل أرومة ممكنة بما أنه الشكل -الحالة - اللحظة التي يتخذها "الشيء".

أنه لم يتبلور إلا لمهمة واحدة: إيجاد عالم يتميز عن بقية العوالم الأخرى ... وهو ما تفعله كل الأفاترات الأخرى التي يتجسد فيها "الشيء".
يصبح السؤال ماذا يريد "الشيء" من خلق -إيجاد ما لا يحصى ولا يعد من هذه العوالم؟
كما إنه من العبث محاولة حصره في اسم وهو كل الأسماء، في كائن وهو كل الكائنات، في خصائص وهو كل الخصائص، في قصة وهو كل القصص... من العبث البحث له عن سبب يفسر به وجوده وهو أصل كل الأسباب... عن هدف له وهو كل الأهداف . على فكرة، كم هدفاً ركضنا وراءه ليتضح لاحقاً أنه كان طعماً وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيف الأحاسيس والمشاعر التي نعصرها من الجري وراءه.

ألا نصل هدفاً ركضنا وراءه إلا ونكتشف أن الطريق هو الذي كان يهتماً؟ ألا نجعل من كل نقطة وصول، ولو كانت قصة القم، منطلق طريق جديد؟
هل هذا ما كان يعنيه "با" يوم قال لي اقترجم أنت الدنيا لمتعة النصر، أما أنا فتكفيني منها متعة الصراع؟

بحضرتي الآن أنني لم أتكلف جهد الكتابة بحثاً عن الحقيقة أو الشهرة أو الخلود عبر الحرف، كما أو هموني وأوهمت نفسي زمناً طويلاً، إنما للكتابة نفسها لا غير.
في الرؤى غير المقتنة لنا جسد لترويض العالم ودماع لمعرفة أسرارها.

في روايتي لقصة القصص ليس للجسد من هدف آخر غير متعة تحريك أجزائه، وليس للدماغ من مشروع غير متعة اكتشاف ما يزخر به من قدرات في مجالي الفكر والخيال. أخيرا يمكنني أن أجري وراء أي هنف وأنا أعرف أنه مجرد تَعَلَّة لتشغيل جسدي وفكري... أو أن أخرج من الطريق لأجلس على قارعتة مسندا ظهري إلى جذع زيتونة وقد تخلصتُ من رواسب ترويض ملكر ودعاية خبيثة وعقدة نذب مغروسة بدهاء منذ نشأتي، لأكون لها خادما لا يطلب جزاءً ولا شكورا.

كم من أهداف جَرينا وراءها نَحزن لعدم تحقيقها والحلُّ أننا نحقق أعظم هدف ونحن نلبور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

كيف لا أتفلس الصعداء ونفسي لم تعد تطالب نفسي بشيء.

أخيرا الرحلة.

"كالموجة (لاوتسو).

على سطح المحيط

كلريح

بلا وجهة"

**

[ما جنوى إصابة الأدمي بالرعب من الخلود إن لم نخلصه من رعب الموت الذي يحيب إليه هذا الخلود؟]

في مسرحية ليونسكو يتوجّه الملك "بيرانجي" وهو يلفظ آخر أنفاسه بابتهاله إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القز في أحضان المجهول المرعب. علموني، أعينوني" لا أحد قادر على الرد رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى. تحاول الملكة التهوين على المحتضر: "لا تتمدّدك بأظفرك بهذه الحياة إنها منقذ وأنت الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعتاب وقد وصلت خط الحدود. تنكّر أنك ستتخلص من هموم الدنيا." "

ها هو يناجي نفسه وهو يجاهد للبقاء واعيا: هموم الدنيا! لا أحبّ لي منها الآن. للصعوبات التي أنهكت قواي! لا أحلى من تنليلها. عليّ أن أتذكر كل أنواع الإخفاق! إنه السوط الذي جلدني به العالم لأتسلق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغبية؟ عليّ أن أسلم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كثبان الرمل! من أين لهذا الأدمي المسكين أن يرحل مطمئنا وقد سكن طول حياته أسطير أقل ما يقال عنها أنها غير مسؤولة.

جعلت هذه الأساطير من الموت عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر للشرطة لرمي عفشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية.

لا القاضي الذي أصدر الأمر معروف ولا المحكوم عليه يعرف سبب عقوبة تقررته قبل ارتكاب أي جريمة.

"نهار أتيت إلى الدنيا

وجدت قرار إعدامي

ولم أزل باب محكمتي

ولم أزل وجه حكلي"

(نزار القباني)

طبعاً للعقل الحقّ في رفض فكرة مكان لإشباع كل الشهوات دون وجود محركها وشرط وجودها الذي هو الحرمان.

طبعاً فكرة الخلود بما هو وضع لا يتغيّر أبداً مناقضة لأهمّ خصائص هذا العالم أي التغيير المستمر وعدم الثبات على حال.

لكن ماذا عن موقف الفواد؟ أليس من حقّه هو الآخر رفض أن يقودنا الطريق إلى حافة هاوية مظلمة بلا قاع تُدفع إليها دفعا؟

لنجرّب التصدي المباشر لمثل هذه التصورات، مثلاً بإقناع الأدمي أنه يرتعد فرقا أمام كلمة صنعناها في فضاء الرموز ووضعناها في فضاء الخيال فترعرت فيهما لتعود إلينا بمخالب وأنياب.

لنردّد له أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كائنات رمزية خيالية آخر نسميه عزرائيل يصوره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا "يقطف" به أرواحنا.

لنجرّب التوجه إلى عقل هذا الكائن الخائف من قرب فنائه. لنقول له: حَبّر على الورق ما يخطر ببالك من خصائص الحياة: غريبة، عجيبة، مرهقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجددة. لن نتقّد كتابة كلمة م.ح.د.و.د...مما يعني أن الموت ليس حلة مناقضة لحالة ثانية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة.

كيف يكون جزء من طبيعة الشيء عدواً أو نقيضا له وهو لا يكون إلا به؟

أضف مواصلا حجج المنطق أن فكرة الموت تلعب عند المتبهيّن الدور الذي يلعبه صوت لسوط في هرولة دابة كسولة إذ لم يهاجمني التبلد يوما إلا وسارعت إلى استحضارها، فيعود لكل قضية حجمها.

كأنني أصرخ في لذني أطرش قَرّر منذ زمن طويل أن الطرش انفع له من السمع. كأنني به يصرخ ساخرا: 'كلامك يا هذا في التفاحات زمرا!'

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديتها هذه كرة الأحدب لحديثه!

الذات نوما في وضع لا تحسد عليه وهي مقسمة بين الرغبة في البقاء الأزلي والوعي باستحالة الأمر... بين الخوف من الموت والخوف من الخلود وفي بعض الأساطير الخوف من البعث مجددا في عالم يوصف بوادي الموع.

كل روبا لا تبتكر حلا لهذه العقدة لن تكون كما يردّد السياسيون إلا جزءا من المشكل لا من الحلّ.

عودة لنموذج الشجرة مرة أخرى لتوضيح فكرة ليست سهلة الشرح للكاتب.

اعتبر الورقة التي تذيّل وتنفصل عن الشجرة.

هي مجرد وعاء مؤقت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تُضمّن لها البقاء حية ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجنور وبقية الأوراق.

هذه العصارة كما رأينا واحدة في الجنور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق.

هي لا تنتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، بقُطع هذا الغصن أو ذاك بما أنها تواصل فعلها في كل غصن وفي كل ورقة.

بنفس الكيفية اعتبر الذات كما لو كانت هذه الورقة.

هي الغلاف الجسدي الذي يفصله الموت عن "جذع" الجنس البشري كما يفصل الخريف ورقة الشجرة عن العصن والجذع والجنور.

لكنها أيضا العصاره.

هذه العصاره هي الحياه، بما أن الذات تحتوي على كل العلم الهائل الذي راكمته الحياه طيله ملايين السنين الهائله وهي نفس العصاره الموجوده في كل الذوات الادميه وغير الادميه. هذا ما يسمح للرؤيا بالتوفيق بين ما لا يبدو قابلا للتوفيق فقط بالتركيز والتكبير بما تتناسى.

كورقة الخريف، تفقد الذات بالموت جسدها، لكن الحياه التي شكلت عصارته لا تموت وإنما تواصل ضحاً طاقتها فيما لا يحصى ولا يعد من الذوات الأخرى.

مما يعني أن لكل ذات جزءا فلتيا... وأن لها جزء قديم قدم الحياه وأمامه فسحة من الزمان لا أحد يعرف متى ستنتهي.

لقاتل أن يقول، لكن البشر ليسوا أوراق شجرة وكل كائن فريداً متميز يُضَيِّع الموت طرافته! ما الذي كانت الحياه ستجني لو حُلِطَتْ على نفس الأجساد؟

بل ما الذي كنت ستجني أنت من مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود.

أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات حياه جديده بلن تُعاش؟

انظر الآن كيف تحقق الرؤيا دون التعسف على منطقي كل ما تريده الذات: القيلولة الأبدية للجزء المرهق -أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف وقد جفت فيها العصاره... والتجدد المتواصل بدل ثبات ممل لنفس الشكل والحاله في جنه أو في جهنم.

هنا أشعر بك تهز الكتفين ولسان الحال يقول يا رجل تدعي أن الرؤيا ستخلصني من خوف الموت وأنت تميّتي ما لا يحصى ولا يعد من المرات كأن موتة واحدة لا تكفي.

نعم، لكن أتعي بكل ما تريح في رؤياي وأنت مثل نص فرغ من كتابة نفسه ما أن توضع نقطة الختام وإلا وهي العوده إلى السطر لقصة جديدة وهكذا إلى انتهاء "الشيء" من كامل تجربته الأدميه.

هنا يمكن الربط بين النوم والموت لمزيد من توضيح الرؤيا بالكتابة مثلا:

وقال لهم الصدى اعرف كم تتكلف تجربة الوجود من عت، لذلك خلقت لكم النوم لتجدوا قواكم ليلة بعد ليلة وأنتم على نفس الشكل والمضمون... وخلقت لكم الموت لترتاحوا رحلة بعد رحلة تتجددون بعد كل موة شكلا ومضمونا الى ان نستنفذ كل ما في خيالنا من رحلات.

السيناريو إذن : خروج الذات -هي كل ذات وذات محددة وشكل حالة لحظة من الذات القدوس من راحة العدم (التي جسدها فكر بدائي في جمود الجنه) لتجربة في فن خلق

العوامل... ثم العوده عبر الموت لراحة العدم كالتي تأتينا عند النوم بعد يوم حافل.. ثم افاقة الذات في شكل جديد لتجربة أخرى تخلق عالما لم يسبق له وجود... وهكذا إلى ما

لا نهاية. أليس هذا بالضبط ما عثر عنه حدس الشاعر !
"أنا في الزمان كموجة في زاهر (إيليا أبو ماضي)

أنا فيه إن يزيد وإن لم يزيد
مهما تلاطم فهو ليس بمغربي
أو مخرجي منه ولا بمبنددي"

**

[حيث لا قدرة لأي نص على استفاد ما ليس قابلا للاستفاد، افتعل
الترحيب بما سيأتي من رؤى أخرى قد تكون -لا قدر الله- أجمل من رؤياي]

أوف، اكتملت البناية. رأيي المتواضع أن كل شيء تمام وأنه ليس في الإمكان أبدع مما
كان... النواقص؟ عن أي نواقص نتحدثون؟
هل ثمة قصة للعالم حتى التي توصف بالعلمية-لم تيسّط المعقد، لم تجزئ الموحّد، لم
تجدد المتحرّك، لم تحاول استفاد ما لا يستنفده فكر؟ أيّ غرابية في الأمر ومهمة كل
رؤيا تحمّل الواقع لا وصفه.
بيني وبينك، أي رواية أعطت للأمين مثل الجنود النبيلة التي تعطيها لهم الرؤيا؟
ألا تنشرهم أنهم لم يأتوا العالم عقابا على خطيئة أو للجري وراء ملذات رخيصة وإنما
لإيجاد عالم كامل ببلورونه من احساسيسهم ومشاعرهم وافكارهم وخيالهم وسواعدهم؟
ألا تحرّروهم من مثلة لطمع في جنة وهمية ومن إذلال الخوف من جهنم لا تقلّ وهما؟
ألا تنتهي كل عقد الذنب والفشل وهي تجعلهم ينجحون كلهم في هذه المهمة وكل تجاربهم
بكل أنواعها دعامات للعالم الطريف الذي يخلقونه فرادى وجماعات؟
من المفروض إذن ان تلاقى روايتي لقصة القصص نجاحا باهرا لو كان الاعتراف
بالجميل من خصائص البشر.
من حسن الخطّ أن بوسعي تسويقها لبعض الأجيال لا خشية أن يضحكوا مني أو أن
يكتفروني.
يتعالى صوتُ تفاحة من وراء باب غرفة النوم تصرخ بأوامر لأبيها وولابنتها لا يعبرها
أحدٌ منهما أدنى اهتمام.
يا إلهي معقول أن تمرّ السنين بهذه السرعة! هذه الطفلة الجميلة ذات الثماني سنوات هي
تلك الرضبعة التي طلبت منها أن تنقر بقبضتها على مفاتيح الحاسوب لعلّ معجزة تحدث
فتترسم على الشاشة سُرّ الرحلة ومعنى وجودي...
أهمس في أذن الطفلة:
- حبيبتني حرة، توفقي عن الصراخ، قد توقظي هناع.
- جدّي! هناع شريرة تأخذ دائما أقلامي الملونة و...
- نعم، نعم، وفي السيرة تنتظر من نافذتك بدل النظر من نافذتها.
- جدّي! أريد أن تروي لي هذه الليلة أططططططول وأجججججمل قصة.
- وهل جئت لغير هذا، لكن يجب التوقف عن القفز على هذا السرير المسكين. عندي لك
قصة أروع من كل ما سمعت من قصص أمك وجدتك...
- جدّي، جدّي، جدّي! هيا، عجل.

- طيب، خذي في حضنك "إيتي" لتسمع هي أيضا. شيء بداخلي يقول لي إن هذه الدمية التي ورثتها من أمك مثلها أكثر منك لسماعها. ربما تتجسس علينا منذ كانت بحضنها، على كل حال ليس لدينا ما نخفيه. إذن...

فجأة، كما هو الأمر عدة فيما نسميه الواقع، تأخذ الأحداث مجرى غير متوقع.

- جدي! جدي! أنا أروي، أنا، أنا، أنا!

- يا بنت من أين لطفلة صغيرة أن... عُمرُ كامل وأنا أولف هذه القصة... وأنت تريدين بأعوامك الثمانية أن...؟!

تعود حرة إلى القفز فوق السرير تغني صارخة: أنا، أنا! أنا أروي كلالل القصة.

- لكنك لا تعرفين حتى من هو أم ولماذا هرب من الجنة!

- أنا أعرف! أنا أعرف! أنا أروي القصة لا أنت!

لم لا؟! ما الذي يدعوني للاعتقاد أن روايتي أحسن من روايتها؟ ربما لديها أفكار طريفة أستولي عليها لتحسين التي أولف منذ عقود... ليس قدرنا تطوير تصوراتنا للعالم لتفسير وتبرير وجودنا فيه وإن كانت قصصا يرويها أطفال لأطفال.

- إن أيقظت هباء تتحملين وحكك مسؤولية تدخلها المتواصل. الكلمة الآن لأمرتي الجميلة. تقضلي الرجاء عدم الاختصار وأخذ كلالل الوقت.

تهمس الطفلة في أذني وقد اكتسبت ملامحها جديّة مفاجئة.

- جدي لا أريد أن تموت أبدا... أبدا... أبدا!

- يا بنت، ماذا فعلت لك لكي تمنني لي شيئا كهذا. على كل حال ما زال أمامي ما يكفي من الوقت لسماع روايتك حتى وإن كانت بطول رواية شهرزاد. انتبهي، من قواعد اللعبة-واسلي أمك- أن أقتكها منك إن أخذتها في اتجاه لا يُعجبني. كلي أذن صاغية.

تسلط حرة نظرة أخيرة على أخت مغمضة العينين. تنتفّس الصعداء وقد تكلمت أنه لا شبح ابتساماة على محياها يفصح تظاهرها بالنوم. تضع رأس إيتي على المخدة بكثير من العناية تحذق في منبسة ثم تهمس: كان يا ما كان في قديم الزمان وسلف العصر والأوان أمير جميل اسمه أم...

**

[انتهاء النص بمشهد مطمئن عن آخر منعطفات الرحلة، مع عدم المبالغة حتى لا يتسبب في موجة انتحل كالتّي تحمّل وزرها كتاب "آلام الشلب فرتر" للمرحوم فوتيه]

لا أحد يتذكّر كيف كانت مشاعره قبل أن يلفظه الرحم ولا أحد أبقي لنا أبلغ وصفٍ عن لحظات غرفة الموت.
هكذا حكم على الرحلة أن تبدأ بالغموض وأن تنتهي به.. أن ندخل العالم كمن يبرز من خلف ضباب كثيف وأن نخرج منه كمن يتوغل في ضباب أكثر كثافة.
لتعويض البياض في آخر صفحة نصوص كل الذين حجوا قبلنا لهذا العالم، إليك نهاية الرحلة والنص بتخيّل الأحداث ويستيقظها.
يتصاعد من مكبر الصوت همسٌ رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدّم حالاً إلى بوابة المغادرة.

يتوجه المغادرون إلى الباب الدوّار وعلى الوجوه قلق لا يتجحون في إخفائه. آه هذه الدنيا التي أن الأوان لتوديعها!
تملّكها الاتي تملّك ساليب وفازقها الماضي فرائق سليلب (المتنبي)
بعضهم يجرون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهريبها إلى العالم الآخر. عبثاً، سيصدرها موظفون لا يقبلون رشوة ولا يستنون أحداً لشدة حرصهم على بقاء الحدود مغلقة بين العوالم وإلا اختلط الحابل بالنابل وضاعت طرافة كل عالم.
من مقعد شاغر ببهو انتظار المطار المترامي الأطراف أتابع الذين وصل طريقهم مثلي إلى آخر مفترقاته في هذا العالم.

كم أود أن أسألهم واحداً واحداً: هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حسبلتلك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم ملحدٌ مطمئنٌ لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر الراحة الأبدية والتجدد الأزلي؟ ما تقييمك للتجربة؟ أستقبل بالعودة لهذا العالم لو غرض عليك الأمر؟
على فكرة عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق إلى مقترق الوداع الأخير، هلاً أشبعت فضولي بالرد على سؤال تابعتني طوال الحياة دون أن أتجاسر على إلقائه يوماً على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل تشبه رحلتك؟ هذه قصتي، هل وجدت نفسك فيها وهل هي حقاً كما أردت. في التفاصيل سيرة ذات وفي الثوابت سيرة كل ذات؟ يعود الصوت الناعم إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرة بتخصيص يبدو مقصوداً وبنبرة تبخّرت منها محاولة الإغراء: الرجاء الآن من السيّد غريب التقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أو اصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفعل اللامبالاة محاولاً التركيز على آخر عملية تنظيم ملفاتي المبعثرة. يتجدد النداء بحدة تنم عن توتر عصبي ما زال في بدايته. المطلوب من المدعو غريب التقتم إلى بوابة رحيل القاعة رقم خمسة، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا. ثرى ما سبب عدم حضور المطلوب؟ ربما لا يزال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو يتسوق في المحلات التجارية المغفاة من الجمارك، أو أن المنبه لم يرن في غرفة النزل، أو أنه رن فهشمه بقبضة يد نافذة الصبر. ربما لم يكمل بحثه ولم ينته من تدبيح تقريره وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. برّيك أيّ تقرير جدّي يمكذك كتابته وهذا عالم تعبّره كغز يزور مدينةً سيلاحية مترلمية الأطراف بين طائرتين... عالم مثل فيلم ندخله بعد بداية العرض، يُطلب منا الخروج قبل نهايته ولا يُعطى لنا حتى الوقت الكافي لاكتشاف أحسن وضع للجلوس.

يقطع عليّ تسلسل الأفكار صوت لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا: يا غريب إن لم تتقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالاً فسترى ماذا سنفعل بك.
تفتّ فؤادك الأيام فناً وتحت جسمك الساعات نحتاً (الالبيري)
وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت من أريد أنتا
كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبكم، حتى والنداء يصبح صراخا هستيريا: آخر إنذار...

متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع مما كنتُ تُوَقِّع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحتُ في علاج أغلب أمراضى بالتجاهل، لكن ذلك النوع البليد من الأمراض لم يتبخر لمجرد اعلامه أنني غير معنيّ بأعراضه المزعجة. يصرخ الآن في المصدح نكّر يبينو أنه أخذ الملفت على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلعت روحنا، الله يطلع روحك. يضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص: من يصدّق أن هذا البليد صدّع الرووس بلشكوى من العالم ولم يفوت فرصة لثتمه. الكلب ابن الكلب، بعد نهاية الدوام الإداري سيعود هو وكم من غيبي آخر إلى بيته وأنا من سنقيضي ليلته الأولى في القبر.

كم مرّة يجب أن أرند لهم أنني بلحجة إلى وقت أطول للتأكد من صلاحية الرؤيا، ربما لإعدة بنائها على دعلمات مختلفة، فيهزون الأكتاف باستخفاف، بل ويصرخون في مكبر الصوت بقلة أدب: تعال يا روح أمك طلعت روحنا. مهما صرخوا لن أتحرّك من هذه الأريكة الوثيرة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصيا مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن وفي مثل هذا الموضوع.. نعم ما زال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الأدميين وقد حافظ جلمهم على أسرار مكنونة لم أتمكن من فهمها ربما لأنني لم أحبهم بما فيه الكفاية.

ينفجر الموظف المجهول بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة مخاطبا من يسمع:
أنه من قوم حاول نبيهم أن يُعلمهم أنه لا أكل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن
صاحبنا أكل كثيرا ولم يشبع إلى الآن. هو الآن مثلهم كلهم متمسك بأنيابه وأظفاره بخشب
الطاولة.

حقا أغدر الولىمة جانعا؟ كلا بلت من الحياة كل ما تقدر عليه الحياة من عطاء.
"طلبت القوة من الله (شاعر مجهول على الانترنت)

فأعطاني الصعوبات الأتقى

طلبت العلم

فأعطاني مشاكل للحل

طلبت الرخاء

فأعطاني عضلات للعمل

طلبت قدرة الطيران

فأعطاني عقبات لتسلفها

طلبت الحب فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي

طلبت امتيازات

فأعطاني مواهب

لم أحصل على أي شيء مما طلبت

لكنني تحصلت على كل ما أحتاج " .

صراخ متفاهم الحدة وبداية تجتمع حولي. من هذا الغبي المنتصب أمامي؟ الغبي المعني
بلشتمته، كائن من هيكل عظمي يحمل منجلا يربت به على كتفي: يا الله، أمامي يا
فخامة الدكتور الأستاذ الحاج الرئيس ولا داعي لإجبارنا على استعمال القوة.

تقول صارخا أنت الآخر: ألم نقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث
النوايا، لينة مشقوقة من بداية متداعية سينة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالأخرين.

كيف تريدي أن أخذك على محمل الجد؟

ما لكم كلكم ضدي هذا اليوم؟ وعلى كل حال متى كنت متوافقا دوما مع رأيي حتى
أطالب الآن بشيء كهذا؟

هنا أسلط عليك نظرة أنكلف فيها كل الممكن من البرودة عليها تثير فيك قشعريرة الرعب:
اسمع يا هذا، إن واصلت إزعاجي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، أنك
تردد في محافظك أنه إن تجاسر على المثول بين يديك فستطرده شر طرده تركله في
مؤخرته العظمية. أنذاك تنبر أمرك معه وحاول تكذيبني إن ترك لك الوقت.

كل هذا الكلام لا يؤخر ولا يقتم. علي الإسراع بتمام وصيتي والتأكد من خلوها من
الأغلاط.

وصية؟ يا مسكين هل نسيت كم من مواظ ذهبت أدراج الرياح والنتيجة حالة العالم الذي تغادر!

يتواصل الشدّ والجذب داخلي حتى في هذه اللحظة كما كان الأمر دوما طيلة الحياة. ماذا تعلمت أنا نفسي لأدعيّ تعليم من لم تعلمه الرحلة أهمّ ما يجب ان يعلم؟ بضعة أشياء هامة مثل أن العالم مُغامرة لم تقتر بعُد مسلاها ومرقأها لا مُعطى حُددت له خصائص ومهام منذ الأزل.. أنه لا قبرة ليدين، فلسفة، لعلم، على استفاد ثرائه الفاحش وحراكه المتفجر... أنه يجب استكشاف ما تيسر منه، القلب مفتوح على مصراعيه وكذلك العقل... أن أكبر خطر يتهددنا فيه تبكّد مزمن يُطفئ فيه جذوة الاعجب والعجب.. أن الرحلة ليست قافلة تجارة تنتهي بكشف الحسابات: قائمة الأرباح على عمود ، على العمود المقابل قائمة الخسائر... الفشل ليس ألا تتجح في تحقيق أحلامك وإنما أن تتخلى عنها.. لا النجاح هدف الرحلة ولا أي فشل مهما كان فشله... النجاح والفشل حالتان -أداتان- فرصتان لاستكشاف جزء قارّ وضروري من طيف تجربة الوجود لا أكثر من هذا ولا أقلّ...

طيب ليكن. بخصوص الوصية، سأعلقها على باب الرحيل على أمل أن ينبته لها أحد من القادمين الجدد.

لم يبق إلا الخطوة الأخيرة. نفس التهييب قبل الخطوة الأولى.

عشنا وجسر الموت قنمانا قشمر الآن لكي تعيره (المعزي)

الخيار بين ر واينين لما حدث لحظة عبور الجسر.

[الأولى التي يجب أن يكذبها تلامذتي باستنكار شديد] أنني نهضتُ من مقعدي خائفا مرتبكا، أنني أدتُ البصر باحثا عن مهرب، أن عزرائيلهم انتبه لمخططاتي البانسة، أنه رمى يده على عنقي أخذا بخناقِي، أنني أفلتُ منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه ملّ هذا العمل وسيطلب من ياقبه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجنبي من تحت الأريكة صارخا أه يا ظهري ، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنتُ أصبح طول الوقت: النظارات، النظارات، أمي امرأة فقيرة ستعلق باب غرفتها لتُخفي بكاء الغيظ والقهر، أنني وقد جروني جزا من تحت الأريكة قفزتُ على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقِي وأنا الممسك بخناقهِ، أن اللعين اكتشف الحلّ فركض بي نحو الباب الدوار وأنتي بقيتُ لحميلق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفض عن ظهره بقايا غباري مستعيذا بالله من هذا الرط من البشر.

[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس شغلهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعتُ إكمال كتابة الوصية ، مُصافحا عزرائيل بلامبالاة غير مفتعلة، أنني دعوتُه إلى المشي أمامي فقال بل تفضل فأنت المدعو الشرفي،

ففضلتُ قاصداً الباب الدوار بمشيتي العسكرية، أنّ المسكين ركض ورائي غير مُصدّق أنني لم أعضّه كما كان يتوقع، هو الذي صدّق مثل الكثيرين كلّ الإشاعات عني، أنني غافلتُه لألصق على باب الرحيل خلاصة الرُزيا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديراً ظهري لما مضى فاتحاً ذراعِي لما سيأتي.

يتوقّف الطبيب عن إنعاش عثي محققاً بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أيبالّت لشاعر فيلسوف أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسر أن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي نأثره، تتبّعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبرّر.

مستشفى! أي مستشفى؟ لن اقبل بالرحيل إلا من بيتي أو من حفل عشية يوم من أيام الربيع.

يختار الشيخُ الموفورُ للصحة موقعا مريحا وسط الأعشاب والأزهار. يستلقي على ظهره يتابع كما فعل دوما-مرح قطعان السحاب. ينتبه إلى شيخ شيخ منحني على الأرض يعدّ بمسحاته القصيرة الصحراء لوعد القمح إن جادت السماء يوما بالمطر.

يرفع الشيخ رأسه يجيل حوله البصر انتبهة لوجود الخيال الحبيب. يمسح جبيننا بلّله العرق ثم يعود إلى مسحاته يضرب بها الأرض ببالغ اللطف كأنه يخشى عليها من الوجد. ينتصب مجددا ينظر للذي يلاحقه بالنظر. يرفع يده مودعا ثم يخفي.

تأخذ سحب عابرة كل ألوان الورد تحضّر لمراسم الغروب. تضع لسماء نقاب الليل وتلمع في الأفق أولى النجوم. يتضح المعنى للطفل يوم كان وانقا أن سماء الليل سبورة الكون والنجوم أحرفُ الرسالة التي خطها له صديقه الله.

تندافع إلى سطح واعي متسارع الانحسار أقدم أحاسيس وأثمن مشاعر الرحلة... أصوات لخلخال وأساور أم تقترب... لذة المشي حافيا على رمل الصحراء عندما يأتي المساء... رائحة الأرض بعد المطر... نفحات الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت... لمن يتوجّه الطفل جارب تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشّيب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب... الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان! ... هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عيدها... كم وقف عند هذا الجبل من زُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّدلقاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينيسون بينت شفة... نعم نعم، في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار! What a wonderful world. ... ترى ماذا أضفقت قصتي إلى قصة العالم؟ أه ما الذي تضيف القطرة إلى المحيط... ما الذي تضيف حبة الرمل إلى الصحراء...؟ لا شيء تقريبا... لكن هل للمحيط كيان خارج القطرات التي تكونه... هل نمة صحراء دون حبات الرمل التي فيها... وهل للعالم قصة غير قصتي وكل ما عاش من القصص الأخرى؟

يُفضض الرجل عينيّن لن يعود لفتحهما وكل ذاته تسترجع الأثغام الساحرة التي ارتضاها آخر تنكاري قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب. تتداخل الأصوات وتفرق،

تعلو وتنخفض، تتسارع وتتباطأ فتذوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء. تصل موسيقى آدمي اسمه باخ ذروة الجمال والجلال والأدمية تتضرع إلى الرب بلهجة استعطاف الطفل لأبيه: Bleib bei uns.. بكأن الصدى نفسه هو الذي ينفخ بقوة في مندبله هامسا: وهل غادرتكم لحظة لتطالبوني بلأبى معكم! لم يبق على المرتحل غير تحين لحظة القفز فوق آخر نوطه عائدا لبيته وراء ستار الموت والمطية أجمل الأتعام.

يهمس شبح الجد المهيب: لا تخف، الجسم مهيا للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهل العبور.

الغريب العائد إلى وطنه الآن أمام باب مهيب يُفتح ببطء وجلال. على ماذا؟ على الفضاء الذي تتدخل فيه العوالم لا فرق بين التي تيلورت في الواقع والتي ما زالت أجنة في رحم الخيال.

تدافع الكائنات-المشاريع في كل الاتجاهات.

أه، أنت من كنت "ما"! ماذا؟ أتعبتك كثيرا، لست الوحيد، لست الوحيدة، لا أدري هل أخاطبك بالتأنيث أم بالتذكير وهل للأمر معنى "هنا"، على كل حال برفو، أحببت أداك... من رأى "أين في الناس"؟ أخذ ملفه للمهمة الجديدة غاضبا وشتم كل من سلم عليه بحرارة واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرة الغريب... أه، هذا أنت من لاعبني دور "ح"! لماذا لم ترد أو لم تردني على سوالي وأنا أضمك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد. ولو، والآن إلى أين؟ صعب عليّ فراقك برايت في مرآة ذلك أجمل صور ذاتي وأجمل صور الأمي، تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، نقترق في حلم. لم لا يكون لنا لقاء جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ أه، لا فائدة من تكرار نفس القصة. خلاص، اذهبي أو اذهب في حل سبيلك. رجاء لا تعد إلى التدخين ترد إنها سيجارتي الأخيرة... أه، هذا أنت، يا من كنت لي ابن الخال! ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيرن، غفرت لك لك كنت أول من بت في هليجس الموت، حظ سعيد في رحلتك المقبلة وذار من حصباء العوالم المجهولة... أنت "هنا"! كنت لظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ أه كنت تمثّل! طبعاً وأنا أيضا، كلنا كما نمثّل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كنت لاعبا ماهرا وخبيثا، أجبرتني على أن أسئل من أصعقي كل طفاقي لمواجهة ضرباتك الموجهة، وأنا أيضا أوجعتك كثيرا! شكرا على الشاء... وأنت، من أنت، لا أتذكرك؟ أه، المسكين الذي عرض عليّ الزميل أكل كبدك ونحن نشرحك؟ كنت تسمعنا!... حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركتك تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخبيث ظنك لما فررت أغلب الغثيان! يا خروف سابقا، أولا لم يكن معي مال كاذب لشرايك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنت تريدني أن أفعل بكمشة خرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهام!... على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على طريبتك، أن تنقض عليها نمرا من خلف

الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضا وأنت الغزال الذي يتنفس في عنقه الأسود، أمر مفهوم، لكن ما الذي دهاك لتجرب شيئا بغياء الوجود خروفا؟ أه، لم يكن ذلك مشروعك الأخرق الوحيد، سأفتعل عدم فهم التلميح... تنتهد أن الوجود لم يكن أسهل في أي من عوالمك الأخرى لكنك ستواصل التجربة حتى بالشطط في ثمنها لِملاحم أكثر إثرة وخطرا... موافق، موافق، موافق، خاصة أكثرها خطرا، لا شيء أحب لدي من الأخطار... بالمناسبة تهاني الحرارة وأنت-أنا-هم كلنا تلك السلخفة المولودة الجديدة تركض نحو البحر والطيور الجائعة تنفض عليك لتخطف حياة في أولى بداياتها. يا ما أظهرت ما أظهرنا من شجاعة تلك الليلة ثم بقية العمر وأنت -أنا نحن نصرع محيطا كاملا للبقاء... أنجح أدوارك-ادواهم -ادوارنا على الإطلاق... ماذا عن مغامرتي-مغامرتك-مغامرتنا المقبلة؟ الأمر لما توجد به شطحات الخيال وعطليا المفاجأة، موافق، موافق.

حانت اللحظة القدسية التي تتفكك فيها النصوص إلى الحروف الأولى، التي تتفكك فيها السمفونيات إلى الأصوات والصمت، اللحظة القدسية التي تُعيد فيها اليد الخفية خلط الأوراق ليتخذ الهياك أشكالا لم توجد من قبل، لتتنظم الحروف في نصوص تجدد القصص، لتتجمع الأصوات في أصناف من الموسيقى لم تعرف سحرها ذات.

اكتملت الرحلة والذات بلوجود نالت كل شيء. اكتملت لا بفك كل الأسرار وإنما بالنوبان فيها.

يتسارع التوغل في أعماق ذاتٍ بصند إطفاء الأنوار داخلها. شيئا فشيئا تخفت أصوات قطرات مطر يرتطم بزجاج النافذة.

يتوقف عازف البيانو عن النقر. يبهث تدريجيا بريق النجوم. تتلاشى ابتسامة خجولة من الأفق. يتعمق صمت لصحراء. تنحسر الأوجاع والمخاوف بهدوء كالأموح لما يأتيها الأمر من القمر. انتهى العالم من جمع أشيائه وكل أنوات الإغراء.

دمعة حارقة تسيل على خدٍ سيسكنه إلى الأبد الصقيع، تنزفها أصعب بنت على أصعب أب. لم نعد بحاجة للمشي على خدٍ والحبيب لا يشاء إلا ما شاء المحبوب، والمحبيب لا يشاء إلا ما شاء الحبيب.

يزداد استرخاء شيخ به الآن شبه نغد صبر من يعرف أنه في آخر خطوة لملاقاة الموعود.

الانتباه الآن على أقصاه. فجأة يستأنف الشيخ ذلك الحلم الذي توقف ليلة تسلفه وهو في سنواته الأولى سلما سحريا يروم به وصول القمر والتسلل عبره لما وراء ستار الصمت والنجوم والليل. ألم يكن وحده الممرك أنه الكوة البراقة التي تفتح على عرش فخم يجلس عليه شيخ جبار كان على ثقة أنه سيحضره، أنه سيأتي له كل أمانيه، أنه يستجيب لكل صلوات أمه. أخيرا ورحلته شارفت نهايتها يستطيع الحالم حشر جسمه في هالة النور لتعقد الدهشة لسانه. هو الآن وسط فضاء لا يحده أفق تتلأأ في كل أرجائه أنوار تسمع

وتتطفئ، تيرق وتخفت، تتجمع وتتطاير كشرار الألعاب النارية. إنها أنوار كل الكائنات التي ارتطمت، التي تتأهب للرحيل... وكلها تتبيض وعيا وشعورا، ارادة ونكاه. داخل الذات الراضية المطمئنة للشيخ-الطفل ثقة مطلقة أنه رجع أخيرا إلى مسقط رأسه، إلى الوطن الذي لا غربة فيه، إلى ابن تشوقت ذاته دوما للرجوع... إنه أمام العرش. الذات الآن كقطرة عذرت السماء سحبها عرفت وقع السقوط على الأرض، ارتطمت داخل زخم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط لتضيق وتتجدد في أوسع ذات، في الذات الأوسع.

نعم، إنا لله وإليه راجعون.

افتحي باب شساعتك يا عثمة، إنني جاهز ويا قوى الدمار ترققي بناتني التي أترك، ويا قوى التوازن والتعافي اعطيها شجاعة المواصلة إلى أبعد نقطة على الطريق. يدخل البحار في إغفاءة تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر. ثم ينتبه لعودة المدّ انتهى جزر الزمن.

“ما أن جذبت كفني على عيني (هليكو من الكاتب مهدي لروح لبيسا)
حتى تصاعد صراخي من ألف حنجرة
وأنا/أنت كل مولود جديد”

**

عالم الأدميين، 350.000 جيلا بعد طوماني، 78 حولاً بعد هيروشيفا
اليوم 28470 من الرحلة

معلّقة باب الرحيل

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
الذات شكل-حالة-لحظة من العالم،
العالم شكل-حالة-لحظة من "الشيء"،
"الشيء" هو كل شيء، كل شيء هو "الشيء"،
مثل "الشيء" كمثل نوحَة ولادة يُبلى الزمان ولا يُبلى،
ثمّارها كل الموجود من كائنات-عوالم،
تملّ، فطر، طير، حوت، شجر، بشر،
فيض من المخلوقات، تتبارى غرابة وعجازا،
تتسوى قداسة اتحد فيها المخلوق والخالق،
أمامها تُحنى الهامات تهيّبا واحتراما،
و "الشيء" كالفتان في أوج الخلق، كلطفل في غمرة اللّعب،
يستكشف عبرها الطيف الأمتهاهي لإمكانيات الوجود.

هكذا بلور من وحي ابداعه عالم السراب هذا،
سبّ الأحرار فيه إلا وهو صراغ متعاضد الأضداد،
ألا سكنوا إلا استعدادا للكرّ والقرّ،
البناء والهدم من الأزل، الدمار والإعمار إلى الأزل،
لا مجال للنظام بون الخواء، للحياة دون الموت،
للسلام دون الحرب، للمتعة دون الألم،
عالم مرعب مبهر لا حدود لقسوته، لا نفاذ لعطاياه،
لكلّ فيه أكلّ وماكول، الكّلّ فريسة وصياد،
على أسوأ وضع ودواليبه تصرخ بالأمّ النقص والخلل.
على أحسن حال ودواليبه الصامته تعذلّ كل عيب بنكاء عجيب.
على الدوام جحيمٌ وسط الجنة، جنةٌ وسط الجحيم،
عيبٌ مطلّبه بما ليس من طبيعته أو من إرادته.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والممل،
والأدمية الفاعل، للمفعول بها والفعل،
يتبلور "الشيء" في الأفرد، في الشعوب في الأمم،
مغامرا أزليا لا يصنعه طريق لا يجذبه مرقاً
مستكشفا جيلا بعد جيل، رحلة بعد رحلة،
من الأساسيس، من المشاعر، من الأفكار، من الأعمال،
ما لم يُعش في كل عوالمه العجيبة الأخرى،
سنيان عنده السعادة والشقاء، النجاح والفشل،
كلها تجاربه على ذاته تمضي كالكاويس تنّتي كالخلم،
وفيك كما لو كنت محاولته الأولى،
كما لو كنت رهائه الأخير،
يواصل سير أحوار خلو ومزّ الوجود إنسانا.

الإنسان شيء كلاً شيء لأنه الجزء في الكلّ،
الإنسان شيء ليس كمثله شيء لأنه الكلّ في الجزء،

لا سبب للوجود إلا الوجود، لا غاية للرحلة إلا المرحلة،
عبث البحث لهما عن معنى، عن منفعة أو عن هدف،
الموت تفكيك القديم لتكريب الجديد بنفس اللبانات،
عند هذا المنعطف من طريق لا تعرف له بداية أو نهاية،
انصرف بلا ندم على ما مضى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتممت مهمتك توجت هامتك بإكليل الغار أو بإكليل الشوك
كيف لا وقد كنت تجربة فريدة لا تشبه تجربة أخرى،
كيف ولا وقد أوجدت عالما بأسره،
ارتحللت بين أهاله وروانعه،
وأنت شيء من "الشيء" يمشي على قدمين.
**